



د. مولاي علي سليمان
أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القادسية مولاي سليمان بنو مائل المغرب

للباحث الأكاديمي المغربي الدكتور محمد بازي مشروع علمي طموح في البلاغة والتأويل، وقد أعلن منذ البداية أن تصوره لنظريته التأويلية عربي أصيل، جاس خلاله ديار التأويل في الثقافة العربية من خلال خطاب التفسير والخطاب الشارح، وغيرهما من الخطابات التي استنبتها العقل العربي على أرضه إن المطلع على جهود الباحث التأويلية يدرك أصالة هذا المشروع التأويلي العربي، لأنه قد أرسى دعائمه من خلال إدراكه الوعي للخط التأويلي الذي سطره المؤولون والمفسرون والشارح، فاستقى بقراءته للتبصرة للتراث التأويلي العربي جهازا متكاملا من المفاهيم، وإطارا نظريا، وتصورا دقيقا لعالم هذه النظرية، بعد التيش في الأنساق العميقة للخطاب بهذا النحو من التفكير الريح يسمو النظر البلاغي عند الباحث محمد بازي ليرتقي بالدوال اللغوية من عجز النظر إلى فسحة البصر، من إدراك الة الحياة إلى الفوص في حياة الالة، من فهم الحركة إلى حركية الفهم، من التنسّل بالجمود إلى التوقل في الوجود، إنها بعبارة الباحث، الانتقال من بلاغة السؤال إلى فلسفة الوجود الال- ومن رفقه بالبلاغة أن أخرجها من ضيق التصنيف إلى رحابة التوصيف، من صرامة الحدود إلى بلاغة الوجود، من النسق التعليمي المضيق إلى النسق الحضاري الإنساني الموسع، ونظرا لما لهذا المشروع العلمي الرصين من صدى طيب في صفوف المهتمين من الباحثين، ومن أثر بليغ في نقوسنا، فقد جعلناه لطلبنا إمامهم ومأمهم في القراءة والتأويل خاصة في إنجاز بحوثهم الجامعية، ثم ارتأينا أن نحتفي بهذا المشروع العلمي وبصاحبه الباحث الدكتور محمد بازي، للنظر فيه، ومناقشته، ومساءلته مساهلة علمية تزيد الباحث حضرا لفتح ما لم يفتح بعد من خراطم البلاغة وتخوم التأويل، فكان هذا الكتاب.

تقديم وتنسيق
د. مولاي علي سليمان



من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال

أبحاث محكمة في المشروع المعرفي
للباحث الأكاديمي المغربي الدكتور محمد بازي



تقديم وتنسيق
د. مولاي علي سليمان



من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال

د. مولاي علي سليمان



أبحاث اليوم الدراسي الذي نظمه ماستر النقد وآليات اشتغاله

بتعاون مع مختبر اللغة العربية وتحليل الخطاب

بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال

من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال

نحو نموذج تأويلي لتجديد الدرس البلاغي

أبحاث محكمة حول المشروع المعرفي للباحث

المغربي / الدكتور محمد بازي

كتاب جماعي

تقديم وتنسيق: مولاي علي سليمان

الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

اسم الكتاب: من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال

تقديم وتنسيق: مولاي علي سليمان

المقاس: ٢٤ X ١٧

اسم الناشر: دار النابغة للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: ٢٠٢١/١٧٠٥٨

الترقيم الدولي: ٩٧٨/٩٧٧/٧٩٩/٣٧١/٥

حقوق الطبع محفوظة للناشر

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى شكل من الأشكال أو حفظه أو نسخه فى أى نظام ميكانيكى أو إلكترونى يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أى لغة أخرى إلا بعد الحصول على إذن خطى مسبق من الناشر.

الكتاب يعبر عن رأي مؤلفه ولا يعبر بالضرورة عن رأي دار النابغة

دار النابغة للنشر والتوزيع

طنطا - سبرياي - أمام مجمع كليات جامعة طنطا
ت: ٠٠٢٠٤٠٣٤٥١٣٥١ - ٠٠٢٠١٠٦٤١٠٤٥٦١

darelnapegha@yahoo.com



من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال

(نحو نموذج تأويلي لتجديد الدرس البلاغي)

أبحاث محكمة حول المشروع المعرفي

للباحث المغربي / الدكتور محمد بازي

تقديم وتنسيق:

مولاي علي سليمان

اللجنة العلمية:

د. محمد بازي - د. مولاي إدريس ميموني - د. محمد أزهرى

- دة. رشيدة زغواني - د. مصطفى عقلي

د. مولاي علي سليمانى

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ

تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

التوبة: ١٢٩

شكر وتقدير:

أثقدم بالشكر الجزيل للطاقم البيداغوجي لماستر النقد وآليات اشتغاله، كل باسمه وصفته، وكذا لمدير مختبر اللغة العربية وتحليل الخطاب الأستاذ الدكتور مولاي إدريس ميموني، وكذا لزملائي الأساتذة أعضاء المختبر، ولكل من أسهم - إدارة وأساتذة وطلبة - في إنجاح فعاليات الأنشطة العلمية التي نظمها برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة السلطان مولاي سليمان خاصة السيد العميد الدكتور يحيى الخالقي وطاقمه الإداري.

ولا يفوتني أن أنوه بالحضور العلمي الوازن للمحتفى به، الباحث والأكاديمي الدكتور محمد بازي المتخصص في التأويلية وعلوم الخطاب.

مولاي علي سليمان

منسق ماستر النقد وآليات اشتغاله

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال

كلمة المختبر

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف مبعوث للعالمين
وبعد، منذ أن أسس مختبر اللغة العربية وتحليل الخطاب، وهو يعمل جاهدا على
تحقيق مشروع علمي رصين، يقوده ثلة من الأساتذة الفضلاء، والأستاذات
الفضليات، بمعية طلبة باحثين وطالبات، همهم الوحيد هو العمل على تنفيذ برنامج
علمي يقوم على أساس الجدوية في العمل، والجدوة في البحوث، من خلال تنظيم ندوات
علمية دولية ووطنية، وكذا استضافة أساتذة أجلاء لإلقاء محاضرات علمية، تفتح فيها
حوارات ومناقشات بين الطلبة والأساتذة المحاضرين، يستفيد من زبدها طلبة
الدكتوراه، وغيرهم من الباحثين المنقبين عن الأفكار وجديد المعارف، ليغنوا بها
بحوثهم ومعارفهم العلمية والتربوية.

ولعل العمل الذي نحن بصده في هذه الكلمة المختصرة، من جملة ما أفضى إليه
التعاون المنجز بين المختبر وباقي التكوينات المنتسبة له في الماستر والدكتوراه، بإشراف
أعضاء المختبر عليها تأطيرا وتكويناً وإشرافاً.

ويقصد هذا العمل المنجز من لدن ماستر النقد وآليات اشتغاله، بإشراف الأستاذ
الدكتور مولاي علي سلياني، عضو المختبر ومنسق هذا العمل العلمي، إلى أن يكون إسهاماً
نوعياً لأخص دراسة علمية تتأسس على الفهم التساندي للقضايا والنصوص، على اعتبار ما
لهذه الرؤية من دقة في تصور الخطاب، وشمول في تناوله، ونجاعة في ضبطه.

راجين من العلي القدير، أن يجزيه الجزاء الأوفى بإشرافه القيم على هذا البحث
العلمي القيم، الذي أسهم فيه ثلة من الأساتذة والباحثين، ببحوث علمية رصينة
سيكون لها من الآثار الطيبة في الباحثين والبحث العلمي ما يجعلها تستحق النشر
والذبوع بينهم والاستفادة منها.

وصلى الله على سيدنا محمد في الأولين والآخرين والحمد لله رب العالمين.

إدريس ميموني

مدير مختبر اللغة العربية وتحليل الخطاب

تقديم:

للباحث الأكاديمي المغربي الدكتور محمد بازي مشروع علمي طموح في البلاغة والتأويل، وقد أعلن منذ البداية أن تصوره لنظريته التأويلية عربي أصيل، جاس خلاله ديار التأويل في الثقافة العربية من خلال خطاب التفسير والخطاب الشارح، وغيرهما من الخطابات التي استنبتها العقل العربي على أرضه، خاصة تلك التي تسلحت، ما استطاعت، بنور الفهم وانتبذت ظلمة الوهم.

إن المطلع على جهود الباحث التأويلية يدرك أصالة هذا المشروع التأويلي العربي، لأنه قد أرسى دعائمه من خلال إدراكه الواعي للخط التأويلي الذي سطره المؤولون والمفسرون والشارح، فاستقى بقرائه المتبصرة للتراث التأويلي العربي جهازا متكاملا من المفاهيم، وإطارا نظريا، وتصورا دقيقا لمعالم هذه النظرية، بعد النبش في الأنساق العميقة للخطاب.

ومما أعطى لهذا المشروع التأويلي القائم على التساند والتقابل قوته العلمية والمنهجية، قيامه على ثنائية: الارتداد والامتداد، حيث لم ينغلق الباحث في النسق التأويلي العربي فقط، بل انفتح على جهود الغربيين في التأويل وعلوم الخطاب. وعلى ما للباحث الدكتور محمد بازي من انفتاح على الثقافة الغربية إلا أن ثقافته العربية الإسلامية أمتته من أي زيغ أو انحراف في التأويل، لأنه امتلك رؤية واعية حول البلاغة العربية، إذ بها يكون البلوغ إلى درر المعنى وجواهر الخطاب، وبها تتحول علوم الآلات إلى علوم مآلات.

بهذا النحو من التفكير الرحب يسمو النظر البلاغي عند الباحث محمد بازي ليرتقي بالدوال اللغوية من عجز النظر إلى فسحة البصر، من إدراك آلة الحياة إلى الغوص في حياة الآلة، من فهم الحركة إلى حركية الفهم، من التسفُّل بالجمود إلى التوقُّل في الوجود، إنها بعبارة الباحث: الانتقال من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال...
... الدال...

ومن رفقه بالبلاغة أنه أخرجها من ضيق التصنيف إلى رحابة التوصيف، من صرامة الحدود إلى بلاغة الوجود، من النسق التعليمي المضيق إلى النسق الحضاري الإنساني الموسع.

لقد كان السفر ماتعا في هذا المشروع العلمي الوارف الظلال، الوافر الغلال، الداني القطاف، العَمَر بالتأويل والاشتفاف. فمن نظرية التأويلية العربية - التي أقام بنيانها على التساند والتطالب لقراءة الخطاب وفهمه - إلى نظرية التأويل التقابلي وما سبقها من جهد علمي مشهود سابق - كما في "تقابلات النص وبلاغة الخطاب" - أو لاحق كما في "البنى التقابلية".

ولقد كان كتاب "البنى الاستعارية" صرخة علمية كسر من خلالها الباحث طوق الاستعارة التعليمية الضيقة، فخرج بها إلى حيث الانطلاق والامتداد والرحابة والتوسع...

ونظرا لما لهذا المشروع العلمي الرصين من صدى طيب في صفوف المهتمين من الباحثين، ومن أثر بليغ في نفوسنا، فقد جعلته لطلبتي إمامهم وأمهم في القراءة والتأويل خاصة في إنجاز بحوثهم الجامعية، ثم ارتأينا أن نحتفي بهذا المشروع العلمي وبصاحبه الباحث الدكتور محمد بازي، للنظر فيه، ومناقشته، ومساءلته مساءلة علمية تزيد الباحث حفزا لفتح ما لم يفتح بعد من خرائط البلاغة ونخوم التأويل.

وقد يسر الله ما كنا نطمح إليه، فنظم ماستر النقد وآليات اشتغاله الذي نشرف عليه - بمباركة عميد الكلية السابق الدكتور يحيى الخالقي مشكورا - وبتعاون مع مختبر اللغة العربية وتحليل الخطاب يوما دراسيا مشهودا يوم ٢٧ دجنبر ٢٠١٨ برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة السلطان مولاي سليمان ببني ملال.

وقد اخترنا لهذا اليوم موضوعا اشتغلنا فيه على المشروع العلمي للباحث المغربي محمد بازي، أسهم في فعالياته مجموعة من الباحثين المتمين لماستر النقد وآليات

اشتغاله، فضلا عن باحثين آخرين ممن فعل فيهم مشروع الدكتور بازي فعل غيث في تربة كريمة ازيتت بالورد والنرد، وتعطرت بالزهر والشيخ، فانتشت الروح بطيب الريح، فكذلك كان أثر المشروع في الباحثين الذين اهتزت عقولهم، وربت أفكارهم، فأثبتت قراءات ناقدة، طلع ساقها، واستوت على سوقها، فتناولت كل قراءة جزءا من المشروع العلمي للدكتور محمد بازي.

لا يخفى، إذن، ما لهذا المشروع من امتدادات في أوساط الباحثين، لذلك -وتعميما للفائدة- ارتأينا نشر هذه الأبحاث في سفر جامع خدمة لهذا المشروع العلمي وتنويرا للباحثين.

نرجو من الله القبول.

د. مولاي علي سليمان

بني ملال ١٦ أبريل ٢٠١٩

إِسْتِهْلَالٌ

"ما النُّصُوصُ إِلَّا فُهُومٌ لِلْكَوْنِ الْبَلِيغِ عَبْرَ سَلَامِ اللَّغَةِ الْمُتَقَابِلَةِ، ثُمَّ اسْتَوَتْ فِي كَيْنُونَةِ الْفُهَامِ وَخَرَائِطِ الْأَرْوَاحِ.. وَإِذْ يُصْبِحُ التَّقَابِلُ حَيْطًا فِي إِبْرَةِ التَّأْوِيلِ، تَصِيرُ الرُّؤْيَا وَالْفَهْمُ مُطَرِّزِينَ بِلَوْنِهِ. سَنُنصِتُ فِي رِحَابِ الْكَوْنِ الْمُتَقَابِلِ لَصَرِيفِ أَقْلَامِ التَّأْوِيلِ عَلَى أَلْوَابِ النُّصُوصِ، وَصَرِيرِ مَفَاتِيحِ الْمَعْنَى فِي أَقْفَالِ الْبَلَاغَاتِ الْقَدِيمَةِ..."^(١)

مُحَمَّدَ بَازِي

(١) - بازِي محمد، "نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب"، منشورات الاختلاف: الجزائر/ منشورات ضفاف: بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م، ص.٥.

أنموذجُ القارئِ البليغِ
من بلاغةِ الدوالِ إلى فلسفةِ الوجودِ الدالِّ
محمد بازي

تقديم:

تنطلق فلسفة القارئ البليغ من تحديات علمية قوية تروم قيادة تغيير حقيقي في مجال الفهم وتحليل الخطابات، وبشكل موسع في عوالم فلسفة الوجود البليغ؛ إنه مشروع معرفي ظل ينمو بروية وتأن، توجهه أسئلة مدققة، وتحليلات استقرائية معمقة للخطابات تستهدف فهم أنساقها، تستند إلى مؤشرات وعلامات، وتجتهد مُتَفَقِّدَةً معايير الانسجام، وملاءمة التحققات للرهانات والمنطلقات.

حاول مشروع القارئ البليغ المَزَجَ بين التنظير والتطبيق، بين تأصيل المفاهيم الأساس، والانفتاح على الفكر الحديث في دعوته إلى بناء الإنسان بالخطاب، وبناء الخطاب بالإنسان الذي يحمل رؤيةً للوجود متناغمةً مع حقيقة الوجود نفسه، ورسالةً تستوحي روح المعاني الإصلاحية والتنويرية والتخليقية. ومثل أي تفكير بالمشروع في المجال الفكري أو الفلسفي، فإن الاشتغال به ما فتى يتعقب نداء المنجزات بتغير السياقات الزمنية، وتفاعل المقصودين به مما يقدمه من رؤى وتصورات وأدوات ومكاسب منهجية ورهانات.

ولأن التغير والتطور من سمات الوضع الاعتباري للقارئ البليغ، فقد اخترنا مفهوم "الأنموذج" عنواناً له بدل "النموذج"، فالنموذج مثلاً الشيء، ويعني الثبات على صفات معينة وشكل نمطي واحد؛ أما الأنموذج فهو متحرك العناصر، متنامٍ بالاستبدال، ويحمل رؤيةً فلسفيةً خاصةً للعالم والقيم، ورسالة داعيةً إلى الاجتهاد، وعدم التوقف عند نقد المنجزات.

حاول أُنموذج القارئ البليغ أن يجترح مفاهيمَ جديدةً واستراتيجياتٍ ملائمةً، وتحويل وجودها من القوة إلى الفعل، مستعينا في ذلك بنماذجٍ علميةٍ أو عمليّةٍ سابقة؛ فالأُنموذج رؤية للعالم، والنموذج مثالٌ لأداةٍ أو منوالٍ منهجيٍّ أو ماديٍّ أو تقنيٍّ ثابتٍ يخدم رفاهية الإنسان ويحقق حاجاته، ولا تعارض في ذلك.

ومع هذا، فإن أي طرح نظري في مجال فلسفة التأويل يظل بحاجة إلى مراجعة وتأمّل دائمين، وإلى انخراط تصورات داعمة تعمل على التعديل والتصحيح والإغناء، وقد صارت التصورات التي اقترحنا بين أيدي الباحثين منذ سنوات، وسارت في كل الآفاق. نطمح أن يُعامل ما قدّمنا على أنه بداية مشروع تأويلي مفتوح أمام العقل الإنساني المُطوّر والمجدد، الشغوف بالأسئلة المعرفية وتقليب النظر، والباحث عن التجاوز دون التّكسر لمنجزات القدامى، المتفاعل مع مستجدات المعارف والعلوم في زمننا في بعدها التكاملي والتفاعلي، لكن دون تبعية مطلقة للثانية، ودون تقديس للأولى؛ فالتمسك بمنظورنا للعالم والكون وفق الحقائق التي نؤمن بها عن وجودنا هي قوام أُنموذج القارئ الثقافي البليغ الذي نحفل به.

تحمل هذه المقدمة المختصرة مبادئ اشتغالنا الممتد منذ ثلاثة عقود في بناء المحفل الاعتبّاري للقارئ البليغ، وقد حدّدنا موضوعه بعنوان فرعي دقيق: "من بلاغة الدّوال إلى فلسفة الوجود الدّال" رفعا لكل لبّس، إنه يبين مسار الانطلاق من تأصيل تأويلية بليغة تستند إلى دوال النص باعتباره حاملا لغويا للخطاب وفق ما تقتضيه السياقات الخارجية والمساقات الداخلية، واستناده إلى منجزات علوم الآلة وعلوم القرآن وعلوم الفهم، كما يقدم صورة عن الانتقال الفلسفي إلى محفل القارئ الوجودي البليغ، فلا بلاغة - وفق هذا المنظور - بالعلوم وحدها مهما تطورت واكتملت، وإنما البلاغة الكاملة الكبرى هي تحقيق معاني المقاصد من الوجود، وتحويل تلك المعاني إلى اتّصافات عملية.

- أنساق ونماذج

تحكمت في صياغة أنموذج القاريء البليغ الأسئلة التالية:

-السؤال الفلسفي الوجودي: ومقتضاه جعل الفهم المقبول العالم من الأولويات الكبرى لبناء الإنسان وحضارته.

-السؤال العلمي: وصيغته: كيف تتحقق عند القاريء بلاغة تأويلية كما تحققت عند منتج الخطاب البليغ بلاغة إنتاجية؟ ويتفرع إلى أسئلة كثيرة، وإشكاليات تتعلق بصناعة الخطاب، وصناعة خطاب التأويل.

السؤال التربوي: وموضوعه: "مَنْ" يُدَرَّب "مَنْ" في مجال تربية العقول الناشئة

على الفهم المقبول؟ وَمَنْ يُقَوِّم منهجيات الفهم والتأويل؟ وبأي معايير؟

وكان نتاج الجواب عن هذه الأسئلة لحد الآن تقديم الأنساق الآتية:

- نسق أنموذج القاريء البليغ بالتَّسَانَد والتَّطَالُب.

- نسق أنموذج القاريء البليغ بالتقريب بين المعاني بمنظور التَّقَابُل.

- نسق أنموذج القاريء البليغ القائم على التَّنَاسُج والتَّعَاوُر.

- نسق أنموذج القاريء البليغ بالوجود البليغ والفكر المُنَاوِر.

يجمع بين هذه الأنساق بحث فلسفي عن تمكين الإنسان المستقبلي من أدوات

المعنى لتحقيق خطاب بليغ، وتأويل بليغ، ووجود بليغ يتناغم مع الرؤية القرآنية،

ومع فلسفة الوجود في الخطاب النبوي. ولو تأنَّى المتأمل الباحث عن الحق متفكرا

لوجد أن كثيرا من العلوم الحديثة والاهتمامات المعرفية تسعى إلى هذا الأمر دون

علمها بمعاني الشارع ومقاصده؛ فلا اختلاف في الهدف الذي هو إصلاح الكون

وتعميره بالعدل، وتنمية الإنسان وحفظ دينه وعقله وماله وعرضه؛ إنه أمر يشجع

حقًا على إمكانية استثمار كل الفكر الإنساني البَنَاء للالتقاء في فكرة الإنسان البليغ

المؤمن بوجود بليغ.

- تلقيات ومقامات

ليس ما ذكرنا إلا مقدماتٍ لطرح الأسئلة الحقيقية عن العقل الإسلامي العربي المنتج، وكيف أمكنه أن ينتج فكرا تأويليا يناسب الحقائق المعرفية التراثية والوجودية التي حكمته تاريخيا وثقافيا وعلميا ودينيا، وأن يعالجها وفق ما لديه من أسئلة وأدوات وعلوم، وكيف يمكن استثمار مدوناته لتقديم إجابات بليغة عن الإشكاليات الفلسفية والدينية والنقدية التي يطرحها تداول الخطاب في زمننا وبعده، وأن لا يظل تابعا لاهثا مرددا لما أنجزه غيرنا.

والناظر المتمعن في تلك الأسئلة الحارقة، وما أفضت إليه من الإجابات

مقامات:

- مقام الناظر البليغ المتفاعل المتفهم والمساند.

- مقام الناظر البليغ المقترح والناقد.

- مقام الناظر البليغ المُمثِّل المطبَّق والمساعد.

- مقام الناظر المتعال المتفقد والمعاند.

- مقام الناظر المتسرع المتكبر والمتباعد.

- مقام الناظر المنصت المتتبع المتجاهل والجاحد.

أفضل من هذه المقامات بالأول والثاني والثالث؛ الأول لأنه مشجع متفهم للأسس المعرفية ولصعوبة الاقتراح في مجال النمذجة، فهو يسندني في الجراءة على الاقتراح، ولا يُعنى بمضمون الاجتهاد ومحصلات التنظير بقدر ما يُعنى بالاجتهاد نفسه والإقدام عليه. والثاني: أحب عندي لأنه بليغ متفهم لما قُدِّم، ينتقد بالمعرفة الحقة، ويسعى جاهدا كي يصوب الاعوجاج، ويدعم الطروحات، ويقوي الفكر، فيكون عمله جديرا بالشكر والتقدير. وأما الثالث، فلا يطرق باب النقاش الفلسفي النظري، لكنه معجب بالتطبيق، متذوق جيد للثمار، وهو يعمل جاهدا كي ينتفع بها يُقترح عليه، أو ينفع من له صلة تعليمية به.

أنموذج القاريء البليغ من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال

وأما بقية المقامات فلا يعنيني من أمرها شيء، فأمرها موكول إلى المقام الذي وضعت نفسها فيه. ومع كل ذلك لا أبادل الخمول والتوقع والتحجر بالإهمال، ولا أستهين بخواء الانفعال، فالجواب في بناء المعرفة ابن بار بالسؤال .
حرصت في بناء مفهوم القارئ البليغ على الجمع بين أمرين:
- تحقيق المعرفة العالمية التي ترقى بالمعنى إلى مقام المقبولية والانسجام والملاءمة.
- ربطُ بناء المعنى ببناء الوجود الإنساني الدال.
وكان ذلك على مراحل:

الأولى: حاولت فيها تفقد التأويلية التراثية بتحليل خطابها، وإعادة بناء أنساق الفهم العاملة فيها وبيانها.

الثانية: خصصتها لطرح النماذج التالية: التساندية والتطالبية والتقابلية والاستعارية لإيجاد مداخل مناسبة لتحليل الخطاب وبناء معناه.

الثالثة: حاولت فيها البرهنة على أن أي مشروع تأويلي نقدي فكري لا يستهدف بناء حقيقة الوجود على الأرض، ولا يستحضرها في نقاشه، فهو مشروع لا يُعَوَّلُ عليه، فهو نسبي، قلق، متجاوز، محدود، ولا يمكن الاطمئنان فيه ولا إليه، لأن ما يقدمه لا يتناغم مع الحقيقة الوجودية القرآنية الواضحة بشأن الأصل والحال والمآل.

- المشترك الإنساني في مطلب الكمال

لقد أنتجت المعرفة التأويلية نظريات وفلسفات ورؤى ومناهج لها أهميتها العلمية والفكرية في دراسة النصوص والخطابات، وبقدر ما حملت قوتها في ما ادّعت، وبما برهنت به، فهي تحمل ضعفها. وأي مشروع فلسفي نظري فكري لا يستند في رؤيته إلى بلاغة الوجود الحقة بالمعرفة المأصولة بالشرعية، وبكل العلوم الناشئة في حضنها، مآله في تصور التأويلية الوجودية البليغة إلى الأفق المغلق المسدود، فأى شيء أكبر من الإنسان وأكرم منه، وقد مكَّنه الخالق من كل المواهب والقدرات والأدوات كي يحقق وجودا جميلا على الأرض بالبلاغة والبيان والخطاب، وتفعيل الخطاب المبين، ثم يتوسل بذلك إلى بلوغ مقام الرضوان الذي ارتضاه له خالقه؟!!

تبعاً لهذه الاعترافات، فإن فكرة القارئ البليغ هي فكرة كل الناس لو دققنا النظر، أسئلة حقيقية يحملها كل واحد منهم عن مواصفات القارئ البليغ وما يتعلق به: كيف أكون قارئاً بليغاً؟ وكيف أكون مؤزلاً بليغاً؟ كيف أبني لنفسي وجوداً بليغاً؟ ولا بلوغ ولا بلاغة إلا من جهات أربعة:

- الأولى: تحصيل ملكات القارئ البليغ الذهنية والنفسية والتفاعلية.
- الثانية: تحقيق علم الفهم البليغ، وما يقتضيه ذلك من جهد الاستقصاء والاستكشاف الدائم، والعودة إلى مصادر المعرفة مع تملكٍ منهاجها.
- الثالثة: تحقيق صفة القارئ البليغ علمياً وأتصافاً، لإيماننا الراسخ بأن لا معرفة على الحقيقة إلا بإقران العلم بالعمل.
- الرابعة: تحقيق محمول المعاني التي توجهت للإنسان في أفعال تُظهر الأنموذج الإنساني الذي خُلق من أجل تفعيله على الأرض.

عملنا في كتاباتنا الأخيرة على إخراج البلاغة من دوائرها العلمية الضيقة إلى دوائر الحياة الوجودية، من النسق العلمي المغلق إلى النسق الوجودي المفتوح، بكل ما يحتاجه من علوم وأخلاق وفلسفة ومقاصد وكد وعمل وطاقة روحية. وقد سعينا في كل ذلك أن نبين حدود أنموذج الإنسان "الكامل" في البلاغة، وأنموذج البلاغة الكاملة في وجود الإنسان.

- أنموذج الإنسان الكامل

يبحث المختصون في العلوم الحققة عن أنموذج الإنسان "الكامل"، مثلما يبحث عنه الفلاسفة، والنقاد، والأدباء، والمختصون في التربية وغيرها... ومن أجل هذا الإنسان البليغ جاءت الرسائل السماوية، وبُعث الأنبياء من قَبْل، وألُفَّت الكُتُب، وسهر الأدباء والعلماء الليالي الطوال في بناء المعارف، وقضى المدرسون حيواتهم من أجل استكمال مكارم الأخلاق، وترسيخ مناهج العلوم في طلبتهم.

أنموذج القارئ البليغ من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال

هناك اتفاق مشترك في السعي إلى أنموذج الإنسان البليغ، الذي ينتج خطابه ببلاغة كتابة أو قولاً، يفهم ببلاغة، ويحيا ببلاغة الوجود الجميل، الإنسان في هذه الأحوال كلها هو القارئ العابر للوجود، إما بنور العقل وبلاغة التأويل، وإما ببلاهة الجحود، وظلمانية التأميل. ومثلما أن هناك بناءً للمعرفة فهناك مُهدّمون ومحطمون للقيم وأخطر وسائلهم الإعلام والأدب والفن بمعانيها الواسعة.

مشروع القارئ البليغ للخطابات ولسيمياء الكون، هو مشروع مستقبل الفكر الإنساني الذي يتوخى الحكمة والكشف عن الأسرار المعنوية للوجود، لسنّ الشرائع ووضع القوانين، ونهج سبل التدين الصحيح، وهو منطلق البحث عن الحقيقة الكونية بالعلم والفهم الدقيق، وبالفلسفة والرضا بما جاء الإنسان من خطاب ربه الذي خلقه وعلمه البيان، حتى يُبين عما في نفسه وهو يراعي مقتضيات الأحوال ويُحسن العبارات. فكيف لا يتبين معاني ما حوله، وما من أجله جيء به إلى عالم الدنيا؟

- دولة التأويل دولة علومه

تنزيلاً لما اقترحناه في "البنى الاستعارية" نتساءل: ألا يمكن أن نستفيد من نظرية الدولة ما يقربنا من بناء "دولة التأويل" المأمولة؟ فالتأويل نشاط ذهني إنساني لا يتوقف. بالإمكان أن نستعير بعض المفاهيم - وهذا ما تدعو إليه مقترحات الاستعارة المنوالية - لبيان حقيقة التأويل من هذه الجهة، وتقريبه بأنموذج الدولة وما يتعلق بها من مفاهيم، مثل: مفهوم السلطة، التعاقب، الدولة الصالحة، الدولة الفاسدة، القانون، خدمة الفرد، مصلحة الجماعة، التنظيم، مكافحة الانحراف والفوضى، ضمان الاستقرار، الخروج من الحال الحيواني إلى الحال الإنساني، ديموقراطية الفهم... وغير ذلك.

يثير هذا كذلك أنموذج "دولة" التأويل المرادة، مرجعياتها ودستورها، مؤسساتها، الإنسان المنضبط بالقوانين، السيادة، هيبتها، القوة الحامية (السلطة المادية

والاعتبارية)، روح العمل، التنظيم، الفكر الاستراتيجي، التضحية، الحماس التأويلي، بنية المصالح التأويلية، تراتبية وظائف المؤولين، مؤسساتهم، واختصاصاتهم، الصراع الاجتماعي، المناورات، تباين المواقع التأويلية، قيادة التغيير، التحكم التأويلي في سياسات الأفراد والجماعات، القبول بالتأويل، الطاعة، العدل، أخلاق مجتمع التأويل، التربية التأويلية، الأمن التأويلي والديني واللغوي، تشجيع العلم والاكْتساب والنبوغ، الحد من العنف التأويلي... وغير ذلك.

نقترح هذا المنظور لأمرين:

أولهما: تأكيد حركية استعارية المفاهيم، وما يمكن الانتفاع به من تنقيح المصطلحات من مجال إلى آخر؛ فالعلوم تغتني بفتح المعابر، بالاستمداد والإمداد، ومن حصر نظره في تخصص واحد ضاق به الأمر، لأنه أغلق حدود الاغتناء والتزود. ولنا في الطبيعة مثال على قوة التفاعل بين الكائنات^(١)، هناك دورات للمفاهيم وجولات للعلوم، إنها دولة المعارف الإنسانية ودورها الطبيعية.

وثانيهما: تقريب حقيقة التأويل، من حيث هو خطاب يصدر عن مؤولين لخطاب الله للإنسان، وتكلس ذلك التأويل بإمكانيات عديدة: مثل العدل التأويلي، واستعمال قواعد العلم في الفهم وبناء المعنى، أو الزوجان والانحراف تبعاً للأهواء والميول، أو التأويل بالجهل والادعاء.

من معاني الدولة التحول في المواقع، والانتقال من حال إلى حال، ومن يد لأخرى، الأيام دول^(٢)، تحتاج دولة التأويل البليغ إلى ما تحتاجه أي دولة متحضرة

(١) - تنقل الرياح السحاب المنبعث من تبخر البحار وتدفع به إلى البراري البعيدة، فيسقط الماء الكثير، ويعود إلى البحر بعد أن ضاقت به الأرض بما رحبت حاملاً أصناف الأتربة مما تنتفع به الحياة البحرية تغذيةً وبناءً للأعشاش.

(٢) - قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَّوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ آل عمران، ١٤٠.

وقال الشاعر:

الدَّهْرُ ذو دُولٍ والموتُ ذو عِلَلٍ والمرءُ ذو أَمَلٍ والناسُ أشباهُ

أ نموذج القاريء البليغ من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال

تسعى إلى ضمان الحياة الكريمة لمواطنيها من إشاعة الحق في الفهم بكل حرية واختيار، لكن كذلك باحترام ضوابط الواجب المتعارف عليها، مثل تلك التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية والقانونية .

الدولة ظاهرة من ظواهر الاجتماع البشري، تركيب اصطناعي لخدمة المجتمع، أو لنقل إنها تجمُّع للأفراد من أجل تنمية إنتاج العمل^(١)؛ أو نظام اجتماعي قائم على التعاون بين الفرد والجماعة^(٢). ويدل مفهوم الدولة الحديثة على مجموع أدوات عقلنة المجتمع^(٣) الساعية إلى حماية الفرد، وضمان العيش الكريم له، مقابل واجبات يقوم بها.

إن " تَدْوِيلَ " التأويلِ أو "مأسسته" يحتاج "معرفةَ الحق" في ممارسته، مقابل "معرفة الواجب" فيه، وما يلزم مَنْ يُؤوِّلُ ومن لا يُؤوِّلُ، كي يستفيد مما تمنحه "دولةُ التأويل" من أدوات ومناهج وقيود، ومن تقويمات ومراجعاتٍ. ولعل ما شهدناه في زمننا من حروب وقتال ودمار للبلدان سببه ضعف دولة التأويل، وتراجع سلطان بلاغته، وتسلُّط المتجبرين سياسيا واقتصاديا على ممالك المعنى باتباع الأهواء، واستعمال النفوذ، وأحيانا كل ألوان القيود، فما نزلَ بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفِعَ إلا بتوبة. ثم الافتقار إلى ما يمنحه العلم من أدوات، وغياب الصبر على تحصيل ذلك، واستعجال النتائج، وغياب فلسفة إيمانية مرجعية حاكمة تُسهم في فهم حقيقة البلاغة الوجودية، وحقيقة ما يريدُه الله تعالى بخطابه للناس من أمن وسلام وسكينة؛ فنتج عن التأويل الفاسد للوجود عدم احترام الآخرين، والتسلط عليهم بقوة السلاح والفكر والإعلام والتكتلات الدولية والمخابرات، ففسد الوجود نفسه بفساد النفوس، وأصبح الواقع فاسدا مليئا بسوء الفهوم وبالتوجس والخوف، وعدم الاستقرار، وتلى ذلك التحول إلى العنف بكل أشكاله اللفظية والجسدية، بسبب تعجل التحكم والتملك،

(١)- انظر العروي، مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي، بيروت، البيضاء، ص ٤٩.

(٢)- نفسه، ص ١٤.

(٣)- نفسه، ص ٧٤.

وعدم فقه الحقيقة التأويلية، تأويل خطاب الله للإنسان كما ينبغي، والجرأة عليه من لا يعلم استنباطه بسوء فهم الموقع الوجودي مما يجري في الكون، والاستبداد بالرأي بحثاً عن غلبة دنيوية لا تُحَلِّف وراءها إلا الدم والدمار والغبار.

- الوجود دُول

إن حقائق الوجود التي أراد الخالق إفهامها لعبيده واضحة في خطابه إليهم بأحسن ألوان البيان، ومنها أنهم خُلقوا كي يعبدوه ويسبحوا بحمده، ويسعوا في ما يرضيه من إصلاح للنفس والمجتمع والفكر، واجتناب ما لا يريده من الإضرار بالإنسانية، فالإنسان مُكْرَم عند الله، بل هو أحب خلقه إليه. فلما استفحل اتِّبَاع الأهواء والانقياد للسلطان (أي سلطان مادي أو معنوي)، وَضَعُف الإنصات إلى توجيهات الشارع الحكيم بعدم تَبَيُّن مقاصد خطابه، فَسَدَ التأويل والفهم، بل أُفْسِدَت المعاني القرآنية عند فئة من القائمين على أمر الشريعة، فازداد البعد عن روح الدين، وجرى الناس وراء الأهواء وسلطانها الجارف.

تحتاج "بلاغة الوجود"، أو الوجود البليغ وهو مقام ما يرضاه الله لعبيده من أخلاق ومعان وسلوكات إلى "دولة" علم التأويل، دولة عالمة تكون لها سلطة^(١) اعتبارية تحفظ الحقوق والواجبات، شبيهة بالدولة المدنية القوية التي تضمن للإنسانية العيش الكريم، والفكر السديد، والحياة الطيبة المضمونة بالاقتداء بتعاليم الدين، مثلما تضمن له حرية التعبير وحرية التجول في الطرقات. تحتاج هذه الدولة إلى أسس ثلاث:

الأسُّ الأول: فهم الحقيقة الدينية بعمق وتبين حدود تعلقها بالحقيقة الوجودية الحالية والمآلية.

الأسُّ الثاني: بلاغة الاتصاف، بتطبيق التعاليم الربانية والتخلق بروح خطاب الله للإنسان.

(١)- انظر العروي، مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي، بيروت، البيضاء، ص ١٩.

الأسُّ الثالث: تقديم حقيقة الإيمان- وما يتعلق به من العمل- للآخرينبلاغة تُراعى فيها مقتضيات الأحوال المقامية، وبلاغة الخطاب المُحدَث للأثر.

ليست غاية دولة التأويل تحصيل المنفعة المادية الدنيوية القريبة فحسب، بل تحصيل هذه القوة الإيمانية الروحانية كذلك، حتى تجعل من العالم المادي وسيلةً لسعادة النفس البشرية. هذه الأسس هي ما سعت فلسفة "البلاغة الكبرى" إلى تقديمه، بوصفه رؤية جديدة للحقيقة الدينية الساعية إلى القول البليغ، والوجود البليغ، وفق الأنموذج الإيماني والعملي الذي اختاره الله للناس أجمعين، وقَدَّم لهم منوالا بليغا يحتذونه في الشمائل المحمدية، وبلاغته بين آيتين: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) (٤) (١)، و(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا) (٢) (٦)، ومكَّنهم من خطاب يتلونه كل وقت متدبرين، فيجدون فيه معالم الحقيقة الوجودية والأخلاقية، ومشاهد من تاريخ الأمم الظالمة، وما آلت إليه أحوال بغيها وعنادها وجحودها وتماديها في التكبر والتجبر والعصيان؛ فخطاب شامل لما مضى، ولما هو حاصل، ولما سيأتي بعد تجربة الابتلاء والعبور.

ليست دولة التأويل المقبول مؤسسة مادية قائمة، وإنما هي نظام عقلائي تصوري مجرد يحمل فلسفة لتحقيق الوجود الكريم للإنسان، ويقتضي هذا الأمر الوعي بأهمية الانضباط للنظام الفكري؛ نقصد هنا نظام الفهم (فهم الخطابات الدينية والسياسية...)، فما يجري من أحداث عنيفة سببه سوء فهم الوجود، أو سوء فهم الخطاب المنظم له، أو سوء فهم من يتكلم عن ذلك، أو سوء التعبير عما فهم...

ومثلما يحتاج الأفراد إلى أنموذج أخلاقي عملي تحتاج "دولة التأويل" إلى أنموذج تحتذي، أو تصطنعه اصطناعا، وهذا الأنموذج ليس أنموذج أفلاطون، أو أرسطو، أو

(١)- القلم، ٤.

(٢)- الأحزاب، ٢١.

كانط،...بل هو روح الأُموذج الذي اختاره الخالق لمن خلق، وَصَفه لهم وحدده: تَعبدونني ولا تُشركون بي شيئاً، تَتَّقونني وتُسَبِّحون بحمدي، وتُعظِّمون أمري، وتَقِفون عند حدودي، تأتمرون بأوامري، وتعتبرون بها حصل للأُمم الظالمة الجاحدة والمتكبرة، وتَبْنون قيم العدل بينكم والمساواة والتعاون والمحبة والسلام، وعليّ ثواب المحسنين بما أحسنوا إلى الحياة وإلى أنفسهم وإلى الآخرين، وعندني عقاب العاصين الظالمين ممن أفسدوا الحياة، واعتدوا على عبادي. أُمودج رباني واضح المعالم: يقتضي تعميق العلم بما جاء في الخطاب الموجه إلى الناس، ثم الاتصاف بمضمون ذلك الخطاب عملياً.

تظل نماذج الفكر البشري عن حقيقة الوجود، وعن بناء الدولة مغلقةً في النسق المُلكي، أي في ما يظهر من عالمنا المادي المحدود المعروف حسيًا، مُسَيَّجةً في ما تقرحه من تصورات للملك والسُلطان والمجتمع وبناء العلم. أما الأُمودج المرجعي المحمدي فهو مفتوح على النسقين المُلكي والملكوتي، الدنيوي والأخروي وهو يوضح بجلاء معالم لا يعلمها إلا الخالق من أحوال الآخرة والصراط، وجزاء المحسنين، وألوان عذاب الظالمين؛ نسق جامع وشامل لا يصل إلى منواله أي أُمودج بشري للوجود مهما ظهر اِكتماله؛ فتأمل أحوال الدول التي بلغت ملكا قويا في القوانين ونظام الدولة، وانظُر إلى هوان فلسفتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية والإعلامية بالشعوب المغلوبة والضعيفة، واختلال خطاب حُكَّامها. فلا تغتر بالصور والمظاهر، وابحث عن الحقائق وراء عدوانيتها وجبروتها وسيطرتها على عقول الأفراد بسلطة الإعلام والمال، وعلى اقتصاديات الشعوب، وتَفَكَّر في ما أعد الله للظالمين من العذاب.

- سُلطان البيان

تسعى "دولة" التأويلية البليغة المعتدلة إلى إحياء مكارم الأخلاق، متجاوزة البحث عن سلطة دنيوية محدودة، إنها تجعل من قوة سلطة التأويل مَرَكبا لبلوغ مقام

نموذج القاريء البليغ من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال

الرضى والرضوان، بتحقيق مقصد الشارع، والاحتفاء به، وإشاعة القيم السلمية الناشئة عنه؛ فالهدف أولى من الوسائل وأعلى وأدوم. وإن فساد النماذج الواقعية في تحقيق هذا المطلب لا يعني أن النموذج المرجعي مستحيل التحقيق، بل يحتاج تحصيل شروطه فحسب، من تعميم العلم بأسس الفهم، وتعميق البحث والنظر، والتخلق بالشائيل المساعدة، وبذل الجهد، ومكابدة معاناة تحصيل العلوم، وإعطاء القدوة في ذلك.

في مجال التأويلية الدينية أو الأدبية هناك حاجة إلى تجديد فلسفة التأويل، ثم تدقيق علم التأويل، وتحقيق ذكاء التأويل وملكاتة. وتمكّن أهل التأويل من هذه المقامات هو ما يسمح بتشكيل نظرية التأويل البليغ، والفهم البياني الذي يستحضر مقام بناء المعنى من جهة صاحب الخطاب، ومقام مقصدية الخطاب من جهة النص، ومقام ترجيح المعاني من جهة تضارب مقصديات المتلقين. وما يستتبع ذلك من مفاهيم وأدوات وتمثيلات وبرامج عمل، يمكن تحويلها إلى مناهج إجرائية، أو نظريات تُقرب بين الفلسفات التي تنشأ عنها، وبين منظورات أصحابها للعالم، وللغة، وللمعنى، ولحقيقة الكسب. قال تعالى: (وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَنْزَرُهُ وَزَرَّ آخَرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍكُمْ فَنُفُوسُكُمْ فَوْقَ دَرَجَاتٍ لِّسَلُوكِكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ إِنْ رَأَيْتُمْ سَرِيحَ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغُفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾) (١).

قد تقوى دولة التأويل البليغ في جيل من أهل المعاني دون جيل آخر، وهذه بعض الأطوار (٢):

الأول: طور القوة والاستيلاء على المعاني والفهوم.

الثاني: طور الاستبداد بالمعاني والفهوم، وكبح المخالفين عن الإسهام والمشاركة بالمدافعة والمغالبة.

(١) - الأنعام، ١٦٤.

(٢) - نستعير هذه الأطوار من ابن خلدون في كلامه عن الدولة؛ راجع "المقدمة"، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية صيدا، ص ١٦٣.

الثالث: طور الدَّعة والفراغ والتوسعة على الفكر والمباهاة بالمعاني وبما أنتجه الأسلاف.

الرابع: طور القنوع والمسألة والاكْتفاء بما بناه السابقون من الفُهوم، وتتعلق به غلبة التقليد والتبعية، واعتبار كل خروج عن ذلك فسادا.

الخامس: طور إتلاف ما بناه السابقون، وتبذير المحصلات على الأهواء من شهرة وتقليد، مع ضعف العناية بسلطة تحمي دولة التأويل، فيحدث الهرم والشيخوخة والمرض المزمّن ثم الزوال.

هذه أعمار "دول" التأويل، فهي تخضع لمثل ما تقوم عليه الدول الفاسدة، التي تعتمد الغلبة والعنف، ولا تستند إلى العدل والمساواة والأخلاق، وما شهدناه في زمننا من دول تنهار وتتحطم فسببه فساد الأخلاق، وغلبة الأهواء، والتبذير والظلم والفساد، وعندما يستفحل الظلم يسلط الله على أهله ظالمين أقوى منهم، فيسحقونهم بالقوة ويبددونهم. وهذا من الحقائق التي ذكرها القرآن الكريم، وأثبتها التاريخ عن كل قرية كانت مُنعمّة مكرّمة يأتيها رزقها رغدا، فكفرت بأنعم ربها، فأذقتها الله لباس الجوع، وعذّبها عذابا شديدا، أمهلها في تنعمها وإسرافها عسى أن تهتدي، فلما أبت وتمادت سلّط عليها ما يهلكها بذنوبها، وترك منها آية للاحقين.

دول التأويلية الإسلامية العربية ودُوّياتها في بناء معاني النصوص، أو فهم الوجود لا يختلف عن هذا، فمن أوّل الوجود تأويلا سليما، وأتبعه تأويل مقاصد الشريعة تأويلا متناغما مع روح القرآن، وصرّف النفس عن الهوى، دامت دولته واتصلت حلقاتها، وانتشرت في كل مكان وكل زمان، وأعلى الله مقامه حيا وميتا، وهو قليل في زمننا وفي الذين من قبلنا. ومن فسّد تأويله للوجود ولمعنى الولادة والحياة والموت، ومعنى الاعتقاد والتوحيد والعبادة والتقرب، ولمعنى ما وُضع بين يديه من الدنيا فقد ساء تأويله للحقائق، ثم أبلى في التّنعّم والتطاول في بنيانه التأويلي، وفي

أ نموذج القاريء البليغ من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال

دعوته لما يرى أنه الحقيقة والصواب، واستدرج بما تيسر له من أسباب المدافعة والممانعة عن السراب، مثلما نراه حاصلًا في القوة الإعلامية المعاصرة لسياسات بعض الدول ورؤيتها للعالم وللآخرين، وتحصيل أسباب القوة والظهور والغلبة؛ لكن الفساد وإن بدا قويا مزخرفا فإنه يأكل نفسه بنفسه مثل النار، لأنه قائم على اتباع الهوى بلا حدود، فجرى وراء السلطان وتحصيل الدنيا بالتناصر والاستقواء بالحلفاء والبيان. وبعد ذلك، فإنه سيأتي عليه زمن الخنوع والإعجاب والزهو بمنجزه ومنجز الأولين، ثم يلين للماديات وشهوات البدن والروح الحيوانية بالتزيين والاستدراج، فتفسد القيم، ويتبعها فساد الآلات والمناهج والرؤى، ولو بعد حين، لتصير إلى الهرم والزوال.

مقابل ذلك، تسمح "دولة" التأويل البليغ التي طرح بعض معالمها - مع الاعتدال والملاءمة اللذين يقتضيهما العلم - بإدراك حقيقة الوجود إدراكا سليما، ثم العمل بمقتضياته الأخلاقية من "معرفة الحق" و"معرفة الواجب"، وتدعو فلسفتها إلى إعادة النظر في مفهوم وجود الإنسان، ومفهوم الخطاب الذي نزل بعلم الله، ثم العمل بما فيه ببلاغة العمل، وبلاغة الفكر، وبلاغة التأديب والتربية، وبلاغة الإبلاغ. تقدم فلسفة القارئ البليغ أنموذجا للفكر التركيبي الذي يؤمن بتداخل العلوم وتبادل المنافع، والأخذ من نتاج العقل الإسلامي العربي في كل المجالات المعرفية، مع الاستفادة من الرؤى المعرفية والمنهجية والعلمية في الفكر الإنساني، وإحداث التناغم بينها وبين الأسس المرجعية للبلاغة الكبرى.

- صناعة التأويل

ليست "دولة التأويل" القاصد البليغ أنموذجا مثاليا لا يمكن تحصيله، فكم من الرؤى قيل عنها إنها مثالية في زمن سابق، ثم أصبحت واقعا عاديا في زمن آخر، في مجال التطورات العلمية -مثلا- كان من المستبعد أن ترى صورة شخص بعيد عنك بألاف الأميال مع مخاطبته في الوقت نفسه، وقد أصبح هذا أمرا عاديا في زمننا. وفي مجال التعبد كان أمرا مثاليا أن يتحول الإنسان العربي "الجاهلي" من عبادة الحجر إلى

عبادة الله وحده بلا إشراك، وغير ذلك مما كان يبدو مطلباً بعيداً، لكن الرؤية السليمة مع العمل مكنت من تحقيقه، فنهاية الفكرة بداية للعمل.

من أدوار فلسفة التأويل أن تطرح اجتهادات ورؤى بناءً على تأملات ودراسات وتوقعات وتأميلات، دور الفلسفة تحسين رؤية الواقع، وتطوير الفكر التأملي، ومغالبة الأفكار المدمرة، واستشكال المسائل المعرفية، وإثارة القلق المعرفي داخل مُسَلِّمات العلوم، ولكن في الوقت ذاته فهي تتطلب الحد الأدنى من المقبولية في الطروحات، وفي تناسب المقدمات والنتائج، ورصانة مناهج البحث والنظر، ووسائل البرهنة، وواقعية الطموحات المتناغمة مع القدرة على صناعة التأويل، وليست الصناعة إلا جُماع المَلَكات الحاصلة في أمر نظري عملي، وشرطها الرغبة في تحصيل المَلَكات أو الصفات الراسخة، والقدرة على إنجاز ذلك بمعرفة كفيات بلوغه، وتقويم محصلات الاكتساب ودعمها بما يلزمها، ومراجعتها بعد حين للإغناء والتطوير، وحمايتها من الاندثار، وأخيراً تفقد درجات الانسجام مع المرجعيات التي نطلق منها ونؤمن بها.

لم يعد مطلوباً منا اليوم صناعةً تأويلية خاصة بالخطابات - فقط - علماً وذكاءً ومنهجاً ومقبوليةً وحسنَ ترجيحٍ واستدلالٍ كما بيَّناه في "التأويلية العربية"، بل أصبحنا نطمح إلى صناعة تأويلية بليغة للوجود الذي نحياه، بأن نتدبره خير تدبر: التدبر في الكون، وفي الآيات التي بثها الله في مُلكه ومَلَكوته، كي ينتبه إليها الإنسان فيجدها في تناسق جسمه، وما وضعه الله فيه من قوى وطاقات وصحة وعافية: نبض القلب، واشتغال الدماغ، وجريان الدم بالهواء والتغذية، وحسن التنفس بانتظام، والقدرة على الحركة، وعلى الإبصار والسمع، والتذوق، واستشعار الخطر، وتخزين المعلومات، والقدرة على البيان باللسان وبغيره، وما سخر له في الكون من الآلات والحيوان، وما وهبه من نعم ظاهرة وباطنة ورزق يجري إليه من حيث لا يحتسب، وكل ذلك أشار إليه الحق تعالى بتفصيل في كتابه العزيز، وعنوانه ما يَسَّر للإنسان "الكَنُود" "القَتُور" في الكون المادي من هواء وإضاءة واختلاف الليل والنهار، وكل

شيء مما لم يخلقه الله عبثاً، يدركه أولو الألباب خير إدراك، وأولو بلاغة الحكمة من الذين يذكرون الله قياماً وعوداً، وعلى جنوبهم، ويتفكرون باستمرار في خلق السماوات والأرض؛ تلك بلاغتهم الوجودية، فهم بلغاء مدركون بالتفكير في جمال الكون وانتظامه ودلالته، وفي اعتبار كل ما فيه من جمال وجلال دليلاً على جمال خالقه وجلاله وكماله، وهم بلغاء مدركون للحقيقة الوجودية الأولى: التقوى بخوفهم من خالقهم، مع الإشفاق من خزي الحساب وعذاب النار، حيث لا معين ولا ناصر إلا التقوى والعمل بمقتضاها؛ فمن لم يبلغ هذا المقام فليس مدرِكاً حكيماً بليغاً، وإن ترك مكتبات كاملة من الأدب البليغ الجميل، وملاً الدنيا بنظريات المعنى وفلسفة الوجود، ومناهج التأويل، واكتسح الجامعات بفكره، وتردّد اسمه في كل الفضاءات؛ فالماء لا بد له من إناء، وماء علم "البلاغة الصغرى" يستساغ في إناء علوم "البلاغة الكبرى"، بلاغة إدراك معاني الوجود العابد والتعبير عنه بالخطاب القاصد.

تقوم صناعة التأويل البليغ على التبيّن والتبيين، التفهّم والتفهم، التّأوّل والتأويل البليغ القاصد، وقبل أن تكون علماً للفهم بالضوابط التي أشرنا إليها، فهي رؤية حكيمة للكون، وتموّجٌ إيماني محسوب، وموقف من العقائد الفاسدة، وإنكار بالقلب للمعصية والجحود، وعمل دائم على تحسين الوجود بقدر ما أوتي المرء من قوة، ووفق قواعد الإكبار بالغير واحترامه، وعدم إيذاء الخلق.

هكذا تجمع دولة "البلاغة الكبرى" بين الذوق والتّبيّن، وبين صحة الفهم وجمال رؤية العالم، مع تحسين شروط الفهم بالعلوم اللغوية والعلوم الحقة؛ فإن لم يكن العلم دليلاً لتقوية الإيمان بين الخلق يظل دنيوياً مغلقاً في علميته، ويظل كذلك حتى تفتح دائرة الرؤية فيبصر العالمُ العالمَ على حقيقته، ولا حقيقة أحق مما أخبرنا به الخالق من أحوال الدنيا والآخرة، فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها، وما ربك بظلام للعبيد.

- أنموذج المؤول البليغ

التأويل من العمليات الذهنية الهامة التي تنشط أثناء عمليات قراءة الخطابات أو فهمها، والتأويل تصور للمعنى انطلاقاً من مرجع سابق، أو اعتماداً على نشاط الذهن لتشكيل صورة للمعنى بناء على ما هو متاح من الدلائل والدعائم والأسناد ووسائل البيان. وأما تأويل المعاني بصورتها المادية، أو حقيقتها الخارجية فيتم بالتصور الذهني الذي يعتمد فيه على المثال والشبيه أو الوصف أو المقارنة؛ وبذلك فالفهم هو إدراك المعنى والمقصد بعد جهد التأويل، فيكون مسار التأويل مساراً للفهم والإفهام. لكن من التأويلات ما يكون فاسداً فهو لا يكتفي بالفهم المقبول الراجح، بل يعتمد إلى استعمال المعنى لصالح الأهواء والمذهب، فيكون بذلك مرفوضاً لأنه تجاوز قانون التأويل بفساد شريعة الاستعمال.

وباستحضار معنى التأويل عند القدماء يمكن أن نتبين علاقته باشتغال الذهن وجهد النظر؛ فالتأويل عند المتكلمين، وعلماء أصول الفقه، والفقهاء والمتصوفة^(١) هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل، ويعتمد ذلك على احتمال اللفظ للمعنى المدعى، ثم بيان الدليل الموجب لصرفه إلى معنى دون آخر كما في آيات الصفات.

أما معنى التأويل عند المفسرين فهو بيان المراد وتحلية المعنى، وهو بهذا المعنى مرادف للتفسير كما عند الطبري، ويقصد به تأويل الكلام على ما قصد به طلباً أو دعاءً أو استفهاماً أو خبراً. وبناءً على هذا، فالتأويل هو تفسير من باب العلم بالأخبار والآثار، وصرف معنى بنية الجملة إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الجملة. ويعني تأويل الآية عند أهل التفسير صرف المعنى المفهوم إلى ما يوافق المساق القبلي والبعدي، دون التعسف في الاحتمال أو الابتعاد^(٢)، ولا ينبغي أن يكون مخالفاً للكتاب

(١) - ابن تيمية، الإكليل في التشابه والتأويل، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص ٢٨ و ٢٩.
(٢) - من التأويلات البعيدة مثلاً: تفسير الشيعة لقوله تعالى: (مرج البحرين يلتقيان) أي علي وفاطمة و (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) الحسن والحسين. وتأويلاتهم على هذا المنوال كثيرة.

أنموذج القاريء البليغ من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال

والسنة^(١)؛ وهكذا فتأويل آية كريمة يستمد قوته من استحضار مجموع مقاصد القرآن الكريم، فالقرآن يُبَيِّن بعضه بعضاً، فما أجمَلَ في مكان فُسِّر في آخر، فإن لم يجد المؤوِّل المعنى فيه وجده في السنة ومقاصدها. وقد أحاط علماء التفسير الإقدام على تأويل القرآن الكريم بشروط كثيرة: أولها صحةُ المعتقد، وصحةُ القصد، فمن لا يؤتمن على دنيا لا يؤتمن على دين، وأسرار الله لا يؤتمن عليها من كان مغموصاً في دينه^(٢)، لأن هواه الدنيوي، وضعف تقيته سيحمله على التأويل وفق هواه، أو ما يهوى الذي يسخره لذلك. كما اشترطوا في المفسر تحصيله لعدد كبير من العلوم أهمها^(٣):

- علم الحديث، ونقل الصحيح من السنة، ومن أقوال الصحابة.
- علم اللغة، لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين.
- علم النحو، لأن المعنى يختلف باختلاف الإعراب.
- علم الصرف لمعرفة الأبنية والصيغ^(٤).
- علم الاشتقاق، فما اشتق من مادتين مختلفتين اختلف معناه^(٥).
- علوم البلاغة وبها يعرف الإعجاز القرآني، وبهذه يتم الاطلاع على لطائف كلام الله.

- علم القراءات، فيها تترجح بعض المعاني.
- أصول الفقه: لما فيه من أحكام تحتاج أدلة.
- علم سبب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، والفقه، والمحكم والمتشابه.

(١) - السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ٢، ١٩٩١، ج ٢، ص ٢٩٦.

(٢) - نفسه، ج ٢، ص ٣٨٧.

(٣) - نفسه، ج ٢، ص ٣٩٧.

(٤) - فقد أخطأ من جعل إماماً جمع أم أي بأمهاتهم في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ

بِأُمَّتِهِمْ﴾.

١٨ - مثل المسيح أهو من السياحة أم المسح؟.

• علم الموهبة: وهو علم يعطيه الله لمن عمل بما علم. قال تعالى: (وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآيَاتِهِمْ تَقْوَاهُمْ) (١٧) (١)، مقابل قوله في زيادة عمى أهل الضلال والزيغ: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (٥) (٢). فهذه العلوم ضرورية للمفسر، وإلا اعتبر مفسرا برأيه فحسب، وذلك منهى عنه؛ فإذا فسّر مجتهدا مع تحصيل كل هذه العلوم لم يكن مفسرا برأيه. فمن قصر في تحصيل علم من هذه العلوم لم ترتفع له كل عوائق الفهم، وظل محجوبا عن أسرار كتاب الله، فإن حصل كل العلوم فلا بد له من سلامة العقيدة، والبعد عن الكبر والبِدَع والإصرار على المعاصي، فإن علوم القرآن ومعانيه لا يقف عليها إلا أصفياء الله ومحبه ممن أخرجوا الدنيا من قلوبهم، ولم يكن لهم من هم غير مرضاته تعالى؛ فأولئك يُفتح لهم باب اللطائف والمعاني والأسرار. قال تعالى: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيْلًا أَلْفَيْلًا لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَيْلًا أَلْفَيْلًا لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) (١٦) (٣).

وقد ذكر الإمام الغزالي مجموعة من موانع فهم الخطاب القرآني، منها:

- صرفُ الهمِّ كله إلى تحقيق الحروف فلا تنكشف للقارئ المعاني.
- تغليب فهم سابق، واعتقاد متوارث، وجمود الطبع على الظاهر مانع من بلوغ الغور الباطن.

- غلبة المعاصي والشهوات: فكلما كانت الشهوات أشد تحكما كانت معاني الكلام أشد احتجابا، وكلما خفت عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلي المعنى فيه؛ و"القلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدى، ومعاني القرآن مثل الصور التي تراءى في

(١)- محمد، الآية: ١٧.

(٢)- الصف، الآية: ٥.

(٣)- الأعراف، الآية: ١٥٦.

نموذج القاريء البليغ من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال

المرأة"^(١)، ورياضة القلب تصقل تلك المرأة. وهذا - في تصورنا - مبدأ عجيب لا علاقة له بعلوم الفهم والتأويل المعروفة في نظريات الفهم، ولكن له صلة بالتقوى ورضى النفس، والعناية بها ابتعادا عن المعاصي، فهي مرآة لمعان لا تظهر إلا عند ذوي القلوب السليمة؛ ويُستفاد هذا من قوله تعالى: (إنما يتذكر أولو الألباب)^(٢)، فمن ليس من ذوي الألباب لا تنكشف له أسرار الكتاب.

- من موانع الفهم الاكتفاء بالتفسير النقلي.
- عدم تخصيص القارئ نفسه بكل خطابات القرآن أمرا ونهيا وعدم التأثر بالآيات.

- الطهارة القلبية تمكن من مشاهدة المتكلم في الكلام؛ فقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون^(٣). ومعنى هذا أن التأويل البليغ يحتاج تنقية القلب وتطهيره من المعاصي، وممارسة رياضة ذهنية بافترض سماعه مباشرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بافترض سماعه من جبريل عليه السلام وهو يلقيه على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الرقي إلى افتراض منزلة سماعه من المتكلم به ومشاهدته في خطابه.

- تقلب القلب بحسب مشاهدة الكلمات والصفات في مختلف الحالات من الرجاء، والاستبشار بالجنة، والخوف من النار وأهوالها.

- في فهم معاني القرآن متسع لأرباب الفهم، بناء على قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن للقرآن ظهرا وبطنا وحداً ومطلعا". وقول أبي الدرداء: "لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوها". وقول ابن مسعود: "من أراد علم الأولين والآخريين فليتبدر القرآن"، ولا يحصل ذلك بالتفسير الظاهر.

(١) - الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، ضبط وتوثيق: أحمد عناية وأحمد زهوة، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠١٠، ص ٣٥٥.

(٢) - الزمر، الآية: ٩.

(٣) - الإحياء، ص ٣٥٩.

- الرأي المنهي عنه في فهم القرآن هو الرأي الذي يسيره الهوى وتقوية الغرض، أو تصحيح البدع. مثل الذي يفسر " فرعون" بقلبه في قوله تعالى: (اذهب إلى فرعون إنه طغى)، أو قول النبي صلى الله عليه وسلم: "تسحروا فإن في السحور بركة" مدعيا أن السحور هو الاستغفار والذكر.

- من الرأي تفسير القرآن بظاهر العربية دون اعتماد السماع، ولا يمكن بلوغ الباطن قبل إحكام الظاهر، ولا يتم الفهم إلا بمعرفة سنن الكلام عند العرب، وفنون ذلك من الإيجاز والحذف والإضمار، كما في قوله تعالى: (وآتينا ثمود الناقة مبصرةً فظلموا بها) ^(١)، أي آية مبصرة، وليست الناقة، فظلموا أنفسهم بقتلها. وقوله: (ثقلت في السموات والأرض) ^(٢)، أي خفيت على أهل السموات والأرض. (وآتنا ما وعدتنا على رسلك) ^(٣). أي على لسان رسلك.

ينتهي الغزالي بعد ذكر بعض وجوه خفاء المعاني، وبيان أهمية علوم اللغة والبيان إلى القول: ما من كلمة من القرآن إلا وتحققها موج استكشاف أسرارها، و"إنما ينكشف ذلك للراسخين في العلم بقدر غزارة علومهم، وصفاء قلوبهم، وتوفر دواعيهم على التدبر، وتجردهم للطلب، ويكون لكل واحد حد في الترقى إلى درجة أعلى منه، فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه، ولو كان البحر مدادا والأشجار أقلاما فأسرار كلمات الله لا نهاية لها" ^(٤)، إن التفسير بالمعاني والأسرار والاعتماد على فطنة التأويل وعلومه إنما هو استكمال للتفسير بالظاهر وليس مناقض له.

انطلاقاً مما سبق، يتسم أنموذج القاريء البليغ في المدونة التفسيرية التراثية

بأشراطين:

(١)- الإسراء، الآية: ٥٩.

(٢)- الأعراف، الآية: ١٨٧.

(٣)- آل عمران، الآية: ١٩٤.

(٤)- الإحياء، ص ٣٦٦.

- الشرط العلمي.

- الشرط الفلسفي.

أما الشرط العلمي فهو القوانين والضوابط التي حددها علماء القرآن وعلماء التفسير، ويجدها الباحث مُبَوَّبَةً في "محاسن التأويل" لجمال الدين القاسمي^(١) (ت ١٩١٤ م) ومن أهم معالمها: تحقيق التطالبات المعرفية^(٢)؛ ففهم لغة الخطاب القرآني يتطلب معرفة الاشتقاق والتصريف، والوقوف على البنى النحوية يطلب علم البلاغة... ويتم ذلك بتحقيق مبدأ التساندية بين محصلات العلوم.

كما ذكر القاسمي في مقدمته مجموعة من القواعد التي تضبط ذلك مثل: قاعدة النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، مع الحذر من الضعيف^(٣)، وقاعدة اعتماد قول الصحابي، وقاعدة الأخذ بمطلق اللغة، وقاعدة التفسير بالمقتضى من معنى الكلام، ومن قوة الدليل الشرعي، وقواعد اعتماد سبب النزول، وقاعدة الناسخ والمنسوخ، وقاعدة اعتماد القصص والإسرائيليات في التفسير، وقاعدة اعتماد ضوابط التخريج اللغوي والبلاغي، وقاعدة بناء المعاني وجريانها على اللسان العربي، وقواعد التفسير الباطني، وغيرها.

وعزز ابن عاشور (ت ١٩٧٣ م) هذا المنظور العلمي للمؤرِّول البليغ مستفيدا

من تراث تفسيري وعلمي عريق، ومن أهم معالم تأويليته:

أ- معرفة علوم العربية وقواعد اللسان العربي.

(١)- راجع: بازي محمد، البنى الاستعارية نحو بلاغة موسعة، منشورات ضفاف/ بيروت، ومنشورات الاختلاف/ الجزائر، ودار الأمان/ الرباط، ٢٠١٧. فقد بينا هناك قواعد التفسير عنده.

(٢)- راجع: بازي محمد، صناعة الخطاب: البنى العميقة للتأويلية العربية، دار كنوز المعرفة، عمان، ٢٠١٥، المقدمات النظرية.

(٣)- القاسمي جمال الدين، محاسن التأويل، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ط ١، ١٩٥٧، ج ١، ص ص ٦-٧ وما بعدهما.

ب- معرفة وجوه استعمال العرب لكلامها بالاطلاع على مدونات الكلام العربي شعرا ونثرا.

ج- معرفة علم الأصول.

د- معرفة القراءات لترجيح معنى بعينه.

هـ- معرفة أخبار العرب والقصص لما تُجْمَل من الموعظة.

ومن أبرز قواعده الإجرائية أنه يصح التفسير بغير المأثور؛ فقد اتسعت التفاسير، وتفننت مستنبطات معاني القرآن بجهود أولى العلم وما رُزقوا من الفهم^(١)، وباعتماد التدبر والتفهم، واستيضاح معنى كل آية بما يليق بها حتى تنكشف الأسرار. واشترط للتفسير الصحيح أن يطابق اللفظ للمعنى. وأن يتم اعتماد سياق الآية في التأويل، مع تعزيز التخريجات التأويلية بالأدلة الشرعية، وأكد على قاعدة تجنب النزعات المذهبية في التفسير مبيِّنا دور الصلاح الاعتقادي في تحقيق تأويلية قرآنية بليغة، وعلى مبدأ استحضار مقاصد الدين أثناء فهم المراد عن الله تعالى، وبين أهمية استدعاء القصص التي جاءت موزعة في القرآن في الفهم والإفهام^(٢). بل فسحت تأويلية ابن عاشور المجال للاجتهاد التأويلي، فلم يشترط الوقوف عند التفسير المأثور، بل دعا إلى استثمار مستجدات العلوم في التفسير حتى لا تتعطل ملكات التأويل؛ ففي القرآن "ما يصلح أن تتناوله أفهام من يأتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الأمة"^(٣)، مؤكداً أن الحقيقة العلمية "مرادة بمقدار ما بلغت أفهام البشر وما ستبلغ"^(٤)، شرط مطابقة اللفظ للمعنى، وعدم الابتعاد عن الظاهر إلا بدليل.

(١)- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، ج ١، ص ٢٨.

(٢)- السابق، ص ٦٤.

(٣)- نفسه، ص ٤٥.

(٤)- نفسه، ص ٤٤.

أنموذج القارئ البليغ من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال

مزجت تأويلية ابن عاشور البليغة بين تدقيق مناهج التفسير التقليدية وانتقاد ما فيها من هنات وضعف، وبين تأصيل القواعد العلمية والمنهجية لتأويلية بليغة عالمة، مستفيدا من خبرته في تفسير القرآن الكريم، واستحضاره المستمر لضوابط العلم الصارمة.

- عناوين كبرى جامعة

وهكذا، فإن القارئ البليغ أنموذج أصيل في الثقافة الإسلامية العربية، وقد خضع لعقل مدبر فاحص وصارم في بنائه، وتداركت الاجتهادات المتواصلة ما فيه من نقص وخلل، حتى بلغ درجة عالية من الفعالية العلمية والملاءمة الإجرائية، لكن بغير مؤول مجتهد لا يفيد الأنموذج شيئا، مثل أي أداة مهها تطورت فهي بحاجة إلى مستعمل مجتهد وخبير، وكذلك صناعة التأويل فهي تحتاج - مثل ما ذكرنا - مِرَاسا طويلا ومِرانا مستمرا. وبذلك يتجاوز مفهوم القارئ البليغ محمول مفاهيم القراء التي جاءت بها نظرية التلقي: القارئ الضمني، القارئ النموذجي، القارئ الافتراضي، القارئ الخبير....، إنه للتذكير: قارئ متحكم في العلوم الأدائية الضرورية للفهم وبناء المعنى، تحكمه رؤية قاصدة، وفلسفة بانية للوجود^(١)، يتميز بقوة الملكة الافتراضية والتصورية، وهو ذو قدرة منهجية لتتبع علامات النص ورموزه وجملة. قارئ تتوافر له المعرفة الموسوعية المنتقاة، ذو كفاية استدلالية يدافع بها عن مقبولية المعاني المبنية، وذو كفاية تنسيقية تسمح له بتجميع أفهامه في خطاب منسجم ومتسق وقاصد^(٢). فضلا عن كل ذلك، فهو ذو رؤية للكون مدركة لمعاني الوجود فيه، رؤية تربط بلاغة المعنى المحرّر ببلاغة الوجود المسبّح والعابد، ويستتبع ذلك أن العلوم ومنجزاتها مدخّل لتعميق الرؤية الإيمانية، وأفق مفتوح لتحويل العلم إلى عمل. وهذه المعاني لا تستوعبها مفاهيم القارئ المتعددة في نظريات القراءة والتلقي المشار إليها.

(١) - انظر مفهوم القارئ البليغ في التأويلية العربية.

(٢) - بازي محمد، التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم/ بيروت، ومنشورات الاختلاف/ الجزائر، ٢٠١٠، ص ١٥٨.

- يمكن أخيرا تجميع معالم التأويلية البليغة في بلوغ المقامات التالية:
- مقام بلاغة التحليل: وعنوانه القدرة تحليل الخطاب بالعلوم والمناهج.
 - مقام بلاغة التدليل: ونعني به القدرة على الاستدلال والمحااجة ببيان الرأي والدفاع عنه.
 - مقام بلاغة التخيل: ونعني به القدرة على تخيل المعاني والصور المعبر عنها، والمعاني المقصودة بكل ذلك أحسن فهم، ولا يتم ذلك إلا بعلم البيان، ومطالعة الفنون والآداب، بل يقتضي التطور الحاصل في مجال التواصل الرقمي العلم بأسلوب عمل التقنيات التصويرية الحديثة، وهو ما يتطلب بلاغة تحليلية لما يتلقاه الناس من خطابات رقمية ويؤثر فيهم.
 - مقام بلاغة التجميل: ونقصد به القدرة على تأنيق الخطاب الذي ينتجه المؤول تأنيقا يزينه عند المتلقي، وتلك بلاغة المؤول التنسيقية.
 - مقام بلاغة التأميل: بما يجعل المؤول أملا بعد العمل به من جزاء دنيوي وأخروي، فهو لا يكد للفناء وللتراب، بل للموعود من الإحسان والجزاء.

خاتمة:

لا بد للتأويل البليغ - مثلما أشرنا في نظرية التأويل التقابلي - من ملكات تأويلية راسخة تتحقق بفعل التكرير والتمرن، وقدرات لبلوغ المعنى بالعلم، ويبلغ هذا التأويل كماله بملكات إبلاغية، فبلاغة التأويل تبين وتبين، وتفهم وتفهم، وتأول وتأويل، إنها تبليغٌ بليغٌ وتبليغٌ أبلغٌ.

اقتضى مشروع القارئ البليغ الإحاطة بمثل هذه الضوابط أول الأمر، ولكنه اقتضى صياغة بعض المقاربات التي تسمح بتطوير التفكير البلاغي التأويلي المستندة على الاستقراء، فعززنا ذلك بالمنظور التقابلي في الفهم وبناء المعنى، مع بيانه بالتطبيق والأمثلة المناسبة، ثم تحولنا إلى أنموذج آخر لا يلغي سابقه، وإنما يقدم رؤية أخرى لمعرفة أنساق بعض الخطابات، وسميناه المنوال الاستعاري، وهو ينظر للخطاب باعتباره مجموعة من الأنساق الاستعارية الواعية وغير الواعية، والتي على المحلل أن يتبين خيوطها ودلالاتها.

ارتأينا منح هذا الموقع الاعتباري بعدا استراتيجيا تخطيطا ومناورة، مع الحفاظ دائما على منظورنا للأنموذج المرجعي للقارئ البليغ؛ لجأنا إلى هذا الخيار لنقد المنهجيات القرائية النمطية التي لم تولد إلا عقم تذوق المعاني، وخسارات فادحة في الفهم، وفي دراسة الأدب؛ فدعونا إلى تعليم التفكير الاستراتيجي في دراسة الأدب، انطلاقا من استراتيجيات صغرى (مناورات صغيرة أول التعليم) ثم استراتيجيات مركبة في نهايته، ويقتضي هذا تغيير منظور مُدرسي الأدب للمنهج، وللأدب، وللمعنى.

عدنا للتأويلية الإسلامية العربية من أجل تأصيل فلسفتنا للمعنى وللوجود، كما سعينا لإحاطة التأويل الديني بما يستحقه من قوانين وضوابط وهيبة حتى يبعد عنه المتطفلون والمتسرعون وأصحاب الأهواء وأتباع الدنيا، وراهنّا دائما على العلم المحكوم بفلسفة إيمانية مرجعية كلما تعلق الأمر بمصالح الإنسان عاجلا أو آجلا.

وقدّمنا في ما يتعلّق بالتأويل الأدبي نماذج للمقاربة تسانديا وتقابليا واستعاريا، ولم نغلق الباب أمام المجتهدين، وبُناة النماذج ممن ضاقت بهم التبعية المنهجية، مع التأكيد على أهمية علوم النص وتداوليات الخطاب في التحليل والدراسة الأدبية، فلا بلاغة لقارئ بدون تلك العلوم أوّلا، ثم بما يُحصّله من منافع وفوائد يستثمرها لتعزيز رؤيته للعالم ولحقيقة الوجود.

أُموذج القارئ البليغ مشروع لبناء الإنسان تخليقا، وورش يتسع للجميع -إنتاجا وتلقيا- رهانه صناعة المناهج التأويلية البناء المحققة لمعنى الوجود، وإن ممارساتنا اليومية ليست إنتاج فهو منا للعالم، فإن كان واقعا بليغا بمقاييس التخلق والرقي الحضاري فهو نتاج فهم بليغ لحقيقتنا الوجودية، ولإنسانيتنا، وتمييزنا عن الكائنات بالعقل المدبّر والتأويل البليغ، وأبلغ من كل ذلك أن تظهر على الناس سيمياء العبودية لله في كل أحوالهم وأقوالهم، وهو ما يتناغم مع حقيقة الخلق، وحقيقة الموت الذي يتعقب الجميع، وتعقب البعث والمساءلة لمن يؤمن بذلك ولمن لا يؤمن به.

نظرية التأويل التقابلي

الأصول والامتدادات

د. محمد مساطة

تقديم:

التقابل خاصية تحكم الكون بأسره، فكل شيء في هذا الكون الشاسع - الذي لا يعلم حجمه ومقداره إلا الخالق عز وجل - مبني على أساس التقابل والتناظر بين الأشياء، إما من جهة النوع، أو الجنس، أو الهيئة؛ فالسماوات السبع مقابلة للأرضيين السبع، والنهار مقابل لليل، والإنس مقابل للجن، وهكذا في جميع الأشياء، فكل شيء بُني على نظام الأزواج المتقابلة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١). بل إن تدبير هذا الكون الشاسع بناه ربنا عز وجل على مبدأ التناسب بين الأشياء المتقابلة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٢). فلو كانت الحياة كلها ليلا أو كلها نهارا لاختل نظام الكون، ولماتت الخلائق على الأرض، ولذلك فمن رحمة الله بنا أن حكم بقدرته بالتناسب بين الأشياء المتقابلة.

وإذا كان مبدأ التقابل يصدق على المحسوسات والماديات المشكلة لهذا الكون الشاسع؛ فهو متضمن في سلوك الإنسان وأفعاله - باعتباره كائنا متفردا عن كل المخلوقات - أظهر وأصدق، فطرق عيشه ونظام تفكيره وأفعاله السلوكية الإرادية منها أو غير الإرادية مبنية على أساس تقابلي، سواء وعى الإنسان ذلك أو لم يعه؛ ذلك لأن التقابل فطري فيه بالقوة والأصالة. إذ به يستطيع فهم الكثير من الأمور، تأكيدا للمقولة المشهورة "الشيء بضده يفهم".

(١) - سورة الذاريات، الآية ٤٦.

(٢) - سورة يس، الآية ٤٠.

ولما كان نظام تفكير الإنسان مشيداً على أساس تقابلي، فلا بد أن ينعكس هذا الأثر على جل سلوكاته ومظاهر تفكيره، ولعل حقل الأدب من أبرز المجالات التي يظهر فيها هذا البعد التقابلي بين الأشياء؛ لأن إنتاج النص بمعناه الواسع، سواء كان نصاً دينياً أو أدبياً أو فلسفياً... يخضع لهذا المظهر بالقوة، أدرك الكاتب ذلك أو لم يدركه، وفي ذلك نضرب مثلاً يوصل إلى هذه الحقيقة؛ ففي الروايات مثلاً باعتبارها مظهراً من مظاهر التوظيف الجيد للغة، لا تخلو صفحة منها إلا ودلتك على هذا المبدأ العام، فالكاتب لا يذكر الشيء إلا ويذكر معه مقابله بوعي أو غير وعي. وكما أن عملية الإنتاج يحكمها هذا المقصد فكذلك عملية التأويل تخضع لهذا المظهر وتستحضره في كل عملية تأويلية تسعى إلى بناء المعنى والوقوف عند حقيقته.

تستحضر عملية التأويل كما هي الحال بالنسبة لعملية الإنتاج هذا البعد التقابلي في بناء المعنى وتأويله، وستظهر في السنوات الأخيرة من عصرنا الحديث كثير من الدراسات التي نبهت إلى ضرورة الالتفات إلى هذا المكون البلاغي في العملية التأويلية، والدعوة إلى ضرورة تجاوز بعده الضيق - باعتباره فناً من فنون البديع - إلى اعتباره قانوناً يحكم الكون و يسري بالقوة في جميع الخطابات الإنسانية، وعلى هذا الأساس سيغدو فهم التقابل وجل المبادئ التي يبنى عليها جزء لا يتجزأ من فهم الذات الإنسانية لنفسها، ولعمري لتلك من أكبر الغايات التي تسعى الإنسان إلى بلوغها مذ وجد على ظهر هذا الكوكب.

لقد كثرت الدراسات التي نبهت إلى أهمية هذا العنصر في العملية التأويلية والإنتاجية معاً، هذا الاهتمام يتفاوت من دراسة إلى أخرى، فمنها من وقف عنده باعتباره مبحثاً بلاغياً مهماً، ومنها من دعا إلى التماس دوره في الخطاب القرآني خاصة، باعتبار هذا الخطاب قد بني في أصله على هذا المقصد، فما ذكرت النار إلا وذكرت معها الجنة وما ذكرت الحسنات إلا وقابلتها السيئات، سواء أتم ذلك بطريقة مباشرة أم بطريقة غير مباشرة تفهم من سياق الكلام. ونحن فيما نعلم وفيما قرأنا، لم نقف على دراسة أعطت لهذا المبحث حقه، وحاولت التأميل له وتبيان طرق اشتغاله في مجموعة

نظرية التأويل التقابلي الأصول والامتدادات

من الخطابات الإنسانية (النص الشعري/ الثري/ القرآني/ الصورة...) على تعدد طرقها ووسائل إدراكها، مثل دراسات الباحث المغربي محمد بازي في أسفاره الثلاثة الموسومة بـ: " التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات"، و" تقابلات النص وبلاغة الخطاب: نحو تأويل تقابلي" و" نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب"، وهي مؤلفات متفاوتة من حيث زمن صدورهما، فالأولى والثانية صدرتا في العام نفسه ٢٠١٠م، ثم تلاهما الكتاب الثالث في عام ٢٠١٣م.

لقد سعى محمد بازي، من خلال هذه الكتب الثلاثة، إلى محاولة التأسيس لرؤية نقدية عربية حديثة في تأويل النصوص على أساس تقابلي، باعتبار هذا العنصر، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، يسكن جميع الخطابات والنصوص. إنه اجتهاد يحاول أن يتجاوز ذلك الاشتغال الذي اختزل آلية التقابل، على أساس كونها لا تعدو مجرد آلية بلاغية تنضوي تحت علم هو في الدرجة الثالثة من مراتب البلاغة، وهو علم البديع. إلى التوسيع من مجال اشتغال هذا المفهوم وجعله وسيلة مهمة في الفهم والإفهام. ولن نستبق في إصدار الأحكام وتقييم الاجتهادات قبل استقصاء الفروض والتحقق من آليات الاشتغال.

سنحاول في هذا المقال أن نطرح مجموعة من الأسئلة نتوخى الإجابة عنها وفق فصول ثلاثة نرصد من خلالها الأسناد المرجعية والمعرفية لنظرية التأويل التقابلي، ونتتبع في إثر ذلك المراحل التي مرت منها هذه النظرية والأشواط التي قطعتها في مساري التأسيس والبناء، مبرزين في سياق ذلك الآفاق العلمية التي تتطلع إليها النظرية وتنشدها. فما هي إذن، الأصول التي استعان بها محمد بازي في بناء نظرية التأويل التقابلي؟ وما هي أبرز المحطات التي أطرت جهود هذا الباحث في بناء النموذج التقابلي؟ ثم ما الجديد الذي قدمه الباحث في حقل المناهج والتأويلات الحديثة؟

الأسناد المرجعية والمعرفية لنظرية التأويل التقابلي

كل نظرية طموح وبناءة في أي مجال من المجالات، لا بد لها من الاستناد إلى دعائم، وطلب العون من نظريات واتجاهات أخرى لبناء تصور جديد خصوصا في مجال الأدب، لأن النظرية النقدية الفعالة، في نظرنا، هي التي لا تلغي ما سبقها من الاجتهادات، بل تستثمر كل ما يمكن أن تمنحه إياها لصياغة نموذج يتجاوز القصور أو العجز الذي سقطت فيه التوجهات التي سبقتها.

التأويل بالتقابل الذي دعا إليه محمد بازي لم يولد من عدم، ولم يتم توسيع مفهومه وتفريعه إلى أنواع متعددة بشكل اعتباطي، وإنما حصل ذلك -فيما نعتقد- من خلال انكباب صاحب المشروع بالرجوع إلى مجموعة من الخطابات على اختلافها، ومحاولة البحث عن الكيفية التي يشتغل بها هذا المكون في مجملها، وهي خطابات موزعة بين الخطاب الشعري، السردى، الدينى، ثم النقدي. وقد نما مفهوم التقابل وتطور بفضل ما قدمته له مجمل هذا المباحث، إما بشكل مباشر، وإما من طريق الجهد الكبير الذي بذله بازي في التنقيب عن حضور المكون التقابلي في هذا الخطاب أو ذاك. إن ما نسعى إلى بلوغه في هذه الفصل الأول، هو محاولة البحث عن مختلف المرجعيات والنظريات سواء القديمة منها أو الحديثة التي استعان بها بازي في بلورة مشروعه النقدي، ثم محاولة بيان مختلف الخطابات التي اشتغل عليها، ثم طرح سؤال جوهري وهو هل ساعده ذلك فعلا في بناء بعض التصورات التي تقوم عليها تأويلية التقابل؟

الأسس المرجعية

يرى محمد بازي أن "النموذج يقوم أساسا على الرؤية التقابلية للعالم، وهو يأخذ من العلم بالنصوص ما يراه مفيدا، إذ يعتبره نتاجا بشريا يضطلع بدور، وينهض على فوائد جمّة في تحليل الخطاب وفهم النصوص، ومن ثمة فهو يستعير منه بعض الأدوات التقنية مثلما يحصل في سائر الميادين الحياتية [...] إضافة إلى أن مجال العمل بالتفكير

نظرية التأويل التقابلي الأصول والامتدادات

التقابلي غير محصور في ميدان محدد، وإنما يسعى إلى التعامل مع كل النماذج البيانية الحاملة للمعنى"^(١).

يبين النص أعلاه، أن تأويلية التقابل تسعى إلى الاستفادة من مختلف النظريات التي اهتمت بتحليل النص والخطاب، حيث تستعين بكل ما يمكن أن يعين التصور التقابلي ويغنيه، على اعتبار أن المعرفة تراث إنساني مشترك، لا تختص بلغة، أو جنس، أو عرق ما. فالنظريات النقدية مثلاً التي تحقق أكبر قدر من النجاح هي تلك النظريات التي يمكن العمل بمبادئها وقواعدها في مجمل اللغات.

إن المتأمل للتصور الذي تقوم عليه نظرية التأويل التقابلي، يستشف مما لا يدع مجالاً للشك، أن هذه النظرية قد استفادت واستعانت بمجموعة من الحقول المعرفية العربية والغربية على تعددها واختلافها. فتارة من خطاب التفسير والشرح، وكتب النقد الأدبي العربي القديم، وتارة أخرى من النظريات اللسانية والسيمايائية والنقدية الحديثة.

خطاب التفسير والشرح ودوره في بلورة المشروع التأويلي التساندي التقابلي

اهتم محمد بازي بكتاب التفسير لما يختزله من مجهود فكري وتأويلي كبير، يستدعي التوظيف الجيد لمختلف الضوابط التي تستوجبها عملية التأويل، من دراية بعلوم الآلة، والتوفر على كفايات منهجية وتحليلية تسعف في بناء معنى مقبول للنص، خاصة إذا كان هذا النص هو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

سبق وأن أشرنا إلى أن من بين المفاهيم المؤسسة لمشروع بازي، هو مفهوم التساند، وقد قاده إيمانه بهذا المبدأ إلى محاولة البحث عن الكيفية التي يشتغل بها هذا المكون في خطاب التفسير، جاعلاً من تفسيري كل من جار الله الزمخشري، الموسوم بـ "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" و "تفسير القرآن العظيم" لعلماد الدين ابن كثير، نموذجين، للتحقق من حضور البعد

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي، مرجع سابق، ص ٢٤.

التساندي في خطاب التفسير عندهما، ممثلاً لذلك بسورة الفاتحة. وعمل بازي هذا يندرج ضمن ما يمكن أن نسميه تأويل فوق تأويل، فهو يؤول تأويل العالمين المفسرين لسورة الفاتحة.

خلص بازي إلى أن هذين التفسيرين لسورة الفاتحة مبنيين على المقصد التساندي، إذ تشتغل كل من الدوائر الصغرى والكبرى عندهما معا في بناء معاني سورة الفاتحة. وإن كان الزمخشري يركز على المكون البلاغي، لما له من أهمية في فهم الخطاب القرآني، فهو في نظره أولى بالمعرفة والإتقان من كل ما عداه، فتفسير القرآن لا يقوم به إلا "رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن. وهما علم المعاني وعلم البيان"^(١). ومن هنا نفهم تركيز الزمخشري على البلاغة، حتى عدّ تفسيره الكشاف تفسيراً بلاغياً. أما الدوائر الكبرى التي استعان بها هذان المفسران في بناء معاني سورة الفاتحة، فحصرها بازي في مجموعة من الدوائر، كمعطيات السور، وأقوال الصحابة، زيادة على الدور الفعال الذي اضطلع به الشعر في التخريج الدلالي لمجموعة من آي القرآن.

أما خطاب الشرح، فقد عمل فيه بازي بالصيغة نفسها التي اشتغل بها على خطاب التفسير، فبين كيف أن هذا الخطاب يقوم هو كذلك على مبدأ التساند بين دوائر النص الصغرى والكبرى في التخريج الدلالي لأبيات أبي الطيب المتنبي، في دراسة لأبي البقاء العكبري والموسوم ب: "التبيان في شرح الديوان".

كتب البلاغة والنقد القديم ودورها في بلورة المشروع التأويلي التساندي التقابلي:

نهض بازي وهو يقوم بصياغة مشروعه النقدي، بمحاولة دخول غمار معظم علوم العربية، فبعدما اشتغل على الخطاب الديني، سيغير زاوية النظر نحو البلاغة العربية وكتب النقد الأدبي. ويظهر اهتمامه بالبلاغة العربية في انكبابه على إعادة تشكيل مفاهيمها كالاستعارة والتشبيه والمجاز والكناية وغيرها من زاوية نظر تقابلية،

(١) - الزمخشري جار الله، الكشاف، مرجع سابق، ١/٧-٨.

فليس من الضروري "أن نبقي أسرى التصورات والأطر المعرفية التي وضعها البلاغيون القدامى، بحيث نتبع بشكل حرفي ما رسموه من أسس وقواعد في كل مسألة بلاغية على حدة"^(١).

لقد قاده إيمانه بهذه الفكرة إلى الاشتغال على أنماط متعددة من الأنواع البلاغية، وبيان البعد التقابلي الذي تتأسس عليه، فالتشبيه مثلاً يقوم على هذا المبدأ، من خلال تقابل المشبه مع المشبه به، والأمر نفسه في الاستعارة والإسناد والحقيقة والمجاز.^(٢) إن الرجوع إلى البلاغة العربية قد أعان النموذج التقابلي في صياغة بعض من مصطلحاته ونحتها، وهو ما يزكيه قول الباحث نفسه، حيث يقول: "تعين العودة إلى الدراسات البلاغية القديمة على التوقف عند مظاهره [...] هدفنا التأسيس لتأويلية تقابلية بليغة انطلاقاً من هذا العلم، ومن غيره، أو لبلاغة جديدة، عبر استكشاف آليات بناء الخطاب إنتاجاً، ثم البناء عليها في مقارنة الخطابات والنصوص، باعتماد ما توصل إليه البلاغيون من أدوات قرائية"^(٣).

أما فيما يخص النقد الأدبي، فقد اهتم بازي بالعديد من مؤلفاته، خاصة كتب الموازنات الشعرية باعتبارها تشكل مثلاً حياً على تبلور النقد التطبيقي لدى العرب منذ القدم. وأخص بالذكر هنا كتابي "الموازنة بين أبي تمام والبحري"، "للأمدي"، و"الوساطة بين المتنبي وخصومه"، "للقاضي الجرجاني". وقد قاده اشتغاله على هذين المؤلفين وغيرهما إلى تأكيد فكرة مهمة مفادها، أن مجمل القضايا النقدية التي وردت في هذه المؤلفات، شيدت بحس تقابلي غير مصرح به، وهو تقابل "تمثّل في تسميات

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي، مرجع سابق، ص ١٣٥.

(٢) - حاولت هنا أن أبين كيفية التي اشتغل بها بازي في توضيح هذا البعد التقابلي الذي يسكن الأساليب البلاغية، وقد أورد في كتابه نظرية التأويل التقابلي مجموعة من الأمثلة الدالة على ذلك، وللمزيد من التفصيل في هذا الموضوع أنظر المسلك الخامس من كتاب نظرية التأويل التقابلي.

(٣) - نفسه، ص ١٥٥.

ومفاهيم مختلفة ما هي إلا تفرع عن منطلق تقابلي أساس في صناعة المعنى وفهمه^(١).

النظريات اللسانية والسيمائية ونظريات تحليل الخطاب وعلاقتها بالتأويل

التقابلي

إن ما يميز الاشتغال التقابلي، هو أنه نموذج مفتوح، يقبل الاستفادة من مختلف المناهج والنظريات اللسانية والنقدية وغيرها لبلورة مفاهيمه وتصورات، إلا أن هذا الانفتاح ليس مثل مفهوم الانفتاح الذي طرحه أمبرتو إيكو، وإنما هو انفتاح مؤطر في حدود ما يخدم مقصدية التأويل التقابلي. ونظن أن انفتاح نظرية التأويل التقابلي على جهود غيرها من المناهج، والاستفادة منها مع تطعيمها بما تقترحه النظرية، هو ما أسهم في تحقيق هذه القوة الإجرائية والمنهجية التي تتوفر عليها نظرية التأويل التقابلي، وهي قوة تظهر بجلاء في تحليل النصوص وتأويلها.

تظهر استفادة النظرية وانفتاحها على بعض المناهج اللسانية والنقدية، في الطريقة التي عالج بها بازي مجموعة من التصورات، التي اعتبرها قضايا وتصورات يشترك كل المشتغلين على النص والخطاب همها وينشغلون بطموح التأصيل لها، مثل قضية القصديّة، ثم انسجام النص واتساقه، وقضية السياق والموازيات أو المتعاليات النصية وغيرها كثير.

إن اشتغال بازي على هذه القضايا، وبناء تصور خاصٍ حولها نابعٍ من روح النظرية التأويلية التقابلية وفلسفتها، يتم عن طريق عرض مختلف التصورات التي قيلت حولها، في حقول معرفية متباينة، مثل اللسانيات، والسيمائيات، ونظريات تحليل الخطاب، ثم مناقشتها بطريقة علمية رصينة يتم من خلالها مقابلة مختلف الآراء، وبيان مكامن القوة فيها، ثم مواطن الضعف، ثم بناء تصور يُكَيِّفُ مختلف هذه الآراء

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي، مرجع سابق، ص ١٥١.

وفقا لما تقترحه نظرية التأويل التقابلي طبعاً. ففي قضية القصصية مثلاً، يتبع بازي مختلف الآراء التي قيلت حول هذا الموضوع، إذ تحدث عن ثلاثة اتجاهات، بعضها رأى بأن قصصية النص تبنى أو يمكن الوصول إليها بمعرفة مهمة بحياة الكاتب ومجمل الظروف التي مر بها؛ لأن أدبه بالضرورة هو انعكاس لحياته، ويمثل هذا الاتجاه رواد المدرستين التاريخية والنفسية. وفي الجهة المقابلة يعرض بازي تصور اتجاهات أخرى، تحد من سلطة المنتج، وترى أن القصصية تبنى انطلاقاً مما يحويه النص داخلياً، من بنى لغوية، وتركيبية، ونحوية، وأسلوبية، وتمثل هذا الاتجاه، بعض المناهج اللسانية والبنوية والأسلوبية. ليأتي الدور على تصور نظرية التأويل التقابلي التي ترى أن قصصية النص أو معناه، يمكن الوصول إليه، أو بنائه بشكل مقبول عبر العملية التساندية، فهي وفق هذا التصور، نظرة لا تلغي الوظيفة الفعالة للنص ومحتوياته، كما لا تهمل الوظيفة المهمة التي تمنحها متعلقات النص، مثل السياق وظروف إنتاج النص في بناء معناه؛ لأن "معنى النص في تأويلية التقابل هو معنى جميع مكوناته النصية متضافرة معجمياً، وصرفياً، وتركيبياً، إلى جانب متعلقاته السياقية، وكل المواد التي تساهم في الفهم من قرائن ونصوص وعمليات ذهنية وتأويلية"^(١).

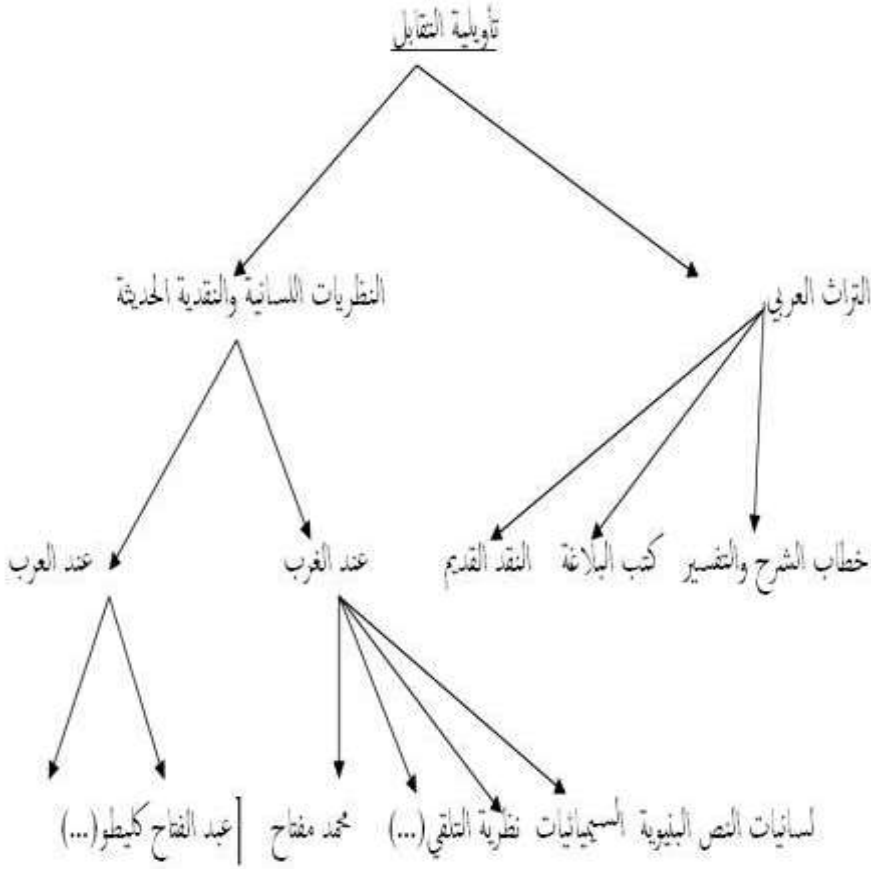
كما تؤكد استفادة بازي من نظريات تحليل الخطاب، خصوصاً نظرية التلقي، التي نعتبرها منهجاً يتقاطع في كثير من آرائه مع ما تدعو إليه تأويلية التقابل، ولعل أهم تقاطع بين النظريتين، هو تركيزهما معاً على الدور الكبير الذي يضطلع به القارئ في تشيد النص وبناء معناه، ومنحه الاتساق والانسجام. كما استفاد بازي من المنهج البنوي والسيمائي، ولسانيات النص على وجه الخصوص. أما في ثقافتنا العربية، فقد استعان محمد بازي بتصورات محمد مفتاح، ثم عبد الفتاح كليطو على وجه التحديد.

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي، مرجع سابق، ص ٤١٨.

فإن قلت: أين تتجلى مظاهر استعانة بازي بكل ما تم استعراضه؟ قلنا: لقد وعى بازي أهمية التراث بمختلف مظاهره النقدية أو اللغوية أو الفلسفية، فحاول تتبع بعض الاجتهادات النظرية والتطبيقية التي حفظها لنا التراث، ثم انكب على دراستها، في حدود ما يخدم فلسفة التأويل التقابلي. وقد قاده هذا الاشتغال في نظري إلى صياغة مجموعة من المفاهيم ونحتها، خاصة فيما يتعلق بالرجوع نحو البلاغة العربية. رجوع ممكن من توسيع مفهوم التقابل، ليشمل تقابلات أخرى ذات مظهرات بلاغية، كالتقابل الخفي في البنيات التشبيهية، أو التقابل في الكناية، وتقابل الالتفات، وغيرها كثير. أما استعانتها بكتب التفسير، والشرح، والنقد الأدبي العربي القديم، فقد مكنته من تعزيز الطرح التساندي الذي اقترحه، فالاشتغال على هذه الخطابات مكن تأويلية التقابل من تأكيد هذا البعد التساندي وبيان فاعليته في القراءة والتأويل. وأظن كذلك أن استعانتها بالمناهج اللسانية والسيمائية ونظريات تحليل الخطاب الغربية، ممكنة من تعزيز تأويلية التقابل باقتراحات أخرى وردت في هذه المناهج التي رأى فيها بازي خير سند لروح التأويلية التقابلية إبان عمليتي الفهم والتأويل. وتظهر كذلك استفادة المؤلف من النقاد المغاربة في كثير من الأنحاء، ونخص بالذكر هنا كل من مفتاح وكليطو. ونعتقد أن محمد بازي قد امتلك قوة إجرائية مكنته، على حد تعبير الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمان، من "تحصيل معرفة شاملة بمناهج المتقدمين من علماء الإسلام ومفكرهم [...] مع تحصيل معرفة كافية بالمناهج الحديثة تمكن من القدرة على تجاوز طور تقليد المناهج واقتباس النظريات إلى طور الاجتهاد في اصطناع المناهج ووضع النظريات"^(١).

ويمكن أن نعيد رسم حدود استفادة تأويلية التقابل من بعض المناهج والنظريات النقدية وطلب العون منها في الخطاظة الآتية:

(١) - عبد الرحمان طه: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/المغرب، بيروت/لبنان، ط ٣، ٢٠٠٧، ص ٢٠.



الأسس المعرفية

إن الكشف عن اشتغال التقابل في مختلف الخطابات وبيان مختلف أنواعه، ليس عملية سهلة، بل هي عملية صعبة تحتاج جهدا فكريا وذهنيا كبيرا وقدرة بليغة على التحليل، وهي قدرة لا يمكن امتلاكها والتمكن منها، إلا بإتقان جملة من العلوم النظرية، وبعض الخطوات الإجرائية والمنهجية، ومن ذلك أن الاشتغال بالتقابل يحتاج مثلا إلى التمكن من علوم الآلة، لما لها من دور في الكشف عن أوجهه المختلفة. ثم حصول كفاية جيدة لدى المؤول حول علوم البلاغة، خاصة الحقيقة والمجاز، على اعتبار أن هذا المكون يشتغل في هذا الأساليب بكثرة، لكنه لا يظهر بصورة واضحة، وإنما في بنية خفية، تحتاج إلى معرفة دقيقة بضروب الحقيقة والمجاز قصد التوصل إلى

مختلف التقابلات الخفية التي ينهض عليها هذا العلم. ثم إذا تحصلت المعرفة بكل هذه العلوم، يأتي الدور على الكفاية المنهجية التي تظهر قدرة المؤول على الجمع بين الأفكار المتداخلة أحيانا والمتباعدة أحيانا لصياغة تأويل مقبول للنص.

علاقة التقابل بعلوم الآلة العربية

شكلت علوم الآلة (الصرف، النحو، العروض، البلاغة) للنموذج التأويلي التقابلي عونا كبيرا في إمكان توسيع المفهوم ليشمل أنواعا أخرى، ومظاهر متعددة من التقابل، الخفي منه والظاهر. وتظهر أهمية علوم الآلة في مختلف المداخل التي تمنحها لحظة التأويل خاصة في أثناء الاشتغال النصي؛ لأن البعد الإجرائي والمنهجي لهذه العلوم يظهر وقت الاشتغال على النص، أكثر من غيره. وانطلاقا من الوعي بقيمة هذه العلوم ما فتى بازي يؤكد على التسليح بها في خوض غمار التأويل، فهي شرط ضروري لا بد منه، فمثلها مثل الأوكسجين، فكما أن الإنسان لا يمكن أن يتنفس من دون أوكسجين، فكذلك المؤول لا يمكن له أن يحقق أدنى شروط التأويل البليغ بدون تمكنه من هذه العلوم. وهكذا إذن يظهر أن المعرفة بهذه العلوم تظل "من أقوى علامات نضج الخطاب التحليلي والتأويلي اليوم وغدا"^(١). وهي كذلك من أبرز الأشياء التي تسهم في الوقوف على أنواع التقابل ومختلف مظاهره ومستوياته.

علاقة التقابل بالمجاز والاستعارة وسنن العرب في كلامها

اعتنى بازي بمكوني المجاز والحقيقة لدورهما البارز والمهم في إدراك المعنى، فصعوبة هذين المبحثين خصوصا مقارنة مع باقي مباحث البلاغة العربية، هو ما يستوجب الاعتناء بهما وضبطهما؛ لأن عدم ضبطهما يؤدي إلى انحراف المعنى والخروج به عن جادة الصواب. ولعل ما يبين خطورة المجاز، هو تلك الهالة التي أثرت حوله في القديم وإلى يومنا هذا، حتى انقسم أهل البلاغة والبيان قسما: واحد أنكر وجود المجاز في لغة العرب جملة وتفصيلا، وآخر أنكر وجوده في القرآن، وأقر بوجوده في

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي، مرجع سابق، ص ١١٠.

نظرية التأويل التقابلي الأصول والامتدادات

اللغة. ولسنا هنا في مقام يسمح بالحديث حول هذا الخلاف؛ لأن الهدف الأساس الذي نسعى إليه هو بيان الدور الكبير الذي تضطلع به المعرفة بجهات استعمال الحقيقة والمجاز في كل عملية تأويلية عموماً، وفي التأويل التقابلي خصوصاً. ولهذا نظرت إليه تأويلية التقابل نظرة شاملة، واعتنت به عناية خاصة حتى جعلته أساً من أسس التأويلية العربية.

يتطلب التأويل بالتقابل كذلك معرفة مهمة بسنن العرب في كلامها؛ لأن من شأن ذلك أن يسهم في معرفة مختلف الخطابات التي تلجأ فيها العرب إلى التجوز أو الحذف، أو ذكر المكان وإرادة الحال وغيرها، وهكذا فالعلم بهذه السنن يشكل دعامة للفهم بالتقابل ومدخله له.

التقابل وعلاقته بالكفاية المنهجية

إن التمكن من الكفاية المنهجية هو أس من أسس التأويل بالتقابل كما هو أس من أسس جميع التأويليات التي تسعى إلى بناء المعنى، فحتى لو كانت للمقبل على النص دراية جيدة بمختلف علوم العربية من صرف ونحو وبلاغة وعروض وغيرها، واختلت عنده الكفاية المنهجية لما استطاع تأويل النص؛ لأن إتقان علوم الآلة يبقى معيناً فقط في أثناء العملية التأويلية، وأن التميز والاختلاف بين النقاد والمؤولين، يظهر في مدى تمكنهم من الكفاية المنهجية التي يستطيعون من خلالها ربط السابق باللاحق، وتجميع الأفكار، ثم ترتيبها على وجه مخصوص، يجعلها أفكاراً متسقة ومتراصة ومكملة بعضها بعضاً، مما ينتج تأويلاً مقبولاً. ولذلك وصفت تأويلات بأنها صحيحة وأخرى غير صحيحة، لا لشيء إلا بتوفر الكفاية المنهجية في هذه التأويلات وغيابها في تلك إن صح وصفها بهذا الوصف. والتمكن من هذه الكفاية أمر يؤكد عليه بازي في مجمل كتبه، كما أننا نلمس حضور هذا البعد في مجمل خطابه التأويلية البانية للمعنى.

رحلة المشروع من الاستكشاف إلى بناء النموذج

إن أي مشروع نقدي طموح على ما نعتقد، لم يتبلور دفعة واحدة، بل يتشكل عبر مراحل عديدة، بدءاً من كونه فكرة تشكلت في ذهن بائه، وصولاً إلى صياغة ضوابط وقواعد خاصة به، ثم نهاية بتجريب هذه الآليات والتحقق من المفاهيم، لبيان نجاعة المنهج أو النظرية في تحليل النصوص والخطابات. ولعل النموذج الذي اقترحه الباحث محمد بازي، لا يخرج عن هذه الترسيمة، فقد مر بمرحلة أولى، ويمكن أن نسميها باللحظة التمهيدية، أو مرحلة بداية استكشاف النموذج، ثم مرحلة ثانية يمكن أن نسميها بالمرحلة الواسطة، وهي مرحلة بدأت فيها معالم التأويل التساندي التقابلي تظهر للوجود، من خلال محاولة دراسة مجموعة من النصوص والتحقق من المفاهيم، ثم المرحلة الثالثة، وهي المرحلة التي بلغ فيها المشروع درجة عالية من الدقة، فحصل من خلالها بناء النموذج. وهكذا يمكن أن نعيد رصد المراحل التي قطعها المشروع التأويلي لمحمد بازي وفق الخطوات الآتية:

المرحلة التمهيدية

نعتقد أن الوعي بأهمية التأويل ودوره في حياة الإنسان عامة قد تبلور لدى محمد بازي منذ مراحل الأولى في درب التحصيل العلمي، ورغم أننا لا نملك قرائن تدلنا على هذه المقولة، إلا أننا نمتلك بعض المرجحات والمعينات والقرائن التي تظهر هوس بازي بالتأويل، ويتجلى ذلك في أطروحته لنيل دبلوم الدراسات العليا عام ١٩٩٩م، حيث اشتغل على موضوع يحمل عنوان: " النص واستراتيجيات التأويل: مقارنة في خطاب التفسير"، فهذه الرسالة تمثل في نظرنا المرحلة الجنينية لتشكيل الوعي بأهمية التأويل. هذا الطرح ستركبه رسالة الدكتوراه التي حصل عليها المؤلف عام ٢٠٠٦م في موضوع يكشف عن البداية الفعلية للشعور بأهمية التساند في العملية التأويلية، والرسالة موسومة بـ " التأويلية العربية: تجليات التساند ومستويات انفتاح السياق"، فعنوان الأطروحة يحيل، مما لا يدع مجالاً للشك، على تظن محمد بازي

لأهمية المقصد التساندي في فهم كثير من خطابات التأويلية العربية، كما أن للسياق دورا كبيرا في تخريج مجموعة من المعاني التي لا تظهر في النص بصفة مباشرة. مما يظهر أن هذه المرحلة، أي ما بين عام ١٩٩٩م وقت إنجاز بازي لأطروحة نيل دبلوم الدراسة العليا، وعام ٢٠٠٦م وقت حصوله على درجة الدكتوراه، شكلت مرحلة تمهيدية لتبلور النموذج التأويلي التساندي وظهوره.

المرحلة الواسطة (الوسطى)

سَمَّيْتُ هذه الفترة بالواسطة، لأنها جاءت بين المرحلة الجنينية للمشروع ومرحلة بناء النموذج واستوائه، وهي مرحلة يمكن أن نربطها بتشكيل كتاب " التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات " وظهوره ، وقد بذل فيه المؤلف جهدا كبيرا لصياغة تصوره حول العملية التأويلية، وبالرجوع إلى الهيكل العام الذي بني عليه الكتاب، يظهر أن بازي بناه وفق مبدأ متدرج، حيث قسمه إلى أحد عشر فصلا، اشتغل في مجملها على مجموعة من القضايا التي تخص التأويل، ثم على قضايا أخرى تدعم الطرح التساندي وترجحه. وهكذا عمل الباحث في الفصل الأول على إعادة تشكيل مفهوم التأويل، ليصبح " كل فعل قرائي يروم بناء المعنى، استنادا إلى أدوات ومرجعيات وقواعد في العمل، والتزام مطلق بحدود البلاغة التأويلية"^(١)، ثم أفرد الفصل الثاني للحديث حول بعض الاستراتيجيات المعتمدة في التأويلية العربية كبلاغة الارتداد والامتداد، ليجعل من الفصول الثلاثة التي تلي الفصل الثاني بساطا نظريا لشرح منهجية التساند، إذ توقف بالنظر والبحث عند دوائر بناء المعنى وعند دوري المساق والسياق في التخريج الدلالي. لينكب بعد ذلك في الفصلين السادس والسابع لتعزيز الطرح التساندي، من خلال الاشتغال على خطابين

(١) - بازي محمد، التأويلية العربية، مرجع سابق، ص ٢١.

اثنين؛ هما خطابا التفسير والشرح، حيث أوضح الباحث أن هذين الخطابين يؤسسان على مقصد تساندي/ من خلال تساند دوائر النص الصغرى والكبرى في عملية الفهم والتأويل.

وفي الفصل الثامن من الكتاب ستظهر بوادر نشأة مفهوم التقابل كآلية فاعلة في إنتاج النصوص، وفعالة في تلقيها وتأويلها، حيث وسمه الباحث بالتقابل والتساند، وعرض لمفهوم التقابل ودوره في إنتاج بلاغة تأويلية، ليطعم مفهومه في الفصل التاسع، وذلك بتوسيعه ليشمل أنماطا أخرى من التقابل، مثل التقابل النقيضي والنظيري وغيرهما، وفي الفصل العاشر، أعاد المؤلف تشكيل مجموعة من التقابلات الموسعة التي يمنحها السياق وظروف إنتاج النص. أما الفصل العاشر، فخصصه بازي، للتحقق من فاعلية ما اقترحه في جل الفصول النظرية للكتاب، حيث قام بتحليل قصيدة "حالات الزمان عليك شتى" لأبي الطيب المتنبي وفق نظرة تساندية تقابلية.

تُظهِرُ إذن هذه الرحلة المختصرة في كتاب بازي، البعد الذي اقترحته، وهو أن هذا المؤلف شكل واسطة العقد في مشروع بازي، ففيه طرح النموذج التساندي التقابلي نظريا، فبين حدوده وآليات اشتغاله ثم طرق بنائه للمعنى، ثم تأكد من فاعليته، فطبقه على نص المتنبي.

دعما لهذا الطرح وهذا التصور في تحليل النصوص، سيعزز المؤلف كتابه الأول، بِسِفْرٍ آخر، هو على شكل مغاير للكتاب الأول، ففي هذا الكتاب يظهر البعد الإجرائي التطبيقي للنموذج التقابلي في تحليل النصوص، وقد وسمه بازي بـ "تقابلات النص وبلاغة الخطاب: نحو تأويل تقابلي"، اشتغل فيه على تحليل مجموعة من الخطابات، دعما للفلسفة التي تريد أن تؤسس نموذجا تقابليا قادرا إلى النفاذ لكل أنماط التعبير، وهو كتاب نعتقد أنه ينتمي إلى هذه المرحلة الواسطة كذلك.

مرحلة بناء النموذج

تميزت هذه المرحلة ببروز المعالم الكبرى المشكلة لنظرية التأويل التقابلي، إذ تم العمل على توسيع المفهوم نظرياً، ثم توسيعه تطبيقياً كذلك، ليشمل العمل به خطابات أخرى، كالخطاب الروائي مثلاً. وأعتقد أن القوة التطبيقية التي ضمنها بازي كتاب تقابلات النص وبلاغة الخطاب مكتبته، على حد فهمنا، من اكتشاف آليات أخرى يمنحها التأويل بالتقابل وهو ما دعا إلى توسيعها والتأصيل لها ضمن سفر نقدي جديد صدر عام ٢٠١٣م، يحمل عنوان: "نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب"، وأعتبره الكتاب الذي شهد تبلور النموذج التأويلي التقابلي بشكل واضح وصريح.

يتقاسم الكتاب مجالان اثنان، المجال الأول عنوانه بازي بالأسناد المرجعية والأسس النظرية، وقد جاء موزعاً بين سبعة مسالك، ناقش بازي، في مجملها، أغلب التصورات التي تسير في كنفها نظرية التأويل التقابلي. وهكذا حاول أن يرسم في المسلك الأول حدوداً للنظرية وتبيين الفرق بينها وبين النموذج، ثم بيان أهم المفاهيم المؤسسة للنموذج التقابلي، فالغايات المراد تحصيلها من تطبيق النموذج. ثم سعى في المسلك الثاني نحو تعزيز الطرح التقابلي، ثم الدعوة إلى الرجوع نحو التراث لصياغة النظريات والكف عن الانبهار الأعمى بما حققه الغرب في مجال الأدب والنقد، لأنه "كثيراً ما تأكد للباحثين أن ما قدمه الغربيون بلغة العلم والوصف الدقيق يوجد في التراث العربي الإسلامي نظيره، بل أحياناً ما هو أعمق منه في التحقيق والتدقيق"^(١).

وانشغل بازي، في المسلك الثالث، بتوضيح الكيفية التي يتم بها الفهم بالتقابلات، وقد حصرها في ست عشرة عملية، مثل عمليات التذكر والدعم والتطعيم، وعملية استحضار أطر موسعة وغيرها^(٢). أما المسلك الرابع، فخصه

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٢) - للمزيد من التفصيل في هذا الموضوع أنظر المسلك الثالث من كتاب نظرية التأويل التقابلي.

المؤلف لبيان الزاد الذي يجب على المؤول أو المشتغل بالتقابل التمكن منه، كالتمرس بعلوم الآلة وسعة الاطلاع عليها، وفي المسلك الخامس، عمل بازي على توسيع مفهوم التقابل، وذلك من خلال انكبابه على تحليل حضور البعد التقابلي في مختلف الأساليب البلاغية العربية، ما بين تقابل خفي وآخر ظاهر. أما المسلك السادس فجاء تدعيما للمفكرة التي تقول بأن النص المصغر ما هو إلا انعكاس للنص المكبر (الكون)، ثم بيان أن التقابل مستويات، منه ما يحصل على مستوى الكلمات المفردة، ومنه ما يحصل على مستوى الجمل. وبها أن لتأويلية التقابل نمطها الخاص في التعامل مع النصوص فقد جاء المسلك السابع ليعين التصور التقابلي لمفهوم النص، إذ النص، من هذا المنظور، تتقاسمه مجموعة من العناصر والوحدات، إذ هو "مجموع الوحدات المعنوية الحاضرة والممثلة لغويا عبر تقابل المكونات والعناصر بأي علاقة أو أي اعتبار. وتبعاً لهذا فالنص من زاوية نظر تقابلية ليس تام المعنى إلا بحضور قوة تلق افتراضية وتأويلية بانية"^(١)

أما المجال الثاني من الكتاب فجاء في معظمه تطبيقياً صرفاً، اتجه فيه بازي نحو تجريب المفاهيم والتحقق من الفروض والضوابط التأويلية، وذلك بالاشتغال على النص والخطاب، ثم تفسير كيف يتم التقابل بين السياقات الداعمة لعملية التأويل، كما تنبه إلى الدور الكبير للتواصل، فبين في التنزيل الرابع كيفية التي يبنى بها التقابل في العملية التخاطبية التواصلية، كما لم يفته أن يطبق النموذج التقابلي على النص الروائي، ثم ختم الكتاب بمحاولة لتوسيع مجال الاشتغال، ثم بمراجعات وخلاصات وملحقات.

لم يكن همنا ونحن نحاول تبين كيفية التي بني عليها الكتاب، عرض مختلف المحاور والتفصيل فيها، ولكن كان دافعنا الأساس هو تبيان هذا الجهد الفكري

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

والذهني النقدي الكبير الذي بذله بازي لصياغة نظرية التأويل التقابلي وبنائها، ولذلك اعتبرنا هذا الكتاب، السفر الذي يمثل المرحلة الثالثة من مشروع بازي، فهو سفر، في نظرنا، سيظل شاهدا على تبلور التأويل التقابلي ووصوله إلى درجة عالية من النضج المنهجي والنقدي.

آفاق النموذج التقابلي في مجال القراءة والتأويل

يعد مجال الأدب والنقد حقلا خصبا لتشكّل مجموعة من النظريات والمناهج التي تسعى إلى تطوير الأدب وتطويره، وجعل القارئ قادرا على الوصول إلى تذوق جماليته واستكشاف ماهيته بواسطة تطبيق مبادئ هذا المنهج أو ذلك، والتي يرى فيها كل منهج أنها الأصلح والأقرب للوصول إلى هذه الغاية. ومعلوم أن الأدب منذ القديم وإلى عصرنا هذا كان جنسا إبداعيا وسيظل كذلك، لا يعرف الاستقرار أو الثبات على حال، وإذا كان الأمر كذلك فكل نظرية أو منهج صيغ لمقاربة الأدب، يجب أن يعي جيدا هذه الخاصية الإبداعية فيه وأن يكيّف قوانينه وضوابطه لكي تسايرها؛ لأن تاريخ الأدب شاهد على كثرة النظريات التي سعت إلى ضبطه وتأويله، لكن هذه النظريات ما تفتأ تضبط بعض النصوص، حتى تطفو على السطح الأدبي نصوص أخرى تثور على هذه القواعد وتخرقها لأنها ببساطة لم تساير خاصية الإبداعية التي هي أهم خصائص الأدب، مما جعلها تموت قبل أن تبدأ في الظهور. ولذلك فالنظريات والمناهج النقدية الجادة هي التي تحقق لنفسها أكبر قدر من المعقولية التي تتجلى في صياغة قواعد تساير الخصوصية الإبداعية وتحترمها. خصوصية قائمة على الخرق التي يتميز بها الأدب، وبقدر توفر هذه النظرية على هذه الشروط والضوابط الجادة، بقدر ما تحقق لنفسها أطول مدة للبقاء إلى جنب الأدب تسايره وتقومه.

سنحاول استكشاف آفاق المشروع التأويل التقابلي الذي قدمه محمد بازي في مجال القراءة والتأويل، ونعتقد أن بقاء هذا المشروع رهين كذلك باحترامه لجملة من الضوابط والقواعد. من أهمها الطبيعة الإبداعية للأدب، وسنحاول أن نبرز آفاق

المشروع التقابلي مؤطرين بجملة من الأسئلة هي: ما هي خصائص النموذج التقابلي؟ وما هو الجديد الذي قدمه في مجال القراءة والتأويل؟ إن نظرية التأويل التقابلي إذا أرادت أن تحقق لنفسها البقاء يجب أن تكون مؤسسة على جملة من الخصائص التي لا يمكن أن تجذب شريحة مهمة من القراء إلا بتوفرها عليها. ولقد قادتنا رحلتنا البحثية مع هذا النموذج للوصول إلى عدة خصائص يتميز بها النموذج التقابلي، يمكن أن نجملها في الآتي^(١):

مبدأ الاستمرار المنظم

إذ إن المشروع التأويلي التقابلي كما سبقت الإشارة إلى ذلك، نما بشكل متسلسل ومنظم، حيث ظهرت بواده الأولى في أطروحتي دبلوم الدراسات العليا في رسالة تحمل عنوان: " النص واستراتيجيات التأويل: مقارنة في خطاب التفسير " ، والدكتوراه، تحت عنوان: " التأويلية العربية: تجليات التساند ومستويات انفتاح السياق ". وهذان المؤلفان في، نظرنا، قد شكلا بداية تشكل الوعي بأهمية التساند في كل عملية إنتاجية وتأويلية. ثم يأتي كتاب " التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات "، ليزكي هذا الوعي بأهمية التساند و اقتراح مفهوم آخر لا يقل أهمية عن المفهوم الأول، وهو مفهوم التقابل. وبعد أن استوت خرائط التأصيل للمفهومين وتم ضبط حدود اشتغالهما، كان لابد من تجريب المفاهيم والتحقق من الآليات التأويلية، وهو ما ظهر في الكتاب الثاني الذي يحمل عنوان: " تقابلات النص وبلاغة الخطاب: نحو تأويل تقابلي "، الذي جعله المؤلف فضاء رحبا لاستكشاف فاعلية النموذج التساندي التقابلي في التأويل والقراءة، وهذا الاشتغال هو ما قاده إلى الوصول إلى إمكانات أخرى كثيرة يمنحها التأويل التقابلي، الشيء الذي دعا إلى تأليف سفر جديد، يظهر هذه القوة الإجرائية والمنهجية للتقابل، وهو ما تم فعلا في

(١) - أشير هنا إلى أنني استفدت من بعض الاجتهادات التي قدمها أحمد بو حسن في مقال له على الشبكة العنكبوتية، خصمه للحديث حول مشروع محمد مفتاح.

كتاب، "نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب"، الذي سعى فيه المؤلف إلى توسيع مفهوم التقابل وضبط آلياته ليصير نظرية. وهكذا إذن يظهر أن المشروع التأويلي التقابلي نما بشكل سلس ومتكامل، ولعل هذه الخاصية من أهم الخصائص الواجب توفرها في المشاريع النقدية البناءة.

مبدأ الجمع بين الممارسة النظرية والتطبيقية

فباستثناء ما جاء في كتاب تقابلات النص وبلاغة الخطاب الذي جعله المؤلف تطبيقيا صرفا على مجموعة من الخطابات، فجعل الكتب الأخرى، تجمع بين التأصيل والتطبيق، ففي كتاب التأويلية العربية، اشتغل بازي نظريا على مفهومي التساند والتقابل، ثم ختم الكتاب بدراسة تطبيقية على نص "حالات الزمان عليك شتى" لأبي الطيب المتنبي. والأمر نفسه في كتاب نظرية التأويل التقابلي، الذي يتقاسمه مجالان: مجال نظري وآخر تطبيقي، مما يظهر تشكل هذا الوعي في الجمع بين الممارسة النظرية والتطبيقية لدى بازي حتى تكون هناك قيمة لما يتم اقتراحه نظريا.

١. الفرضيات الأساس والخاصة للمشروع

كل مشروع نقدي في مجال الأدب لا بد من توفره على فرضية أساسية تميزه عن غيره من المشاريع، والنموذج التقابلي ينطلق من فرضية أساس ترى أن الكون كله مشيد على المقصد التقابلي، وهكذا فالنص الأدبي لا يعدو أن يكون انعكاسا للنص المكبر. فإذا كانت للتقابل هذه الأهمية الكبيرة في تشيد الكون وإحداث التناسب بين الأشياء، فلا شك أن اشتغاله في النصوص سيكون له أثر كبير في توجيه كل عملية إنتاجية أو تأويلية، لذلك وجب الاعتناء به والبحث عن الكيفية التي يشتغل بها في النصوص. أما فرضياته الخاصة فتكمن في اعتباره كل مجال من النصوص له معاييره الخاصة، فالمقصد الذي يحكم تأويل النص الديني مثلا ليس هو الذي يجب أن يحكم الخطاب الشعري.

٢. الانتقاء والترجيح

كل ناظر في مشروع بازي يظهر له، لا محالة، أن الرجل قد استعان بمجموعة من المناهج النقدية القديمة والحديثة؛ فقد انكب على دراسة التراث العربي لما له من أهمية بالغة، ثم استعان بكل ما يمكن أن تقدمه له الأدبيات والمناهج النقدية الحديثة، لأن " المنهج المقترح يقبل العون من علوم أخرى تغذيه، وتعيده أدواتها، وبالأخص تلك التي تتفاعل معه، في بحثه عن المعنى وبلوغ القصدية الثابوية في الأعمال الفنية، والنصوص، والخطابات، والظواهر"^(١). إلا أن ما أود الإشارة إليه هو الطريقة الانتقائية التي يتعامل بها بازي مع هذه المناهج، صحيح أنه يصرح باستفادته من التراث والمناهج الحديثة، لكن هذه الاستفادة تخضع لمنطق الانتقاء والترجيح، إذ ليس كل ما قيل حول التأويل وجب أخذه والعمل به، بل لابد من انتقائه في حدود ما يخدم ويعين المقصد العام لتأويلية التقابل، ولعل هذا المنطق في التعامل مع هذه المناهج هو ما جعلها تنصهر داخل النموذج التقابلي.

٣. مبدأ الانفتاح

النموذج التقابلي، منهج لا يلغي الاجتهادات التي سبقته، بل يسعى إلى الاستفادة قدر الإمكان مما تمنحها له بقية المناهج، في حدود - طبعاً - ما يتماشى والمقصد العام المؤطر للنظرية. إن انفتاح النموذج على غيره في نظرنا، يحاول أن يرتقي بالفعل التأويلي وأن يجعله ذا قيمة، فهو لا يكتفي بالطريقة الأحادية في عملية بناء المعنى، بل يسعى إلى أن يستفيد من كل اجتهاد نقدي غايته فهم النص وتفهمه، ولا يفهم من هذه الاستفادة الاتكاء المطلق على ما تقدمه المناهج النقدية جملة وتفصيلاً، بل يتم ذلك في حدود لا تختفي معها الاجتهادات التي تقدمها تأويلية التقابل لتحليل الخطابات والنصوص.

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي، مرجع سابق، ص ٥٣.

٤. قابليته للتطوير والتوسع

لا شك أن من بين الخصائص التي يتميز بها النموذج التقابلي، هو أنه نموذج مايزال ينحت آلياته، فهو نموذج طيع وبكر، يقبل الإضافة والاجتهاد في تطويره، وهي فكرة يؤكد لها بازي في جل كتبه، ولعل هذه الخاصية، أي قابليته للتطوير والتوسع من أهم خصائص النماذج الفكرية البناءة، وهو ما سيفتح في نظرنا آفاقاً أمام الباحثين للتفاعل مع النموذج، من خلال تثمينه وتطويره.

٥. خدمته للمجال التربوي

تأويلية التقابل استراتيجية قرائية يمكن توظيفها في المجال التربوي، لأن الفهم بالتقابل من أهم العمليات الاستراتيجية التي تحت التلميذ على تشغيل ذهنه من خلال إحداث تواجه بين الشيء ومقابله، ففي "مجال العلوم الدقيقة يمكن إيصال الحقائق العلمية عبر التقابل، لأنها نابعة في الأصل من التقابل الطبيعي في الكون"^(١). كما يمكن العمل به في تفهيم النصين الديني والأدبي أو غيرهما.

٦. الغنى المصطلحي

استطاعت تأويلية التقابل، في نظرنا، أن تحدد لنفسها مساراً خاصاً، يقوم على الإبداع والنحت، ويتجلى ذلك في العمق الكبير الذي تناول به محمد بازي مفهوم التقابل، فهو لم يكتف بظاهره كما سطرت ذلك البلاغة العربية، على اعتبار أن التقابل هو المقابلة بين معنيين أو معانٍ كثيرة، وإنما تم توسيع المفهوم وتفريعه، ليشمل أنماطاً أخرى، وهو ما أدى إلى نحت تفريعات أخرى للتقابل لم يكن لها وجود ملموس في البلاغة العربية.

تلکم هي أبرز الخصائص التي انمازت بها نظرية التأويل التقابلي، ويتضح مما سبق ذكره أن للنموذج التقابلي آفاقاً رحبة في مجال القراءة والتأويل، هذه الآفاق تظهر في طريقة اشتغاله على النصوص، والفائدة المعرفية التي يستشعر نتيجتها المتلقي أو المؤول

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي، مرجع سابق، ص ٤٢٤.

للمصوص وفق النظرة التقابلية. ومما يجعل لنظرية التأويل التقابلي آفاقاً رحبة في مجال تحليل الخطاب، هو قابليته للمناقشة والتطوير، وهو الشيء الذي سيمنح للباحثين الشباب فرصة تثمينه ومناقشته ليصل إلى آفاق ومجالات رحبة.

بناء على ما سبق يمكن استخلاص النتائج الآتية:

- تأويلية التقابل فضاء رحب، يفتح على أهم النظريات في علم النص والتأويل وتحليل الخطاب، فيستفيد منها ويستعين بآلياتها في تحليل النصوص، في حدود ما يتماشى والمقصد العام المؤطر لتأويلية التقابل.
- تكمن أهمية النموذج التقابلي في عودته للتراث وانكبابه على دراسته، لما له من أهمية، ففهم حاضر أي أمة لا يتأتى إلا بفهم ماضيها، ومن منطلق ذلك حاول بازي أن يعود إلى التراث ويستفيد منه على تنوع خطابه وتعددتها بين بلاغة وتفسير ونقد.
- لم تنشأ تأويلية التقابل دفعة واحدة، بل نمت وتطورت بشكل متدرج ومتسلسل، ظهرت بوادرها الأولى في أطروحتي دبلوم الدراسات العليا، وأطروحة الدكتوراه، ثم نمت في كتابي التأويلية العربية وتقابلات النص وبلاغة الخطاب، لتصل إلى بناء النموذج في كتاب نظرية التأويل التقابلي.
- النموذج التقابلي، اجتهاد مثل باقي الاجتهادات، ولكل اجتهاد سقطات، وتأويلية التقابل لا تخرج عن هذا المنطلق، فهي معرفة واجتهاد إنساني، وكل ما هو إنساني معرض للخطأ بالضرورة، لصعوبة الوصول أو القبض على الحقيقة المطلقة في كل ما هو صادر عنه، لأن ذلك مما اختص به الخالق عز وجل.
- تختص تأويلية التقابل بجملة من الخصائص، والتي نلمسها في أثناء تحليل النصوص وهو ما يبرر شرعيتها وفعاليتها ومكانتها ضمن نظريات تحليل النص والخطاب.
- للنموذج التقابلي آفاق رحبة في مجال تحليل الخطاب، وهو ما كشفت عنه طريقته في تحليل النصوص، ثم فيما يحمله من خصائص جعلت منه نموذجاً قابلاً للمناقشة والتطوير والتثمين.

لائحة المصادر والمراجع:

- طه عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، ط ٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ المغرب، بيروت/ لبنان، ٢٠٠٧؛
- بازي محمد:
- التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف بالجزائر، ٢٠١٠؛
- تقابلات النص وبلاغة الخطاب، نحو تأويل تقابلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٠؛
- العنوان في الثقافة العربية، التشكيل ومسارات التأويل، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ودار الأمان، الرباط، ٢٠١٢؛
- نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، منشورات ضفاف، بيروت، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٣.

التأويل التقابلي وإسهامه في فهم النصوص وتجديد دراستها

د. إبراهيم شكري

تقديم؛

بذل الباحث محمد بازي مجهودا معرفيا كبيرا من أجل أن يوجد للتأويل التقابلي صيغة المنهج الرصين والدقيق، الذي يمكن توظيفه في فهم النصوص والخطابات أولا، ثم في إفهامها أو تدريسها ثانيا، بنوع من الجودة والإبداعية والفعالية التي عز نظيرها في كثير من المناهج التي احتكرت تحليل النصوص والخطابات. إننا في حاجة اليوم إلى نظرية في التحليل والمقاربة، منبعثة من ثقافتنا العربية ومن تراثنا العربي الغني، ومستفيدة من تراكمات العلوم والنظريات الأخرى بما ينفع، فليس هناك من مسوغ لإسقاط مناهج منقطعة الصلة عنا وعن ثقافتنا إسقاطا أعمى، وهي التي انبثقت في مجتمعات أخرى، وثقافات، قد تكون متعارضة مع مبادئنا وقيمنا وقناعاتنا.

سنحاول في هذا المقال، تسليط الضوء على نظرية التأويل التقابلي، بنوع من التركيز على مبادئها وأسسها وسبل تطبيقها في الحقل التعليمي التعلّمي، على اعتبار أن التأويل التقابلي صناعة ثانية تروم التأويل والفهم، تقابلها صناعة أولى أنتجت النص أو الخطاب المراد تأويله وفهمه.

- تعريف النص باعتباره بناء متقابلا

تعدد التعريفات المقدمة لـ "النص"؛ فكل منهج/ مقاربة ينظر إليه من الزاوية التي يشتغل في إطارها؛ فالبنوية مثلا ترى فيه حدثا لغويا مستقلا، والمنهج النفسي- يعتبره كاشفا عن نفسية منتج. والمقاربة السيميائية تتجه إلى العلامات اللغوية وغير اللغوية الدالة. ومقاربة النصوص من منطلق التناص تنظر إلى النص باعتباره تداخلا بين نصوص أخرى سابقة ولاحقة، وهكذا يكون اشتغال المناهج والمقاربات على النصوص انطلاقا من المرجعيات الفكرية التي تحكمها، وانطلاقا من الأولويات التي تأخذها بعين الاعتبار.

والأكثر من ذلك أننا نجد داخل المقاربة الواحدة تعددا في تعريف النص، بل أحيانا أخرى تضاربا؛ فهذه لسانيات النص، التي انكبت أعمالها على النصوص خاصة، تقترح تعريفات متعددة ومختلفة، بحسب التوجهات التي تحكمها، وهي التي تعاملت مع النص إما بوصفه تعبيرا عن أفكار، أو علامة لغوية وأنموذجا لسانيا جديدا، أو بوصفه سلسلة من الجمل، أو وحدة لغوية، أو فعلا لغويا، أو بوصفه سيرورة معرفية، أو تقاطعا من المعارف والقدرات، أو قالبا تواصليا^(١).

على هذا المنوال، تقترح نظرية التأويل التقابلي، بوصفها نظرية في مقاربة النصوص والخطابات تعريفا للنص، وهو تعريف غير تابع للأهواء والتغيرات، لأنه ينطلق من مبدأ كوني، وهو أن الكون ينتظم وفق أزواج متقابلة، فالنص "بنية من المتقابلات الظاهرة والخفية، النصية والمبنية على أفعال التأويل"^(٢)، من هنا يظهر أن نظرية التأويل التقابلي كما طورها الباحث محمد بازي تنظر إلى النص باعتباره فعلا تأويليا للكون، يقوم به المنتج لحظة إنتاجه للنص، والمتلقي لحظة استقباله.

تبعا لهذا يكون كل نص بناء تقابليا "يعكس الخطاطات الأولية للمعنى عند متجيهه، والقارئ المؤول يتتبع هذه الخطاطات عبر تشریح تجزيئي للمستويات البانية للنص (الحرف، الفعل، الكلمة، الجملة، العلاقات الداخلية، المقاطع، الترتيب، المساق، السياق...)"^(٣)، وذلك من أجل أن يستكشف مستغلقاته، وأن يصل إلى المعنى كما تبلور في ذهن المنتج في أثناء إنتاجه.

(١) - انظر: كورنيليا فون راد صكوحجي، لسانيات النص أو: "لسانيات ما بعد الجملة وما قبل الخطاب"، ضمن كتاب مقالات في تحليل الخطاب، تقديم حمادي صمود، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس، ٢٠٠٨، ص ٥٣-٦٩.

(٢) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، منشورات الاختلاف-الجزائر، ومنشورات ضفاف-بيروت، ط ١، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م، ص ٣٧.

(٣) - المصدر نفسه، ص ٣٧.

إن النص في تصور بازي هو مجموع الوحدات المعنوية الممثلة لغويا عبر تقابل المكونات، والعناصر بأية علاقة أو أي اعتبار من قبل أية قوة تلقى افتراضية وتأويلية بانية، وهو مجموع البنيات الجزئية المتقابلة ظاهريا أو باطنيا أفقيا أو عموديا، وفق أية علاقة تواجهه (وجهها لوجه) قابلة للملاحظة، فالنص كون لغوي متقابل، ومنطلق اشتغال دلالي وتأويلي عالم وبليغ.

يتشكل الفهم انطلاقا من هذا التصور من مجموع العمليات الإدراكية التي يقوم بها المحلل المؤول، من أجل "اكتشاف حقيقة ممكنة كامنة في النص موضع القراءة، أو في ظاهرة من الظواهر التي حولنا. أو هو إعداد مشاريع في القراءة تنسجم مع موضوع الفهم"^(١)، فالفهم بالتقابل من هذا المنظور ليس أداة لفهم النصوص والخطابات فحسب، بل هو أداة مفيدة وناجعة في فهم العالم، الذي بني أصلا على التقابل.

- كونية التقابل

نشير بدءا إلى أن التقابل لا يوجد في النصوص والخطابات فحسب، بل هو معطى كوني وحياتي، عبره يمكن فهم الوجود، والعلاقات بين عناصره كيفما كانت؛ فقد خلق الكون على نحو متقابل، والتقابل لا يكون "إلا عبر حضور أحد العناصر مقابل عنصر آخر"^(٢)، بحيث تتواجه في الكون الأشياء، والأشخاص، والأوضاع، والحالات، والأحاسيس، والألوان، والأشكال، وغير ذلك، وقد يكون ذلك واضحا أو خفيا، كما أن التواجه قد يكون ثنائيا أو ثلاثيا أو رباعيا... إلخ، فكل المخلوقات أزواج، قال الله تعالى: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا

(١)- بازي محمد، التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، منشورات الاختلاف-الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط. ١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ص ١٤٢.

(٢)- نظرية التأويل التقابلي، ص ٦٤.

يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾^(١)، وقال أيضاً: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾^(٢). تدل حقيقة أن المخلوقات بمختلف تظاهراتها وتلاوينها أزواج على أنها مبتدعة ومحدثة مسبوقة بالعدم، خلقها واحد أحد، فرد مطلق منزه عن الند والمقابل والمعاضد والمعارض، هو الله "الذي يقدر على خلق الشيء وخلافه، وابتداع زوجين من كل شيء"^(٣).

تحضر- آية التقابل، من هذا المنطلق، في كل ما نقول، وما نقرأ، وما نكتب، وفي الفهم والتفهم، وقد سعى الباحث محمد بازي في كتابه "التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات" إلى توضيح هذه الآلية بمختلف مستوياتها وآلياتها ومسالكها، حتى تشكل نواة لمنهجية تأويلية تقابلية، "يعتمدها المؤولون في فهم الظواهر من حولهم، نصية كانت أو غير نصية اعتماداً على شبكة من البنيات المتعارضة أو المترتبة أو المتخالفة أو المتماثلة، على أساس تقابلي، يمكن من إبراز المعنى في أحسن صورته"^(٤)؛ فيقترح بذلك منهجية تأويلية لمقاربة شاملة لكل مناحي الحياة والنظر إلى الوجود، أساسها مبدأ كوني مبني على التقابل بمختلف تظاهراته.

التأويل بالتقابل موجود أصلاً في الأذهان، وفي تعامل هذه الأذهان مع إنتاج النصوص وتلقيها، غير أنه نسق خفي ومضمّر في كل معنى، يتم العمل به بشكل تلقائي، لهذا تأتي نظرية التأويل التقابلي من أجل إظهار هذا النسق، الأمر الذي ينتج عنه كشف تلك البلاغة التأويلية الموجودة في النصوص وتحقيقتها. وبهذا يكون المعنى في النموذج التقابلي - وهو نموذج

(١)- سورة يس، الآية ٣٦.

(٢)- سورة الزخرف، الآية ١٢.

(٣)- نظرية التأويل التقابلي، ص ٦٦.

(٤)- التأويلية العربية، ص ٢٢٣.

يبحث عن المعنى - كونيا سابقا في الوجود المتقابل، ثم نجده في القصديات التي تبني المعنى، سواء من حيث الإنتاج، أو كشفها عن طريق التلقي، وقد وُضع هذا المعنى "في البنيات النصية عبر تراكيب لغوية خاصة، ثم تأتي التجربة التأويلية لتعبر مسالك المعنى تقابليا للوقوف على قصدية الإنتاج"^(١)، من هنا فالتأويل التقابلي استراتيجية قرائية تروم بناء المعنى كما تشكل في ذهن المنتج، من أجل تأويل القصد، عن طريق إرجاع النص إلى أوله.

- تعريف التأويل التقابلي

إن التقابل في تصور صاحب النظرية التأويلية التقابلية هو "محاذاة المعاني بعضها ببعض، والتقريب بينها في الحيز الذهني والتأويلي لإحداث تجاوب ما، أو تفاعل معرفي وإضاءة بعضها للآخر. وهو خاصية تواصلية وإدراكية، فالأمور تُفهم وتُتمثل بشكل أفضل بعرضها على مقابلاتها، بل إن الحياة مبنية على أساس تقابلي: تخالفي أو تماثلي أو توافقي أو نقضي، فما في الوجود شيء إلا وفيه ما يقابله"^(٢).

يعرض الباحث، من خلال هذا التعريف، إلى مسألة مهمة جدا وهي أن الأمور تُفهم وتُتمثل بشكل أفضل بعرضها على مقابلاتها، فجميع النصوص والخطابات مبنية على هذا التقابل، وجميع النقاشات والحوارات تكون مبنية عليه، ولن يكون التواصل بين شخصين إلا إذا بدأ الأول بالكلام ورد عليه الثاني بكلام يقابل كلامه، وإلا فلن يكون هناك تواصل بينهما.

إن التأويل ينزع إلى الحياد والمقبولية، إذ ينبي تقابلات النصوص في أثناء قراءتها على النحو الصحيح، والتأويل التقابلي بناء على هذا "إجراء قرائي في تمثل المعاني، وإدراك العلاقات فيما بينها، بما يسمح بأحسن فهم"^(٣)، ويتم

(١)- نظرية التأويل التقابلي، ص ٨٥.

(٢)- التأويلية العربية، ص ٢٢٢.

(٣)- نفسه، ص ٢٢١.

العمل في هذا الإجراء، بالكشف عن العلاقة الكامنة بين بنيتين نصيتين متماثلتين أو متخالفتين من حيث الدلالة، ويمكن للبنيات أن تكون كلمة أو جملة أو فقرة.. إلخ، غير أن الكثير من الذين لا يفهمون التقابل على حقيقته، يظنون أن التقابل ليس إلا مرادفاً للتضاد والمقابلة والترادف، وهو أوسع وأشمل بكثير من هذه المفاهيم البلاغية.

إن التأويل التقابلي نظرية في الفهم وبناء المعنى، وهو أداة ووسيلة من أجل كشف المعاني أولاً ثم تفهيمها ثانياً، ويكون هذا البناء والتفهم "عبر إحداث التقابل بين المعاني والعناصر بما يوضحها أكثر؛ لأن التقابل حاصل في التفكير المنتج للغة، وفي انتظام الكلمات والمعاني، ويجليه التقابل بمستوياته الكثيرة، ومظاهره التي يفسح لها ذكاء المتفهم واجتهاده"^(١). بهذا لا يكون التأويل التقابلي أداة لفهم المعنى فحسب، بل هو أداة لتفهمه أيضاً، يخالف في هذا عديداً من المقاربات التي تحلل النصوص وتشرحها، فلا تخرج بمعنى، وإن خرجت به، عجزت عن توصيله إلى الآخرين. والمعرفة لا تكون معرفة إلا إذا قبلها الناس، والفهم لا يكون فهماً، إلا إذا وصل إلى الآخرين بنوع من السهولة واليسر.

- المرجعيات النظرية للتأويل التقابلي

تختلف المرجعيات النظرية التي تمتح منها نظرية التأويل التقابلي، فهي ليست يتيمة بدون أب، إذ ارتكزت في بناء منطلقاتها وتصوراتها على مرجعيات متعددة، أجملها محمد بازي في: البلاغة العربية القديمة، ونظريات التلقي والتأويل الحديثة، وعلم النص، وتحليل الخطاب، وكتب التفسير، والشروح الشعرية، وعلم الأصول، والفلسفة، والمنطق، والمناهج النقدية، وكتب الأدب واللغة، والمعاجم والموسوعات، وكتب السير والأخبار

(١) - نظرية التأويل التقابلي، ص ٨١.

والدواوين، وكتب تاريخ الأدب، والدراسات النقدية القديمة والحديثة، ونظريات الأدب، والتداوليات (علم التخاطب) وغيرها^(١).

بهذا تكون نظرية التأويل التقابلي قد قدمت نموذجا لفهم النصوص لا ينطلق من أي إيديولوجية متطرفة، على غرار بعض المناهج التي ضحّت بفهم النصوص من أجل تحقيق قناعات شخصية وتمريها، وتحميل النصوص ما لا تحتمل، فاستندت نظرية التأويل التقابلي إلى كل ما وجدته مفيدا ونافعا ومنسجما مع بنائها العام، وجعلته من صميم إجراءاتها، بحيث كانت نظرية منفتحة غير متممة، هدفها الأسمى تحقيق بلاغة تأويلية في الفهم.

يلخص محمد بازي كيفية الاشتغال في إطار النموذج التقابلي بكونه "لا ينطلق من خارج تراكمات العلوم النصية واللغوية والبلاغية والنحوية والسيمايائية والاجتماعية والتداولية؛ بل يتزود منها بحسب حاجاته، يأخذ منها ما ينفع في تحقيق الإشباع الدلالي، وانسجام التأويل؛ أي ما يُنتج في نهاية المطاف قراءة مؤوّلة بليغة، مقنعة وقادرة على السفر مع النص عبر رحلته التاريخية في عوالم التأويلات الممكنة والمحتملة، إن كان جديرا بذلك. وقد تتوقف رحلة النص والتأويل معا، لعدم قدرة النص على الصمود أمام تبدلات الزمن، حينئذ لا معنى لتأويل يستمر دون نص مستمر ومتفاعل مع الحياة"^(٢).

- مفاهيم التأويل التقابلي

للمفهوم دور كبير في انتشار النظريات، فهي لا تقوم إلا به، وهو على حد تعبير محمد مفتاح "أعلى درجة لتحصيل المعرفة النظرية والعملية لإنجاح الإنسان في هذا الكون، لأن المفهوم منظم للحدس وللإحساس"^(٣)، بهذا

(١)- نظرية التأويل التقابلي، ص ٣٥.

(٢)- نفسه، ص ٣٧ - ٣٨.

(٣)- مفتاح محمد، ما المفهوم؟، من كتاب، المفاهيم تكونها وسيورتها، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠، ص ١٩.

تكون كل نظرية رصينة هي تلك القائمة على مصطلحات ومفاهيم دقيقة تكون بمثابة أدوات تشتغل بها.

قدم محمد بازي، لإيضاح نظريته، مجموعة من المفاهيم التي مكنته من الفهم الدقيق والتأويل البليغ لمجموعة من النصوص المختلفة، وهي مفاهيم من شأنها أن تمد كل مهتم بأداة إجرائية صالحة لمقاربة مختلف النصوص والخطابات. وترجع هذه المفاهيم في عمومها إلى، مفاهيم موجودة في حقول معرفية أخرى وُظفت كما هي في هذه الحقول المعرفية، وأخرى موجودة، لكن الباحث أضاف إليها ما ينسجم مع نظرية التأويل التقابلي، أو قدمها بما ينسجم معه، ومفاهيم أخرى اكتشفها الباحث وأبدعها، فلم يكن بذلك مستقبلاً للمفاهيم ومتقبلاً لها، بل استطاع إنتاج مفاهيم أخرى جديدة، مكنه منها التأويل التقابلي.

ويمكن إجمال المفاهيم التي وظفها الباحث خلال تعامله مع النصوص في مفاهيم متعددة نستعرضها كما يأتي: (تقابل الإثبات والنفي، التقابل الافتراضي، تقابل الأمكنة، التقابلات الاستتباعية، التقابلات الصغرى المؤطرة، التقابلات الكبرى، التقابلات النصية المؤطرة، تقابل التحاور، تقابل التراتب، تقابل التشارك اللفظي، تقابل التشاكل، تقابل التصدير، تقابل التفارق، تقابل التمثيل، تقابل التناسب، تقابل الحاضر والغائب، تقابل حال الذوات، تقابل الخبر والإنشاء، تقابل الخطاب، التقابل الزمني، تقابل الصيغ والأوزان، تقابل الظاهر والباطن، تقابل الفاعل والمفعول، التقابل المتعدد، تقابل المعنى ومعنى المعنى، تقابل المقاصد، تقابل النسق، تقابل النسق، التقابل التواصلي، تقابل النص وسياقه، التقابل النظيري، تقابل النظائر النصية، التقابل النقيضي، التقابل النووي، تقابل التشابه، تقابل التفارق، تقابل التحاور، تقابل التشاكل، التقابل الافتراضي، التقابل النووي، تقابل النص

والعنوان، تقابل المقاطع والفقرات، البناء التقابلي الظاهر والخفي، تقابل العوامل المادية والمعنوية، التقابل الكوني، تقابل الذوات، تقابل الحضور والغياب، تقابل الكم والكيف، تقابل الأفضية (الأمكنة والأزمنة)، التقابل التفاضلي (أحسن، أفضل، أكثر، أجمل..)، التقابل الخفي في البنيات الاستعارية والمجازية، التقابل المستهدف، التقابل المنطلق، التقابلات الأفقية والتقابلات العمودية... إلخ).

يظهر، انطلاقاً من عرض هذه المفاهيم، أن نظرية التأويل التقابلي تتميز بجهاز مفهومي غزير، وهذا يدل على أن المفهوم الأصلي - أي التأويل التقابلي - له قدرة فائقة على التشعب إلى مفاهيم إجرائية أخرى، و"هذا التشعب مؤثر قوي على أن إجراءات تأويلية التقابل تستطيع النفاذ إلى تفاصيل الظاهرة النصية والخطابية، وعلى التوضع المنهجي المناسب، والمتلائم مع خاصياتها، ومميزاتها"^(١). ويمكن لهذه الأنواع من التقابلات أن تساعد مدرس اللغة العربية على توظيف التأويل التقابلي في نصوص مختلفة، كما يمكن للمدرس أن يُنمي هذه التقابلات، ويستخرج تقابلات أخرى غير التي تم ذكرها.

استفاد التأويل التقابلي في بنائه للمفاهيم المتعلقة بفهم النصوص والخطابات من جهود منهجيات أخرى سابقة، التقت معه في بعض اهتماماته. فهو منهج لم يأت من أهواء صاحبه، أو من العدم، بل جاء بعد بحث عميق وتقليب جاد في مرجعيات مختلفة، بغية الاستفادة منها في بلورة منهجية متكاملة.

(١) - نظرية التأويل التقابلي، ص ٤٧.

يلزم من هذا المنطلق، وأمام هذا الزخم المصطلحي والمفهومي، أن يؤلف معجم يضم مختلف مصطلحات نظرية التأويل التقابلي ومفاهيمها التي تتعلق بمختلف الإنتاجات الأدبية وغير الأدبية، حتى يستفيد منها الباحثون استفادة مباشرة ووظيفية في مقارنة مختلف النصوص والخطابات على أشكالها وألوانها المتعددة.

- خطوات منهجية التأويل التقابلي في بناء فهم النصوص

من مميزات التأويل التقابلي أنه يترك المجال واسعا للمحلل، ولا يقيد به خطوات محددة وثابتة عليه اتباعها، بل يزوده بمفاهيم دقيقة، يستعملها من أجل فهم التقابل، ويطورها أيضا إذا دعت الضرورة إلى ذلك. سنستعرض هنا الخطوات أو العمليات التي تتبعها عملية فهم النصوص من وجهة نظر التأويل التقابلي، وتتمثل في ست عشرة عملية^(١). (الافتراض التقابلي العفوي أو الموجّه، الاستكشاف بالتقابل، التذكر والدعم والتطعيم، التوجيه وتعديل الاستراتيجية التأويلية أو عملية تصحيح المسار، إرجاع التبيين الدلالي إلى حين اكتمال اللواحق والمدعمات الدلالية، استحضار أطر موسعة، بنية النص العليا، المعاودة وتكرير محاولات الفهم إلى حين حصوله، الاحتفاظ والتخزين لحالة تأويلية جديدة، التسييق النصي- بربط السابق باللاحق، وضع المعنى في سياق خارجي موسع، التطويع بالتماس المعينات التناسية والمعجمية والخبرية، التلخيص والتجميع، حذف الفهوم التي لا يدعمها معطى في النص أو خارجه ثم تعويضها بغيرها، تركيب الفهوم ومقارنتها بعرضها على غيرها أو تعميمها، الصورة الذهنية مقابلا للنص).

من مزايا هذه الخطوات أو الإجراءات، التي يحضر- التقابل في كل واحدة منها، أنها ترتبط بالعمليات الذهنية التي تتم على مستوى دماغ الفرد، فهو

(١)- نظرية التأويل التقابلي، ص ٩١ - ٩٥.

اشتغال معرفي، يستند إلى نظريات الذكاء، والذكاء الاصطناعي، التي درست علميا الكيفية التي يعمل بها الدماغ، كما أنها تستند إلى ما توصلت إليه علوم التربية الحديثة وطرق التدريس في كون الفهم يجب أن يُنتج من ذهن المتعلم وفق عمليات معينة، بمساعدة المدرس الذي يوجه المتعلم للخطوات التي عليه اتباعها من أجل بناء الفهم الصحيح عبر التدرج، ومن شأن هذه الخطوات القرائية المتبعة المقترحة في التأويل التقابلي، وكذا المفاهيم المقدمة، الإسهام في مقارنة كل النصوص والخطابات الأخرى.

- جدوى التأويل التقابلي وأهميته

للتأويل التقابلي دور كبير في فهم المعنى وإفهامه، فهو عملية ذات وجهين، وجه ذاتي يتعلق بفهم مستغلقات النصوص المقروءة، ووجه غيري يقوم على فك مستغلقات النصوص المُدرسة للمتعلمين، بهذا يكون "مفهوم التقابل من المفاهيم المثمرة في الحقل التربوي، خاصة في الإيضاح وتفهم المتعلمين، فالمعارف تتضح عندهم بما يقابلها. والمقابلة بين الماديات أو المعنويات أو المفاهيم، أو الأدوات، وسيلة بيداغوجية نافعة في التدريس"^(١)، فالتأويل بالتقابلات "أداة إجرائية ناجعة في المجال التربوي والتعليمي، خاصة فيما يتعلق بقراءة النصوص وتحليل الخطابات الدينية، أو الأدبية، أو الفكرية، أو الفلسفية المدروسة، لماله من قوة قرائية وإقراية وتفهمية وتبسيطية، توقف الطلاب على المعاني، وكيفية صناعتها واكتشاف أسرار جمالها وبلاغاتها"^(٢).

التأويل التقابلي، إذا، أداة صالحة لمقاربة النصوص المدرسة بأسلاك التربية والتعليم: الشعرية، الثرية، المقالة، الحجاجية، الفلسفية، القصصية،

(١)- نظرية التأويل التقابلي، ص ٤٢٣-٤٢٤.

(٢)- بازي محمد، تقابلات النص وبلاغة الخطاب، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان،

ط. ١، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م، ص ١٧٦.

والمسرحية... إلخ، وتوظيفه يمكن المتعلمين من اكتساب منهجية منطقية لفهم النصوص والعالم، لكن هذه الغاية لن تتم إلا من خلال تحقيق مبدأي الوظيفية والتداولية، بحيث وجب إعماله تطبيقيا بشكل واسع بعدما ثبتت نجاعته نظريا، ثم توسيع نشره حتى يصل إلى المدرسين الذين ينشدون في حصصهم تحقق الكفايات التأويلية المرجوة، ومن ثم تتحقق المتعة الذوقية الجمالية التي افتقدها المتعلمون في قراءة النصوص؛ فتأويلية التقابل "اجتهاد مثل باقي الاجتهادات المقدمة في نظريات النص والخطاب والتأويل، تكمن قيمتها في وظيفيتها، وقدرتها على حل مشكلات الفهم والتفهم، وتعميق الأسئلة البلاغية، والمنهجية، وتذوق النصوص، وتحليل الخطابات"^(١).

إن تطبيق استراتيجية التأويل التقابلي بإمكانها أن تمنحنا غنى وتعددا وخصوبة وثراء في الفهم والتأويل^(٢)، فالتقابل أداة منفتحة، تمنح إمكانات كبيرة لبناء المعنى، خصوصا إذا تم الإبداع في استعمالها، فما أراه أنا تقابلا معينا بين شيئين أو عنصرين أو حالتين، قد يراه آخر تقابلا من نوع آخر، بحسب اجتهاد كل واحد منا.

- تدريس الأدب بالتأويل التقابلي

يتساءل الكثير من المهتمين بتجديد درس النصوص عن إمكان تطبيق تأويلية التقابل في المجال التربوي، وقد حاولنا تجريب بعض مبادئها في تدريسنا للنصوص ومكونات تدريسية أخرى فآتت أكلها بما لم يكن متوقعا، خصوصا عند الشرح بالمثل المتقابل لما تبدو علامات عدم الفهم مرسمة على وجوه المتعلمين، فيكون الإفهام بالتقابل أسهل طريق لترسيخ المعاني في أذهانهم، هذا بالإضافة إلى المتعة التي تحصل في أثناء اكتشاف المعنى، سواء

(١)- نظرية التأويل التقابلي، ص ٤٢١.

(٢)- ينظر: تقابلات النص، ص ١١.

من خلال عرضه من قبل المدرس، أو عند اكتشافه من لدن المتعلمين عبر أسئلة ديداكتيكية واضحة.

كما تم تجريب إجراءات التأويل التقابلي من قبل بعض المدرسين - ممن نعرفهم - على نصوص عديدة متنوعة، وأبان هذا التجريب عن أن التقابلات التي يتم اكتشافها على مدى تحليل النصوص، في كل جملة، بل وفي كل كلمة، تقوم بتحريك فعالية التأويل لدى المتلقين، بحيث يحدث ذلك التفاعل الحقيقي مع النص، فتبحر الذات القارئة في عوالمه، ويصبح النص مترسخا في الذات القارئة، وذلك أبعد ما يصل إليه القارئ/ المتعلم في الفهم والتأثر بالأدب وتمثل قيمه، وهو غاية ما يسعى إليه كل ناقد يروم تحليل النصوص من أجل إفهامها.

والمطلوب من المدرس الذي يريد إعمال التأويلية التقابلية في فهم النصوص والخطابات^(١)، أن يعتمد المفاهيم المقدمة بحسب الفئة المستهدفة، فالتعليم الابتدائي ليس هو الثانوي الإعدادي أو الثانوي التأهيلي، كما أن الفئة المستهدفة تختلف بين كل سنة من سنوات هذه المراحل، بل وتختلف في المرحلة الثانوية التأهيلية بين كل تخصص، كما يمكن للمدرس أن يتبع المنهجية المقترحة في التوجيهات التربوية (التمهيد، الملاحظة، الفهم، التحليل، التركيب)، فيمهد لدرسه بمقدمة تشويقية وأسئلة تشخيصية تروم إعداد المتعلمين ذهنيا ونفسيا لدراسة النص تقابليا، وقد يصرح بذلك بأن يقول: سندرس النص الآتي دراسة تقابلية، وبعد التمهيد للدرس يقرأ المدرس النص قراءة تعبيرية يقتدي بها المتعلمون، وتحفزهم على التأمل فيه، ثم يذلل كلماته الصعبة، ويشرع في طرح أسئلة قرائية قائمة على التقابل

(١) - ينظر: نظرية التأويل التقابلي، ص ٤٢٤.

حسب طبيعة النص المدرس، يحصل بها الفهم^(١)، وبعد التحقق من الفهم ينجز تقويها تكوينيا حتى يتأكد من تحقق التعلمات والفهوم، بعد ذلك يشرع في تحليل المستويات المختلفة التي تدخل في بناء النصوص تقابليا (الصور الشعرية، الإيقاع، الأساليب، اللغة...)، وفي مرحلة التركيب يبنى الخلاصات المتوصل إليها عن طريق التقابل، كما يمكنه في هذه المرحلة أن يطلب من المتعلمين إنجاز مقارنات بين المعاني المختلفة داخل النص، وبين النص ونصوص أخرى، وبين طرق الكتابة وغيرها.

أشرنا آنفا إلى أن الفهم السليم يمكن أن يحصل بالتقابل، بهذا يمكن للإفهام أن يكون سليما بالتقابل أيضا، فكما نفهم الأمور نفهمها، و"لعل أنجح المدرسين هو الذي يفهم تلاميذه بالطريقة التي حصل الفهم عنده، إن كان قد حصل! أو كما كان يفهم عندما كان في مستوى تلاميذه"^(٢)، فالفهم هو الغاية المثلى من النص، وما المراحل الأخرى (التمهيد والملاحظة والشرح والتحليل والتركيب) إلا وسائل مساعدة ترمي إلى تحقيقه.

- الكفايات/ الملكات المتوقعة تحقيقها عند المتعلمين بتطبيق النموذج التأويلي التقابلي

تحصل الكفايات التأويلية بتأهيل شخصية المتعلم وجعله في قلب الاهتمام، وتمكينه من مواجهة مختلف الصعوبات والمشكلات التي تعترضه.

(١)- يقول محمد بازي: " نجد في الحقل التربوي مدرسا ناجحا في عملية التفهم، فتلامذته يستوعبون ما يعلمهم إياه أو ما يتعلمونه بأنفسهم بمساعدته، حيث ينتقلون في درسه من تمثل إلى آخر بطريقة سلسة. مقابل ذلك نجد مدرسا آخر لا يتقن فن التفهم، ولا يستطيع أن يجعل التلاميذ يفهمون نصا ما أو ظاهرة معينة. وسبب ذلك وجود ضبابية في طريقة اكتساب المعارف، وفي تصور عملية الفهم نفسها وأدواته. فكل فهم له موضوع، وله أدوات للوصول إلى ذلك، ونتيجة ذلك تعكسها تفاعلات التلاميذ المقررة بالاستيعاب أو بنقيضه في بداية الأمر، ثم يتأكد ذلك عبر الأنشطة التقييمية البدئية أو المتخللة أو الختامية" نظرية التأويل التقابلي، ص ٨٧.

(٢)- نفسه، ص ٨٧.

وتعتبر صعوبة فهم النصوص والخطابات من المشاكل التي تواجه متعلم اليوم، والدليل على ذلك عجز فئة مهمة من المتعلمين في المدارس عن فهم الأبيات الشعرية وغيرها من النصوص الأدبية أو الفكرية، وينتقل ذلك معهم إلى الجامعة فلا يجدون مؤهلات ذهنية واضحة ترسخت في أذهانهم من أجل فكر رموز النصوص ومغاليقها.

تهتم المناهج التربوية في بيداغوجيا الكفايات بتحقيق خمس كفايات، التواصلية، والمنهجية، والثقافية، والاستراتيجية، والتقنية. لكن متعلم اليوم يحتاج بالإضافة إلى هذه الكفايات إلى كفاية أو ملكة تأويلية تنضاف إلى الأخرى، ونزعم في هذا المقام أن نظرية التأويل التقابلي بمفاهيمها وإجراءاتها كفيلة بأن تحقق هذه الغاية.

يمكن أن تتحقق هذه الكفاية التأويلية بإكساب المتعلمين الملكات الضرورية للتأويل "من علوم نحوية ولغوية، وبلاغية، ومعرفة بخصوصيات النص وآليات التدليل فيه، وسياقاته الخارجية المختلفة والنصوص التي يشكل امتدادا لها: يتناص أو يتوازى معها"^(١). غير أن المراد من هذه الملكات قد يتحقق حين توظيفها للوهلة الأولى وقد لا يتحقق، فيقع المتعلم في وضعية مشكلة ينبغي حلها، فلا تتحصل الملكات التأويلية في نظرية التأويل التقابلي إلا بالتجريب والمعاودة، ومعاودة النصوص وترويضها^(٢)، ولن تتحصل إلا من خلال الإحساس بالإخفاقات الأولية التي تتناوب الفهم^(٣).

قد يصل المتعلم إلى حل الوضعية المشكلة، لكن لا يمكننا القول حينئذ إن المتعلم قد كون الملكة كصفة راسخة، لأن ملكات التأويل التي يفضي إليها

(١) - التأويلية العربية، ص ١٣٨.

(٢) - ينظر حاتم الصكر، ترويض النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٨.

(٣) - ينظر نظرية التأويل التقابلي، ص ٦١.

النموذج التقابلي لا تتحصل "إلا بتكرار الأفعال التأويلية، والخبرة الواسعة بالنصوص، والمعاودة والمراجعة، والتأمل والتقصي، وتجريب فرضيات قرائية كثيرة، واختبار الأصلح منها على محكات ومعايير قادرة على الصمود في وجه النقد، إذ إن الملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، والفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالا، أي صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة"^(١).

إن حصول الكفاية التأويلية التقابلية لا يتأتى للمتقاعسين الذين ينظرون إلى سطحيات نص أو نصين، بل تتأتى للمتعلمين المجددين الذين يتفاعلون مع النصوص وينخرطون في تلقيها وكشف معانيها ومقصدات منتجها. فبناء المعاني، وإعادة فهمها وتأويلها تقدم للمتعلم أنساقا قرائية قابلة للاستثمار والتطوير في مختلف النصوص، بحيث يصبح المتعلم قادرا على تأويلها تأويلا صحيحا بليغا مقنعا ومثمرا.

لقد أصبحت الملكات التأويلية طلبا ملحا في تحليل النصوص والخطابات وفهمها، إذ إن أي تحليل أو فهم لا بد أن يتضمن جانبا من التأويل، لهذا وجب إكساب المتعلمين هذه القدرة التأويلية بتمهيرهم عليها من خلال حثهم على الاحتكاك بالنصوص، فهي كالورود كلما زدها فركا زادت رائحة.

(١) - نفسه، ص ٤٨.

لائحة المراجع:

القرآن الكريم

• بازي محمد:

- التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات،

منشورات الاختلاف-الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط. ١،

١٤٣١هـ-٢٠١٠م؛

- تقابلات النص وبلاغة الخطاب، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت-

لبنان، ط. ١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م؛

- نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، منشورات

الاختلاف-الجزائر، ومنشورات ضفاف- بيروت، ط. ١، ١٤٣٤هـ-

٢٠١٣م؛

• حاتم الصكر، ترويض النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٨م؛

• مفتاح محمد، المفاهيم تكونها وسيورتها، منشورات كلية الآداب والعلوم

الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م.

النص والخطاب والتأويل في مشروع التأويل التقابلي

عند محمد بازي

ميلود عربيبة/ أستاذ باحث، كلية الآداب مراكش.

تقديم:

يعد محمد بازي أبرز الدارسين الذين يهتمون بالتقابل ودوره في التأويل، وقد كان مشروعه ثمرة تفتن إلى إشارة أودعها الزركشي كتابه البرهان، فالتقطها التقاطاً، واغتنب بها اغتباطاً، وهي قوله: "اعلم أن في تقابل المعاني باباً عظيماً يحتاج إلى فضل تأمل"^(١)، فحاول جاهداً طرق هذا الباب - على حد تعبيره - "ليفتح لنا فئج عوالمه، ونقف على بدائع أسراره"^(٢). وقد اطلع الكاتب على أبرز الدراسات في مجال التقابل في القرآن الكريم، وهي - حسب رأيه - دراستان: الأولى هي "التناسب البياني في القرآن" لأحمد أبي زيد، والثانية هي "التقابل والتماثل في القرآن" لفايز عارف القرعان، وقد نوّه بهاتين الدراستين، وبقيمتيهما العلميتين، إلا أنها - في رأيه - "توقفتا عند الحدود التحليلية لمظاهر التقابل وتحليلاتها، وحدود خدمتها للمعنى"^(٣).

وبناء على ذلك فإن مشروعه الذي يقترح يتجاوز هذه الحدود ويسعى إلى فتح آفاق أوسع أمام الدرس التقابلي، وذلك عبر ربط التقابل بالتأويل. ولم ينحصر اهتمامه في النص الديني، وإنما توسع ليشمل كل الأنماط النصية والخطابية^(٤). كما لم يقتصر جهده على التنظير؛ بل خصص جزءاً مهماً للتطبيق، ويعتبر كتابه "تقابلات النص وبلاغة الخطاب، نحو تأويل تقابلي" محاولة جادة في هذا الاتجاه.

(١) الزركشي، البرهان، ٣/ ٥١٩.

(٢) بازي محمد، تقابلات النص وبلاغة الخطاب، ص ١٥.

(٣) نفسه، ص ١٤.

(٤) نفسه.

لقد ربط بازي التقابل بالتأويل، وصاغ من هذا الربط نظريته التي سماها بـ "نظرية التأويل التقابلي" والتي بسط أسسها، وآلياتها في كتابه "نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب"^(١).

فما المقصود بنظرية التأويل التقابلي عند بازي؟

وما المراد عنده بالتأويل التقابلي؟

وكيف عمل على نقل مفهوم التقابل من المصطلح البديعي إلى رحاب التأويل؟

وما حدود التأويل بالتقابل؟

وإلى أي حد يكون هذا التأويل مقبولا ومنسجما مع مقصدية المؤلف؟

وما مفهوم النص في هذه النظرية؟

وما العدة التي يجب على المؤول بالتقابل التسلح بها حتى يكون تأويله

موضوعيا؟

وأخيرا إلى أي حد يرقى طرحه لأن يكون نظرية للتأويلية العربية بالمعنى

العلمي للمصطلح؟

سينصب هذا البحث على معالجة هذه الأسئلة من خلال:

مقدمة تعرف فيها بالموضوع، والإشكال، كما سلف أعلاه.

فصل أول: نستعرض فيه رحلة مفهوم "التقابل" عبر تاريخ البلاغة العربية.

فصل ثان: نتناول فيه كيف عمل بازي على توسيع مفهوم التقابل.

فصل ثالث: نقف فيه عند مفهوم النص، ومفهوم الخطاب في النظرية.

فصل رابع: نرصد فيه حدود التأويل في نظرية التأويل التقابلي

خاتمة: نجمل فيها خلاصات الدراسة، مع ملاحظات نقدية حول التأويل

التقابلي.

(١) هذا الكتاب صادر عن منشورات ضفاف ومنشورات الاختلاف، ودار الأمان بالرباط، في طبعته الأولى، بتاريخ ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م.

رحلة مفهوم "التقابل" عبر تاريخ البلاغة العربية
١- التقابل في اللغة

قبل أن نبحت عن الدلالة الاصطلاحية لمفهوم التقابل، لا بد أن نعرض في البداية على معناه عند اللغويين، فغالبا ما يكون للأصل اللغوي تأثير في تشكل الدلالة الاصطلاحية.

فالتقابل اسم مأخوذ من الجذر الثلاثي (ق ب ل)، وقد تفرعت من هذا الأصل مجموعة من المعاني. قال الخليل (ت١٧٥هـ) : "والقبل الطاقة : لا قبل لهم، وفي معنى آخر هو التلقاء، تقول لقيته قبلا أي مواجهة"^(١). وقال ابن فارس (ت٣٩٥هـ) : "القاف والباء واللام أصل واحد تدل كلمه كلها على مواجهة الشيء للشيء، ويتفرع بعد ذلك"^(٢).

يتضح أن المعنى المشترك المرتبط بهذا الأصل هو المواجهة التي تقتضي وجود شيء بإزاء شيء آخر. وهذا المعنى موجود بشكل متواتر في بقية المعاجم؛ فمما قاله صاحب القاموس المحيط : "وأقبلته الشيء جعلته يلي قبالته، وقابله واجهه... وتقابلا تواجهها"^(٣)، وهو نفس ما ذهب إليه ابن منظور (ت٧١١هـ) إذ يقول : "أقبلته الشيء أي جعلته يلي قبالته... والمقابلة: المواجهة، والتقابل مثله"^(٤). والمقابلة بنفس معنى التقابل؛ فهي "مصدر من قابل الشيء يقابله مقابلة إذا واجهه وصار ماثلا أمامه وهو من باب المفاعلة كالمضارعة والمقاتلة، وأصله في الأجرام يقال قابل الشخص الشخص والجبل الجبل إذا واجهه"^(٥).

(١) - الخليل بن أحمد، كتاب العين، ١٦٦/٥.

(٢) - ابن فارس، مقاييس اللغة، ٥١/٥.

(٣) - الفيروزي آبادي، القاموس المحيط، ٣٤/٤.

(٤) - ابن منظور، لسان العرب، مادة قبل.

(٥) - ابن القيم، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص ١٤٧.

٢- التقابل في اصطلاح البلاغيين العرب

يُعد ابن المعتز (ت ٢٧٤هـ) أول من أفرد لعلم البديع بالتأليف في كتابه المسمى بـ"البديع"، وفي معرض حديثه عن المطابقة قدّم لها تعريفاً استعاره من الخليل (ت ١٧٥هـ) رحمه الله، قال: "قال الخليل رحمه الله يقال طبقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حدو واحد"^(١)، ويبدو من خلال ما استشهد به من أمثلة أنه يسوّي بين الطباق والتقابل؛ فمما ذكره في هذا الباب قول النبي صلى الله عليه وسلم للأَنْصار "إنكم لتكثرُونَ عند الفزع وتقلون عند الطمع".

ثم جاء من بعده قدامة (ت ٣٢٧هـ) فكان من الأوائل الذين ربطوا التقابل بالمعنى، إذ قسم المقابلة إلى قسمين: المقابلة الصحيحة، والمقابلة الفاسدة. وتكاد التعريفات التي قدمها أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ)، وابن رشيق (ت ٤٥٦هـ)، والسكاكي (ت ٦٢٦هـ)، تتفق على التعريف نفسه، مع التركيز على بيان أوجه الاختلاف بين الطباق والمقابلة.

أما حازم القرطاجني (٦٨٤هـ) فقد أولى عناية كبيرة لتناظر الكلام القائم على التقابل، لكن للأسف ضاع هذا الكلام بضياح القسم المفقود من المنهاج، وجعل المعاني المتناظرة من أحسن ما يقع في الشعر، وربط هذه الخاصية في الكلام بالمتلقي، لأنها تحرك نفسه، وتثير انفعاله. يقول في ذلك: "فإن للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها إيلاعا بالانفعال إلى مقتضى الكلام لأن تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعا من سنوح ذلك لها في شيء واحد"^(٢). فلعرض المعاني متقابلة أثر بالغ في نفسية المتلقي، وخصوصاً إذا صيغت هذه التقابلات في أحسن ترتيب وأبدع تركيب.

(١) - ابن المعتز، البديع، ص ٣٦.

(٢) - القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص ٤٥.

ولم يشترط حازم التحادي والتوالي بين المعاني والألفاظ في حصول التقابل، يقول: "وليس يشترط تحاذي عبارتي المعنيين المتقابلين في طرفي الكلام في الرتبة"^(١). وبذلك يكون قد وسع من مفهومه، وجعله شاملاً لمعني التناسب والتوافق.

٣- التقابل عند أصحاب علوم القرآن

عرّف الزركشي (ت ٧٩٤هـ) التقابل بأنه "ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته، ويخالفه في بعضها"^(٢). وفرق بينه وبين الطباق الذي لا يكون إلا في المتضادين، ويرى أن القرآن كله وارد على التقابل "بظهور نكتة الحكمة العلمية، من الكائنات والزمانيات والوسائط الروحانيات والأوائل الإلهيات، حيث اتحدت من حيث تعددت، واتصلت من حيث انفصلت"^(٣).

وتحدث ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) عن المقابلة^(٤) عفرها قائلاً: "المقابلة ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضها". وهي مصدر من قابل الشيء الشيء يقابله مقابلة إذا واجهه، وصار ماثلاً أمامه، وهو من باب المفاعلة وهي ثلاثة: مقابلة لفظية، ومقابلة معنوية، ومقابلة فاسدة. وتكون في الأضداد وغيرها، بخلاف الطباق الذي لا يكون إلا في الأضداد.

محمد بازي، وتوسيع مفهوم التقابل

١- التأويل التقابلي عند بازي

١-١- التقابل

يقدم بازي تعريفاً للتقابل مفاده أنه "محاذاة المعاني بعضها ببعض والتقريب بينها في الحيز الذهني والتأويلي، عبر مواجهتها ببعضها (وجهاً لوجه)، لإحداث تجاوب ما أو تفاعل معرفي، أو دلالي وتأويلي"^(٥). ويرى بأنها خاصية تواصلية إدراكية يتم من خلالها فهم الأشياء وتمثلها بشكل أفضل من خلال عرضها على مقابلاتها

(١) - القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص ٤٥.

(٢) - الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، ٣/ ٩١١.

(٣) - نفسه، ٣/ ٩١١.

(٤) - ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوق لعلوم القرآن وعلم البيان، ص ٢١٦ وما بعدها.

(٥) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي، ص ٤٠٦.

ووضعها إزاءها، وبهذا فإن مفهوم التقابل عنده يتجاوز مجال اللغة ليصبح أساسا كونيا لأن الحياة - في رأيه - "مبنية على أساس تقابلي: تخالفي أو تماثلي أو توافقي أو نقيضي"^(١).

إن الباحث في تعريفه للتقابل لم يخرج عن دائرة تعاريف القدامى، ولكن الجديد الذي أضافه هو ربط مفهوم التقابل بالتأويل، واقتراح آليات جديدة لجعل هذا التقابل أكثر فاعلية في فهم النصوص وتفهمها. هذا هو مفهوم التقابل عند بازي، فما مفهوم التأويل في تصوره؟

٢-١- التأويل

التأويل لغة جاء بمعنى الرجوع، ومصدره: "الأول: الرجوع، آل الشيء يؤول أولا ومآلا: رجع، و أول إليه الشيء: رجعه، وألت عن الشيء: ارتدت"^(٢). وعليه فالتأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، من خلال البحث عن المعنى الذي قصده منتج الخطاب، وأراد إبلاغه للمخاطب، وقد ارتبط مفهوم التأويل بالحقل الديني، أي بتأويل الخطابات المقدسة؛ إذ نشأ هذا العلم ليبدل على "معنى التفسير والبيان، ومنه قول ابن جرير وغيره: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا"^(٣). أما في العصر الراهن فإن الدارسين^(٤) يوظفون مصطلح "التأويلية" العربي باعتباره مقابلا لمصطلح الهيرمينوطيقا الغربي، وهي علم تبلور مع الفلاسفة الألمان على الخصوص من أمثال ديلتاي، وشلاير ماخر، وهايدغر، وغادامير، وقد نشأت في مجال علم اللاهوت، ولم تلبث أن انتقلت إلى آفاق أرحب ودوائر أوسع شملت مختلف العلوم الإنسانية، كالتاريخ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وفلسفة الجمال والنقد الأدبي، و"الأهم من ذلك أنها تركز اهتمامها بشكل لافت على علاقة المفسر (أو الناقد في حالة النص

(١) - بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، ص ٢٢٢.

(٢) - ابن منظور: لسان العرب، مادة أول.

(٣) - ابن قيم الجوزية، مختصر الصواعق المرسلية، ج ١، ص ٢٠-٢١.

(٤) - ومن هؤلاء الدارسين نصر أحمد أبو زيد في الكتاب أسفله.

النص والخطاب والتأويل في مشروع التأويل التقابلي

الأدبي) بالنص"^(١). أي أن الإشكال الذي تركز عليه الهرمينوطيقا في تحليلها هو العلاقة بين العناصر الثلاث (المؤلف/النص/الناقد) والتي تقابلها على التوالي (القصد/النص/التفسير).

أما محمد بازي فيرى أن التأويل هو "إعادة بناء المعنى النصي أو الخطابي وبيانه عند الفهم والتفهم، سواء حصل ذلك عبر ظاهر العبارات والألفاظ، أو تم تجاوز المعنى الظاهر نحو البنيات العميقة للمعنى"^(٢). فالتأويل إذن عنده هو نتاج القراءة التي تؤدي إلى الفهم والتفهم، وهذا الفهم يتم عبر الوقوف عند ظواهر العبارات، ولا يكتفي بها، بل يغوص في ما وراء اللفظ، أي في البنية العميقة للنص. وانطلاقاً من تعريف ابن فارس الذي يرى أن "تأويل الكلام هو عاقبته وما يؤول إليه"، يرى الباحث أن التأويل قد يكون صحيحاً، وقد يكون وهمياً. ومن هنا تبرز أهمية المؤول (القارئ) في هذه النظرية الذي يحظى بأدوار مهمة في العملية التأويلية؛ فدوره "يتمثل في الربط والتنسيق، وملء بياضات النص، وإشباع الدلالات، وفتح بوابات العبور، ومراقبة المعابر والطرق السيارة للمعاني الرابطة بين النص وموازياته ومراجعته"^(٣). مما يعني أن الخطاب التأويلي حسب هذه الرؤية هو نتاج تفاعل فعلي بين المؤول وموضوعه، نصاً كان أم ظاهرة من الظواهر، وهذا أحدث ما توصلت إليه نظريات القراءة والتلقي.

٣-١- التأويل التقابلي

يعد مفهوم "التأويل التقابلي" من المفاهيم الأساس في نظرية التأويل التقابلي التي تقوم عليها أطروحة بازي، فعندما يوصف التأويل بـ"التقابلي" فإنه يُقصد به نوع خاص من التأويل، وهو الذي يسعى بازي إلى إرساء دعائمه ضمن نظرية تأويلية

(١) - أبو زيد نصر حامد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، ص ١٣.

(٢) - نظرية التأويل التقابلي، مذكور، ص ٤٠٣.

(٣) - بازي، تقابلات النص وبلاغة الخطاب، ص ١١٠.

عربية. فعندما يتحدث الباحث عن التقابل في علاقته بالنصوص والخطابات يربطه بدوره في تأويل هذه النصوص والخطابات والوصول إلى معانيها؛ إنه يجعل منه "استراتيجية قرائية لصناعة المعنى، يمكن الاشتغال بها لفهم النصوص والخطابات وتفهمها"^(١). فالواضح أن الباحث يجعل التأويل التقابلي السبيل إلى العبور إلى المعنى إذ يعتبره "أداة بيان المعنى وتفهمه، عبر إحداث التقابل بين المعاني والعناصر بما يوضحها أكثر؛ لأن التقابل حاصل في التفكير المنتج للغة، وفي انتظام الكلمات والمعاني، ويجليه التقابل بمستوياته الكثيرة، ومظاهره التي يفسح لها ذكاء المتفهم واجتهاده"^(٢).

يوسع بازي من دائرة اشتغال التقابل فيتجاوز به ذلك المعنى الضيق الذي حصره فيه الدرس البلاغي القديم، ليدل على معاني التجاور والمحاذاة والتقريب بين العناصر والمستويات ذهنياً، بأي شكل من الأشكال، كما يشمل المواجهة بين وضعين أو موقفين، أو غير ذلك، وذلك من أجل الوصول إلى الغاية المنشودة وهي فهم النص وإفهامه باعتماد مبدأين^(٣):

الأول هو التسانيد بين الآليات التي تنبني عليها النصوص والخطابات.

الثاني هو الجهد الذهني للمؤول المستقصي للمعاني والعلاقات الممكنة بين العناصر النصية والمستويات السياقية.

يبين هذان المبدآن أن التأويل التقابلي يحاول أن يقف موقفاً وسطاً بين الاتجاهين الموضوعي والذاتي في التأويل، إنه يتبنى موقفاً شبيهاً بموقف فولفكان إيزر أحد رواد نظرية التلقي، الذي يرى أن تحقق العمل الأدبي هو نتيجة للتفاعل بين النص والقارئ، "فمن جهة يؤكد أن القارئ حر في مشاركته في النص، وذلك بملء

(١) - نفسه، ص ٩.

(٢) - نظرية التأويل التقابلي، ص ٨١.

(٣) - تقابلات النص وبلاغة الخطاب، ص ٩.

النص والخطاب والتأويل في مشروع التأويل التقابلي

الفراغات أو البياضات، ومن جهة أخرى، وفي آن واحد، فإن هذه الحرية تكون مقيدة بالنماذج الموجودة داخل النص"^(١). فالمعنى المتوصل إليه من خلال قراءة نص ما يكون خلاصة للتفاعل بين معطيات النص وسياقه والجهد الذهني المبذول من طرف المؤول في كشف المعنى واستقصائه، عبر ما راكمه من تجارب في التعامل مع النصوص.

٤-١- أنواع التقابل عند محمد بازي

يقترح بازي في كتابه التأويلية العربية صوراً مختلفة للتقابل، يقسمها إلى قسمين كبيرين تندرج تحت كل قسم أصناف متعددة، وهذان القسمان هما:

-التقابلات الصغرى، ويدخل تحتها: التقابل النقيضي، والنظيري، والإثبات والنفي، والتشابه، والفاعل والمفعول، وتقابل حال الذات، والتشارك اللفظي، والتصدير،...

-التقابلات الكبرى الموسعة، ويدخل تحتها: تقابل النص وسياقه، وتقابل النظائر النصية، وتقابل النسق التواصلي، والتقابل النووي، والتقابلات الاستيعابية، وتقابل النص والعنوان، وتقابل المقاطع وال فقرات.

مفهوم النص والخطاب في نظرية التأويل التقابلي

لا يمكن الحديث عن التأويل إلا من خلال وجود نص أو خطاب؛ لأن مدار التأويل على واحد منهما، ومعلوم أن لكل نظرية مفاهيمها ومصطلحاتها التي تميزها عن غيرها، فما مفهوم النص والخطاب في نظرية التأويل التقابلي؟

أ- مفهوم النص

يرى الباحث بازي أن تعريف النص محير وممانع، والدليل على ذلك هو أنه منذ ستينيات القرن العشرين وإلى حدود الآن لم يستقر الباحثون والدارسون في العلوم الإنسانية على فهم واحد لخصوصية النص ومميزاته، ويوافق محمد مفتاح عندما يرى

(١) - من قضايا التأويل والتلقي، ص ٤١.

أن من أسباب هذه الفوضى في تعريف النص عند العرب "غياب تصور نظري محدد المعالم، ومنهجية مضبوطة الحدود والأبعاد والغايات، مما يجعل الباحث العربي يلجأ إلى تشقيق الكلام، وإلى الأساليب البلاغية ليخفي الخسارات العلمية المؤكدة"^(١).

إن ما يُحقق لكلام معين صفة النصية عند بازي هو "مجموع المعايير والقواعد الموضوعية والفنية والأسلوبية والثقافية التي إذا حضرت في نص رفعته ونصته إلى مقام النصوص المعترف لها بخاصية النصية، بغض النظر عن لغته"^(٢)، فليست اللغة إذن شرط في نصية الكلام، وكذلك الكتابة أو التدوين الذي اشترطه ريكور^(٣)؛ فالعديد من النصوص اعترف بنصيتها قبل أن تُدون، فالذي يعطي النص صفة النصية هو "قيمتها الفنية والجمالية والموضوعية التي لا تتحقق إلا باتساقها وانتظامها"^(٤).

يقول بازي معرفا النص "النص - في تصورنا - هو مجموع الوحدات المعنوية الحاضرة والمثلة لغويا عبر تقابل المكونات والعناصر بأي علاقة أو أي اعتبار"^(٥). فالنصية حسب هذا المنظور ليست معطى جاهزا في النص، وإنما يُكتملها المتلقي من خلال افتراضاته وتأويلاته البانية. إن النص ليس مجرد كلمات وجمل مترابطة، ولكن هو هذا المعطى مع مجموع المصاحبات السياقية والعناصر التأويلية المستحضرة والمؤولة تقابليا.

وينطلق بازي من مبدأ تأويلي يكاد يكون فلسفيا مفاده أن النصوص فهوم للكون البليغ عبر سلاسل اللغة المتقابلة، وانطلاقا من هذه الرؤية فإن النص عنده يصبح عبارة عن "مجموع التقابلات المعجمية والدلالية والسياقية المنتظمة في الخطاب الذي تحمله

(١) - مفتاح محمد، المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، ص ١٥.

(٢) - نظرية التأويل التقابلي، مذكور، ص ٢٠٠.

(٣) - بول ريكور، من النص إلى الفعل، ص ١٠٥.

(٤) - بازي محمد، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

(٥) - نفسه، ص ٢٠٦.

النص والخطاب والتأويل في مشروع التأويل التقابلي

والمحيلة على الكون المتقابل والفسيح. والنص كون لغوي متقابل، ومنطلق رحلات دلالية وتأويلية عالمة وبلغية^(١). فالتفكير بالتقابل - حسب بازي - أحد الأسس التي يبنى عليها تفكير الإنسان العربي القديم، وقد تجسد فيما خلفه هذا الإنسان من تراث فكري، لأن التقابل سنة كونية. وعليه، فإن النظرية تقيم تقابلا بين الكون المنظور والنص باعتباره كونا مكتوبا، فتقول بأن "النص كون لغوي متقابل ومتسق، ذو صناعة ونسج، وراءه منتج له مقاصد معينة، وموجه إلى متلق، وهو قابل للفهم والتأويل بأشكال متشابهة أو متباينة، وفي مقتضيات أحوال مختلفة"^(٢).

بالوقوف على هذا التعريف، سنلاحظ أن الجديد فيه هو قضية نعت النص بالكون المتقابل، أما باقي عناصر التعريف فشبّهة بما تقترحها نظريات الغربية الحديثة، وهي بالترتيب: تحليل الخطاب، والتناسل، والتداولية، والتلقي، والهيرمينوطيقا، والسياق. وعليه فالنص في النظرية هو ذلك المجموع من الوحدات التي أشارت إليها مختلف النظريات، ولكنها - في نظر بازي - ممثلة لغويا عبر تقابل المكونات والعناصر، وبالتالي فإن النص في حاجة إلى قوة لتجلية هذه المكونات المتقابلة فيه، أي أنه لا يكتمل إلا بحضور قوة تلق افتراضية وتأويلية هي التي تبني معناه.

ب - مفهوم الخطاب

من الإشكالات المحيطة بتعريف النص ذلك التداخل بين مفهومه ومفهوم الخطاب؛ فهما معا يتجاوزان معنى الجملة، ويعتمدان البنيات اللغوية والوظائف السياقية للتمكن من عمليتي الفهم والتأويل، ولكنها يختلفان من حيث شروط الإنتاج، وجنس القول، والعناصر السياقية. وقد اتخذت الاتجاهات اللسانية بخصوص هذا الموضوع منحنيين؛ منحى يميل إلى الوصل بين النص والخطاب،

(١) - نظرية التأويل التقابلي، ص ٢٠٦.

(٢) - نفسه، ص ٤١٩.

ومنحى يرى استقلال كل منهما عن الآخر. فما مفهوم الخطاب في نظرية التأويل التقابلي؟

ينطلق بازي - في تحليله لمفهوم الخطاب- من الدلالة اللغوية والتي تعني "الكلام بين اثنين ومراجعة الكلام"^(١). ثم يستعرض تعريفات لبعض البلاغيين مثل الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، والآمدني (ت ٣٧٠هـ)، ثم ينتقل إلى معناه عند الغربيين، فيستحضر تعريف بنفسه الذي يعرف الخطاب "بأنه الملفوظ الموظف في التواصل"^(٢).

أما تعريفه الخاص للخطاب فإنه ينطلق من الربط بين النص والخطاب، إذ يعتبر هذا الأخير هو "النص المتداول في مقتضيات تخاطب معينة: زمان ومكان ومرسل ومرسل إليه، وكذا مجموع العلاقات الموجودة بين العناصر الخارج- لسانية، أي النص داخل أحوال تخاطب معينة"^(٣). يستشف من هذا التعريف أن نظرية التأويل التقابلي تمارس على الألوان الخطابية الإمكانات التحليلية نفسها التي تمارسها على النصوص، مع مراعاة اعتبار الخطاب نصاً أدرج في مقامات تخاطبية أو تواصلية؛ أي أنه يعني كل نمط لغوي قاصد إلى التخاطب وإبلاغ المقاصد، والتأثير في الآخرين.

حدود التأويل في نظرية التأويل التقابلي

١- الفروض الكبرى للنظرية

أ - يبدو أن نظرية التأويل التقابلي بناها صاحبها انطلاقاً من افتراض له علاقة بفلسفة الكون، وهو افتراض يشكل، إلى جانب افتراضات أخرى، الفرضيات الكبرى^(٤) التي تسند النظرية، وهذا الافتراض مبني على النظر إلى الكون بشكل شمولي وفق أساس تقابلي، يتقابل فيه كل شيء: البنيات والأشياء، والألوان

(١) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (خطب).

(٢) - نظرية التأويل التقابلي، ص ٣٠١.

(٣) - نفسه، ص ٤١٥.

(٤) - نفسه، ص ٣٧-٣٨.

النص والخطاب والتأويل في مشروع التأويل التقابلي

والكلمات، والحالات، والوضعيات، والعلاقات، في أقصى ما يحمله ويحتمله التقابل من إمكانات. وهذه الرؤية تنبني على مبدأ عقدي عند كل مسلم موحد، ويدل على أن الله خلق المخلوقات أزواجا، وأما هو سبحانه ففرد "مطلق منزه عن الضد والند والمقابل والمعاضد والمعارض، هو الفرد الذي يقدر على خلق الشيء وخلافه، وابتداع زوجين من كل شيء"^(١).

ب- وبالتالي يصبح كل حديث عن التقابل يستدعي افتراض حضور أحد العناصر مقابل عنصر آخر، وقد يدل أحدهما على الآخر بحضوره وإن كان غائبا، "فملاحظة الظواهر من حولنا عبر التمعن فيها وإدراكها، يقتضي حضور زوجها إما حضورا ماديا أو معنويا"^(٢).

ج- وما يقوم به منتج النص هو أنه يحوّل الكون المتقابل وفق تفاعل الذات معه، إلى بنية من المعاني المتقابلة عبر استراتيجية تعبيرية مختلفة، تخضع لمقاصد التأليف، وضوابط الصيغ الجمالية، وعليه فإن النص يكون بنية من التقابلات الظاهرة والخفية، النصية والمبنية عبر أفعال التأويل.

د- التقابلات المؤسسة للمعنى هي الجوهر الأصل، وتحمل إلى القارئ عبر الكلمة المفردة، والجملة، والنص، والخطاب، ومستلزمات السياق الخارجي، والثقافة والموسوعة، والمعارف الخلفية المشتركة. وبناء على ذلك يصبح التأويل التقابلي آلية للفهم والتواصل، فبواسطته "نستطيع أن نتفاهم فيما بيننا أحسن تفاهم. وهذا مطلب إنساني وكوني يحقق به الإنسان درجات رقيه المعرفي والتواصلية"^(٣).

هـ- هذا النموذج التأويلي لا يزعم لنفسه الاكتفاء بذاته، والانطلاق من خارج ما راكمته المناهج والنظريات الحديثة، ولكنه يتزود منها حسب الحاجة، ويأخذ منها ما ينفذ في تحقيق الإشباع الدلالي، وانسجام التأويل.

(١) - ابن منظور، لسان العرب، ص ٦٦.

(٢) - نفسه، ص ٦٤.

(٣) - نفسه، ص ٧٣.

٢- العدة المعرفية للمؤول بالتقابل عند بازي

لقد أدرك بازي الإشكالات المتعلقة بالتأويل، وما قد ينتج عن هذه العملية من زيغ لا ينتج إلا الأهواء، فلم يترك الباب مفتوحا على مصراعيه للمؤول بالتقابل، ليؤول وفق هواه، لا يوجهه موجه، ولا يرده راد؛ لذلك سعى إلى تقديم مجموعة من الموجهات على شكل أسناد تهدف إلى دعم الاشتغال على النصوص، وتقييد الطاقة التأويلية، وتقنن تفاعل المنظور التقابلي مع العلوم التي يمتح منها، وهذه الأسناد نختصرها فيما يأتي^(١):

- ١- سعة الاطلاع على علوم اللغة العربية، وخصوصا علوم الآلة.
- ٢- المعرفة الواسعة بالحقيقة والمجاز نظريا، ثم القدرة على تبيينها في النصوص.
- ٣- العلم بجهات المجاز كما عرفها القدامى، من تشبيه، وتجاوز، ومضادة...
- ٤- التقابل بين السمات الدلالية مسار مفيد في بناء الدلالة.
- ٥- المعرفة بالسنن القولية التي يجري وفقها كلام العرب، وكتب التفسير وعلوم القرآن.

٦- التوسيع من مفهوم التقابل ليشمل عناصر الاتساق.

يتضح من خلال هذه الأسناد أن نظرية التأويل التقابلي تفتح بشكل أو بآخر على مجموعة من الحقول المعرفية المجاورة مثل اللسانيات، والتداوليات، والسيمايات، ونظريات النص، وتحليل الخطاب، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والتاريخ... وهي بذلك تفتح آفاق أرحب وأوسع أمام الدرس التأويلي.

٣- متى يكون التأويل مشروعا ومنسجما؟

يطرح الكاتب هذا الإشكال من خلال السؤال الآتي: ألا توجد قواعد للصحة تميز القراءات المشروعة من الخاطئة؟^(٢)

(١) - ينظر: تفصيل ذلك في المسلك الرابع من كتاب نظرية التأويل التقابلي.

(٢) - نظرية التأويل التقابلي، ص ٥٦.

للإجابة عن هذا السؤال يستعرض الباحث الاختبارات التي اقترحها أمسترونغ، وهي ثلاثة: الشمولية، وتشارك الذوات، والفعالية، إلا أنه يصف هذا التصور بالنمطي الذي يؤدي إلى ترميط النصوص واعتبارها نوعا واحدا، واعتبار القراء درجة واحدة، ويرى بأن تغييب هذه المحددات في عملية التأويل قد ينسف المشروع التأويلي ككل، ومن هنا يرى بضرورة "الاحتكام إلى الدلائل اللغوية وعرضها على المعاجم والاستعمالات العرفية للكلمة، ثم السياق الذي استعملت فيه الكلمة"^(١). ويعتبر أن هذا الإجراء أقوى في الاعتبار العلمية من اختبار تشارك الذوات الذي أشار إليه أمسترونغ. فاتفق مجموعة ما على فرضية تأويلية أو معنى ما، لا يعني في رأيه، أن ذلك معيارا لصلاحية التأويل، لأنه تأويل محكوم بنسق خاص في الفهم، ويستدل على ذلك بانزلاقات الشيعة في تأويل بعض الآيات القرآنية.

ويرى الباحث أنه لكي يبلغ التأويل درجة من الصحة والصلاحية، فلا بد من مراعاة اعتبارات من داخل النص، والعلم بالنص، وبالعلوم التي تأسست من خلال الاشتغال على النصوص اللغوية، مثل علم اللغة، وعلم النحو، وعلم الصرف، وعلم البلاغة، وعلوم السياق، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم الأنساق الثقافية، وهذه الاعتبار عندده هي التي من شأنها أن تفضي إلى ما يسميه التأويلية النصية العاملة^(٢)، ولا يتأتى ذلك إلا بالمراس الناتج عن الاشتغال على النصوص عبر فترات طويلة، وتكون النتيجة حينها إما تأويلا صحيحا أو شاملا، فإن لم يكن كذلك فعلى الأقل يكون تأويلا مقبولا.

ويميز الباحث بين العلم بكيفيات التأويل وامتلاك كفايات التأويل، فملكات التأويل، بالنسبة إليه، "هي غير العلم بكيفيات التأويل، أي بنظرياته وفلسفته، وإنما الممارسة العملية المباشرة والمستمرة للأدوات والخبرات في التعامل مع النصوص

(١) - نظرية التأويل التقابلي، ص ٥٧.

(٢) - نفسه، ص ٥٨.

والخطابات"^(١)، وهي ملكات لا تحصل إلا بالتجريب والمعاودة، ومعاودة النصوص والإحساس بالإخفاقات التأويلية التي تتناوب الفهم، والدخول في مآزقه وصعوباته، وكأن العملية شبيهة بتعلم صنعة أو حرفة؛ إذ لابد لصاحبها من تدريب ومعاونة ومكابدة وتجاوز الإخفاقات التي تواجهه حتى يبلغ درجة الصانع المحترف والماهر.

٤- المعنى في نظرية التأويل التقابلي

إذا كان التأويل عند ريكور يسبق التلفظ، فإن بازي يرى بأن المعنى يوجد قبل التأويل، خلافا للمدرسة السيميائية التي ترى أن التلفظ يسبق المعنى. فالعالم المتقابل والمعاني المتقابلة الدالة على الكون البليغ، حاصلة بالفعل قبل تعبير المعبرين. ويتعلق المعنى بما حصل في ذهن المتكلم أو منتج النص، أي الصورة الذهنية قبل التعبير عنها باللفظ، وقد يوفق المتكلم في التعبير عن ذلك كما يقصد، وقد لا يوفق، وبالمقابل فإن المعنى عند من يتلقاه قد يطابق المعنى المقصود عند منتجه، وقد ينحرف عنه بسبب من الأسباب^(٢)، وهي أسباب ناتجة عن أحوال مختلفة، مما يساهم في وجود نوعين من التأويل^(٣): التأويلات العادية، وهي تأويلات العامة من غير أهل الاختصاص، وهذه لا يعول عليها في شيء، بل قد تكون السبب في الجدل والاختلاف، والتأويلات العاملة وهي التي تستند إلى أدوات ومعايير التأويل، وتكون مرفقة بالدليل والتحليل والتعليل. وهي التي تنعت بالتأويل البليغ الذي يحظى بالقبول التام عند المؤلفين البليغاء.

(١) - نظرية التأويل التقابلي، ص ٦١.

(٢) - هذه الأسباب يحددها بازي في: عدم التريث - عدم المعرفة بمعاني الكلمات عامة أو عند جماعة متكلمة - وجود مقاصد مبنية سلفاً أو حالة نفسية أو ثقافية - عدم امتلاك أدوات الفهم اللازمة. ويمكن تسمية هذه الأسباب بالأسباب المانعة من الفهم التي يضيف إليها بازي في موضع آخر: قلة التفتن، ووجود شبهة تحول دون تصور الفهم، والخواطر والأفكار، والجهل بالعلوم الضرورية من لغة ونحو وصرف وبلاغة، وسوء المعرفة بسياق النص.

(٣) - نظرية التأويل التقابلي، ص ٨٢.

ولا بد للمعنى من قرائن تسنده وتدعمه، وهي قرائن إما عقلية - ذهنية ومنطقية، أو مقالية من النص نفسه أو من غيره، أو حالية من السياق وملاساته. وهذه العناصر في نظر بازي تحضر بشكل موزع حسب اتجاهات ومناهج النقد الأدبي الحديث.

والمعنى عند بازي هو ما عناه العاني وأراده، مرتبط بمقصد المتكلم أو الكاتب، إنه الصورة الذهنية من حيث تقصد الألفاظ. ويميز بازي بين نوعين من المعاني^(١): الأول يسميه بالمعاني الحلي: وهي المعاني الوسيطة التي يتم من خلالها نقل معنى المعنى؛ إنها المعاني الوسائط التي يتم التعبير بها عن معانٍ أخرى.

والثاني يسميه بالمعاني السلطانية: وهي صنف من المعاني غير متداول لا يصل إليه إلا خاصة الخاصة، فهو محتجب لا يريك وجهه حتى تكون أهلاً لذلك، أي مالكا لبلاغة وتأويلية على درجة عالية.

أما معنى النص فإنه مركب من جميع مكوناته النصية، معجمياً، وصرفياً، وتركيبياً، إلى جانب متعلقاته السياقية، وكل المواد التي تساهم في الفهم من قرائن ونصوص وعمليات ذهنية تمثيلية وتأويلية.

فتمتج النص يحمّل كلامه أكبر قدر من المعاني، ولكن بشكل مكثف يقتضي الاقتصاد والطي والاختزال^(٢)، باعتقاد الاستعارات والكنيات والمجازات والتشبيهات، وسائر مختلف أنواع البيان والتبيين، وهكذا، فإن إنتاج النص يعمل على "تصغير فضاء الدلالة لإتاحة الفرصة للأفعال التأويلية التي تحقق لذة الاكتشاف المعنوي عبر النشر وتكبير المعاني المصغرة"^(٣).

(١) - نظرية التأويل التقابلي، ص ٤١٨.

(٢) - نفسه، ص ٧٩.

(٣) - نفسه، ص ٨٠.

ويتم هذا التأويل عبر توسيع الدوائر الدلالية الصغرى المبنية بعناية فائقة، مستعينة بآليات فاحصة ومتفحصة وهي: الافتراضات والتساؤلات، والشواهد، والمدونات الخبرية، والمعلومات السياقية، وكل العلوم المساعدة في التحليل: اللغة والصرف والنحو والبلاغة، إلى جانب التحكم في مهارة الخطاب الواصف، والقدرة على ملاءمة المعنى عبر عرضه على النص ومساقاته أو الثقافة التي يرتبط بها، أو المقام التواصلية.

٥- دور السياق في التأويل التقابلي

يعتبر بازي الجهل بسياق النص؛ أي بمجملة الظروف الخارجية التي تعلق بها إنتاجه وتكونه من الأسباب المانعة للفهم. لذلك فإنه يولي أهمية خاصة للسياق ودوره في نظريته^(١)، فيرى بأن لكل نص سياق يرتبط به، أنتج فيه وعلى ضوئه يفهم ويؤول بأحسن وجه، يقدم بخصوص السياق مفهومين هما السياق الأصغر، والسياق الأكبر: يقصد بالسياق الأصغر الواقعة المباشرة التي ارتبطت بقول كلمة، أو جملة، أو حكمة، أو مثل، أو بيتين شعريين، أو قصيدة معينة أو خطاب كامل.

ويقصد بالسياق الأكبر التجربة الحياتية والأدبية الخاصة بالمنتج- حيث تظل خطوطها العريضة واضحة الأثر في التجربة القولية الجزئية- أو بحياة الناس العامة التي تشترك مع الواقعة القولية الخاصة في عناصر محددة تجعل منها معطى تداوليا مشتركا.

والفهم يكون حصيلة إدماج السياق الأصغر في السياق الأكبر، لأن السياق الأصغر لا يفهم غالبا إلا باستحضار السياق الأكبر عبر المقابلة بينهما. وبفعل هذا التقابل تفتح أمام المؤول بوابات واسعة لدخول عالم المعنى من خلال إقامة هذه الترابطات والتقابلات. ويؤكد بازي على أن مبدأ المقابلة بين النص والسياق وبين

(١) - نظرية التأويل التقابلي، من ص ٩٩ إلى ص ١٠٤.

السياق الأصغر والأكبر ظل مكونا حاضرا في مقارنة النصوص وتأويلها في الثقافة العربية القديمة. وهذه حال الكثير من المناهج الغربية الحديثة باستثناء تلك التي تعتبر النص بنية مغلقة مثل البنيوية واللسانية والتفكيكية والسيمائية.

إن السياق في نظرية التأويل التقابلي يعتبر قرينة تأويلية، ومرجحا لمعنى من المعاني، خاصة إذا علمت للسياق المؤطر مقاصد وغايات. وهو يلعب دورا هاما في تحديد ما يقال، وما يقال له دور في تحديد السياق، وهذا ما يسميه بازي التساند.

٦- انسجام التأويل

يلمح بازي إلى أن أحد أبرز مرامي التأويل التقابلي هو تمييز التأويلات المنسجمة من غير المنسجمة، ويشير إلى أن تصوره في هذه النقطة ينسجم كثيرا مع تصورات براون ويول في تحليل الخطاب لاسيما أنها لا يعتبران الانسجام أمرا معطى في النص، وإنما يبنى بمشاركة المتلقي، ويؤول بازي ذلك بأن اهتمامها انصب على انسجام التأويل أكثر من انسجام الخطاب؛ فالخطاب لا يملك مقومات انسجامه في ذاته، وإنما القارئ هو الذي يسند إليه هذه المقومات.

ويرى بازي أن كل نص قابل للفهم والتأويل فهو نص منسجم والعكس صحيح. ويمكن لتتاج قراءات متباينة أن تخلق حالة من الانسجام، عندما يكمل بعضها بعضا، ويسد نقص المعنى. ويفترض أن إمكانية حدوث هذا الانسجام في التأويل بمعاودة المؤول قراءة نص واحد من منظور مغاير أو زاوية أخرى، ثم عبر التصحيح وتعديل مسارات القراءة، وملاحظة الفرضيات الأولى بالمراجعة والتقويم.

أما التأويلية التقابلية فتروم الوصول إلى انسجام التأويل بتجنب بتر البنية النصية المؤولة عن مساقها، وتجنب المغالاة والإفراط في تسخير النص لصالح المقاصد الذاتية، عبر استحضار أوجه الأسلوب العربي، ورصد التقابلات ودلالاتها على المعاني، ثم اعتماد الدليل المناسب باعتباره مقابلا للنص وشاهدا على المعنى.

بعد هذه التوضيحات يخلص الباحث إلى تحديد معنى التأويل المنسجم، فيرى أنه "هو الذي يبلغ المراد بالكلام، أو القصدية الصحيحة والمقبولة، أي الحقائق الثابتة خارج الكلام، بما هي عليه من صفات أو أحوال ثم يبلغها مع مراعاة أحوال التبليغ والسياقات المناسبة"^(١).

(١) - نظرية التأويل التقابلي، ص ٥٢.

خاتمة: (ملاحظات)

لا بد من النقص في كل شيء عند تمامه، ولا بد لكل فرس من كبوة أو تعثر في لجامه، والكمال صفة نادرة في الأعمال البشرية، والمشروع التأويلي البازي - باعتباره حديث النشأة - ليس يخرج عن هذه السنن الكونية، فهو تعتريه بعض الإشكالات سواء على مستوى المفاهيم أم الإجراءات، والرجل نفسه يقر متواضعا بذلك فيقول "فليغفر سهونا بالحلم، وزللنا بالعلم، لاعترافنا قبل اقترافنا، وإقرارنا بالنقص الذي ركب في جيلة أمثالنا، ومن أراد عيبا وجده، ومن فحص عن عشرة لم يعدمها"^(١). ولذلك نسجل بعض الملاحظات حول النظرية نجملها فيما يأتي:

١- أولى الباحث في نظريته اهتماما أكبر للجوانب الدلالية، وكانت عنايتها للجوانب الجمالية في النصوص بنسبة أقل.

٢- كثرة التقسيم والتشقيق قد يجني على الدراسة في أي مجال، والناظر في كتب بازي سيجد عددا كبيرا من أقسام التقابل، صحيح أنها تفتح آفاقا أوسع، ولكنها تثير نوعا من الفوضى الاصطلاحية.

٣- تظل بعض المفاهيم غامضة بعض الشيء وتحتاج لمزيد توضيح، وربما كان إعداد معجم خاص للتأويل التقابلي لضبط مصطلحاته أجدى في هذا الجانب، على غرار العلوم الغربية.

٤- الاقتصار على نماذج تمثيلية أغلبها تجزيئية، وبالتالي لازلنا ننتظر من المشروع اختبار النظرية على نصوص طويلة، والكشف عن مدى فاعلية التقابل في تأويل هذه النصوص وتحقيق انسجامها وتماسكها.

٥- يحتاج التأويل البليغ الذي يقترحه الباحث إلى مزيد من التحديد والضوابط حتى لا يزيغ المؤول بهذه العدة، ولا يسقط فيها حذر منه الباحث نفسه، ويستطيع تقديم تأويل منسجم كما يسميه.

(١) - التأويلية العربية، ص ٢٠.

هذه الملاحظات لا تنقص من جهد الرجل شيئاً، فقد اجتهد اجتهاداً كبيراً يشكر عليه، وحسبه أنه نفض الغبار عن التراث العربي، وأنه كان أكثر طموحاً عندما حاول التأسيس لتأويلية عربية محضة تتخذ من التقابل أرضية خصبة لها، وتفتح أمام هذه الآلية آفاق أرحب تخرجها من الضيق الذي ظلت محصورة فيه لقرون خلت. ولكن للأسف الشديد لم تلق هذه المقترحات حظاً كافياً من الدراسة والنقد حتى يتم تبيين الجانِب الإيجابي فيها ورصد النواقص وتقديم اقتراحات لتجاوزها وتعديلها، اللهم بعض الدراسات القليلة التي ظلت محصورة في الجانِب التقريضي. ويظل السبب غير معروف، فهل يتعلق الأمر بنظرة دونية لكل ما ينتجه الباحث العربي أمام الانبهار بما يأتي من الحضارة الغربية؟ أم أن الأمر يتعلق بتهميش مقصود تكمن خلفه دوافع غير علمية؟ أم يتعلق الأمر بتقصير من صاحب العمل نفسه في الترويج لمشروعه؟

نأمل أن يحظى هذا المشروع بمزيد من العناية، ولم لا نطمح فيما يستقبل إلى تأسيس مدرسة التأويل التقابلي على غرار المدارس الغربية المعروفة.

لائحة المصادر والمراجع:

- ابن المعتز، البديع، تح: كراتشكوفسكي، دار المسيرة، ط ٣، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م؛
- ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، (د.ت)؛
- ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف؛
- أبوزيد نصر حامد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط ٩، ٢٠١٢؛
- بازي محمد:
- التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط ١، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م؛
- تقابلات النص وبلاغة الخطاب، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط ١، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م؛
- نظرية التأويل التقابلي، منشورات ضفاف، ١٤١٣هـ / ٢٠١٣م؛
- بول ريكور، من النص إلى الفعل، ترجمة: محمد برادة وحسان بورقية، عن الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، ٢٠٠١؛
- الجوزية ابن القيم، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، تح: محمد بدر الدين النعماني، مطبعة السعادة، ط ١، ١٤٢٧هـ؛
- الخليل بن أحمد، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢؛
- الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تح: وائل أحمد عبد الرحمن، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، (د.ت)؛
- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتب، ط ٣، ١٤٠٠هـ؛

- القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٩٨١؛
- الجوزية ابن القيم، مختصر الصواعق المرسلّة، اختصار: محمد بن الموصلي، تح: الحسن بن عبد الرحمن العلوي، مكتبة أضواء السلف، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م؛
- مفتاح محمد، المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٩.

بلاغة التقابل والتأويل التقابلي

آفاق جديدة

د. مصطفى رجوان

تقديم:

قام الباحث المغربي محمد بازي بتطوير مفهوم التقابل، وتوسيع دائرة اشتغاله، وإخراجه من الصورة السطحية التي أنيطت به منذ ظهور مصنفات البلاغة (البيان والبدیع) وحتى وقت قريب. بل سعى فوق ذلك إلى تكوين نظرية تأويلية عربية أساسها البلاغة. إنه ببساطة عمل تطويري للبلاغة وإعادة لإحيائها عبر ربطها بالتأويل؛ أي أن تصبح منتجة للمعنى العميق ولا تكتفي بالتحسين الظاهري. وذلك ابتداءً من سنة ٢٠١٠، وعبر مجموعة من الأعمال التي تجمع بين التنظير والإنجاز. وليست هذه الدراسة بهدف عرض هذا المشروع البلاغي التأويلي وتقديمه، لكنّها تطمح إلى أن تقترح وأن تضيف وأن تسائل إذا أمكن ذلك؛ بمعنى أن تفتح آفاقاً جديدةً للبلاغة العربية ولنظرية التأويل التقابلي. وبالتالي سنقدم مقترحات جديدة، وسنجرّبها على خطابات بليغة: القرآن الكريم والشعر العربي القديم وشعر الحداثة.

التأويلي التقابلي

توقفت الدراسات المعناة بالتقابل عند الحدود التحليلية لمظاهره وتجلياتها، وحدود خدمته للمعنى. أما عمل بازي فقد تجاوز المستويين البنائي والدلالي للتقابل فأعدّ عدة مفهومية لتأويل مختلف النصوص والخطابات على أن يكون التقابل منطلقاً لها. بالإضافة إلى الغاية التأويلية للتقابل، فبإمكانه أن يكون مفتاحاً للكشف عن بلاغة الخطاب وجماليته وتعريفنا على أسرار صناعة الخطاب البليغ^(١). إن التقابل، حسب هذه النظرة، منهج جديد في التأويل البليغ غير المفرط الذي يستند على معطيات تساندية نصية وخارج نصية.

(١) - بازي محمد، تقابلات النص وبلاغة الخطاب: نحو تأويل تقابلي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠١٠، ص١٤.

والتأويل التّقابلي لدى الباحث "استراتيجية قرائية لصناعة المعنى، يمكنُ الاشتغال بها لفهم النصوص والخطابات وتفهمها، وهي اختيار إجرائي أسسه محاذاة المعاني بعضها ببعض، وتقريبُ بينها في الحيز الذهني والتأويلي، عبر موجهتها (وجهاً لوجه) لإحداث تجاوب ما، أو تفاعل معرفي، أو دلالي وتأويلي.

تقومُ استراتيجية التّأويل التّقابلي على التقريب بين العناصر والمستويات ذهنياً، بأي شكل من الأشكال، وذلك عبر إحداث تواجه بين بنيتين أو وضعين، أو موقفين، أو غير ذلك"^(١).

التعاقد التّأويلي ومثلث بلاغة الخطاب

تؤكد البلاغة الجديدة مع شايم بيرلمان Chaim Perelman، سيراً على الأثر الأرسطي، على أن الخطيب إذا أراد أن يكون خطابه ناجعاً فعليه أن يكتفه مع مخاطبه...، بل "إن معرفة أولئك الذين ننوي ربحهم شرط مسبق لكلّ حجاج ناجح"^(٢). وقد خصّص ميخائيل باختين حيزاً كبيراً من كتاباته للحديث عن أهمية التفاعل اللفظي Interaction verbale، فيرى أن الكلمة "حصيلة تفاعل المتكلم والسامع"^(٣).

أما مفهوم التعاقد التّأويلي عند محمد بازي فهو مفهومٌ متطورٌ عما سبق. استعاره من الحقل التربوي فهو تحويل لمفهوم التعاقد البيداغوجي. وهو نتاج تفاعل مفاهيم متعددة في التلقي والتأويل، مفاهيم تتعلق بمثلث: كفاءة المنتج وكفاءة المتلقي والنصية. فينظر إلى الخطاب كنتيجة لتعاقد بين منتج ومتلقيه.

(١)- بازي محمد، تقابلات النص وبلاغة الخطاب، ص ٩.

(٢) Perelman Chaim et Olbrechts-Tyteca Lucie, *Traité de l'argumentation*, Bruelles, édition de l'université de Bruelles, ٢٠٠٠, p. ٢٦.

(٣)- ميخائيل باختين، الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة: محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٨٦، ص ١١٧.

فيكونُ التعاقد التأويلي عنده عبارة عن "إطار معرفي يتشكّل من خلال مجموعة من التصورات والمبادئ والمعايير التي يحددها نسق ثقافي معيّن؛ فالمنتج يلتزم بشروط إنتاجية عامّة يتحقق بها التواصل والتفاعل مع نصه. والنصّ كذلك من حيث شكل بنائه وتجليه الكتابي، ليس متعالياً عن قوانين المنظومة التي أنتج وأوّل داخلها. كما أنّ القارئ بدوره يعمل على الوفاء بشروط التعاقد المرجعي الثقافي الذي يتمّ داخله التأويل"^(١). عموماً فإنّ التواضع أو التعاقد convention غير جديد على الدرسين البلاغي واللساني التداولي.

القارئ البليغ وكفائاته

على غرار أنواع القارئ في النظريات الأخرى، مثلاً القارئ النموذجي عند إيكو، يقترح بازي مفهوم القارئ البليغ. وهو عنده "وضع اعتباري، يتمتع فيه القارئ بكفايات افتراضية وتصورية عالية، وتتبع جيد لجزئيات النص، وبكفاية موسوعية تمكنه من إشباع الدلالة، وكفاية استدلالية على مقبولية المعنى، وكفاية تنسيقية، تمكنه من تجميع أفهامه في خطاب تأويلي متسق في ذاته، ومنسجم مع سلطة التعاقد المؤطرة لاشتغاله"^(٢).

من كفايات هذا القارئ كفايتا التجميع والتحقيق. تتعلق الأولى بما حفظه المؤول وجمعه من مختلف المعارف والعلوم والنصوص، وتتعلق الثانية "بإرجاع المادة المحفوظة إلى أسانيدها، والأقوال والأشعار إلى أصحابها"^(٣). وهناك أيضاً كفاية التنسيق "وتتمثل في قدرة المؤول على تنظيم منهجي لمحصلات تأويله، وتدوينه في

(١) - بازي محمد، التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم - بيروت ومنشورات الاختلاف - الجزائر، ط ١، ٢٠١٠، ص ٣٤٨.

(٢) - المرجع نفسه، ص ٣٥٣.

(٣) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنصّ والخطاب، دار الأمان وأخرين، الرباط، ط ١، ٢٠١٣، ص ٤١٧.

خطاب متماسك ومتناسق، في منأى عن المزالق والتناقضات"^(١). وفيما يتعلق بالكفايات المذكورة، نعتقد أنها مجرد إعادة إنتاج مصطلحات جديدة؛ فكفايتنا التجميع والتحقيق تتعلقان بالكفاية الموسوعية، وكفاية التنسيق تتعلّق بالكفاية المنطقية. وهما معاً القدرة المعرفية والقدرة المنطقية عند الوظيفي سيمون ديك.

التساند التأويلي والبيئة المغربية

التساند التأويلي مفهومٌ أساسٌ في مشروع محمد بازي إن لم نقل إنه أهمّ مفاهيمه، وهو عنده "أن المؤول يستحضر في عملية بناء المعاني كلّ العلوم المفيدة في الفهم من بلاغة ولغة ونحو وصرف، وتاريخ وأعراف وتقاليد وشواهد مختلفة داعمة لتخريج دلالي، إضافة إلى ملكاته التأويلية وخبرته بالفهم والتفهم، ومن ثمة فهي تساند وتتعاون في الخطاب"^(٢). أو بتعبير آخر هو "إجراء تأويلي ناظمٌ لمعطيات النص ومعطيات سياقه بطريقة مقبولة ومنسجمة، تستند إلى الانتقالات الممكنة التي تسمح بها بلاغة المؤول بين النصّ وامتداداته، ويهدف التأويل التساندي إلى تحويل التصوّرات المقترحة إلى آليات قابلة للتجريب، وإنجاز قراءات تأويلية مبنية على قاعدة نظرية تنقل المقاربات من أحادية المنظور التحليلي وانحباسه في منحى ضيق؛ لإعادة الاعتبار لتساند الأدوات والمعطيات وتعاونها في بلوغ الفهم وبناء المعاني، والإفهام"^(٣).

هذا الفكر البلاغي التأويلي في مشروع، محمد بازي، الملخّص تحت مفهوم التساند التأويلي، والذي ينزغُ كلّ النزوع إلى تكامل المعارف ونمذجة الخطابات هو حلقة ضمن دينامية مغربية متواصلة ووليدُ تربة المغرب الفكرية، ويقع ضمن سيرورة جهود قديمة تتمثل في مشاريع البلاغة مع أبي القاسم السجلماسي صاحب "المنزغ

(١)- المرجع نفسه.

(٢)- نفسه، ٤٠٥.

(٣)- بودرع عبد الرحمن، نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن الحديث، كتاب الأمة، الدوحة، ع ١٥٤، ط ١، ٢٠١٣، ص ٤٩.

البديع، وابن البناء العددي المراكشي صاحب "الروض المربع"، وحازم القرطاجني صاحب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، وصولاً إلى مشروع محمد مفتاح. ولعلّ الحديث عن هذه التجارب يوضّح جلياً الأساس المعرفي لمفهوم التساند التقابلي:

(١) مشروع حازم القرطاجني

أو نموذج الفهم الكلي كما يسميه الباحث المهدي لعرج، لأنه "نموذجٌ للخطاب البلاغي الذي تتداخل في تشكيله مفاهيم تتعاون ومعارف تتكامل"^(١) بالشكل الذي ينتج الفهم الكلي للخطاب. ومن خلال عنوان الكتاب يبدو أن المشروع هو خريطة جديدة لكلّ من منتج الخطاب ومنتلقيه، مبنيّ على التجاوز والتجريب والانفتاح على مختلف المعارف، يضع من خلاله قوانين كلية بها تعرف الجزئيات، ويعيد هيكله البلاغة ويجدد الرؤية لها. وهو مشروع متشعب "كشأن أي نسق عام تتداخل في بنائه مختلف الخبرات، وتتكامل في تشييده مختلف المعارف"^(٢). ويلخصّ لعرج نزعة المشروع التساندية في "أنّ ثمة الكثير من المعارف التي تكاملت في صياغة خطاب المنهاج، وأنّ هذه المعارف وإن كانت مستجلبة من ميادين ومجالات تبدو متباعدة أحياناً إلا أنّ نسقية الرؤية التي يصدر عنها حازم [...] جعلت مشروعه تجربة متميزة في قراءة الشعر العربي حتى عصره، وهو ما يجعل هذه التجربة في النهاية نمذجة فريدة لخطاب بلاغي منسجم ومختلف"^(٣).

(٢) بلاغة ابن البناء العددي والسجلماسي

ما يهمننا في مشروع ابن البناء والسجلماسي أنّها استغلا معارفها الموسوعية في ضبط قوانين البلاغة، الأول استغل المنطق الأرسطي والثاني استغل معرفته الواسعة بالمنطق والرياضيات وعلم الأصول. و"مشروع ابن البناء يشبه إلى حد بعيد مشروع

(١) - لعرج المهدي، "تكامل المعارف ونمذجة الخطابات في العلوم الإنسانية"، في: المناهج وتكامل المعارف، أشغال المؤتمر السنوي لمؤسسة مقاربات، مقاربات، فاس، ٢٠١٧، ص ١٦٣.

(٢) - المرجع نفسه، ص ١٦٦.

(٣) - نفسه، ص ١٧٨.

السجلهاسي، إذ حاول الأول حصر كليات البلاغة في سبعة قوانين ضابطة لأنماط الخطاب، وسعى الثاني إلى حصر تلك الكليات في عشرة أجناس عالية تفرعت في صورة مصطلحات هي الأنحاء التعبيرية في ألوان الخطاب الأدبي^(١).

(٣) أعمال محمد مفتاح

يمثل مشروع محمد مفتاح حالة متميزة في تكامل المعارف من شتى المجالات، ابتداء بلسانيات النص والسيمائيات وصولاً إلى أبعدها عن النص وهي البيولوجيا، وقد طوّر هذه التجربة المتميزة ابتداءً من كتابه "دينامية النص: تنظير وإنجاز، ١٩٨٧" وصولاً إلى كتابه الأخير "المعنى والدلالة، ٢٠١٨". ولم يُنكر مفتاح صلته بهؤلاء السابقين الذين ذكروا، ولو بشكل ضمني. ونلمس من خلال كتابه "التلقي والتأويل: مقارنة نسقية، ١٩٩٤" فهمه العميق لتلك المشاريع ولخلفياتها الرياضية والمنطقية، ونجده يدافع عن راهنية ابن البناء الذي أعاد قراءة البلاغة العربية، ويؤكد على "أن إعادة القراءة هذه هي التي تنقص البلاغيين العرب المعاصرين الذين ينحون نحواً بلاغياً تقليدياً"^(٢) على غرار التجربة الغربية التي عادت إلى تراثها واستفادت من التراث البلاغي والمنطقي الموروث عن اليونان والرومان والعرب.

ما يهّمنا أكثر في هذه الدراسة هو كتاب "مجهول البيان، ١٩٩٠"، الذي اشتغل فيه من بين ما اشتغل، على إحصاب القضايا البيانية التراثية وفق آخر تطورات المعرفة. كما استعرض في الفصل الرابع مختلف الآراء التأويلية من أجل استخلاص مقاييس للوصول إلى الدلالة وتقييد التأويلين اللانهائي والمفرط. واشتغل في الفصل الأخير على تحليل نص منقبي وتأويله وفق آليات تساندية.

(١) - أرحيلة عباس، "ابن البناء والبحث عن كليات البلاغة"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، ع ٨، ١٩٩٢، ص ٢٦١.

(٢) - مفتاح محمد، التلقي والتأويل: مقارنة نسقية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط ١، ١٩٩٤، ص ٥٧.

يعتمد محمد مفتاح على مفاهيم الحقول الأخرى ويولّف بينها، مفاهيم مثل المساق والتناسب في علم التفسير، والاتساق والترابط والانسجام (التنضيد والتنسيق والانسجام) في لسانيات النص، والتناسل والتشاكل والمربع السيميائي والمقصدية والعوامل في السيميائيات، وكذلك يفتح على البلاغة المغربية بلاغة السجلهاسي وابن البناء. غير أنه يحافظ كثيراً على هذه المفاهيم ويستعملها كما هي، ولم ينتج مفاهيم جديدة باستثناء دينامية النص أو نموه وتناسله والتشعب في كتاب دينامية النص.

التقابل ولسانيات النص والخطاب

إنّ التقابل مفهومٌ أنطولوجي حاضر في كافة الميادين العلمية وفي العلوم الإنسانية وفي كل مظاهر الكون والحياة الاجتماعية، حتى أننا لا ندرك الحياة ولا يمكن أن نستمر فيها إلا بالتقابل. ويتعلّق التقابل بمفهومين آخرين حضرا بقوة في مجال اللسانيات وتحليل الخطاب هما الاتساق والانسجام. إنّ الانسجام هو الآخر يعدّ مفهوماً أنطولوجياً و"شمولياً في انتشاره وتداوله ضمن مختلف العلوم، سواءً أكانت إنسانية أم حقة، لكن كيفية التنظير له تختلف من نسق إلى آخر"^(١).

إنّ لسانيات النص مبنية على العلاقات التقابلية المتعددة. فالانساق، في جوهره، عملية تقابلية؛ فالإحالة مقابلة وسيلة الإحالة لعنصر آخر سابق أو لاحق، والاستبدال هو مقابلة مكون لسانی بعنصر آخر هو في الأساس "تعويض عنصر في النص بعنصر آخر"^(٢)، وكذلك الحذف. والاتساق المعجمي بنوعه: التكرير الذي "يتطلب إعادة عنصر معجمي، أو ورود مرادف له أو شبه مرادف أو عنصر مطلق أو اسم عام"^(٣). والتضام، الذي هو عكس التكرير، أي يقوم على التضاد والتعارض.

أما عمليات الانسجام فهي بالضرورة تقوم على التقابل:

(١) - بندحمان جمال، الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري: التشعب والانسجام، Top Edition،

الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٢٧.

(٢) - خطابي محمد، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار

البيضاء، ط ٣، ٢٠١٢، ص ١٩.

(٣) - المرجع نفسه، ص ٢٤.

- تأويل المضمير ليقابل المصرح به في الخطاب.
 - تقابل النص والسياق.
 - ملء المتلقي الفراغ بمقابل له، لكن هذا الملء ليس من فراغ فهو نابع من التجربة أو الذاكرة أو غيرهما.
 - وضع العنوان أو بداية النص مقابل النص كله (التغريض).
 - وضع بؤرة افتراضية مقابل وحدات الخطاب (موضوع الخطاب).
 - وضع النص مقابل نصوص أخرى تحاورها وتكملها (التناص).
 - وضع النص مقابل الذاكرة/ الذخيرة (المعرفة الخلفية).
 - استحضار نصوص/ خطابات ذات استراتيجية شبيهة أو نمط شبيه لبناء التوقع (مبدأ التشابه).
- وغيرها من العمليات، التي بواسطتها يقوم المتلقي بمقابلة شيء بشيء، وكل شيء بشيء أو أشياء من أجل الفهم لأن الفهم لا يتحقق من الفراغ. ببساطة فإن تقابل الاتساق معطى معروفة قواعده، لكنَّ الانسجام يُترك فيه الأمر للمتلقي ليضع التقابلات الضرورية انطلاقاً من معارفه وخبراته وكفاءته.
- وهذه تقابلات بين بعض مفاهيم الباحث محمد بازي ومفاهيم لسانيات النص والخطاب:

التناص (دي بوجراند)	تقابل الموازنة
الحذف (هاليداي وحسن)	الحذف المقابل
السياق (براون ويول)	تقابل النص وسياقه
التغريض (براون ويول)	تقابل النص والعنوان
التشاكل (غرياس)	تقابل التشاكل

التقابلات الكبرى	البنيات الكبرى (أدم)
التقابلات الصغرى	البنيات الصغرى (أدم)
انسجام التأويل	الانسجام
التعاقد التأويلي سجلات السياق	المعرفة الخلفية/ معرفة العالم

ونجد الباحث كذلك يتبنى تعريفي لسانيات النص للنص والخطاب نفسها. فهل التقابل وسيلة من وسائل الاتساق؟ وهل التأويل التقابلي عملية من عمليات الانسجام على أساس بلاغي تراثي؟

التقابل وعلم الجمال

يقوم علم الجمال الأدبي على مجموعة من المقومات المتعلقة بالتقابل، ومنها:

الوعي بالتجانس والتألف.

الوعي بحقيقة التناظر.

الوعي بحقيقة التناغم والانسجام.

الوعي بحقيقة التناسب.

الوعي بحقيقة الإيقاع.

الوجوه الأخرى (التنافر، النشاز، التناقض ... إلخ)^(١).

التقابل والتماثل والتناظر والانسجام والتناسق كلها مفاهيم جمالية تتعلق بالشكل والجوهر كذلك. وما يهمننا هو الأثر الذي تحدثه في النفس وهو التأثير المفضي إلى الإعجاب. وليس الجمال في الأدب هو التماثل والتساوي فقط، فلننظر أيضاً جمالاً، لأنها تكسر النمطية وتخلق عالماً غير متوقع لكنه تمثيل للعالم العادي، كما تستفز النفس وتجعل

(١) - تليمة عبد المنعم، مدخل إلى علم الجمال الأدبي، منشورات عيون، الدار البيضاء، ط٢،

المتلقي يتوقف عند مكان الجمال. وهذا التنظيم والألق الجمالي ما هو إلا انعكاس لجمال جوهر النص الأدبي أو توقع لهذا الانعكاس بناء على مؤشرات هندسية خارجية. وإذا كنا في تحليل الخطاب نركز على التأويل ومسالك الوصول إلى المعنى والسعي إلى معرفة كيفية اشتغال النصوص والخطابات، فإن الكشف عن التقابل كشف عن مكان الجمال التي قد نحسها ولا نعرفها، خاصة في القرآن الكريم والقصيدة، ومهمتنا في رصد مظاهر التقابل تكمن في "إيقاف القارئ عليها، وتزويده بالأداة المنهجية لبناء المعنى واكتشاف أسرار الجمال التعبيري في النصوص، ثم التعمق في ذلك للوصول إلى أن جمال التناسق التقابلي للمعاني في النصوص مرجعه التناسق الجمالي الذي أودعه الله تعالى في الكون ومظاهره، ثم عبر عنه بمفردات ذات منحى تقابلي، وتراكيب استعارية وتشبيهية ومثالية تختزل تقابل العوالم"^(١). وانطلاقاً من هذه العلاقة يمكن أن توسع دوائر البحث، لكي نحلل النص تقابلياً من كل الجوانب.

آفاق جديدة لبلاغة التقابلات الصغرى ومقترحات

- قوانين الأشكال

ما من شك في العلاقة القوية بين التقابل والصورة كما سنرى، هذه العلاقة التي تتوج في النهاية بسهولة الإدراك والرسوخ اللذين على أساسهما بنيت بلاغة التقابل. وسنستعين هنا باقتراحات صاحبي كتاب "دلالة الصورة" كوكولا وبيروتيت Bernard Cocula, Claude Peyroutet، وهي "جملة من القوانين التي بموجبها إدراك مجموعة من العناصر كشكل بالقياس إلى عمق معين"^(٢). وهي قوانين خمسة:

(١)- نظرية التأويل التقابلي، ص ١٧١.

(٢)- الماكري محمد، الشكل والخطاب: مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط١، ١٩٩١، ص ٢٣.

أ. قانون الصغر

الشكل الصغير يبرز منفصلاً عن عمق أكثر كبراً؛ وستعرف على هذا القانون بشكل أوضح في موضع قادم. ونقدّم هنا مثالا من الشعر القديم:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدْبَيْنِ الْجَدِّ وَاللَّعْبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لَأَسْوَدُ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِنَ جَلَاءِ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ

فالتقابلات: السيف/ الكتب، الحد/ اللعب، بيض/ سود، الصفائح/ الصحائف، سواء الخاصة بالطباق أو الجناس، تتعلق كلها بالسياق، وهو استغاثة المرأة (وامعتصماه) وتحذير المنجمين المعتصم بالله من خوض حرب عمورية وعدم أخذه بكلامهم وانتصاره المبين. وهي تقابلات بليغة تبين بجلاء الموقف سواءً الطباق منها أو الجناس. فالبديع ليس عملية زخرفية سطحية، لكن لا بد أن تتعلق بالموقف وأن تكشف عن أبعاده بواسطة طاقتها الجبارة في التكتيف والإبانة التي لا يستطيع القول الكثير توضيحها. وهكذا فهذه الجزئيات البسيطة والصغيرة تبرز عمق الموقف. وهكذا فبلاغة التقابل تفتح أفقا جديداً للبلاغة العربية وتعيد الاعتبار لهذه الجزئيات البلاغية ذات الطاقة الجبارة، وتجعلنا نعيد النظر في البلاغة العربية وتقييم نصوصها، وهو أفق أيضاً لصناعة المتلقي البليغ.

ب. قانون البساطة

الشكل البسيط أبرز من الشكل المعقد؛ فبلاغة الخطاب من بين ما تتأسس عليه هو الوضوح والبساطة، والإيجاز والتكتيف، وإخراج الخطاب مخرجاً سهلاً وقويا في الوقت نفسه. فالتعقيدات الزائدة في التركيب والصورة تصير عائقاً أمام التلقي وتضعف الخطاب. ومن بين أمثلة تعقيد التركيب:

أنى يكون أبا البرية آدمٌ وأبوك والثقلان أنت مُحَمَّدُ

وكان يعابُ على أبي تمام تلك الصور المعقدة من قبيل:
مَطَرٌ يَذُوبُ الصَّحْوُ مِنْهُ وَبَعْدَهُ صَحْوٌ يَكَادُ مِنَ الْعَصَارَةِ يُمَطِّرُ
وإذا بحثنا عن السبب نجد عدم وجود تقابلات ناجحة ومنسجمة في المثالين
كليهما.

ج. قانون الانتظام

التقسيم المنظم للأشكال يؤثر في العملية الإدراكية؛ وأمثله كثيرة في الشعر
العربي والقرآن الكريم، وقد فصلت فيه البلاغة العربية القديمة، وأحصت له عدة
مصطلحات. ونسوق هنا مثلاً يعرفه الجميع هو بيت المتنبي:
الْحَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالسَّيْفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
ونسأل: ما معنى هذا البيت؟ وما سرّ الجمال فيه؟

في الشطر الأول ثلاثة كلمات مرتبة ومنظمة هي: الْحَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ على
التوالي. ومعنى الشَّطْر أن المتنبي يركب فرسه في الليل ويخرج إلى البيداء، وتشارك
الكلمات الثلاثة في القسوة وتحيل على شجاعة الشاعر وعدم خوفه. والشطر الثاني
ينقسم إلى مجموعتين: السَّيْفُ وَالرَّمْحُ من جهة، والقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ من جهةٍ أخرى،
وهما متقابلان؛ تحيل المجموعة الأولى على الحرب والثانية على الأدب، ما يعني أن
المتنبي رجل الحرب والأدب، وليس مجرد شاعر فقد جمع بين الأشياء المتباعدة ليدل
على تكامل شخصيته راسماً صورة بليغة للذات وبكلمات قليلة لكنّها مرتبة ومنظمة،
يسهل رسوخها في ذهن المتلقي. وقد لا يفهم الكثيرون معنى البيت إلا سطحه لكنه
يظل جميلاً بسبب انتظامه والنفس الإنسانية تحب كل ما هو منتظم.

د. قانون التقابل

إنّ التقسيم التقابلي لعناصر شكل معين يؤثر في الإدراك؛ وإذا أخذنا قصيدة
المنخّل الشكري الغنية بالتقابلات لاحظنا قيمة هذه التقابلات في رسم الصورة
البليغة ودورها في إدراك عالم الشاعر:

فَإِذَا أَنْتَشَيْتُ فَأَيْنِي رَبُّ الْخُورَزَمِيِّ وَالسَّيْدِي
وَإِذَا صَحَوْتُ فَأَيْنِي رَبُّ الشُّوَيْهَةِ وَالْبَعِيرِي

إنها ليست تقابلات نمطية مثل تلك التي ظهرت مع انحطاط البلاغة العربية وصارت مجرد تمرين بلاغي بديعي بدون روح، إنها ترسم تحولات حياة الشاعر المتأرجحة في قالب تقابلي. ونحن هنا لا نقرأ بيتين ولكن نشاهد صورة تعلق في الدماغ مباشرة ويسهل حفظها، وستحدث عن هذا الأمر بعد قليل تحت عنوان الرسوخ. وانظر إلى قوله الآخر في القصيدة نفسها:

وَأَجْبَهُهَا وَمُحِبِّي وَمُحِبُّ نَاقَتَهَا بَعِيرِي

نلاحظ بجلاء هذا التقابل بين الشاعر والمحوبة وبين بعيره الذكر وناقته الأنثى، وبين الإنسان والحيوان، وبين الشطر الأول والشطر الثاني، بناءً على محور واحد هو الحب، يعززه التناغم الإيقاعي والتقابل بين التفاعلات الذي يعكس انسجام العلاقة في عالم الشاعر. وهو تقابل يرسم صورة مركزة ومؤثرة في إدراك المتلقي سهلة الرسوخ.

وهناك مثال آخر يوضح قوة التقابل في رسم الصورة وتقوية تأثيرها:

اليوم عندك دلمها وحديثها وغداً لغيرك كفها والمعصم

فالوجع لا يمكن رسمه إلا بهذه التقابلات بين الزمان والزمان، والأنا والآخر، والعاطفي والشهواني. وهكذا يصنع التقابل بلاغة الخطاب التي تخص المتكلم الذي يعبر بكل دقة وإيجاز والمخاطب الذي ينخرط في هذه الصورة ويدركها بعمق والخطاب الذي تتعمق بلاغته.

هـ. قانون الاختلاف

الشكل المختلف الغريب يبرز بشكل أفضل؛ منها كل الأدوات الفنية مثل الجناس والاستعارة والانزياح بصفة عامة. وكذلك التقابلات المختلفة مثل بيتي المتنبي:

وَقَفَّتْ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفٍ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ
تَمَّرَ بِكَ الْأَبْطَالُ كُلَّمَا هَزِيمَةً وَوَجْهَكَ وَضَاحٌ وَتَغْرُكُ بِاسْمٍ

فقد تولدت صورة غير نمطية بقلب التقابل، وتبادل المركزين بين الشطرين الثانيين من كل بيت. وكذلك هناك مثال بيتين لامرئ القيس. ومثاله من القرآن الكريم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه:

[١١٨

ويسوق بيروتيت وكوكولا Bernard Cocula Claude Peyroutet جملة من المعايير التي بمقتضاها تدرك عناصر معينة كعناصر مكونة لشكل معين، وهي كالتالي:

(١) معيار القرب:

(٢) معيار المشابهة:

(٣) معيار التسلسل:

بالنسبة لمعيار القرب يورد الباحثان الشكل التالي:



بموجب هذا المعيار تبدو متوالية النقط (أ) مقسمة إلى مجموعتين لأنهما قريبتان من بعضهما البعض. وهذا الأمر يمكن تطبيقه جيدا على الخطاب القرآني وعلى الشعر العربي، مثلاً قول الخنساء:

[جَمَالُ أَلْوِيَةِ] [هَبَّاطُ أُوْدِيَةِ] [شَهَادُ أُنْدِيَةِ] [لِلجَيْشِ جَرَارُ]



وبموجب معيار المشابهة تبدو متوالية النقط (ب) مقسمة إلى مجموعات تناوبية من النقط والدوائر. ومثاله من القرآن الكريم:

[وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ] [وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ] فَتَقْعُدَ

{مَلُومًا} {مَحْسُورًا} [الإسراء: ٢٩]

هذا مع ارتباط كل واحدة من المجموعتين مع التي تقابلها ارتباطاً دلالياً. أما معيار التسلسل فيمكن إدراكه برصد التسلسلات الأفقية مثل التقسيم والمقابلة والعمودية مثل الروي والقافية. وليس بالضرورة تبيان هذه المعايير والقوانين في شكل طبوغرافيا فالتلقي البليغ يستطيع أن يرصد التقابلات الموجودة وأن يستغلها على شكل خرائط ذهنية في عملية البحث عن المعاني العميقة.

- رسوخ الشكل

ما الرسوخ؟ يجيب صاحباً كتاب "دلالة الصورة":

"في الوقت الذي تكون فيه أشكال عديدة ممكنة داخل مجموع معين يبرز أحد هذه الأشكال برسوخه وثباته. أي بخاصيته في شد الانتباه. يعتبر شكلاً ما راسخاً أو جيداً في الوقت الذي يخضع فيه أكثر من سواه لقوانين الجشطالت التي سلف توضيحها، وخصوصاً منها قوانين البساطة والانتظام والتقابل.

قوانين الرسوخ هاته، ستكون موافقة لقوانين الطبيعة: البساطة، التوازن، الدقة، النسبية، ومن هنا الفرضية القابلة للمناقشة، والقائلة بالتشاكل التكويني: تسود نفس القوانين في العالم الخارجي وفي العالم الإدراكي الذهني...."^(١) أي أن الإدراك الذهني للصورة أو للنص باعتباره تشكياً من مجموعة قطع تشكل نسيجاً موحداً لا يتنافى مع قوانين العالم الخارجي الذي بدوره يتأسس على البساطة والانتظام والتقابل.

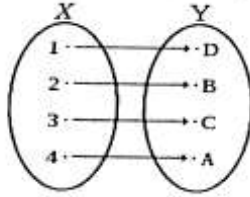
ودائماً ما كانت القصيدة العربية التقليدية سهلة الحفظ والرسوخ في ذهن المتلقي العربي، سواء في مرحلة الشفوية أو في مرحلة الكتابة، في حين أن القصيدة المعاصرة - خاصة قصيدة النثر - من الصعب تذكر ولو أسطر منها. ويرجع ذلك إلى أنها مبنية على تقابلات متعددة أفقياً وعمودياً، وعلى انتظامها، وبساطتها في التعبير.

(١)- الماكري محمد، الشكل والخطاب: مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط١، ١٩٩١، ص٢٥.

إننا هنا لا نقحم عالم الصورة في بلاغة النص والخطاب، فالبلاغة، باعتبارها استراتيجية بيداغوجية ناجعة في الخطاب، هي الوجه الأصيل للصورة. وقد قام صاحبنا كتاب "دلالة الصورة" بنقل المصطلح البلاغي إلى مجال الصورة مثل المقارنة والقطع والانزياح وكذلك مصطلحات لسانيات النص كالحذف والإحالة^(١). وعليه فإن ما يسري على بلاغة الصورة يسري على بلاغة النص والخطاب، والتقابل حاضر في كليهما.

- نظرية التناظر المركزي

خصص الباحث حيزاً للحديث عن التقابل من وجهة نظر علمية، ورصد التقابل في اشتغال الرياضيين، "وهو يقوم كما يوضح الرسم أنّ كل عنصر من المجموعة الأولى (المنطلق) له رابط واحد فقط في المجموعة الثانية (المستقر)، فتكون الأولى صورة للثانية:



ويعني التقابل في الهندسة أن كل نقطة (أ) تقابل نقطة (ب) فقط، اعتماداً على محور للتقابل، وانطلاقاً من نقطة تسمى مركز التقابل. ويجد هذا تحققه في الأشكال الهندسية، والبنىات والعمران^(٢). ولا بأس في أن نوسع هذا الطرح. إنّ النص "كائن فيزيائي مُنجز"^(٣) يمكن أن نطبق عليه مقولات هندسية رياضية. وهذا مقترح لدراسة التقابلات الصغرى والكبرى في النص بناء على معطيات التناظر المركزي عند الرياضيين:

(١)- الماكري محمد، الشكل والخطاب: مدخل لتحليل ظاهراتي، ص ٣٣-٣٧.

(٢)- نظرية التأويل التقابلي، ص ١٧٣ و ١٧٤.

(٣)- الزناد الأزهر، نسيج النص: بحث في ما يكون به الملفوظ نصاً، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٣، ص ١٥.

أ. علاقة الانتقال: Translation

وتعتمد على تكرار شكل / بنية معينة على خط واحد. ومنها عند محمد بازي:

- تقابل الآحاد.

- التكرار.

ب. علاقة الانعكاس: Reflection

إذا كان النموذج التقابلي في التأويل يحاول أن يبين "كيف يعكس النصّ المصغر العالم المكبر، وأن يرصد الخطوط والمعابر التي تم تحوير العالم المكبر بموجبه إلى عالم نصي مصغر، قائم على التمثل وعلى الأفعال والأقوال والأحوال، ثم إعادة عكسها مرآوياً لتشكيل صورة العالم من منظور المنتج"^(١)، ويؤمن في المساق عينه بأن "التقابل في النصوص الإنسانية يعكس تقابل الكون البديع"^(٢)، فإننا نحتاج إلى مرجع أو أساس معرفي لمعرفة طريقة عمل الانعكاس المرآوي، وأنواع التقابلات المندرجة ضمنه، وسيفيدنا أيضاً في عملية الفهم والإفهام، لأنّ تقريب المعاني العميقة والمجردة بواسطة الأشكال الهندسية والصور آية ناجعة في تملك المعرفة بالتقابل ونقلها نقلاً ديداكتيكياً سلساً. هذا الأساس المعرفي هو علاقة الانعكاس ضمن التناظر المركزي.

ومن هذا القسم عند بازي:

- تقابل النص وسياقه.

- تقابل التشابه.

- الاستعارة:

لنأخذ كمثال رؤيا يوسف (ع): ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ [يوسف: ٤] التي تأويلها: ﴿وَرَفَعَ أَبَوِيهِ عَلَى

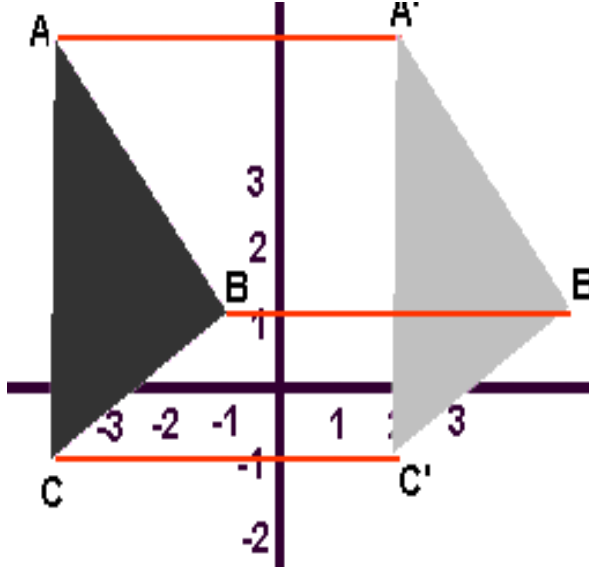
(١)- نظرية التأويل التقابلي، ص ١٧.

(٢)- المرجع نفسه.

الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴿ [يوسف،

[١٠٠

والتأويل في الحقيقة ما هو إلا انعكاس مرآوي للرؤيا. ويمكن التمثيل لها كما يلي:



A: إني رأيت أحد عشر كوكباً.

B: والشمس.

C: والقمر.

A': الإخوة الأحد عشر.

B': أحد أبويه.

C: أحد أبويه.

إنّ ما تحوّل هو الشكل إلى شكل آخر دون أن يفقد أية خصائص، ولكن لا بد من

محور يضبط تناسب الاستعارة.

ج. علاقة المقياس: Scale هو تكرار مع تغيير بالحجم، فنأخذ الجزء الأول من

المقابلة فنكبّره أو نقزمه انطلاقاً من شكله أو جوهره.

- تقابل النص والعنوان:

يعرفه محمد بازي بأنه "تقابل نصّ مُصغّر مع عنوان مكبّر، تقابل البنية المعنوية المكثفة مع بنية معنوية موسّعة ومفصّلة، وله مظاهر مختلفة"^(١). وفق هذا المنظور الجديد الذي اقترحه، يكون العنوان نصّاً مُصغراً على رأس النص الأصلي، غالباً مشوهاً، أقلّ تركيباً وأقوى تركيزاً..."^(٢) يخضع لقانون الصغر الذي تحدثنا عنه سابقاً. وتكمن أهمية العنوان على صعيد التلقي في أن "الشكل الصغير يبرز منفصلاً عن عمق أكثر كبراً"^(٣). وإدراكنا لهذا الجسم الصغير يساهم كثيراً في إدراك الحجم الكبير (النص) أو توقعه. وكلّما توغلنا في القراءة فإن هذه الدائرة تنمو على شكل دوائر، أو أي شكل هندسي، وتكبر لنستطيع إدراك الشكل الكبير/ النص بالتدرّج، فما يقوم به العنوان في النص هو أنه "يتوالدويتناميويعيد إنتاج نفسه"^(٤). ولذلك لا نجد عناوين للقصائد العربية القديمة فهي "لا تنمو ولا تبني - وإنما تنفجر وتتعاقب"^(٥).

- تقابل النص والمقدمة.

- تقابل التراتب.

- المبالغة.

د. علاقة الانحراف الدوراني: Rotation

السخرية: يعرف معجم البلاغة لمولينبي السخرية بأنها "محسّن Figure من نوع فوق - بنيوي، يلعب على التوصيف المكثف للملفوظ: مثل عندما يقول شخص

(١) - التأويلية العربية، ص ٣٥١.

(٢) Leo H. Hoek, La marque du titre: Dispositifs sémiotiques d'une ١٧.. De Gruyter, p.pratique textuelle, ١٩٨١, éd

(٣) - الماكري محمد، م.م، ص ٢٣.

(٤) - مفتاح محمد، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٧، ص ٧٢.

(٥) - أدونيس علي أحمد سعيد، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، ط٣، ١٩٧٩، ص ٣٢.

عكس ما نقوله كما هو متعارف عليه"^(١). ويقول أولفيي روبول: "نسخر في التهكم لما نقول عكس ما نروم إسماعه. إنَّ مادته قلب المعنى"^(٢).

- التقابل النقيضي.

- المدح بما يشبه الذم.

- الذم بما يشبه المدح.

- مورفولوجيا التقابل

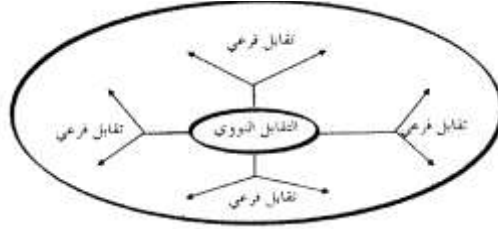
أو علم تشكل الأحياء. فإذا اعتبرنا النص كائنا حيًّا فإنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام من التقابل: التقابل القطري والتقابل الشعاعي وعدم التقابل. يقصد بالتقابل الجانبي إمكانية تقسيم الحيوان إلى نصفين متساويين من خلال محور واحد مركزي. أما التقابل الشعاعي فهو انتظام الأجزاء المتشابهة حول محور وسطي. وهناك كائنات عديمة التناظر.

يصنّف الإنسان ضمن حيوانات التقابل القطري، أي أنه باعتماد محور في وسط جسمه فهو ينقسم إلى جزأين متماثلين. لذلك كانت القصيدة العربية تنقسم إلى صدر وعجز متساويين من حيث التفاعيل، وعلى هذا الأساس كانت بلاغة التقابل في كتب البلاغة القديمة. ويبرز التقابل الشعاعي / النووي أكثر في شعر الحدائث على هذا الشكل الذي اقترحه بازّي^(٣):

(١) Georges Molinié, Dictionnaire de rhétorique, Paris, Librairie générale française, ١٩٩٢, p. ١٨٠.

(٢) - روبول أولفيي، مدخل إلى الخطابة، ترجمة: رضوان العصبية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٧، ص ١٦٢.

(٣) - التأويلية العربية، ص ٢٧٥.



ولكي نستفيد مما سبق نقترح تقسيم مفاهيم التقابل إلى ست مجموعات حسب الوظيفة والإجراء:

١. تقابلات مساقية:
٢. تقابلات سياقية:
٣. تقابلات الرسوخ الصوري:
٤. تقابلات التناظري المركزي:
٥. تقابلات شعاعية:
٦. تقابلات جمالية وإيقاعية:

بلاغة الصورة السردية

التقابل حاضر في بلاغة الصورة السردية. ونتحدث عنها هنا لأننا سنستعين بها في تحليل المقطع السردى القرآني. وقد قدم الباحث محمد مشبال مراجعة نقدية تحت عنوان "بلاغة النصّ السردى"^(١) ضمنها لأعمال الدكتور محمد أنقار خاصة كتاب "ظماً الروح أو بلاغة السمات"، وصنّف مجموعة من سمات الصورة السردية في الفئة الثانية، وهي: البساطة والتدرج والتوازن والمراوغة والسؤال، وهي في الحقيقة ليست إلا قوانين الصورة عند الجاشطلتين فالسمات الثلاث الأولى تتعلق بقوانين البساطة والانتظام والتقابل على التوالي، بينما يمكن أن ندرج سمتي المراوغة والسؤال ضمن قانون الاختلاف.

(١) - مشبال محمد، "بلاغة النصّ السردى: مراجعة نقدية"، فصول، ع ١٠١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، خريف ٢٠١٨، ص ٥٤١.

إنّ الرجوع إلى هذه الجهود والنظريات من التخصصات الأخرى قد تساعدنا في ضبط المشاريع الجديدة ووضع أسس متينة لها.

التعاقد التقابلي في مقطع قرآني

ما يجرّك هذه القراءة ويدفعها إلى المضي قدماً هو إيمانها بوجود معنى ظاهر ومعنى باطن، وتتكئ على "الرهان الفلسفي القديم وهو أن المعنى الباطن أهمّ من الظاهر، وعلى أطروحة تقسيم معنى النص إلى ظاهر وباطن"^(١). فللقرآن الكريم باطنٌ وظاهرٌ، له في مواضع كثيرة ظاهرٌ للسطاء من الناس وباطنٌ للراسخين في العلم يؤولونه. لذا على الباحث "أن يتجرد من نزوعه الدّاتي بل يروّض نفسه على سرعة التخلص من الانكفاء إلى باطن ذاته التي تحجب عنه الحقائق، ولا يزال المرء يتدرّب المرة تلو الأخرى حتى يكتسب بعض المهارة في الانفكاك من أحوال الذات السّطحية والمقامات المتغيّرة ويلتحق بركب المعاني القرآنية العميقة"^(٢). ووسيلتنا للوصول إلى هذا المعنى الباطن والعميق هو مسلك التقابل، والتقابل أيضاً وسيلتنا لأنّ نرصد الاتساق العميق في النص، والانسجام في خطاب المقطع.

نقصد بالتعاقد التقابلي تقابل بنيتين في النصّ واحدة توضح الأخرى أو تساعدنا على تأويل الأخرى. وكان الباحث محمد بازي قد قدّم تأويلاً تقابلياً لسورة الفاتحة، فيما نعتقد أن استراتيجية التأويل التقابلي في هذه القراءة لمقطع سردي من القرآن الكريم تختلف عن تلك. على أن هذا التأويل لا بدّ أن يتمّ بحذر، وعلى أن "كلّ تأويل يعطى لجزئية نصية ما يجب أن يثبت جزء آخر من النص نفسه، وإلا فإن هذا التأويل لا قيمة له. وبهذا المعنى، فإن الانسجام الداخلي للنص هو الرقيب على

(١) - مفتاح محمد، مجهول البيان، دار توبقال، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٠، ص ١٠١.

(٢) - بودرع عبد الرحمن، النص الذي نحيا به: قضايا ونماذج في تماسك النص وبناء وحدته، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، ط١، ٢٠١٨، ص ١٢١.

مسيرات القارئ"^(١)، والخطاب القرآني لا شك في أنه يفسر بعضه بعضاً باعتباره كلا منسجماً.

أما المقطع موضوع الدرس والتحليل من سورة القصص من الآية ٢٢ إلى الآية ٢٥؛ أي من قول الله عز وجل ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝٢٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ۝٢٣﴾ على أن هذا المقطع يشكّل وحدة دلالية تامة، ووحدة سردية لها بداية ونهاية.

- موضوع الخطاب: يمكن أن نقلّص النص إلى عنوان مقترح هو: موسى (ع) في مدين، أما موسى (ع) فهو المحور الذي تتعلق به الأحداث وتظهر معه بقية الشخصيات.

- بداية النص ونهايته: لما تقابل القراءة السطحية بداية النص بنهايته نحصل على وضعية بداية فيها موسى (ع) يتوجه لتلقاء مدين تقابلها وضعية النهاية التي وفيها زواج موسى (ع) من ابنة الشيخ، أو الخوف والضياع مقابل راحة البال والاستقرار. وفي بداية النص نلاحظ أن موسى (ع) يدعو دعاءً: ﴿عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وهنا لا بد أن نطرح سؤالين من وجهة نظر تقابلية: ما هو سواء السبيل (غير المعنى المعجمي طبعاً) وكيف سيتحقق هذا الدعاء؟

أما سؤال: أين سنعرف الجواب؟ فإجابته: في نهاية المقطع لأن الدعاء كان في بدايته. في المعنى السطحي سواء السبيل تعني الطريق الصحيح المؤدي إلى مدين، لكن الخطاب القرآني هو خطاب الغاية وليس الهدف الدنيوي. وبطبيعة الحال تحقق الدعاء في نهاية القصة متمثلاً في الآية: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا نَعْبُدُ أَنَّ أَهْلَ الْبُيُوتِ يُؤْمِنُونَ بِمَا نَعْبُدُ فَسَنَنبِتْ فِيهَا قَوْمًا عَابِدِينَ﴾

(١)- أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط ٢، ٢٠٠٤، ص ٧٩.

ثَمَنِي حَجَجٌ ﴿١٢٠﴾ أي؛ حصل على عملٍ وزوجَةٍ. وعليه، فإن سواء السبيل في الإسلام يبدأ من العمل والزواج لأنهما يضمنان للإنسان الاستقرار ويصبح صاحب مسؤولية.

- تقابل الامراتين والناس: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ

النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴿١٢١﴾

كنا قد تحدثنا عن قانون التقابل في بلاغة الصورة السردية. وهذه الصورة المركبة لا يمكن إدراكها خارج استحضار فاعلية التقابل والوعي به.

تصوّر هذه الصورة السردية حالة غير عادلة ومستفزة لأي إنسان سويّ: أمة من الناس أي عدداً كبيراً من الرجال يسقون في مقابل امرأتين فقط ضعيفتين لا تسقيان، إذن هناك تقابل من حيث العدد والقوة والاستفادة من الماء. إنها صورة مقلوبة وغير مقبولة. ما جعل موسى (ع) يقوم من الظلّ ويستفسر عن الخطب وعن هذه الصورة غير المفهومة التي شاهدها.

أيضاً هناك تقابل بين أُمَّةٍ مِّنَ النَّاسِ وموسى (ع)، من خلال هذا التقابل نعرف مكانة موسى (ع) وعلو أخلاقه. وتذكر قوله تعالى عن إبراهيم (ع) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]

• التلطف: سأل موسى (ع): ﴿مَا خَطْبُكُمَا؟﴾ وكان الجواب أنهما قالتا: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ من الواضح من خلال (قالتا) أننا نتوفر على ملفوظين؛ ملفوظ لكل امرأة منهما يفصلها واو العطف. إن الملفوظ الأول ﴿لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءَ﴾ هو الإجابة الطبيعية عن سؤال موسى (ع) والمنسجمة معه، وقد كان وجيزاً ومباشراً مثله مثل السؤال. وإذا قمنا بحجب الجزء الأول من الجواب ككل وجدنا عدم وجود انسجام بين سؤال موسى (ع) وجواب المرأة الأخرى:

- مَا حَاطَبُكُمْ؟

- أَبُوْنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ.

إنّ ملفوظ ﴿أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ خارج السياق ومعزولا عن الخطاب لا يعدو الإخبار عن حالة. وقد يبدو غير منسجم. وحسب وجهة نظر حجاجية فإن هذا الملفوظ يعني: اسق لنا.

لأن أبانا شيخٌ كبير

اسق لنا

لأنك شابٌ قوي

دليل آخر هو قيام موسى (ع) بالسقي لهما (فَسَقَى لَهُمَا)، وبذلك يكون الملفوظان في الشكل التصريحي: اسق لنا. فسقى لهما.

- تقابل الشخصية والقارئ

• الشخصية الذكورية: موسى (ع).

حينما تدخل موسى (ع) قال حَاطَبُكُمْ؟ لم يحاول أن يحدثها أو أن يلاطفها. ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ الظل هنا لا نأخذه فقط بالمعنى الظاهري لكنه يعني أيضاً أنّ موسى رجل الظل الذي يفعل الخير ويرجع إلى الخفاء بدون سُمعة ولا رياء. يحيل حرف العطف الفاء في الآية السابقة الذي يعني ترتيب الحدثين مع التعقيب على سرعة استجابة موسى، بين يحيل حرف العطف (ثمّ) على ترتيب الحدثين مع التراخي أي إن موسى استغرق وقتاً في السقي لهما وبذل جهداً جهيداً.

وبعد أن عاد إلى الظلّ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ هذا دعاء آخر، والوقت وقت الظهر بعد أن وصل موسى (ع) إلى مدين بعد سفر طويل وشرب الماء وساعد الامراتين. ويقابل هذا الدعاء استجابة سريعة يدل عليها حرف العطف

(الفاء)، قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَنْتِ يَا أَبَتِ أَيُّكَ إِذْ يَدْعُوكَ لِتَجْزِيَنِي أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي إنه يدعوه إلى الغداء.

• الشخصية الأنثوية: ابنة الشيخ.

قدم المقطع الشخصية الأنثوية على أنها تعمل لأن أبا الامرأتين ﴿شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، لكن عندما وجدت رجلاً مناسباً قالت: ﴿يَتَأَبَّتْ أَسْتَجِرُّهُ إِنَّكِ خَيْرٌ مِنْ أَسْتَجَرْتِ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ ﴿٦٦﴾

ويقدمها على أمتها ذات حياء، بل إن الحياء فيها صفة ملازمة: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ ويعضد هذا الفعل الصادر من البنت قول يقابله صادر عن البنت نفسها قالت ﴿يَتَأَبَّتْ أَسْتَجِرُّهُ إِنَّكِ خَيْرٌ مِنْ أَسْتَجَرْتِ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ ﴿٦٦﴾ إنَّ القصد باستأجره ليس المعنى الحرفي بل الاستلزامي. يمكن أولاً أن ندعم هذا التأويل من منظور تقابلي:

• الخطاب من امرأة إلى رجل: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾

• الخطاب من رجل إلى رجل: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَاتَيْنِ﴾

ومن وجهة نظر بلاغية تداولية، فإن استأجره تستلزم أن يدخل بيتهم ليخرج الغنم وليطاعهم، ولكي يكون هذا الوضع الجديد وضعاً مشروعاً ومقبولاً لدى المجتمع لا بد أن يكون من أقاربهم، ولكي يكون من أقاربهم لا بد أن يتزوج إحدى ابنتي الشيخ. وعليه فمعنى ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ هو إبداء البنت إعجابها بموسى (ع) لأنه قوي وأمين. تصلح حجة قوي أمين لنتيجة الاستئجار، لكن حسب تحليلنا فهذه البنت أرادت رجلاً قوياً يحميها في هذا المجتمع الظالم وأميناً يحافظ عليها. أما كتب التفسير فهي تقابل بين قوي وأمين وبين أحداث في القصة لتفسر لماذا قالت قوي أمين، فقد نقل حجراً كبيراً ليسقي لها وغض بصره أمامها.

لدينا أيضاً تقابل بين أبي وأبتي، إن البنت عندما خاطبت موسى (ع) في موقف إخباري استعملت عبارة أبي لكن في موقف حجاجي تأثيري استعملت أبتي. إن هذا المقطع، مثل السورة ككل، ليس مجرد سرد لكنه فعل كلامي يتوجه نحو متلقيه بفعل كلامي: كنّ مثل موسى (ع) / كوني مثل ابنة الشيخ. فالبعد الحجاجي حاضر في القصة التي لا يراد بها السرد فقط بل القصة تدعو المسلم إلى أن يكون مثل موسى في عمله وأخلاقه وأن تكون المسلمة مثل ابنة الشيخ على استحياء وتختار القوي الأمين شريكاً لها وليس الجميل أو الغني.

من التقابلات الجزئية في القصيدة إلى التقابل الكلي والتساند التأويلي

كان الاتساق حتى وقت قريب شيئاً مُعطىً وظاهراً على السطح، يقوم على الوسائل النحوية والدلالية، ورصده لم يكن إلا تمريناً روتينياً. لكن، حتى مع وجود الاتساق في النص ووجود وسائله النحوية ووجود الترابط الدلالي، نفترض وجود اتساق عميق أو اتساق فائق. وهو مجموعة من الروابط الخفية في البنية العميقة للنص، تنظمه، وهي ليست متاحة لأي قارئ وإن وجد الاتساق، بل تتطلب قارئاً نموذجياً للنص يرى خرائطه الخفية. إننا نطمح إلى هذا الاتساق العميق الذي تظهر فيه بلاغة الخطاب الصامته التي يُنطقها هذا القارئ، باعتبار النص بنية تقابلية موسّعة فيها كل شيء يقابل كل شيء، وباعتبار الخطاب كذلك كل شيء فيه ينسجم مع كل شيء. نتحدث هنا عن النصوص البليغة: القرآن الكريم بالدرجة الأولى، والقصيدة قديمها وحديثها، وغيرهما مما تتحقق فيه بلاغة الخطاب.

نقترح هنا مفهوم التقابل الكلي، الذي سنمتحنه من خلال نموذج تطبيقي على قصيدة بولوثيمية باعتبارها طرحاً دائماً مشكلاً الانسجام، بالإضافة إلى الاستعانة بالتساند التأويلي.

نقصد بالتقابل الكلي، أن كل التقابلات التي نستخرجها لا نستخرجها بشكل معزول وإنما ترتبط بمدارٍ أو محور من افتراضنا ونتاج حدسنا، وتتراكم في اتجاه واحد. وأن هذه التقابلات لا بدّ أن تكون لها وظيفة في اتساق النص وانسجام الخطاب وديناميته وتشعبه بشكل غير اعتباطي، وهي وسيلتنا إلى الوصول إلى تأويل منسجم يتفق مع منطق الشعر العربي القديم. وبهذا نكون نؤسس لطريقة جديدة للفهم عن طريق الخرائط الذهنية، ونكون نؤسس لطريقة جديدة لقراءة القصيدة ليس بشكل خطي، أو تناظري-إيقاعي ولكن بطريقة تقابلية دالة تجمع بين الأفقي والعمودي والسابق واللاحق والجزء والكل والداخلي والخارجي وغيرها...

إنّ النصوص لا تخلو من تقابلات، وإذا كنا نكتفي باستخراجها معزولة دون رابط بينهما أو محور ينظّمها فسيكون الأمر مجرد تمرين روتيني لا ثمار له. ويكون الإنتاج مجرد قدرات ومهارات على توظيف جناسات وطباقات مكرّسة وتشبيهات واستعارات جاهزة في حين أنّها يجب أن تتعلّق بوضعية تواصلية معيّنة (وضعية مشكلة) وتوظّف بشكل وظيفي يخدم الخطاب في كليته، ويكون الخطاب الذي أمامنا بمثابة مشكل لا بدّ له من حلّ عدته بلاغة التقابل والتساند التأويلي.

القصيدة^(١):

لهواك في قلبي كريقك في فمي	غيري يقول الحُبمّرُ المطعم
فأدر عليّ بمقلتيك كؤوسه	حتى يدبُّ خمارُ هفي أعظمي
إنّا لتلذّد في هواك تلذّد	لو كان أقتل منزعاف الأرقم
أحبب بحبّ لا يثير ملامه	ملئت بموليه عيون النوم
شغل النواظر والقلوب ولم يدع	من لميسمه من الأنام بميسم

(١) - الأصبهاني عماد الدين الكاتب، جريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، ج ٢، الدار التونسية للنشر، ط ٢، ١٩٨٦، ص ٥١٠.

ومن العجائبِ شغلُ شيءٍ واحدٍ
وأقام أزمناً وليس بجوهر
يَأَيُّهَا الْقَمَرُ الَّذِي إِنْسَانُهُ
لم أجد حبا غير أن جوانحي
لاذنبَ لي عليمَ الذي أسررتَه
وَأَمْرَتْ بِالشُّكْوَى إِلَيْكَ وَإِنَّمَا
ولربما لم تُشكني فأماتني
وتلافني قبل التلافِ فإني
الطاعينَ بِكُلِّ أَسْمَرٍ مِدْعَسٍ
والواردينَ الصادرينَ إذا الوغى
ولعلمهم تسمو بهم هماتهم

في الحال أمكنةً ولم يتقسم
وجرى وليس بائمٍ جرى الدم
يَرْمِي أَناساً للعيون بأسمهم
فاضت به فيض الإناء المفعم
نظراً ولم أرمز ولم أتكلم
يُنْمَى إِلَى الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمِ
يأسي فذرني تحت أمر مبهم
مِنْ حَمِيرٍ وَسَيَأْخُذُونَكَ فِي دَمِي
وَالضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَبْيَضٍ مَخْذَمِ
لفحت بجمرتها وجوه الحوم
أن يدركوا في الظبي ثأر الضيغم

١. بؤرة القصيدة أو محورها

البؤرة Topic أو المدار "أداة ميتانصية، وترسيمة افتراضية يقترحها القارئ." (١) وفي هذه القراءة سوف نفترض بؤرة لا تتعد عن تعدد الأغراض (الغزل الفخر)، هي ثنائية المرسل / المتلقي أو المحور، الذي يعيد إنتاج نفسه بأشكال مختلفة طيلة القصيدة، ويتشعب في انسجام.

ونحن لا نعرف سياق القصيدة من المصادر. وما دام كذلك سنخلقه بأنفسنا بناء على قرائن لغوية. وعليه، نفترض أن القصيدة خطاب من الشاعر إلى حبيبتة، وأن الهدف من القصيدة هو إقناعها بالوصل. أما صاحب القصيدة فهو الشاعر القاضي أبو الحسن بن زنباع، أو ابن بياح، من أعلام الأدب المرابطي البارزين.

(١) - أميرتو إيكو، القارئ في الحكاية: التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، ترجمة: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط ١، ١٩٩٦، ص ١١٣.

٢. تقابل الحوار الكلي

لا بدّ أن نقابل هذا النصّ بآخر، يتخذ مثله الأعلى، لأنّ التناص بمثابة "شرط سهولة القراءة الأدبية"^(١)، كذلك لأنّ "العمل الأدبي، خارج إطار التناص، سيكون بكل بساطة عملاً غير مُدرِك، سيكون في مرتبة الكلام المنتمي للغة ما زالت بعدُ مجهولة"^(٢).

إنّ المنتج يستدعي من خلفياته المعرفية ما يحتاجه لكي يصوغ خطابه، بوعي بهذه المصادر أو بدون وعي، كذلك خلال عملية القراءة يستدعي المتلقي من خلفياته المعرفية مفاتيح لفهم الخطاب؛ يقول محمد مفتاح إن معرفة المنتج "للعالم هذه هي التي كانت وراء هذا النصّ الحدث، المنفتح - المنغلق، وهي المؤشرات والإشارات التي ترشد المتلقي إلى الطريق المباح المؤدي إلى المعنى"^(٣).

والقراءة الكثيرة والفعالة لمجموعة من النصوص من الجنس الأدبي نفسه تعطي منتج الخطاب مجموعة من السيناريوهات والحلول في الكتابة، سواء على مستوى الجملة أو ما فوق الجملة. العملية نفسها يقوم بها متلقي الخطاب الذي يستحضر خبرته في الاحتكاك بالنصوص المتعددة وي طرح سيناريوهات للوصول إلى المعنى.

هذه القصيدة غير معزولة عن الشعر العربي عامة، أو سليله العدم والفراغ، إنها بالضرورة سليله زيجات خفية وتعالقات كثيرة، وبعضها تظهر عبر موسوعية المتلقي. إذن قراءتها لن تكون بمعزل عن النصوص الشعرية التي قبلها. ولأنها قصيدة مغربية فهي بالضرورة تحاور نصّاً مشرقياً. ولأن القصيدة التقليدية محدودة الشكل، أمكن يسر رصد تعالقاتها شكلاً (الوزن والقافية) واستراتيجية (المواضيع) مع القصيدة الأولى التي لبستها، وهي معلقة عنتر بن شداد العبسي.

(١) - لورون جيني، استراتيجية الشكل: نظرية التناص في الثقافة العالمية، ترجمة: نور الدين محقق، دال، دمشق، ط١، ٢٠١٥، ص١٩.

(٢) - المرجع نفسه.

(٣) - دينامية النص، ص٧١.

نعدّ معلقة عنتره حجة موسعة من أجل تدعيم نتيجة/ قضية ابتدأت بها القصيدة (هل غادر الشعراء من متردم؟) وداخل هذه الحجة الموسعة هناك قضية ومجموعة من الحجج والاستراتيجيات الحجاجية، وتنظيم خطابي وآفاق جمالية تسبح في فلکها. وقد استطاع عنتره أن يدافع عن نتيجة (ما غادر الشعراء من متردم) ببساطة لأن قصيدته صارت ضمن المعلقات السبع.

بعد هذا الاستنكار تأتي وحدة طللية، يدلل بها الشاعر على انتماؤه للمؤسسة الأدبية واتباعه لتقاليدها مثل حرصه على الانتفاء إلى عبس ونصرتها ظالمة أو مظلومة، كذلك يتبع تقليد الوقوف على الطلل وإن جهل الأسباب. بينما يتنصل الشاعر الصعلوك الشنفرى منها ويبدأ رائعته مباشرة بـ:

أقيموا بني أمي صدورَ مطيكم = فإني إلى قومٍ سواكم لأميلُ

بلا مقدمة طللية ولا تصريح. ويعلن منذ البيت الأول انسلال (الأنا = فإني +

أميل) من الجماعة (أنتم = مطيكم + سواكم).

هذه الوحدة الطللية أيضا جاءت في سياق محاولة إثبات الانتفاء إلى طينة الشعراء الأوائل (امرئ القيس وطرفة بن العبد)، اللذين افتتحا معلقتيهما بلوحة الطلل. فإثبات الذات والانتفاء يقتضي الالتزام بقواعد اللعبة المتعارف عليها.

باستثناء المقدمة الطللية، نعتقد أن قصيدة ابن زنباع سارت على منوال قصيدة عنتره. وهذا فقط جزء من فسيفساء هذه القصيدة المغربية. إنها تحاور قصيدة عنتره كليا وكأن الشاعر يقول: هل غادر الشعراء من متردم؟ وكأنه عنتره في شجاعته ومحبوبته عبلة في جمالها.

٣. التقابل البنائي: المطلع/ والبيت الأخير

هواك في قلبي كريقك في فمي غيري يقول الحبر المطعم
ولعلمهم تسمو بهم هماتهم أن يدركوا في الظبي ثأر الضيغم

البيت الأول (الشطر الأول)	لهواك	في قلبي
	كريقك	في فمي
البيت الأخير (الشطر الثاني)	الظبي	الضيغم
هناك علاقة احتواء بين الشاعر وحييته		

قابلنا بين الشطر الأول في القصيدة، وبين الشطر الأخير فوجدنا هذه التقابلات الجمالية والدلالية والتي تسهم في رصد الاتساق العميق الذي يشد بناء القصيدة، وينفي فكرة تعدد الأغراض.

٤. تقابل العوامل

نستعين هنا بالسيمياثيات السردية عند غرياس، ونوزعها على شكل تقابلات تتعلق بتقابل المحور المفترض: الشاعر / الحبيبة. ويمكننا من إعادة توزيع العناصر في القصيدة من أجل الحصول على انسجام الخطاب:

- محور الرغبة

- الذات: الشاعر.
- الموضوع: الحبيبة.

تشكل هذه الفئة "العمود الفقري داخل النموذج العملي، إنها مصدر للفعل ونهاية له، إنها تعدّ مصدراً للفعل لأنها تشكّل في واقع الأمر نقطة الإرسال الأولى لمحفل يتوقّ إلى إلغاء حالة ما أو إثباتها أو خلق حالة جديدة"^(١). ولأنها العمود الفقري فإن العمود الفقري لموضوع الخطاب أو المدار الذين افترضناهما هما الشاعر / الحبيبة. إن مصدر الحركة في القصيدة هو الشاعر وغايتها هي الحبيبة، وعليه فإن أية

(١) - بنكراد سعيد، السيمياثيات السردية: مدخل نظري، منشورات الزمن، المغرب، ٢٠٠١، ص ٧٨.

كلمة أو بيت أو مقطع أو أسلوب بلاغي أو قيمة ... تستخدم لتساهم في الوصول إلى الموضوع (الحبيبة).

- محور الإبلاغ

ويتكون من الباعث على فعل الذات والمستفيد منه:

المرسل = الحب.

المرسل إليه = الوصل.

- محور الصراع

المعاكس = اللائمون.

المساعد = الشعر، الأصل الحميري، الحب.

إن الذات لا تصل إلى موضوعها هكذا ببساطة، وإلا ما كان للعمل اليومي قيمة أو للعمل السردى، ولا كان للحياة معنى. "فداخل المجتمع هناك صورة للمعيق وأخرى للمساعد بدءاً من حالة الطقس وانتهاء بالقوى الاجتماعية وضروب الصراع بين مكوناتها"^(١)، ولولا المعيق لما كان للموضوع قيمة ولولا المساعد لما وهذه القصيدة كذلك تنمو وتتناسل في إطار العلاقة بين الذات والموضوع، وكذلك بواسطة الصراع؛ فاللائمون المعاكسون التقليديون في القصيدة، يحاولون منع الشاعر من الوصول إلى حبيبته وينغصون عليه حياته، لكنه يستعين بكل ما أوتي من قوة وشجاعة يقابلها الأدب ونعومة الغزل.

٥. نمو البؤرة عن طريق التقابل

في الممارسة المدرسية والسطحية يتم استخراج عناصر فنية في القصيدة (مثل المعجم والتشبيه والجناس والطباق...) من أجل الاستخراج فحسب، مع إغفال

(١)-بنكراد سعيد، السيميائيات السردية: مدخل نظري، ص ٨٥.

وظيفتها في النص. وهنا سننظر إلى هذه العناصر الفنية والجمالية نظرة نسقية وسنبين دورها في اتساق النص وانسجام الخطاب.

تنمو القصيدة وتتناسل عبر محورين يشكلان ذاتا واحدة ونواة للقصيدة؛ هما الشاعر ومحبوبته، أو الباث والمتلقي الأول. وعبر تفكيك النص يمكن استخراج ما يدل على الشاعر ومحبوبته مجسدا في أشكال مختلفة.

■ تقابل المطلع والاختتام

- البيت الأول: هواك/ قلبي - ريقك/ فمي.
- البيت الأخير: الضبي/ الضيغم.

نجد البؤرة تتجسد في البيت الأول والبيت الأخير، مما يدل على وحدة القصيدة من بدايتها إلى آخرها.

■ التقابل المعجمي

- الضبي = مقلتيك، هواك، الحب، القمر.
- الضيغم = الطاعنين، الطاعنين، أسمر مدعس، الضاربين، أبيض مخدم، الواردين، الصادرين، الوغى، همتهم، ثأر.

■ التقابل البلاغي

● التشبيه:

- الضبي = وجه الشبه الجمال.

- الضيغم = وجه الشبه الشجاعة.

لا بد للمعجم المتعلق بالمحبة أن يدل على الجمال، وكذلك لا بد أن يدل المعجم المتعلق بالشاعر على الشجاعة.

● الجناس:

إن القدرة البديعية، الإتيان بالجناس والطباق مثلا، ليست قدرة خارقة ولا تدل على بلاغة الشاعر ولا على شعرية القصيدة إن هي إلا تمرين معياري وعنصر جمالي

أسيء فهمه كثيراً في التراث حتى نُفر منه. وليست وظيفته في كونه محسناً لفظياً أو معنوياً لكن لا بدّ أن يكون عنصراً بنّاءً في القصيدة، يسهم في تشاكلها وانسجامها وجودة بنائها. وهذا ما وعاه الشاعر عندما وظف الطباق والجناس في المكانين الصحيحين وجعلها مرتبطين بالبوّرة التي افترضناها.

وتلافني قبل التلاف ...

- المحبوبة: تلافني.

- الشاعر: التلاف.

● الطباق:

إن يدركوا في الظبي ثار الضيغم

- المحبوبة: الضبي.

- الشاعر: الضيغم.

■ على مستوى مشيرات التلفظ

- المحبوبة: لهواك، ريقك، أدر، يمقلتيك، هواك، إليك..

- الشاعر: قلبي، فمي، أعظمي...

■ على مستوى الأغراض

- الضبي / المحبوبة = الغزل العفيف.

- الضيغم / الشاعر = الفخر.

٦. تقابل المقدمة الغزلية / الغرض الرئيس: أين الانسجام؟

يحيل الغزل على الحبيبة بينما يحيل الفخر على الشاعر.

ووفق المقاربة التقديمية العربية القديمة، نكون أمام قصيدة تتكون من مقدمة غزلية

اتباعاً للتقاليد الأدبية، ومن الغرض الرئيس وهو الفخر. لكنّ هذا الطرح غير مقبول

لسببين:

- عصر الشاعر الأدبي لا يفرض المقدمة الغزلية، وحضورها تلاشى تقريباً.

- عدد أبيات الفخر (٤)، بينما عدد أبيات الغزل (١٢)؛ يعني أن الغزل يحتل ٧٥ في المائة من أبيات القصيدة، في حين أن الغرض الرئيس يجب أن تعطى له أهمية أكبر.

إذن نحن لسنا أمام نوع القصيدة التقليدية البولوثيمية (متعددة الأغراض) التي يتصدرها الغزل، ثم تتخلص منه للغرض المهم. وبالتالي، علينا تغيير نظرتنا لهذه القصيدة، وانتهاج مقاربة فعالة في قراءتها.

- الفصل الموضوعي

أو ما يسمى في النقد العربي القديم بحسن التخلص، وهو احتيال وتلاعب يتم بواسطة الانتقال، من غرض إلى غرض أو من معنى إلى معنى بدون حصول قطيعة. وبما أن الانسجام من تحديد المتلقي، فإن حسن التخلص يخص القارئ، حيث هو تقنية لكيلا يشعر بانفراط في القصيدة.

الفصل الموضوعي في هذه القصيدة يقع في هذا البيت:

وتلافني قبل التلاف فإنني من حمير وسياخذون كفي دمي

والأبيات التالية توسيع لعبارة (فإنني من حمير)، التي نعدها بؤرة القسم الثاني التي ستتنامى بعد ذلك. فكرة (فإنني من حمير) يبدو أنها مهمة بالنسبة للشاعر، ويحاول ترسيخها عند المتلقي المباشر (الحبيبة)، والمتلقي العام.

- المستوى المعجمي

المعجم "قائمة من الكلمات المنعزلة التي تتردد بنسب مختلفة أثناء نص معين، وكلما ترددت بعض الكلمات بنفسها أو بمرادفها أو بتركيب يؤدي معناها كونت حقلاً أو حقولاً دلالية."^(١) ويمكن توزيعه على حقلين:

القوة/ الحرب	الضعف/ الحب
--------------	-------------

(١) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٥، ص ٥٨.

بلاغة التقابل والتأويل التقابلي آفاق جديدة

مر المطعم، التلدد، أمرت بالشكوى، لم أتكلم، فأماتني، يأسى، تلافني قبل التلاف.	فإنني من حمير، الطاعنين بكل أسمر، مدعس، الطاعنين بكل أبيض، مخدم، الوغى، هماتهم.
--	---

في المستوى التيمي نلاحظ تغير إيقاع المعجم من الضعف إلى القوة، ومن الحب إلى الحرب، وهما يمتدان نقيضتان متعارضتان. مما يعطي مساءلة الانسجام في هذا النص مزيداً من المشروعية.

- التناقض الظاهري

إن التناقض ليس مسألة متعلقة بالانسجام فحسب، بل بالحجاج أيضاً. إن الخطاب المتناقض / غير المنسجم لا يقنع بالضرورة.

- الأبيات: ١-٤ (العذوبة/ الحياة)

في هذا المقطع يعبر الشاعر ابن زنباع عن حلاوة هذا الحب الذي في قلبه، ويعبر عن تلذذه به. وهذا جلي من خلال مجموعة من الألفاظ والعبارات (ريقتك في فمي / كؤوسه / خماره / التلذذ...).

- الأبيات: ٩-١٢ (العذاب / الموت)

لكن في هذا المقطع ينحدر المعجم من الحياة إلى الموت، ويطلب من محبوبته أن تتداركه قبل أن يموت يأساً. ويدل على العذب والموت مجموعة من الألفاظ والعبارات (الشكوى / أماتني / يأسى / التلاف / دمي...).

إذن على مستوى السطح وظاهريا هناك تناقض في القصيدة، تناقض بين مقطعين، ومهمتنا هنا الكشف عن الانسجام بين هذين المقطعين دلاليا وفك هذا التناقض الظاهري.

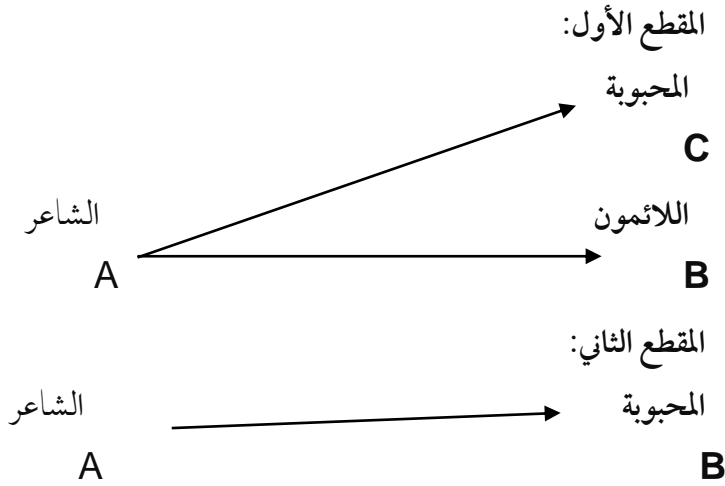
لحل هذا التناقض أقترح: تمثل الأبيات من ١ إلى ٤ ما يظهره الشاعر للناس، بينما تمثل الأبيات من ٩ إلى ١٢ باطنه وما يحس به.

ولكن لماذا عبر الشاعر عن رضاه العميق على هذا الحب في الأبيات الأولى؟

لدينا عبارتان تفسران هذا الأمر:

- غيري يقول الحب مر المطعم.
- إن التلدد في هواك تلذذ.
- أجب بحب لا يثير ملامة.

فالمقطع الأول جاء في سياق الرد على اللائمين الذين يلومونه على هذا الحب المر، لكن الشاعر يحاول أن يبدي عكس ما يبطن، حتى إذا ما انتهى إلى خطاب حبيته شكاً هذا الحب.



- القراءة التساندية:

ليست فكرة عارضةً أن تأتي بنص صوفي ليحاور هذا النص، أو فكرة مقحمة مفروضة على هذه القصيدة، فالقصيدة تنضح بنبرة صوفية فلسفية معجماً وضمائر ومعان وتصورات. وهذا نصٌ صوفيٌّ مغربيٌّ ليسندَ هذا النصّ:

"قال مولاي العربي: إن الشيخالكامل يكون في غاية السكر وفي غاية الصحو، وفي غاية الجذب وفي غاية السلوك، وفي غاية الفناء وفي غاية البقاء.

فقال لهالحراق: يا سيدي ظهر بسبب عقلي الفاتر وفهمي القاصر، أنهذا جمع بمتناقضوهو محال، فقال له مولاي العربي،ورد في الحديث، أن الله ملكانصفهثلج ونصفه نار، فلا الثلج يطفئ النار ولا النار تطفئ الثلج وتسيحه، اللهم يا من ألفت بالثلج والنار، ألفت بقلوب عبادك المؤمنين، فشرح الله صدر الفقيه الحراق للفهم وقال: الآن ظهر لي أن السَّكَّر يكون باطنا والصحو ظاهرا، والجذب والسلوك كذلك."^(١)

الشاهد هنا هو فهم المرید آنذاك وقوله: "الآن ظهر لي أن السَّكَّر يكون باطنا والصحو ظاهرا"، وعليه فالعاشق الكامل يكون في غاية الرضا وفي غاية الشكوى. إذن فالشكوى باطنة بين الشاعر ومحبوته، والرضا ظاهر يظهره الشاعر للناس.

٧. التقابل البلاغي الحجاجي

يختصر الفعل الكلامي (صليني) هذه القصيدة، فالشاعر يسعى إلى التأثير على الحبيبة، وحملها على تغيير سلوكها المتمثل في عدم وصل الشاعر. "إن ما ينفرد به الحجاج أنه لا يؤثر على الآخر مباشرة (مثل إعطائه أمراً)، لكن بواسطة التنظيم نفسه للخطاب."^(٢) وقد غيرنا نظرتنا إلى الغرض وصار الاستراتيجية الحجاجية، وعليه فالنص يعتمد استراتيجيتين:

الإيتوس	الباتوس
استراتيجية الفخر	استراتيجية الغزل

- استراتيجية الباتوس / الغزل: يتمثل في مخاطبة عواطف المحبوبة واستمالتها.

(١) - داود محمد، تاريخ تطوان، مجلد ٦، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل، المغرب، ١٩٧٠، ص ٣٠٤.

(٢) Dominique Maingueneau, L'analyse du discours: introduction aux lectures de l'archive, Paris, Hachette, ١٩٩١, p. ٢٢٨.

- استراتيجية الإيتوس / الفخر: يتمثل في استحقاق الشاعر كونه شجاع من أصل عريق، وهنا يستعمل حجة القيم (الشجاعة والأصل الكريم). وينقسم إلى إيتوس جاهز من خلال ما عرف عن الشاعر الأديب القاضي، وإيتوس خطابي من خلال رسم الشاعر لصورة الذات ومن خلال أسلوبيته وشعريته وحديثه عن نفسه وعن أصله.

قصيدة لاعب النرد لمحمود درويش: قراءة تقابلية

١. التقابل الظاهر

الجميلات هنَّ الطويلاتُ

“خالات نخل السماء”

الجميلات هنَّ القصيراتُ

“يُشربنَ في كأس ماء”

لقد بنى محمود درويش هذه القصيدة كلّها على آلية التوليد التقابلي. هذا التقابل الذي يفضي في النهاية إلى نتيجة هي عنوان القصيدة: الجميلاتُ هنَّ الجميلات، فمن ينتظرونَ أن يقولَ لهم الشاعر من هُنَّ الجميلات واهمون. في النهاية هناك جوابٌ مُرضٍ وواضحٌ هو: الجميلاتُ هنَّ الجميلاتُ.

هناك قصيدة أخرى من الأرض المحتلة بنيت على التقابل، هي قصيدة "أمشي" للسميح القاسم. وسيكونُ ١ هو الجزء الأول و ٢ هو الجزء الثاني من التقابل.

منتصبَ القامةِ أمشي

مرفوع الهامة أمشي

١. في كفي قصفة زيتونٍ

٢. وعلى كتفي نعشي

وأنا أمشي وأنا أمشي..

١. قلبي قمرٌ أحمرٌ

٢. قلبي بستان

فيه العوسج

فيه الريحان

شفتاي سماء تمطر

١. نارًا حينًا

٢. حبًا أحيانًا

وأنا أمشي..

وأنا أمشي..

تحيل المفوظات في المجموعة ١ على السلم، بينما تحيل الأخرى في المجموعة ٢

على الحرب. إنه يخيّر عدوه بين السلام والحرب، ويخبره أنه مستعدّ لها معاً.

في المجموعة ١ معجم يحيل على اللون الأخضر الذي يدل على السلام: قصفة

زيتون - بستان، يقابله في المجموعة ٢ معجم يحيل على اللون الأحمر الذي يدل على

الحرب والغضب: قمرٌ أحمر - نارًا. ألا ترى معي أنّ لعبة الأسود والأبيض على

مستوى الكتابة تتمزج مع لعبة الأخضر والأحمر لتشكّل علم فلسطين المحتلة؛ هي مجرد

نافلة في التحليل ليس على القارئ أن نقبلها.

ما علينا الاهتمام به أكثر هو علاقة هذا المقطع الذي تقع فيه التقابلات بدياية

القصيدة ونهايتها، أي بين هذه التقابلات وبين:

منتصب القامة أمشي

مرفوع الهامة أمشي

+

وأنا أمشي..

وأنا أمشي..

إن الشاعر/ الإنسان الفلسطيني لكي يمشي منتصباً القامة ومرفوع الهامة لا بدَّ من توازنٍ، وهو التوازن القائم على السَّلم والحرب، بين الأخضر والأحمر، فليست الحياة قائمة على السلم وحده ولا على الحرب وحدها.
إنَّ متعة البحث والتأويل كامنَةٌ في التقابل الخفي، أما التقابل الظاهر فلا يعيننا ولا يعني قارئنا الضمني. وكلُّ ما سبقَ تقابل ظاهراً يطفو على السطح. إننا نطمحُ إلى الوصول إلى الاتساق العميق، وإلى تأويلٍ منسجمٍ يمنحنا قصيدةً أخرى متولدة عن هذه القصيدة.

٢. التقابل الخفي

أ. لاعب النرد

قصيدة لاعب النرد سيرةٌ شعريةٌ طويلة، أي إنها مرتبطة بالاسم الأيقونة محمود درويش، وتحليلها كلها بهذه المفاهيم المترابطة سيجعلنا ندخل في طريق بلا نهاية رغم أن نص القصيدة محدود ببداية ونهاية. لذا سنقتصر على هذا المقطع وسنرى كم التقابلات وكيفيات تفاعلها واتساقها وانسجامها في القصيدة.

ب. النص

منَ أنا لأقول لكمَّ

ما أقول لكمَّ؟

وأنا لم أكنْ حجراً صَقَلْتَهُ المِياهُ

فأصبح وجهاً

ولا قَصَباً ثَقَبْتَهُ الرِياحُ

فأصبح نايًا...

أنا لاعب النرد،
أربح حيناً وأخسر حيناً
أنا مثلكم
أو أقل قليلاً...

وُلدتُ إلى جانب البئرِ
والشجراتِ الثلاثِ الوحيدات كالراهباتِ
وُلدتُ بلا زَفَّةٍ وبلا قابلةٍ
وسُمِّيتُ باسمي مُصادفةً
وانتميتُ إلى عائلةٍ
مصادفةً،

وورثتُ ملامحها والصفاتِ

ت. موضوع الخطاب

من خلال مجموعة من المؤشرات اللغوية في القصيدة نفترض أنّ موضوع الخطاب هو "السيرة الذاتية" للشاعر الفلسطيني محمود درويش، وهذه المؤشرات هي نفسها مؤشرات السيرة الذاتية: أنا - ولدتُ إلى جانب - لم أكن - سميتُ - عائلة ... إنها بطاقة هوية. ولا نريد أن ندخل في الصراع النفسي وقضية الهوية لأننا سنركز على مفهوم الاتساق العميق وكيف ينتظم الخطاب في هذا المستوى العميق.

ث. العنوان

لا بدّ أن يقابل العنوان النصّ، وأن يجاوره، وأن نجد له امتدادات فيه بشكل أو بآخر. يكفي أنّ كلمة (حظ) تكررت ١٧ مرّة. وقد وجدنا صدى لاعب النرد في القصيدة عبر البحث عن كلمة النرد التي تكررت في ثلاث مواضع في القصيدة:

<p>محمود درويش الإنسان الذي يجرب حظه في الحياة</p> <p>فاعل</p>	<p>أنا لاعب النرد، أربح حيناً وأخسر حيناً أنا مثلكم أو أقل قليلاً...</p>	<p>١</p>
<p>محمود درويش الإنسان المحكوم بحتمية القدر والموت</p> <p>مفعول به</p>	<p>من أنا لأقول لكم ما أقول لكم عند باب الكنيسة ولست سوى رمية النرد ما بين مُفترَس وفريسة</p>	<p>٢</p>
<p>محمود درويش الشاعر الذي يربح ويخسر في القصيدة: تشع = أربح حيناً وقد لا تشع = أخسر حيناً</p> <p>والمحكوم بإكراهات اللغة والتاريخ والثقافة ...</p>	<p>من أنا لأقول لكم ما أقول لكم، من أنا؟</p> <p>كان يمكن أن لا يجالفني الوحي والوحي حظُّ الوحيدين "إنَّ القصيدة رَمِيَّةُ نَرْدٍ" على رُقْعَةٍ من ظلام تشع، وقد لا تشع فيهوي الكلام</p>	<p>٣</p>

ونجد في القصيدة ما يقابل اسم الشاعر نفسه:

وُسِّمْتُ بِاسْمِي مُصَادَفَةً: محمود

وانتميتُ إلى عائلةٍ مُصادفةٍ: درويش

كما أنّ تكرار كلمة مُصادفة تدلّ على الاعتباطية بين الدال والمدلول. ولكلمة "مُصادفة" امتدادات في هذا النص، نذكر من هذا المقطع: أربح حيناً وأخسر حيناً + تشعُّ، وقد لا تشعُّ.

ولو نظرنا إلى مقابلي "مُصادفة" الأخيرين لوجدنا أنهما متقابلان، فلهما المعنى نفسه بطريقتين مختلفتين. وعليه، يمكن أن نفترض أن كل شيء في القصيدة يقابل كل شيء، أو على الأقل كل شيء له مقابل يسنده.

ج. التناقض

إنّ التناقض لا يوجد إلا إذا أصررنا أن نفكر بكلمات تصريحية^(١). ويمكن الحديث عن التناقض في هذه القصيدة من منظورات مختلفة، لكنها تنسجم في النهاية، والشعرية تنبني على هذا التناقض وهروب المعنى، على أن يفك التناقض في الدلالة التصريحية ونحصل على المعنى المباشر. ويقع التناقض في هذا المقطع:

منّ أنا لأقول لكمّ

ما أقول لكمّ؟

وأنا لم أكنّ حجراً صَقَلْتَهُ المِياهُ

فأصبح وجهاً

ولا قَصَباً ثَقَبْتَهُ الرِياحُ

فأصبح نايّاً...

Catherine Kerbrat Orecchioni, La Connotation, éd. Presses (١) Universitaires de Lyon, ١٩٧٧, p. ٧٦.

إنه شاعرٌ، وهذا سببٌ كبيرٌ ليقول لنا وأن ننصت، فهو الناطق عن مشاعر جمهور عربيّ عريض، وجمهورٌ عريض يستمع إلى قصائده المسجلة ويقرأ قصائده.

أنا لم أكن حجراً صقلتته المياه فأصبح وجهاً	كنت مجرد شخص بقيمة حجرٍ وصقلتني الموهبة فأصبحت وجهاً معروفاً لدى الملايين
ولا قصباً ثقتبه الرياح فأصبح نايًا...	كنت مجرد إنسان مجوفٍ حاوٍ ثقتني التجارب والآلام فأصبحت نايًا ينشد موسيقى الشعر

فمن منا لا يعرف وجه محمود درويش ومن لم تعبره قصائده؟ إذن فمحمود درويش حين يعرض لنا سيرته الذاتية، لا يفتخر مباشرة، فيقول يحق لي أن لكم وأن تسمعوني جيداً لأنني كنت حجراً وأصبحت وجهاً بل أيقونةً وكنت فارغاً كالقصب فأصبحت شاعراً يتقن موسيقى الشعر. إنه فخر بما يشبه التواضع على نهج البلاغة العربية القديمة. والتقنية الموظفة هنا هي التقابل بالانحراف الدوراني Rotation فالقول عكس ما يقصده الشاعر، مراعاة للقارئ الذي قد لا يقبل الافتخار.

ويستمر في أن يقول لنا، فلو كان المعنى المباشر للمقطع هو التصريح لما كتب لنا قصيدةً طويلةً، بل كتب قصيدته هذه ومدارها كله هو (أنا). لذا فهو يطلب منا أن يقول لنا وأن نسمع لأنه وجه محفورٌ في الذاكرة وشاعرٌ كبيرٌ. هذه الاستراتيجية استعملها في قصيدة أخرى حين قال:

أنا مَلِكُ الصدى

لا عَرَسَ لي إلاَّ الهوامش

وانظر إليه عندما يقول في نهاية هذه القصيدة:

ومن حسن حظِّي أني أنام وحيداً

فأصغي إلى جسدي
وأصدّق موهبتي في اكتشاف الأمر
فأنادي الطبيب، فُقيل الوفاة، بعشر دقائق
عشر دقائق تكفي لأحيا مُصَادَفَةً
وأخيّب ظنّ العدم
مَنْ أنا لأخيّب ظنّ العدم؟
إنه فعلاً يخيب ظنّ العدم، لأنه أصبح وجهاً لا ينمحي ونايا لا يتوقف عن الغناء
أبد الدهر. وهو يحاور بيت الشابي القائل:
إني أنا النَّاي الذي لا تنتهي أنغامه، مادام في الأحياء
ولا بدّ أن نسند هذا التأويل البليغ بمقطع آخر من المساق نفسه / القصيدة. يقول
الشاعر:

لا دَوْرَ لي في القصيدة

غير امتثالي لإيقاعها:

حركات الأحاسيس حسّاً يعدّل حسّاً

وحَدْساً يُنَزِّل معنى

وغيوبة في صدى الكلمات

وصورة نفسي التي انتقلت

من "أناي" إلى غيرها

واعتمادي على نفسي

وحيني إلى النبع /

لا دوري في القصيدة إلاَّ
إذا انقطع الوحيُّ
والوحيُّ حظُّ المهارة إذ تجتهدُ

ينفي الشاعر مرتين أي دور له في الكتابة. لكن بعد ذلك يأتي بما يدل على عكس ذلك تماما:

- الإحساس العالي: حركات الأحاسيس، حدسا.
- المعاناة: غيبوبة.
- التفرد: اعتمادى على نَفْسى (انزياح من اعتمادى على نَفْسى)، انقطع الوحي.
- الصدق: صورة نفسى.
- الصنعة: المهارة، تجتهدُ.
- الأصالة والتراث: صدئ الكلمات، حنينى إلى النبع.
- وكلها مقومات تدل على الافتخار بشعرية قصائده.

مَنْ أنا لأقول لكم
ما أقول لكم؟

كان يمكن أن لا أكون
وأن تقع القافلة
في كمين، وأن تنقص العائلة
ولداً،

هو هذا الذي يكتب الآن هذى القصيدة

حرفاً فحرفاً، ونزفاً ونزفاً

على هذه الكنبه

بدم أسود اللون، لا هو حبر الغراب

ولا صوتُهُ،

بل هو الليل مُعْتَصراً كَلَّهُ

قطرةً قطرةً، بيد الحظِّ والموهبة

في هذا المقطع الأخير نجد التراكمات التشاكلية السابقة نفسها مثل: يكتب، نزفاً، دم أسود، معتصراً، الحظ، الموهبة.

وتتكرّر عبارة (من أنا لأقول لكم) ليأتي بعدها رسم صورة الذات الشاعرة، أو يستعرض الظروف القاسية التي رغمها أصبحَ وجهها ونايا.

ح. الحوار الداخلي

ما معنى إلى جانب البئر والشجرات؟

الإجابة الأقرب أن جملة الولادة إلى جانب البئر والشجرات لها علاقة بالجملة التي قبلها مباشرة: أنا أقل منكم لأنني وُلدتُ إلى جانب البئر والشجرات.

لكن ما العلاقة بين الريح والخسارة من جهة، والولادة إلى جانب البئر والشجرات، وإشعاع القصيدة وعدم إشعاعها؟

وإن كان هناك إيقاع بين الريح والخسارة كنزول وطلوع، فأين يكمن الإيقاع بين

البئر والشجرات؟

لا بدّ أن هذا الإيقاع ممتدّ:

وأخسر حيناً	أربح حيناً
وقد لا تشعُّ.	تشعُّ،
والشجراتِ الثلاثِ الوحيدات كالراهبات	وُلدتُ إلى جانب البئرِ

إن معنى الشجرات هو أربح حيناً، ومعنى أخسر هو البئر. فالريحُ علوٌ والخسارة نزولٌ. أو بمعنى آخر هناك تقابلٌ بين الريح والشجرات، وبين الخسارة والبئر. وفي الخطاب تعادلٌ يضمنُ له الشعرية والتوازن والانسجام الدلالي. كذلك إشعاع القصيدة مرتبط بالشجر العالي/ الكلام العالي الوحيد، وعدم إشعاعها يشبه ظلمة البئر وكلاهما يبقى عمقه مجهولاً حتى يأتي متلقٍ يعرف كيف يغرف المعنى/ ماء الشعر العميق. والتجربة الشعرية إيقاع ونصوصها إما طلوعٌ أو نزولٌ؛ لا يمكنُ أن يكتب الشاعر قصائد كلها عظيمةً فالكتابة حظ كما يرى محمود درويش.

إنَّ رصد هذه التقابلات ينفي اعتبارية الكتابة في شعر الحداثة، وينفي اعتبارية القراءة باعتبارها قراءة منتجة تربط عدة عناصر ببعضها لكي تتناسل وتلد معاني جديدة، وتؤمن بأن النمو والتشعب غير اعتباريين.

خلاصات عامة

كانَ همَّ هذه الدراسة الأُوحد هو تطوير هذا المشروع من أجل نصية وتأويلية عربيتين قائمتين على بلاغة الخطاب، فاستهدفت المساءلة الأسس والمفاهيم. كما اقترحنا بعض التصورات بخصوص التقابلات الصغرى. وقمنا بأعمال تطبيقية بطريقة مختلفة على خطابين بليغين ومؤسسين للثقافة العربية. وانتهينا إلى هذه الخلاصات:

- وجوب تعيين حدود نظرية لنظرية التأويل التقابلي.
- التقابل يصلح أن يكون إوالية من إواليات دينامية النص البليغ والتشعب المنظّم، وآلية من آليات الاتساق العميق للنص وترابطه.
- التساند التأويلي مقترح جديد بُني على أسس عربية أصيلة يمكنُ استغلاله في انسجام الخطاب.
- لا داعي في هذا المشروع إلى خلق مصطلحات جديدة لمفاهيم موجودة أساساً، مثل: التشاكل والتناص والمفاهيم البلاغية القديمة، لأن استعمالها كما هي يحدّ من فوضى المصطلح والمفاهيم في السياق العربي.

لائحة المصادر والمراجع:

➤ بالعربية:

- أدونيس علي أحمد سعيد، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، ط ٣، ١٩٧٩؛
- ارحيلة عباس، "ابن البناء والبحث عن كليات البلاغة"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، ع ٨، ١٩٩٢؛
- إيكو أميرتو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط ٢، ٢٠٠٤؛
- إيكو أميرتو، القارئ في الحكاية: التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، ترجمة: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط ١، ١٩٩٦؛
- باختين ميخائيل، الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة: محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٨٦؛
- بازي محمد، التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم - بيروت ومنشورات الاختلاف - الجزائر، ط ١، ٢٠١٠؛
- بازي محمد، تقابلات النص وبلاغة الخطاب: نحو تأويل تقابلي، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط ١، ٢٠١٠؛
- بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، دار الأمان وأخريين، الرباط، ط ١، ٢٠١٣؛
- بندحمان جمال، الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري: التشعب والانسجام، Top Edition، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٩؛

- بنكراد سعيد، السيميائيات السردية: مدخل نظري، منشورات الزمن، المغرب، ٢٠٠١؛
- بودرع عبد الرحمن، النص الذي نحيا به: قضايا ونماذج في تماسك النص وبناء وحدته، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، ط١، ٢٠١٨؛
- بودرع عبد الرحمن، نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن الحديث، كتاب الأمة، الدوحة، ع ١٥٤، ط١، ٢٠١٣؛
- تليمة عبد المنعم، مدخل إلى علم الجمال الأدبي، منشورات عيون، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨٧؛
- جيني لورون، استراتيجية الشكل: نظرية التناص في الثقافة العالمية، ترجمة: نور الدين محقق، دال، دمشق، ط١، ٢٠١٥؛
- خطابي محمد، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠١٢؛
- داود محمد، تاريخ تطوان، مجلد ٦، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل، المغرب، ١٩٧٠؛
- روبرول أوليفي، مدخل إلى الخطابة، ترجمة: رضوان العصبية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٧؛
- الزناد الأزهر، نسيج النص: بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٣؛
- الأصهباني عماد الدين الكاتب، جريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، ج٢، الدار التونسية للنشر، ط٢، ١٩٨٦؛
- لعرج المهدي، "تكامل المعارف ونمذجة الخطابات في العلوم الإنسانية"، في: المناهج وتكامل المعارف، أشغال المؤتمر السنوي لمؤسسة مقاربات، مقاربات، فاس، ٢٠١٧؛

- الماكري محمد، الشكل والخطاب: مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط ١، ١٩٩١؛
 - مشبال محمد، "بلاغة النص السردي: مراجعة نقدية"، فصول، ع ١٠١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، خريف ٢٠١٨؛
 - مفتاح محمد:
 - تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناس، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط ١، ١٩٨٥؛
 - التلقي والتأويل: مقارنة نسقية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط ١، ١٩٩٤؛
 - دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط ١، ١٩٨٧؛
 - مجهول البيان، دار توبقال، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٠.
- بغير العربية:
- H. Hoek Leo, *La marque du titre : Dispositifs sémiotiques d'une pratique textuelle*, éd. De Gruyter, ١٩٨١.
 - Kerbrat Orecchioni Catherine, *La Connotation*, éd. Presses Universitaires de Lyon, ١٩٧٧.
 - Maingueneau Dominique, *L'analyse du discours: introduction aux lectures de l'archive*, Paris, Hachette, ١٩٩١.
 - Molinié Georges. *Dictionnaire de rhétorique*, Paris, Librairie générale française, ١٩٩٢.
 - Perelman Chaim et Olbrechts-Tyteca Lucie, *Traité de l'argumentation*, Bruelles, édition de l'université de Bruelles,

تجديد درس الأدب برؤيا التقابل

د. إبراهيم أكراف

مقدمة:

إن المناهج الدراسية مدعوة اليوم، أكثر من أي وقت مضى، إلى تنشئة جيل مؤمن بالحوار والاختلاف، ومسلح بآليات تحليل الخطاب، قصد الفهم والإفهام، والتفهم أيضا. ويقتضي هذا الأمر، ضمن ما يقتضيه، إعادة النظر في تدريسية النصوص بالمؤسسات التعليمية المغربية على وجه التخصيص، وفي تدريسية باقي المكونات والمواد بشكل عام.

كشفت مجموعة من التقارير، الوطنية والدولية، عن تدني الكفايات القرائية لدى التلاميذ المغربية، وعن ضعف آدائهم في اللغات بشكل عام. كما أشارت دراسات إلى عزوفهم عن القراءة وازورارهم عن الكتابة. ويمكن عزو واقع القراءة هذا، بغض النظر عن السياسة الثقافية بالبلاد، وعن القراءة بوصفها ثقافة أسرية، إلى تنامي وسائل الاتصال الحديثة التي أضفت على كل شيء في حياة الإنسان صفة الوجبات السريعة؛ إذ ازدهر، في المجال الأدبي، الإبداع في أشكال تعتمد التكثيف والإيجاز كالومضة، والشذرة، والقصة القصيرة جدا، ولا ننسى في هذا السياق غزو الصورة التي تعد كذلك شكلا تكثيفيا واختزاليا للأحداث، بل إن لها تأثيرا أكثر من وقع الكتابة، فقد يسأل أي مدرس متعلميه: هل تحب قراءة الرواية أم متابعتها على التلفاز؟ فلا شك أن السواد الأعظم سيختارون التلفاز "فالحاسوب والتلفاز وشرائط الكاسيت" والفديو وغيرها أغرت وتغري أطفال اليوم وتشغل جل أوقاتهم، وقد احتل جهاز التلفاز بوجه خاص مكانة خاصة في نفوس الناشئة، بفعل ما ينقله من معلومات حية ومتنوعة عبر ساعات يومية طويلة. ولا يجادل أحد في سحر وإغراء العديد من الصور والبرامج الموجهة للصغار والكبار على السواء. كما فتحت الأنترنت

بدورها مجالا واسعا للتواصل واكتساب المعلومات^(١)، بالإضافة إلى النظرة الدونية لشعبة الآداب والعلوم الإنسانية، والتي لا يتلاءم تكوين شعبها وسوق الشغل، بل إن الدونية قائمة داخل هذه الشعبة نفسها؛ فتمثلات المتعلمين عن اللغة العربية ليست هي نفسها بخصوص اللغة الإنجليزية أو الفرنسية، ولا سيما في ما يخص الآفاق التي تفتحها لهم هاته اللغات.

إن نفور المتعلمين من القراءة وإقبالهم على التقنيات الحديثة، وهو إقبال محفوف بالمخاطر في غياب عدة معرفية تمكنهم من مساءلة الصور، والأشرطة، والشذرات التي تمثل أمام أعينهم على الشبكة، لا نجد له تفسيراً غير غياب لذة النص التي من شأنها شد انتباههم، واستثارة الدافعية على القراءة لديهم؛ إما بسبب نص ميت، أو نص على شفا حفرة من المنية فخنقه المدرس بمنهجية عقيمة، والأمر نفسه قد يحدث مع نص حي، فيرتكب المفهم خطأ فادحا في حق النص، وفي حق من تولى إفهامهم.

تأسيسا على ما سبق، يمكن القول إن الدرس القرائي بالمؤسسات المغربية يستوجب تجديد منهجيات تدريسه ومضامينه، حتى يستجيب لحاجات المتعلمين المعرفية والوجدانية والحركية، مع مراعاة الفوارق بينهم، ولا سيما أن الهدف ليس تكوين نقاد متخصصين في الأدب، وإنما تكوين قارئ متفاعل مع النصوص، وفاعل اجتماعي يعبر عن رأيه، ويدافع عنه، ويقبل وجهات النظر المخالفة له.

ويأتي هذا البحث التربوي الموسوم بـ "التأويل التقابلي وتجديد درس الأدب" لاختبار إمكان تنزيل هذه النظرية في المؤسسات التعليمية المغربية، مقترحا لتنويع منهجية تدريس مكونات مادة اللغة العربية، على سبيل المثال لا الحصر. وبالتالي تزويد المتعلم بطوق أو مركب يخوض به غمار النصوص، وتعبير آخر تزويد المدرس أيضا

(١) - أوزي أحمد، المراهق والعلاقات المدرسية؛ منشورات مجلة علوم التربية، عدد ٢٩، الرباط، ط ٣، ٢٠١١، ص ١٠٤-١٠٥.

بدليل يرشد به تلامذته لكشف خبايا النصوص، لاسيما والقراءة المنهجية المعتمدة حاليا في النظام التربوي المغربي توجه لها جملة من الانتقادات، تذهب كلها مذهبها واحدا، ألا وهو قصور هذه المنهجية وعدم تمكنها من تحقيق الهدف المتوخى منها. لذا، فإننا نروم في استشكال هذا البحوثوع نظرية التأويل التقابلي على المحك التعليمي؛ فما معالم التعليمية في هذه النظرية؟ وهل يمكنها الإسهام في تجديد درس الأدب؟ وكيف ذلك؟

نفترض أن نظرية التأويل التقابلي تتيح إمكان الاستفادة منها في المجال التعليمي، وسيعتمد، للوصول إلى التحقق من هذا الافتراض، منهجا تكامليا، يتساند فيه الوصف، والتحليل، والمقارنة، والنقد، وهي مناهج تتلاءم ومتن البحث. أما حدود البحث؛ فأولها أن الاشتغال سيكون بالصورة، وثانيها وضعنا نصب أعيننا متعلمي المرحلة الثانوية كفئة مستهدفة. وقد تم اختيار هذا الموضوع لأسباب منها:

أولا، استكمالنا البحث في مجال تدريسية النصوص.

ثانيا، الانخراط في مشروع التأويل التقابلي إلى جانب صاحبه، وهو تقليد لعمرى ما أحوج البحث التربوي / الأكاديمي المغربي إليه.

وفي ما يخص الدراسات السابقة، فقد حاولنا الاستئناس ببعضها، ونرى أن الجودة في هذا البحث تتمثل في وضع إطار نظري للتأويل التقابلي في المجال التربوي، ومن جهة أخرى فإننا نسعى لتجاوز البعد الوصفي الذي سقطت فيه بعض الدراسات التي اطلعنا عليها، ونسعى كذلك لتطعيم اجتهادات الباحث محمد بازي بالاشتغال بالصورة والذي لم يتم في مشاريعه المنجزة حتى الآن.

المحور الأول: الكائن والممكنفي نظرية التأويل التقابلي؛

توطئة مصطلحية

التأويل التقابلي: القراءة الإنتاجية للنصوص، الساعية إلى بناء النص وفق طريقة تشكله الأول في ذهن الكاتب، باعتقاد التقابل، والذي يعني مواجهة الكلمات،

والجمل، والفقرات بعضها ببعض، من الناحية البلاغية، أو التركيبية، أو الصرفية، أو السياقية...

تجديد درس الأدب: تجاوز الطريقة النمطية في التدريس، وجعل المتعلم فاعلا في العملية التعليمية التعلمية، وهو ما يعطي درس الأدب، سواء أكان شعرا أم نثرا أم تشكيلا، حيويته ويجعله متعلقا بدرس اللغة العربية.

نظرية التأويل التقابلي

١. الأسس النظرية للتأويل التقابلي

تعد نظرية التأويل التقابلي اجتهادا عربيا محضا للخروج مما سماه الدكتور عبد العزيز حمودة التيه النقدي؛ حيث عمد الدكتور محمد بازي إلى استنطاق جملة من المتون العربية، القديمة والحديثة، منطلقا من فرضية رئيسة، فحواها أن الكون مبني على التقابل، فبه "نفهم العالم المحيط بنا، ونفهم ذاتنا، والآخريين، والقيم المتقابلة"^(١) وبه يمكن أن نفهم أيضا. فما التأويل التقابلي؟ وما ميزاته؟

إن "التأويل التقابلي إجراء قرائي في تمثل المعاني، وإدراك علاقات فيما بينها، مما يسمح بأحسن فهم. ويتم العمل به بين بنيتين نصيتين متماثلتين أو متخالفتين دلاليا؛ وهو أوسع وأشمل من التضاد والمقابلة والترادف المعروفة في مجال البلاغة"^(٢) أي إن الكلمات والعبارات، في النص، لها ما يقابلها صراحة أو ضمنيا، فإما أن يكون التقابل في الجملة الواحدة أو البيت الشعري، وهذه التقابلات ليست بالضرورة أحادية، فقد يجد القارئ أكثر من تقابل، وتسمى التقابلات الأفقية، أما التقابلات العمودية فالمقصود بها التقابل بين الصريح والضمني؛ أي بين البنيتين السطحية والعميقة^(٣).

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف، دار الأمان، الجزائر - لبنان - الرباط، ٢٠١٣، ص ٧٣.

(٢) - بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون بروت، ومنشورات الاختلاف، بروت - الجزائر، ٢٠١٠، ص ٢٢١.

(٣) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، مرجع مذكور، ص ٨١.

تعين هذه التقابلات القارئ على بلوغ معنى النص، بتقديم التأويل الممكن بحسب ذخيرته، متقيدا بالدوائر النصية الصغرى والدوائر السياقية الكبرى، ويقصد بالدوائر الأولى "مجموع العمليات القرائية التي تركز أساسا على مواد النص وأبنيته الداخلية، وكل ما هو دال فيه من كلمات، وتراكيب نحوية وبلاغية، وعلامات سيميائية قابلة للفهم والتأويل"^(١) أما الدوائر الثانية فهي التي "تفتح بوابات متعددة، لدخول كل ما يضيء جانبا معتما أو غامضا في النص موضوع القراءة"^(٢) وفي هاتين الدائرتين تقابل بين عالمين؛ عالم مغلق يجند فيه المؤول علوم الآلة وما استحدثت من العلوم التي تتعامل مع النص تعاملًا مغلقًا، وعالم منفتح يسمح باستثمار المعطيات الخارجية التي بإمكانها الإسهام في تأويل النص. وبالاستناد إلى هذين العالمين، نستخلص أن المؤلف إذ يبدع باللغة بما أوتي من قوة تسعى لحرق المألوف، لا تسلم كتابته من أثر قراءاته، وكذا أثر الضمير الجمعي. وهذا ما يتواءم وما جاء في التوجيهات التربوية بخصوص التركيز على البعد الوظيفي والتداولي للغة، والانفتاح على المناهج النقدية واللسانية في مقارنة النصوص والمؤلفات المقررة^(٣). إن هذا التواشح في التحليل بين بنية النص الداخلية والأسناد الخارجية (رواية، قصة، مسرح...) الهادف إلى فهم النص أو إفهامه، خاصة من خصائص التأويل التقابلي، والتي يمكن إجمالها في الدورانية، أي التحرك داخل فضاءات نصية صغرى على شكل محاور، والانتقال إلى مجالات أرحب ودوائر أوسع، تمدُّ القارئ بطاقة إضافية. وهو ما تنتج عنه خاصية التساندية بين الآليات العاملة التي يسمح بها الدال النصي، وكل عنصر استبدالي خارجي، هذا الأخير يعطي لهذا المنهج خاصية الانفتاح، المشروطة بالسياق الذي تتم فيه القراءة، قصد بناء معنى النص، وفق التقابلات الممكنة التي يكتشفها المؤول، وهذه الخاصية؛

(١)- بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، مرجع مذکور، ص ١٨٩.

(٢)- المرجع نفسه، ص ١٨٩.

(٣)- التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس اللغة العربية بسلك ت. ث. ت، مديرية المناهج، الرباط، نونبر ٢٠٠٧، ص ١٦.

أي التقابلية هي أس هذه النظرية. أما الخاصية الأخيرة فهي التعاقدية؛ والمقصود بها الالتزام بغايات الفهم والإفهام دون الإخلال بقواعد الاشتغال التأويلي، مع احترام الأوضاع الاعتبارية لكل من المؤلِّ والمؤلَّل له، واستراتيجية التأليف المحكومة بقواعد التواصل^(١). تؤكد هذه الخصائص تماسك بنیان هذه النظرية، غير أن النموذج الأخير، أي النموذج التعاقدي، من وجهة نظرنا لا ينسحب على كافة القراءات التأويلية التقابلية، إذ القراء صنفان؛ صنف يقرأ لغاية ذاتية دون أن يضع نصب عينيه إفهام أحد، وصنف ثاني يقرأ بغرض القراءة للإقراء، أو بمفهوم نظرية التأويل التقابلي يقرأ ليفهم ويُفهم. إذا، فالصنف الأول يتوقف عند الفهم، أما الصنف الثاني فيتجاوزه إلى الإفهام، وهذا الصنف ينتمي -في الغالب- إلى فئة المدرسين.

انطلاقاً مما سبق، يتضح لنا البعد التعليمي في نظرية التأويل التقابلي، وهو ما سنعمل على توضيحه أكثر في النقطة الموالية.

٢. البعد التعليمي في نظرية التأويل التقابلي

يقوم البعد التعليمي في هذه النظرية على مفهومين اثنين، وهما: الفهم والإفهام، فما المقصود بهما في إطار هذه النظرية؟ وما شروطهما؟

٢.١ الفهم: هو "مجموعة من العمليات الإدراكية التي نقوم بها، لاكتشاف حقيقة كامنة في النص موضوع القراءة، أو في ظاهرة من الظواهر التي حولنا"^(٢)، ولا يحصل الفهم إلا حين تتوافق المعطيات الجاهزة للمؤول مع حقيقة تتكون في قلب عملية التأويل^(٣)، فالقارئ ليس صفحة بيضاء، بل لديه معطيات قبلية يؤول وفقها النص، بغية إدراك معنى من معانيه المحتملة.

(١)- بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، مرجع مذکور، ص ٣٤٣.

(٢)- بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، مرجع مذکور، ص ١٤٢.

(٣)- بازي محمد بازي، المرجع نفسه، ص ١٤٢.

٢.٢ الإفهام: هو تبسيط المفهوم (موضوع الفهم) لشخص ما وجعله يدركه، كما تحصل الإدراك/ الفهم عند صاحب الفهم، ويقتضي الإفهام مراعاة النمو العقلي للمفهم له. إذا تحصل الفهم عند المدرس مثلا بشكل جلي أمكنه ذلك من إفهام المتعلمين بطريقة سلسلة.

٢.٣ شروط الفهم والإفهام

لا يتحقق الفهم والإفهام إلا بشروط، وهي^(١):

- ✓ التعلق بموضوع الفهم؛
 - ✓ المحبة بين المفهم والمتفهم؛
 - ✓ امتلاك الأدوات الضرورية للفهم (اللغة، ومعرفة القواعد النحوية والبلاغية)؛
 - ✓ الترابط بين المعلومات السابقة واللاحقة (تعيين على الإفهام، وتساعد على الاحتفاظ بالمعلومات في الذاكرة الطويلة المدى)؛
 - ✓ يقتضي الإفهام التبسيط، باعتماد اللغة والأساليب التوضيحية، والمعينات، والتمثيلات، والتكرير، والأسئلة^(٢).
- إذا كانت للفهم والإفهام شروط، فإن له أيضا مراحل أثناء الإنجاز ينبغي تتبعها، وسنعرض لأهمها.

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، مرجع مذكور، ص ٨٩.

(٢) - بازي محمد، المرجع نفسه، ص ٩٧.

٢.٤ الفهم بالتقابل^(١)

أ. الافتراض بالتقابل: مجموع التصورات المسبقة المتقابلة حول معنى النص، وهي افتراضات معنوية تلقائية تتحكم فيها المعارف الخلفية، والميولات.

ويمكن أن ندخل في هذا الإطار ما سماه الباحث ببنية النص العليا، والمقصود بها استحضار المؤول خصائص البنية العليا التي يندرج ضمنها النص (شعر، مقالة، رسالة، قصة، رواية...) حيث تمكن المعرفة باندراج النص الأدبي ضمن جنس أدبي من فهمه داخل ذلك الإطار الأدبي؛ حيث إن النصوص داخل النوع الواحد تتبادل التأثير داخل الذاكرة المؤولة^(٢)؛ ومعنى هذا أن الذاكرة الإنسانية تحتوي على معارف في شكل بنيات (...). حينما تذكر القصيدة المدحية النموذجية، تتبادر إلى الذهن الخطاطة التي ذكرها ابن قتيبة وما يقرب منها^(٣)

ب. الاستكشاف بالتقابل: الجهد الاستكشافي الذي يقوم به المتلقي لفهم النص وبناء معناه، عبر المقابلة بين عدة احتمالات، وندرج ضمن هذه الخطوة العمليات الآتية:

✓ شرح المفردات أو العبارات الغامضة، وفق ما علق بالذهن من معانٍ أولية (تقابل العبارات الذهنية والعبارات المكتوبة)؛

✓ عملية التسييق النصي بربط السابق باللاحق: عملية ذهنية وتأويلية تقابلية تستدعيها البنيات الغامضة داخل النص، وذلك باعتماد العناصر السياقية السابقة المقابلة للنص موضوع الفهم؛

(١) - بازى محمد، نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، مرجع مذكور، ص ٩١-٩٢-٩٣-٩٤. نشر إلى تصر فنا في هذه المراحل، وفق ما يخدم الغاية التعليمية.

(٢) - مفتاح محمد، النص: من القراءة إلى التنظير، شركة النشر والتوزيع - المدارس - الدار البيضاء، ص ٢٧-٢٨.

✓ عملية استحضار أطر موسعة: استحضار المعارف والأعراف والمواضعات الاجتماعية والثقافية؛

✓ عملية إرجاء التبيين الدلالي إلى حين اكتمال اللواحق والمدعمات الدلالية: إرجاء إتمام المعنى إلى حين استحضار العناصر الاستدلالية الغائبة التي يكتمل بها المعنى، وندخل في هذا الباب عملية وضع المعنى في سياق خارجي وموسع، وكذا عمليات التطويع بالتماس المعينات التناسية والمعجمية والخبرية؛

✓ عملية التوجيه وتعديل الاستراتيجية التأويلية أو عملية تصحيح المسار: تغيير الاستراتيجية التأويلية، إذا بدت غير منتجة، وتعويضها بأخرى مقابلة ذات جدوى.

ج. الفهم: إدراك معنى من معاني النص الممكنة، وذلك وفق الخطوات الآتية:

✓ حذف الأفهام التي لا يدعمها معطى في النص؛

✓ تركيب الأفهام ومقارنتها تلقائيا بعرضها على غيرها أو تعميمها؛

✓ الاحتفاظ والتخزين لحالة تأويلية وتفهمية جديدة.

٣. التأويلية التقابلية والقراءة المنهجية

إن اقتراح التأويلية التقابلية منهجية لتحليل النصوص، لا يعدو أن يكون اقتراحا لتنويع منهجيات التدريس، حتى لا تتكرس النمطية في درس القراءة المنهجية، وتمكين المتعلمين من منهجية واضحة المعالم والأسس. وإذا كانت التأويلية التقابلية اجتهادا مستتبنا داخل التربة العربية، فلا يلغي هذا الاستنبات بعدها الكوني، فإن القراءة المنهجية المعتمدة حاليا في النظام التربوي المغربي مأخوذة عن النظام التربوي الفرنسي، والذي تخلّى عنها سنة ٢٠٠٠^(١)، ألم يكن الوقت بعد لكي نتجاوز هذه القراءة المنهجية أو نطعمها بدائل منهجية؟!.

إن المقابلة بين القراءتين؛ التأويلية التقابلية والقراءة المنهجية، تكشف لنا عن التفاوت في الطرح بينهما؛ فإذا كانت القراءة المنهجية تلتفقا بين مجموعة من المناهج، فإن القراءة التأويلية التقابلية قائمة الذات، تستفيد من المناهج الأخرى دون أن تنجر وراء رياحها العاتية؛ جاعلة من التقابل أساسها، وما أحوج المتعلمين اليوم إلى منهجية قائمة على أساس واضح، ومتخففة من ثقل جهازها المفهومي!

تقوم القراءة المنهجية على وصف النص وترديده بشكل حرفي، دون أن تعطي للمتعلم فرصة إبراز قدراته في التحليل، والفهم، أو اتخاذ موقف، باستثناء ما قد يرد بعض الأحيان في مرحلة التركيب،

تقابلة بالخفي المحتمل منه لتصل إلى معنى ممكن يفترض المؤول أنه مقصدية النص، ولا يتحقق بناء المعنى في التأويل التقابلي إلا بالفهم الكلي للنص، بعد التفاوض بين المؤول والنص، وعلى النقيض من هذا فالفهم مرحلة قائمة الذات في القراءة المنهجية تسبق مرحلة التحليل، فكيف يتحقق الفهم من غير تحليل؟! !!

(١) - كلموني عبد الرحيم، رسالة للمجلس الأعلى للتعليم، منشور بالموقع الإلكتروني:

<http://www.oujdacity.net/national-article-٨٧٠٣٣-ar>

حاصل القول إن القراءة التأويلية التقابلية مقارنة منهجية عميقة، يتفاعل فيها القارئ مع النص بقصد إعادة إنتاجه في بناء ومعنى جديدين، وفق سيرورة تنطلق من توقعات أولية تبتدئ بملاحظة النص، بعد تأطيره داخل نوعه الأدبي، وتنتهي بالبناء التدريجي للنص^(١) كما أنها قراءة تتساقق والمقاربة بالكفايات لأنها تستدعي دائما من المتعلم استحضار معلوماته السابقة، والاحتفاظ باللاحقة؛ فالمواضيع الاجتماعية، على سبيل المثال، قد يستثمرها المتعلم في تحليل النص، علاوة على معارفه البلاغية والنحوية والصرفية، وقراءاته الخارجية، وسنأتي على تبيان هذا في الجانب التطبيقي، الذي سنسعى من خلاله إلى وضع نظرية التأويل التقابلي في محك الممكن، فكيف ذلك؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الفصل الموالي، مهتدين بيداغوجيا المحو؛ حيث لن نستعرض القوانين النظرية أثناء التطبيق، وسنكتفي بالاهتداء بها^(٢). كما نشير أيضا أننا لم نعرض للتقابلات التي أوردها الباحث محمد بازي؛ لأن النظرية -بحسب فهمنا- لا تعتمد الإسقاط، وإنما تدع النصوص تتولى الكلام، والمؤؤل يتفاعل معها.

نظرية التأويل التقابلي وتجديد درس الأدب: (تطبيق)

غلاف رواية "مراهن الحب السبعة"



(١) - اليعكوبي البشير، القراءة المنهجية للنص الأدبي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، د.م، ٢٠٠٦، ص ٦٥.

(٢) - فرشوخ أحمد، "تدريس الأدب: التصور والممارسة"، جريدة الاتحاد الاشتراكي، العدد ١٠-١١ فبراير ٢٠٠٧، ص ٢٢.

أولاً: قراءة غلاف رواية "مرافئ الحب السبعة"^(١)

إذا كان الدرس الفلسفي الناجح هو الذي يثير القلق المعرفي لدى المتعلمين، فإن الدرس الأدبي الناجح هو الذي يدهش المتعلمين، ويحرك الرغبة المكنونة في الكتابة عندهم، ومفتاح الدهشة لدى المتعلمين إدراكهم لمعاني النصوص، وهذا لا يتأتى إلا بامتلاك آلية يتم بها تحليل النص.

١. تشهية المتعلم

إن للصورة وظيفة مهمة في حياتنا اليومية، فلا يكاد مكان يخلو منها، وما أحوجنا إلى النظرة الجمالية الواعية بدلالة الصور والعبارات المصاحبة لها! إنها تلخص الكثير من الكلام.

٢. استكشاف مكونات الغلاف بالتقابل

(تأمل الصورة لمدة خمس دقائق)

أ- توصيف مكونات الغلاف (مم يتكون غلاف هذه الرواية؟)

تتكون الصورة من مشيرات هي:

- قلب من حبل أحمر سميك في وسط صفحة يغلب عليها اللون البني، والذي تخترقه صفرة ترمز لمواقع جغرافية، وداخله ناحية اليمين جزء من الخريطة.
 - إثبات نوع المؤلف (رواية) وسط القلب بلون أسود مفتوح.
 - عنوان المؤلف وسط أعلى الصفحة بخط مضغوط، باللون الأحمر.
 - اسم الناشر وسط أسفل الصفحة بخط صغير الحجم
- (كم حقل يمكن استخراجه من هذه المشيرات؟)
- يمكن تفسيء هذه المشيرات إلى ثلاثة حقول:
- حقل الأشكال / الأشياء

(١) علي القاسمي، مرافئ الحب السبعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب / لبنان- بيروت، ٢٠١٢.

- حقل الألوان

- حقل الأسماء

إذا عندنا في هذه الصورة تقابل ثلاثي بين الأشكال والألوان والأسماء.

ب- تحليل مكونات الغلاف

١. تقابل الصريح الضمني في العنوان

الضمني	الصريح
--------	--------

ما المرفأ؟ هو المكان الذي ترسو فيه السفينة

مرافئ

هل للحب مرفأ؟ لا ليس له مرفأ.

الحب السبعة

جيد، ماذا يسمى هذا التعبير من الناحية البلاغية؟ / هل

التعبير حقيقي أو مجازي؟

إذا، هو تعبير مجازي.

ما نوعه؟ استعارة. حدد أطراف الاستعارة: المستعار:

المرافئ/ المستعار منه: السفينة/ المستعار له: الحب.

ما هو الطرف المحذوف؟ السفينة. إذا الاستعارة مكنية حيث

حذف المشبه به وصرح بالمشبه، والقريظة المانعة من إرادة المعنى

الحقيقي مرفأ. ما العلاقة بين الحب والسفن؟

التنقل/ الترحال. لم استعار الأديب السفن للحب؟

استعار الأديب السفن للحب لتصوير حال القلب الذي لا

يثبت على حب مكان واحد، وما يقاسيه، وذلك بإخراجه من

المجرد إلى المحسوس؛ لأن السفن مما يدركه الناس بأبصارهم،

ويعلمون أنها لا تسلم في رحلتها من مرفأ لآخر من لطم الأمواج.

لم قلت مكان واحد، ولم تقل فتاة أو شجرة؟ (وضعية مشكلة)
لأن كلمة مرافئ تدل على اسم مكان، وهذا مما يرجح أن
الحب يتعلق بإمكانة لمحبتها ذكريات معها.

١.١ تقابل العنوان واللون

العنوان	اللون
---------	-------

اللون الأحمر / خط بارز

ما دلالة اللون الأحمر؟ يدل اللون الأحمر على معان شتى منها:
التضحية، والمعاناة، والحب.

ما الدلالة التي يوحي بها اللون مقرونا بـ"مرافئ الحب
السبعة"؟

يوحي اللون الأحمر في ارتباطه بالعنوان بالمعاناة.

لم؟

لأن الترحال بين المرافئ السبعة، يعكس عدم الاستقرار، وهو
ما يوحي بالمعاناة من أجل الاستقرار

ما دلالة كتابة العنوان بخط مضغوط؟

تدل كتابة العنوان بخط مضغوط على شدة وطء المعاناة.

١.٢ تقابل الأشكال

ما دلالات القلب والحبل؟

القلب	الحبل
-------	-------

القلب مضغة في الجسم، صلاح الإنسان وفساده رهين به، وموطن الأسرار
والأحاسيس. أما الحبل فدليل على المعاناة، كما جاء في القراءان الكريم "في جيدها
حبل من مسد"، وعلى الخوف "اللي عضو الحنش يخاف من الحبل" (من لدغه الثعبان

فليخش الحبل) ويدل هذا التقابل على جلد بطل الرواية، من خلال تشبيه القلب بالحبل، كأن القلب الذي من لحم ودم لن يتحمل هذه المعاناة.

١.٣ تقابل الأشكال والألوان

ما إحالات المقطع الموجود وسط القلب؟ وما رمزية اللون البني؟

يحيل المقطع الجغرافي الموجود في الجانب الأيمن من القلب إلى موطن محفور في قلب بطل الرواية. أما اللون البني فيرمز للتراب، وهذا يعني أن بطل الرواية يحمل وطنه في قلبه. وقد أورد الجاحظ في كتاب "الحنين إلى الأوطان" أن "العرب إذا غزت وسافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعَفراً تستنشقه عند نزلة أو زكام أو صداع"^(١).

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، سلسلة اللغة والأدب ١، دار الرائد العربي، بيروت/ لبنان، ط. ٢، ١٩٨٢، ص: ١٥-١٦.

١.٤ تقابل الأشكال والموضع

ماذا تجسد أطراف الحبل؟ وعم ينم موضع القلب على الغلاف؟

موضع القلب في الغلاف	امتداد أطراف الحبل نحو الأعلى
تنم موضعة القلب بشكل مستقيم، وسط الغلاف، على ثبات القلب على حب موطن واحد رغم تنازع الأمكنة له.	يمتد الطرف الأول ناحية اليمين، في حين يمتد الطرف الثاني ناحية اليسار، ويجسد هذا الامتداد تنازع الأمكنة لهذا القلب.

لم وضع الكاتب نوع المؤلف داخل القلب؟

موضع نوع المؤلف (رواية)	القلب/ الحبل
-------------------------	--------------

يشي التقابل بين القلب/ الحبل وموضع نوع المؤلف، أن أحداثه نابغة من القلب؛ أي إنها أحداث واقعية عاشها بطل الرواية.

١.٥ - تقابل موضع المؤلف واللون

عم يعبر اللون الأسود الباهت؟

أسود باهت	نوع المؤلف (رواية)/ موضعه
-----------	---------------------------

يعبر اللون الأسود الباهت على قدم أحداث الرواية، وهي أحداث حزينة لأن السواد رمز للرب والحزن، ما تزال تواصل امتدادها في قلب بطل الرواية.

٣. الفهم بالتقابلات

(تكليف المتعلمين بإنتاج نص حول الغلاف باستثمار ما تم التطرق إليه في مرحلة

التحليل)

تتضافر المشيرات البصرية في غلاف رواية "مرافئ الحب السبعة" لتحقيق تقابلات، تؤسس لأحداث الرواية وزمانها ومكانها. فالعنوان يضعنا بتقابلاته الصرفية والبلاغية واللونية (نسبة إلى اللون) أمام بؤرة الأحداث؛ إذ إن المرافئ تشير إلى تعدد الأمكنة، وهو الأمر الذي يستتج منه تعدد الأحداث والأزمنة. كما أن هذه الكلمة "المرافئ" وظفت على وجه الاستعارة لإخراج الحب من المجرد إلى المحسوس، ولتبيان ما قاسته الذات في تنقلها بين الأمكنة، كالسفينة تلطمها الأمواج قبل أن تبلغ المرفأ. أما كتابة العنوان باللون الأحمر الناصع المضغوط فتعكس وطأة المعاناة واستمرارها، ويزكي هذا التأويل تقابل القلب وموضع نوع المؤلف ولونه؛ إذ تمت موضعة نوع المؤلف وسط القلب باللون الأسود الباهت، وهو ما يعني أن الرواية عصارة قلب، أو بالأحرى وليدة الأكر، وأحداثها عتيقة، لكنها ما تزال ممتدة في الفؤاد، فلا يجد لها البطل غير تراب الوطن بلسما، كما يبين ذلك التقابل بين اللون البني والقلب، ويشير شكل القلب الناظرين/ القارئين فيشرعون نوافذ التأويل على التقابل بين قلب الإنسان وهذا القلب الحارق للمألوف، فهو قلب من جبل سميك بلون أحمر يشع ألما؛ ومعنى هذا التقابل أن قلبا من لحم ودم لا يتسع لكل هذه المعاناة التي يعانيتها البطل، كما أنه يرمز إلى صلابته وتجلده أمام هذه المعاناة.

إذا، باستقراء هذه المشيرات، يكون المتعلم قد بنى فهما أوليا لعوالم النص، يسعى للثبث منها في أثناء القراءة، وهذا ما يسمى بالافتراض.

٤ - إضاءات

استنادا إلى ما خلصنا إليه في تحليل غلاف الرواية، وفي ما تشاهدونه في التلفاز والشابكة... ما وظيفة الصورة إذا؟

✓ الوظيفة الجمالية والتأثيرية؛

✓ الوظيفة التكميلية والاختزالية؛

✓ الوظيفة التعريفية؛

✓ الوظيفة التذكيرية (النوستالجية).

(تكليف المعلمين بإبداعات شخصية مستوحاة من الصورة)

نص "عدالة الغابة"^(١)

عرض النمر والذئب عل المحكمة، وكان الأسد قاضي المحاكمة. اعتلى المنصة المخصصة له، وتحلقت حوله حيوانات الغابة: الضباع والفيلة والقردة...

قال أمر: تقدم أيها الذئب، أصحيح أنك تسببت في النزاع؟

أجاب: كنت جائعا، ولم أجد فريسة أغمد فيها أنيابي، وهل يمكن للجائع أن يغض النظر عن الطعام؟

احتج الذئب قائلا: اعتمدت على نفسي، تعرضت للأخطار أثناء الصيد، لذا أستحق غنيمتي، ولا يجدر بالنمر الاعتماد على غيره.

نظر الأسد إلى النمر وقال: منطقتك سليم، ما عذررك؟

أجاب: بحثت طويلا، كلت يداي وتعبت قدماي دون جدوى. وما الضرر في أن أقتسم مع الذئب طعامه وهو كثير، يربو على ما يحتاجه؟

ساد صمت لحظة، ثم قال ملك الغابة مبتسما: علينا أن نتضامن، إياكم والصراع، حذار من الفتن والمحن.

ثانيا: قراءة نص "عدالة الغابة"

١. قراءة العنوان تقابليا

عدالة	الغابة
-------	--------

ما الذي أثاركم في العنوان؟

إن قراءة العنوان تقابليا تضعنا أمام مفارقة، ألا وهي عدالة الغابة؛ إذ هي في العرف مكان للفوضى، وأكل القوي للضعيف. (ما السؤال الذي يتقدح بأذهانكم؟) ومن ثمة فالسؤال الذي يتقدح في ذهن القارئ، كيف تتحقق العدالة في الغابة؟

(١) - شباكي عبد الكريم، الطريق إلى اللغة (تقييم ملكات اللسان العربي)، سلسلة في مجال اللغة العربية للناطقين بغيرها، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠١٤، ص ٧٦.

إن الإجابة عن هذا السؤال هو ما نفترض أن النص سيجيب عنه، وذلك استناداً إلى قراءة العنوان تركيبياً:

عدالة: خبر مرفوع، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، لمبتدأ محذوف تقديره هذه. وهو مضاف.

الغابة: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره.

ما الذي يمكن استنتاجه من قراءة الترتيبية للعنوان؟

نستنتج من خلال المقابلة بين وحدتي العنوان تركيبياً، أنه بُني وفق استراتيجيتي الإلقاء والإبقاء؛ فقد أُلقي بالخبر وأُبقي على المبتدأ. وبهذا نسجل تقابلاً آخر بين المستويين الدلالي والتركيبى للعنوان؛ فالأول استخلصنا منه المفارقة القائمة بين العدالة والغابة، وهو ما يعني أن وظيفة العنوان إغرائية. أما الثاني فنستخلص منه أن وظيفة العنوان إخبارية. إذاً، نحن أمام تقابل وظيفتين في العنوان، وهما الوظيفتان الإغرائية والإخبارية، والعلاقة بينهما تكاملية وتساندية، فلا يلتفت الناس إلا للمغري من الأخبار، ودليل ذلك تعريف كلاسي للخبر مفاده "إذا عض كلب رجلاً، فهذا ليس خبراً، ولكن إذا عض رجل كلباً فهذا هو الخبر"^(١).

٢- تحليل النص

أُستهل السرد بالمتوالية السردية "عُرِض النمر والذئب على المحكمة، وكان الأسد قاضي المحكمة. اعتلى المنصة المخصصة له، وتحلقت حوله حيوانات الغابة: الضباع والفيلة والقرودة..." ويحفل هذا المقطع بتقابلات هي:

تقابل المبني للمجهول والمبني للمعلوم

المبني للمعلوم	تقابل المبني للمجهول
عُرِض "هو" النمر والذئب على	عُرِض النمر والذئب على المحكمة

(١)- دليل المراسل الصحافي، مؤسسة رويترز الخيرية، د.م، ٢٠٠٢، ص ٩.

تجديد درس الأدب برؤيا التقابل

المحكمة	
---------	--

لم بنيت الجملة للمجهول؟

بنيت الجملة للمجهول، تعظيما للفاعل، ولإثارة فضول القارئ لتتبع النص بحثا عن الفاعل.

من يعرض المتخاصمين على المحكمة؟

الشرطة هي التي تعرض المتخاصمين على المحكمة

ما دلالة جملة "عرض النمر و الذئب على المحكمة"؟

تدل هذه الجملة أن الغابة مجال تتم فيه الحياة بشكل منظم، قوامه القانون.

طيب، ما شخصيات القصة؟

تقابل الشخصيات غير الأدمية

الحضور	القاضي	المتحاكمان	الشرطة
باقي الحيوانات	الأسد	النمر / الذئب	حيوانات مجهولة

ماذا نستنتج من هذه التقابلات؟

نستنتج من هذه التقابلات أننا إزاء محاكمة منظمة، يتقابل فيها المدعي والمدعى عليه، أمام ملك الغابة، وباقي الحيوانات.

ما دور باقي الحيوانات في حضور المحاكمة؟

حضرت باقي الحيوانات أطوار المحاكمة، لتكون شاهدة على نزاهة المحاكمة.

فيم اختلف الذئب والنمر؟

تقابل المختلفين والمختلف فيه

المختلف فيه	المختلفان
اصطاد الذئب غزالا وشرع في أكله، وفجأة انقض عليه النمر وحاول انتزاعه منه	الذئب/ النمر

بم قام المتخصصان حين مثلا بين يدي القاضي؟

تحدث الذئب عن موضوع الاختلاف بدءا، بعدما نفى أن يكون المتسبب في النزاع، ثم تحاججا. (المتوالية السردية الثانية)

تقابل الحجاج

النمر	الذئب
- كنت جائعا، ولم أجد فريسة أعمد فيها أنيابي، وهل يمكن للجائع أن يغض الطرف عن الطعام؟ بحثت طويلا، كلت يداي وتعبت قدماي دون جدوى. وما الضرر في أن أقتسم مع الذئب طعامه وهو كثير، يربو على ما يحتاجه؟	- النمر حاول أن ينتزع مني صيدي - اعتمدت على نفسي، تعرضت للأخطار أثناء الصيد، لذا أستحق غنيمتي، ولا يجدر بالنمر الاعتماد على غيره.

هل أدان القاضي أحد الخصمين؟

لا، لم يدين القاضي أي واحد منهما

حسنا، إذا، ما دليل ذلك من النص؟

"ساد الصمت لحظة، ثم قال ملك الغابة مبتسما: علينا أن نتضامن، إياكم والصراع، حذار من الفتن والمحن." (المتوالية السردية الثالثة).

جيد، استنادا إلى تقابل المتواليات السردية، ما الحبكة التي اعتمدها الكاتب لبناء

نصه؟

تقابل المتواليات السردية

المتوالية السردية الثالثة	المتوالية السردية الثانية	المتوالية السردية الأولى
إصدار القاضي حكم البراءة	التحاجج أمام القاضي	عرض المتخاصمين على المحكمة
وضعية النهاية	وضعية الوسط	وضعية البداية

نستخلص من التقابلات أعلاه، أن الأديب بنى قصته وفق النهج التقليدي، القائم على تسلسل الأحداث بشكل خطي.

٢. فهم النص

إن ترديد ما يقوله النص في القراءة المنهجية، على سبيل المثال، بشكل سطحي، في أثناء مرحلة الفهم، يقتل النص، ويطفئ جذوة قراءة النصوص والتلذذ بفهمها عند المتعلمين، ويتنافى ومقومات النص الأدبي، ولاسيما في كون النص الأدبي تعبير عن رؤية للعالم يمتاز بتعدد معانيه، وهو وليد نصوص أخرى^(١). هذا ما سنعمل على تجاوزه في هذه الخطوة، بالانتقال من ظاهر النص إلى باطنه.

(١) - استفدت من البشير البعكوي، القراءة المنهجية للنص الأدبي، مرجع مذكور.

(تكليف المتعلمين بتحرير فهمهم للنص، مجموعات أو أفراد، باستثمار معطيات التحليل، ثم مناقشتها)

ويمكن للمدرس في إطار تنشيطه إرشاد المتعلمين بمجموعة من الأسئلة نذكر منها:

إذا قابلنا بين النص والواقع هل العدالة سلوك إنساني أم حيواني؟
ما دلالة توظيف الحيوانات والغابة؟
ما رمزية الأسد؟

إن المتعارف عليه هو أن العدالة سلوك إنساني، لكن في هذا النص خرق الأديب المؤلف، وخص بها الغابة، وهو ما يعني أن الفوضى لم تعد سلوكا حيوانيا، أو بالأحرى غابويا، بل هي سلوك إنساني؛ حيث إن الكاتب بإضافته طابع العدالة على الغابة، يقصد بذلك عدالة الحيوانات، لأن العلاقة بين هذه الحيوانات والغابة علاقة مكانية في مقابل لا عدالة الإنسان. إذا، فقد وظف الأديب الحيوانات لانتقاد الفوضى التي تعرفها حياة البشرية، حيث القوي يأكل الضعيف، مانحا إياها -ضمنيا- خاصية إنسانية، وهي العقل، لأنه لا عدالة بدون أعمال العقل.

إن الأسد، باعتباره رمزًا للقوة والشجاعة، لم يستخدم قوته العضلية لفك الخصام بين الذئب والنمر، ولم يسع للتفرد بالغنيمة، بل استعمل قواه الفكرية من خلال الإنصات للمتخاصمين، وإصدار قرار التضامن، وتجنب الفتن والمحن، إنها دعوة صريحة للتعايش والسلم، وما أحوج البشرية اليوم إليهما!!

حاصل القول إن الكاتب يتتقد ما آلت إليه العلاقات الإنسانية من تأزمات وصراعات، لا تجني منها البشرية سوى إراقة الدماء والتدمير، ويدعو إلى اتخاذ الحوار والحجاج والعقل فيصلا في النزاعات.

٣. التركيب

- تمحيص الفرضية.
- رأي المتعلم في تجربة العدالة والقضاء في بلده

خلاصات:

سعى الباحث إلى التثبت من إمكانية تطبيق نظرية التأويل التقابلي في الحقل التربوي، وقد انتهى إلى تأكيد فرضية البحث بالاشتغال على متنين؛ أولاً قراءة غلاف رواية "مرفئ الحب السبعة" وثانياً قراءة في نص "عدالة الغابة"، واستخلص مجموعة من الخلاصات أهمها:

- نظرية التأويل التقابلي منهجية مرنة لا تثقل كاهل المتعلم بالمصطلحات والتفسيرات، إنها نظرية يجد المتعلم نفسه فيها يتفاعل بحرية غير محكوم إلا باحترام قواعد التأويل، علاوة على وضوح منهجيتها القائمة على التقابل؛

- نظرية التأويل التقابلي قادرة على تجديد درس الأدب؛ فهي لا تكرر النمطية عند المدرس أو المتعلم، بل تجعلها دائماً يستكشفان النصوص بطرق مختلفة، أساسها التقابل؛

- نظرية التأويل التقابلي تجعل المتعلم دائماً ينمي كفاياته، باستنفاه لمعارفه في علوم الآلة، ومطالعاته، وسلوكاته واتجاهاته؛

- نظرية التأويل التقابلي لا تستدعي سوى ما يخدم بناء معنى؛

- قد يسقط بعض المتعلمين في البعد الوصفي غير المنتج، لعسر إدراك

التقابلات لديهم؛

- افتقاد المتعلمين لعلوم الآلة أو العلوم المساعدة على تأويل النص قد يشكل

عائقاً أمام تنزيل هذه النظرية في المجال التربوي.

إن إفهام الدرس الأدبي مهمة تحتاج إلى التزود بمنهجيات تحليل الخطاب، لإنزال كل نص منزلته التي يستحق، ولانتشال الدرس الأدبي في مادة اللغة العربية من نمطيته، والدفع به نحو آفاق أرحب للتخييل والوظيفية، ولإخراج المتعلمين من استهلاك المنهجيات الجاهزة، وحفظ مراحل منهجية وإسقاطها على كل النصوص.

وقد أتى هذا البحث إسهاما في اختبار إمكانية توظيف نظرية التأويل التقابلي في المجال التربوي، كمقترح منهجي مرن في مقارنة النصوص، قادر على الإسهام في انتشار الدرس الأدبي من جموده، وإخراج الطاقة الإبداعية والمعرفية والتواصلية والمنهجية والاستراتيجية للمتعلمين من القوة إلى الفعل، وذلك بفتح نوافذ النص للتأويلات التي يسمح بها النص، عوض ترديد النص بسطحية فجوة، تورث المتعلمين النفور من درس الأدب وعده درسا غير مجد.

خلص الباحث إلى إمكانية استثمار نظرية التأويل التقابلي في المجال التربوي، إذا توفرت للمدرس العدة الديدكتيكية وتقنيات التنشيط، وللمتعلمين الرغبة في التعلم. إنها نظرية تساهم في كسر نمطية فهم النصوص وإفهامها؛ إذ لا يتم إسقاط مفاهيمها على النص، بل يتم استخراجها من النص، وفق ما يخدم العملية التأويلية، على النقيض من بعض المنهجيات التي تسلط مفاهيمها على النصوص، فلا يملك المؤول إلا ليّ عنق النص حتى يستجيب لها.

لا ندعي أننا جئنا بالحل الفيصل لفهم النصوص وإفهامها، وإنما نقدم تصورا لتنزيل هذه النظرية في الحقل التربوي، قابل للتعديل والتطعيم وفق ما يخدم العملية التعليمية التعلمية، وهو الأمر الذي يستدعي أن تتعاوره أقلام المشتغلين بالحقل التربوي خصوصا، وحقل تحليل الخطاب عموما، لاسيما وهو اجتهاد من داخل البيئة العربية، هدفه الخروج من التيه النقدي على حد تعبير عبد العزيز حمودة. والحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه الكريم.

لائحة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث

أ- المصادر

- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، الحنين إلى الأوطان، سلسلة اللغة والأدب، ١، دار الرائد العربي، بيروت/ لبنان، ط. ٢، ١٩٨٢؛
- شباكي عبد الكريم، الطريق إلى اللغة (تقييم ملكات اللسان العربي)، سلسلة في مجال اللغة العربية للناطقين بغيرها، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠١٤؛
- القاسمي علي، مرافئ الحب السبعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب/ لبنان- بيروت، ٢٠١٢؛

ب- المراجع

- أوزي أحمد، المراهق والعلاقات المدرسية؛ منشورات مجلة علوم التربية، عدد ٢٩، الرباط، ط ٣، ٢٠١١؛
- بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت، ومنشورات الاختلاف، بيروت- الجزائر، ٢٠١٠؛
- بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف، دار الأمان، الجزائر- لبنان- الرباط، ٢٠١٣؛
- مفتاح محمد، النص: من القراءة إلى التنظير، شركة النشر والتوزيع-المدارس-، الدار البيضاء، ٢٠٠٠؛
- اليعكوبي البشير، القراءة المنهجية للنص الأدبي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، د.م، ٢٠٠٦؛

ج- الوثائق الوزارية/ الجرائد/ المجلات/ البوابات الإلكترونية

- التوجيهات التربوية والبرامج الخاصة بتدريس اللغة العربية بسلك ت. ث. ت، مديرية المناهج، الرباط، نونبر ٢٠٠٧.
- فرشوخ أحمد: "تدريس الأدب: التصور والممارسة، جريدة الاتحاد الاشتراكي، العدد ٨٤٧٨، ١٠-١١ فبراير ٢٠٠٧.
- دليل المراسل الصحفي، مؤسسة رويتز الخيرية، د.م، ٢٠٠٢.
- كلموني عبد الرحيم: رسالة للمجلس الأعلى للتعليم، منشور بالموقع الإلكتروني:

<http://www.oujdacity.net/national-article-٨٧٠٣٣-ar>

تنزيل المنظور التقابلي في المجال التربوي

د. محمد تايشينت

تقديم:

يروم هذا المقال تسليط الضوء على عمليتي الفهم والإفهام، حيث يعرف الفعل التربوي إشكالات عديدة خصوصا ببقائه رهين منهجيات مربكة، وتصورات متجاوزة لا تراعي مقام المتعلمين، ولا قدراتهم العقلية والمهارية، من هنا قامت هذه المحاولة بغية التساؤل عن جدوى ما يقدم في المؤسسة بخصوص النصوص الأدبية.

لقد انطلق هذا البحث من فرضية اعتبار نظرية التأويل التقابلي مدخلا أساسا لإخراج النص الأدبي من دائرة الاختلال القرائي إلى إطار القراءة المتأنية التي تتوخى الانطلاق من مقابلات النص للوصول للمعنى المبني ذهنيا بشكل تقابلي.

ووقع اختيارنا على جنس القصة كمقترح أجناسي قادر على إخراج درس المؤلفات من الإشكالات التي يخوض فيها، والتي تتراوح بين المعطى الزمني، وإشكالية الإفهام، وذلك لاعتبارات عديدة منها:

- أنه يتميز بعنصر القصر ما يتيح للمتعلم التعامل معه على نحو أمثل؛
- أنه يعرف تنوعا في محكياته، أو قصصه الداخلية ما يجعل استخراج المتون الحكائية أمرا سهلا المنال؛
- أنه يساهم في تغيير تمثيلات المتعلمين حول النص الأدبي، بفضل التشويق الذي تخلقه محكياته.

وقد جاء مقترحنا لدرس المؤلفات مبنيا على فكرة تفعيل المقترح التقابلي في أنشطة القراءة المنهجية لمكون المؤلفات، باحثين من خلال ذلك عن جدوى هذه النظرية في تسهيل القراءة النصية للمتعلمين، من منطلق الاعتماد على

تقابلات النص، الصغرى منها والكبرى، بشكل تدريجي كما يتحقق بناء المعنى بشكل فعال ومنطقي، باعتبار أن نظرية التأويل التقابلي تتيح أدوات إجرائية للاشتغال السليم على النصوص والخطابات. وقد حاولنا مقارنة نص "المكتبة" أحد نصوص المجموعة القصصية "نافذة على الداخل" للكاتب المغربي "أحمد بوزفور" من منظور تقابلي في إطار مقترح لدرس المؤلفات، انسجاما مع خطوات القراءة المنهجية المنصوص عليها في التوجيهات التربوية، لكن مع إدراج التقابلية كمواز منهجي أثبت نجاعته الديداكتيكية، منطلقين من سؤال: أي جدوى لنظرية التأويل التقابلي في المجال التربوي.؟، وذلك بعد الوقوف عند جملة من المفاهيم الأساسية التي لا بد من تبيانها على أساس أن تكون منطلقا توضيحيا لمعالم هذه المقاربة. وأشرنا إلى الأساس النظري للتقابلية ومرجعياتها ومفاهيمها وإجراءاتها الديداكتيكية، قبل أن نخوض في تناول النص القصصي- بالتحليل وفق التصور الذي نحن بصدده. وقد ضم هذا المقال مداخل مفهومية ونظرية، عرضنا من خلالها، لمفاهيم النص والخطاب والتأويل، وتوقفنا عند التوجيهات التربوية ورؤيتها المنهجية لدرس المؤلفات، ثم حاولنا تقديم نظرية التأويل التقابلي بمفاهيمها وإجراءاتها النظرية والديداكتيكية.

وفي المستوى الثاني قدمنا "مقترحا" لدرس المؤلفات، وفيه عملنا على تحليل نص المكتبة من المجموعة الأخيرة لأحمد بوزفور "نافذة على الداخل" بناء على نظرية التأويل التقابلي.

مداخل مفهومية ونظرية

سنحاول في هذا الفصل الوقوف عند جملة من المفاهيم التي ستؤطر اشتغالنا في هذا البحث، وهي:

• مفهوم النص

يعد نواكل خطاب مثبت بالكتابة بحسب بول ريكور، إنه تتال من المكونات اللفظية الحاملة لمعنى، والمستندة إلى مرجعية وسياقات تراثية وتاريخية وأيديولوجية، وفي الوقت نفسه تقويم إرساليته على وعي عميق بالتأسيس لمرجعية إما متماهية أو متجاوزة على نحو جدي. أما المقترح التقابلي فيعد النص "مجموع البنيات الجزئية المتقابلة ظاهريا أو باطنيا، أفقيا وعموديا، وفق أية علاقة تواجهه (وجهها الوجه) قابلة للملاحظة، والوصف أو الافتراض والبناء التأويلي"^(١).

على أن النص لا يقف عند مستوى التحديد التوقيفي، وإنما يتجاوز ذلك إلى الارتباط بخطاب منسجم لا يمكن فك شفراته بعيدا عن قدرة قرائية قادرة على استعادة البناء الذهني الأول للمعنى في ذهن المنتج، باعتبار أن كل كتابة تبقى في حاجة إلى قراءة تتيح لها إمكان التحقق بالتعبير السارترى. من ثم فإن حركية التوليد وحركية التأويل متشابكتان مبدئيا منذ الوهلة الأولى، إلا أن فعل القراءة مشروط بطبيعة الآليات والمسارات والترسيمات التي يضعها القارئ في رحلته القرائية، ما يفترض البحث عن حضور قارئ نموذجي يقول عنه إيكو: "أحتاج لقارئ يكون قد مر بنفس التجربة القرائية التي مررت منها".

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، بيروت، ط ١، ٢٠١٣، ص ٢٠٦.

• مفهوم النص في المعرفة التعليمية

إن النص من حيث هو موضوع للمعرفة العالمة والأكاديمية يخضع في حد ذاته عند تحويله من سياق إنتاجه وتداوله الخاص إلى سياق التعليم والاستعمال المدرسي لنقل ديداكتيكي يتمثل في العمليات الآتية:

_ انتزاع النص من مجاله الطبيعي وإدماجه في مجال يعيد إنتاجه وفق مواصفات وأهداف خاصة.

_ التصرف في بنية النص الأدبي بالحذف أو التطويع لملاءمة وضعيات التعليم وشروطها (العناية بفضائها التدويني، إعادة توزيع الفقرات وتنظيمها، وضع عنوان للمقتطف النصي، إرفاقه أحيانا بصورة أو رسم، إدراج المقتطف وتصنيفه في محور من محاور الوحدات والمجزوءات المقررة...) وغيرها من عمليات التحويل لأغراض تعليمية تعلمية، ومن هنا يمكن اعتبار النص في هذا السياق مجرد مطية لتعليم اللغة عبر النشاط القرائي، وهذا ما يميز المنظور التربوي المدرسي الوظيفي للنص عن المنظور العلمي الأكاديمي، حيث يعتبر أن:

* النص موضوع للتعلم والقراءة؛

* النص حامل لقيم ثقافية وجمالية؛

* النص دعامة ووسيلة تعليمية؛

* النص فضاء لملاحظة اللغة في اشتغالها؛

* النص وثيقة تكشف عن معلومات.

_ ضرورة تغيير علاقة التقبل السلبي للمعلومات والمعارف: يجب أن نولي أهمية لمسألة ما يعرف الآن في الدراسات النقدية بالمعرفة الأدبية، فإلى جانب المعارف النحوية والبلاغية قد تضم القصائد الشعرية، والروايات

تنزيل المنظور التقابلي في المجال التربوي

والمسرحيات كميات واسعة وهائلة من المعارف المتصلة بمجالات متباينة (تاريخية، فلسفية، اجتماعية...).

_ إننا لا نقرأ بالطريقة نفسها مقالا فلسفيا، أو وثيقة تاريخية، أو نصا أدبيا، بمعنى أن النص هو الذي يحدد الطريقة التي يقرأ بها، فالقول إن هذا النص أدبي، أو إنه وثيقة يعني ذلك تحويل نموذج استعماله إلى الحيز الوثائقي، أو إلى الحيز الأدبي (شعرية النص)، فالاعتراف بشعرية النص يعني التأكيد على إمكان إعطائه معنى آخر غير المعنى الوثائقي.

• مفهوم الخطاب

- لغة

أما عن مفهوم الخطاب لغة فقد جاء في لسان العرب: "الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان، وفصل الخطاب: أن يفصل بين الحق والباطل ويميز بين الحكم وضده"^(١).

الخطاب بهذا المعنى عند ابن منظور مرادف للكلام، ويحدث عن طريق المشاركة بين متكلم وسماع، فابن منظور لم يغفل خاصية التفاعل في إنتاج الخطاب.

ويقول الفيروزبادي في القاموس المحيط "الخطب: الشأن، والأمر صغر أو كبر، جمع خطوب وخطب المرأة خطبا وخطبة بكسرهما، واختطبتها وهي خطبه وخطبته وخطيبان وخطيبته وهو خطبها بكسرهن ويضم الثاني جمع أخطاب، وفصل الخطاب بالبينة أو اليمين أو للفقهاء، أو النطق بأما بعد"^(٢).

(١)- ابن منظور، لسان العرب، دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت، ١٩٨٨، ص ٨٥٦.

(٢)- الفيروزآبادي مجد الدين بن محمد، القاموس المحيط، دار الحديث، مصر، ٢٠٠٨، ص ٤٧٨.

نستنتج مما سبق أنه عندما نرجع إلى الجذور اللغوية للفظة الخطاب، نجد معناها يدور حول الكلام بقصد الإبانة، و حول ما يتلفظ به.

- اصطلاحا

عرف معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة الخطاب بأنه: "مجموع التعابير الخاصة التي تتحدد بوظائفها الاجتماعية ومشروعها الإيديولوجي"^(١)، وأورد طه عبد الرحمان تعريفا اصطلاحيا للخطاب فقال: "إن المنطوق به - أي الخطاب - الذي يصلح أن يكون كلاما، هو الذي ينهض بتمام مقتضيات التواصل الواجبة في حق ما يسمى خطابا، إذ حد الخطاب أنه كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا (مخصوصا)^(٢)، أما الكلام فهو ما تتركب من مجموعة متناسقة من المترادفات لها معنى مفيد، والجملة هي الصورة اللفظية الأصغر أو الوحدة الكتابية الدنيا للقول أو للكلام الموضوع للفهم أو الإفهام، وهي تبين أن الصورة الذهنية كانت قد تألفت أجزاءها في ذهن المتكلم الذي سعى في نقلها - حسب قواعد معينة وأساليب شائعة - إلى ذهن السامع، ولا يكون الكلام تاما والجملة مفيدة إلا إذا روعيت فيها شروط خاصة، ومنها ما يعود إلى متطلبات اللغة وقيودها"^(٣).

ومن التعاريف اللسانية للخطاب قول هاريس: "إن الخطاب ملفوظ طويل ومتتالية من الجمل، أو قول بنفست إن الخطاب هو كل لفظ يفترض

(١) - علوش سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص ٨٣.

(٢) - عبد الرحمان طه، اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٨، ص ٢١٥.

(٣) - طحان ريمون، الألسنية العربية، دارالكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٨١، ص ٨٨.

تنزيل المنظور التقابلي في المجال التربوي

متكلما مستمعا، وعند الأول هدف التأثير في الثاني بطريقة ما، وقول هارتمان وستروك إن الخطاب نص محكوم بوحدة كلية واضحة يتألف من صيغ تعبيرية متوالية، تصدر من متحدث فرد يبلغ رسالة ما^(١).

كما يعرف تدوروف الخطاب بأنه " أي منطوق أو فعل كلامي يفترض وجود راوٍ ومستمع، وفي نية الراوي التأثير على المستمع بطريقة ما".^(٢)

أما شولتر فقد عرف الخطاب بأنه " تلك الجوانب التقويمية، والتقديرية، أو الإقناعية، أو البلاغية في نص ما، أي في مقابل الجوانب التي تسمي أو تشخص أو تنقل فقط"^(٣).

نستنتج مما سبق أن الدلالات و المفاهيم الخاصة بالخطاب قد تعددت عند الدراسين بتعدد مجالاتهم و اختصاصاتهم.

• التأويل

ارتبط التأويل في بادئ الأمر بمقارعة النصوص اللاهوتية مركزا في اشتغاله على معضلة تفسير النص اعتمادا على جملة من القواعد والمعايير التي تمثل مسارا لا محيد عن المفسر- عنه. قبل أن يحصل لنفسه دوائر أخرى أكثر اتساعا بدءا مع المفكر الألماني شليرماخر الذي يعود إليه الفضل في نقل المصطلح من دائرة التوظيف الديني إلى أفضية نصية أخرى من بينها النص

(١)- إبراهيم عبد الرحمان، الثقافة العربية والمرجعية المستعارة، مركز الثقافة العربية، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٩، ص ١٠٨.

(٢)- تدوروف تزفطان، اللغة والأدب في الخطاب الأدبي، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي، بيروت، ١٩٩٣، ص ٤٨.

(٣)- شولتر روبرت، السيمياء والتأويل، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي، بيروت، ١٩٩٣، ص ٤٨.

الأدبي، "وهكذا تباعد شليرماخر بالتأويلية بشكل نهائي عن أن تكون في خدمة نص خاص، ووصل بها إلى أن تكون علما بذاتها يؤسس عملية الفهم، وبالتالي عملية التفسير"^(١).

ويقوم تصور شليرماخر على أن النص خاضع لعنصرين أساسيين هما: اللغة من جهة، ونفسية الكاتب من جهة أخرى، وبينهما علاقة ارتباطية، بحيث يحضر- الثاني عبر الأول، من ثم يشترط أن يمتلك القارئ موهبتين: الموهبة اللغوية، وموهبة قراءة الدواخل النفسية الإنسانية، ولا يمكن للموهبتين أن تستغني إحداهما عن الأخرى.

وإذا كان شليرماخر يمثل التصور الكلاسيكي للهرمينوطيقا، فإنه كان الممهد الفعلي لمن تلاه من التأويليين الذين منهم دلثاي وكادامير.

أما أمبرطو إيكوفيرى أن فعل القراءة يقوم على أساس تنشيط النص بتشغيل الكفاءة الموسوعية، ومراقبة أمكنة التعثرات الحدسية في القراءة الخطية، وبناء سلسلة المرجعيات الممكنة بحسب شبكة العلاقات العاملة الموجهة لحُدس القارئ، وتخميناته في حركة دائبة بين معطيات الكتابة وإمكانات القراءة، وبما أن النص بحسب تعريف إيكو هو آلة كسولة تحتاج إلى قارئ نموذجي يفعل في "التوليد مثلما فعل الكاتب في البناء والتكوين، ويكون قادرا على تحيين النص بالطريقة التي كان يفكر بها الكاتب"^(٢) فإنه يطرح ثلاثة مفاهيم هي: الموسوعة، الطوبيك، والعالم الممكن:

(١)- أبو زيد ناصر حامد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، وبيروت، ط٨، ٢٠٠٨، ص ٢٠.

(٢)- خرماس محمد، فعل القراءة وإشكالية التلقي، مجلة علامات، ع ١٠٠، ١٩٩٨، ص ٥٤.

١- الموسوعة

صاغ إيكو هذا المفهوم كشرط أساسي في عملية التأويل، والموسوعة "هي الرصيد اللغوي والمعرفي والثقافي، الذي يفترضه النص ويستحضره القارئ كي يستطيع المواجهة بين التماثل الخطي لذلك النص وبين بنياته اللسانية، وبدون كفاءة موسوعية لا يمكن التعاون مع النص أو مساعدته على إنجاز مبعغياته، ولا يمكن للقارئ أن يكون هو ذلك المشارك الفعال الذي يملأ الفراغات ويحمل المتناقضات، ويستخلص المقولات"^(١).

إن مفهوم الموسوعة يفترض أن يكون القارئ النموذجي عالماً بمختلفات الثقافة وبالاستعمالات الخاصة للغة والمواصفات الثقافية والاجتماعية التي أنتجتها، وبالقرارات السابقة ومساراتها، "وعلى هذا الأساس فإن أي فعل للقراءة هو تفاعل مركب بين أهلية القارئ (معرفة الكون الذي يتحرك داخله القارئ) وبين الأهلية التي يستدعيها النص لكي يقرأ قراءة اقتصادية"^(٢).

٢- الطويك

هو ترسيمة أولية للقراءة، يستعين بها القارئ للدخول إلى عالم النص، إنه فرضية للقراءة، فهو كما يقول سعيد بنكراد أداة سابقة على النص، أو هو ترسيمة من عند القارئ، ويمكن القول إن الطويك نقطة إرساء بدئية داخل مسار تأويلي، فكل قراءة تمر من تصور أولي - بشكل حدسي في غالب الأحيان - للمعنى من أجل تحيين مجموع الإمكانيات الدلالية أو بعض منها،

(١) - السراج عبد العزيز، انفتاح النص وحدود التأويل: أمبرتو إيكو نموذجاً، مجلة فكر ونقد، عدد ٦٧، ص ٨٦.

(٢) - إيكو أمبرتو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٠، ص ٨٠.

ويكمن موقع الطوبيك من هذا التحين أساسا في محاولة محاصرة شظايا المعنى المتولدة عن الانفجارات الأولى وهو يستخدم من أجل ضبط السيميوزيس من خلال تقليصها، ومن أجل توجيه التحينات"^(١)

ومن هذا المنطلق يغدو الطوبيك تصورا أوليا وحدسيا للمعنى، فهو يرسم خطاطة تحتوي على افتراضات مسبقة حول المعنى.

٣- العالم الممكن

قد يتداخل مفهوم العالم الممكن مع الطوبيك في كونها تخميننا حول المعنى، إلا أن الطوبيك متعلق بالطريقة التي سيدخل بها القارئ غمار النص، أي المداخل الأساس التي يضعها كخطاطة توجه مسار القراءة وتقيها شر التعدد والتأويل غير المبرر، أما العالم الممكن فهو الافتراض الأساس حول المعنى الممكن، أو تخيل للعالم الافتراضي الذي يمكن أن يستوعبه النص. ويكون العالم الممكن وفق هذا ضروريا لأي فعل قرائي، لأنه الموجه الحاسم للكائنات النصية ومسارات المعنى.

أما بخصوص رواد نظرية التلقي فإن "هانس روبرياوس" قد استفاد من تيارات معرفية عديدة جعلته يربط فعل القراءة بالتفاعل بين القارئ والنص، وذلك بناء على المسافة الجمالية بين عالم النص وعالم القراءة، ومن خلال تشغيل مفاهيم الشعرية والإدراكية والتطهيرية، وما إلى ذلك"^(٢).

(١)- بنكراد سعيد، النص السردي نحو سيميائيات للإيديولوجيا، دار الأمان، ط١، ١٩٩٦، ص١٠٣.

(٢)- خرماش محمد، النص الأدبي وإشكالية القراءة والتأويل، مجلة فكر ونقد، ع ٦٧، ٢٠٠٥، ص٥٠.

وركز ياوس على ثلاث مراحل لتأويل النص الأدبي، وهي:

١- القراءة الجمالية، وفيها تبنى القراءة الانطباعية، والفهم الأولي للنص؛

٢- القراءة التأويلية: وفيها يبرز القارئ الأفق السابق عن طريق بناء المعاني الممكنة؛

٣- القراءة التاريخية: ويعيد القارئ فيها بناء أفق انتظار القراء الأوائل ومراجعة آفاق القراء المتعاقبين.

ويوظف فولغمانغ إيزر أيضا مفاهيم قرائية مثل "سجل النص" واستراتيجيته، ومواقع اللاتحديد فيه، وبناء الإطار المرجع المشترك، وذلك من خلال القراءة التعاقبية أو الوعي المتتالي الذي تتم فيه عملية تجميع المعنى الكلي للنص ووضع أساس لفهمه وتقبله"^(١)

درس المؤلفات من خلال التوجيهات الرسمية

تقوم التوجيهات الرسمية على المستوى المعرفي والمنهجي على مقترحات (فيالا وشميت) في كتابها «Savoir-lire» (معرفة القراءة). أما على المستوى الديدكتيكي فتبني هذه المقترحات على القراءات الثلاث: التوجيهية والتحليلية والتركيبية.

وتتوخى المرحلة التوجيهية قراءة المؤلف من الناحية الداخلية والخارجية ووضع فرضيات للقراءة، بينما تستدعي المرحلة التحليلية فهمه وإدراك العلاقات بين عناصره بنيويا وما ينظمها. أما المرحلة التركيبية فتهدف إلى إكساب المتعلم القدرة على الربط والاستدلال والبرهنة والحكم.

(١)- خرماش محمد، النص الأدبي وإشكالية القراءة والتأويل، مجلة فكر ونقد، ع ٦٧، ٢٠٠٥، ص ٥٠.

وإذا كانت المرحلة الأولى تعتمد القراءة المناسبة، فإن المرحلة الثانية عبارة عن قراءة بنيوية تركز على القصة والخطاب، بينما تهدف الثالثة إلى تقويم العمل من خلال جوانب الفهم والتفسير. وتعتمد الوزارة في توجيهاتها المنظورات الستة لشميت و فيالا على الشكل الآتي:

١- الحدث: ويتم الاشتغال فيه على استخراج أحداث النص الرئيسة والفرعية وسياقاتها الحكائية، بمعنى الإحاطة بالمحكي من زاوية الحدث.
٢- القوى الفاعلة: وهي مجموع الفواعل التي تسهم في جريان الأحداث وتؤثر في مجراها بشكل أو بآخر، وهي في الغالب لا تكون آدمية فقط، وإنما جميع العوامل التي تؤدي فعلا داخل الحكاية سواء كانت شخوصا أو حيوانات أو جمادات أو افكارا أو أحاسيسا...

٣- البعد النفسي: وفيه يتم العمل على ملاحقة أبعاد النص الداخلية من خلال الوقوف عند نفسيات شخصياته كلها أو إحداها، واستخراج الحقل العاطفي والتهيآت السيكولوجية في النص، إضافة إلى العلاقات العاطفية بين الشخصيات...

٤- البعد الاجتماعي: يتم الاشتغال هنا على المقاربة السوسولوجية، من خلال الوقوف عند الظواهر الاجتماعية التي يحملها النص، والعلاقات الاجتماعية بين شخصياته، إضافة إلى الفئات الاجتماعية التي تصنف إليها شخصياته...

٥- البنية: وفي هذا المقام يتم تقطيع النص إلى متوالياته السردية، وتحديد خطاطته السردية...

٦- الأسلوب: وركز هنا على البنية اللغوية و اللسانية والفنية (البلاغية)، ورصد علاقات التلقي مع الانكباب على العرض السردي وطرائق أسلبته سواء أكانت مباشرة أم غير مباشرة، ودراسة الصور البلاغية والروائية، و التعرف على رؤية العالم أو الموقف من الوجود.

وتستهدف هذه التوجيهات من تدريس مادة المؤلفات تنمية الكفايات التواصلية والمنهجية والثقافية، وغرس القيم الإنسانية النبيلة، والعمل على تحقيق المواطنة الصالحة وتنمية المواقف الوجدانية وترقيتها إيجابيا. وتستند معايير اختيار هذه المؤلفات بحسب التوجيهات الرسمية إلى أسباب فنية وتربوية ديداكتيكية و عوامل سوسيوثقافية للمتعلم. ونشير إلى أن هذه المنهجية خاصة بالمؤلف السردي أما المؤلفات النقدية فيتم إقراؤها بمنهجية مختلفة.

نظرية التأويل التقابلي

"التأويل التقابلي إجراء قرائي في تمثل المعاني، وإدراك العلاقات في ما بينها، بما يسمح بأحسن فهم، ويتم العمل به بين بنيتين متماثلتين أو مخالفتين دلاليا، وهو أوسع وأشمل من التضاد والمقابلة والترادف المعروفة في مجال البلاغة"^(١).

إن التأويل التقابلي يسعى لملاحقة المعنى الأولي باعتبار أن منتج النص يحول العالم القائم أصلا على جملة من التقابلات إلى عالم من المعاني المتقابلة بحسب إمكانات التعبير ومقاصد التأليف.

وإذا كان الفعل التأويلي المستند إلى التقابلات يبحث في مسارات تشكل المعنى عبر تتبع التقابلات التي يتكون منها، فإن المعنى المراد " ليس تجسيدا

(١)- بازي محمد، التأويلية العربية (نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١٠، ص ٢٢١.

لحالة أو موقف واحد مما قصد القاصد (المنتج)، أي إجلاء للخفي، وكشفا للمستور، وزرعا لألوان من الهدنة مع النص ومنتجه، وإنما جملة حالات تظهر من خلال التجليات الخطابية وأنساقها، ولغتها وأسلوبها"^(١).

إن العمل بالتقابل كان حاضرا في الثقافة العربية سابقا، لكن صوغه كنظرية لم يكن هاجس القدماء، وهذا ما دفع بمحمد بازي إلى وضع أسس علمية لنظرية في التأويل هي نظرية التأويل التقابلي، ليخرج بعد ذلك بهذا التصور من حيز الاشتغال الساذج، إلى الوعي النظري العميق، فالقدماء كان همهم الأساس هو صناعة الأدب، في حين انصب اهتمام بازي على صناعة التأويل، منطلقا من تساؤل هو: ما الذي يحقق لدى المتلقي تأويلا بليغا كما تحققت لصاحب النص بلاغة إنتاجية؟

يقول بازي: "إن التقابل في تصورنا، هو محاذاة المعاني بعضها ببعض، والتقريب بينها في الحيز الذهني والتأويلي لإحداث تجاوب ما، أو تفاعل معرفي، وإضاءة بعضها للآخر، وهو خاصية تواصلية وإدراكية، فالأمور نفهم وتمثل بشكل أفضل بعرضها على مقابلاتها، بل إن الحياة مبنية على أساس تقابلي: تخالفي أو توافقي أو نقيضي، فما في الوجود شيء إلا وفيه ما يقابله"^(٢)

إن بناء المعنى وفق التصور التقابلي خاضع لاشتغال الدوائر النصية الصغرى، أي بنيات النص الداخلية من تراكيب وكلمات وأصوات وعلامات سيميائية، والدوائر السياقية الكبرى "التي تفتح بوابات متعددة لدخول كل ما يضيء جانباً معتماً، أو غامضاً في النص موضوع

(١)- بازي محمد، التأويلية العربية (نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط ١، ٢٠١٠، ص ٢٢١.

(٢)- نفسه، ص ٢٢٢.

تنزيل المنظور التقابلي في المجال التربوي

القراءة"^(١). فالتقابل يعمل على الإمساك بما هو نصي، وبما هو خارج نصي، من ثم يشترط في القارئ أن يكون ملماً بمعارف مختلفة كي يستطيع إدراك العلاقات السياقية للنص، وهذا ما سأسير إليه لاحقاً.

وبما أن النظرية تشترط جملة من المبادئ منها الفرضيات والمفاهيم، فإن نظرية التأويل التقابلي تركز على فرضيات منها:

- أن الكون مليء بالتقابلات؛
 - أن النص عالم من التقابلات الظاهرة والخفية؛
 - أن منتج النص يحول العالم المتقابل في تفاعله مع الذات، إلى عالم من المعاني المتقابلة بحسب إمكانات التعبير ومقاصد التأليف؛
 - الاشتغال بالتقابل هو سلوك للطريق التي سلكها المبدع في الإنتاج.
- وتبنى التقابلية على طائفة من المفاهيم نذكر منها:
- _التقابل النقيضي: الطباق.

_التقابل النظيري: ويقصد به ورود كلمتين مترادفتين في معنى داخل بنية واحدة.

_تقابل الإثبات والنفي.

_تقابل التشابه.

_تقابل الفعل والمفعول.

_تقابل التناسب: وهو أن يجمع الكلام أمراً وما يناسبه من نوعه، أو ما

يلائمه من وجه من الوجوه"^(٢)

(١)-بازي محمد، التأويلية العربية (نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١٠، ص٢٢١.

(٢)- نفسه، ص٢٤٦.

_ تقابل التحاور: " ويقصد به حضور حوار في نص، سواء أكان حوارا ذاتيا (المونولوج) أو حوارا ثنائيا أو جماعيا"^(١).

_ تقابل التشاكل: " التشاكل هو تراكم مستوى معين من مستويات الخطاب"^(٢)

التقابلات الموسعة^(٣):

_ تقابل النص موضوع الفهم ونظائره أو أشباهه، من إنتاج مؤلف واحد أو مؤلفين مختلفين.

_ تقابل النص وسياقه التاريخي أو النفسي أو الاجتماعي.

_ تقابلات النسق التواصلي للخطاب.

_ تقابل النص والعنوان.

_ تقابل الفقرات وتقابل الوحدات والمقاطع.

_ التقابل النووي والتقابلات الاستيعابية.

وثمة مفاهيم أخرى عديدة جاءت في كتاب التأويلية العربية، وكذلك في كتاب نظرية التأويل التقابلي.

نظرية التأويل التقابلي وابدائها النظري

لا شك أن أي نظرية لها أسسها المرجعية، وأصولها المعرفية، ونظرية التأويل التقابلي انبنت على تجاوز الأساس الأول للهرمينوطيقا، التي كانت تتخذ من النصوص الدينية مجالا لاشتغالها، قبل أن يخلصها شليرماخر من هذا القمقم الضيق لترتاد آفاقا نصية أخرى، أدبية بالخصوص، جعلت من

(١)- بازي محمد، التأويلية العربية (نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط ١، ٢٠١٠، ص ٢٥٢.

(٢)- نقلا عن المرجع نفسه، ص ٢٥٣.

(٣)- نفسه، ص ٢٦٧.

النصوص الأدبية موضوعا لتناولاتها النقدية. إلا أن مفهوم الخطاب كما طرحه محمد بازي لا يقف عند حدود النص الأدبي، وإنما يشمل كل الخطابات التي تنتجها النصوص باختلاف انتهاءاتها، ومن ثم عاد بنظرية التأويل إلى تناول مجمل الخطابات المتاحة في الساحة العلمية، وبالتالي، العودة إلى النصوص الدينية أيضا.

وقامت نظرية التأويل التقابلي على الرجوع إلى التراث العربي الإسلامي لكونه يحمل إرهابات نظرية للتأويل، منها ما جاء في التأويلية الغربية، ولأنها إرهابات أولية لم تعط في شكل نظرية قائمة الذات فإن محمد بازي جعلها منطلقا لبناء نظرية ذات مرجعية إسلامية، تستند إلى جملة من القوانين المعرفية واللغوية والمنهجية تعد موسوعة أساسية، لا تستقيم القراءة دونها، يقول محمد بازي: "إننا نبحت عن عناصر خفية في النص والخطاب لم تتطرق إليها البلاغة العربية القديمة، لأنها اهتمت بما يلحظ في النص غالبا من بنيات"^(١)

فالتأويل التقابلي يسعى إلى مطاردة المعنى الأولي وفق افتراضات نصية خفية أو جلية، يتم تحديدها استنادا إلى رؤية تأويلية تقسم العالم إلى متقابلات، ليس بمعناها الثنائي بالضرورة، ولكن وفق استراتيجية تراعي تقابل المعطى مع معطيات أخرى داخلية أو خارجية، يتم تحديدها بإعمال القدرة التأويلية للقارئ.

وتركز تأويلية التقابل على فكرة أن المعنى تشكل وفق تصور ذهني تقابلي، ومن ثم فإن ملاحظتنا له بهذا المنطق ستعيدنا إليه، تأسيسا لمعطى أحادية المعنى تجاوزا لما تقربه نظرية التأويل في أساسها الأولي حول تعدد

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، مرجع سابق، ص ٧١.

المعاني، " فإذا كان قصد المؤلف أمرا يصعب تقريره، فإن بعض الأعمال لا تتواصل مع الأجيال المستقبلية إلا إذا تم تجاوز قصدية المؤلف، بمعنى أنها نصوص مطاوعة للقراءة مفتوحة إلى حد ما، لكن بعض النصوص الأخرى، وبالأخص النصوص الدينية والتشريعية يجب أن تبقى في حدود قصديتها الأولى، فهي أبدية غير متغيرة، مثل قوله تعالى (للمذكر مثل حظ الأنثيين)"^(١).

وإذا كانت نظرية التأويل تقوم على ملاحظة المعنى بناء على لحظات ثلاث حددتها فلسفة الهيرمينوطيقا في: الفهم والتفسير والتطبيق، فإن التقابلية لا تطرح التجاوز بمفهوم "المابعد"، وإنما بمفهوم "البعديّة"، إنها تطوير للآليات داخل براديجم واحد، وليست تجاوزا نسقيا تاما. التجديد الجوهرى الذي يحسب لتأويلية التقابل هو فسحها المجال للنص ليتكلم عوض الإسقاط المباشر للنظرية ومفاهيمها على النص، مثلما نلّفى في نظرية التأويل، استنادا إلى استراتيجية السؤال والجواب التي أقرها كادامير.

أمبرطو إيكو ومحمد بازي: تقابل المشترك

- تلتقى تأويلية بازي مع تأويلية أمبرطو إيكو في المستويات الآتية:

مفهوم الطويك

وهو كما جاء عند إيكو ترسيمة أولية للقراءة، بموجبها تتحدد المسارات القرائية للقارئ، وجوانب الوطاء القرائي. وهي عند بازي قائمة على عنصر-التقابل، فالترسيمة المبدئية إنما هي استعداد لمقاربة المتن النصي-والخطابي داخل إطار متقابل، إيمانا بأن النص إنما بني على مدار متواجه في إحدائياته كلها.

(١)- نفسه، ص ٥١.

العالم الممكن

يستهدف الإجراء التقابلي تتبع المعنى وفق خطاطة تقابلية، باعتبار أن المعنى تشكل بشكل متقابل، وأن البنيات النصية إنما انسجمت وفق هذا التصور، من ثم فإن طبيعة التعقب المعنوي موقوفة على اكتشاف هذه البنيات التقابلية للوصول إلى المعنى الأصلي المبني في ذهن المتكلم، فإيكون يتحدث عن العالم الممكن باعتباره مساعدا في الحد من لا تناهي التأويلات الذي قد يخرج بالمعنى عن دائرة المقبول إلى دوائر أخرى خاطئة، باعتبار أن التأويل له حدود معينة لا يصلح أن يتجاوزها كما يقر بذلك في كتابه "حدود التأويل"، وهذا السعي يتماهى مع سعي التقابلية إلى الرجوع بالمعنى إلى أصله الأول، هذا المعنى الذي بني أساسا وفق رؤية تقابلية.

الموسوعة

يشترط في تأويلية إيكون أن يكون القارئ ملما بطائفة من المعارف والمهارات والثقافات المختلفة التي بموجبها يستطيع التواصل مع النص بشكل فعال، خصوصا وأن إيكون يشترط أن يكون القارئ نموذجا مالكا لذخيرة معرفية وأسلوبية تمكنه من الارتقاء إلى مقام النموذجية. ويشترط فيه أيضا أن يكون عارفا بمسارات القراءة التي مر منها الكاتب في تجربته القرائية.

ويقوم النموذج التقابلي على فكرة أن يكون القارئ ذا موسوعة مهمة تجمع بين معارف في البلاغة واللغة والثقافة، على أساس أن يكون تحديد التقابلات خاضعا لمبدأ العلمية، فلا يمكن أن نقف على التقابلات المضمره التي لا تتاح إلا في الحقل البلاغي، من ثم نستطيع أن نقول إن مفهوم الموسوعة حاضر بقوة في تأويلية محمد بازي وإن كان بصور مختلفة.

التشارك النصي

لا بد لأي قارئ أن يحتك بالنص المقروء كيما تكون قراءته مبنية على قرائن نصية يتم تأويلها وفق الدلالات المضمرة خلفها، والثاوية وراء مجازاتها وصورها غير الحقيقية، من ثم تفرض القراءة التأويلية السلمية للنص الأدبي أن يتشارك القارئ مع النص عبر السؤال والجواب. وفي نظرية التأويل التقابلي يشترط أن يكون التشارك مبنيا على تصور تقابلي مبدئيا فيكون البحث إذاك على التقابلات التي يتيحها النص إما بشكل ظاهر أو بشكل مضمّر، وذلك من خلال تقنية السؤال والجواب التي عمل بها كادامير وياوس، لأن الوصول إلى جل التقابلات المتاحة يعني الإمساك بأطراف الدلالة، وبالتالي الوصول إلى المعنى.

نظرية التأويل التقابلي وسؤال الجدوى الديدانكتيكية

إن إشكال الفهم يظل مطروحا في سياق إقراء النصوص الأدبية، وهذا راجع إلى طائفة من المعطيات، منها ماله علاقة بأداء الدرس، ومنها ما هو راجع إلى طبيعة النصوص، وأخرى إلى المتعلم وقدراته التأويلية، ثم إلى التوجيهات والبرامج الرسمية التي تجعل مرحلة الفهم سابقة على مرحلة التحليل، ما يؤثر سلبا في تأويل النص والوصول إلى معنى مقبول، خصوصا إذا ما اعتبرنا أن عمليات التحليل لا دور لها سوى الإسهام في تفكيك النص وتشرّجه للوصول إلى المعاني الخفية التي تحملها المجازات والأساليب اللغوية. لذلك فإن الطرح التقابلي يستدعي بالضرورة الانطلاق من إجراءات التحليل قبل الفهم، لأنه ينبنى على تفكيك العناصر اللغوية والبلاغية المبنية أساسا على مبدأ التقابلات، وعبر هذه التقابلات يتم الإمساك بالمعاني الظاهرة والخفية التي يتيحها النص، فنظرية التأويل التقابلي لا تقف عند حدود التنظير العالم كآلية نخبوية، بل إن مسعاها "ليطمح - أكثر من

تنزيل المنظور التقابلي في المجال التربوي

ذلك - إلى خلق أدوات مبسطة للمتعلمين لمعالجة أنماط نصية مختلفة، والتمكن من خلق لحظة استمتاع بتحليل النصوص وتفهمها عبر معالجة تقابلاتها، وعواملها المتقابلة"^(١).

إن اشتراط محمد بازي ضرورة توفر القارئ على موسوعة لغوية وبلاغية كيما يقبل على النصوص والخطابات بشكل مريح، لم يأت من فراغ، بل من رؤية عميقة بأهمية مقابلة العناصر في ما بينها من جهة، والكشف عن متقابلات النصوص من جهة أخرى للوصول إلى المعنى الأصلي الذي تكوّن في ذهن المنتج. من هنا نستطيع القول، بكل اطمئنان، إن نظرية التأويل التقابلي تتيح إمكانية بناء مفهوم منطقية تنبني على عنصر- التدرج وفق عناصرها المتقابلة، وما دام المتعلم هو الطرف المستهدف في النصوص الأدبية بالمدرسة، فإن تجزيء النص إلى متقابلات على المستوى اللغوي، أو البلاغي، أو السياقي، لا شك أنه سيزيل كثيرا من الضبابية التي تكتسي- النصوص الأدبية في الغالب.

هذا بخصوص مكون النصوص، أما مكون المؤلفات، فإنه يطرح جملة من الإشكالات إذا ما أردنا أن نستعين بالتقابلية في تناول نصوصه، منها ما يفرضه حجم المؤلفات من عوائق إما نفسية، أو زمنية، أو منهجية، ومنها ما له علاقة بالإجراء المنهجي الذي يعتمد في مقاربة هذه النصوص، وهو المنظورات الست، والتي تنبني على التكامل بين جملة من المناهج، بنيوية، وسميائية، واجتماعية، ونفسية، ما يجعلنا نحتاط من أي مقترح قد تقدمه بهذا الصدد.

(١)-بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، مرجع سابق،

ومن هنا فإن إقحام التقابلية في تناول المؤلفات كمنهج وحيد يفرض علينا توفير حيز زمني كبير لا يمكن تحقيقه بالبت وبالمطلق. لأن الاشتغال بالإجراء التقابلي يستدعي مباشرة النصوص بشكل جزئي، وتدرجي، بالوقوف على بنيتها اللغوية والبلاغية. وبما أن هذا الأمر مستبعد فإن الممكن هو أن يتم اعتماد التقابلية بشكل متواز مع المناهج الأخرى، على غرار ما سنقوم به في الشق التطبيقي، بمعنى أن ندرج نظرية التأويل التقابلي إلى جانب البنيوية في البنية والأسلوب، والسيماوية في القوى الفاعلة، والمنهج الاجتماعي في البعد الاجتماعي، والمنهج النفسي في البعد النفسي.

أما إذا أردنا توخي المنطق العلمي فإن التأويل التقابلي يجب أن يدرج ضمن المتن الحكائي، لاسيما أنه يسعى إلى بناء المعنى، ثم إن هذه العتبة لا تخضع لمنهج معين، بقدر ما هي مطروحة للقدرات القرائية للمدرسين والمتعلمين، من ثم تغدو التقابلية إجراء ناجعا في هذه العتبة. لتضاف بذلك نظرية التأويل التقابلي إلى حزمة المناهج الموظفة لقراءة المؤلفات في إطار المنظورات الست.

مقترح لدرس المؤلفات

سنعمل على تحليل قصة "المكتبة"، المأخوذة من المجموعة القصصية "نافذة على الداخل" لأحمد بوزفور، من خلال القراءة المنهجية لدرس المؤلفات المعتمدة منهجية المنظورات الست التي طرحها كل من "فيالا وشميت" من أجل تناول النصوص السردية في المؤسسة التعليمية.

• نص الانطلاق

المكتبة

"كلكم طالب صيد

غير عمرو بن عبيد

قالها أبو جعفر المنصور لأفراد حاشيته و هو ينظر إلى الشيخ الزاهد عمرو بن عبيد، ينصرف رافع الرأس من مجلسه بعد أن نصح الخليفة ورفض عطاياه".
...وأغلقت الكتاب. المفروض أن أقرأ الكتاب في مكتبة الثانوية، لكن المحافظ كان قد سمح لي بأخذ الكتاب معي إلى البيت، لأخلي له المكتبة.
كتاب غريب. حين قرأته لأول مرة، كان يحكي قصة السندباد. وأعدت قراءته في الغد فوجدته يتحدث عن قصص الأنبياء، ثم وجدته في اليوم التالي يستعرض سيرة الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور. كتاب سحري يتجدد كل صباح ربما لذلك كان عنوانه الذي لا يتغير أبدا هو "المكتبة" لم يكن الأستاذ المحافظ يعرف هذا الكتاب، و لا أي كتاب آخر في مكتبته كان يهتم فقط بإخلاء المكتبة من عشاق القراءة أمثالي، ليدخل إليها عملاءه من التلاميذ الذين يوزع عليهم الهدايا و العمولات والذين يأتمرون بأمره في شن الحملات ضد الأساتذة النزهاء ثم يدخل إليها سلعته البضة من التلميذات اللاتي يوزعهن على أسياده المتصايين في العمالة والبلدية والمحكمة والكوميسارية والشركات. الأستاذ المحافظ كان معروفا على الصعيد الاجتماعي في المدينة كلها، لأنه كان يمارس السياسة، إذا فهمنا السياسة بمعنى قضاء الحاجات، أو تقديم الأجيال الصاعدة قربانا على مذبح الحاجات والمصالح.
على أي حال، لم يكن ذلك يهمني أنا. ما كان يهمني في الدرجة الأولى هو أن يسمح لي بالقراءة في المكتبة. لكنه لم يعد يطيقني. في الحقيقة أنا الذي لم أعد أطيعه. أخذت أعبئ كل من أعرف ضده. وكأنني كنت أعبئ رمل مرزوقة في غربال. خانتني الثقوب التي لا أراها، وانفض من حولي أصدقائي التلاميذ، و الشرفاء من الأساتذة والمعيدين، وحتى الآباء و الأمهات كأنما كان المحافظ يسحر لهم عند فقيه سوسي... فساسوني. بقيت وحدي أصرخ في البرية كنبي من أنبياء بني إسرائيل.

و حين عزلني، لفق لي تهمة سرقة الكتب، والتحرش بالتلميذات (رمتني بدائها). و انعقد مجلس تأديبي من ألام المحافظ، و قرر طردي من الثانوية. كأنهم - يخالون - طردوني من الجنة. لم تكن إلا مستنقع أسن موبوءا خرجت منه إلى الدنيا: مكتبة الله الكبرى، حيث في كل زاوية محافظ ومنتزهون وضحايا، حيث في كل ركن واحد مثلي يحتج و يضطهد ويطرد، و حيث لكل حيث حيثياتها المحايثة.

لم أكن ارتاح إلا و أنا أفتح كتاب المكتبة، فأجد في كل مرة عالما جديدا. كتاب لا يقرأ مرتين... كالموت. (لا أعرف يقينا أشبه بالشك ولا شك أشبه باليقين من الموت) يقول الحسن البصري في أحد تناسخات الكتاب. أما أنا فلم أعرف يقينا أشبه بالشك ولا شكاً أشبه باليقين من هذا الكتاب. لذلك هربت منه رميته في صندوق خشبي بين المهملات، خرجت إلى الدنيا حيث كان لي في كل يوم كتاب أكتبه بجسدي، وأنا أصارع الأخطبوط من أجل لقمة عيش.

ابتلعني الدنيا و غبت عن نفسي زمنا طويلا. لم أنتبه إلا البارحة... حين رأيتها في الشارع فجأة لم تتغير كثيرا باستثناء أنها أصبحت أجمل... وأغنى... وربما أجمد... كالمرسديس التي خرجت منها ولم تعرفني. هل تغيرت إلى هذا الحد؟ أما أنا فعرفتها: التلميذة التي عشقتها في الثانوية والتي طردوني من أجلها، لأن رفضت أن يتاجروا بجسدها في سوق (المكتبة). لم تعرفني... أما أنا، فعدت إلى البيت، وفتحت الصندوق الخشبي، ورفضت الغبار عن الكتاب... وأخذت أقرأ... الغريب أني وجدته هذه المرة يتحدث عن نفس السيرة القديمة التي قرأتها فيه ذات يوم: سيرة أبي جعفر المنصور، ووجدتها تنتهي بنفس النهاية:

الخليفة ينظر إلى ظهر الزاهد المنصرف، ويقول لأفراد حاشيته:

"كلكم طالب صيد حتى عمرو بن عبيد

كلكم طالب صيد حتى عمرو بن عبيد".

عناصر الدرس:

القراءة التوجيهية

- عتبة العنوان

يرسم العنوان منطلقات الفهم من خلال بناء تقابلي ينطلق من بنيات لغوية دالة متقابلة مبدئيًا في شكلها البسيط، حيث تتقابل النافذة كمرجع لغوي محيل على الإطلالة التي تكون عادة من الداخل إلى الخارج، مع الشق الثاني من العنوان الذي يحطم الاعتبار الأول، من منطلق أن النافذة جاءت مقرونة بالداخل، من ثم تغدو الإطلالة معكوسة من الخارج إلى الداخل، وقلنا الإطلالة اعتمادًا على حرف الجر على، الذي يحيل على النظر وليس على الحركة في تقابل ضمنى مع الجر "إلى"، وبذلك يغدو الفهم المطروح مؤسسًا على مبدأ ذاتي محض، نفسي بالأساس، يحدد معطى النظر إلى الداخل النفسي- بما يعتره من إشكالات فكرية وتأملية وسردية في آخر المطاف، في تقابل مطروح مع عنصر النفاذ المرتبط بالحركة، وإن كانا يشتركان في أفقهما الإدراكي الذي يبينه التأويل، إلا أن النفاذ يستدعي الخروج والهروب من الواقع الخارجي بشكل نهائي من أجل معانقة كلية لواقع الداخل، وهذا ما لا نجده في العنوان الذي يبقى الارتباط بالخارج مطروحًا ويفسح المجال لتزكينة بمعطيات الداخل تقويمًا له أو توجيهًا أو تعديلًا حتى.

أما في المستوى العميق الذي يطرحه عنوان المجموعة فيفرض تفكيكا دلاليًا لعناصره المجازية القائمة في البنية السطحية للوصول إلى مضموراته الكامنة أساسًا في بنيته العميقة مرورًا بتقابلات جسرية نحددها في الآتي:

- نافذة: وسيلة للإطلالة، وسيلة للعبور، وسيلة للتهوية، وسيلة

للنظر، مدخل، مخرج

- على: إلى، النفاذ، الإطلالة، الوضع الفوقي...
 - الداخِل: داخل البيت، النفسية الداخلية، داخل المجتمع، الذات الفردية، الذات الجماعية...
- فالعنوان إذن مركب مجازي يتيح طائفة من المعاني الكامنة وراء تفكيك عناصره وتحليصها من المجاز، لتتوصل في النهاية إلى أنه يحيل على الإطلالة على الداخِل النفسي في محاولة للبحث عن مصوبات للعالم الخارجي.
- عتبة التجنيس

حين يطرح إشكال التجنيس يتم التمييز عادة في الأعمال الأدبية بين أجناس معروفة هي الشعر، الرواية، المسرح، القصة...، وبين هذه الأجناس متوازيات ومشاركات، وإذا قابلنا هذا المؤلف الذي بين أيدينا مع هذه الأجناس سنلفي أن له متقاطعات مع بعضها، حيث يحضر- عنصر- السرد في تقابل مع الرواية والقصة، ويحضر- عنصر- الشعرية في تقابل مع الشعر، ويحضر- الحوار في تقابل مع المسرح، لكن الجنس الأقرب الذي نستطيع أن ندخل هذا المؤلف في دائرته بارتياح هو جنس القصة، لجملة من الاعتبارات منها:

- أن النصوص التي يحملها المؤلف تتميز بالقصر.
- أن ثمة إثباتات للكلمة قصص على غلافه.
- أن أحمد بوزفور معروف بكتاباتة في القصة.

بيد أن ثمة إشكالا مطروحا هو أن طبيعة بعض النصوص داخل المؤلف تخرج عن إطار القصة المعروفة، حيث نلفي نصوصا قصيرة جدا لا تتجاوز الفقرة الواحدة، ونصوصا يغيب فيها عنصر- السرد تماما، ما يجعلنا نتساءل عن طبيعة الاسم المناسب لها، صحيح أننا مجبرون على الخضوع لتوجيه الغلاف المورد لكلمة "قصص" إلا أنه من الواجب الإشارة إلى تقابل رئيس بين

قصص بمعناها الطبيعي، والقصص القصيرة الموسومة بطابع القصر - على مستوى الطول، والتكثيف على مستوى المجربات والحمولات الفكرية والأيدولوجية.

- عتبة الغلاف

يطغى اللون الأزرق على الغلاف والذي يوحي بطائفة من الدلالات التي تتقابل عادة في اشتراكها في هذا اللون، السماء/ البحر/ البرودة/ الحلم/ الصفاء... وإذا قبلنا بين هذه الرمزيات ونقائضها نستطيع الوصول إلى المعنى الكامن خلف هذا العنوان:

- السماء/ الأرض...

- البحر/ اليابسة...

- الحلم/ الواقع...

- الصفاء/ الضبابية/ عدم الوضوح...

وبناء على هذه التقابلات نخلص إلى أن الأزرق دال على معطيات الداخلة التي ترتبط غالباً بالحلم، والوضوح، والتطلع إلى آفاق عليا، والشجاعة... ويتقابل الأزرق مع اللون الأسود الذي كتبت به العناوين، وهو لون يحيل عادة على الغموض والظلام، والكراهية، ويبدو أن هذه الصفات تتقابل بشكل متناقض مع الدلالات التي أشرنا إليها بخصوص اللون الأزرق، ما يدل على أن ثمة صراعا بين الداخل والخارج، بين تطلعات الفرد وبين الواقع المتأزم، وهذا مطروح أصلا في العنوان، حيث العودة إلى الداخل من أجل تصويب الواقع الخارجي.

وتحضر في الغلاف أيضا صورة لطفل صغير يطل من منفذ مفتوح من غرفة إلى هو البيت، وفي يده كسرة خبز، ويبدو من خلال الصورة أن الطفل

يراقب الخارج من الداخل، يتأمله، دون أن تكون ثمة إحالة على حركة ما نحو هذا الخارج المتأزم الذي يدل عليه شكل المنفذ المشابه للخراب، إضافة إلى أن الصورة يتقابل فيها اللونان الأبيض والأسود اللذان يحيلان بشكل متناقض على الأمل والتأزم.

نستطيع من خلال كل هذه التقابلات التي أتاحتها الغلاف تركية ما تم التوصل إليه بخصوص العنوان، إن ثمة تقابلاً صريحاً بين واقع خارجي مخرب ومدمر، ومتأزم، وبين داخل متطلع للتغيير، صاف، واضح...

القراءة التحليلية:

تنبني القراءة التحليلية على تتبع المنظورات الست على الشكل الآتي:

١- تتبع الحدث

إن المسار الذي سيخوضه تقصي الحدث داخل هذه النصوص يجب أن يخضع لضابط التقابل على أساس أن تحديد تقابلات النص سيفضي بنا إلى الوصول إلى المعنى الكامن في مضمراته، وبناء على هذا نستطيع إجمال التقابلات النصية في هذه النصوص على الشكل الآتي:

- تقابل النصوص: يجمع هذا النص بين نصين، نص تراثي يصادفه الراوي- الشخصية ضمن كتاب قديم معنون بالمكتبة، يتحدث عن عمرو بن عبيد، وشهادة الخليفة أبي جعفر المنصور حوله بقوله: "كلكم طالب صيد غير عمر بن عبيد"، والنص الرئيسي- الذي يحكي قصة الراوي- الشخصية مع الكتاب، ومع المحافظ، وأحداث أخرى.

- تقابل المعاني: يصادف الراوي- الشخص، عند كل قراءة لكتاب "المكتبة" تغيراً في معانيه، ففي البداية كان يحكي عن قصة السندباد ثم عن قصص الأنبياء ثم سيرة الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور.

- تقابل الأمكنة: تحضر في النص ثلاثة أمكنة رئيسة متقابلة في ما بينها:
*المكتبة: مكان القراءة داخل المؤسسة، إنه المكان المفتوح بالنسبة للراوي - الشخصية، حيث يجد ضالته وراحته.
*المؤسسة: حيث التناقضات والممارسات غير الأخلاقية التي جعلت الراوي - الشخصية يتموقف منها.
*الشارع: حيث يجد الراوي - الشخصية نفسها بعد طرده من المؤسسة، وحيث سيلتقي تلميذته السابقة، التي كان يخاف عليها من ممارسات المحافظ والأساتذة.

تقابل الشخصيات: تتقابل في هذا النص شخصية الراوي مع شخصية المحافظ، فالراوي - الشخصية كان هاجسه هو القراءة واستغلال المكتبة لأغراض تربوية وثقافية. في حين يأبى المحافظ إلا أن يخلي المكتبة من طالبي المعرفة لكي يستقبل فيها التلميذات اللواتي يرسلهن زبائن لزملائه في وظائف أخرى.

وتقابل شخصية الراوي أيضا مع شخصية التلميذة التي أصبحت غنية وجميلة، في مقابل تأزم الراوي - الشخصية.

تقابل الأسماء والمسميات

جاء اسم المكتبة متعلقا بأمرين اثنين: عنوان الكتاب الذي ظل الراوي - الشخصية يقرأه، والمكان الخاص بالقراءة، وبهذا يتقابل الاسم مع المسمى وإن كانا لا يشتركان في المدلول، إلا أنهما يحملان معنى مشتركا فالكتاب تحدث عن شخصية عمرو بن عبيد الزاهد الذي لم يكن طالب صيد، والمكتبة التي يشتغل فيها محافظ كان همه هو الاستغلال والحصول على المال.

نستطيع، من خلال هذه التقابلات، تلمس المعنى الأساس في هذا النص، حيث تقابل المصائر والأهداف والمصالح. فهذا النص يحكي عن شخصية تحاول أن تخلق عالمها الخاص عن طريق القراءة، وتسعى إلى تصويب جملة من الممارسات داخل المؤسسة التربوية، فإذا كانت المكتبة فضاء للقراءة والمطالعة، فإنها في الوقت نفسه مكان لممارسات أخرى غير أخلاقية، هذا ما يفسر - تشاركها مع الكتاب المقروء في التسمية، لأن الكتاب هو كذلك يظهر بألوان مختلفة عند كل قراءة، من ثم يظهر موقف الراوي - الشخص من الأمكنة والأفعال، موقف الرفض والصراع من أجل التغيير، إلا أن المصير الذي يفرضه الواقع هو الطرد من المؤسسة، ليعطينا صورة عن الواقع الاجتماعي والتربوي في تقابل مع العنوان "نافذة على الداخل"، فهو يبيّن موقفه الداخلي حول ما هو خارجي وملحوظ، ويبقى سلوانه الوحيد في الهروب من هذا الواقع هو الرجوع إلى كتاب المكتبة لتبدأ القصة من جديد لكون الكتاب قدم معناه الأول للمرة الثانية وهو سيرة الخليفة أبي جعفر المنصور.

الحبكة:

يعرض النص مصائر متباينة لشخصياته، ومواقف متشابكة حول قضايا حساسة، فالراوي - الشخصية يخوض مساراً نقدياً وتغييرياً لجملة من الممارسات غير التربوية في مؤسسة تربوية، إنه يقف موقف المعرقل لرغبات المحافظ التي يمارسها داخل المكتبة.

وقد جاء السرد في هذا النص مبنياً وفق خطة دائرية مضمرة، حيث يبدأ بفعل القراءة وينتهي به، ويمكن تجسيد مسارات القصة في هذا النص وفق الحبكة الآتية.

القراءة ← الخروج من المكتبة ← نقد الممارسات غير التربوية بالمؤسسة
الطرد من المؤسسة ← رؤية التلميذة ← العودة إلى القراءة.

الرهان:

يتقابل عادة في أي نص أدبي رهانان مركزيان: رهان القصة ورهان الخطاب.

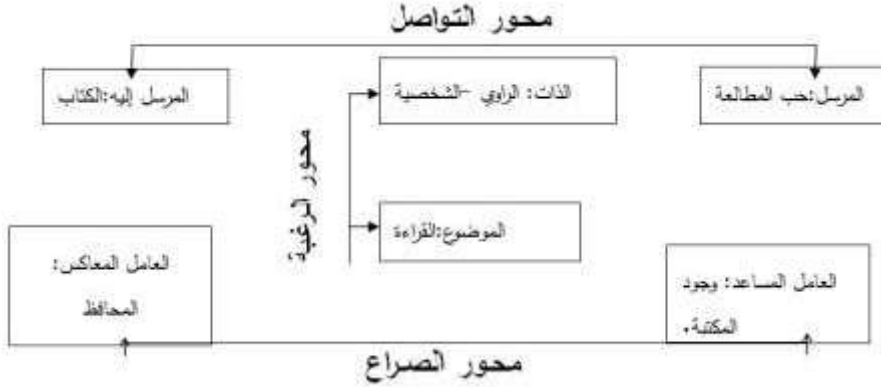
- رهان القصة: يخوض الراوي-الشخص صراعا داخليا/ خارجيا مع جملة من الممارسات داخل المؤسسة التربوية، ومنهبا منعه من القراءة في المكتبة، واستغلال التلاميذ والتلميذات بشكل غير تربوي، ووسيلته في هذا الصراع هي الإبحار حيناً في متن كتاب مشوق هو كتاب المكتبة، والتصريح بالنقد في حين آخر، ما جر عليه قرار الطرد من المؤسسة.

- رهان الخطاب: يرتبط رهان الخطاب برؤية أحمد بوزفور للعالم والمنضوية تحت مقولة العنوان أساسا، فهو يسعى إلى نقد بعض الممارسات الاجتماعية غير الأخلاقية، خصوصا داخل المؤسسات التربوية، هذه الأخيرة التي أضحت وكرا للممارسات شنيعة، إمامن قبل الأساتذة أو من قبل بعض الموظفين الذين شخضهم الكاتب في هذا النص من خلال محافظ المكتبة.

٢- القوى الفاعلة

إن تحديد القوى الفاعلة عنصر- مبني أصلا على التقابل، لأنه يعمل على تبيان مجمل الفواعل التي تسهم في بناء الأحداث من جوانب مختلفة، حيث تتقابل الفواعل الأدمية مع غيرها داخل دائرة التأثير وبناء الفعل الحكائي. ونستطيع بناء على مبدأ التقابل تحديد مجمل القوى الفاعلة في هذا النص على الشكل الآتي:

- * العوامل الأدبية: الراوي - الشخصية، أبو جعفر المنصور، المحافظ، التلميذة التلاميذ، الآباء، الأساتذة، عاملو البلديات والعمالات والمحاكم...
- * الأماكن: المكتبة - الثانوية - الشارع - البيت....
- * الجمادات: الكتاب - سيارة المرسيديس....
- * الأحاسيس: الإعجاب، الرأفة، الحب، الكره، الاحتقار...
- * القيم: الفساد، الاستغلال، الظلم، الثقافة...
- ويمكن التمثيل لفاعلية الراوي-الشخصية من خلال النموذج العملي، والذي صاغه غريهاص وفق مبدأ تقابلي، إن بوعي أو بغير وعي:



٣- الكشف عن البعد النفسي

إن ثمة طائفة من الأحاسيس النفسية المتقابلة تقابل تشابه أو تقارب أو نقيض في بعض الأحيان تسم نفسية الشخصية الرئيسة، ومن هذه الأحاسيس نذكر:

- الاستغراب: خصوصاً عند تحول المعنى في الكتاب المقروء، فهو في كل مرة يصادف حكاية جديدة داخل كتاب المكتبة، وهذا يصيبه بالدهشة ما جعله متعلقاً بالكتاب، كونه يوحى دائماً بالتجدد والتغير.

- التضايق: إن الراوي- الشخصية لم يكتفم تضايقه من المحافظ وتصرفاته، لأنه يمنعه من القراءة في المكتبة من جهة، ومن جهة أخرى فتصرفاته لا تليق بالمؤسسة التربوية، لذلك فهو يقول في حقه: "لكنه لم يعد يطيقني، في الحقيقة أن الذي لم أعد أطيقه".

وهذا ما دفعه إلى تعبئة الآخرين ضده، لكن دون فائدة، لأن الجميع تخلوا عنه.

- الخذلان: ولأن الجميع انفض من حول الراوي- الشخصية، فإنه شعر بالخذلان والمرارة، لأنه بقي وحيدا في جهة المعارضة، في حين التحق الجميع بالمحافظ رغم ممارساته المعروفة.

- الألم: لقد تواطأ الجميع ضد الراوي الشخصية، وساهموا في طرده من المؤسسة ما جعله يشعر بالألم والمعاناة، ليس فقط جراء الطرد، ولكن أيضا من جراء الواقع المرير الذي يتخبط فيه المجتمع وهذا ما يدل عليه قوله: "حيث في كل ركن واحد مثلي محتج فيضطهد ويطرد، وحيث لكل حيث حيثياتها المحاثية".

- الارتياح: هذا الإحساس يحضر- لحظة رجوع الراوي- الشخصية إلى الكتاب، "لم أكن أرتاح إلا وأنا أفتح كتاب المكتبة"، لكون الكتاب ينقل صاحبنا من تأزم الواقع إلى عالم القراءة حيث الراحة والسفر مع المعاني والأفكار ومن ثم الركون إلى الدواخل في تقابل استضماري له دلالة العنوان السالفة. أما بخصوص الشخصية الثانية وهي "محافظ المكتبة" نستطيع أن نجمل سماته النفسية في: التبجح بما يفعله لصالح أصدقائه حيث يرسل إليهم التلميذات بغرض الاستغلال، ويتقابل هذا الإحساس بشكل ضمني مع إحساس آخر هو القلق، لأن العادة تفرض أن هذه الممارسات تجعل أصحابها يتوجسون من مصيرهم المحتوم.

التيهات السيكلوجية:

تحضر في النص جملة من التيهات النفسية المتقابلة نذكر منها:

- الراحة: ارتبطت هذه التيمة بشخصيتين في النص، شخصية الراوي لحظة ركونه إلى القراءة والإبحار في عالم الكتاب العجيب، والركون إلى الداخل، هروبا من الواقع الخارجي المتأزم، وبشخصية المحافظ الذي يرتاح بمجرد أن يخلي المكتبة من القراء، لأنه سيحقق رغباته غير الأخلاقية.
- الكراهية: ارتبطت هذه الموضوعة كذلك بشكل متقابل بشخصية الراوي، الذي يكن الكراهية للمحافظ نظرا لممارساته، وبالمحافظ الذي يبادل الراوي-الشخصية الإحساس نفسه لأنه يقف عائقا أمام تحقيق نزواته.
- الحب: جاءت هذه التيمة في إشارة الراوي - الشخصية للشعور الذي يكنه لتلميذته السابقة، ولا يمكن أن نجزم بطبيعة هذا الحب، أيكون عاطفيا أم مرتبطا بعلاقة أستاذ بتلميذته التي من واجبه أن يخاف عليها من نوايا المحافظ وأزلامه وزبائنه.
- الغبن: وهذه التيمة جاءت مرتبطة بنفسية الراوي-الشخصية جراء ممارسات المحافظ من جهة، وجراء طرده من المؤسسة من جهة أخرى.

العلاقات العاطفية

١- حدد أبرز العلاقات العاطفية في النص: "الأطراف المتقابلة ضمنها:

نلمس في هذا النص تقابلا بين شخصياته في إطار علاقات عاطفية نحددها على الشكل الآتي:

- علاقة الكره: تبدو هذه العلاقة جدلية بين الراوي - الشخصية والمحافظ، فكلاهما يبادل الآخر كرها شديدا، المحافظ يكره الراوي - الشخصية لأنه يقف أمام مصالحه المادية، والراوي - الشخصية يكره المحافظ بسبب ممارساته غير الأخلاقية.

-علاقة الحب: وتبدو هذه العلاقة أولاً بين الراوي-الشخصية والكتاب، لأن هذا الأخير يمنحه فرصة مطاردة المعنى المتغير، وينقله من العالم الخارجي الرديء إلى عالم الداخل الصافي، والغارق في النقاء. وتبدو أيضاً في علاقته بالتلميذة التي سيلتقيها بعد أن كبرت، ليفصح عن حبه القديم لها، وخوفه عليها من أطماع المحافظ وزبائنه.

٤ - البعد الاجتماعي

نركز في البعد الاجتماعي على ثلاثة عناصر أساسية هي: العلاقات الاجتماعية، والظواهر الاجتماعية، والفئات الاجتماعية، وسأعمل على تبيان هذه العناصر على النحو الآتي:

١ - الظواهر الاجتماعية

يسعى هذا النص إلى وضع الأصعب على جملة من الظواهر الاجتماعية المشتركة في المجتمع المغربي على غرار مجتمعات أخرى، ومن بينها:

أ- الثقافة

تحضر- ظاهرة الثقافة في النص كعنصر-إيجابي، يروم التنبه إلى أهمية القراءة والمعرفة في تخلص الذات والمجتمع من طائفة من السلبيات المتركمة بفعل عوامل شتى، وهي ظاهرة مرتبطة بالفئة المثقفة والواعية، أي بالنخبة، والتي تتطلع دائماً إلى التغيير وإبدال الواقع الغائم بواقع ممكن. وتحضر- شخصية الراوي في هذا النص ممثلة لهذه الفئة، حيث ظل ملازماً للقراءة من خلال الإشارة إلى كتاب "المكتبة"، الذي يخرج من دائرة الإحساس بالتأزم مما يطال المجتمع من ممارسات خبيثة إلى دائرة الاستمتاع والفوضى في أعماق المعرفة والعلم.

ب- الاستغلال

تقابل هذه الظاهرة مع الظاهرة الأولى بشكل متناقض، فالظاهرة الأولى اتسمت بطابعها الإيجابي، في حين تتسم ظاهرة الاستغلال بطابعها السلبي. إنها ظاهرة اجتماعية تحضر في المجتمع بصور مختلفة، وتظهر في هذا النص من خلال ممارسات محافظ المكتبة الذي يعمل على استغلال التلميذات بطريقة غير أخلاقية، حيث يرسلهن سلعا لبنائه في مراكز الشرطة والبلديات والمحاكم والشركات والعمالات، لتغدو بذلك المؤسسة التربوية سوقا نخاسة يستهدفه ضعاف النفوس في المجتمع، لقد سعى الكاتب عبر شخصية المحافظ إلى إبراز التأزم الذي تعيشه المؤسسات الدراسية بالمغرب، وما شخصية المحافظ إلا نموذج لمحافظين وإداريين كثير.

ج- الظلم الاجتماعي

كثيرة هي حالات الظلم في المجتمع، وفي المؤسسات التربوية بالخصوص، وتبدو في النص من خلال طرد الراوي - الشخصية الذي كان يشتغل أستاذا في المؤسسة، لأنه كان يقف أمام مصالح المحافظ وأزلامه، ولأنه كان يمثل الوجه الجميل للمؤسسات التربوية. لقد سعى الكاتب من خلال شخصية الراوي إلى تبيان ما يتكبده رجال التعليم الشرفاء من مضايقات وممارسات، وما يخوضونه من صراعات هدفها إصلاح ما يمكن إصلاحه داخل المؤسسة أو خارجها.

د- التفاوت الاجتماعي

تقابل في النص ثلاث فئات اجتماعية، أولاها يمثلها الراوي - الشخصية، وهي الفئة المتوسطة من رجال التعليم، مثلها قبل أن يطرد من المؤسسة، أما بعد الطرد فسيدخل في دائرة الفئة الفقيرة الهشة في مقابل الفئات

الميسورة والتي تمثلها بشكل أساس التلميذة من خلال قرائن مهمة هي: "أصبحت أجمل وأغنى"، "المرسيدس التي خرجت منها"، من ثم يبدوا التقابل جليا بين فئتين اجتماعيتين هما الفئة الفقيرة والفئة الميسورة".

٢- الفئات الاجتماعية

سبق وأشرنا إلى أن النص تتقابل فيه مجموعة من الفئات الاجتماعية، وسأعمل في هذا الجزء على تبيان أهم الفئات التي في هذا النص بشكل متقابل:

أ- رجال التعليم: ونميز فيها بين المدرسين والإداريين، ففئة المدرسين مثلها الراوي- الشخصية في حين مثل المحافظ الإداريين، وهاتان الفئتان تتقابلان بشكل واضح في النص تشخيصا لبعض الحالات في المؤسسات التربوية، والتي تتضارب فيها مصالح الإدارة مع مصالح هيئة التدريس.

ب - التلاميذ: وهي الفئة المراهقة، التي تفتقر لوعي عميق بقضايا المجتمع وتلاعبات أفرادها، لذلك فهم ينظرون للفوائد البسيطة التي قد يكسبونها من تلبية بعض الرغبات.

ج- الفئة المثقفة: وهي الفئة الواعية بطبيعة الواقع الاجتماعي، لذلك فهي تناضل من أجل تغييره، تناضل بالقراءة والمطالعة من جهة، وبالفعل من جهة أخرى، ويمثلها في النص الراوي - الشخصية.

د- الفئة الميسورة: وهي الفئة الغنية، والمرتاحة من الناحية المادية، وتمثلها في النص التلميذة بعد أن كبرت واثقها الراوي - الشخصية، حيث أعطانا النص قرائن تثبت انتهاءها إلى هذه الفئة من قبيل: "أصبحت أجمل وأغنى" و"سيارة المرسيدس"، ونستطيع أن أدخل المحافظ ضمن هذه الفئة، حيث يعتبر هو الآخر غنيا من خلال الخدمات التي يقدمها لأصدقائه في الإدارات

الأخرى، حيث يتاجر بالتلميذات لأغراض مادية، ولا شك أن هذا الفعل سيدر عليه أموالا طائلة.

هـ- الفئة الفقيرة: ويمثلها الراوي- الشخصية، بعد أن طرد من عمله، حيث أصبح يتسكع في الشارع دون عمل، ويمكن أن ندرجه ضمن فئة المعطلين؛ لأنه إنسان مثقف وله شواهد علمية. ومن أدلة انتهاء الراوي- الشخصية للفئة الفقيرة ما جاء في النص: "وأنا أصارع الأخطبوط من أجل لقمة العيش".

٥- البنية

يمكن رسم خطاطة النص السردية والتي تتقابل فيها الوضعيات على النحو الآتي:

- وضعية البداية: قراءة الكتاب في المكتبة.
- العنصر المخل: إخلاء المكتبة من القراء.
- وضعية الوسط: الطرد من المؤسسة.
- عنصر الانفراج: رؤية التلميذة.
- وضعية النهاية: العودة للكتاب.

ونلاحظ في هذا المسار السردية أنه يسير بشكل دائري، حيث إنه انطلق من نقطة وعاد إليها في النهاية، فقد بدأت القصة بمقطع من كتاب تراثي هي قوله لأبي جعفر المنصور في حق المعتزلي عمرو بن عبيد "كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد"، وانتهت بالقولة نفسها، وبين البداية والنهاية أحداث كثيرة من بينها ممارسات المحافظ، واحتجاج الراوي- الشخصية عليها، ثم طرد الراوي الشخصية من المؤسسة، ولقاؤه بالتلميذة بعد دهر طويل.

٦- الأسلوب

سنركز في منظور الأسلوب على إبراز خصائص لغة النص، والإشارة إلى الحضور البلاغي ووظيفته.

لغة النص

تتقابل في النص لغتان: لغة تقريرية ولغة فنية شعرية؛ فاللغة التقريرية تبدو في النص التراثي الذي يعكف الراوي-الشخصية على قراءته كل مرة، إنها لغة قديمة باعتبار أن النص أصلاً قديم، ولا يدخل في نطاق الحكاية التي يقدمها الكاتب، وإنما هو نص مرفق أو نص داخل نصي:

"قلها أبو جعفر المنصور لأفراد حاشيته، وهو ينظر إلى الشيخ الزاهد عمرو بن عبيد، ينصرف رافع الرأس من مجلسه، بعد أن نصح الخليفة ورفض عطاياه".

وتبدو اللغة الفنية في الحكاية الرئيسة في هذا النص، فيما أن النص عبارة عن قصة قصيرة، فإن طابع السرد يفرض لغة فنية وشعرية تنقله من تقريرية النصوص الثرية إلى مجال الشعرية التي تعد الخاصية المميزة للنصوص الأدبية:

"أخذت أعبئ كل من أعرفه ضده. وكأنني كنت أعبئ رمل مرزوكة في غربال. خاننتي الثقوب التي لا أراها وانفض من حولي أصدقائي التلاميذ، ... كأنما كان المحافظ يسحر لهم عند فقيه سوسي... فساسوني. بقيت وحدي أصرخ في البرية كني من أنبياء بني إسرائيل".

الأساليب البلاغية

اشتغل الكاتب في هذا النص على التشبيه كأسلوب بلاغي أسهم في تمثيل الأحداث بشكل واضح، وتقريب الأحاسيس والمواقف والمجريات للقارئ. لقد اضطلع التشبيه بدور أساس في إعطاء النص طابعه الأدبي، وتشخيص مقاطعه بشكل جلي، ومن جملة التشبيهات في النص:

_ "أخذت أعبئ كل من أعرفه ضده، وكأنني أعبئ رمل مرزوكة في غربال".

__ " انفض من حولي أصدقائي التلاميذ، والشرفاء من الأساتذة والمعيدين، وحتى الآباء والأمهات. كأنما كان المحافظ يسحر لهم عند فقيهه سوسي...".

__ " بقيت وحدي أصرخ في البرية كنبي من أنبياء بني إسرائيل".

__ " وقرر طردي من الثانوية. كأنهم -يخالون- طردوني من اللجنة".

__ " لم تكن إلا مستنقعا موبوءا خرجت منه إلى الدنيا: مكتبة الله الكبرى".

__ " لم أعرف يقينا أشبه بالشك، ولا شكاً أشبه باليقين من الموت".

__ " لم أعرف يقينا أشبه بالشك، ولا شكاً أشبه باليقين من هذا الكتاب".

__ " أصبحت أجمل وأغنى، وربما أجمد... كالمرسدس التي خرجت منها".

نلاحظ أن هذا النص جاء زاخرا بجملته من التشبيهات التي تؤدي وظيفة تصويرية فنية، ونعرف أن التشبه ظاهرة بلاغية مبنية وفق تصور تقابلي، بين المشبه والمشبه به، ومنها بين العناصر الأخرى المشكلة للبنية البلاغية للتشبيه ظاهريا أو ضمينا.

القراءة التركيبية

لقد استطاع التناول القرائي المبني على معطى التقابل الإحاطة بمجمل جوانب هذا النص، بدءا بما أتاحه من إمكانات قرائية في القراءة التوجيهية، وذلك بإظهاره لمضمرات العنوان، وتفكيكه لرموز الغلاف، وتساؤله حول جنس المؤلف. وفي القراءة التوجيهية بإظهاره للعناصر المتقابلة في عتاب هذا النص وأبعاده ما أسهم في الوصول السلس إلى مهمات العناصر البنيوية والسميائية أبعاد النص النفسية والاجتماعية.

خاتمة:

لقد سعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على إشكال إقراء النصوص الأدبية، وما يشوبها من تعثرات ومعيقات منهجية ومعرفية وديداكتيكية، منها ما له علاقة بأساليب الإقراء، ومنها ما هو مرتبط بالوضع المنهجي المطروح كأساس للمقاربة، من ثم ظهر سؤال جدوى إقراء النصوص الأدبية بالمدرسة، ومشكلاته، وأساليب إعادة الحياة فيه. ونستطيع القول إن المشكلة لا تعدو أن تكون منهجية بالأساس دون إغفال العناصر الأخرى التي قد تؤثر بشكل أو بآخر، لهذا اقترحنا تناول النصوص الأدبية المدرسية اعتماداً على المقاربة التقابلية.

فنظرية التأويل التقابلي جاءت من أجل إخراج النص الأدبي من الارتباك التأويلي، إلى دائرة المعنى الأولي المبني في أصله الذهني بشكل تقابلي، وقد انبنت على تجاوز بعض المعطيات التي قامت عليها نظرية التأويل وروادها، بدءاً بشليرماخر وصولاً لأمبرتو إيكو، بمعنى أنها خلقت إبدالاً نظرياً، خصوصاً برجعها إلى التراث الإسلامي الذي ظل يحمل إرهابات أولية لنظرية في التأويل، وبسعيها إلى الحد من لانهائية التأويلات، التي تخرج بالنص من مجال تحققه الصحيح إلى آفاق أخرى قد تبعده عن معناه المقبول.

ولأن النص الأدبي في المدرسة هو وحدة ديداكتيكية تحمل كثيراً من المعارف والمهارات، فإن إجراءات تقريبه للمتعلم تبقى محط نظر، فالتوجيهات الرسمية تنص على إجبارية القراءة المنهجية الموقوفة على جملة من المراحل والتدابير في إقراء النصوص الأدبية مع ما فيها من منزلقات وإشكالات واضحة، ركز البحث على تصويبها بإعطاء بدائل منهجية، خاصة في ما يتعلق بتقديم خطوة الفهم على خطوة التحليل.

وقد وقفنا على نجاعة المقترح التقابلي بوصفه بديلا منهجيا للقراءة المعتمدة، إما بطرحه إبدالا كلياً، أو باعتباره موازياً منهجياً، فمرحلة الفهم لا يستقيم تناولها بحسب ما خلصنا إليه إلا باعتماد التقابلية. أضف إلى ذلك جدوى النظرية في مقارنة المؤلفات المقررة- والتي أشرنا إلى أهمية القصة القصيرة داخل مجموعتها- خصوصاً عند البعد الحداثي وتتبع المتن الحكائي لتكون بذلك التقابلية منهجاً ذا قيمة مضافة للتناول الديدانكتيكي للنصوص الأدبية، إن بوصفه موازياً منهجياً، أو بديلاً شاملاً.

لائحة المصادر والمراجع:

- إبراهيم عبد الرحمان، الثقافة العربية والمرجعية المستعارة، مركز الثقافة العربية، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٩؛
- إيكو أمبرتو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٠؛
- بازي محمد، التأويلية العربية (نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات)، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط ١، ٢٠١٠؛
- بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي: مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، بيروت، ط ١، ٢٠١٣؛
- بوزفور أحمد، نافذة على الداخل (مجموعة قصصية)، منشورات طارق، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠١٣.
- بنكراد سعيد، النص السردي نحو سيميائيات للإيديولوجيا، دار الأمان، ط ١، ١٩٩٦؛
- تدوروف ترفطان، اللغة والأدب في الخطاب الأدب، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي، بيروت، ١٩٩٣؛
- أبوزيد ناصر حامد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط ٨، ٢٠٠٨؛
- شولتر روبرت، السيميائية والتأويل، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي، بيروت، ١٩٩٣؛
- طحان ريمون، الألسنية العربية . دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٩٨١؛

- عبد الرحمان طه، اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٨؛
- علوش سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، الدار البيضاء، ١٩٨٥؛
- الفيروزبادي مجد الدين بن محمد، القاموس المحيط، دار الحديث، مصر، ٢٠٠٨؛
- ابن منظور، لسان العرب، دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت، ١٩٨٨؛
- وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي، البرامج والتوجيهات التربوية الخاصة باللغة العربية بسلك الثانوي التأهيلي، نونبر ٢٠٠٧.

المجلات:

- مجلة علامات، ع ١٠٠، ١٩٩٨؛
- مجلة فكر ونقد، ع ٦٧، ٢٠٠٥.

إفهام دروس البلاغة والنحو بالتقابل

د. ابراهيم ايت تودي

تقديم:

يعد الدرس اللغوي المزود الأساس للمتعلم بالقواعد التي تساعده على ضبط استعمالاته اللغوية، ومجالاً لتنمية قدراته العقلية المختلفة، غير أن العديد من الدراسات أكدت وجود أثر محدود للقواعد في تعلم اللغة، كما أن هناك ضعفاً لغوياً عاماً بالرغم من كثرة الاهتمام بدروس النحو، الأمر الذي يستوجب الدعوة إلى تعديل مادة القواعد في اللغة العربية، وإعادة تنظيمها، فالمشكلة تكمن بالأساس في تعقد تجريديتها، حيث يغرق التلاميذ تارة في مسائل صعبة الفهم، قليلة الفائدة، وتارة أخرى في تفاصيل لا ضرورة لها.

من هنا ظهرت أهمية ربط تعلم القواعد بمحاولة تبسيطها، مع الانطلاق من مبدأ إشراك المتعلم في بناء تعلماته، مع الأخذ بعين الاعتبار ميولاته واهتماماته، وقدراته العقلية والنفسية، فالمادة موجهة إليه، ودرس اللغة كأية مادة أخرى قد يستسيغها المتعلمون، وقد ينفرون منه، والأمر يعود للمدرس نفسه، فهو الوحيد الذي يستطيع أن يجعل منها مادة معرفية قريبة من متناول المتعلمين، وذلك عن طريق تطوير أدوات اشتغالها وتنويعها، عوض البقاء أسيراً لوسائل وطرق نمطية قد لا تفي بالغرض في الغالب الأعم، إذ إن طريقة التدريس ليست هدفاً قائماً بذاته، كما أنها ليست غاية مستقلة عن الفائدة المرجوة منها.

من هنا جاءت فكرة تطعيم منهجية الدرس اللغوي بآليات التحليل التقابلي، بوصفها آلية اشتغال من شأنها تذليل الكثير من العقبات أمام المتعلمين من أجل تيسير الفهم وتحقيق الأهداف المرجوة من الدرس اللغوي، فكيف يمكن استثمار التحليل التقابلي في تطعيم الدرس اللغوي؟ و إلى أي حد يستطيع أن يصل بالمتعلم إلى تحقيق الكفايات اللغوية، والتواصلية المتوخاة من هذا الدرس؟

هذه هي الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها في بحثنا هذا، انطلاقاً من اتخاذ الدرس اللغوي مدار اشتغالنا، وإلى الغايات التي يرتقب منه تحقيقها بحسب التصورات الرسمية للنظام التعليمي المغربي، مُعَرِّجين على التحليل التقابلي، معرفين به وبعض آلياته ومفاهيمه، لنصل إلى تقديم نماذج عملية لتوظيف هذه الآليات في تطعيم الدرس اللغوي.

تحديدات مفهومية.

التقابل لغة:

مصدر أخذ من الأصل الثلاثي " ق ب ل " وقد تنوعت معاني لفظة التقابل بتنوع المعاجم العربية، غير أن هذه التعاريف تبقى متقاربة بشكل عام، وقد عرفه ابن منظور بقوله: "المقابلة المواجهة، و التقابل مثله، وهو قبالك و قبالتك، أي تجاهك"^(١)، وقال في موضع آخر: " قابل الشيء بالشيء مقابلة و قبالة: عارضه"^(٢) وفي معجم العين عرف الفراهيدي التقابل بقوله: "القبل من إقبالك على الشيء، تقول قد أقبلت قبلك، كأنك لا تريد غيره، وفي معنى آخر هو التلقاء، تقول لقيته قبل أي مواجهة"^(٣)، وقال ابن فارس معرفاً للتقابل: "القاف و الباء و اللام أصل واحد صحيح تدل كلمه كلها على مواجهة الشيء بالشيء، و يتفرع بعد ذلك"^(٤)، ومما تقدم يتضح أن معنى كلمة التقابل لا يخرج في إطاره العام عن المواجهة، و المعارضة، و أنت تقابل الشيء بالشيء، و تعارضه به لغرض الوصول إلى وجه التماثل أو الخلاف بينها.

(١)- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج ١٢، ط ٦، ٢٠٠٨، مادة (ق ب ل)، ص ١٥.

(٢)- المرجع نفسه، ص ١٥.

(٣)- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مادة (ق ب ل).

(٤)- أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، حققه شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، لبنان، ص ٨٧٢.

التقابل اصطلاحاً:

يختلف التعريف الاصطلاحي للفظه التقابل باختلاف النظريات والمرجعيات التي تستند إليها هذه التعاريف، غير أنها لا تكاد تخرج عن معنى المقابلة، والتضاد، والطباق، والتناقض، والمخالفة، وقد عرفه أحد الكتاب بأنه "وجود لفظتين تحمل كل منهما المعنى الذي تحمله الأخرى"^(١)، وعرفه آخر مشيراً إلى أن التقابل يقع بين ألفاظ تتسم بأن لها شروطاً، أو مقتضيات تصنيفية تفرعية دقيقة متماثلة، وأن لها قيود الاختيار نفسها، وأن سماتها الدلالية الأميز والأكثر تحديداً تمثل نهايات استقطابية تقابل كل منها الأخرى"^(٢)، وبالعودة إلى هذه التعاريف، نجد أنها تكاد تتفق على أن التقابل يتحدد في سمات خلافية تقع بين المعاني كما تقع بين الألفاظ، ومن خلال هذه القيم الخلافية يمكن بلوغ المعنى الحقيقي وراء المتقابلين.

الدرس اللغوي في التصورات الرسمية.

لقد أعطى الميثاق الوطني أهمية بالغة للغة العربية، وجعل من أولوياته العمل على تقوية تعليمها، والعناية بها، وجعلها إلزامية لكل أطفال المغاربة، في كل المؤسسات التربوية، ولإنجاح هذه الرؤية اتخذت مجموعة من الإجراءات العملية مثل العمل على تكوين متخصصين من ذوي الكفاءات العليا، والمتوسطة، في مجالات المعرفة المختلفة، يتقنون اللغة العربية، وذلك من أجل تسيير بلوغ الهدف المتمثل في إدماج اللغة العربية في شتى المجالات التقنية والعلمية"^(٣).

وكذا إحداث منهاج تربوي يروم ترسيخ حب اللغة العربية في نفوس المتعلمين، وتسيير سبل اكتسابها، وذلك باستحضار مجموعة من الاعتبارات، واعتماد عدد من

(١) - بازي محمد، تقابلات النص وبلاغة الخطاب: نحو تأويل تقابلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص ١٧٢.

(٢) - الجنابي أحمد نصيف، "ظاهرة التقبل في علم الدلالة"، آداب المستنصرية، مصر، ١٩٨٤، ص ١٥.

(٣) - وزارة التربية الوطنية، الميثاق الوطني للتربية والتكوين، ص ٢٨.

المبادئ العامة التي تفرضها خصوصيات المتعلم في كل مرحلة من مراحل التعلم، وديداكتيك مكوناتها، والرغبة في تمكين المتعلمين من الكفايات والقدرات اللغوية المناسبة لكل مرحلة^(١).

أما فيما يخص ترجمة هذه التوجهات على أرض الواقع، فقد تممن خلال وثيقة "التوجهات التربوية، والبرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية"، التي فصلت في أدق معالم منهاج اللغة العربية، وفق المقاربة الجديدة المعتمدة في إصلاح نظام التربية والتكوين، وهي مقاربة تعكس الانتقال من مفهوم البرنامج التقليدي نحو مفهوم المنهاج التربوي بوصفه خطة عمل تربوية تكوينية نسقية، و متكاملة المكونات والعناصر^(٢).

وتستحضر هذه المقاربة الجديدة في مراجعة منهاج اللغة العربية حاجيات وانشغالات، وتطلعات، ومتطلبات التنمية المستدامة للمجتمع المغربي، في ظرفية عالمية سريعة التطور، تبلورت آثارها في تشكيل مجتمع المعرفة والعلم والتقنية^(٣). وقد اعتمدت هذه المقاربة مدخل الكفايات الذي يعد تغيرا جذريا في تصور العملية التعليمية، التي أصبحت فيما بعد عملية تعليمية تعليمية، وذلك بالانتقال من نقل المعارف الجاهزة للمتعلم، إلى الاهتمام بتمهيره في بناء المعرفة بنفسه، وإعادة استثمار مكتسباته في وضعيات، و سياقات جديدة، من خلال امتدادات منفتحة على مختلف المواد الدراسية، وعلى الحياة^(٤).

ويعد هذا التغير في فلسفة التعليم أمرا بالغ الأهمية، من شأنه الرفع من جودة التعلم وكذا من تحقيق الأهداف، والكفايات المروم تحقيقها لدى المتعلمين، إذ انتقلنا من المفهوم الخاطئ للعملية التعليمية المبنية على كون المدرس مالكا للمعرفة، و المتعلم

(١) - وزارة التربية الوطنية، الكتاب الأبيض، الجزء ٢، ص ١.

(٢) - وزارة التربية الوطنية، التوجهات التربوية وبرامج تدريس اللغة العربية، ٢٠٠٧، ص ٣.

(٣) - المرجع نفسه، ص ٦.

(٤) - المرجع نفسه، ص ٧.

مجرد ورقة بيضاء، أو وعاء يتم حشوه بالمعرفة، والمعلومات دون التأكد من مدى استيعابه لها، ولا بمدى قدرته على تحملها واستيعابها، نظرا للجهل بخصائص المتعلم المتغيرة بتغير المراحل العمرية، والمختلفة باختلاف المتعلمين أنفسهم، انتقلنا من هذا كله إلى جعل المتعلم في قمة المثلث الديدانكي، معترفين بأهمية إشراكه في بناء التعلّات، ودور ذلك في تحقيق الكفايات التي سطرها الوثائق الرسمية و المتمثلة في الكفايات التواصلية، والمنهجية، والثقافية، والاستراتيجية.

منهجية تدريس علوم اللغة .

والمقصود بمنهجية التدريس هنا، هي الخطة الشاملة التي يستعين بها المدرس لتحقيق الأهداف المطلوبة من تعلم اللغة، وتتضمن ما يتبعه المدرس من خطوات، وأساليب وإجراءات، وما يستخدمه من مادة تعليمية، ووسائل معينة، وتقوم منهجية علوم اللغة على خطوات، وعناصر واصفة للنشاط التربوي الهادف إلى قراءة النصوص، وتحليلها لغويا في ضوء علوم اللغة، وقواعدها ومبادئها من أجل خدمة الأهداف الرامية إلى تنمية الحس الجمالي والتذوق الفني لدى المتعلمين، وصقل قدراتهم التعبيرية نطقا وكتابة، وهذه الخطوات كما جاءت في التوجيهات التربوية لمادة اللغة العربية هي كالآتي:

* الانطلاق من مصادر مساعدة، نص لغوي أو أمثلة مناسبة والظاهرة اللغوية قيد الدرس؛

* شرح الأمثلة، ووصف الظاهرة اللغوية، وتحليلها؛

* الخروج باستنتاجات بخصوص الظاهرة اللغوية المدروسة؛

* تركيب الخلاصة؛

* إنجاز التطبيقات، من أجل الوقوف على مدى استيعاب المتعلمين

للدروس^(١).

(١)- وزارة التربية الوطنية، التوجيهات التربوية و البرامج الخاصة بتدريس مادة اللغة العربية، ص ١٨.

وتقتضي مركزية دور المتعلم في عملية التعلم ممارسته لعملية الاستدلال لاكتساب التعلمات، بالإضافة إلى عمليات موازية كالاستنتاج و المقارنة... وللإستدلال أهمية مزدوجة في ممارسة التعلم، فهو يعزز مبدأ التعلم الذاتي الذي يعتبر الوسيلة الأمثل في اكتساب التعلمات، كما يسهم في تنمية مهارة الاستدلال نفسها القائمة على الربط بين الأسباب و النتائج، و ينقسم هذا الاستدلال إلى استقراء و استنباط.

الطريقة الاستقرائية:

وفيها ننتقل من النص أو الأمثلة إلى القاعدة، ودور المدرس فيها إرشادي توجيهي، فإن عملية النقل الديدانكتيكي تقوم في مختلف مستوياتها، باقتراح عدد من الأمثلة المناسبة لمقام التعلم، باعتبارها جزءا من اللغة المستعملة، لتحليلها واستخلاص القانون الذي يوحداه، ثم صياغة هذا القانون في شكل قاعدة تحكم اللغة، وهي عملية تتم أثناء سيرورة التعلم الصفي، عبر أنشطة ينجزها المتعلم بتوجيه من المدرس، وبمساعدة منه، عبر الإرشاد وخلق جو تفاعلي بين المتعلمين. وهذا الأسلوب في الاستدلال يتميز عن المنهج التقليدي بتحقيقه لهدفين أساسيين هما^(١).

* استجابته لمبدأ التدرج في اكتساب المعرفة و المهارات، فيصبح التعلم سيرورة تتطلب بذل الجهد بدل اعتماده على معارف جاهزة.

* استجابته لمبدأ التعلم الذاتي، الذي يوظف فيه المتعلم مهاراته ومعارفه السابقة، من أجل اكتساب تعلمات جديدة يتم استثمارها أيضا في وضعيات جديدة.

الطريقة القياسية:

وفيها نبدأ من القاعدة للوصول إلى الأمثلة أو النص، فيبدأ المدرس بإبراز المطلوب، ثم إعطاء الأمثلة عليه، وهي على النقيض تماما من الطريقة الاستقرائية، ومن عيوب هذه الطريقة أنها^(٢):

(١)- الصميلي يوسف، اللغة العربية وطرق تدريسها، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، ص ١٢٤.

(٢)- الصميلي يوسف، اللغة العربية وطرق تدريسها، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، ص ١٢٥.

لا تسمح للمتعلمين بالمشاركة.

تجعل المتعلمين مجرد متلقين.

وهكذا فإن هذه الطريقة الإلقائية التلقينية لا تفني بالغرض إذ إن الشرح الذي يقدمه المعلم شرحا للقاعدة يضع المتعلم في وضع المتلقي الذي يصغي، وقد يشرده ذهنه عن الدرس إلى أفكار أخرى لأنه قد يجد نفسه غير معني بما يقال.

التحليل التقابلي .

أولاً: دور التحليل التقابلي في تدريس علوم اللغة.

تكمن بلاغة المقابلة وسرها في تداعي المعاني، واستثارة الأذهان، فما أن يُقرأ، أو ينطق بأحد المتقابلين، إلا وبدأ العمل الذهني في ذاكرة القارئ، أو المتلقي لاستجلاب المقابل الثاني لفظاً ومعنى، وتنبع فكرة التحليل التقابلي للقواعد النحوية، من فكرة أن المتعلم لا يبدأ في تعلمه من فراغ، وإنما يبدأ تعلم هذه القواعد وهو يعرف شيئاً منها، شيئاً يشبه ما في ذهنه من قواعد مستنبطة تلقاها منذ زمن بعيد، فصحيح أن ما يتعلمه جديد عليه، ويختلف عما لديه، لكن بعد تحليل تلك القواعد تحليلاً دقيقاً، وتفكيك محتوياتها وأجزائها، يجد أن ثمة ظواهر لغوية تشبه كثيراً ما عنده في ذهنه، على الرغم من اختلاف درجة فهم كل واحد من المتعلمين.

وقد أثبت التحليل التقابلي جدارته في تطوير المواد الدراسية، و تعليم اللغة الأجنبية، كما أنه نافع أيضاً في تعليم اللغة لأبنائها، إذ ثبت بالتجربة العلمية أن كثيراً من الظواهر اللغوية في اللغة العربية تكون أكثر وضوحاً حين تعرض على الدرس التقابلي، ومن شأن ذلك، بلا شك، أن يثمر رؤية أفضل نحو تطوير المواد الدراسية لتعليم القواعد اللغوية.

ويمكن اعتماد التحليل التقابلي في أثناء مرحلة وصف الأمثلة وتحليلها، كما يمكن اعتياده في أثناء مرحلة الملاحظة، مما له قدرة على الوصول بالمتعلم إلى الفهم الجيد للظاهرة اللغوية، عبر تفكيك مكوناتها، وإضائها لبناء علاقات وثيقة بين ما هو موجود في ذهن المتعلم، وبين ما يتعرف عليه لأول مرة في الدرس الجديد.

تطعيم الدرس اللغوي بآليات التحليل التقابلي:

أولاً: درس الاستعارة:

فيما يخص تطعيم الدرس اللغوي بآليات التحليل التقابلي، فإننا نرى أنه سيكون من المفيد أن نعتمد هذه الآلية منذ المرحلة الأولى وهي التمهيد، وذلك نظراً لكون عنوان الدرس قد يشكل عائقاً لبناء التعلمات لما يشكله غموضه، وعدم وضوحه من هوة بين المتعلمين والدرس، لذلك فإننا نرى أنه من الأجدر أن ندلل هذه العقبة الأولى لما تكتسيه البدايات من أهمية نفسية، و معرفية في بناء أي تعلمات، ومن هنا ارتأينا أن نقوم أولاً بكسر- هذه المسافة الابدستيمولوجية بين المتعلم، ومفهوم الاستعارة انطلاقاً من تعريفها اللغوي، وما يفتحه من تقابلات، فنبداً مع المتعلم بتبنيه إلى كون هذه الكلمة تتكون من جذر ولاصقة، أما الجذر فهو العين والألف والراء، ومعناه أخذ الشيء والذهاب به، جاء في القاموس المحيط " والعارة ماتداوله بينهم، جمع عواري. أعاره الشيء وأعاره منه، وعاوره إياه، وتعوره، واستعار: طلبها، واستعاره منه طلب إعارته، وعاره يعوره ويعيره: أخذه، وذهب به.

أما اللاصقة (الألف والسين والتاء)، فمعانيها كثيرة، ومعناها هنا الطلب، كقولك: استغفر أي أطلب الغفران، أو كقولك: أستفهم أي أطلب الفهم، ونمثل لهذين التقابليين كما يأتي:



وانطلاقاً من هذه التقابلات، يتوصل المدرس مع متعلميه إلى أن الأمر يتعلق بطلب إعرارة، الشيء الذي يستدعي وجود معار له، و شيء معار، ومعير، هذا فيما يخص المعنى اللغوي الذي استعمله البلاغيون فيما بعد للدلالة على أن شاعراً ما استعار صفة ما (مستعار)، من كائن ما (مستعار منه)، لإضافتها على شخص أو كائن ما، (مستعار له)، وهو هنا تقابل ثلاثي، وبعد الانتهاء بالمتعلم إلى الوصول إلى المراد من كلمة الاستعارة، وما تحمله في طياتها من تقابلات، ننتقل بهم إلى مرحلة وصف، وتحليل الأمثلة لتوضيح الأمر أكثر، وتفسيره انطلاقاً من المثال الآتي:

يقول الله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ﴾ (١٨)

المستعاره	المستعار	المستعار منه
الصبح	التنفس	الإنسان

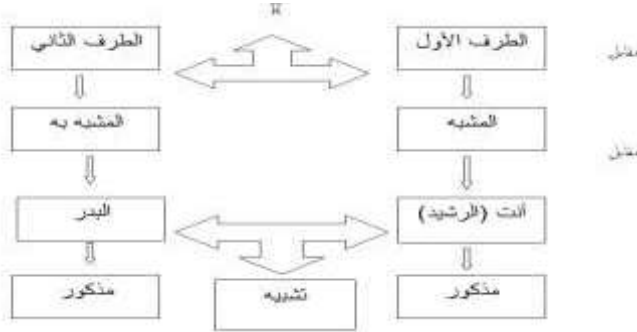
ففي هذا المثال نجد أن الله تعالى استعار لفظ التنفس الذي هو من صفات الإنسان للصبح (أي أنه شبه الصبح بالإنسان) فكأن نسيم الصباح وضوءه المنتشر- نفس يبعث الحياة في الكون من جديد، وهنا تكمن وظيفة الاستعارة في إيجاد صورة بلاغية أكثر تعبيراً، وجمالية.

وبعد أن يتوصل المتعلمون إلى أن الاستعارة في الأصل: أخذ الشيء من مالكة عربية لاستعماله مدة ثم إعادته إليه، وفي اصطلاح أهل البلاغة: استعمال اللفظ في غير معناه الأصلي لمشابهة بينهما، نطرح السؤال التالي بمثابة تقويم جزئي: إذا كانت الاستعارة هي استعمال اللفظ في غير معناه الأصلي لعلاقة المشابهة، فما الفرق بينه وبين التشبيه؟ على اعتبار أن هذا السؤال يشكل محكاً حقيقياً للتعلم في فهم الاستعارة، إذ إن أغلب المتعلمين يخلطون بينهما، وبعد إجابتهم نقوم بتوضيح الأمر انطلاقاً من التركيز على طرفي التشبيه باعتبارهما الفصيل بين التشبيه والاستعارة كما يأتي:

نذكر المتعلمين بمثال للتشبيه الذي درسوه بالجدع المشترك:

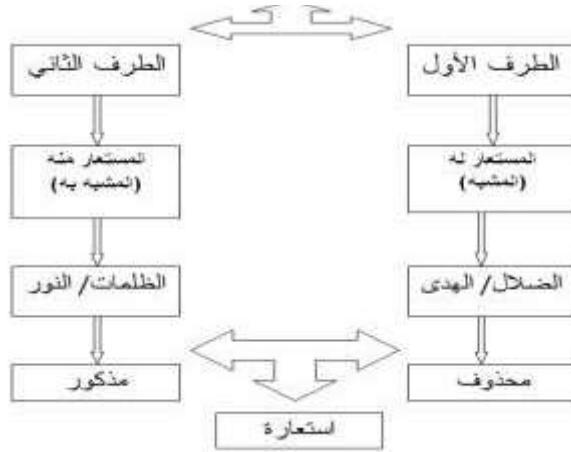
قال عمر بن سلمة في مدح الرشيد :

الناس من طين وأنت كالبدر في فلك السعود



انطلاقاً من هذا التحليل يتبين أن التشبيه يتكون من طرفين أساسيين هما المشبه والمشبه به، وكلاهما ضروري لقيام التشبيه، أما حذف أحدهما فيضعنا أمام نوع آخر من أنواع الصور البلاغية، التي سنوضحها انطلاقاً من التحليل الآتي:

يقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾



انطلاقاً من هذا التحليل نلاحظ أنه يختلف عن المثال الأول، من خلال حذف المشبه، وهذا ما يسمى بالاستعارة، ومن هنا يتضح الفرق بين الاستعارة والتشبيه للمتعلمين، فيتوصلون إلى الاستنتاج الآتي:

الاستعارة مجاز لغوي علاقته المشابهة بين المعنى الحقيقي، و المعنى المجازي، وهي في حقيقتها تشبيه حذف أحد طرفيه، و المراد بالطرفين المشبه والمشبه به.

أنواع الاستعارة:

قال المتنبي في وصف دخول رسول الروم على سيف الدولة:

وأقبل يمشي في البساط فما درى إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقي

قال دعبل الخزاعي:

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

إذا تأملنا المثال الأول سنجد أن الشاعر شبه سيف الدولة بالبحر-فصرح بلفظ

المشبه به الذي هو البحر، وحذف المشبه به الذي هو سيف الدولة:



أما إذا انتقلنا إلى البيت الثاني فنلاحظ أن المشيب قد شبه بإنسان على تخيل أن المشيب قد تمثل في صورة إنسان، ثم حذف المشبه به وهو الإنسان، ورمز له بشيء من لوازمه وهو الضحك الذي هو القرينة. ولما كان المشبه به غير مصرح-حاه سميت استعارة مكنية.



انطلاقاً من هذا التحليل نلاحظ أن البيت الأول يختلف عن المثال الثاني ، إذ صرح بالمشبه به في البيت الأول، وحذف في البيت الثاني ورمز له بشيء من لوازمه، ومن هنا يتضح الفرق بين الاستعارة التصريحية، والاستعارة المكنية، فيتوصلون إلى الاستنتاج الآتي:

الاستعارة التصريحية هي ما صرح فيها بلفظ المشبه به.

الاستعارة المكنية هي ما حذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه.

استنتاج:

الاستعارة مجاز لغوي علاقته المشابهة بين المعنى الحقيقي، والمعنى المجازي، وهي في حقيقتها تشبيه حذف أحد طرفيه، والمراد بالطرفين المشبه والمشبه به. ومن أنواعها: الاستعارة التصريحية، وهي ما صرح فيها بلفظ المشبه به.

الاستعارة المكنية، وهي ما حذف فيها المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه.

وبعد هذه الخطوات نقوم بإنجاز التطبيقات من أجل الوقوف على مدى نجاح

الدرس، وتحقيق الكفايات.

تطبيقات:

عين نوع الاستعارة فيما يأتي معتمداً تحليلاً تقابلياً:

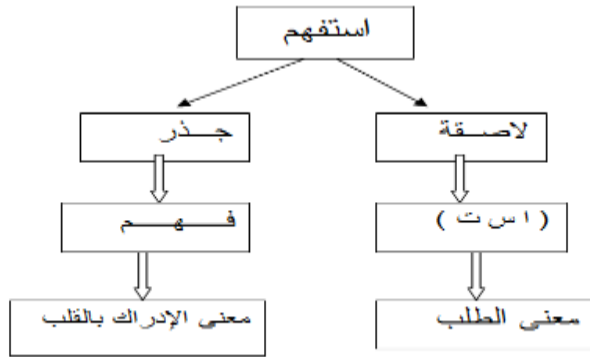
قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١).

قال ابن المعتز:

جمع الحق لنا في إمام قتل البخل وأحيا السماح

ثانياً: درس الاستفهام.

سنعمل، في هذا الدرس، على التوسل بأساليب التحليل التقابلي في مراحل دون أخرى، حيث تظهر وظيفته، ونفعه، ومن هذه المراحل مرحلة التمهيد باعتبارها مفتاح الدرس، وأساسه الذي يبنى عليه، وأول شيء نقوم به هو تقريب المتعلمين من عنوان الدرس، انطلاقاً من تعريفه، وما يفتحه من تقابلات، فننبههم إلى كون العنوان متكوناً من جذر ولاصقة، أما الجذر فهو الفاء والهاء والميم، ومعناه إدراك الشيء بالقلب، أما الجذر فهو الألف والسين والتاء، ومعناه هنا الطلب، ثم نوضح له الأمر من خلال الخطاطة الآتية:



وبعد أن يتوصل المتعلمون إلى ما تنطوي عليه كلمة استفهام من دلالات، تفتح أمامهم تقابلات الأخرى ستكون مدخلاً لمرحلة الملاحظة والتحليل.

(١) - آل عمران الآية: ١٠٣.

مرحلة الملاحظة والتحليل:

انطلاقاً من الخلاصات التي توصل إليها المدرس مع متعلميه من خلال مرحلة التمهيد يتبين لهم أنه مادام الأمر يتعلق بطلب الفهم فلا بد من وجود مستفهم، ومستفهم منه، وهذا ما يمكن توضيحه على الشكل الآتي:

سأل زيد خالداً: ما هذا الكتاب؟

ينطوي هذا المثال على عدة تقابلات تفيد في تقريب أسلوب الاستفهام من ذهن

المتعلم، ومن هذه التقابلات:



بعد الذي تقدم، يقوم المدرس أو أحد المتعلمين بكتابة ما توصلوا إليه على السبورة كما يأتي: من خلال تحليل المثال نستنتج أن الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل.

وفي الأخير تُنجز تطبيقات مناسبة للوقوف على مدى استيعاب المتعلمين

للدروس.

التطبيقات:

سل عن: الحال، و المفعول به، والظرف، و المبتدأ، والخبر، والجار والمجرور، في

الجملة الآتية، ثم بين أركان الاستفهام متوسلاً التحليل التقابلي:

نظم القصيدة متأثراً - اشترى قلماً - كتب الرسالة ليلاً - عليُّ الفائزُ - مصر

خصبةٌ - الكتاب في البيت.

خاتمة:

يعد مكون علوم اللغة من أهم مكونات درس اللغة العربية، غير أن طريقة التعامل معه، مثل الإكثار من القواعد المجردة، واعتماد طرق تدريس غير سليمة، تخل بقواعد النقل الديدانكتيكي السليم، جعلت منه درسا ثقيلًا على المتعلمين، بعيدا عنهم، وعن انتظاراتهم، مما يضعنا أمام إشكالية حقيقية لا بد من العمل على معالجتها، وهذا الأمر لا يمكن إدراكه إلا من خلال الرجوع إلى أسباب هذا الداء، ومحاولة علاجها. ولقد توصلنا بعد الرجوع إلى الأسباب التي تحول دون تحقيق درس علوم اللغة للأهداف والكفايات المرجوة منه، إلى أن طريقة التدريس النمطية التي لا تهتم بمدى نجاح الدرس، بقدر ما تهتم بإنجاز حصة، هي من الأسباب الرئيسة التي أسهمت في تفاقم هذه المعضلة.

من هنا نخلص إلي أن تطوير درس علوم اللغة، وتنويع أدوات اشتغاله هو الكفيل بجعله درسا مشوقا ومفيدا، مما جعلنا نعتد آليات التحليل التقابلي لما وجدنا فيها من إمكانات مهمة لتيسير الفهم، وتحقيق الأهداف.

المراجع والمصادر:

- الجنابي أحمد نصيف، "ظاهرة التقبل في علم الدلالة"، آداب المستنصرية، مصر، ١٩٨٤؛
 - بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠؛
 - بازي محمد، تقابلات النص وبلاغة الخطاب: نحو تأويل تقابلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠؛
 - يوسف الصميلي، اللغة العربية وطرق تدريسها، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م؛
 - وزارة التربية الوطنية، التوجيهات التربوية وبرامج تدريس اللغة العربية، ٢٠٠٧؛
 - وزارة التربية الوطنية، الكتاب الأبيض؛
 - وزارة التربية الوطنية، الميثاق الوطني للتربية والتكوين.
- المعجم والقواميس:**
- أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، حققه شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، لبنان؛
 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي؛
 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ٢٠٠٨.

امتدادات مشروع القارئ البليغ د. عبد الحق الحمداوي

مُفتِّح:

مما لا شك فيه أن الكتب التي تحظى بالقراءة والدراسة من قِبَل جماعة من الباحثين المختصين؛ وبتقديم شهادات حول أصحابها؛ وإقامة الأيام الدراسية والندوات حولها، غالباً ما تكون قد حظيت بتقدير علمي خاص في أوساط الجماعة العلمية المختصة التي ينتمي إليها موضوعها، وأنها استحققت التكريم والاعتراف بقيمتها العلمية وبفضل أصحابها^(١)؛ وكذلك كانت كتب الدكتور محمد بازي^(٢): "التأويلية

(١) - مقتبس من كلام الدكتور أحمد بوحسن؛ في تقديمه لكتاب من تنسيق الدكتور إبراهيم أسيكار، "النموذج التأويلي التقابلي؛ معالم التأصيل ومستويات التنزيل". صدر عن مؤسسة مقاربات ٢٠١٨.

(٢) - بازي محمد كاتب مغربي من مواليد سنة سبعين وتسعمائة وألف (١٩٧٠م)، بالقرية الميمونة بأكادير، جمع بين النقد والإبداع، يعمل أستاذاً باحثاً ومكوناً بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين في إنزكان، ابتدأ مشواره العلمي من جامعة ابن زهر بأكادير، بحصوله على الإجازة في الأدب العربي سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة وألف (١٩٩٣م). ثم حصل على دبلوم الدراسات العليا سنة تسع وتسعين وتسعمائة وألف (١٩٩٩م) في جامعة محمد الخامس بالرباط عن رسالة بموضوع: "النص واستراتيجيات التأويل: مقارنة في خطاب التفسير"، ثم حصل على الدكتوراه في الآداب سنة ست وألفين (٢٠٠٦م)، من جامعة محمد الخامس بالرباط، في موضوع: "التأويلية العربية: تحليلات التسانيد ومستويات انفتاح السياق". وحصل على شهادة التبريز في اللغة العربية سنة تسع وألفين (٢٠٠٩م). نال جائزة المغرب للكتاب في صنف الدراسات الأدبية والفنية سنة عشرة وألفين (٢٠١٠م). عن كتابه: "التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات". ومنذ ذلك الوقت وهو يتنفس من رثة التأويل التقابلي. ويعمل على تطبيق منهجيته وتجربتها على كل الألوان الأدبية.

تنوعت أعماله بين النقد والإبداع وعلوم التربية، نذكر منها: في النقد الأدبي له:

• "صناعة الخطاب؛ الأنساق العميقة للتأويلية العربية"، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠١٥م - ١٤٣٦هـ.

• "التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات"، الدار العربية للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف بالجزائر، ٢٠١٠م.

• "تقابلات النص وبلاغة الخطاب، نحو تأويل تقابلي"، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٠م.

• "نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب"، منشورات ضفاف، بيروت، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٣.

• "البُنى التقابلية؛ خرائط جديدة لتحليل الخطاب"، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م. وله في الثقافة الشعبية:

• "الجوهر المكنون في كلام أولاد سيدي ميمون"، منشورات جمعية أولاد ميمون للتنمية والتعاون، طباعة ونشر سوس/أكادير، ٢٠١٠م. وله في الإبداع:

• "أمواج الجنة"، نصوص أدبية من النثر الشعري، منشورات وزارة الثقافة، سلسلة الكتاب الأول، الرباط، ٢٠١٠م. وله في علوم التربية:

• "صناعة التدريس ورهانات التكوين"، منشورات علوم التربية، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ٢٠١٠م.

• "صحائف التكوين؛ مدونة شاملة لكل ما يحتاجه مدرس اللغة العربية وآدابها تمشلاً وعملاً"، كلمة للنشر والتوزيع - تونس/ دار الأمان - الرباط/ منشورات الاختلاف - الجزائر/ منشورات ضفاف - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

هذه المعلومات منقولة بتصرف عن كتاب "النموذج التأويلي التقابلي؛ معالم التأصيل ومستويات التنزيل"، جمع وتنسيق إبراهيم أسيكار، تقديم أحمد أبو حسن.

العربية؛ نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات"، و"صناعة الخطاب؛ الأنساق العميقة للتأويلية العربية"، و"تقابلات النص وبلاغة الخطاب؛ نحو تأويل تقابلي"، و"نظرية التأويل التقابلي؛ مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب"، و"البُنى التقابلية؛ خرائط جديدة لتحليل الخطاب".

لقد حَاوَلَتِ الكثيرُ من الدراسات النظرية إنجاز قراءاتٍ متباينة المداخل حول تلك الكتب التي تمثل المشروع التأويلي التقابلي؛ قراءاتٍ تتأرجح بين المتابعة المسكونة بعشق مضامين الكتب المذكورة، وأسلوبها اللغوي، وتخرجاتها التحليلية، بعيدا عن المحاباة والمجاملة، وبين المساءلة النقدية الدقيقة المحكومة بوعي نقدي فاعل يرمي إلى وضع مقدمات هذه البلاغة التأويلية ونتائجها على محكّ النقد والتمحيص^(١). ينضاف إلى هذا، وقياما على ذات الأساس من المساءلة النقدية، العديدُ من الندوات العلمية والأيام الدراسية، والمحاورات النقدية...

لأجل هذا آثرنا وضع جرد، في حدود علمنا وما بلغنا، للأعمال التي أقيمت حول مشروع الدكتور محمد بازّي التأويلي النقدي، منوّعا بين أيام دراسية، وندوات علمية، وأبحاث للدكتوراه، وأخرى للماستر، وغيرها للإجازة، ناهيك عن البحوث التربوية، والمقالات الأدبية النقدية، مقسّما تقسيما رباعيا، ابتداءً بالأيام الدراسية والندوات العلمية، مروراً بالمقالات والدراسات الأدبية النقدية، ثم الأبحاث العلمية الأكاديمية، ختمًا بحوارات جرت حول المشروع النقدي مع صاحبه الدكتور محمد بازّي، وتفصيل ذلك فيما يأتي:

١ - الأيّامُ الدّراسيةُ والندواتُ

- تنظيم المركز التربوي الجهوي بإنزكان، ليوم دراسي حول موضوع: "التأويلية العربية وإشكالات فهم الخطاب"، تكريما للدكتور محمد بازّي الحائز على

(١) - من كلام الدكتور إبراهيم أسيكار؛ في مقدمة كتابه "النموذج التأويلي التقابلي؛ معالم التأصيل ومستويات التنزيل".

- جائزة المغرب للكتاب لعام ٢٠١٠. وذلك يوم السبت رابع يونيو من عام ٢٠١١، بالمركز التربوي الجهوي بإنزكان.^(١)
- تقديم محاضرة حول المشروع التأويلي التقابلي، بجامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، من تنظيم طلبة الدراسات الأدبية، وذلك في شهر يونيو من عام ٢٠١١.
 - استدعاء الدكتور محمد بازّي لتقديم كتابه: "التأويلية العربية؛ نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات"، بالمعرض الجهوي للكتاب بأكادير عام ٢٠١١.
 - تنظيم ماستر الدرس اللغوي والخطاب القرآني وشعبة اللغة العربية وفقهها، لقراءة في مشروع الدكتور محمد بازّي من خلال مؤلّفه: "التأويلية العربية؛ نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات"، و"تقابلات النص وبلاغة الخطاب؛ نحو تأويل تقابلي"، وذلك يوم الجمعة في الرابع والعشرين من شهر فبراير لعام ٢٠١٢، بجامعة القرويين، كلية اللغة العربية بمراكش.
 - المشاركة في مؤتمر بجامعة الجزائر ٢، بمدخلة موضوعها: "نموذج التأويل التقابلي في فهم النصوص والخطابات"، بتاريخ: ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ من شهر أبريل لعام ٢٠١٢.
 - المشاركة في مؤتمر: "لسانيات النص وتحليل الخطاب"، عنوان المدخلة: "سيميائية النص وكيميائية التأويل؛ نحو تأويلية تقابلية عالمية"، أيام ١٩ و ٢٠ و ٢١ من شهر دجنبر لعام ٢٠١٢.

(١) - يُنظر في هذا الشأن، التقرير الذي نشره عبد الرحيم أوخراز في الجريدة الإلكترونية 'شتوكة بريس'، بعنوان: "تكريم الدكتور محمد بازي الحائز على جائزة المغرب للكتاب لسنة ٢٠١٠"، بتاريخ: ٠٨ يونيو ٢٠١١.

- استدعاء الدكتور محمد بازي لتقديم كتابه: "نظرية التأويل التقابلي؛ مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب"، بالمعرض الجهوي للكتاب بأكادير، سنة ٢٠١٣.
- تنظيم ثانوية محمد الجزولي التأهيلية بأزري، لندوة علمية حول: "نظرية التأويل التقابلي؛ مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب"، تحت إشراف الدكتور محمد بازي، وبمشاركة نخبة من الأساتذة والباحثين، وذلك يوم الجمعة في السابع والعشرين من شهر دجنبر لعام ٢٠١٣.
- تنظيم شعبة الآداب والعلوم الإنسانية والفنون، مسلك الدراسات العربية بالكلية المتعددة التخصصات بآسفي، ليوم دراسي حول المشروع التأويلي النقدي للدكتور محمد بازي بعنوان: "تأويلية التقابل سراجا ومنهاجا"^(١)، بإسهام الأساتذة الباحثين: د.محمد بازي، د.السعيد أهرو، د.مصطفى البروطي، د.الرحالي الرضواني، د.إبراهيم طير، د.إبراهيم أسيكار، د.إبراهيم نادن، ذ.هشام الدركاوي، ذ.بوبكر بورزوق. وذلك يوم الخميس في الثاني والعشرين من شهر ماي لعام ٢٠١٤.
- استضافة المدرسة العليا للأساتذة بتطوان للدكتور محمد بازي في ندوة علمية بعنوان: "تجارب إبداعية"، في حلقتها السادسة والثلاثين، بتقديم من الدكتور إبراهيم طير، وذلك يوم الجمعة في الثاني عشر من شهر دجنبر لعام ٢٠١٤، بالمدرسة العليا للأساتذة بمرتيل.^(٢)

(١) - جريدة إلكترونية؛ safi-zoom، "يوم دراسي حول المشروع التأويلي النقدي للدكتور محمد بازي: تأويلية التقابل سراجا ومنهاجا"، الرابط: <http://www.safizoom.com/news/٨٨٥>.

(٢) - بيان اليوم؛ مجلة رقمية، ملف أسبوعي من إعداد عبد السلام دخان، بعنوان: "سيميائية التقابل وكيميائية التأويل في المشروع النقدي للدكتور محمد بازي"، <http://www.bayanealyaoume.press.ma/index.php?view=article&tmpl=component&id=٤٤١٢٣>.

- تنظيم ماستر النقد وآليات اشتغاله، لقراءة في مشروع الدكتور القارئ البليغ للدكتور والباحث الأكاديمي محمد بازّي وذلك في السابع والعشرين من شهر أكتوبر عام ٢٠١٨، بجامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال.

٢- الدِّراسَات النَّقْدِيَّةُ وَالْمَقَالَاتُ الْأَدْبِيَّةُ

- دراسة مستفيضة في أعمال الدكتور محمد بازّي وحولها، من تنسيق الدكتور إبراهيم أسيكار، وتقديم الناقد الدكتور أحمد بوحسن، بعنوان: "النموذج التأويلي التقابلي؛ معالم التأصيل ومستويات التنزيل"، والتي أضحت كتاباً^(١) منسّقاً جمع العديد من الدراسات والأبحاث، لجماعة من الباحثين المتخصّصين، فاقوا تعدادا العشرين رجلاً، كلّهم من بلد المغرب، عدا اثنين، أحدهما من لبنان، والثاني من اليمن.

- دراسة للدكتور جامع هرباط بعنوان: "من نظرية التلقي إلى نظرية التأويل التقابلي؛ عرض وتطبيق"، التي حرص فيها على تفصيل القول حول كتاب "نظرية التأويل التقابلي" للدكتور محمد بازّي، متتبعا إياه تتبعا استقصائيا، في محاولة منه إبراز معالم نظرية التأويل التقابلي بتفصيل تامّ ودقيق، خاتما ذلك بشقّ تطبيقي من خلال دراسته لمرثية الشاعر الهذلي أبي ذؤيب، فاحت بها قريحته إثر مُصابه بفقد خمسة أبناء له في عام واحد.

- دراسة للدكتور سعيد العوادي، وهو باحث في التأويل والبلاغة بكلية اللغة العربية بمراكش، حول أعمال الدكتور محمد بازّي، والتي سمّاها: "بلاغة التأويل والتقابل البديعي؛ محاولة في التوسيع"^(٢)، وهي محاولة جادة في توسيع

(١) - يصدر قريبا عن دار عالم الكتب بإربد الأردن.

(٢) - التأويلية العربية؛ مجلة رقمية مهمة بقضايا التأويل والتقابل، مقال بعنوان: "بلاغة التأويل والتقابل البديعي؛ محاولة في التوسيع"، -[http://www.atawilia.com/٢٠١٣/٠٨/blog-](http://www.atawilia.com/٢٠١٣/٠٨/blog-post_٨٧٥١.html)، وهي محاولة جادة في توسيع

- المشروع، وتعميق البحث في التقابل البديعي، إسهاما منه في إغناء استراتيجية التأويل التقابلي من جهة، وتجديد الدرس البلاغي القديم من جهة أخرى.
- دراسة للدكتور حيدر برزان سكران العكيلي، الأستاذ المدرس بجامعة ذي قار بالعراق، كلية الآداب- قسم اللغة العربية، بعنوان: "التقابلات النصية في رواية 'ملحمة الحرافيش'؛ قراءة تأويلية في بلاغة التغييض وانفتاحه"، والتي قام فيها بدراسة رواية: "ملحمة الحرافيش"، للكاتب المصري نجيب محفوظ، اعتمادا على التأويل التقابلي باعتباره فاعلا مهما في الولوج إلى النص الروائي والكشف عن مكنونه الفكري ومحتواه المضموني، واصفا إياه بأنه المعالج الرئيس في معرفة بلاغة النص الروائي وتحديد 'التغييض'^(١) كونه استراتيجية تعمل على التقريب بين العناصر والمستويات ذهنيًا، بأي شكل من الأشكال، وذلك عبر إحداث تواجه بين بنيتين، أو وضعين، أو موقفين، أو غير ذلك... إنه اشتغال في الفهم يقوم على التساند في الآليات.^(٢)
 - مقال للدكتور السعيد أهرو بعنوان: "بعض معالم منهاج محمد بازي في كتابه: نظرية التأويل التقابلي"، الذي أقامه على أساس إيضاح المنهج القويم الذي سار عليه الدكتور محمد بازي في كتابه: "نظرية التأويل التقابلي؛ مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب"، الذي سماه: "المنهج المهيمن"، مفصلاً فيما بعد هذا المنهج، مبينا وجوه هيئته، بتحديد معالمه وتوضيحها معلماً معلماً.
 - مقال للدكتور إبراهيم طير بعنوان: "مفهوم 'النص' في نظرية التأويل التقابلي؛ المشروع النقدي التأويلي للدكتور محمد بازي نموذجاً"، والذي حوى إلماعات

(١)- مفهوم التغييض يتعلق بالارتباط الوثيق بين ما يدور في الخطاب وأجزائه، وبين عنوان الخطاب أو نقطة بدايته، يُنظر: لسانيات النص؛ (مدخل إلى انسجام الخطاب): ص ٥٩.

(٢)- مجلة كلية الآداب / العدد ١٠١.

بخصوص "النص" في نظرية التأويل التقابلي، كما بسطها الدكتور محمد بازي في مشروعه النقدي.

● مقال حول كتاب "التأويلية العربية؛ نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات"، من إعداد الأستاذ الباحث أحمد العياشي، بمناسبة الاحتفاء بالدكتور محمد بازي؛ على خلفية نيته جائزة المغرب للكتاب عام ٢٠١٠، والذي حرص فيه على إبراز الجهد الفكري والمنهجي، الذي تطلبه ذلك العمل من الدكتور محمد بازي، مدللًا على ذلك بدلائل عدة (غنى المرجعيات وتنوعها / الغنى المصطلحي / لغة الكتابة...).

● مقال للكاتب والباحث السوري عمر كوش بعنوان: "التأويلية العربية لمحمد بازي، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص"، والذي حاول فيه رصد ما قام به الدكتور محمد بازي من جهود في صياغة مبادئ بلاغة تأويلية، انطلاقًا من اعتبار أن التأويل خلق مستمر، ووسيلة للتواصل بين الثقافات وحضارات الحقب التأويلية المتباعدة، مثلما هي الحال بين الثقافة العربية وغيرها من الثقافات الأخرى المختلفة، وكيف أن الدكتور محمد بازي سعى سعيًا إلى تمثل الظاهرة التأويلية، وإعادة صياغتها بروح جديدة، كما لم يُعفل الباحث عمر كوش الحديث عن مفهوم "التساند"؛ الذي اقترحه صاحب المشروع، على خلفية وفائه لوصف الإجراءات التأويلية النازمة لمعطيات النص، مُشيرًا في آخر المقال إلى الجانب التطبيقي الذي رصد فيه المؤلف قنوات المعنى في خطابات التفسير والشروح الشعرية.

● مقال بعنوان: "خطاب الصورة في الكتاب المدرسي؛ دراسة تحليلية تقابلية"، للأستاذ الباحث إسماعيل بن أشراف، وهو فصل من بحث تربوي للتخرج من المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بإنزكان، والذي قام فيه بتنزيل

- المشروع النقدي التأويلي التقابلي على تحليل صور أغلفة الكتب، في محاولة منه تقريب المعاني إلى الأذهان، والانفتاح على التأويل انطلاقاً من الأفكار المخزّنة في الذاكرة، وبالتالي فهم مضمون الكتاب انطلاقاً من صورة غلافه الخارجي.
- مقال للأستاذ الباحث محمد مساطة، وهو قراءة في كتاب الدكتور محمد بازّي: "تقابلات النص وبلاغة الخطاب، نحو تأويل تقابلي"، حيث قام فيه بدراسة شاملة للكتاب، بدءاً بعبّاته الأولى، مروراً بفصوله فصلاً فصلاً، وصولاً إلى استنتاج مفادّه إبراز سعي الدكتور محمد بازّي سعياً حثيثاً، من خلال مؤلفه هذا، إلى تأسيس جمالية تأويلية تعتمد الطاقات الدلالية التي تحتزنها اللغة والتراكيب التي على إثرها غدا التأويل التقابلي بحقّ استراتيجية وآلية فعالة لصناعة المعنى، وفهم النصوص والخطابات وتفهمها.
 - مقال للأستاذ الباحث لحسن إفركان بعنوان: "نظرات في مشروع الدكتور محمد بازّي التأويلي"^(١)، نشره في الجريدة الثقافية الإلكترونية 'طنجة الأدبية'، محاولاً من خلاله تقديم تحديد مختزل لمنهجية التأويل التقابلي، وذلك بعرض ملامحه المنهجية، وآلياته الاستراتيجية، دون الاهتمام بالملاحظات النقدية الموجهة إليه، كما يصرح في مقدمة المقال.

٣- أَلْبَحُوثُ الْأَكَادِيمِيَّةُ

١.٣- بَحُوثُ الدُّكْتُورَاهُ

- بحث لنيل شهادة الدكتوراه بعنوان: "المقاربة التأويلية التقابلية للنص الشري القديم؛ 'حي بن يقظان' لابن طفيل أنموذجاً"، من إعداد الطالب الباحث بوبكر بورزوق، بجامعة محمد الخامس - أكادال، كلية الآداب والعلوم

(١) - طنجة/ الأدبية، الجريدة الثقافية لكل العرب. ملف الصحافة ٠٢/ ٢٠٠٤. الإيداع القانوني ٢٠٠٤/ ٠٠٢٤.

الإنسانية بالرباط، مركز دراسة الدكتوراه، الإنسان والمجال في العالم المتوسطي، تحت إشراف الدكتور سعيد يقطين.^(١)

• بحث لنيل شهادة الدكتوراه بعنوان: "التأويل التقابلي للربيع الأخير من القرآن الكريم، مدخل لانسجام الخطاب القرآني"، من إعداد الطالب الباحث خالد عرنبية، الذي قدّمه للمناقشة في جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش.

٢.٣- بُحُوثُ الْمَأَسْتَرُ

• بحث لنيل دبلوم الماستر بعنوان: "التأويلية بين بنوية كيليطو وتقابلية البازي"، من إنجاز الطالب الباحث محمد أبو حبيبة، الذي قدّمه للمناقشة في جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش، ماستر الأدب العربي؛ أصوله اللغوية ومناهجه النقدية، تحت إشراف الدكتور عبد القادر حمدي. وهو بحث قسمه صاحبه إلى ثلاثة فصول، جاعلا الأول والأخير منها مباحث ثلاثة، أما الثاني فقد اكتفى فيه بفصلين اثنين، وقد أوقفت الباحث تساؤلاته الإشكالية، وطُروحائه الاستفتاحية، على باب مشروع الدكتور عبد الفتاح كيليطو التأويلي البنيوي، ومشروع الدكتور محمد بازي التأويلي التقابلي، فما كان منه إلا أن طرق البابين بإلحاح شديد، لعلّه ينهل من معين تأويلية الباحثين ما يقوم به بحثه، ويُغني أطروحته، والكلام عن درجة توفّقه في ذلك يطول، وإنما القصد الجرد دون تفصيل.^(٢)

(١)- نشرت عن ذلك الجريدة الإلكترونية: 'ألو ٤٤ صوت المواطن' مقالا بعنوان: "الدكتور بوبكر بورزوق يتألق بجامعة محمد الخامس الرباط"، الرابط: <http://allo44.com/?p=6608>. وكذلك تم نشر مقال في ذات الشأن بجريدة 'تايمه بريس'، بعنوان: "تمتة الأستاذ بوبكر بورزوق بمناسبة نياله لشهادة الدكتوراه في الآداب"، الرابط: <http://teimapress.com/?p=45664>.

(٢)- وقد اطلعت على نسخة منه أمديني بها الدكتور محمد بازي.

• بحث لنيل شهادة الماجستير في موضوع: "بلاغة التقابل في القرآن الكريم؛ دراسة تطبيقية على سورة الرعد"، من إنجاز الطالب الباحث حميد الزيتوني، بجامعة القروين، كلية اللغة العربية بمراكش؛ ماجستير الدرس اللغوي والخطاب القرآني، تحت إشراف الدكتور عبد الحفي العباس، وقد حاول فيه الطالب الباحث معالجة موضوع التقابل في القرآن الكريم، معتمداً، في أساسه النظري، الجمع بين ما جاء في دراسات الباحثين: محمد بازي، وفايز القرعان، ومحاولاً التركيز على المعاني الناشئة عن التقابلات، ومدى إسهامها في بناء معاني النصوص والخطابات.

• رسالة لنيل شهادة الماجستير بعنوان: "تأويلية التقابل بين التأصيل النظري والتنزيل النقدي (دراسة تحليلية)"، من إنجاز الطالب محمد مساطة، بجامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش، ماجستير الأدب العربي؛ أصوله اللغوية ومناهجه النقدية، تحت إشراف الدكتور عبد القادر حمدي، للموسم الجامعي ٢٠١٣-٢٠١٤.

٣.٣- أَلْبَحُوثُ التَّرْبُويَّةُ^(١)

• بحث تربوي بعنوان: "زهور شافعية؛ قراءة تأويلية تقابلية"، من إنجاز الأستاذ المتدرب عبد السلام ماركاني، بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بإنزكان، شعبة اللغة العربية، تحت إشراف الدكتور محمد بازي، عام ٢٠٠٩-٢٠١٠. وهو بحث ركز فيه صاحبه على الجانب التطبيقي، تنزيلاً على آيات مختارة من ديوان الإمام الشافعي - رحمه الله -، في محاولة منه تأويل معناها وتأويلها تقابلياً.

(١) - البحوث المثبتة في هذا الشق من الجرد من إمداد الأستاذ الدكتور محمد بازي - مشكوراً جزيل الشكر وأوفره على ذلك -، وقد تمّ الاطلاع عليها بحثاً بحثاً، ثم الإشارة إلى مضمون كل منها بما أتبع وتيسر.

- بحث تربوي بعنوان: "استراتيجية التقابل منهجا للفهم والتفهم في الممارسة التربوية؛ تطعيم لمنهجية تدريس كتاب المختار في اللغة العربية للسنة الثالثة ثانوي إعدادي"، من إنجاز الطالب الباحث والأستاذ المتدرب عادل ضروري، بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بإنزكان، تحت إشراف الدكتور محمد بازي، عام ٢٠١١-٢٠١٢. حيث حاول الباحث فيه مقارنة موضوع الفهم والتفهم وفق منظور جديد يعتمد التقابل أساسا له.
- بحث تربوي من إنجاز الطالب الأستاذ يوسف رضى، بعنوان: "الفهم والإفهام في الحقل البيداغوجي"، تحت إشراف الدكتور محمد بازي، بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بإنزكان، عام ٢٠١١-٢٠١٢. وهو بحث أقامه صاحبه على إشكال أساس محوره الفهم والإفهام، لتتفرع عنها إشكالات فرعية تدور حول المحور ذاته، مقترحا في حل كل تلك الإشكالات اعتمادا استراتيجية التقابل، باعتبارها أبانت عن مدى جدواها وفعاليتها في فهم النصوص وتفهمها.
- بحث تربوي بعنوان: "تدريس النص الأدبي من منظور تأويلي تقابلي"، بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، عام ٢٠١٢-٢٠١٣، من إنجاز الأستاذ المتدرب عبد العزيز بلفقيه، تحت إشراف الدكتور محمد بازي. وهو بحث تناول إجرائية تدريس النص الأدبي وفق نظرية التأويل التقابلي، على اعتبار أنها نظرية أثبتت جدواها وجدديتها في اختراق النصوص، وتبيان خباياها، والكشف عن مكنون معناها.
- بحث تربوي بعنوان: "تدريس المؤلف السردى من منظور التأويل التقابلي"، من إنجاز الأستاذ المتدرب محمد تايشينت، بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بإنزكان، شعبة اللغة العربية، مسلك الثانوي التأهيلي، تحت إشراف الدكتور محمد بازي، عام ٢٠١٣-٢٠١٤.

والذي رام منه الباحث تسليط الضوء على إشكالات إقراء النصوص الأدبية وما يشوبها من تعثر، مقترحا المقاربة التأويلية حلاً بديلاً لتلك المعوقات - كما سهاها هو نفسه -.

- بحث نهاية السنة التكوينية، بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بإنزكان، من إنجاز الأستاذ المتدرب إبراهيم شكري، والذي سمّاه: "تدريس النصوص بالسلك الثانوي التأهيلي من وجهة نظر التأويل التقابلي"، تحت إشراف الدكتور محمد بازّي، عام ٢٠١٣-٢٠١٤. وقد رام هذا الأستاذ من بحثه أعمال منهجية التأويل التقابلي في مقارنة النصوص الأدبية بالسلك الثانوي التأهيلي فهما وتفهما.
- بحث تربوي من إنجاز الطالب الأستاذ إسماعيل بن أشريف بعنوان: "التحليل التقابلي لخطاب الصورة بالكتاب المدرسي؛ مرشدي في اللغة العربية أنموذجاً"، بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بإنزكان، تحت إشراف الدكتور محمد بازّي، عام ٢٠١٣-٢٠١٤. وقد حاول البحث الوقوف عند طريقة تُسهّم في تحليل خطاب الصورة -التي غالباً ما تكون ذات صلة وثيقة بمضمون النص المرفقة به ومُحيّلة عليه-، مهتدياً إلى المنهج التقابلي كونه أنجع وأيسر وسيلة لذلك.
- بحث تربوي بعنوان: "التأويل التقابلي وتجديد درس الأدب"، من إنجاز الأستاذ المتدرب إبراهيم أكراف، وتحت إشراف الدكتور محمد بازّي، بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، عام ٢٠١٣-٢٠١٤. وقد حرص الباحث فيه على تبيان إمكان توظيف نظرية التأويل التقابلي في المجال التربوي، وجعله منهجاً مرناً -على حدّ تعبيره- في مقارنة النصوص الأدبية وفهما وتفهما.

- بحث تربوي في نهاية العام التكويني ٢٠١٤-٢٠١٥، من إنجاز الأستاذ المتدرب زين العابدين الكنتاوي، بعنوان: "تنزيل الدرس البلاغي بالثانوي التأهيلي من منظور تأويلي تقابلي"، بإشراف الدكتور محمد بازي، بمركز التكوين الجهوي لمهن التربية والتكوين. وقد رأى هذا الباحث في المشروع التأويلي التقابلي منهجا متقنا وفعّالا، وأداة إجرائية يجدر بها أن تكون أساسا معرفيا يتوخى الإبداعية والوصول بالمتعلم إلى أرقى مستويات الفهم والاستيعاب، فأثره مقترحا بديلا لفهم الدرس البلاغي وإفهامه.
- بحث تدخلي/ ميداني بعنوان: "تنزيل التأويل التقابلي في تدريس المؤلفات (المؤلف السردي أنموذجا)"، من إنجاز الطالب الباحث محمد مساطة، وإشراف الدكتور محمد بازي، بمركز التكوين الجهوي لمهن التربية والتكوين، عام ٢٠١٤-٢٠١٥. الذي حاول، من خلاله، إخراج درس المؤلفات مما صار يُعتبر فيه عبئا ثقيلا على أذهان الطلبة، إلى أصله الذي ينبغي أن يكون عليه من كونه فضاءً متعةً وتذوقٍ لجمالية الأدب، معتمدا، في ذلك، التأويل التقابلي، بجعله بديلا نظريا، ومُعينا ديداكتيكيا في فهم نصوص المؤلف السردية وتذوقه والاستمتاع بأدبيته كما يجب.
- بحث تربوي بعنوان: "التنزيل التربوي لتأويلية التقابل؛ تدريس النص الشعري بالثانوي التأهيلي نموذجا"، من إنجاز الأستاذ المتدرب علي المحجوب، تحت إشراف الدكتور محمد بازي، بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، عام ٢٠١٤-٢٠١٥. وقد حاول ذلكم الباحث من خلال مُنجزه تنزيل النموذج التقابلي في السياق التعليمي التعلّمي، من أجل تمكين المتعلمين من تذوق النصوص الشعرية وسبر أغوار معانيها.

٤.٣- بُحُوثُ الإِجَازَةِ

- بحثٌ للطالب أحمد بوزيد تقدّم به لنيل شهادة نهاية الدراسة بعنوان: "إسهام التقابلات النصية في نصية الخطاب السردي؛ دراسة تأويلية لمجموعة 'زقاق الموتى' لعبد العزيز الراشدي"، تحت إشراف الدكتور عبد السلام فيزازي، في الموسم الجامعي ٢٠١٢ - ٢٠١٣، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير.
 - بحث من إنجاز الطالبتين حنان الساقى ومريم سيكل، لنيل شهادة الإجازة بعنوان: "دراسة الحكاية العجيبة من منظور تأويلي تقابلي"، تحت إشراف الدكتور حسن الطالب، لموسم ٢٠١٥ - ٢٠١٦، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير.
- وهو بحث يروم رصد الخلفيات التي تنطلق منها نظرية التأويل التقابلي وكذا المرجعيات والأسس التي استندت إليها، ويحاول تنزيل ذلك على نصّ حكاية عجائبي، مقتبس من مجموعة قصصية من تأليف غزلان العيادي، وعنوانه "حمو المسكين".
- بحث لنيل شهادة نهاية الدراسة من إنجاز الطالب عبد الحق الحمداوي بعنوان: "نظرية التأويل التقابلي؛ مسارات التأصيل ومستويات التنزيل"^(١)، تحت إشراف الدكتور حسن الطالب، للموسم الجامعي ٢٠١٥ - ٢٠١٦، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير.
- إن الحديث عن المشروع التأويلي التقابلي يجرّنا ضرورةً إلى محاولة تتبّعه خطوةً خطوةً، بدءاً بإرهاصاته الأولى، مروراً بالمراحل التي قطعها قبل استوائه على ساق التمام، ووصولاً إلى مرحلة أخيرة توسيعيّة للمشروع النقدي البارزي.

(١)- وهو بحثنا المتواضع هذا الذي نقدم بين يديه هذا الجرد، جاعلين ذلك أول محور منه، وبالله التوفيق.

لقد سلفت الإشارة - في مقدّمة المحور الأول - إلى أن المشروع التأويلي التقابلي تمثّله خمسة كتب؛ على رأسها كتاب: "صناعة الخطاب: الأنساق العميقة للتأويلية العربية"، ثم كتاب: "التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات"، ثم يليهما كتاب: "تقابلات النص وبلاغة الخطاب: نحو تأويل تقابلي"، فكتاب: "نظرية التأويل التقابلي: مقدّمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب"، وأخيراً كتاب: "البُنى التقابلية: خرائط جديدة لتحليل الخطاب". فأما الكتابان الأوّلان^(١) فهما العتبة الأولى للمشروع، وأما الكتاب الثالث^(٢)، فيتسم ببناء مفاهيمي جادّ ومُحصّص، شاقاً طريقه نحو البناء النظري لتأويلية التقابل؛ وهو ما تحقق في الكتاب الرابع^(٣)، أما خامس الكتب^(٤) فقد مثّل مرحلة توسيعيّة لمفاهيم التقابل الأصلية والفرعية.

١ - مَرَحَلَةُ الْإِسْتِكْشَافِ (الْأَرْهَاصَاتُ الْأُولَى)

"النص واستراتيجيات التأويل: مقارنة في خطاب التفسير"، "التأويلية العربية: تجليات التساند ومستويات انفتاح السياق"؛ عنوانان وسَمَ بهما الباحث محمد بازي أطروحتين له، أولاهما حصل بها على دبلوم الدراسات العليا عام تسع وتسعين وتسع مئة وألف (١٩٩٩م)، في جامعة محمد الخامس بالرباط، ونال بثانيتها شهادة الدكتوراه في الآداب سنة ست وألفين (٢٠٠٦م)، من الجامعة نفسها.

يَنُمُّ هذان العنوانان عن ولع الباحث منذ اهتماماته العلمية الأولى بدراسة الخطابات، خصوصاً خطابات التفسير؛ كونها شكّلت الأرضية المتينة التي بُنيَ عليها

(١) - وهما: "صناعة الخطاب: الأنساق العميقة للتأويلية العربية"، و"التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات".

(٢) - وهو كتاب: "تقابلات النص وبلاغة الخطاب: نحو تأويل تقابلي".

(٣) - أي كتاب: "نظرية التأويل التقابلي: مقدّمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب".

(٤) - أعني كتاب: "البُنى التقابلية: خرائط جديدة لتحليل الخطاب".

صرح النموذج التأويلي التقابلي، وهو شيء يُوضّح ويُثبت ما أصدره في هذا الصدد من مؤلفات تُعنى بالتأويلية العربية، في مقدمتها كتاباً: "صناعة الخطاب: الأنساق العميقة للتأويلية العربية"، و"التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات"، إنها الكتابان اللذان يلمس فيهما القارئ المتمعن المتأني مرحلة الاستكشاف، حيث شكّلا إرهاصات أولى للمشروع التأويلي التقابلي. فكيف يمكن عدّ كل من المؤلفين ممثلاً لما سميناه "مرحلة الاستكشاف"؟

١٠١- كِتَابُ: "صِنَاعَةُ الْخِطَابِ: الْأَنْسَاقُ الْعَمِيقَةُ لِلتَّأْوِيلِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ"

يُجَيِّلُ للمتصفح، في عَجَالَةٍ، للمشروع التأويلي التقابلي، أن كتاب "صناعة الخطاب" آخر ما ألفه محمد بازّي حول تأويليته التقابلية، بيد أن صدوره كان في العام الخامس عشر بعد الألفين (٢٠١٥م)، وهو عام متأخر عن سنوات صدور كتبه الأخرى الممثلة للمشروع، عدا كتاب: "البُنى التقابلية: خرائط جديدة لتحليل الخطاب"، الصادر في العام ذاته. والواقع أن الكتاب كان أول تأليف في المشروع، والذي يفسّر تأخر سنة صدوره ضياع نسخته الرقمية لأسباب تقنية، ثُمَّ لم يتمّ رُقْنُهَا إلا بعد مرور وقتٍ من الزمن ليس باليسير؛ وقتٍ تيسّرت فيه للمؤلف إعادة تعميق كثير من التصورات، وإدخال شيء من التعديلات، والتخلي عن بعض الزائدات، فأضحى الكتاب -على تأخر نشره- عتبةً منسجمةً المقترحات مع غيره من المؤلفات، السابقة له طبعاً ونشراً، اللاحقة له تأليفاً وزبّراً، يقول محمد بازّي مقرّراً ذلك: "وقد كان خيراً لهذه الأبحاث أن ضاعت نُسختها الرقمية -وقتئذٍ- لأسباب تقنية، وصمدت النسخة الورقية أمام تقلبات الزمان ودوران النسيان. ولَمَّا تمّ رُقْنُهَا للمرة الثانية حصلت مراجعتها بشكل شمولي، وأعيدَ تعميق كثير من التصورات الواردة فيها، وتعديل ما بدا تعديله ضرورياً، كما تمّ حذف بعض الفصول وإضافة أخرى. ومن ثمة أصبح انسجامها مع المقترحات التي نُشرت قبلها من مُهمّات

التعديل ومُتَمَّاتِه، وذلك حتى يقف القارئ على التّعالقات الحاصلة بين الأنسجة الكلية لفهمنا للتأويلية العربية، ومحاولة استخراج أنساقها وبُناها العميقة." (١).

إذا تقرّر هذا، وعُلم أنه "يعود إنجازُ المسوّدات الأولى لهذا الكتاب لعقدين من الزمن" (٢)، تحتم علينا تبيان كيفية تمثيله لأولى عتبات المشروع التأويلي التقابلي، وكيف يمكن اعتباره مندرجا في مرحلة الاستكشاف.

حرّك اهتمام المؤلف "البحث عن قوانين أو قيود مؤطرة للفعل التأويلي ومحققة لبلاغته" (٣)، ليندفع إلى تأليف هذا الكتاب طارحاً سؤالين مفصليين: "كيف يمكن النظر إلى الخطابات التفسيرية باعتبارها صناعة معرفية لها قواعدها وضوابطها؟ وكيف يمكن الانتقال بدرس تحليل الخطاب من بلاغة الجملة إلى بلاغة الخطاب؟" (٤). إنها محاولة للنظر في التأويليات القديمة من منظور تأويلي عرفاني يحدد مستويات بلاغتها، وبُناها العميقة.

إن مطمح الباحث محمد بازّي في صياغة نموذج بليغ في صناعة الخطاب، جعله يعتمد خطاب التفسير نموذجاً لدراسته، لكن اصطدامه بتنوع خصائص الخطابات التفسيرية وبرامج عملها، وأدواتها... دفعه إلى النمذجة بخطاب تفسير أبي القاسم محمود الزمخشري (٥)، من خلال كتابه: "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون

(١) - بازي محمد، "صناعة الخطاب: الأنساق العميقة للتأويلية العربية"، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠١٥م ١٤٣٦هـ، ص ٢١.

(٢) - المصدر نفسه، ص ٢١.

(٣) - نفسه، ص ٥١.

(٤) - نفسه، ص ١٣.

(٥) - هو العلامة الأديب أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري، نسبة إلى 'زمخشري' إحدى قُرَى خوارزم، المولود بها سنة ٤٦٧هـ، سُمي 'جار الله' لرحيله إلى مكة ومحاورتها زماناً، وبها ألف تفسيره الشهير: 'الكشاف'؛ الذي هو موضوع اشتغال الباحث محمد بازّي، إمام عصره في اللغة والنحو والبيان والتفسير والحديث، معتزلي الاعتقاد، صاحب التأليف النافعة الماتعة في شتى الفنون، توفي بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٤م.

يُنظر في ترجمته: "طبقات المفسرين" لعبد الرحمان بن محمد السيوطي، و"التفسير والمفسرون" للإمام الذهبي، و"طبقات المفسرين" لأحمد الداودي، و"وفيات الأعيان" لأبي العباس أحمد بن خلّكان، و"شذرات الذهب" لابن عماد الحنبلي.

الأقاويل في وجوه التأويل"؛ لاعتباره حقلاً معرفياً خصباً، تتقاطع فيه خطاباتٌ وعلومٌ آلية ووظيفية عدّة، ولكونه يمثل نموذجاً معرفياً، يتضمن في العمق نظرية متكاملة للفهم وبناء المعنى. إضافة لما يمتلك ذلك المفسر (الزمخشري) من ملكات ومهارات وقدرات في بحر التأويل. على أمل أن يكون الكتاب (الكشاف) أنموذجاً يُحتذى به في بناء نماذجٍ أخرى قوية في الفهم والإفهام وتحليل الخطاب، مع إمكان تعميم النتائج المتوصل إليها على سائر التراث التفسيري، يقول محمد بازي: "وليس 'الكشاف' إلا تمثيلاً لهذا الخطاب التفسيري الممتد الأطراف، والذي نعتبره موسوعة للعلوم المعرفية، وملتقى الاجتهادات الجماعية المختلفة لبناء المعنى، ومحفلًا يستحضر نتاج العقل العربي في حقول مختلفة، ويُنتظر من زاوية أخرى أن يكون منطلقاً لبناء نماذج قوية جديدة في الفهم والإفهام وتحليل الخطاب"^(١).

يهدف محمد بازي من خلال تحليل خطاب تفسير 'الكشاف' -باعتباره نموذجاً لصناعة خطاب تفسيري تأويلي- إلى بيان أن الآليات التأويلية العديدة المتقاطعة داخله، لا تخرج عن إوالات تأويلية كونية ترتد في نهاية المطاف إلى إطارين رئيسيين:

- النص بكافة أدوات انبائه؛ اللغوية، والنحوية، والبلاغية... وكل ما يُشكّل مُشيرًا لبناء الدلالة؛

- السياق بمحمولاته البانوية لدلالات غير مُكتملة نصياً.

ولعل الفروض التي انطلق منها في مقارنته للتأويلية العربية، وما يتعلق بموجّهات صناعة خطاب التفسير، جعلته يتأكد -بعد مطالعات نظرية عدّة- أن صناعة الخطاب في التفاسير العاملة^(٢) تنطلق من بُنى نصية، وتستند إلى أدوات علمية دقيقة لفهم الخطاب وسبر أغوار معانيه: اللغة/ الصرف والاشتقاق/

(١)- صناعة الخطاب، م.م، ص ١٥٣.

(٢)- يقصد محمد بازي بالتفاسير العاملة تلك "المتعددة عن الميولات والأهواء الشخصية أو المذهبية".

(أنظر "صناعة الخطاب"، م.م، هامش ص ٥١).

النحو والإعراب/ علم البلاغة/ علم القراءات...^(١)، وسياقية (خارج نصية) مرتبطةً بالقارئ، أو بسجلات النص وذخائر المؤول، مستندةً هي كذلك إلى أدوات معرفية يستعان بها لفتح مغالق المقروء: إشباع الخطاب عبر أسباب النزول/ تساند النصوص القرآنية/ الاستناد إلى نصوص الحديث النبوي الشريف/ تطلب أقوال الصحابة/ الانفتاح على شواهد الشعر/ ملء بياضات قصص القرآن بالإسرائيليات/ استحضار الأخبار المتعلقة بدعوة الإسلام وتاريخه/ الاستناد إلى الآراء الفقهية المذهبية/ التمثل بأمثال العرب...

إن هذا التساند/ التطلب الذي يشكل أرضية لصناعة الخطاب في التفاسير ليس حبيسَ مستوى دون آخر، بل إنه يتجاوز ذلك إلى التفاعل داخل الخطاب بين شتى المستويات (مستويات البنى النصية والسياقية على حدٍ سواء)، وقد قام الباحث محمد بازي ببناء شبكات عامّة عن تلك المستويات، فتبين له أن كل خطاب تفسيري وراءه صناعة محكمة قائمة على تطلب المستويات: اللغة تطلب الاشتقاق، النحو يطلب البلاغة، البلاغة تطلب النحو، القراءات تطلب النحو، اللغة تطلب الشاهد الشعري، تطلب الشواهد والنصوص، آيات قرآنية تطلب أخرى، القرآن يطلب الحديث،

(١) - تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن البنى النصية لا تقتصر -من وجهة نظر محمد بازي- فقط على هذه الأدوات المذكورة (اللغة/ الصرف والاشتقاق/ النحو...)، بل تتعداها إلى أنماط أخرى لها دور في تشكّل الخطاب القرآني، تندرج في حيز علوم القرآن، وقد حدّت في الكتاب في سبع مسائل، وخصّت بمحفل كامل من محافله، وهي إجمالاً:

- تباين البنى الدالة في النص القرآني.
- تجاوز المبهم والواضح.
- المطلق والمقيد.
- مؤهّم الاختلاف.
- المفهوم والمنطوق.
- الحروف المقطعة.
- الحقيقة والمجاز.

القصة القرآنية تطلب الأخبار والمرويّات... إلى غير ذلك من أنواع التطلب الكائنة والممكنة.

إنها معرفةٌ موجّهة للمفسرين تعكس بعداً تساندياً غير خفي، فالأدوات المعتمّدة المستقاة من العلوم المرجعية تساند فيما بينها لبناء المعنى، وكأن كل علم يرفد الآخر ويطلبه، وهذا مبدأ قوي تقوم عليه التأويلية العربية، وهو مَلَمَحٌ قائم على تدوير آلية التأويل وتوجيهها لفتح بوابات مختلفة في واجهات معرفية متنوعة، وهذا الذي يحقق ما سماه محمد بازّي: "التطلب" أو "التساند" الحاصل بين الموادّ المعرفية والعلوم، ونتأج ذلك تساند الأدوات من أجل غاية الفهم والإفهام. إذًا؛ فالمقترح المعرفي في كتاب "صناعة الخطاب" يقوم "على تعزيز نموذج التساند والتعاقد في الفكر العربي القديم"^(١).

٢.١- كِتَابُ: "التَّأْوِيلِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ: نَحْوُ نَمُودَجِ تَسَانِدِيٍّ فِي فَهْمِ النُّصُوصِ

وَالْخَطَابَاتِ"

شغلت الباحث محمدًا بازّي، في كتاب "التأويلية العربية"، صياغةً مبادئ لبلاغة تأويلية، تُوصِل إلى سلطة قرائية بديلة تحترم شروط التعاقد التأويلي^(٢)، وهي فلسفة تأويلية جديدة، تقدّم على إثرها بطرح تصوّري وتطبيقي، منطلقاً من سؤال قاعدي: "ما الذي يُحقق لدى قارئ معين بلاغة تأويلية كما تحققت لصاحب النص

(١)- صناعة الخطاب، م.م، ص ٢٦٥.

(٢)- وهو - كما عرّفه محمد بازّي- "إطار معرفي يتشكل من خلال مجموعة من التصورات والمبادئ والمعايير التي يحددها نسق ثقافي معين؛ فالمنتج يلتزم بشروط إنتاجية عامة يتحقق بها التواصل والتفاعل مع نصه. والنص كذلك من حيث شكلُ بنائه وتجليه الكتابي، ليس متعالياً عن قوانين المنظومة التي أنتج وأوّل داخلها. كما أن القارئ بدوره يعمل على الوفاء بشروط التعاقد المرجعي الثقافي الذي يتم داخله التأويل. وتقوم سلطة هذا التعاقد على إجماع المتخصصين بمجال تأويلي محدد: التفسير، الشروح، النقد، القانون، الأدب...". [محمد بازّي، "التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات"، منشورات الاختلاف، والدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ص ٣٤٨].

بلاغة إنتاجية؟^(١). إنه - في الجملة - طرح تسمي للنموذج التساندي الذي اكتشفه في الفكر العربي القديم، وطارحه في كتابه "صناعة الخطاب".

اقترح الباحث، بدءاً، إجراءاتٍ عمليةً تنظيميةً للممارسة التأويلية، من خلال ما سماه: "الدوائر الصغرى"^(٢) و"الدوائر الكبرى"^(٣). وهما مفهومان توصل إليهما من خلال التأمل في ثلاثية اعتمدها المؤولون قديماً، عن وعي أم عن غير وعي، وهي ما وسماها ب: "بلاغة الارتداد"^(٤) و"بلاغة الامتداد"^(٥) و"بلاغة الترجيح"^(٦)؛ حيث أكد في معرض الحديث عنها، أن بلاغة الارتداد (النقلية) وبلاغة الامتداد (العقلية) متساندتان ومتلاحتان، لكنهما تحتاجان إلى بلاغة ثالثة لا تقل عنها أهمية هي بلاغة الترجيح؛ التي تشترط مراعاة المؤول لمواضع اللغة ومقاصد الشريعة، والاستناد إلى معايير ترجيح مقبولة، وهو ما يتطلب في المؤول كفايات معرفية ومنهجية وعقدية؛

(١) - بازي محمد، "التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات"، منشورات الاختلاف، والدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ص ١٧.

(٢) - والمراد بها: "كلُّ المؤشرات النصية الدالة التي ينطلق منها الفعل التأويلي الباني للمعنى، من أفعال وحروف وأسماء، وتراكيب نحوية، وبلاغية، وعلامات سميائية قابلة للفهم والتأويل". [التأويلية العربية، م.م، ص ٣٥٢].

(٣) - وهي عبارة عن آلية "تفتح بموجبها القراءة على وسائط سياقية من خارج النص؛ وتشكل من مختلف المرجعيات التي يعود إليها القارئ المؤول ملء بياضات النص الدالة وإغناء المعنى بموازيات أخرى: قرآنية، وحديثية، وشعرية، وخبرية، وموسوعية، وغيرها". [التأويلية العربية، م.م، ص ١٨٧].

(٤) - وهي "حركة ذهنية ارتدادية نحو المرجع والأصل والنقول والنصوص الموازية؛ أي إن اعتمادها أساساً على النقل. [التأويلية العربية، م.م، ص ٤٩].

(٥) - وهي "حركة امتدادية نحو الغاية الدلالية للنص المؤول أو مقصده، وبالأخص في ما لم ترد فيه نقول؛ أي إن اعتمادها أساساً على العقل. [التأويلية العربية، م.م، ص ٤٩].

(٦) - وهي "نتائج جهد ذهني وبحث عميق في مرجحات وأدلة قوية لتأكيد هذا المعنى أو ذلك. وهي عمليات تُراعى فيها اللغة ومواضعها، ومقاصد النص أو مقاصد صاحبه إذا كانت معروفة (وهي ليست معياراً دائماً)، ومساق الكلام، وغيرها من المعايير". [التأويلية العربية، م.م، ص ٣٤٦].

كفاياتٍ تتيح له إحداث تفاعل بين دوائر النص الصغرى (مجموع البنيات الجزئية المؤدية للمعنى: اللغة/ النسق النحوي/ النسق البلاغي/ القراءات...) ودوائره الكبرى (سياق النص/ النصوص الموازية/ نص الثقافة...)؛ وتأسيساً على ذلك يتم رسم خطاطة ذهنية لتأويل النص ينسجم من خلالها عبر تقابل بنيات النص الصغرى مع بنياته الكبرى.

قام الباحث، في هذا المستوى، بتفحص أدوار القراءة النصية وأدوارها السياقية، مدافعاً عن أطروحة تساند الآليات النصية وموازياتها السياقية، في عملية الفهم وبناء المعنى، والتي لا تقوم إلا على تعاون القنوات الدلالية النصية مع موازياتها السياقية. كما تناول بالدرس أيضاً قضية التعدد التأويلي في علاقته باللغة، ومشكلات الفهم، وأدوار السياق؛ متسائلاً عن كيفية اشتغال اللغة على مستويي الإنتاج والتلقي، معتمداً على مجموعة من الوقائع الأدبية، وغير الأدبية التي خلقت في تداولها رُودَ أفعالٍ مختلفة، ومحاولاً تجلّية جانب مهم من جوانب الفهم والإدراك. كل ذلك دعماً للتصور التساندي الذي اقترحه، فيما يتعلق بالخطابات الأدبية؛ حتى يتبين للقارئ - على حدّ تعبيره - أن هناك شبهة تطابق بين الآليات العاملة في قراءة النص الديني ونظيرتها في النص الأدبي، في حدود التساندية التي أشار إليها، بين ما اعتبره دوائر صغرى ودوائر كبرى؛ في رهانٍ منه على جعل القارئ مُتَبِّحاً بليغاً للمعنى، يَحُلُّصُ - بفعل مسارات وضوابط القراءة المقدّمة له - إلى معانٍ مقبولة ومنسجمة، اعتماداً على آليات، لا غنى له عنها في عملية التأويل، من علوم لغوية، ونحوية، وبلاغية، ومعرفة بكيفيات صناعة النص الأدبي، وكيفية إدراج المعارف الموسوعية التي يتوازى النص معها. وكذا امتلاك كفاية تأويلية وتنسيقية. وتلك هي صورة المؤلِّ البليغ التي يطمح الباحث إلى تكوينها؛ أي "المؤلِّ الممتلك لعدد من المدونات الذهنية والمعرفية والمنهجية"^(١).

(١) - التأويلية العربية، م.م، ص ١٥٧.

قام الباحث محمد بازّي برصد قنوات بناء المعنى في خطاب التفسير بغرض الاستدلال على وَجَاهَةِ الطَّرْحِ المَقْدَمِ ومقبوليته، وتوضيح قوة البلاغة التأويلية المبنية على التساند، ممثلاً لذلك بخطابين تفسيريّين معروفين في الثقافة الإسلامية العربية، وهما: "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"؛ لجار الله محمود الزمخشري^(١)، و"تفسير القرآن العظيم"؛ لعلماد الدين بن كثير^(٢)؛ حيث سعى إلى الوقوف على أجهزة القراءة التأويلية من أجل رصد قنوات بناء معاني سورة الفاتحة على مستويين بارزين: مستوى القراءة التأويلية القائمة على البنيات النصية (اللغة، الصرف، النحو، البلاغة، القراءات...)، ومستوى القراءة التأويلية القائمة على البنيات النصية الغائبة (النصوص القرآنية، والحديثية، والخبرية، والشعرية، والإسرائيليات، والأمثال، والأقوال...)، وهو ما توصل من خلاله إلى كشف تجليات الاشتغال التأويلي القائم على الدوائر النصية عند المدخل اللغوي، فتبين له أن العودة إلى المادة اللغوية عنصر أساس في الفهم والتأويل، كما توصل إلى أن المدخل الاشتقاقي يمثل حلقة مركزية في نسق بلاغة تأويل النص القرآني، وكذلك جهاز النحو الذي يُسند المؤوّل في تخرجاته؛ حيث إن له دوراً أساساً في بناء معاني النص القرآني، أضف إلى ذلك الظواهر البلاغية التي تُعدُّ من أهم الدوائر النصية التي يستند إليها المؤوّل في تأويل النص، ثم إن القراءات، من حيث كونها حالات تأخذها الكلمات شكلاً وإعراباً ونطقاً، من الدوائر التأويلية النصية التي تعتبر من أهم ركائز بناء المعنى. وهذا

(١) - وقد مرّت ترجمته، فليرجع إليها في محلّها.

(٢) - وهو الإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمرو بن كثير (٧٠٠ - ٧٧٤ هـ). قديم دمشق وهو ابن سبع سنين فأخذها عن ابن تيمية. كان قدوة العلماء الحفّاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ. شهد له العلماء بسعة علمه. جمع التاريخ في كتابه الشهير "البداية والنهاية". كان كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم. وتفسيره -موضوع اشتغال الباحث محمد بازّي- من أشهر ما ألف في التفسير بالمأثور.

للتوسع؛ يُنظر: "شذرات الذهب" لابن عماد الحنبلي، و"التفسير والمفسرون" للإمام الذهبي.

كلّه تجسيداً لما نظّر له الباحث فيما سماه: "الدوائر الصغرى". أما عن الذي أثاره في شأن "الدوائر الكبرى"، فقد أكد على أن القارئ المتأني يجد في خطاب التفسير موازيات نصية أخرى، تتوسّع من خلالها أطر المعنى، وتمثل في الآراء الفقهية، والأمثال، والأخبار، والإسرائيليات، والحكم... وهي أنسجة ثقافية تحضر لرفد التأويل ودعمه. وبهذا كشفت دراسة الباحث لتأويل الفاتحة، في التفسيرين المنمذج بهما، عن انفتاح التأويل النصي، الداخلي (الدوائر الصغرى) والخارجي (الدوائر الكبرى)، على كل شكل معرفي قادر على إفادة المعنى؛ حيث تمدُّ المؤرِّل بذخيرة غنية للاستدلال على معنى مستخرج، مما يؤكد تساند أنساق معرفية عديدة وتفاعلها داخل خطاب التأويل. إذا؛ فالتأويل - عند المؤرِّلين القدامى - لم يكن عملاً نصياً بالأساس، أو تناولاً مغلقاً يحصر وسائط المعنى في حدودها النصية، وإنما هو عملية مراوغة بين دوائر صغرى داخلية: لغة، نحو، بلاغة، صرف، قراءات...؛ ودوائر كبرى خارجية تفتح بموجبها القراءة على وسائط سياقية من خارج النص؛ وتتشكل من مختلف المرجعيات التي يستند إليها المؤرِّل لملء بياضات النص وإغناء المعنى؛ من نصوص قرآنية، وحديثية، وشعرية، وخبرية، وأمثال، وقصص، وإسرائيليات...

وهكذا يجد القارئ تقاطعات عمودية وأفقية بين مواد النص (الدوائر الصغرى) والنصوص الخارجية (الدوائر الكبرى)، وهو ما يمكن توضيحه - تقريباً للأذهان - بالخطاطين الآتيتين:

تقاطع دوائر النص الصغرى مع دوائره الكبرى (تقاطع الآليات النصية والسياقية)

معرفة // تحتها	الأسلوب الخطي	الأسلوب الخطي	الأسلوب الخطي	الأسلوب الخطي	الأسلوب الخطي	الأسلوب الخطي	الأسلوب الخطي	الأسلوب الخطي	الأسلوب الخطي	الأسلوب الخطي
الكتابة العربية										
الكتابة الصغرى										
الكتابة الحوسبية										
الكتابة البلاغية										
الكتابة السريرية										
كتابة عناصر أخرى										

توضيح كيفية انتقال مواد المعنى وتسااندها، وجولان المؤؤل بين حقول معرفية عدّة



ينحصر مجالبناء المعنى في التأويلية العربية - في نظر الباحث - في مسارين بارزين، أولهما: اشتغال الدوائر النصية الصغرى، الذي يقصدُ به "مجموع العمليات القرائية التي تتركز أساساً على مواد النص وأبنيتها الداخلية، وكل ما هو دال فيه من كلمات، وتراكيب نحوية وبلاغية، وعلامات سميائية قابلة للفهم والتأويل"^(١)، وثانيهما: اشتغال الدوائر السياقية الكبرى "التي تفتح بوابات متعددة لدخول كل ما يضيء جانباً مُعْتَمِياً أو غامضاً في النص موضوع القراءة"^(٢)، وقد بين محمد بازّي ذلك بما يكفي وفي في مقارنته المقارنة بين آليات بناء المعنى عند كلٍّ من الزمخشري وابن

(١) - التأويلية العربية، م.م، ص ١٨٩.

(٢) - نفسه، ص ١٨٩.

كثير. لكنه لم يكتف بها أبداً، ما دفعه إلى متابعة بناء أنساق المعنى في شرح من شروح ديوان أبي الطيب المتنبي، الموسوم بـ: "التبيان في شرح الديوان" لأبي البقاء العُكْبَرِي^(١)، عاملاً على إبراز تجليات القراءة التأويلية في مَنْحِيَّهَا النصي والسياقي، تأكيداً للفرضيات السالفة الذكر. وقد كان له ما أراد؛ يَدَّ أن الشبكة التأويلية العاملة في هذا الخطاب قائمة على تقاطع الآليات وتساندها، وانفتاح الدوائر النصية الصغرى (اللغة، التركيب البلاغي، التركيب النحوي، المعاني...) على دوائر كبرى موسَّعة، تعمل فيها النصوص القرآنية والحديثية، والشعرية، والحكاية، والخبرية، والآراء النحوية، والأمثال، والحكم، والأقوال... على رُفْد التأويل ودعمه، ما حَقَّقَ لدى الشارح (العُكْبَرِي) تأويليةً مبصرة وبصيرة بنص ديوان أبي الطيب ومعانيه.

وبعد اتساع شهية الاقتراح لدى الباحث -على حد تعبيره^(٢)- حاول طرح منهج ناظم مبني على الاستنتاجات السالفة، وهو "التأويل التقابلي والتساندي". فما الذي يقصده بهذا المفهوم؟

تعزيراً للتصور التَّسَانْدِي الذي تقدم به محمد بازِّي، وتنفيذاً للقوة الاقتراحية في هذا البحث فقد حاول تجريب الآليات المقترحة في مستوييها: البنائي النصي، والسياقي، (أو التي أسماها فيما قبل: الدوائر الصغرى، والدوائر الكبرى)، مُطَعِّمًا عمله بمنهج تعزيري وتنسيقي يُلَمُّ القراءة وَيَسُنْدُهَا، وهذا المنهج هو ما سَمَّه بِـ: "التأويل التقابلي"؛ الذي عرّفه بأنه "إجراء في الفهم، يقوم ذهنياً على التقريب التقابلي

(١)- وهو أبو البقاء عبد الله بن أبي عبد الله الحسين بن أبي البقاء (٥٣٨ - ٦١٦ هـ) بغدادي الأصل، قرأ علوم الدين وعلوم العربية، كان كثير الاشتغال بالتأليف، وإذا أراد التصنيف، أُحضرت له مصنفات ذلك الفن وقرئت عليه -لإصابته بالجذري منذ صغره- حتى إذا حصل في خاطره ما يريد أملاه، وقد غلب على تحصيله العلمي فنُّ النحو، شرح كتاب "الإيضاح" لأبي علي الفارسي، و"ديوان أبي الطيب المتنبي" (وهو موضوع اشتغال الباحث محمد بازِّي)، وله كتاب "إعراب القرآن الكريم"، وكتاب "إعراب الحديث"، وكتاب "إعراب شعر الحماسة"... وغير هذا من تأليف نافعة مانتعة. يُنظر لمزيد تفصيل: "وفيات الأعيان" لابن خَلِّكان.

(٢)- التأويلية العربية، م.م، ص ١٩.

بين العناصر والمستويات، في المعطى موضوع التأويل بأي شكل ممكن. إنه إحداث لتواجه بين بنيتين، أو موقفين، أو وضعين، أو عنصرين، أو غير ذلك، وهو ما ينتج علاقات متباينة لها معانٍ"^(١).

إن التأويل التقابلي تتميم للنموذج التساندي الذي اقترحه الباحث فيما قبل، وهو خاصية كونية وإنسانية ومعرفية وإنتاجية وتأويلية؛ فكما أن المرء يتمكن من إدراك أسرار الجمال في الأشياء من حوله بما تحويه من عناصر متقابلة، فإن مشاركته في تمثّل تلك الأسرار كامن في شكل التفاعل الذهني، المعرفي والتذوقي والجمالي الذي يُنشئه عبر عرضه الأشياء على أمثالها ونقائضها القريبة والبعيدة. وبما أن الأمر كذلك، فقد وجد الباحث في النصوص وأفعال التأويل ما يدعمه، ويجعله مشروعاً قرائياً أشمل وأغنى، دون أن يلغي غيره أو يتعالى عليه.

أفادَ الباحث، في هذا المقام، من المباحث البلاغية القديمة في إدراك المعاني، وكيفيات تشكّلها، التي قدمت له في هذا الجانب زادا مفيدا، خاصة فيما يتعلق بالطباق والمقابلة. كما أنه استفاد من بعض المباحث الغربية الحديثة، في رصدتها واعتنائها بالتقابل من زاوية منطقية ونقدية أو لغوية. وهو ما شكل لديه قناعة بضرورة توسيع هذا المفهوم (التقابل) وإغنائه ليشمل كل المستويات، فيمكن القارئ - في حدود بلاغته التأويلية - من إعادة إنتاج المعنى في حلة جديدة؛ إنه مشروع تأويلي موسّع "يقوم على التساند والتقابل، قادرٌ على ضبط كلية المعنى وممارسة تأويل مقبول، له حظه من الوجاهة والاستقامة"^(٢).

وتأكيداً لروح الفلسفة التأويلية التي تحكمت في تصور محمد بازي، قام بتقسيم التأويل بالتقابل إلى تقابلات نصية مؤطرة، وهي كالاتي: التقابل النقيضي (الطباق)، التقابل النظيري، تقابل الإثبات والنفي، تقابل التشابه، تقابل حال الذوات، تقابل التصدير، تقابل التشارك اللفظي، تقابل الفاعلية والمفعولية، تقابل الصيغ والأوزان، تقابل التناسب، التقابل المتعدد، تقابل التفارق، تقابل التشارك، تقابل الخطاب،

(١)-التأويلية العربية، ص ٣٤٦.

(٢)- المصدر نفسه، ص ٢٤١.

التقابل الزمني، تقابل التراتب، تقابل الخبر والإنشاء، تقابل الأمكنة، تقابل التحوار، تقابل التشاكل، التقابل الافتراضي وتقابل التمثيل. ويمكن تجميع هذه الأنواع في مستويين بارزين؛ يمثل الأول منها توسيعاً لمفهوم الدوائر الصغرى، والثاني توسيعاً لمفهوم الدوائر الكبرى، وهما:

- تقابل الأحاد: أي تقابل كلمة مع أخرى، بشكل من أشكال التقابل المذكورة.
- تقابل النسق: أي تقابل مجموعة عناصر يربطها نظام محدد بعناصر أخرى تعتمد النظام نفسه. وتدخل في إطاره كل الأشكال الممكنة، التي تتجاوز الكلمة والجملة، وتوسّع أفق الإدراك والتأويل، ليشمل مستويات أخرى، كالفقرات والمقاطع والنصوص الموازية. ومن ذلك أفعال القراءة التي تستحضر مواد من خارج حدود النص، لمقابلتها به بهدف الفهم والإفهام، على ضوء مراجع أو أطر نصية أو ثقافية أو تاريخية أو اجتماعية أو لغوية أو غيرها^(١).

تجسيداً للقوة الاقتراحية التي انطلق منها الباحث، وتحقيقاً للتساندية التأويلية، ودعماً للأقسام النظرية التي تمت مطارحتها، فقد قدّم مقارنة تأويلية تقابلية وتساندية لنص شعري لأبي الطيب المتنبي^(٢)، لإيضاح عمل مستويات البلاغة التأويلية المقترحة على نص كامل، من أجل التأكيد على صلاحية العمل بها في معالجة النصوص وفهمها وتفهمها. محاولاً بذلك، بكيفية أو بأخرى، تحقيق التساندية

(١) - وقد اقتصر الباحث من تلك التقابلات على سبعة محافل وفصل القول فيها، كونها الأكثر إفادة للقراءة البانية للمعاني؛ وهي جرداً:

- تقابل النص موضوع الفهم ونظائره (أشباهه)، من إنتاج مؤلف واحد أو مؤلّفين مختلفين.
- تقابل النص وسياقه التاريخي أو النفسي أو الاجتماعي.
- تقابل نصوص الديوان الواحد أو الغرض الواحد.
- تقابلات النسق التواصل للخطاب.
- تقابل النص والعنوان.
- تقابل الفقرات وتقابل الوحدات والمقاطع.
- التقابل النووي والتقابلات الاستيعابية.

(٢) - وهو مرثيته الشهيرة لأم سيف الدولة التي مطلعها:

"نُعِدُّ المشرقيّة والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال".

[الوافر]. (التأويلية العربية، م.م، ص ٢٨٦-٢٨٩).

المُسَهِّمة في عملية الفهم وبناء المعنى؛ التي قام بتكليفها مع مفهوم نسقي ناظم؛ وهو "التقابل"، ما سمح له برصد تعاون البنيات المعنوية الجزئية الموزعة على الآيات والمقاطع واللوحات، وكذا رصد المعاني الظاهرة والخفية، ومقابلة النص بالمراجع اللغوية، والثقافية، والمقامية التي يرتبط بها، بشكل مباشر أو غير مباشر. كما حاول الباحث تحقيق تساندية الفهم، اعتماداً على الموازيات الشعرية التي تُغني المعنى إنتاجاً وتلقياً، أو توسّعه أو تمكّده بالعون ليتضح في الأفهام.

٣.١- خُلاصةٌ واستنتاجٌ

نخلصُ جمعاً بين تناولنا للكتابين - "صناعة الخطاب" و "التأويلية العربية" - إلى أنها مثلاً معاً عتبة الإرهاصات الأولى للمشروع النقدي البازي التقابلي، حيث ينمُّ مقترح "التطلب" أو "التساند" الذي دافع عنه الباحث على امتداد المؤلفين، عن انبثاق مقترح آخر أعمّ وأشمل، وأدقّ وأكمل، خصوصاً حين تمّ تطعيم مقترح التساند ذاك بالمنهج الناظم المعتمد على التقابل، والذي سُمّي بـ: "التأويل التقابلي والتساندي"؛ إنه تبشير ببناء نظري جادّ يقوم على المقابلة بين البنيات والآليات والسياقات... هدفه الأسمى فهم النصوص والخطابات فهماً دقيقاً - أو قريباً من الدقة جداً على الأقل - ثم تفهيمها. وما دام أنه لا بناءً نظرياً إلا بأساس مفاهيمي يقوم عليه، فإن الباحث ملزمٌ بالقيام بخطوة يبني فيها منظومة مفاهيمية، يقوم عليها مشروعه التأويلي التقابلي ويستقيم على أساسها، وهو عينٌ ما حاول القيام به في كتابه الصادر بعد هذين الكتابين، الذي يبوح عنوانه الفرعي بسابق ما أشرنا إليه بوحاً؛ أقصد كتاب: "تَقَابَلَاتُ النَّصِّ وَبَلَاغَةُ الْخُطَابِ؛ نَحْوُ تَأْوِيلِ تَقَابِلِي". والفصل الموالي مبناه على إيضاح هذا وتفصيله ومحاولة تقريبه.

٢- بناءُ المفاهيم

قال الزركشي: "اعلم أن في تقابل المعاني بابا عظيماً يحتاج إلى فضل تأمل" (١)؛ مقولة استفزت الفضول المعرفي للباحث محمد بازّي ليحاول جاهداً طرق ذلك الباب

(١)- الزركشي بدر الدين، "البرهان في علوم القرآن"، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ج. ٣، ص ٥١٩.

قصد ولوج عوالمه، والوقوف على بدائع أسرارهِ، من خلال تأليفه لكتاب: "تقابلات النص وبلاغة الخطاب؛ نحو تأويل تقابلي"، حيث قام فيه باقتراح مفاهيم تأويلية تعتمد استراتيجية التقابل منطلقاً لها، سعياً منه إلى تأسيس جمالية تأويلية تعتمد الطاقات الدلالية التي تحتزنها اللغة والتراكيب، على أمل تمتين تلك الاستراتيجية منهجياً، وإعطائها القوة التحليلية القادرة على الوقوف عند بلاغة النصوص وجماليتها، وتقديم أسرار الصناعة الأدبية انطلاقاً منها.

وبما أن اقتراح المفاهيم لا يتأتى إلا بالانطلاق من التطبيق؛ مجاهدةً للنصوص، ومعاركةً للمتون، وغوصاً في درر الكلام، فإن المقترح القرائي في الكتاب قد قام "على المزوجة بين التقديم النظري الموجز، والتقريب التمثيلي والتطبيقي المبسط لإستراتيجية التأويل التقابلي"^(١)، انطلاقاً من مبدأ واحد موحد؛ هو التقابل الذي لا ينفك عن أي إنتاج أدبي كيفما كان؛ "فلا تُقال المعاني ولا تكتب إلا بعد أن تُعرض بشكل تقابلي على المستوى الذهني؛ إذ إن الخطابات تُنتج أصلاً بكيفية متقابلة عن طريق عرض الأشياء على ما يقابلها، أو يماثلها، أو يضادها، أو يجاورها، أو يُتممها، أو يشرحها، أو غير ذلك"^(٢)؛ أي أن "الاختيارات الإنتاجية للخطاب نابعة أساساً من الوجود المتقابل، والمعاني المتقابلة، ثم من العلاقات المتقابلة بين المعاني، وتبعاً لذلك المنطق يحدث فهمها وتأويلها، ثم تفهيمها للآخرين"^(٣).

من هذا المنطلق صمّن الباحث الكتاب مجموعةً من المقاربات التأويلية، مؤكداً على انبائها على أساس التقابل؛ وتفصيل ذلك بإيجاز فيما يلي:
أولاً: حاول الباحث إعادة بناء سورة الفاتحة الكريمة لإبراز بلاغتها وإعجازها، وتقريب معانيها إلى القراء استناداً إلى المقترح القرائي المشار إليه آنفاً، وقوفاً منه عند

(١) - بأزي محمد، "تقابلات النص وبلاغة الخطاب؛ نحو تأويل تقابلي"، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، ص ١٠.

(٢) - بأزي محمد، "تقابلات النص وبلاغة الخطاب؛ نحو تأويل تقابلي"، ص ١٠.

(٣) - المصدر نفسه، ص ١٠.

التقابلات الظاهرة والخفية، مقدماً بعض المفاتيح المفهومية والإجرائية لبناء المعاني والدلالات، مقترحاً المعاني اللغوية والمداخل المعجمية التي تمدّ التأويل التقابلي بإمكانات معنوية غنية؛ فكلما توسّع البحث اللغوي كلما اغتنت القراءة بمعانٍ جديدة. أضف إلى ذلك تشقيق المعاني انطلاقاً من الألفاظ اليسيرة، ما يمنح القارئ المتفهم والمؤول إمكانات هائلة لتوسيع الدلالة، سواءً تعلق الأمر بتقابل الترادف أو التماثل المعنوي أو تقابل التضاد والتخالف؛ لأن الأشياء تتجلى بنظائرها، أو بأضدادها، أو بمتماثلها. وبهذا "تتقوى جدوى التأسيس لبلاغة تأويلية تقابلية في مجال التفسير، تعتمد المداخل اللغوية والنحوية والبلاغية والدلالية للوقوف على أسرار معاني النصوص القرآنية"^(١).

ثانياً: تناول الباحث - بالاستراتيجية ذاتها- بلاغة الحجاج في كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي^(٢)، محاولاً الوقوف عند تجليات مفهوم التقابل وبلاغته الحجاجية عبر نماذج تمثيلية من الكتاب، للتدليل على "أن التأويل التقابلي آلية يمكن تطبيقها، كذلك، لتحليل الخطابات ذات الطبيعة الاستدلالية، بحثاً عن أنظمتها وأدوات الإبلاغ والإقناع فيها"^(٣).

(١) - "تقابلات النص وبلاغة الخطاب"، م.م، ص ٣٠.

(٢) - وُلد أبو حامد الغزالي بطوس سنة خمسين وأربعمئة للهجرة (٤٥٠هـ)، من والد كانت حرفته غزلاً الصوف وبيعه. سافر الغزالي إلى نيسابور، واجتهد في تحصيل العلم، فبرع في الجدل والمنطق والحكمة والفلسفة، وكان شديد الذكاء، عميق المعاني، غوّاص على الأسرار العميقة الدقيقة. تولى بعد ذلك التدريس بالمدرسة البغدادية، فأعجب الناس بكلامه، وكمال فضله، وفصاحة لسانه، فشُدّت إليه الرحال، وُضرت به الأمثال.

ترك بعد ذلك الجاه والمال، قاصداً بيت الله الحرام للحج، ثم توجه إلى الشام بعده فاعتكف في زاوية بالجامع الأموي، وبدأ تأليف كتاب "إحياء علوم الدين" -موضوع اشتغال الباحث محمد بارزي-، ثم رجع إلى بغداد وحَدّث به زماناً، قبل أن يعود إلى خراسان ويتولى التدريس بالمدرسة النظامية، ولما أحس بدنو أجله تاب إلى مسقط رأسه طوس، وهناك توفي عن عمر يناهز خمسة وخمسين سنة، فوافته المنية ثمة سنة خمسماية وخمس (٥٠٥هـ)، مخلِّفاً كماً هائلاً من المصنفات، من بينها: "إحياء علوم الدين"، "تهافت الفلاسفة"، "شفاء العليل"، "المستصفى"، "منهاج العابدين"، "معيان العلم"، "مشكاة الأنوار"، "المنقذ من الضلال"، "الاقتصاد في الاعتقاد"، "نصيحة الملوك"، "شفاء العليل في القياس والتعليل"... وغيرها.

(٣) - المصدر نفسه، ص ١١.

أعاد محمد بازّي قراءة الكتاب من زاوية تأويلية تقابلية، قصد تبيين الآليات المتعاونة والمتساندة في خطاب الغزالي الإقناعي، فوجد أن منهجية الغزالي التأليفية تتعاون فيها مجموعة من الأدوات والآليات والعلوم، وتشتغل بشكل تساندي؛ فهو يشرح الشريعة ويؤوّلها بحسب فهمه، لكنه يقدمها للآخرين عبر تقابلات موضحّة. وهذه خطة نهجها الغزالي على طول مؤلّفه، ما حدّا بالباحث محمد بازّي إلى اعتبار ما سماه التقابل التمثيلي - القائم على التصور التقابلي للعوامل والحالات - عنصراً استدلالياً بليغاً صوّن لكتابات الغزالي قوةً حجاجية وإقناعية تُشدُّ القارئ إلى مزبوراته شدّاً، وهو إدراكٌ من أبي حامد وتمثّل حقيقي للمعاني والأفكار؛ إدراكٌ وُجِدَت خاصيةُ التقابل من خلاله عنده طريقاً صحيحة إلى التوظيف والاستغلال بشكل منهجي قوِّي متين وورصين.

ينضاف إلى هذا نوعٌ آخرٌ من التقابل؛ وهو الاستشهادات القرآنية والحديثية والأثرية والشعرية والفقهية والمنطقية... فهي نصوصٌ تُقابلُ قضايا أو معاني تمّ بناؤها واستخراجها، وهي خطة تقابلية حاضرة على طول الكتاب أيضاً؛ حيث تتداخل في ثنايا الخطاب الاستدلالي فيه النصوص القرآنية والحديثية، وأقوال الصحابة والعلماء والعارفين، والأمثال، والأشعار، والمرويات، والفقه، والمنطق، والإشارات الصوفية، والوقائع والأخبار...

"وهكذا فالمشروع التأويلي للشريعة عند الغزالي يتأسس على بنية من المتقابلات، القائمة في بنائها على التأمل والاعتبار، أو على الاقتباس من الآيات والأخبار"^(١).
وبهذا تناول لكتاب "الإحياء" حاول محمد بازّي إثبات أنّ التقابل "مكونٌ جوهرِيٌّ تتأسس عليه الخطابات الفكرية والتأويلية باعتباره نسقا تعبيريا يظهر ويختفي، يحضر أو يغيب، لكنه يسكن التواصل وبناء المعاني"^(٢)، وبالتالي دَفَع مشروعَه التأويلي التقابلي نحو الأجرأة والتحقق.

(١)-تقابلات النص وبلاغة الخطاب، ص ٥٧.

(٢)- المصدر نفسه، ص ٤٩-٥٠.

ثالثاً: قدّم الباحث مقارنة اكتست طابعا تحليليا وتقابليا وتأويليا، رام منها بالأساس التأكيد على فعالية مشروعه التأويلي التقابليوإجرائيته، للوقوف على بلاغة الخطاب الشعري، فحاول توسيع الاستراتيجية نفسها بتطبيقها على نصّين من الشعر: قديم، وهو نصّ مرثية مالك بن الربّ التميمي^(١) الشهيرة. وحديث، وهو نصّ "نسر" لعمر أبي ريشة^(٢).

فأما عن أول النصّين، فإن الباحث لم يعمل في تأويله له على إعادة بناء القصيدة قصد الشرح أو الإفهام فحسب، وإنما سعى إلى "تبيان بعض الآليات التقابلية التي بالإمكان أن تُسَعِّف المحللين ودَارسِي الخطابات ومُدَرِّسِيها بالأداة التحليلية والتأويلية لمقاربة بعض الظواهر النصّية عبر تجريبها وتطبيقها"^(٣). مُقترِحًا بعض عناصر التقابل المتمثّلة في ما سمّاه "تقابل الجوار" أو "تقابل التجاور"؛ الذي يقوم على مقابلة البيت

(١) - ذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه "الأغاني" أن مالك بن الربّ كان من صعاليك الشعراء في أيام بني أمية، كان شاعرا فاتكا لصبًا، يقطع الطريق في جمع من أصحابه، منهم شظاظ وأبو حردبة وغويث... وقد كان أجمل الناس وجهًا، وأحسنهم ثيابًا، وأفصحهم عبارة، ما يبرر سبب انهيار سعيد بن عفان، والي معاوية بن أبي سفيان على خراسان، وقوله له: "مالك! ويحك تُفسد نفسك بقطع الطريق! وما يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العبث والفساد وفيك هذا الفضل؟!"، فقال مالك: "يدعوني إليه العجز عن المعالي، ومساواة ذوي المروءات، ومكافأة الإخوان". قال: "فإن أنا أغنيتك واستصحبتك أتكف عمّا كنت تفعل؟" قال: "إي والله أيها الأمير أكف كفاً لم يكف أحد أحسن منه". فاستصعبه وأجرى له خمسمائة درهم. وتاب حقاً مالك عن أفعاله، وأبلى في حروب خراسان حسناً، لكنه مرض مرضاً عند رجوعه أشرف منه على الموت وتخلّف معه مرّة الكاتب ورجل آخر، وهناك قال مرثيته الشهيرة -موضوع اشتغال محمد بأزي- قبل أن يفارق صاحبيه إلى دار البقاء. [أبو الفرج الأصفهاني، "الأغاني"، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، ج. ٢٢، ص. ٢٩٠].

(٢) - أبو ريشة عمر (١٩١٠-١٩٩٠م)، شاعر سوري شهير، وُلد في منبج بسوريا، تلقى تعليمه الابتدائي في حلب، وأتم دراسته الثانوية بالجامعة الأمريكية، ثم تابع دراسته بإنجلترا عام ثلاثين وتسعمائة وألف للميلاد (١٩٣٠م)، وهو شاعر من كبار شعراء وأدباء العصر الحديث، ويتوزع شعره ما بين المنحى القومي والمنحى الرومانسي. ["تقابلات النص وبلاغة الخطاب"، م.م، ص. ١٠٧].

(٣) - "تقابلات النص وبلاغة الخطاب"، م.م، ص. ٨٨.

الشعري بالبيت الذي يليه، وهو يتخذ علاقات متعددة: تقابل التتميم، تقابل التوسيع، تقابل الشرح والتفسير، تقابل التماثل، تقابل التضاد... ما يسمح بفهم دقيق للأسس التي يقوم على ركائزها القول الشعري. أضف إلى ذلك إمكانية قيام استراتيجية التأويل التقابلي - وهي تشتغل بتلك العناصر المقترحة - على الافتراضات المعجمية، والتركيبية، والدلالية، والبلاغية؛ ما يسمح بتنامي أفعال التأويل وتشكلها وفق حركة ذهنية تنقل المعاني من حال إلى آخر، وبالتالي توسيع دائرة المعاني وإغناؤها. إن الاشتغال على النص من هذا المنطلق يظل مفتوحاً وقابلًا للاجتهاد فيه بحسب النصوص، وبحسب توجهات المؤولين واهتماماتهم النقدية والمنهجية. وهكذا بوسع المتلقي أن يبني مجموعة من التقابلات، بحسب أنماط العلاقات التي تترأى له؛ النحوي بمعرفته النحوية، واللغوي بذخيرته اللغوية، والبلاغي ببلاغته، والبارع في علم المنطق بتصورات المنطقية، وهكذا في جميع العلوم بآلياتها المنهجية والقراءة؛ فبالإمكان تطويعها وإغناؤها باستراتيجية التأويل التقابلي. كما أنه بالإمكان الاستفادة من كل ذلك مجتمعاً بإدماجه في نسق تأويلي تقابلي واحد، ما يسهم في اكتشاف أنساق النص المقروء ما ظهر منها وما خفي - على حد تعبير الباحث -.

وأما عن نص "نسر"، فإن محمداً بازّي ظلّ سائراً في تناوله له على المنوال نفسه من محاولة اقتراح بناء مفاهيمي يقوم على أساسه مشروع التأويل التقابلي، مؤكداً على أن استراتيجية التقابل المقترحة بإمكانها أن تمثّل القارئ بأنواع من التقابل مفتاحاً تُيسّر له ولوج عوالم المعنى؛ وتلك المفاتيح هي: "التقابلات المؤطرة، التقابلات الفرعية داخل النص: التقابلات الخلافية، والنظيرية، والنقيضية، وغيرها. تقابل النص والعنوان، تقابل المعاني، تقابل الحالات والوضعيات، التقابلات النحوية، التقابلات البلاغية، التقابلات الإيقاعية، تقابل مواقع الشك ومواقع اليقين..."^(١)، وهي مفتاح تؤسّس لخصوبة بنائية تأويلية تسمح للقارئ بالربط والتنسيق في سبيل محاولة ملء البياضات

(١) - "تقابلات النص وبلاغة الخطاب"، م.م، ص ١١٠.

وإشباع الدلالات. كما أشار الباحث إلى مفهوم آخر من مفاهيم التقابل؛ هو "التقابل المركزي" أو "التقابل النووي"؛ الذي يُستحضر بدءًا بتبيين المؤول له من خلال الاطلاع الأولي الاستقصائي على النص، من أجل تمثيل أفضل للمعنى، قبل استكمال التقابلات الصغرى التي تُؤسس عليه تبعًا بالتعمق في التأويل شيئًا فشيئًا. أضف إلى ذلك مفهومًا سماه "التقابلات الاستيعابية"؛ وهي التي تكشف عن التقابلات المشكّلة للدلالة في وعي المبدع (الشاعر)، استنادًا إلى عملية الانتقاء والاستبدال بين المكونات المعجمية والتركيبية التي يقوم بها في التعبير عن مراده؛ أي إنها قراءة تعمل على تفتيت العناصر المشكّلة للنص، وتحاول إعادة القول إلى عناصره الأولية، وإيضاح كيفية انبثاقه على مستوى الذهن، من حيث كل ما يتوارد عليه، ثم يحصل انتقاء لعناصر دون أخرى، تبعًا لمقصدية المنتج.

رابعًا: عمّد الباحث -لأن التقابل من منظوره يَسعُ كلَّ الألوان الأدبية ويتحقق كذلك في الخطابات الواصفة- إلى المقابلة بين قراءتين تأويليتين للكرامة الصوفية، لمؤولّين مغربيين معاصرين، هما عبد الفتاح كليطو ومحمد مفتاح، من خلال نموذجين ورد أولهما في كتاب "الحكاية والتأويل"^(١)، والثاني في كتاب "مجهول البيان"^(٢)، موضوع اشتغالهما منقبتان مختلفتان^(٣)؛ الأولى لأبي سهل القرشي، والثانية لأبي يحيى بن لا الأذنى الرجراجي، أُخذًا معًا من كتاب "التشوف إلى رجال التصوف"^(٤) لابن الزيات.

(١)- كليطو عبد الفتاح، "الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي"، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٨٨.

(٢)- مفتاح محمد، "مجهول البيان"، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.

(٣)- المنقبة: "شكل سردي يحكي عن حياة أشخاص مخصوصين بالقدسية، وعن كراماتهم وحوارهم، وهي شكل من أشكال الترجمة أو بيوغرافيا خاصة بشخص معين، في مكان وزمان محددين". ["تقابلات النص وبلاغة الخطاب"، م.م، ص ١٤١].

(٤)- ابن الزيات، "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي"، تحقيق: أحمد التوفيق، ١٩٨٤.

انطلق الباحث^(١) في دراسته وتحليله لهذين الخطابين التأويليين من محاولة "اكتشاف الآليات العاملة فيها عبر إحداث التقابل بينهما، والوقوف على إجراءات الفهم وثوابته، وإمكانية بناء المعنى في بُعديه النصي والسياقي، في حدود تساند وتعاون موادّ النص المنقبي مع موادّ خارجية سياقية"^(٢)، هادفاً من وراء ذلك إلى اقتراح تأويلية بديلة للمنهج الأحادي^(٣)، موجودة في الخطابات التأويلية، قديمها وحديثها، فللنص دوام امتدادات فيما هو خارج عنه، وكل عمل تأويلي هو تأسيسٌ لجسور واصله بين مقوّمات الدلالة في النص وبين كياناتها المختلفة خارجه.

من أجل هذا -وتأكيداً للطرح الذي يُدافع عنه من كون "التأويل مجموعة أفعال تساندية تتبادل العون، وتفتح على بعضها البعض، خالقة ما يشبه ورشة عمل قرائية، هي منطلق الفهم والإفهام"^(٤)- أورد الباحث المنقبتين عبر مقابلتها وجهها لوجه، فوجد أن الاشتغال التأويلي عند عبد الفتاح كيلطو، في قراءته للنص المنقبي قائم على الاستناد إلى عناصر نصية (لغوية، بلاغية، رمزية...)، وأخرى سياقية خارجية (الثقافة، التاريخ، الذاكرة الجمعية...). كما وجد أن تأويلية محمد مفتاح تعتمد مقومات بنائية نصية (استعارة النص، المعجم، التحليل السميائي...)، وعلى عناصر

(١)- تجدر الإشارة -بدءاً- إلى أن أول ما استهل به محمد بازي دراسته في هذا الباب، هو تحديد مفهوم النص، كونه عتبة ومدخلا ضروريا لكل من يريد تناول قضية نظرية بالدرس، أو معالجة نصية وفق تصور منهجي محدد، وقد فصله عن مجموعة من المفاهيم المجاورة له، مثل الخطاب واللائص والأثر الأدبي... وفصل في كل ذلك القول بما يكفي وبفي، على امتداد سَعَلَ عشرة صفحات -تقريباً- من الفصل الخامس في الكتاب، فليُنظر ثمة. [تقابلات النص وبلاغة الخطاب"، م.م، ص ١٣١-١٤٠.

(٢)- "تقابلات النص وبلاغة الخطاب"، م.م، ص ١٤١.

(٣)- يقصد الباحث بـ: "المنهج الأحادي"؛ ذلك المنهج المؤسس على قواعد صارمة، أو بتعبير أوضح وأوجز؛ المناهج الغربية الوافدة التي تتطرق لتحليل النصوص من وجهات نظر أحادية، إما من وجهة نظر تاريخية أو اجتماعية أو نفسية أو بنيوية...

(٤)- "تقابلات النص وبلاغة الخطاب"، م.م، ص ١٣٠.

خارجية سياقية (استعارة السياق، التدنُّن الشعبي، هيبة السلطة السياسية...). وبذلك أكَّد على "أن الإستراتيجيات التأويلية وإن تباينت فإنها تلتقي في الاشتغال على دوائر النص الصغرى: المعجم، التراكيب النحوية، التراكيب البلاغية، والرمزية، والعلاقات بين البنيات النصية، والجزء والكل، والتفاعل، والتناثر، والتلاصق... وعلى دوائر كبرى تلعب دورَ التوسيع ممثلة في عناصرِ السياق الخارجي: ملابسات إنتاج النص، وصاحبه، وموازيات نصية، والأشباه والنظائر، والظرف الاجتماعي والسياسي، والعلوم المرجعية..."^(١).

ومما يجدر بنا الإشارة إليه في هذا المقام من تحليل النص المنقبي؛ استحداثُ الباحث لمفهوم من مفاهيم تأويلته التقابلية، وهو ما سماه تأويل الافتراض؛ الذي يبنى على "افتراض ما يمكن أن يكون قد وقع، وافتراض مبررات لما وقع"^(٢)، غير أن النص المنقبي يفتقر غالباً إلى العناصر القصصية كاملة، يفتقر إلى نهاية، إلى تنمة وتكملة... ما يدفع المؤلِّ إلى الالتجاء لأسئلة افتراضية، يجيب من خلالها بما يمكن أن تُمَلَّأَ به تلك البياضات. لكن يبقى الهمُّ الأكبر والمبتغى الأسمى من تناول محمد بازِّي لتأويلية الباحثين بالدرس والتحليل؛ هو إبراز التداخل والتقاطع والتساند بين آليات الدلالة في النص، مع مجموعة أشكال معرفية خارجية لحظة القراءة، وبناء على ذلك يكون التأكيد على "أن اشتغال أفعال التأويل يتساند فيها، في كل الأحوال، ما هو نصي وما هو سياقي"^(٣)، وذلك ما وجده حاضرًا بشكل قوي في تأويلية كلِّ من الباحثين.

(١) - "تقابلات النص وبلاغة الخطاب"، م.م، ص ١٥٨.

(٢) - المصدر نفسه، ص ١٥١.

(٣) - المصدر نفسه، ص ١٥٧.

خامساً: قام محمد بازّي في الأخير بملامسة بعض الملامح التقابلية في خطاب الحكمة، من خلال نموذج للحسن اليوسي^(١)، منتقىً من كتابه "المحاضرات"، وتحديدًا من الباب المتعلق بكلام الأذكياء، مقترحًا بذلك نصًّا من كلام الحكماء قصد إبراز تحكّم البناء الذهني التقابلي في إنتاج الخطاب، محاولًا "التدليل على أن التقابل يسكن الوجود، بل يُؤسّسه؛ كما أنه يشكل العمود الفقري لأنساق التواصل"^(٢).

تتبع الباحث مستويات بناء المعاني، مستفيدًا من مضامين الخطاب الحكيم، لإبراز تجليات التشكّلات التقابلية، وما تنبني عليه من مقدمات وتوابع. فوجد أنّ بنيته "تقوم على التقابل بجميع ألوانه وأشكاله من المفارقة، والتماثل، والتضادّ، والسببية، وغيرها"^(٣)؛ إذ إنّ من أهم سمات خطاب الحكمة التقابلات البنائية اللفظية والمعنوية والتركيبية والأسلوبية والبلاغية. وما تلك الوقفات التي قام بها الباحث مع هذا النص من خطاب الحكمة إلا للاستشهاد به على بلاغة التقابل، تأسيسًا منه "لتصور جديد على مستوى صناعة الخطاب، يهدف إلى استثمار هذه المعطيات في الكتابة الشعرية والنثرية، والوعي بها في هذا المنظور، وكذا إدراك مناحيها وعلاقاتها، وانفتاحها على مستوى قراءة النصوص والخطابات وتحليلها"^(٤).

(١)- هو الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي، الملقب بصاعقة العلوم، من أكابر علماء المغرب في عصره، فقيه، محدث، لغوي، أديب، مؤرخ، صوفي فاضل، قال في حقه صاحب الرحلة العياشية:

"مَنْ فَاتَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَدْرِكُهُ فَلْيَصْحَبِ الْحَسَنَ الْيُوسِيَّ يَكْفِيهِ".

له مؤلفات نفيسة منها: "المحاضرات"، و"قانون أحكام العلم"، و"زهرة الأكم في الأمثال والحكم"، و"منح الملك الوهاب فيما استشكله بعض الأصحاب من السنة والكتاب"، و"الكوكب الساطع في شرح جمع الجوامع"... وغيرها. توفي رحمة الله عليه سنة اثنتين ومائة وألف للهجرة (١١٠٢هـ).

(٢)- "تقابلات النص وبلاغة الخطاب"، م.م، ص ١٥٩.

(٣)- المصدر نفسه، ص ١٦٣-١٦٤.

(٤)- المصدر نفسه، ص ١٦٩.

إجمالاً؛ فإن التاويل بالتقابل، نتاج الاستراتيجية القرائية التي سعى الباحث محمد بازّي إلى التأسيس لها، من خلال تناول العديد من النصوص والخطابات بالدرس والتحليل، حيثُ حاول الكشف عن قوّتها التحليلية، في الوقوف عند مناحي صناعة النصوص، فيما يتعلق بنظم المعاني، داخل قوالب تعبيرية وجمالية أو استدلالية، موجّهاً في ذلك "بخلفيات نظرية تأويلية عربية وغربية"^(١)، مقترحاً على غرار كل ذلك مجموعة من المفاتيح والمفاهيم الإجرائية^(٢) التي من شأنها التأسيس لمشروعه التاويلي التقابلي، ما جعل الكتاب مقترحاً يتّسم ببناء مفاهيمي جادٍّ ومُحصّصٍ، غاية شقُّ الطريق نحو بناء نظريّ لتأويلية التقابل؛ وذلك تماماً ما عمِل على تحقيقه الباحث محمد بازّي في كتابه الذي صدر بعدُ تحت عنوان: "نظريّة التّأويل التّقابلي؛ مُقدّماتٌ لِمَعْرِفَةٍ بَدِيلَةٍ بِالنّصِّ وَالخِطَابِ"، وهو ما سنعمل بدورنا على محاولة توضيحه وتقريبه في الفصل الموالي.

٣- أَلْبِنَاءُ النَّظَرِيّ

حاول الباحث محمد بازّي في الاجتهادات السابقة -التي حاولنا تبيينها في المرحلتين السابقتين^(٣)- المتعلقة بالنموذج التساندي، ومنهجية التاويل التقابلي، أن

(١)- "تقابلات النص وبلاغة الخطاب"، ص ١٧٦.

(٢)- وهي التي أشرنا إلى بعضها في هذا الفصل، وتركنا بعضها طلباً للإيجاز الذي يقتضيه بحثنا أمام زخم المشروع البازّي وغِناءه، ولولا خشية الإطالة لتبّعناها مفهوماً مفهوماً بما يكفي وفي، ولا بأس من الإشارة إليها جملة اقتداءً بما فعله صاحب المشروع؛ حيث ذيل بها الكتاب، وهي كآلاتي كما ربّتها:

التقابل/ تقابل الإثبات والنفي/ تقابل الآحاد/ التقابل الافتراضي/ تقابل الأمكنة/ التقابلات الاستيعابية/ التقابلات الصغرى المؤطرة/ التقابلات الكبرى/ التقابلات النصية المؤطرة/ تقابل التحاور/ تقابل التراتب/ تقابل التشابه/ تقابل التشارك اللفظي/ تقابل التشاكل/ تقابل التصدير/ تقابل التفارق/ تقابل التمثيل/ تقابل التناسب/ تقابل الحاضر والغائب/ تقابل حال الذوات/ تقابل الخبر والإنشاء/ تقابل الخطاب/ التقابل الزمني/ تقابل الصيغ والأوزان/ تقابل الظاهر والباطن/ تقابل الفاعل والمفعول/ التقابل المتعدد/ تقابل المعنى ومعنى المعنى/ تقابل المقاصد/ تقابل المقاطع أو الفقرات/ تقابل النسق/ تقابل النسق التواصلي/ تقابل النص وسياقه/ تقابل النص والعنوان/ التقابل النظيري/ تقابل النظائر النصية/ التقابل النقيضي/ التقابل النووي. [تقابلات النص وبلاغة الخطاب"، م.م، ص ١٧٢ - ١٧٦].

(٣)- والمقصود تذكيراً "مَرَحَلَةُ الإِسْتِكْشَافِ" و"مَرَحَلَةُ بِنَاءِ المَفَاهِمِ"؛ اللتين فُصِّلَ فيهما القول بما تيسر في الفصلين السابقين من هذا المحور الثاني.

يُفيد الدرس القرائي الحديث بآليات مرنة في الفهم، محاولاً التأسيس لها معرفياً ونقدياً اعتماداً على تحقّقات واضحة في مجموعة من الظواهر النصية، سيراً منه نحو تعزيز تلك المباحث بمقترحات جديدة، وبقرارات لمجموعة تمثيلية متنوعة من النصوص، للتأكيد على حضور هذا النسق القرائي المطرد الذي تنتظم تحته كثير من المنجزات البلاغية واللغوية والنحوية القديمة، والمنجزات المنهجية الحديثة. ولذلك فهو يقدم في هذا الكتاب -كتاب "نظرية التأويل التقابلي" - طرْحاً موسّعاً في مجال العلم بتقالات النصوص وتأويلاتها، واضعاً بين يدي المهتم بتطبيق آليات تأويلية التقابل مجموعة من المنطلقات التصورية والمنهجية.

إن الذي يحرك منهجية الباحث هو الرؤية التقابلية للنص والعالم، وهو ما يتحكم في النموذج التقابلي في الفهم والتأويل؛ الذي يحاول تبين كيفية عكس النصّ المصغّر العالم المكبّر، ورصد الخطوط والمعابر التي يتمُّ بموجها تحويل العالم المكبّر إلى عالم نصّي مصغّر، قائم على التمثّل وعلى الأفعال والأقوال والأحوال، ثم إعادة عكسها مرآوياً لتشكيل صورة العالم من منظور المنتج؛ إنها منهجية "تحاول التأمل في البُنى العميقة لبلاغة التأويل عند القدامى، من أجل تحيين الشبكات الخفية العاملة في فهم النصوص، ومن ثمة بناء مبادئ جديدة تُسهّم في تطوير نظرية التأويل العربية الحديثة القائمة على التساند والتكامل والتقابل"^(١).

عمل الباحث محمد بازّي -بالأساس- في هذا الكتاب على تناول التصور والفروض، التي تتوخى تبيان مُركّزات "نظرية"^(٢) التأويل التقابلي؛ محاولاً الوصول بخطاب التأويل التقابلي إلى مستوى تصوّري وتنظيري متقدّم وعميق، عبر ترجمة التجارب المنجزة والبحوث التي قام بها من قبل "إلى مستوى من الانتظام، والتجريد،

(١) - نظرية التأويل التقابلي "، م.م، ص ٢٩.

(٢) - يعرف محمد بازّي "النظرية" بأنها: "خطة معطاة سلفاً تقسّم العالم وفق أنموذج واحد، وتوجه اهتمام الملاحظ إلى المضي في مسارات معيّنة، كما تمنعه من ولوج المناطق التي تشتغل فيها نظرية أخرى". وقد أعرضنا قصداً عن الخوض في ذلك المفهوم -وكذا "النموذج" و"المنهج" - لأن العزم على تخصيص البحث الثالث لمطارحة ذلك قائم.

والتصور، بغية وضع قوانين ومبادئ في أفق تحقق اكتمال هذه التصورات النظرية^(١). وما دام أن البناء النظري يقتضي الانطلاق من فرضيات ثم القيام باختبارها، وتحقيق درجات كبرى من المعقولة والمقبولة في ذلك، فقد كان لزاماً على الباحث تأسيس خطابه التأويلي التقابلي على فروض، وقواعد ومبادئ، ومفاهيم، وعلى نسقية في تناول والتجريب، انطلاقاً من فرضيات تطرحها الحاجة المعرفية. وهذه خصائص جَدَّ الباحث في التأكيد على توافرها في تأويليته التقابلية مقررًا الاعتبارات^(٢) التي تدافع عن ذلك وتؤكدُه، ناظماً كل ذلك تحت إطارين كبيرين من الفرضيات، وهما ما سماهما: "الفرضيات الكبرى المؤطرة"، و"الفرضيات الصغرى المتغيرة"، مجملاً أولاهما "في النظر الشمولي إلى الكون على أساس تقابلي؛ تقابل البنيات، والأشياء، والألوان، والكلمات، والحالات، والوضعيات، والعلاقات، في أقصى ما يحمله ويحتمله التقابل من إمكانات"^(٣)، أما الثانية فعرّفها بكونها "الفرضيات التابعة المتبدّلة"^(٤)؛ وهي عنده الافتراضات التي تسبق تأويل أي نصّ من النصوص، إنها حالية وفعليّة مرتبطة بمقام التأويل المتعلق بنصّ معيّن، كما أنها تنفيذ لحالات اشتغال خاصة من متلقّ معيّن^(٥)، أو بعبارة أوجز؛ إنها الفرضيات "التي يطرحها أي مؤوّل عند عزمه وإقدامه على مقاربة أي نص"^(٦).

إن الذي يضمن لنظرية ما قوتها تماسكها واستنادها إلى الأدلة والشواهد الدامغة، واعتمادها مبادئ وفرضيات، ومفاهيم خاصة، وقابليتها للتجريب والتطبيق

(١) - "نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ٤٠.

(٢) - وهي اعتبارات أجمّلها الباحث في عشرة خصائص وثمانية مبادئ، وفصّل فيها القول تفصيلاً يدافع من خلاله على قيام نموذج التأويلي التقابلي على أسس نظرية متينة رصينة، ولولا التهرب من الإطالة التي لا يستسيغها بحث الإجازة لأوردنا ذلك تعميماً للفائدة، وليُنظر في محله من الكتاب.

["نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ٤١-٤٥].

(٣) - "نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ٣٧.

(٤) - المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٥) - المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٦) - المصدر نفسه، ص ٦٨.

والتقاسم؛ وهو شيء عمل الباحث على إيضاحه وتأكيد قوة حضوره بوفرة في ما قدمه من مقترحات على امتداد المشروع، حيث جعل تناوله للعديد من النصوص (الدينية، والحديثية، والنثرية، والشعرية، والفلسفية، والحكومية، والشعبية...) قائما على أساس هذه التصورات النظرية التي قدمها؛ وهكذا "فالنموذج المقترح سيجد له امتدادات واسعة وعميقة في النصوص والخطابات المحللة تبيانا لشموليته، وفعالته، ودقته، وفي النصوص الأخرى المحتملة الموضوعة على محك التأويل"^(١).

أقام محمد بازّي مشروع القرائي التأويلي على أسناد مرجعية، وأسس نظرية، جعلت منه أنموذجا قرائيا متينا في فهم النصوص وتفهمها، حيث ارتكز الأفق التصوري لتأويلته التقابلية على مرجعيات كثيرة، عربية إسلامية قديمة، وأخرى غربية حديثة، وغيرها من دراسات وأبحاث عربية حديثة، متعاملا مع كل ذلك بشكل انتقائي تجزيئي، على قدر الحاجة التي تخدم مشروع التأويل التقابلي؛ ومن تلك المرجعيات نذكر: البلاغة العربية القديمة، ونظريات التلقي والتأويل الحديثة، وعلم النص، وتحليل الخطاب، وكتب التفسير، والشروح الشعرية، وعلم الأصول، والفلسفة والمنطق، والمناهج النقدية، وكتب الأدب واللغة، والمعاجم والموسوعات، وكتب السير والأخبار والدواوين، وكتب تاريخ الأدب، والدراسات النقدية القديمة والحديثة، ونظريات الأدب، والتداوليات، وغير هذا مما وجد فيه سنداً أو إشارة مفيدة نافعة في بناء المشروع ودعمه، ورفده بالحجة الوازنة. ومن مَعِين تلك المنابع الفياضة قدّم في كتابه -موضوع الدراسة- مجموعة من الأسناد المعرفية والنظرية التي تسند اشتغال المؤولين على النصوص، وتفتح أمامهم آفاقا معرفية رحبة واسعة، وذلك بالتفاعل مع العلوم التي يغتنى منها التأويل بصفة عامّة، والتأويل التقابلي بصفة خاصة. ومن ذلك: سعة الاطلاع على العلوم الآلية (اللغوية، والنحوية، والصرفية،

(١) - "نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ٣٩.

والبلاغية، والترجيحية، والمنطقية...)، والعلم بجهات المجاز وأسراه، وما يتعلق بسنن العرب في كلامها، ومعرفة العلاقات الإسنادية، والتلازمية في التركيب والدلالة، فضبط ذلك ممَّا يشكل في المشروع التأويلي البازي رافعة قوية لاكتشاف مداخل التقابل في أنظمة النص. وهو ما يعني "أن المؤول داخل لغة من اللغات يقتضي إلمامه الواسع بأدائها وسنن الناطقين بها في القول، والأنساق الذهنية والمعرفية المتحكمة في استعمالهم اللغوية"^(١).

ومن ذلك المقابلة بين السمات الدلالية، وتتبع التحولات الدلالية للكلمات^(٢)، فذاك مسار مفيد في بناء الدلالة؛ لأن الوقوف عند الكلمات على هذا المستوى، يمنح التأويل دقة في التوجيه القصدي، وبالأخص عندما يتم استحضار المساق الذي وُضعت فيه الكلمة داخل الجملة أو النص، وعلاقتها بالسياق الخارجي، ونستغل فرصة ذكر السياق هاهنا للعوّج على ما قرره الباحث حول جعل تقابل السياقات وتواجهها رافدا من روافد التأويل التقابلي؛ حيث إن إحداث تواجه بين السياقات إجراء هامٌّ في عملية فهم النصوص وبناء معناها؛ فالسياق الأكبر^(٣) لتجربة أدبية يضيء السياق الأصغر^(٤)، فيُضيئان معًا عملية التأويل بما يُتيح الفهم ويُسِّره، وما

(١) - "نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ١٠٩.

(٢) - وهي معرفة تقدّمها المعاجم اللغوية عامّة، كما يمكن للباحث أن يجدها في بعض المعاجم التي اختصت في تتبع رحلة الكلمات، كما في "أساس البلاغة" للزخري، و"التعريفات" لأبي الحسن علي الجرجاني مثلاً.

(٣) - ويقصد به محمد بازّي: "التجربة الحياتية والأدبية الخاصّة بالمنتج - حيث تظل خطوطها العريضة واضحة الأثر في التجربة القولية الجزئية- أو بحياة الناس العامة التي تشترك مع الواقعة القولية الخاصّة في عناصر محددة تجعل منها معطى تداولياً مشتركاً".

["نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ٩٩].

(٤) - والذي يقصد به الباحث "الواقعة المباشرة التي ارتبطت بقول كلمة، أو جملة، أو حكمة، أو مثل، أو بيتين شعريين، أو قصيدة معينة، أو خطاب كامل".

["نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ٩٩].

السياق إلا مجموع المعلومات والأخبار التي تُساق إلى التأويل ليفهم النص منها؛ فهو -في تصوّر الباحث- "صورة ذهنية مبنية مما تأتي من المعطيات الخبرية والمعرفية التي تُشكل إطارا يفهم فيه النص"^(١)، وهو يشكّل قرينة نصية تُحدّ من انحراف الفهم، وتؤسّس لتأويل مُوجّه بدقّة وعناية نحو قصدية نصية مقبولة.

إن المرام الأسمى الذي يتأسس عليه المشروع التأويلي التقابلي هو "الوصول إلى المعنى"؛ وهو عند الباحث في نموذج التقابلي "كوني سابق في الوجود المتقابل"^(٢)، ثمّ يوضع في البنيات النصية عبر تراكيب لغوية خاصة، ليأتي دور التجربة التأويلية التي "تعبّر مسالك المعنى تقابليا للوقوف على قصدية الإنتاج"^(٣). إلا أن الوصول إلى معاني النصوص لا يتأتّى إلا بالفهم، لذلك عدّه محمد بازّي "مرحلة أساسا في أيّ اشتغال تأويلي يهدف إلى بناء المعنى"^(٤)، مستنكرا على كثير من النظريات والتصورات البيداغوجية عدم الوقوف عنده بما يتطلبه مقامه من ضرورة ذلك، محاولاً توضيح المقصود به، من أجل تبيان أهمية الفهم بالمقابل على غرار ذلك، "الفهم عرفان، وإدراك عقلي وقلبي، وهو الهيئة الصحيحة للظواهر والمعاني والتصورات عند المتفهم، فإذا لم تكن صحيحة، ولم تُطابق الحقائق الخارجية فهي من الوهم"^(٥). ومن أجل هذا سعى الباحث إلى تأطير الإشكالات المتعلقة بالفهم والمعنى بمقترح تأويلي ناظم؛ وهو استراتيجية التأويل التقابلي، لما يمكنها أن تقدّم من إفادات نظرية ومنهجية ومفهومية تدلّل المسالك أمام المشتغلين بالفهم والتفهم، وتساعدهم في وضع اليد على المعنى في النصوص المختلفة.

(١)- "نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ١٠٧.

(٢)- المصدر نفسه، ص ٨٥.

(٣)- المصدر نفسه، ص ٨٥.

(٤)- المصدر نفسه، ص ١٠٥.

(٥)- المصدر نفسه، ص ١٠٦.

وكما فصلَ الباحث القول في مسألتي الفهم والمعنى، لما تمثلانه من أهمية في ميدان النقد والأدب عموماً، وفي مشروعه التأويلي التقابلي خصوصاً، فقد أعطى أهمية قصوى، في بحثه، لـ "مفهوم النص"، ووقف عنده مشيراً إلى النظرة التجزيئية التي طبعته في بعض النظريات والتصورات، مبيّناً نوع القصور الذي حملته في ذلك، مقترحاً تجاوزاً اعتبار الكتابة معياراً للنصية، مبرّراً ذلك بقوله: "لأن كثيراً مما يعتبر اليوم نصوصاً مرّ من مرحلة التداول الشفوي، ثم صار إلى الكتابة، أي أن الاحتفاء الذي حظي به لدى الذين نقلوه شفويًا واحتفاظهم به، لِمَا فيه من سمات بلاغية وتبالغية وإبلاغية، هي التي رشحته للتدوين والاحتفاء به كتابة"^(١). وهو بهذا الاقتراح يحاول توسيع "مفهوم النص"، لما يسمح به ذلك من مقارنة كثير من المدونات البليغة في كتب أخبار الأدب، من وقائع، وطرائف، ومحاورات، ولطائف، كما يسمح بتناول نصوص الأدب الشفوي التي لا زالت في طور الشفوية أو في مرحلة التدوين. وهذا التصور هو ما تحكّم في تعريفه للنص على أنه "مجموع البنات الجزئية المتقابلة ظاهرياً أو باطنياً، أفقياً أو عمودياً، وفق أية علاقة تواجه، (وجها لوجه) قابلة للملاحظة والوصف أو الافتراض والبناء التأويلي"^(٢).

التقابل من الأسس التعبيرية الخفية التي تتحكم في مناحي التعبير، وليست الأساليب البلاغية المعروفة، والتراكيب النحوية، والأشكال اللغوية، والأنماط التواصلية عموماً إلا تفرعاً له، وتدقيقات ترصد التباينات الحاصلة بين لون تعبيرى وآخر، أمّا الأساس المتحكم في إنشاء الخطاب فهو التقابل، ولذلك سعى الباحث إلى "تأكيد البعد الأنطولوجي للتقابل من خلال الكون المتقابل، والتقابل في العلوم، للتأكيد على سر جمال الخلق في الأشياء والعوالم"^(٣)، القائمة -طبعاً- على التقابل في

(١) - "نظرية التأويل التقابلي"، ص ٢٢١.

(٢) - المصدر نفسه، ص ٢٢١.

(٣) - المصدر نفسه، ص ١٧٠.

مستوياته الظاهرة أو الخفية. ومن خلال هذا التصور حاول محمد بازّي توسيع مفهوم التقابل، وعدم حصره وقصره على الثنائيات - كما الشأن في لسانيات النص -، فرغم كون أصل التقابل قائماً على الثنائيات والأزواج، إلا أن هذا الأصل لا "يستوعب أنواع التقابلات النصية والكونية والتأويلية"^(١)، لذلك وسَّعه الباحث وفق متطلبات المعاني في النصوص، وأجراه في مدارات ثلاثية ورباعية وخماسية وسداسية وسباعية...، مما يسمح بدمج البنيات العميقة، المقول والمفهوم، التقابلات المنطلق والتقابلات الهدف - كما يقترح الباحث^(٢) -، وبالتالي حصول توسيع في مظاهر اتساق النص. وهذا مُعطى "في حاجة إلى مزيد تأمل انطلاقاً من المنظور التقابلي الموسَّع والمرن، وغير المتقيد بالثنائيات الحادة"^(٣).

إن منشأ التقابل عند صناعة النصوص من تطالب المعاني؛ أي إن المعاني يطلب بعضها بعضاً في الذهن بغاية التكامل، فالمعنى "يكمل غيره، توسيعاً، أو تفریعاً، أو تأكيداً، أو تقسيماً، أو تفسيراً، أو غير ذلك من العلاقات الحادثة بين المعاني في ذهن مُنشئها"^(٤)، ومثلما أن هذا التطالب حاصل عند صناعة المعنى في ذهن المنتج، فإنه حاصل عند التأويل؛ فالمعاني الظاهرة تطلب الباطنة أو تطلب ظاهرة مثلها، أو تطلب معاني أخرى خارجية تتضح على ضوءها أو تتوسع من خلالها"^(٥).

(١) - المصدر نفسه، ص ١٩٥.

(٢) - هذان مفهومان مهمان في تأويلية بازّي التقابلية؛ وهما يقومان في المسار الدلالي التأويلي على الانطلاق من البنيات السطحية - وهي التي سماها الباحث "التقابلات المنطلق" - وصولاً إلى البنيات العميقة، الحاملة للمعنى، والموقفة للقارئ على بلاغة الأسلوب - وهي التي سماها الباحث "التقابلات الهدف" -؛ حيث يعمد المؤول إلى تقابلات على مستوى البنيات السطحية (التقابلات المنطلق)، فيجعلها جسراً لتقابلات عميقة (التقابلات الهدف) بينها الفهم والتأويل عبر تدوير المعنى على وجوهه الممكنة انطلاقاً من النص.

[نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ١٤١-١٤٢-١٦٥].

(٣) - "نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ١٣٢-١٣٣.

(٤) - المصدر نفسه، ص ١٧٧.

(٥) - المصدر نفسه، ص ١٧٧.

فالتقابل إذا في إنتاج النص، مردهُ إلى تطالب المعاني التي تنشأ في الذهن غير مكتملة، فتأتي مقابلاتها متممة لها، وفق أنماط من العلاقات: التخالف أو التضاد أو الترادف... ومثلما تتطالب المعاني في الذهن لحظة إنتاج النص فإنها تتطالب فيه لحظة تأويله أيضاً؛ فالتطلب "جزء من صناعة النص وجزء من تأويله"^(١).

يحاول هذا المشروع القرائي التأويلية الاحتفاء بالنص، عبر استخلاص ما يحقق للمتكلمين ومنتجتي النصوص بلاغتهم، وذلك عبر مفهوم "التقابل"^(٢)، ليس باعتباره نصياً فحسب؛ وإنما باعتباره مُعطى كونياً، وحياتياً، عبره يمكن فهم الوجود، والعلاقات الإنسانية. وهو ما انطلق منه الباحث محمد بازّي مُحاولاً بناءً تصوّر نظري محكم لذلك المفهوم (التقابل)، بناءً على ملاحظة مظاهره في النصوص، وتفاعلات الإنسان مع الحياة والكون والمقاصد، وغير ذلك، مستثمراً كل ذلك في استحداث نظام منهجي شمولي وموسع.

وكما أن للنص تقابلاته وآليات خاصة تستند إليها صناعته، التي أشار الباحث إلى الكثير منها، فإن للخطاب أيضاً تقابلاته، وقد قدّم من أجل إيضاح ذلك مقاربات ترتبط بتقابلات الخطاب، حيث سعى إلى "تبيان الأساس التقابلي في التخاطب، على مستوى الأطراف المتخاطبة، وجهات التخاطب، ومقامات المتخاطبين، وأفعال الكلام المستعملة، والأساليب الموظفة وغير ذلك"^(٣)، هادفاً من ذلك التناول إلى "التحقق من الملمح البنيوي التقابلي القوي في التواصل، وفي بلاغة التخاطب"^(٤)، قاصداً دعم التصورات التي اقترحها، منطلقاً في ذلك من سؤال مركزي: كيف يساهم النموذج

(١) - "نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ١٩٥.

(٢) - يعرف الباحث هذا المفهوم في بنائه النظري هذا بأنه "محاذاة المعاني بعضها ببعض، والتقريب بينها في الحيز الذهني والتأويلي، عبر مواجهتها ببعضها (وجهها لوجه)، لإحداث تجاوب ما أو تفاعل معرفي، أو دلالي أو تأويلي".

["نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ٤٠٦.]

(٣) - "نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ٢٩٥.

(٤) - المصدر نفسه، ص ٢٩٥.

التقابلي في تحليل الخطاب؟ محدّدًا المقصود بالخطاب في المقاربة التقابلية، باعتباره "نصًّا بين المعنى في مقام تخاطبي حي ومباشر أو مقام مصوّر باللغة الواصفة"^(١). وقد أكّد الباحث على أن النموذج التقابلي يقدم مفاهيم وتصوّرات "قادرة على تفكيك الخطاب على مستوى الإستراتيجيات التخاطبية، وعلى مستوى اللغة، والأساليب، والأسناد الحجاجية الموظفة، ومهارات التعبير، وأدب الخطاب، والتلطف، والتطمين، والإكبار، أو التحقير والإذلال. وكذا ما يتعلق ببنية الخطاب وتراتب أجزائه، وانتظامها، وأنماط التحوار الداخلي والخارجي، والاستشهادات الموظفة، والتحول في الاعتقادات، واستعمال ذكاءات الإثارة أو الإقناع، أو الإيقاع بالمخاطب، وغير ذلك من أدوات التحليل أو التخير الممكنة التي يستدعيها كل مقام نتج عنه خطاب معين"^(٢).

انطلق محمد بازّي من نظرية "الكون المتقابل" و"النص المتقابل" و"التأويل بالمقابل" مما تصوّر أنّه "بنية عميقة مؤسسة للمعنى، وهي بنية نووية مشتركة بين جميع الخطابات"^(٣). بانيًا ذلك على مجموعة من الافتراضات التي حاول التأكد منها عبر مسالك البحث النظري، والاستقصاء الاختباري التجريبي؛ "وهي مسالك تتفرع من نقطة مركزية وهي التقابل، ثم تمتد عبر مدارات العلوم والمعارف والأسناد المرجعية"^(٤)، ومن أجل التحقق من تلك الفروض التي انطلق منها، وتبيان أن التأويل التقابلي لا ينحصر الاشتغال به جزئيا أو كليا على نوع واحد من أنواع النصوص، فقد تعمّد الاشتغال على نماذج نصية متنوعة، عبر تنزيلات اتخذت منحنيين: منحى نصّي، وآخر تأويلي،^(٥) وتنوعت بين آي من القرآن الكريم، وخطابات تفسيرية، ونماذج شعرية (أبيات من ديوان أبي الطيب المتنبي)، وفن الرسائل (رسالة مسيلمة الكذاب إلى رسول الله / رسالة ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان)،

(١)- "نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ٣١٤.

(٢)- المصدر نفسه، ص ٣١٤.

(٣)- المصدر نفسه، ص ٣٩١.

(٤)- المصدر نفسه، ص ٣٩٥.

(٥)- المصدر نفسه، ص ٢٩٢.

والطُّرفة، والنصوص السردية (رواية "عزازيل" ليوسف زيدان)...هادفًا من تناوله لتلك الأنواع النصية تأكيدًا ما توصل إليه من خلاصات حول نجاعة التأويل بالتقابل، غير أنه لم يكتف بما ذكرنا من أنواع النصوص في التدليل على وجهة طرحه، بل حاول توسيع مجال الاشتغال عبر إثارة بعض المستويات التقابلية في نماذج نصية أخرى: خطاب النقد (تجربة محمد بنطلحة الشعرية)، والقصة القصيرة (قصة البدوي: مقتطفة من كتاب "جرح في القلب" لمحمد حفيضي / قصة الذهب والرغيف: مقتطفة من كتاب "المحاضرات" للحسن اليوسي)، والحكاية (حكاية الحمامة والثعلب ومالك الحزين: حكاية مقتطفة من كتاب "كليلة ودمنة")، ثم أخيرا المثل العامي؛ قاصدًا إبراز "اشترك سائر الآداب -فصيحة وعامية- في خاصية التقابل النصي والمعنوي، على اعتبار أن اللغة ليست إلا وسيلة لتجلية التقابلات الذهنية المؤسسة للمعنى والتواصل عند مستعملها. ومن ثمة تأكيد مرجعية التقابل الذهنية في إنتاج المعنى وإبلاغه، وفي أدوات الإبلاغ، والمقصديات"^(١)، وهدفًا من هذا التنوع إلى التحقق من الفرضيات المنهاجية المطروحة، عبر تشغيلها على أنماط مختلفة من النصوص والخطابات، تدليلاً على شمولية الأسس التقابلية لسائر الأنواع النصية.

وشكل كتاب "نظرية التأويل التقابلي" عملاً تنظيرياً بارزاً في مجال تحليل النصوص والخطابات، كونه عملاً نقدياً جمع بين التنظير والتطبيق، اشتغل فيه الباحث محمد بازلي بترسانة من الآليات والمفاهيم، ساعده على توظيفها تنوعاً للنصوص والخطابات وتعددتها، وقد اعتمد الباحث هذه النصوص والخطابات في تطبيق تصوراتها النظرية، فهو مشروعٌ متعددُّ الواجهات والمداخل والأدوات، المتّصلة والموصولة بحقول معرفية عديدة، ما جعل منه مشروعاً مفتوحاً، يُشّر بإمكان التوسيع وقبول التعميق، والتجويد، وهو ما سيُطالعنا به كتابه "البنى التقابلية؛ خرائطٌ جديدةٌ لتحليل الخطاب"؛ حيثُ سيُحاول فيه صاحبه اقتراح مجالات وموضوعات يجري فيها

(١) - "نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ٣٥٧.

اشتغاله على توسيع أنموذجه التأويلي التقابلي، على نحوٍ سنحاولُ وصفه وتقريبه في آخر فصل يلي من هذا المحور، الموسوم بـ "مرحلة التوسيع"^(١)، راجين أن نوفق في ذلك دون إخلال ولا إملال.

٤- مَرَحَلَةُ التَّوَسُّيعِ

سَعَى الباحث في هذا الكتاب إلى إعادة بناء مفهوم الخطاب منطلقاً من عدّة أسئلة لمناقشة إبحار الفعل المؤوّل من قبيل: "ما الذي يكون به الخطاب خطاباً؟ ثم ما الذي يكون به بليغاً؟ كيف يمكن بناء مفهوم شمولي للخطاب يستفيد مما قيل عن الكلام، والقول، والنص، والخطاب، والقصد، والغرض، والمعنى، والفائدة، والحال، والمقام؟"^(٢)، محاولاً على غرار ذلك بناء نمذجة للخطابات وللبلاغة الخطاب، أو نماذج لطبقات الخطاب البليغ، وإخراج الخطاب من مفهومه الضيق في مجال الرسائل والشعر والمناظرة والخطبة... ليشمل الخطاب الكلي الذي يحمله أي كتاب يؤلفه صاحبه، ليصبح الخطاب مجموع المعاني التي تحملها الأجزاء، وكذا المقاصد الكلية المراد إبلاغها الموجهة إلى من هو معني بفهمها ومتهيئ لذلك، طامحاً مع ما ذُكِرَ إلى إشراك اختصاصات معرفية كثيرة في تلك النمذجة، مثلما هو الشأن في خطابات التفسير البليغة؛ إنها محاولة تأسيس لعقد قرائي جديد، يستجيب لطبيعة مكونات الثقافة العربية، ولأنهاط الخطاب المتداولة فيها، بعيداً عن المعنى الشائع لتحليل الخطاب والمعنى اللساني الضيق أيضاً^(٣)، لأن قصد الباحث توسيع مفهوم الخطاب توسيعاً يخدم اهتماماته التأويلية التقابلية، وهو ما نستشفُّه من تعريفه للخطاب أولاً،

(١)- وقد سلفت الإشارة في مقدمة هذا المحور إلى أن كتاب "البُنى التقابلية" هو الممثل لمرحلة التوسيع المفاهيمي.

(٢)- بازي محمد "البُنى التقابلية؛ خرائط جديدة لتحليل الخطاب"، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، ص ٣١.

(٣)- انظر في شأن هذا الإجمال تفصيلاً له في الخريطة الثانية من الفصل الأول. ["البُنى التقابلية"، م.م، ص ٤٢ و ٤٤].

ثم لتحليل الخطاب ثانياً؛ حيث عرف الأول بكونه "مُعطى نصيٌّ وثقافيٌّ، يتجاذبه المضمون والشكل المرتبط بالمقام"^(١)، وحدد مفهوم الثاني بأنه "مقاربة معرفية توصيفية وتأويلية موضوعها الخطاب بمعناه الموسَّع، ومنهجها العملي هو التوصيف، والتحليل، وبيان العلاقات، وتأويل الفهوم، والربط بالمرجعيات، والسياقات للخلوص إلى المبادئ، والأنساق، والبُنى التي يتأسس عليها ذلك الخطاب، بهدف تقريب موضوعه إلى المعنيين به، أو استثمار أنظمتها في بناء نماذج معرفية، تُعتمد لدراسة الخطابات الشبيهة والمماثلة، أو غير ذلك من المرامي وفق طبيعة ذلك الخطاب ومجاله: ديني/ أدبي/ سياسي/ لغوي/ إسهاري/ علمي/ قانوني/ نقدي/ تأويلي..."^(٢). إنه بهذا يرمي إلى فتح باب الاجتهاد لبناء مفهوم موسَّع للخطاب يلائم منطلقاته التأويلية، ويناسب الغايات التي يسعى إلى تحقيقها داخل اهتماماته بالدراسات التقابلية الموسَّعة، في أفق تقديم الدرس النقدي والتأويلي تقديمًا مفيدًا يترك امتدادات عند كل قارئ.

والسؤال الذي ينبغي طرحه بعد هذا -مساءلة للمشروع التقابلي- هو: كيف يتقوى الفهم والتفهّم في تحليل الخطابات اعتمادًا على مبادئ وأسس المشروع التأويلي التقابلي؟ وما دور محلل الخطاب في تعامله مع هذا المفهوم الموسَّع المعتمد على التقابلات؟

يجيب الباحث محمد بازّي عن تساؤلاتنا بأن تحليل الخطاب يتجه إلى استكشاف التقابل النووي المؤسَّس للخطاب عبر قراءة تفهّمية استطلاعية، تكشف عن التقابل المنطلق، ثم قراءات تالية معمّمة تستهدف الوصول إلى البنية الأساس، عبر تقابلات استتباعية تغوص نحو العمق الدلالي للكشف عن التقابل الهدف، إذ إن كل تقابل منطلق في البنية السطحية يقابله تقابل هدف في البنية العميقة، ولا يمكن الوصول إلى التقابلات الهدف من التقابلات المنطلق إلا بإقامة تقابلات جسور تساعد على ذلك.

(١)- "البُنى التقابلية"، م.م، ص ٤٥.

(٢)- المصدر نفسه، ص ٤٥.

ولذلك فإن دور محلل الخطاب يكمن في استخراج التقابلات الاستيعابية المكتملة للتقابل النووي، وتجميعها في بنيات ثنائية أو ثلاثية أو رباعية، بحيث يبرز التقابل النووي وسط دائرة التقابلات التوسيعية المفرّعة، مستعيناً في ذلك بالتقابلات الجسور التي تُسَعِّفه في إقامة كل تلك التقابلات. يفترض محلل الخطاب بأن هذه الخطاطة الأولية تُشير إلى تقابلات منطلق على سطح النص، تستدعي الغوص نحو العمق الدلالي، بحيث إن كلَّ تقابل في البنية السطحية له ما يقابله في البنية العميقة؛ فيكون دور محلل الخطاب بالتقابل -بعبارة أخرى- "هو العبور من مُشيرَات النص إلى المصادر المعرفية الموسَّعة، وإحداث التجاوب بين النص والأطر المعرفية المتحكمة فيه وفي منتجته"^(١).

إذا؛ فالتقابلات الهدف "ناجئة في الفهم عبر ما يريده النَّاص من مقاصد، ويصل إليه المؤوَّل بالفهم والتحليل والتوصيف والنشر التقابلي، اعتماداً على التقابلات الجسرية، وهي المعاني المنتظمة في الذهن بشكل تقابلي، ويسمح تمثلها بالمرور إلى التقابل النهائي المقصود"^(٢).

على غرار هذا التوسيع في مجال تحليل الخطاب، والمتعلق بالوصول إلى التقابلات الهدف، من التقابلات المنطلق، عبر التقابلات الجسور، يقترح الباحث -وبالمقاربة نفسها- مجالاً آخر للاشتغال، متعلق بالبنيات الاستعارية، منطلقاً من بعض الآيات القرآنية التي حضرت فيها الاستعارة، محاولاً استثمار المفاهيم التقابلية لإظهار بلاغة الاستعمال القرآني للاستعارة، وكيف حصل ثراء المعنى بتجاور الاستعارات وتضامها في كلية مقصدية واحدة، ومؤكِّداً على أن البنية الاستعارية "بنية تقابلية في العمق"^(٣)، وهي ذات طبقات يُفْضي بعضها إلى بعض بشكل ترابطي تعالقي، غير أنها قد تكون

(١)- "البنى التقابلية"، م.م، ص ٥٨.

(٢)- المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٣)- المصدر نفسه، ص ٨٥.

ذات بعد ثنائي؛ أي ذات تقابل منطلق واحد وتقابل هدف واحد: مثل "ضحك المشيب"، "رحل النهار"... وقد تكون رباعية ثم سداسية ثم ثمانية؛ أي إنها تنطلق من تقابل أولي منطلق في البنية السطحية، لتصل إلى تقابل ما يتقابل في التقابل الأول، ثم إلى المستهدف في نهاية المطاف من الخطاب.

والسؤال الذي يطرق الذهن بالحاح في هذا المقام هو: كيف تكون البنية التقابلية في الاستعارة ثنائية أو رباعية أو سداسية أو ثمانية؟

يجيب الباحث على هذا التساؤل بأن ذلك يعود إلى طريقة نَظْم الاستعارات داخل النص؛ فإذا كانت متفرقة متناثرة أمكن تبيان المستوى الثنائي فيها، والتقابل المنطلق، ثم التقابل الجسر، الذي يوصل إلى التقابل الهدف ثم إلى المقصود من الخطاب، وهذا يحصل على مستوى البنية الاستعارية الواحدة، أما إذا تعلق الأمر باستعارات متعددة على مستوى نصي أو خطابي واحد، وتؤكد أن بينها علاقات دلالية، "فيمكن للمؤول إيجاد تقابلات جسرية بين الاستعارة ١ والاستعارة ٢ والاستعارة ٣..."^(١)؛ فيصير بذلك قبالة شبكة من البنى الاستعارية، تصبُّ كلُّها في تقابل نووي منطلق، يُفضي إلى تقابل دلالي هدف، عبر تقابلات جسرية، وبهذا يتحول "من مستوى الاستعارات الجزئية إلى مستوى الاستعارات النصية"^(٢).

وهكذا، فمنشأ بلاغة الاستعارة وفق هذا التصور هو انتظام العمليات الإدراكية فيها على شكل تقابلات أفقية وعمودية، ظاهرية وباطنية، وبينها تقابلات جسرية رابطة أساسها الدلالات المفهومة.

تجدُر الإشارة إلى أن محمد بازي لم يكتف بمطارحة البنيات الاستعارية في تناوله هذا، بل عزز ذلك بالتقابلات الشبكية القائمة على التمثيل أو التشبيه أو الكناية أيضاً؛

(١)- "البنى التقابلية"، م.م، ص ٨٦.

(٢)- المصدر نفسه، ٨٧.

فكما يمكن -على حد تعبيره- أن يكون النص بنية تقابلية استعارية يمكن أن يكون بنية تقابلية تشبيهية أو تمثيلية أو كناية.

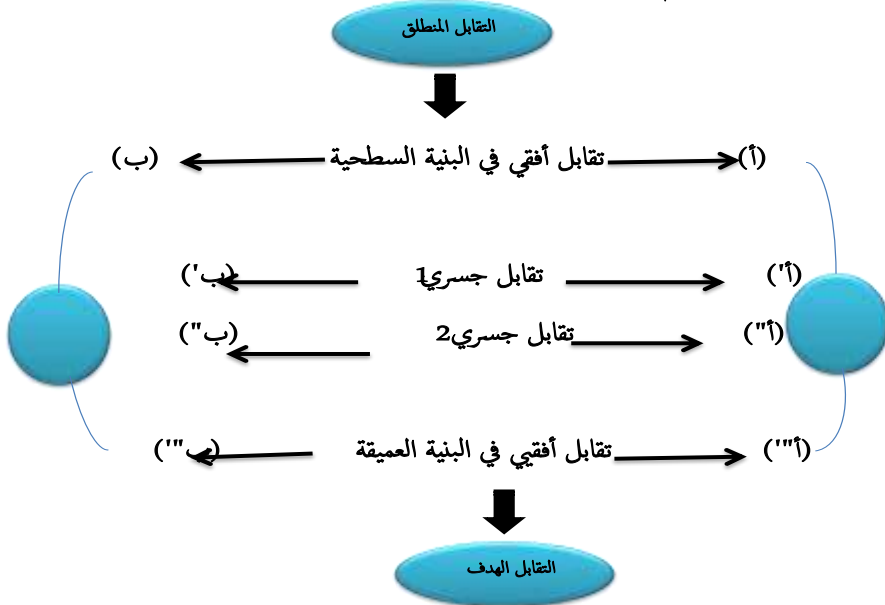
ولقد أفضت دراسة تلك البنى تقابليا بالباحث إلى خلاصة مفيدة؛ وهي "أن مؤؤل هذا النمط من البنيات الاستعارية أو التشبيهية يحتاج إلى إدراك أهمية التقابلات الجسرية للعبور من بنية إلى أخرى من البنيات المشكّلة لنصه، وسميهاها تقابلات جسرية أفقية، كما أنه بحاجة إلى تقابلات جسرية عمودية أو سلام للعبور أو النزول إلى الطبقات العميقة للمعنى"^(١).

تُولي الدراساتُ التقابلية بلاغةَ الخطاب القرآني عنايةً خاصة على مستوى الاتساق والتناسك، وجودة النظم، ولذلك فقد وقف الباحث عند آيات من سورتي البقرة والنور، قصدَ تبين أدوار التقابلات الظاهرة والخفية في تحقيق ذلك الاتساق، محاولاً إبراز شبكة التقابلات الخفية في تلك الآيات، وكيف أنها أدّت مجموعة من الأدوار التوضيحية والبيانية والتصويرية والحجاجية. والقصدُ الأسمى من تناوله ذلك هو محاولة تطوير تصوّره "بجعل التقابلات في البنية العميقة لا تقتصر على تقابل عمودي (هدف واحد)، بل تمتد إلى تقابلات متعددة: ثنائية ورباعية وسداسية وثمانية... حسب طاقة المؤؤل، وقدرته على وضع تقابل جسري عند العبور في كل مرة من تقابل إلى آخر"^(٢)، وهو ما يسمح لمحلل الخطابات والنصوص بالانتقال من بنية في التقابل إلى أخرى أعمق منها، على اعتبار أنّ بين كلّ تقابل وآخر تقابلا جسريا يسمح بالعبور، وهو ما يُعدّدُ التقابلات الممكنة المبنية (الهدف) انطلاقا من التقابلات النصية الكائنة (المنطلق)، وفيما يلي تقريب لذلك بشكل أرفق وأوفق عبر الترسيم الآتية:

(١)- "البنى التقابلية"، م.م، ص ١٠٣.

(٢)- المصدر نفسه، ص ١٣٤.

المسار التوليدي للفهم بالتقابلات



ومن هذه الخُطَاطة يتضح جلياً كيف "تسنع إستراتيجية التأويل التقابلي بالعبور من تقابل إلى تقابل آخر، ومن التقابل إلى تقابل التقابل، ثم إلى تقابل تقابل التقابل، وهو عبور منظم بالعلاقات، ويحتاج في كل مرة إلى تقابل جسري"^(١). ولأن أسَّ اشتغال الباحث في الكتاب يرتكز على توسيع أفق مشروعه التأويلي التقابلي، فقد وجدناه كذلك -بعد الذي طُرِح أنفا- يسعى من خلال بعض الاجتهادات إلى تعميق فهم أسرار الخطاب الكوني والرباني والإنساني، اعتماداً على آليات التقابل المعرفي والتأويلي، محاولة منه لتوسيع مجال العمل "بالانتقال من البنى التقابلية البيانية إلى البنى التقابلية العرفانية"^(٢)؛ والتي يُريد بها "البنى الخفية العميقة التي توصلت إليها الاجتهادات المعرفية والتفسيرية من قبل"^(٣)، وهي بُنى مرتبطة

(١)- "البنى التقابلية"، م.م، ص ١٤٦.

(٢)- المصدر نفسه، ص ٢٠١.

(٣)- المصدر نفسه، ص ٢٠١.

بفهوم ذوقية باطنية عميقة، يُتوصل إليها -كذلك- اعتماداً على حركة عبورية من التقابلات المنطلق في البنية السطحية، إلى التقابلات الهدف في البنية العميقة، عبر التقابلات الجسرية؛ إنها خطوة مثلت "نقلةً معرفية كبرى في الارتقاء بدرس التقابلية من درج البنى البيانية إلى درج البنى العرفانية"^(١).

النموذج التأويلي التقابلي- كما سلفت الإشارة إلى ذلك في غير ما موطن -منهجٌ يقوم على العرض والمواجهة بين المكونات، والمستويات، والنصوص، والخطابات، وهي مواجهة لا تعني دائماً الصراع أو التضاد، وتبعاً لهذا المنظور من حيث أسسه النظرية، ومفاهيمه ومبادئه، ومنهجيته في الاشتغال، فإن الباحث يقترح على القارئ مجموعة من النماذج لدراسة البنى التقابلية في بعض الحقول الأدبية والمعرفية في التراث العربي، أملاً -كما يقول- أن يُوفق إلى:

- التعريف الموسع بالتقابلية نظرية ومنهجاً.
- الدعوة إلى تجريب المفاهيم التقابلية على الخطابات الكبرى الموسّعة.
- الوقوف على البنى العميقة في التفكير العرفاني العربي، واستثمار ذلك في بناء نُظُم معرفية ومنهجية قادرة على تحليل الخطاب وتبيان مستوياته البلاغية الظاهرة والخفية.^(٢)

ثم يأخذ الباحث بعد هذا في تفصيل تلك المقترحات -بعد أن أشار إلى جملة من وظائف التقابل^(٣)-، والتي يمكن إجمالها اختصاراً في ما يلي:

-
- (١)- المصدر نفسه، ص ١٠٣.
 - (٢)- المصدر نفسه، ص ٢٠٧.
 - (٣)- وهي وظائف أشار إليها الباحث في ما سبق من أعماله ضمناً، وفصل فيها القول في هذا المقام تصريحاً، حاصراً إياها في ثلاثة أُطُرٍ من الوظائف باعتبار جهات عدّة، وهي:
 - ١- الوظائف البلاغية والإبلاغية باعتبار جهة الإنتاج.
 - ٢- الوظائف البنائية والجمالية والتأثيرية باعتبار جهة النص.
 - ٣- الوظائف التأويلية والتفهمية والتفهمية باعتبار جهة المتلقي.وانظر لمزيد تفصيل الفصل السادس من كتاب "البنى التقابلية؛ خرائط جديدة لتحليل الخطاب".
["البنى التقابلية"، م.م، ص ٢٠٨-٢٠٩].

- حركة التأليف عند العرب في المجالات المعرفية والنقدية والتاريخية؛ حيث إنها في حاجة إلى تعميق التقابلات المشار إليها بين الكتب لفهم دقيق لتطورات الكتابة والعلوم عند العرب. وقد توقف محمد بآزي بإيجاز عند بعض مظاهر هذا التواجه الحاصل بين المؤلفات مثل: "التتميم والتكميل، أو التصحيح والتصويب، أو تقابل المحاكاة أو التجاوز والطرح، أو المدافعة والإقضاء، أو التوضيح والشرح، أو التلخيص أو غير ذلك".^(١)
- بعض المؤلفات التي يحضر فيها التفكير بالمقابل، كما في رسالة "التوهم" للمحاسبي؛ حيث نبّه الباحث إلى أهمية دراسة المناظرات الفلسفية، والفكرية، والنحوية، والبلاغية، والمؤلفات التاريخية القديمة والحديثة وفق هذا المنظور.
- قضايا التأويل والتمثيل والتهويل عند الغزالي، وهو كثير في كتبه وبالأخص كتاب "الإحياء".
- مسألة التفكير المثنوي عند إخوان الصفا؛ حيث كشف عن بعض الأنوال التقابلية الموضحة للأسس المعرفية والمنطلقات المنطقية التي "جعلت كتاباتهم تصف الأبعاد المثنوية في الكون، والوجود، والقيم، والشرائع، وأحوال الإنسان، وسلوكياته"^(٢)، مقترحاً أن يمتد ذلك -بالمقاربة نفسها- إلى فكر غيرهم من الفلاسفة كابن سينا والفارابي وابن رشد...
- التعريفات العلمية؛ حيث اقترح اعتماد منهجية التقابل الموسّعة في تعريف المفاهيم، وشرح المصطلحات تيسيراً للتعلّم.
- المباحث اللغوية والمعجمية.
- التقابلات التشكيلية والرسم وال عمران والصورة والإعلانات الإشهارية...؛ ففيها "ما يستدعي مقارنة من هذا النوع، لدراسة التقابلات المنطلق والهدف

(١)- بازي محمد، "البنيّ التقابلية"، م.م، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٢)- المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

والتقابلات الجسرية والتأويلية، وتوليد المعنى، وبناء معنى الخطاب انطلاقاً من كل ذلك مع فعاليته وبلاغته وإيجازه"^(١).

إنها محاولة جدية في البرهنة على أن استراتيجية التأويل التقابلي يمكنها أن تمكّن من مقارنة دقيقة للنصوص والخطابات بشتى الأنواع والألوان، وفي شتى الميادين والمجالات، على النحو الذي بسطه الباحث وبينه، ووضّح أسسه ومبادئه، وهي مقارنة تعكس التوسيع الذي أرادته الباحث لمشروعه التأويلي التقابلي، وتجليته أيما تجلية.

٥- مآل القول

بعد هذه المطارحة التوصيفية، التي نرجو أن نكون قد ضربنا من الدقة فيها بسهم وافر، يمكن القول إن كُتِبَ الباحث محمد بازّي كانت وليدة تصوّرات نقدية عميقة ومنهجية ورصينة، تصوّرات لم تكن وليدة شهر أو شهرين، أو عام أو عامين، بل إنها وليدة جهدٍ وجهدٍ كبيرين من قضائه ربيع العمر مقلِّباً الفكر، قارئاً ودارساً، وباحثاً ومنقّباً في مزبورات التراث العربي الإسلامي من جهة، وفي مخلفات النقد الغربي ومناهجه من جهة ثانية، وهو ما أتاح للباحث ذلك التريث الذي أفضى إلى الدقّة في التناول عبر مسار خطي تطوّري، على نحو يؤكّد وجاهة التقسيم الذي تناولنا به مشروعه التأويلي التقابلي؛ فكانت كتبه الخمسة تلك المؤسسة للمشروع التقابلي مفصحة حقاً عن استكشافٍ قبل بناءٍ مفاهيميٍّ، ثم بناءٍ نظريٍّ، بعده توسيعٌ وفتحٌ آفاقٍ للاشتغال بهذه المنهجية، وتعميم نتائجها على مختلف النصوص والخطابات بشتى أنواعها، وهذا ما جعل عمل الباحث على طول اشتغاله في مشروعه التأويلي التقابلي عملاً "مركباً: يبدأ من الافتراض، ثم الاستكشاف، ثم التحليل والاستنتاج، ثم بناء التصور، ثم تطبيقه وتعميم نتائجه"^(٢).

(١)-بازي محمد، "البنى التقابلية"، م.م، ص ٢٧٩.

(٢)-بازي محمد، "نظرية التأويل التقابلي"، م.م، ص ١٥١.

التقابل من المفهوم إلى النظرية

نماذج تطبيقية^(١)

الطالب الباحث: خالد معصي

تقديم:

لا شك أن الحديث عن النظرية بمفهومها العلمي الأكاديمي يستدعي النظر أولاً في شروط اكتسابها شرف هذه الصفة، وبلوغها هذه المرتبة من التنظيم والتدقيق المنضبطين لشروط الإنتاج الفكري المحكم والاجتهاد الخلاق؛ فمتى تحققت الشروط الموجبة لبلوغ هذا السقف من التماسك العلمي، والتفكير المنهجي جاز لنا حينذاك الحديث عن النظرية بكل اطمئنان. فالتراكم المعرفي، والموضوع أو القضية، والمنهج أو الإطار النظري، والجهاز المفهومي، تلك شروط أربعة لا يمكن لأي اجتهاد، في غيابها أو غياب شرط منها، أن يرتقي لمستوى التنظير والنظرية؛ وذلك لأجل أن لكل شرط أهميته وقيمه داخل النسق العام للنظرية باعتبارها شكلاً من أشكال التفكير المنظم القائم على أسس علمية ومنهجية صارمة، فلا تكتسب النظرية القدرة على الإحاطة والفحص والبناء، في إطار مشروع فكري معين، إلا بهذه الشروط مجتمعة متعلقة.

وانسجاماً مع موضوع بحثنا، المعنون بـ "التقابل من المفهوم إلى النظرية؛ نماذج تطبيقية، سنفرد هذه المقالة للشرط الرابع المتمثل في الجهاز المفهومي، بل سنقصر الجهد على واحد من المفهومات المؤسسة للنظرية عند الدكتور محمد بازي، مؤجلين بحث الشروط الأخرى ومساءلتها إلى مناسبة أخرى إن شاء الله تعالى.

يكتسي هذا البحث أهمية تقتضيها، أولاً: المكانة العلمية، والكفاءة النظرية لصاحب النظرية؛ فقد أبان د. بازي، في السنوات الأخيرة، عن اجتهادات نظرية جليلة في سياق التأسيس لنظرية تأويلية عربية تستمد شرعيتها، وأصولها، وقوتها من جهود العلماء العرب المتقدمين من ناحية، وتفتح، بوعي متيقظ وبمناعة راسخة، على

(١) - إشراف وتأطير الدكتور مولاي علي سليمان

المنجز الفكري الإنساني القديم، والحديث، والمعاصر من ناحية أخرى، وثانيا: تقتضيها القيمة العلمية للنظرية نفسها من جهة أصالة منطلقاتها ووضوح مفهوماتها وطموح أهدافها وأفاقها.

تنهض التأويلية العربية، عند د. بازي باعتبارها منهجا قرائيا يروم بناء المعنى ونموذجا تسانديا في فهم النصوص والخطابات، على ركيزتين اثنتين تتأسس عليهما النظرية ككل وبها يتحقق فهم النصوص والخطابات وتفهمهما، والحديث هنا عن ركيزتي التساند والتقابل، غير أننا سنخصص هذه المقالة، في شقها الأول، لركيزة التقابل قاصدين، في سياق البحث، إلى التعريف بهذا المفهوم وتبيان قيمته النظرية والإجرائية في بناء صرح النظرية، مركزين الجهد حول تتبع أصوله ومنطلقاته الوجودية، ورصد أهم تجلياته في الفكر العربي القديم. كما سنحاول في شق ثانٍ، رصد عملية انتقال آلية التقابل من مستوى المفهوم إلى مستوى النظرية أو ما يعرف عند د. بازي بـ "التأويل التقابلي"، ثم نعرض في شق ثالث من هذه المقالة نماذج تطبيقية توضيحية موجزة، نهدف من خلالها إلى إبراز فاعلية التقابل في فهم النصوص والخطابات وتفهمهما، وقدرة التأويل التقابلي على بناء المعنى باعتباره نظريةً تقوم على مقارنة تأويلية في تمثل المعاني وصناعتها. فما التقابل إذن، وما هي منطلقاته الوجودية وخلفياته المعرفية، ما المقصود بنظرية التأويل التقابلي، وما هي أصولها ومرجعياتها، وإلى أي حد يمكن اعتبار التأويل التقابلي نظرية تسهم في صناعة المعنى وتأويله، وتشمل جميع الخطابات والنصوص؟

تلکم أسئلة سنحاول تقديم إجابات عنها من منظور د. بازي، وذلك وفق ثلاث محطات رئيسية مقيدة بمسارات بحث نؤطر بها موضوع هذه المقالة، ونعتمدها خطة طريق نسلکها للإجابة عن الإشکال الذي تعرض له هذه المقالة وتبث فيه. وهذه المحطات هي كالآتي:

- التقابل عند د. بازي؛ مفهومه، أبعاده الوجودية والمعرفية، وتجلياته في الفكر العربي القديم؛
- نظرية التأويل التقابلي عند د. بازي؛ التعريف بالنظرية، أصولها ومرجعياتها؛
- نماذج تطبيقية للتأويل التقابلي عند د. بازي.

التقابل من منظور محمد بازي

مفهوم التقابل

حاول د. بازي، في سياق بناء مفهوم التقابل باعتباره أحدَ جناحي مشروع النظرية، تتبع بعض معاني المفهوم الواردة في بعض المراجع المتخصصة، ومن هذه المعاني ما نقله عن محمد عبد الرؤوف المناوي في كتاب "التوقيف على مهمات التعاريف، إذ قال: "الأصل في التقابل: أن يُقْبَل بعض القوم على بعض، إما بالذات، وإما بالعناية والتوقيف والمودة"^(١)، وأما المقابلة، من منظور د. بازي، فهي: "مصدر من قابل الشيء الشيء إذا واجهه وصار ماثلاً أمامه موازياً له، ثم وَسَّعَ فاستعمل في المعاني والألفاظ من زاوية نظر إنتاجية تهتم ببلاغة القول، وتوسعه أكثر ليؤطر ويغني بلاغتنا التأويلية. فصدره يتسع للبلاتين معاً"^(٢)، فما يميز مفهوم التقابل، عند د. بازي من خلال هذا التعريف الموجز في حدوده اللغوية، هو كونه مفهومًا مرناً منفتحاً يتسع لكل أنواع الخطابات والنصوص صناعة وتأويلاً.

ولم يكتف د. بازي بهذا التعريف الذي يروم تقريب المفهوم من الناحية اللغوية، والتنبيه إلى بعض خصائصه ومزاياه، بل حاول، في كثير من المواضع في بعض كتبه، تعميق النظر في مفهوم التقابل، والتركيز على رصد بعض الجوانب المهمة منه التي تساعد على الإحاطة به فهماً وتوظيفاً، هكذا يعرف د. بازي التقابل بكونه "خاصية

(١)- بازي محمد، التأويلية العربية؛ نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان- منشورات الاختلاف، الجزائر، ط، ١، ٢٠١٠م، ص ٢٢٢.

(٢)- المرجع نفسه، ص ٢٢٢.

تواصلية وإدراكية، فالأمور تفهم وتتمثل بشكل أفضل بعرضها على مقابلاتها...^(١)، فهو بهذا المعنى عملية نظرية تأويلية تحدث على المستوى الذهني بوعي أو بغير وعي بغرض خلق نوع من التقارب بين المعاني المنقذحة في الذهن في سياق قرائي أو تواصلية أو تأويلية معين، وتسعى إلى إحداث نوع من المواجهة بين هذه المعاني وذلك باستدعاء ما يقابلها في سياق دلالي أو تداولي محدد.

وتأكيداً على منطوق المواجهة بين المعاني والأشياء والذوات والبنى والسياقات، ومن منطلق اعتبار المقابلة أو التقابل هو الإطار العام لهذا المنطق والمحرك له، يقول د. بازي في كتاب البنى التقابلية، خرائط جديدة لتحليل الخطاب: "التقابل [هو] أن تجعل المكونات والعناصر والأشياء والذوات والضمائر والأفعال، والبنى والسياقات تتفاعل وجهاً لوجه على مستوى التمثل والتصور والإدراك؛ فعندما نتوقف عند مكونات الخطاب، مثلاً، نقول: هذا مقابل هذا، هذا يخاطب هذا، هذا مقابل هذا، هذا أمر وهذا مأمور، هذا فاعل وهذا مفعول به، هذا جالس وهذا واقف. الزمن الحاضر/ الزمن الماضي. تقابل الذوات (أ) مقابل (ب) إلخ. فللغة بنية مرجعية قائمة على هذه التقابلات الذهنية المتقابلة"^(٢)، فلما كانت اللغة حاملة لهذا التقابل ضمناً وهو جزء منها بالأصالة، ومحتضنة له بأمانة صار التفاعل بين هذه العناصر كلها في إطار مواجهة على المستوى الذهني هو القانون العام الذي يحكم التقابل وهو جوهر عمليتي الفهم والإفهام، فالتقابل لا يتحقق مطلقاً إلا عبر "إحداث تواجه بين بنيتين، أو وضعيتين، أو موقفين، أو غير ذلك"^(٣)، ولذلك لا مجال للحديث عن تقابل تتعطل فيه عمليات التفاعل والمواجهة بين الأشياء والعناصر والأفكار والمعاني على المستوى الذهني.

(١) - التأويلية العربية، ص ٢٢٢.

(٢) - بازي محمد، البنى التقابلية؛ خرائط جديدة لتحليل الخطاب، دار كنوز المعرفة، ط ١، ٢٠١٥م، ص ١٨١-١٨٢.

(٣) - بازي محمد، تقابلات النص وبلاغة الخطاب؛ نحو تأويل تقابلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط ١، ٢٠١٠م، ص ٩.

فحرص د. بازي على إبراز أهمية التفاعل والمواجهة في حصول تقابلات بتاء ومؤسّسة نابع أولاً من الوعي بالمرجعية الوجودية لمفهوم التقابل، وثانياً من ضرورة احترام العلاقة بين الأصل اللغوي للمفهوم وما يفصح عنه من معانٍ في سياقات تداولية محددة ذات صلة بالهدف العام للنظرية، فـ "الأصل في التقابل المثول والمواجهة بين شيئين (...)"، يقابل الشخصُ الشخصَ والجبلُ الجبلَ، ثم حصل فيه اتساع، فاستعمل في المعاني، عبر وضع الكلمة مقابل الكلمة، والمعنى مقابل المعنى. التقابل تواجه (أي وجها لوجه)؛ تقابل القوم أي استقبل بعضهم بعضاً، والمقابلة المواجهة، والتقابل مثله، وهو قبالك وقبالتك أي اتجاهك، على (... سرر متقابلين) أي وجها لوجه، لا ينظر بعضهم في أفقاء بعض^(١)، إذن، فتوظيف التقابل ذهنياً، واستعماله في المعاني هو مجرد توسع واقتراض، وليس يكون إلا امتداداً لما يحويه الوجود من تقابلات هي الأصل والمنطلق.

الأبعاد الوجودية للتقابل

يرى د. بازي أن للتقابل مظهراتٍ وتجلياتٍ كثيرةً في حياة الإنسان وفي محيطه وعوالمه الوجدانية وعلاقاته الاجتماعية، وله محفزات ذاتية وموضوعية عديدة تدفع به إلى أن يصبح نمطاً من التفكير لديه، ومنهجاً فطرياً لإدراك الأشياء والأفكار والمعاني بداهةً "فذكر الشيء [بالنسبة للدكتور بازي] يغني عن ذكر مقابله اختصاراً للكلام ولجماً للعبارات الزائدة؛ فعند قولنا: "هيا إلى الخارج" فهذا يفترض وجودنا في الداخل، لكننا لا نقول: "هيا إلى الداخل، لأننا في الخارج" لأنه فيه تزيدي غير مبرر، ولو تعلق الأمر بسماع متوار، فإنه يفهم أن الدعوة إلى الدخول سبقها وضع مقابل، هو الحضور خارج البيت، وهذه حال القارئ، فالمنتج يعرض عليه أشياء ويخفي أخرى يتوصل إليها بذكائه"^(٢).

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي؛ مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، دار الأمان، الرباط، ط ١، ٢٠١٣م، ص ١٦٩.

(٢) - التأويلية العربية، ص ٢٢٢.

وبذلك يصبح التقابل، من هذا المنظور، معطًى متضمناً في النصوص والإنسان والعالم من حولنا، ولما كان ذلك كذلك فإن "المعاني [لا تقال] ولا تكتب إلا بعد أن تعرض بشكل تلقائي على المستوى الذهني؛ إذ إن الخطابات تنتج أصلاً بكيفية تقابلية عن طريق عرض الأشياء على ما يقابلها أو يماثلها، أو يضادها، أو يجاورها، أو يتممها، أو يشرحها، أو غير ذلك، إضافة إلى أن صناعة الخطاب الأدبي عموماً تتم عن طريق الاختيارات الدلالية الواعية للمنتج، فيحذف ما يريد ويحتفظ بما يريد، ويتقني الأداة اللفظية والأسلوبية المناسبة لذلك. من ثمة يظل التقابل الوسيلة الأنجع للعودة بالمعنى إلى أصوله المتقابلة بشتى أنواع العلاقات والمقصدات"^(١)، فبناء المعاني إذن، من منظور د. بازي، يتم وفق عملية تقابلية موسّعة تُنجز بشكل قبلي على المستوى الذهني، وذلك بعد سلسلة من المواجهات بين الأشياء والأفكار والتمثيلات..، وكذلك بعد مراجعات تقويمية ذهنية واختيارات دلالية يقوم بها المنتج للخطاب أو المؤول له انسجماً مع ما يستلزمه السياق، ويقتضيه المقام، ووفق علاقات تقابلية واعية أو غير واعية، وهي تكون غير واعية في أغلب الأحيان- على حد تعبير د. بازي- وذلك "بفعل اعتياد الناس وألفتهم بالأشياء المحيطة بهم، ولكن عند التأمل في مكونات الكون المادي المحسوس (السماء/ الأرض، السارد/ الساخن..) من حولنا فهي تبدو متقابلة، كما أن تعميق التأمل في الكون المعنوي (السعادة/ الشقاء، الفرح/ الحزن..) يظهر شبكة العلاقات المتقابلة بين أحواله"^(٢).

وقد استند د. بازي، في جانب من محاولاته إعطاء مفهوم التقابل بعداً وجودياً كونياً، إلى ما خلص إليه الباحث والناقد المغربي الدكتور محمد مفتاح في رسده لمبادئ التقابل عند أرسطو وحدوده المتضادة وشبه المتضادة، مستخلصاً من هذا الرصد أن "العالم الذهني البشري الذي وضع به الإنسان تقسيمات منطقية رياضية انطلق من التفكير بالمقابل، وهو تفكير يتأسس على المفارقة من حيث إنه لا وجود لشيء إلا

(١)- تقابلات النص وبلاغة الخطاب، ص ١٠.

(٢)- البنى التقابلية، ص ١٨٢.

بمقابله"^(١)، مؤكداً في السياق نفسه أن الرياضيات والمنطق والموسيقى تأسست هي كذلك على التقابل، الشيء الذي يجعلنا نقرر حقيقة تجدر هذه الآلية في الطبيعة عموماً، والطبيعة البشرية خصوصاً مما يفضي إلى التسليم بالتقابل كمعطى وجودي مفارق للزمان والمكان ومتجاوزٍ لهما، وبذلك يصبح التقابل، وفق هذا التصور، بكل أشكاله التخالفية والتماثلية أو التوافقية والتقيضية، أساساً تبنى عليه الحياة ككل، من هنا تبدئ أصالة التقابل وامتداداته في كل أشكال الوجود البشري وأنماط تفكيره؛ فهو قانون عام وكوني تبنى على أساسه الحياة، وآلية من آليات الإدراك، والحفر، والبناء.

ويرى د. بازي أن التأكيد على البعد الوجودي للتقابل في الكون وفي العلوم يروم بالأساس التأكيد على البعد الجمالي للأشياء والعوالم المخلوقة على أساس التقابل ما خفي منه وما بطن، وفي هذا يقول: "نسعى في هذا المسلك إلى تأكيد البعد الأنطولوجي للتقابل من خلال الكون المتقابل، والتقابل في العلوم، للتأكيد على سر الخلق في الأشياء والعوالم، والقائم بفضل الخالق عز وجل على التقابل في مستوياته الظاهرة والخفية، والتي علمها الخلق، أو توصلوا إلى بلاغتها في التواصل وإبلاغ المعاني، فتشكلت النصوص والخطابات، وتتبعها البلاغة والنقد"^(٢)، إذن فعملية إنتاج النصوص والخطابات وما ينشأ عنها من تحليل وتأويل ونقد لها أصل في الكون المتقابل وامتداد تقابلي وجودي يشمل الفكر البشري خلقاً وله تجليات بلاغية ظاهرة وخفية مستورة قد تحصلت عن طريق التواصل والحاجة إلى التعبير عما في المنطق وتبليغ المعاني.

ولأن التقابل في الكون قائم بفضل الخالق وهو سر من أسرار جمال خلقه، عز وجل، فلا بد أن يجعله حجة في القرآن الكريم ودليلاً يدل به على انتظام الكون بما فيه

(١) - مفتاح محمد، مفاهيم موسعة لنظرية شعرية-الموسيقى-الحركة، المركز الثقافي العربي، بيروت-البيضاء، ١٦، ٢٠١٠، ج ١، ص: ٨٧. (نقلاً عن د. محمد بازي في: نظرية التأويل التقابلي، ص ٢٠٧).

(٢) - نظرية التأويل التقابلي، ص ١٧٠

ومن فيه بشكل تقابلي، ويبين عنه وعن قيمته وأثره في آياته الكريهات، وإلى هذا أشار د. بازي حين قال: "الكون المتقابل في القرآن الكريم خير دليل على انتظام الكون بشكل تقابلي وهو يتطلب تأويله بمنظور تقابلي..."^(١).

وبعد هذا العمل الجليل الذي قام د. بازي المتمثل في رصد الأبعاد الوجودية للتقابل، والكشف عن حقيقة الجوهر التقابلي في الكون والعلم، خلص إلى أن "النص اللغوي كذلك له نظامه التقابلي، بل هو كون لغوي متقابل (...)"، والتقابل باختصار منطلق في التفكير التأويلي، وأداة في الفهم ومقاربة الظواهر من حولنا أدبية وغير أدبية"^(٢)، كيف لا يكون للنص نظامه التقابلي وهو، من منظور د. بازي، نتاج فكر يقوم، في جوهره، على التقابل، ويحيا على مواجهات تقابلية ذهنية مستمرة ومتجددة بين العناصر، والبنى، والعلاقات، والسياقات، والمعاني... إلخ، ومن هنا يغدو النص كونًا لغويًا ينعكس فيه التقابل بجميع مستوياته وأنواعه.

التقابل في الفكر العربي القديم

بعد أن عرّف د. بازي مفهوم التقابل، وقام برصد أبعاده الوجودية من منطلق التأكيد على أهمية المفهوم وقيمه في بناء النظرية، يتوقف في أحد فصول كتابه البنى التقابلية؛ خرائط جديدة لتحليل الخطاب لتسليط الضوء على آلية التقابل في الفكر العربي القديم متمثلاً في بعض الأنساق الفكرية والفلسفية العربية، وفي بعض الجهود والقراءات والتصورات التي شكلت منطلقاً لكثير من الاجتهادات في تاريخ الثقافة العربية، وقد اعتبر الدكتور بازي بأن «آلية التقابل قوة عميقة محركة للفكر العربي القديم، وهي كذلك "وسيلة من وسائل تشقيق الكلام وتوسيع آفاقه"^(٣)، لما لها من فعالية تحليلية وتأثيرية وتبليغية وإقناعية»^(٤)، مؤكداً في هذا السياق أن ثمة ثنائيات

(١)- المرجع نفسه، ص ١٧٦.

(٢)- المرجع نفسه، ص ١٧٤.

(٣)- عبد الرحمان طه، تحديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي، بيروت، البيضاء، ١٩٩٣، ص:

١٥٦، (نقلاً عن الدكتور بازي في: البنى التقابلية، ص ٢٠٩).

(٤)- البنى التقابلية، ص ٢٠٩.

تمثل لهذا التقابل هي التي "تحكمت في بناء المناظرات والمساجلات الكلامية من قبيل: العقل/النقل، الوعد/الوعيد، الحسن/القبح، القضاء/القدر... إلخ. هذا التفكير التقابلي قد تحكم كذلك في خطاب النقد الأدبي القديم على شكل ثنائيات مثل: القديم/الحديث، المصنوع/المطبوع، الإجادة/الإساءة، اللفظ/المعنى، الشكل/المضمون، الظاهر/الباطن،..."^(١).

ويشير د. بازي إلى أن هذه التقابلات والثنائيات المتجذرة في الفكر العربي القديم نابعة تلقائياً من طبيعة القضايا التي كانت محط بحث العلماء العرب واجتهاداتهم، وكذلك من الحقائق والقوانين التي تتحكم في الكون والفكر والأدب، وهي مستمدة في أصلها من وعي العقل البشري بقيمتها التحليلية والتأثيرية والتبليغية والإقناعية. ومن هذا المنطلق عمد د. بازي إلى رصد هذه التقابلات والثنائيات عند أحد التيارات الفكرية والفلسفية العربية المتمثل في إخوان الصفا، وفي بعض المناهج المعتمدة في بناء التعريفات، وكذا في بعض المفهومات المركزية في كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ولم تتوقف جهود الدكتور بازي في الرصد والاستقصاء عند هذا الحد، بل امتدت إلى استنطاق كتاب التوهم للمحاسبي، وكتاب المنوي لجلال الدين الرومي، وإلى توقيعات بعض الفلاسفة والملوك بغرض تبيان موقع آلية التقابل من الفكر العربي القديم. وستتوقف عند ثلاثة أمثلة بشكل موجز، نعرض من خلالها جهود د. بازي التي يحاول من خلالها الباحث التأكيد على حقيقة كون التفكير العربي هو تفكير تقابلي بامتياز، مع الحرص على إيراد الشواهد التي يستند إليها في الدفاع عن أطروحاته.

١-١- التفكير المنوي عند إخوان الصفا

استطاع د. بازي، من خلال تنقيبه في رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، الكشف عن هذا النوع من التفكير المنوي التقابلي؛ إذ خلص إلى أن تعبير هذه الفرقة عن تصوراتها وأفكارها وكذا أسلوب طرحها للقضايا وطريقة تصويرها للحقائق

(١)-البنى التقابلية، ص ٢٠٩.

وتقديم المعلومات والمعارف يقوم بالأساس على وجود أنوال تقابلية ضمنية هي التي تتحكم في تفكيرهم وتأليفهم. ومن الأمثلة الكثيرة التي أوردها د. بازي في سياق التأكيد على حقيقة نزوع هذه الفرقة إلى التفكير الثنائي التقابلي، نقف عند واحد منها لنتبين هذه الحقيقة مع الباحث حين قال: "ففي معرض حديثهم عن كثير من الظواهر الطبيعية، والخصائص البشرية. قالوا عن الأصوات"^(١): «الأصوات نوعان: حيوانية وغير حيوانية. وغير حيوانية أيضا نوعان: طبيعية وآلية... والحيوانية نوعان: منطقية وغير منطقية... وأما المنطقية فهي نوعان: دالة وغير دالة...»^(٢).

من هنا يمكن اعتبار هذا المثال وغيره من الأمثلة التي أوردها د. بازي في هذا السياق بمثابة حجج وأدلة تؤكد باللموس تجذر آلية التقابل في تفكير إخوان الصفا، وعلى أساسها انبنت كثير من المعارف العربية الإسلامية، ويتضح ذلك بشكل أعمق وأدق في توصيف هذه الفرقة لحقائق طبيعية وكونية، وهو توصيف ينسجم والعقل البشري والتفكير الإنساني عموما "إن الأصوات تنقسم من جهة الكيفية ثمانية أنواع، كل نوعين منها متقابلان من جنس المضاف، فمنها العظيم والصغير، والسريع والبطيء، والحاد والغليظ، والجهير والخفيف"^(٣)، فيدل ذلك على أن هذه الآلية هي ذات طابع كوني إنساني بالدرجة الأولى، إلا أن ضرورة تبيين هذه المعارف والكشف عنها وتفهمها بواسطة اللغة يستدعي هذا المنطق التقابلي عند إخوان الصفا، ولذلك يقول د. بازي: "وجدنا هذا الحضور النوعي (للتقابل) في البنات الظاهرة والعميقة للتأليف عند العرب"^(٤)، وما ذلك إلا انعكاس لمنطق التقابل الذي يحكم الوجود والكون والعالم وأحوال الإنسان.

(١) - البنى التقابلية، ص ٢١١.

(٢) - المرجع نفسه، ص ٢١١.

(٣) - المرجع نفسه.

(٤) - المرجع نفسه.

ويختتم د. بازي عملية رصد التفكير المنثوي عند إخوان الصفا بالتنبيه إلى أن نسق التقابلات لدى هذه الفرقة لم يقف عند البعد الثنائي، بل تعداه إلى أبعاد موسعة تتخذ أشكالاً ثلاثية، ورباعية، وخماسية، وستاسية، وسباعية، وثمانية، وتساعية، وهذا التوسع في نسق التقابلات نابع أساساً من إدراكهم بمحدودية البعد المنثوي من جهة طاقته الوصفية؛ أي إنه لم يعد يتيح إمكانات بيانية إفهامية تعبر عن حقائق الوجود وتستوعبها.

١-٢- التقابل في بناء التعريفات

ينتقل د. بازي إلى البحث عن آلية التقابل في بناء التعاريف عند العلماء العرب القدامى بعد التنقيب عنها في تفكير إخوان الصفا، وذلك استكمالاً منه لرحلة الكشف عن هذا المنطق التقابلي في الفكر العربي القديم والتأصيل له. ويرى، في هذا الصدد، أن التعريفات قد بنيت "بشكل تقابلي؛ لأن التقابل يقوم بإحداث التمثل الذهني عبر المقابل، يتجلى ذلك في التفكير المنثوي التقابلي عند العلماء العرب قديماً، في تعريف الشيء بماهيته، أو بضده، أو بمثاله، والعقل بذلك يبسط المقابلات بشكل ظاهر أو خفي"^(١)، فصناعة التعاريف وصياغته وتحليلها، وفق هذا المنظور، تأسس على ما يحدثه التقابل في البنية الذهنية المنتجة لهذه التعريفات والتصورات من تمثلات تعكس حضور هذا المنطق التقابلي بشكل ضمني في عملية بناء التعريفات، وتعبر بأمانة عن رسوخه في النسق المعرفي العربي الإسلامي القائم على ثنائيات وتقابلات من قبيل: "العلم/الجهل، أنفس العلماء/أنفس المتعلمين، العلم بالقوة/العلم بالفعل، الإمكان/الوجود، العلم/المتعلم، التعليم/التعلم"^(٢).

(١)- البنى التقابلية، ص ٢١٥.

(٢)- المرجع نفسه، ص ٢١٥.

وقد عزز د. بازي خلاصة بحثه وقوّاهها، في هذا الجانب من جوانب التّأصيل لآلية التقابل في بناء التعريفات لدى العلماء العرب القدامى، بمثال في تعريف العلم عند إخوان الصفا. فقالوا هو: "صورة المعلوم من نفس العالم، والجهل هو عدم تلك الصورة من النفس، واعلم بأنّ أنفس العلماء علامة بالفعل، وأنفس المتعلمين علامة بالقوة، وأنّ التعلم والتعليم ليسا شيئاً سوى إخراج ما في القوة، يعني الإمكان، إلى الفعل يعني الوجود، فإذا نسب ذلك إلى العالم سمي تعليماً، وإذا نسب إلى المتعلم سمي تعلماً"^(١)، وهكذا يبدو التقابل هو أساس هذا التعريف ومرجعه بل جوهره؛ فتعريف إخوان الصفا العلم بمقابله الجهل، والاستعانة بعرض بعض المقابلات التي يستدعيها التعريف مثل: العلماء/ المتعلمون، الفعل/ القوة، الإمكان/ الوجود..بناء على ذلك يمكن القول إنّ التفكير التقابلي هو جزء لا يتجزأ من بنية التفكير العربي وخاصة فيما يتعلق ببناء التعريفات، فهو بهذا المعنى قانون مركز في البنية الذهنية للإنسان العربي الإسلامي، ولهذا القانون مسوغات كونية وأخرى مرتبطة بالمرجعيات المعرفية، والخصوصيات الفكرية، والتربوية، والتكوينية للعقل العربي الإسلامي.

١-٣- التفكير بالمقابل في كتاب التوهم للمحاسبي

يمثل كتاب التوهم للحارث بن أسد المحارثي المحاسبي، بالنسبة للدكتور محمد بازي، واحداً من الكتب العربية القديمة المعبرة عن رسوخ آلية التقابل في التفكير العربي القديم؛ فصاحب الكتاب يبين الأحوال التوهمية لأمر الحساب وأحوال أهل الجنة والنار بشكل تقابلي، وذلك من خلال عملية التوهم الذهني والنفسي، وقد اتخذ المحاسبي بعض النصوص من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف منطلقاً له في عرض هذه الأحوال ذات الصلة بالقيامة والحساب. وما كان للمؤلف أن يبلغ الغاية من الكتاب لولا اعتماده "خطة تقابلية ناظمة لتأليف الكتاب تقوم، في فصلها الأول، على أسلوب الترهيب من النار وأهوالها، ثم في الفصل الثاني الترغيب في الجنة

(١)-البنى التقابلية، ص ٢١٥.

ونعيمها.^(١)، وقد استطاع المحاسبي، من خلال هذه الحطة التقابلية تأويل بعض الآيات والأحاديث الواردة في وصف الجنة والنار، ونقل شعور أهل الجنة وأهل النار موظفاً في ذلك طاقة تخيلية توهمية تفي بالغرض.

ولتقريب القارئ من أسلوب هذا الكتاب من جهة ما يتأسس عليه من تقابلات يورد د. بازي مثلاً معبراً عن حضور آلية التقابل في تفكير المحاسبي بل في تأويلاته، إذ يقول: «"تَوَهَّمْ نَفْسَكَ" وقد صُرعت من موت صرعة لا تقوم منها إلا إلى الحشر"^(٢)... فتوهم نفسك حين استطار قلبك فرحاً وسروراً أو ملئ حزنًا وعبرة... فمَثَّبْت من الله جل ثناؤه بالقول الثابت أو متحير شاك مخذول... فتوهم جوابك باليقين أو بالتحير أو بالتلديد والشك"^(٣)... فتوهم نفسك لذلك الخوف والفرع والرعب، وقد تبرأ منك الولد والوالد والأخ والصاحب والعشائر، وفررت أنت منهم أجمعين، فكيف خذلتهم وخذلوك، لولا عظم ذلك اليوم ما كان من الكرم والحفاظ أن تفر من أمك وأبيك وصاحبتك وبنيك"^(٤)... وتوهم الكتب المتطايرة وقلبك واجف متوقع أين يقع كتابك في يمينك أو في شمالك... فتوهم ما حل من الوجل بفؤادك حين رفعت طرفك فنظرت إليه مضروباً على جهنم بدفته ودحوضه، وجنهم تحفق بأمواجها من تحته"^(٥)... فتوهم نفسك في ذلك الموكب، وهم أهل كرامة الله ورضوانه مبيضة وجوههم برضا الله مسرورون فرحون مستبشرون... فتوهم نفسك مسروراً بالدخول...»^(٦).

(١) - البنى التقابلية، ص ٢٢٢.

(٢) - المرجع نفسه، ص ٢٢٣.

(٣) - المرجع نفسه.

(٤) - المرجع نفسه.

(٥) - المرجع نفسه.

(٦) - المحاسبي، التوهم، تحقيق: آبري أ.ج.ب، بيت الوراق للنشر، بيروت، ٢٠١٠، ص ٩. (نقلاً عن محمد بازي، البنى التقابلية، ص ٢٢٣).

وقد أورد د. بازي هذا الشاهد رغم طوله للاستدلال على الأسلوب التقابلي المفصل الذي وظفه المحاسبي في رسالته بغرض وصف أحوال أهل الجنة وأهل النار وتقريب مشاهد يوم الحشر، و"بيان الأحوال المتباينة، وتقريب حقائق أهل الإيمان وأهل الكفر، ومآلاتهم"^(١)، ولما كان الأسلوب التقابلي هو أكثر الأساليب تحقيقاً لهذا الغرض وأبلغها من حيث التوصيف والتقريب كان الخيار الأوحد للمحاسبي في عرض الحقائق وتقريبها للمخاطبين على جهة التوهم، وذلك على اعتبار ما ينهض عليه هذا الأسلوب من أبعاد كونية وامتدادات وجودية، وما يتأسس عليه من قوانين منطقية على مستوى التفكير والإدراك، فهذا الأسلوب "قوي الحضور في التأليفات القديمة والحديثة لقربه من نظام التفكير الإنساني والمنطق والتقبل والفهم"^(٢).

إذن فالتقابل، وفق هذا التصور، هو الذي يمكن المتلقي عموماً، والمؤول بشكل خاص من التقريب بين الكلمات بغاية كشف ما يكون بينها من علاقات خفية أو ضمنية، وهو المحرك الأساس لفاعلية الفهم لدى المتلقين، وبه تتم عملية تطالب المعاني. فالتقابل بهذا المعنى "يمكنك من تعميق فهمك، وربط البنيات الدلالية المؤولة حالاً، بالبنيات الدلالية الممكنة أفعالاً، لأن القصد من الخطاب هو التحول إلى منجز علمي، وإخراج المقصدية من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل.. [كما أنه] يمكنك من إدراك طرفي الخطاب، والمقامات الاعتبارية لكل منها، وأثر ذلك في الأفعال التكليفية للمخاطبين كلما تعلق الأمر بالخطاب القرآني"^(٣).

نظرية التأويل التقابلي

التعريف بالنظرية

يورد د. بازي، في معرض التعريف بنظريته في التأويل التقابلي، العديد من النصوص مبثوثة في كتبه الثلاثة: كتاب تقابلات النص وبلاغة الخطاب؛ نحو تأويل

(١) - البنى التقابلية، ص ٢٢٤.

(٢) - البنى التقابلية، ص ٢٢٤.

(٣) - المرجع نفسه، ص ١٨٨.

التقابل من المفهوم إلى النظرية

تقابلي الصادر عام ٢٠١٠م، وكتاب نظرية التأويل التقابلي؛ مقدمات معرفة بديلة بالنص والخطاب الصادر عام ٢٠١٣م، وكتاب البنى التقابلية؛ خرائط جديدة لتحليل الخطاب الصادر عام ٢٠١٥م. وهذه النصوص، سواء ما جاء منها صريحاً أو ما سيق منها تضميناً أو تلميحاً، تروم في أغلبها إلى التعريف بالنظرية من حيث الهدف منها وطريقة الاشتغال بها، والتركيز على بعض خصائصها ومميزاتها، وفي هذا يقول د. بازي "التأويل التقابلي استراتيجية قرائية لصناعة المعنى، يمكن الاشتغال بها لفهم النصوص والخطابات وتفهمها، وهي اختيار إجرائي أسه محاذاة المعاني بعضها ببعض، وتقريب بينها في الحيز الذهني والتأويلي، عبر مواجهتها (وجها لوجه) لإحداث تجاوب ما، أو تفاعل معرفي، أو دلالي وتأويلي"^(١)، فالتأويل التقابلي، من هذا المنظور، هو قراءة منظّمة واعية في أغلب الأحيان تهدف في المقام الأول إلى صناعة المعنى وتشقيقه بغرض فهم النصوص والخطابات فهماً يقوم على تأويلات بليغة تستوفي شروطها الموضوعية والعلمية ثم بعد ذلك تأتي عملية تفهمها، وذلك بعد عملية تقريب المعاني بعضها ببعض وخلق نوع من المواجهة بينها على المستوى الذهني المجرد يتمخض عن ذلك نوع من التفاعل المعرفي والدلالي والتأويلي البناء.

تستوقفنا، في تقديم الدكتور بازي لنظريته في التأويل التقابلي أمور ثلاثة، نرى أنه لا يمكن تحقيق مستوى من الوعي بجدوى النظرية، والاطمئنان لتنتاجها إلا بتفصيل القول فيها فاستيعابها.

-أولاً: اعتبار الدكتور بازي التأويل التقابلي "استراتيجية"، قاصداً، من هذا التوصيف الذي جرى مجرى الخبر، إلى توسيع إمكانات نظريته من حيث منطلقاتها، وآلياتها، وأهدافها وفق تخطيط مسبق يستقطب كل ما يقوي النظرية ويمدها بأسباب النجاح وطول العمر، ويتفادى منزلقات بعض المناهج والنظريات التي تروم تحليل

(١) - تقابلات النص وبلاغة الخطاب؛ نحو تأويل تقابلي، ص ٩.

الخطاب؛ إذن فنحن أمام نظرية تنهج، على مستوى قراءة النصوص والخطابات وتحليلها، نهجا تشامليا منظما واعيا بطرق صناعة المعنى على نحو يتسم بالدقة والصرامة وبعد الغور.

-ثانيا: إقراره بكون هذه الاستراتيجية هي "اختيار" إجرائي، مما يفضي إلى أننا بإزاء نوعين من القراءات أو أكثر، والاختيار هنا فعل أسلوبى الغرض منه التسلح بالقراءة الأكثر انضباطا لشروط التأويل البناء، وهو نتيجة منطقية لاختيار استراتيجية تسعف المؤول في البحث عن مدافن المعنى، والكشف عما تحويه النصوص والخطابات من دلالات ومقاصد وإن تراخى به وعنه الزمن .

-ثالثا: تأكيده على منطق "المواجهة" بين المعاني على المستوى الذهني المجرد، وهو منطق تفرضه النظرية من منطلق تقابلي صرف وبه يتم التقريب بين المعاني وحقائق الأشياء في الأذهان قصدا لإحداث نوع من التفاعل والمواجهة، على أساس خلق مسافة معرفية ودلالية بينها يحتكم إليه العقل المؤول إجرائيا في تشكيل فهم محدد في سياق تداولي محدد.

ولما كان ذلك كذلك فالتأويل التقابلي باعتباره استراتيجية قرائية بانية يتأسس على نوع من التساند بين ما هو موضوعي وما هو ذاتي، بين ما هو داخلي نصي وما هو خارجي مواز؛ فهو "اشتغال في الفهم يقوم على التساند بين الآليات التي تنبني عليها النصوص والخطابات من جهة، وعلى الجهد الذهني المستقصي للمعاني والعلاقات الممكنة بين العناصر النصية والمستويات السياقية"^(١)، إذن، فالتعويل على العناصر النصية، أو ما يعرف، عند الدكتور بازي، بالدوائر الصغرى، وحدها بمعزل عن الموازيات النصية، أو ما يعرف بالمستويات السياقية، وفي غياب اجتهاد المؤول وبراعته في هذه الصناعة، لن يفضي إلى بناء معنى، أو قراءة نص أو تحليل خطاب وتأويله كما

(١) - تقابلات النص وبلاغة الخطاب؛ نحو تأويل تقابلي، ص ٩.

ينبغي. ولتفادي ذلك يؤكد الدكتور بازي على خاصية التساند بين ما هو نصي وما هو خارج نصي، وذلك في سياق تلك الاستراتيجية القرائية التي يمكن اعتبارها المعادل الدلالي لنظرية التأويل التقابلي، ولا خلاف.

• أصولها ومرجعياتها

بعد أن استوى المفهوم على سوقه، وجرت نعمة البيان في عروقه، واستقل بذاته عن فروقه، وذلك بعد أن صرف الباحث فيه الجهد من جهة التعريف والتأصيل والتنقيب في الكون والوجود والعلم على بعض المظاهر والتجليات التي تسند في المفهوم حقيقته الوجودية وما ينهض عليه من وظائف وأغراض؛ فالتقابل، كما أشرنا سابقاً، يشكل بالنسبة لمشروع د. بازي مفهوماً مركزياً عليه وعلى مفهوم التساند تأسست التأويلية العربية وشاعت بين صفوف الباحثين باعتبارها منهجاً قرائياً في تحليل الخطاب وتأويله، والبحث عن مدافن المعاني فيه؛ فهو بهذا المعنى آلية لفهم النصوص والخطابات وتفهمها، ومدخل منهجي لبناء المعاني وتوجيهها.

فالتأويلية العربية مشروع نظري يجمع بين الأصالة والجدة والطموح والانفتاح، ولعل الناظر في كتاب "التأويلية العربية نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات" الصادر عام ٢٠١٠م، سيلاحظ ذلك لا محالة، وهو يمثل المرحلة الأولى من جهود الباحث، وقد أقامه على أساس نموذج تساندي لفهم النصوص والخطابات وتفهمها، مستنبطاً قواعده ومنهجه وضوابطه من منهج المفسرين وشرح الشعر، وفي هذه المرحلة تحديداً اعتمد التقابل أو التأويل التقابلي إلى جانب التساند كآليتين بنائيتين أو مدخلين تأويليين يقوم عليهما هذا النموذج التساندي.

وفي المرحلة الثانية من المسار التنظيري للباحث، وبعد نضوج التأويل التقابلي واتساع آفاقه التأويلية والبنائية من منظور د. بازي، وبعد اكتشاف الباحث القدرة التأويلية لهذه الآلية وذلك من خلال قراءته العديد من النصوص والخطابات،

واستفادته من بعض التحققات الواضحة في مجموعة من الظواهر النصية من منطلق تقابلي. فما يزال الباحث يقارب النصوص والخطابات ويبحث فيها عن معانٍ خفية متوسلاً في ذلك هذه الآلية حتى انتهى إلى نظرية تأويلية تقابلية قائمة بذاتها، مستقلة بآلياتها يقع فيها التقابل من النظرية موقع الروح من البدن، بل تعدها في وجه من وجوهها إلى أن أصبح استراتيجية قرائية، ومنهجاً تحليلياً تأويلياً، ونموذجاً تقابلياً لصناعة المعنى. ويمثل هذه المرحلة الثانية كتاب "نظرية التأويل التقابلي مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب"، الصادر عام ٢٠١٣م.

ترتكز نظرية التأويل التقابلي عند د. بازي على أصول معرفية ومرجعيات فكرية وفلسفية قديمة وحديثة، تشكل في مجملها موروثاً غنياً يعكس جهود العلماء العرب القدماء، ولم يُدر ظهره قط للمنجز الإنساني في هذا الباب؛ فهي نظرية تستند إلى تراكم معرفي غني ومتنوع في شتى العلوم والمجالات سواء ما تعلق منها بالتراث العربي الإسلامي أو ما تعلق بالدراسات والأبحاث الغربية، فمن هذه المرجعيات التي ينطلق منها الأفق التصوري لتأويلية التقابل نذكر: "البلاغة العربية القديمة، ونظريات التلقي والتأويل الحديثة، وعلم النص، وتحليل الخطاب، وكتب التفسير، والشروح الشعرية، وعلم الأصول، والفلسفة، والمنطق، والمناهج النقدية، وكتب الأدب واللغة، والمعاجم والموسوعات، وكتب السير والأخبار والدواوين، وكتب التاريخ والأدب، والدراسات النقدية القديمة والحديثة، ونظريات الأدب، والتداوليات وغيرها. وباختصار، كل ما وجدنا فيه سندا أو إشارة مفيدة إلا وضممناه إلى تصورنا إذا كان نافعا في بنائه ودعمه، ورفده بالحجة الوازنة، منسجما مع نسيجه، وبنائه العام"^(١).

(١) - نظرية التأويل التقابلي، ص ٣٥.

فمن منطلق هذه العلوم والمرجعيات تأسست نظرية التأويل التقابلي متجاوزًا من خلالها الباحث تلك التصورات القديمة لبعض العلوم العربية مثل البلاغة التي تشكل مرتكزا أساسا في التصور العام لهذه النظرية وذلك نظرًا لقيمة التقابل وأبعاده البلاغية ولكن الباحث استطاع، بكفاءة عالية، توسيع آفاق المفهوم والخروج به من التصور القديم إلى سياقات جديدة، منفتحة على بعض النظريات العربية والغربية الحديثة التي تدعم نظريته وتقويها؛ فالباحث يظل دائما، في اشتغاله بالنموذج التقابلي، منفتحًا، ومرحبا بكل ما يحصن النظرية علميا، مستدعيًا ما يفيد ويعينه على صناعة التقابل في النصوص والخطابات وتأويلها تأويلاً بليغاً يمكنهم بناء معانٍ جديدة أو توجيهها، فجميع العلوم اللسانية والإنسانية من معجم ونحو وصرف وبلاغة وتداوليات وسميائيات.. هي رهن إشارة هذه النظرية تستقي منها على قدر الحاجة، ما يعينها على أداء مهمتها التي من أجلها قامت وتأسست.

نماذج تطبيقية

استطاع د. بازي أن يعطي لنظرية التأويل التقابلي شرعية، وقوة، وفعالية من خلال مقارنته العديد من الخطابات والنصوص متجاوزًا في ذلك تلك المقاربات السابقة التي تقف فقط عند بعض الخطابات الدينية وعند الحدود التحليلية لمظاهر التقابل وتجلياتها، وحدود خدمتها للمعنى، مقترحا، في إثر هذا التجاوز، مفهومات تأويلية تعتمد استراتيجية التقابل منطلقا لها. ولذلك وجدناه مطبقا هذا المنظور التحليلي التأويلي ومثالا له في مختلف أنواع الخطابات والنصوص، في القرآن الكريم من خلال سورة الفاتحة والمثل القرآني، ومن خلال نماذج قرآنية وأحاديث نبوية شريفة، وفي خطاب التفسير، وأقوال البلغاء والحكماء، وفي كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وفي مرثية مالك بن الربيع، وكذلك في بعض أشعار المتنبي، وبعض قصائد الشعر الحديث مثل قصيدة "نسر" لعمر أبي ريشة، وفي بعض الرسائل والحكايات

والقصص والمحاورات مثل: محاوره كسرى والأعرابي والجمل، وفي بعض الطُرف، مثل: طرفه سيف أبي حية النمير... إلخ.

وسنعرض بشكل موجز لنموذج من القرآن الكريم، نمثل من خلاله للتأويل التقابلي في سورة الفاتحة مقتصرين فقط على البسملة، مقترحين على القارئ الرجوع إلى الدراسة كاملة مستوفية كما عرض لها د. بازي في سورة الفاتحة من منطلق التأويل التقابلي. وحسبنا بلوغ الأفهام فيما اقتصرنا عليه في هذا الباب "فبوسع القارئ المتأني الذي يعتمد خطة التأويل التقابلي أن يستخلص من البسملة الإمكانيات التقابلية، وبعد ذلك مجموعة من المعاني، ليكتشف أسرار هذا الخطاب الكريم وبلاغة صناعته"^(١)، بعد ذلك سنقف عند بعض الآيات من مراثية مالك بن الربيع، ومن شعر المتنبي نحاول من خلالها الكشف عن التقابلات النصية الممكنة، الظاهرة والمستكنة، فنبين أثرها في بلاغة الخطاب الشعري.

التقابل في القرآن الكريم

يستهل د. بازي مقارنته التأويلية بالإشارة إلى أن سورة الفاتحة تزخر بثراء معنوي كبير، وهي بمثابة نص قابل للمحاوره الدلالية، وعلى هذا الأساس سيحاول د. بازي الوقوف عند تقابلاته الظاهرة والخفية خاصة في البسملة. يقول "المتبرك (القارئ هنا) / (المتبرك به (الله تعالى)). ويمكن أن نشير إلى تقابل خفي: التبرك باسم الله مقابل التبرك باسم غير الله - العزى واللات مثلاً - كما يفعل الجاهليون. إن حضور اسم الله دليل على صحة فعل التبرك به ونفي للتبرك بغيره. ويسمح لنا المكون المعجمي "الله" بإبراز التقابل بين: الله / المألوه. والله أصله الإله، وهو اسم جنس يطلق على كل معبود بحق وبباطل، ثم غلب على المعبود بحق. أما الله فلا يطلق إلا على المعبود بحق"^(٢).

(١) - تقابلات النص وبلاغته نحو تأويل تقابلي، ص ١٦.

(٢) - تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي، ص ١٦.

بعد أن هتك د. بازي الحجب عن بعض التقابلات الخفية المتأتية من عبارة "بسم الله"، التي تحيل على التبرك والاستعانة، انتقل إلى إبراز أهمية المدخل المعجمي في عملية رصد المعاني الخفية ذات الأصل التقابلي، فمثلاً: "إذا تعمقنا في دلالة "أله" نجد أنها تدل على التحير، لأن الله تتحير الأوهام في معرفته. وهكذا وبناء على هذا المعنى فإن المتحيرين هم الخلق مقابل المتحير في الله تعالى. إن المعاني اللغوية والمداخل المعجمية تمد التأويل التقابلي بإمكانيات معنوية غنية، فكلما توسع البحث اللغوي كلما اغتنت القراءة بمعان جديدة. لكن في الغالب لا يتوقف القارئ العادي إلا عند المعاني الظاهرة، ويظل استخلاص المعاني العميقة من عمل المتخصصين من أهل اللغة والتفسير والفقهاء. إن التأويل التقابلي تجول فاحص ومتأن لمكامن المعاني وكيفيات صياغتها"^(١).

يتابع د. بازي رصد التقابلات الموجودة في البسملة فيتوقف عند صفتي الله (الرحمان الرحيم)، فيقول نقلاً عن الزمخشري: "الرحمان تقابل الرحيم، والتقابل لا يعني فقط التضاد أو التماثل، بل يعني كذلك التكامل والتميم، فصفة "الرحمان" تتناول جلائل معاني الرحمة وعظائمها، و"الرحيم" تتميم لما لطف منها، والرحمة معناها العطف والحنو، ومنها الرحم لانعطفها على ما فيها"^(٢). ومن هنا يمكن ملاحظة التقابل الثلاثي بين: الله / الرحمان / الرحيم، وهو بالنسبة للدكتور بازي، "تقابل تميمي يثبت معنى الألوهية الحقة، ومعنى الرحمة الكاملة بالعباد. وفيه تعليم للعباد كيف يتبركون به ويمجدونه ويمجدونه"^(٣).

وبناء على ذلك يرى د. بازي أنه "بالإمكان الوقوف عند التقابل الضمني، هنا، فذكر صفة الرحمة في البسملة مما يفرح النفس ويشوقها، وفي ذلك ترغيب في الطاعات، خلافاً للغضب الذي يوحش النفوس ويخوفها وينفرها"^(٤).

(١)-تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي، ص ١٧.

(٢)- المرجع نفسه.

(٣)- المرجع نفسه.

(٤)- المرجع نفسه.

التقابل في الشعر

✓ مالك بن الربيع

يصرح د. بازي، في مستهل دراسته قصيدة مالك بن الربيع من منطلق التأويل التقابلي، بوجود عدد من وجوه التقابل في مطلع هذا النص الشعري، معتبرا أن أول تقابل يمكن الوقوف عنده هو تقابل "ذات الشاعر المتكلم الحاضر المحتضر، مقابل (المرأة) كما اعتاد الشعراء في مقدماتهم الطللية والغزلية"^(١). وقد استطاع الباحث أن يستنطق هذه القصيدة تقابليا، متتبعا جميع أبياتها كاشفا ما تختزنه من تقابلات ضمنية وظاهرة، وذلك بعد تقريب القارئ من معاني الأبيات من الناحية المعجمية. وسنقتصر في هذا السياق على بيتين من القصيدة قد أفرد لهما الباحث عنوانا هو: "عندما يبكي الحصان صاحبه"، محاولين تقديم كل التقابلات التي يتضمنها هذان البيتان كما رصدتها الباحثة.

تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ *** سِوَى السَّيْفِ وَالرَّمْحِ الرَّدِينِيِّ بَاكِيا
وَأَشْفَرَ مَحْبُوكًا يَجْرُ عِنَانَهُ *** إِلَى الْمَاءِ لَمْ يَتْرُكْ لَهُ الْمَوْتَ سَاقِيَا

يتوقف د. بازي عند هذين البيتين بغرض قراءتهما قراءة تأويلية تقابلية، وقد مهد لذلك بالتذكير بأنه "لا يبحث في هذا المقام التأويلي عن إعادة بناء معاني قصيدة مالك لشرحها أو إفهامها فحسب، وإنما يسعى إلى تبيان بعض الآليات التقابلية التي بالإمكان أن تسعف المحللين ودارسي الخطابات ومدرسيها بالأداة التحليلية والتأويلية لمقاربة بعض الظواهر النصية عبر تجريبها وتطبيقها"^(٢).

ويعرض د. بازي لأبرز التقابلات البنائية والتأويلية المتوصل إليها من خلال مقارنة هذين البيتين مقارنة تأويلية تقابلية، وهي على الشكل:

(١) - تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي، ص ٧٢.

(٢) - المرجع نفسه، ص ٨٨.

- "المتذكّر / المتذكّر؛

- تذكرت (الماضي) / الزمن الحاضر المقصود؛

- بكاء (من) العاقلون / بكاء ما (غير العاقل)؛

- "لم أجد" المختارة / "وجدت" الغائبة فعليا وحضوريا؛

- "أجد" (الزمن الحاضر) / "لم أجد" (قلبت لمر النافية الزمن إلى الماضي)؛

- لم يبك من يبكي / بكى ما لا يبكي؛

- البكاء الحقيقي منعدم / البكاء المتوهم حاصل؛

- بكى السيف والرمح / بكى الحصان المتروك؛

- ارتواء الفرس حاصل دون صاحبه / ارتواء الفارس غير حاصل دون فرسه؛

- العنان الذي يجره الفارس / العنان الذي يجره الفرس؛

- ارتواء الشاعر الحقيقي غير ممكن / الارتواء الوهمي حاصل.

تقوم في ذاكرة الشاعر عناصر استبدالية (السيف والرمح والحصان) لعناصر غائبة بدءا (الأهل والصحاب) ثم هذه الصورة الرائعة التي تحمل كل معاني التولي والفجيعة، واختلال الأمور لدى الفارس والفرس معا؛ الأول لا يرتوي والثاني يرتوي ارتواء الحائف المتروك الجافل إن تقابل الافتقاد حاضر بقوة بين الطرفين المالك الذي لم يعد يملك، والمملوك الذي أصبح دون مالك^(١).

✓ المتنبي

يقدم د. بازي نموذجا للتأويل التقابلي في بعض من شعر المتنبي معتبرا أن من أسرار جودة أشعار هذا الشاعر بناؤها التقابلي، ولا يتضح ذلك إلا لمن يعتمد النموذج التقابلي في فهم أشعار المتنبي وتأويلها ففهمها. ويورد في هذا السياق قول المتنبي:

(١) - تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي، ص ٨٩-٩٠.

"وقد أراني الشبابُ الروحَ في بدني****" وقد أراني المشيبُ الروحَ في بدلي فهذا البناء الشعري، من منظور الدكتور بازي، قائم على أساس تقابلي على مستوى التصور، وإدراك تأثير عنصر الزمن على الشاعر، وتم التعبير عنه بطريقة تقابلية بديعة: (وقد أراني) على التحقيق مقابل (وقد أراني)، "أراني الشباب" (مق) أراني المشيب، "الروح (روحي)" (مق) "الروح (روح غيري)"، "بدني (جسمي)" (مق) "بدلي (غيري)"، "الشباب مبشر بالخير والحياة" (مق) "الشيب منذر بدنو الرحيل"، "صحبة الشباب مفرحة وهي تأتي عن حب" (مق) "صحبة المشيب تأتي على كراهة".

ويستتبع ذلك تقابل مفهوم: "كنت أفعل كل شيء وحدي" (مق) "أصبح ضروريا من يعين على العمل". "البدن (الذات)" (مق) "البدل (الولد الذي يرث المال)". ويمكن مقابلة هذا المعنى بالوارد في بيت آخر له:

تَمَلَّكَهَا الْآتِي تَمَلُّكَ سَالِبٍ****وَفَارَقَهَا الْمَاضِي فِرَاقَ سَلِيبٍ^(١)

ويعتبر الدكتور بازي أن هذه التقابلات التي يعتمدها المتنبي في شعره سواء بشكل ظاهر أو بشكل خفي هي التي حققت له بلاغة شعرية ومعنوية ممتدة عبر الزمن، وهي التقابلات نفسها التي جعلتنا نكتشف هذا التشطي والتمزق في أحاسيس مالك بن الربيع، ونتقاسم معه شعوره بالغربة والموت، وهي نفسها التقابلات التي أبانت عن أحد وجوه إعجاز النص القرآني وبلاغته وإن في حدود البسمة.

(١) - نظرية التأويل التقابلي، ص ٢٦٤.

خاتمة:

لم تكن نظرية التأويل التقابلي لتحظى بهذه المقبولية وبهذا الاهتمام النوعي في صفوف الباحثين والمهتمين بحقل التأويل وصناعة الخطاب وتحليله لو لم تتسلح بجهاز مفهومي واضح، متكامل، ومؤسس على أرضية معرفية وثقافية خصبة تعين المتلقي والمشتغل في هذا الحقل على استيعاب المفهوم ومنه إلى فهم النظرية فالعمل بها؛ فبعد أن كان مفهوم التقابل مجرد آلية يتوسلها الباحث لفهم النصوص وتفهمها، إلى جانب آلية التساند، أصبح - بعد أن اكتشف الدكتور بازي في هذا المفهوم إمكاناتٍ وأفاقاً واسعةً - نظرية قائمة الذات تفرض نفسها بقوة العلم، فانتقلت من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل بحسب التعبير الأرسطي.

إن الحرص على ضبط مفهوم التقابل معجمياً وتداولياً، والبحث عن أسناد ومعضدات تعضد في المفهوم قوته الدلالية، وتوجهه الوجهة التي يصير معها أساساً لبناء صرح نظري متماسك، يخفي وعي الدكتور بازي بحجم المشروع، ويحيل على تفكير علمي منهجي لدى صاحب المشروع، فهو حرص علمي مسكون بالدقة والإجادة والتمحيص والإتقان.

ولما كان التقابل ذا أبعاد وجودية كونية ممتدا في الزمان والمكان، مركوزاً في طباع البشر، ويقوم عليه الكون في بعض تدابيره وما يعترض أحوال الناس فيه صح للباحث أن يحتفي بنظريته التأويلية ذات المنطلق التقابلي، ويدافع عن مشروعيتها وقيمتها، ويرافع ضمناً على حقها في الوجود؛ وذلك على اعتبار أن صناعة المعنى من طريق هذه النظرية تستجيب لمنطق الأشياء في الوجود وتراعي القوانين الكونية ما خفي منها وما بطن.

يحاول الدكتور بازي التأصيل للتقابل في الفكر العربي قديماً قاصداً في ذلك إكساب الشرعية لنظرية التأويل التقابلي التي تستند إلى تراث عربي أصيل في شتى العلوم والفنون، وتستلهم من المنجز الإنساني عموماً ما يعينها على تحقيق المراد.

وفضلاً عن هذه الأسس والدعامات والمنطلقات النظرية التي تتقوى بها نظرية التأويل التقابلي هناك كذلك معطى آخر يعكس كفاءة هذه النظرية وقدرتها على مقارنة جميع أنواع النصوص والخطابات، ويتمثل هذه المعطى في الجانب التطبيقي الإجرائي الذي اتخذ، عند الباحث، وجهات ومسالك متنوعة من حيث المتون أو الخطابات المشتغل عليها من منطلق تقابلي يروم تحليلها والبحث عن مدافن المعاني فيها.

لائحة المراجع:

• بازي محمد:

- البنى التقابلية؛ خرائط جديدة لتحليل الخطاب، دار كنوز المعرفة، ط ١، ٢٠١٥م؛
- التأويلية العربية؛ نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان- منشورات الاختلاف، الجزائر، ط ١، ٢٠١٠م؛
- تقابلات النص وبلاغة الخطاب؛ نحو تأويل تقابلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط ١، ٢٠١٠م؛
- نظرية التأويل التقابلي؛ مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، دار الأمان، الرباط، ط ١، ٢٠١٣م.

الجهاز المفاهيمي المؤسس للتأويلية العربية

من منظور الباحث محمد بازي^(١)

الطالبة الباحثة: سارة باقس

مقدمة:

باسم الله الرحمان الرحيم، به أبدأ وبه أستعين، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد الصادق الأمين وعلى آله الأبرار وصحابته الأخيار وعلى من اهتدى بهديه واستن بسنته واقتفى أثره إلى يوم الدين وبعد،

فإن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وشرفه بحمل الرسالة واستخلفه في الأرض ليعمرها فسخر له كل ما في الكون إعانة له على أداء مهامه وتكاليفه على أكمل وجه وأمدّه بكل الوسائل المادية والقدرات البدنية والملكات العقلية والذهنية للتفكر في آفاق هذا الكون المحيط به قصد استكشاف بعض أسراره، ومعرفة قوانينه وسننه ليسهل عليه تسخيرها وتطويعه لصالحه.

وقد أمر الإنسان في غير ما موضع من كتاب الله تعالى بالتفكر والتدبر وتقليب النظر في الآيات الكونية ولا يكون ذلك إلا بإعمال العقل واستخدام تلك الملكات التي وهبت له خاصة دون غيره من المخلوقات.

من هذا المنطلق كانت حاجة الإنسان إلى فهم الأمور من حوله وتأويلها ضرورة وجودية ملحة ترتبط بحياته ووجوده، وفهم الظواهر المحيطة به ليكون قادراً على مواجهتها والتحكم بها بدل أن يخضع لسلطانها. ومع قدرة الإنسان على تحقيق هذا الأمر اتكاء على مجموع القدرات والكفايات التي يتمتع بها، فإنه يظل عاجزاً في كثير من الأحيان عن تفسير بعض الظواهر التي تتجاوز قدراته وحدود مداركه، مما يجعل قدرته على التأويل نسبية ومحدودة، كما أن مستويات هذه القدرة تتفاوت من إنسان لآخر بقدر التفاوت الحاصل في نسب الفهم والاستيعاب والذكاء...

(١) - إشراف وتأطير الأستاذ مولاي علي سليمان

وتنتقل حاجة الإنسان من فهم العالم وتأويله إلى حاجته لفهم النصوص والخطابات باعتبارها تجسيدها لهذا العالم ولكل ما يحتويه من رؤى ومواقف وعلاقات وشخص وفضاءات... في نسق مترابط من المفردات والجمل والمعاني، ففهم النصوص وتأويلها يتيح للإنسان إمكان فهم العالم الذي يوجد فيه، ولا يتأتى ذلك إلا بامتلاك القارئ آليات القراءة المنهجية والكفايات اللازمة لتأويل مقبول. ونظرا لما تجود به النصوص من معانٍ لا حصر لها غير قطعية الدلالة، فإن القارئ يكون ملزما بالتمسك بعلوم الآلة وبمجموعة من الكفايات التي تسعفه في الترجيح بين المعاني المتعددة للوصول إلى المعنى الذي عناه صاحب النص أول الأمر ساعة إنتاجه.

ولقد تعددت الكتابات التي اهتمت بموضوع التأويل في العالم العربي، ولعل المغرب كان رائدا في هذا المجال، من خلال أعمال الدكتور محمد بازي الذي أرسى دعائم التأويلية العربية في مشروع ضخيم اشتمل على مجموعة من الدراسات النظرية والتطبيقية التي عادت بمفهوم التأويل إلى جذوره العربية، وربطته بجهود الغربيين الحديثة ليضع بين أيدينا منهجية تأويلية قائمة على دعامتين أساسيتين: التساند والتقابل.

يروم هذا المقال استنباط المفاهيم المركزية التي قامت عليها هذه النظرية، محاولين، من خلاله، وضع اليد على بعض الخصائص التي اتسم بها الجهاز المفاهيمي المؤسس للنظرية التأويلية من زاوية تساندية وتقابلية في مشروع الدكتور بازي.

وهو عمل تكتنفه عدة صعوبات من جهات متعددة ولا يخلو من مشاق، ذلك أن البحث في هذا الباب يحتم على الباحث الاطلاع على الكتب المتضمنة للمشروع كلها واستقراء ما احتوته من مفاهيم ومصطلحات ودراساتها عدا وإحصاء وتصنيفا واستخراجا لآليات ضبط المفهوم التي اعتمدها الكاتب من تعريف وشرح وتفسير وتعليل وصولا إلى إدراك العلاقات الرابطة بين المفاهيم المركزية والمتفرعة عنها، ومعرفة نقط التقاطع فيما بينها، وكذا مستويات التجاوز والتجديد في توظيفها واستعمالها.

وقد استدعى هذا الأمر تضمين البحث محورين اثنين، يتضمن المحور الأول ثلاثة مباحث تعرف بمصطلحاته: (الجهاز المفاهيمي - التأويلية العربية - مشروع الدكتور بازي). فيما يتناول المحور الثاني المفاهيم المؤسسة للتأويلية العربية في المشروع وبعض الخصائص المميزة لهذا الجهاز، في مبحثين اثنين، ثم ذيلنا البحث بخاتمة عامة وبلائحة المصادر والمراجع.

الإطار المصطلحي للبحث

١- الجهاز المفاهيمي

يتناول هذا البحث دراسة خصائص الجهاز المفاهيمي الذي وظفه الدكتور محمد بازي في أطروحته التي تسعى إلى وضع أطر بلاغة تأويلية والتأسيس لها في إطار الاشتغال التساندي والتقابل للبنى النصية والسياقية، وتطبيقه على نماذج متنوعة من الخطابات (خطاب التفسير - خطاب الشرح - ...) سعياً إلى توسيع أفق الاشتغال ليشمل النصوص التعليمية في إطار الممارسة الصفية لتكون الأطروحة أعم وأشمل. لا يمكن لنظرية بهذا الحجم والعمق إلا أن تركز على جهاز مفاهيمي غزير ومتين يخول لها الاتساع ومرونة التجريب والتطبيق في حقول معرفية مختلفة، ويتيح لها إمكان الانتشار على نطاق واسع.

والجهاز لغة، بفتح الجيم وكسرهما من جهزه تجهيزاً فتجهز. ومنه جهاز الميت والعروس والمسافر، أي ما يحتاجون إليه والجمع أجهزة^(١)، وفي الحديث: (من لم يغز ولم يجهز غازياً). وتجهيز الغازي، تحميله وإعداد ما يحتاج إليه في غزوة^(٢). يفيد لفظ الجهاز في دلالاته اللغوية العدة التي يحتاجها الإنسان في كل عمل يود القيام به، فإن كان هذا العمل مجهوداً ذهنياً وفكرياً تطلب من صاحبه إعداد العدة المعرفية والمنهجية اللازمة للتمكن من العمل المراد إنجازه. ولا يخلو أي عمل فكري -

(١) - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد ٢، مادة (جهز).

(٢) - نفسه.

لا سيما إن كان تنظيرا وتأسيسا لأطروحة جديدة- من مفاهيم مؤسّسة ذات صلة بالنظرية المؤسّسة. وبإضافة لفظ "الجهاز" إلى الصفة "المفاهيمي" نكون أمام مركب وصفي يحدد إطار اشتغال هذا الجهاز وهو الإطار المرتبط بالمفاهيم والمصطلحات الموضوعية لها للتعبير عنها.

وبذلك يكون الجهاز المفاهيمي، في كل عمل، تلك العدة التي يحتاجها الباحث لبناء نظريته التي تتكون من رصيد من المفاهيم ينسجم مع أسس النظرية ومنطلقاتها الفكرية من حيث صناعة المفهوم وبنائه وتوظيفه وتجريبه، لما للمفهوم من أهمية بالغة في الفهم أولا وفي دعم النظرية، كما أن "تدقيق المفاهيم يساعد على ضبط ميادين المعرفة ويعطيها صفتها ووضعيتها الخاصة المميزة لها"^(١).

١- التأويلية العربية

التأويل في المعاجم العربية مشتق من مادة (أ.و.ل). قال ابن فارس: أول، أصلان هما: ابتداء الأمر وانتهاءه. وقولهم آل بمعنى رجع، وآل الرجل، أهل بيته سموا بذلك لأن مآلهم ومرجعهم وانتهاءهم إليه كما أنهم هم ابتداءه. والأول بمعنى الانتهاء والمرجع. وتأويل الكلام، عاقبته وما يؤول وينتهي إليه^(٢).

يرتبط التأويل في تراثنا العربي بالجهود التي بذلها القدامى في فهم مختلف النصوص وتأويلها خاصة النص القرآني الذي استأثر باهتمام المفسرين قصد فهمه واستنباط الأحكام الشرعية والفقهية من آياته، فضلا عن إدراك وجوه إعجازه، ولقد انبرت لهذا الأمر مختلف الفرق الكلامية عبر التاريخ الإسلامي، إلا أنهم قرنوه بالتفسير تارة وبالفهم تارة أخرى.

(١)- بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون، ص ٤٨.

(٢)- ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ص ٩٨.

ولم يقتصر التأويل على النص الديني، بل تعداه إلى مجال النقد فيما تعلق بقراءة النصوص الشعرية وتأويلها خاصة مع ظهور التيارات النقدية ابتداء من القرن الرابع الهجري حيث انصب اهتمام النقاد على تحليل النصوص الشعرية بغية استخلاص القضايا النقدية وتصنيفها من "طبع وصنعة"، و"لفظ ومعنى"، و"قديم وحديث"... كل ذلك بالاعتماد على تأويل ما يصدر عن الشعراء من قصائد ودواوين، وكان التأويل آلية فاعلة أيضا في الحكم على الشعراء والمفاضلة بينهم، إلا أنه انحرف في كثير من الأحيان عن الموضوعية والشفافية ليسقط في الأهواء الذاتية والتعصب لشاعر دون آخر أولفرقة على حساب أخرى وذلك بتحميل النص ما لا يحتمل من معان غير مقصودة، خاصة أن فعل التأويل ينطلق من تغييب لمقصودية المؤلف ويفتح الباب على مصراعيه للقارئ لقراءة النص قراءة جديدة وتوليد معان لم يقصدها صاحب النص، مما يؤدي إلى تعدد الأفهام والقراءات وبالتالي استحالة القبض على المعنى المقصود.

كما عرفت الساحة النحوية والبلاغية فعل التأويل في تراثنا العربي وذلك عبر تأويل الظواهر اللغوية بما يتناسب مع قواعد النحو وأساليب اللغة من خلال النصوص والشواهد المتضمنة لتلك الظواهر.

ومع تطور النظريات المعاصرة، تأثرت التأويلية العربية بمختلف الاتجاهات الغربية التي ظهرت في هذا المجال، خاصة مع الثورة المعلنة ضد المناهج التي منحت للمؤلف سلطة كاملة وجعلته محور العملية الإبداعية وجردت القارئ من كل مزية . لقد منحت هذه النظريات المعاصرة التي عرفتها الساحة النقدية القارئ سلطة قراءة النص والبحث فيه عما هو غائب وإعادة إنتاجه وبنائه باعتماد مجموعة من الآليات والعمليات.

لكن يبقى السؤال الذي يفرض نفسه بقوة مطروحا: متى تبتكر التأويلية العربية مناهجها الملائمة لتأويل النصوص بدل أن تبقى تابعة ومستلهمة لنماذج غربية نمت وترعرعت في بيئات معرفية مختلفة؟

٣- المشروع التأويلي للدكتور محمد بازي

اغتنت الساحة الفكرية والنقدية في بلادنا خاصة وفي الوطن العربي عامة بمشروع علمي بديع، سطع نجمه في سماء الفكر والتقد، وحظي بإشادة واسعة، حائزا على جائزة المغرب للدراسات الأدبية والفنية سنة ٢٠١٠.

إنه المشروع التأويلي الذي بلوره صاحبه الدكتور محمد بازي في كتابه (التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات)، وهو بحث علمي يروم التأسيس لبلاغة تأويلية عربية تقوم أساسا على إجراءين قرآنيين تحليليين: "التساند" و"التقابل"

وتهدف هذه النظرية إلى بلورة آليات منهجية لإمداد القارئ بأدوات ناجعة لقراءة النصوص والخطابات قراءة تأويلية قصد فك شفراتها والإبحار في عوالمها وفهمها فهما صحيحا يعود بالمعنى إلى أول ما قصده منتج الخطاب، بعيدا عما يمكن أن يسقط القارئ في سوء التأويل الناتج عن عدم فهم القصد فهما صحيحا. وتأتي هذه الأطروحة استجابة للحاجة الملحة إلى تطوير بلاغة في التأويل باعتباره صناعة ثانية تروم قراءة النص أو الخطاب المنتج وتأويله للوصول إلى فهم مريح، وهي لا تقل أهمية عن صناعة النص وإنتاجه. تكمن أهمية التأويل في كونه فاعلية بشرية تستند إلى قدرات وعمليات ذهنية ينهض بها الإنسان عامة والقارئ خاصة لتأويل كل البنات والمواقف الإنسانية ولا يقف عند حدود النص والخطاب فحسب. من هنا يكتسي المشروع أهميته البالغة، مستلهما روح التراث العربي واللغة العربية بكل ما يزرخان به من علوم آلة ونصوص ومصطلحات...، كما يفتح على جل المعارف الإنسانية من فلسفة

ومنطق ونظريات الأدب ومناهج وخطابات... وكل ما يمكن الاستفادة منه، مما ينسجم وأطروحته ولا يتعارض مع أسسها ومبادئها العامة. لا يقتصر اهتمام هذه الأطروحة على الفهم وحده، بل يتجاوز ذلك إلى مستوى الإفهام والتفهم، لتقدم بذلك أنموذجا يتجاوز حدود التنظير إلى التنزيل والممارسة في الحقل التعليمي، حيث يضع الباحث بين يدي مدرس اللغة العربية آلية اشتغال تقوم على التقابلات المختلفة التي يمكن اعتمادها رفقة متعلميه في بناء الدرس في كل مراحله بدءا من الفهم وانتهاء بالتركيب.

وتعتبر هذه الآلية وسيلة فعالة للتفاعل مع النصوص تفاعلا خلاقا ومنتجا ولإشراك المتعلمين في بلوغ المعنى المقصود تدريجيا، بدل تلقينهم إياه جاهزا دون حفزهم لاستخدام قدراتهم العقلية والذهنية.

الجهاز المفاهيمي في مشروع الدكتور بازي

١ - المفاهيم المؤسسية لتأويلية التساند والتقابل

إن أول ما يلفت نظرك وأنت تتصفح كتب الدكتور بازي التي تضمنت مشروعه التنظيري التجريبي في التأويل التساندي والتقبالي، ذلك الزخم الكبير من المفاهيم والمصطلحات المبسطة في ثنايا هذه الدراسات، وربما صادفتها تتكرر في الدراسة الواحدة أو فيها كلها، بالشكل الذي يصعب معه على الباحث المبتدئ ضبط هذه المفاهيم كما وكيفاً، وضبط تقاطعات المفهوم الواحد مع بقية المفاهيم.

استحضارا لذلك يمكن القول إن المشروع التأويلي للدكتور محمد بازي جاء غنيا من حيث الجهاز المفاهيمي المتحكم به، فضلا عن غنى التجربة نفسها اقتراحا وتنظيرا وتجريبا. ومما لاشك فيه أن للمفهوم أهمية كبرى في التأسيس لكل العلوم والمعارف والنظريات، إن لم نقل إنه أول الدعامات والأسس التي يحمل عليها كل علم أو نظرية معرفية، لذلك أولاه الباحثون عناية خاصة في التنظير لأطروحاتهم، عناية تنطلق من صناعة المفهوم وبنائه بناء محكما وفق آليات وعمليات تركيبية وتأليفية، فيكون بذلك ضبط المفاهيم ركنا رئيسا من أركان نجاح النظرية وشيوعها.

وبالعودة إلى مشروع الدكتور بازي، نلمس عناية فائقة بالمفاهيم المؤسسة للنظرية التأويلية قل نظيرها في الدراسات الحديثة، سواء من حيث الكم والعدد، أو من حيث كيفية المعالجة والضبط والاستعمال، وهو ما يعتبر نقطة من نقاط قوة هذا المشروع. سيقترن هذا البحث على دراسة أهم المفاهيم المؤسسة، بدءاً بمفهوم "التأويل" وما يتداخل معه من مفاهيم قريبة منه (التفسير - الشرح - المعنى)، مروراً بالمفهومين الإجرائيين للأطروحة: "التساند" و"التقابل" وما يتفرعان إليه من أنواع. كما سنقف عند مفاهيم مبتكرة للدكتور بازي (الدوائر الصغرى - الدوائر الكبرى)...

أ- التأويل

يعتبر مفهوم "التأويل" أس النظرية التي بني عليها مشروع الدكتور بازي باعتباره مشروعاً يروم التأسيس لبلاغة تأويلية في مقابل البلاغة الإنتاجية، وتطوير آليات القراءة الصحيحة للنصوص والخطابات قصد بلوغ الفهم المريح للمعنى المقصود، بل وتفهمه وإيصاله بيسر وسهولة.

من أجل ذلك ألف الدكتور بازي كتابه (التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات) بسبعة مفاتيح تقديمية تناول فيها الحديث عن التأويل وما اعتراه في بداياته الأولى من فوضى وغموض، وما وقعت فيه الاجتهادات المقدمة من مزالق، وما أفرزته من تراكمات معرفية، ظلت تخضع، في أغلب الأحيان، لأهواء القراء المؤولين ومصالحهم الخاصة في ظل "غياب العلم بمستلزمات القراءة من علوم تأويلية وخبرات طويلة مع النصوص وقلة الكفاية المعرفية والمنهجية الملائمة"^(١)، وهو ما جعل الحاجة ملحة لتأسيس بلاغة تأويلية ترسم سبلاً واضحة، وتضع التأويل في صلب القراءة المنهجية التي تحتكم إلى نسق منظم ومتكامل من الأدوات والكفايات والعلوم والمعارف في إطار ما سماه الباحث "التعاقد التأويلي"، لذلك فقد

(١) - بازي محمد التأويلية العربية، ص ١٥.

حاول منذ البداية إعادة بناء مفهوم التأويل بما ينسجم مع التصور الذي يقترحه في تأسيس هذه البلاغة التأويلية وذلك "بالعودة به إلى أصوله من جهة ومراعاة استجابته للتصور الذي نقترحه، وكذا ملاءمته للظاهرة النصية"^(١).

وقبل أن يعرض الباحث مختلف التعريفات والتصورات التي خضع لها مفهوم "التأويل" في ثقافتنا العربية الإسلامية التي ميزت بينه وبين الشرح والتفسير تارة، وخلطت بينها مرارا، خاصة لدى علماء التفسير، نجده يقدم تصورا خاصا حول هذا المفهوم، إذ يعتبره "كل فعل قرائي يروم بناء المعنى استنادا إلى أدوات ومرجعيات وقواعد في العمل والتزام مطلق بحدود البلاغة التأويلية، وهي خلاصة تجارب جماعية في تأطير الفهم وبلوغ الدلالة"^(٢)، كما أنه "جهد ذهني ومهارة في تشييد المعنى، استنادا إلى آلات العلوم"^(٣).

إن هذا التصور لمفهوم التأويل يتجاوز التعريفات الضيقة التي قرنته بالتفسير بمعنى، الإبانة والشرح، كما يتجاوز النظر إليه كفعل مباشر بين الذات المؤولة والموضوع المراد تأويله، بل إنه يتم عبر مجموعة من الآليات والعمليات الذهنية المركبة، وبالاستناد إلى العلوم المرجعية والحقول المعرفية المؤطرة للموضوع المؤول، من نصوص دينية وقواعد لغوية وبلاغية تم إنتاجها في نسق ثقافي معين، ليكون هذا النموذج مؤسسا على الارتداد الفعال إلى هذه المراجع المذكورة، وعلى الامتداد نحو بناء المعنى والقصد من النص المراد تأويله بناء على اجتهادات المؤول وتخميناته واعتمادا على مهارات متعددة وكفايات محددة ليكون التأويل بليغا ومنسجما.

ويعتبر الدكتور محمد بازي التفسير، وقد خلط قوم بينه وبين التأويل، مدخلا للتأويل ومفتاحا مرجعيا يعتمده المؤول لتيسير ولوجه إلى عالم النص وبناء معانيه،

(١)- بازي محمد التأويلية العربية، ص ٢١.

(٢)- نفسه.

(٣)- نفسه، ص ٢٤.

واستقصاء دلالاته. ويمثل لذلك بتأويل النص القرآني، حيث لا غنى للمؤول عن ضبط مجموعة من العلوم، في مقدمتها علم التفسير الذي يسهل عملية الفهم، ويؤهل لبلوغ تأويل مريح، خاصة إذا علمنا أن النص حمال أوجه ومعان، وأنه منفتح على دلالات متعددة وأفهام لا حصر لها تختلف باختلاف القراء المؤولين وتباين ملكاتهم وقدراتهم ومرجعياتهم ومناهجهم وأدواتهم في القراءة والفهم والتحليل والتأويل. ويفرق الدكتور بازي بين التفسير والتأويل تبعاً لما يقتضيه كل منهما من رجوع إلى الأصل وامتداد نحو المعنى المقصود في إطار بلاغتي الارتداد والامتداد بقوله: "فالتفسير هو الوجه الأكمل للارتداد والتأويل هو الحركة الممتدة في اتجاه بناء جديد لمعنى لم تبينه السنة ولا أقوال الصحابة. وهما بلاغتان متساندتان متلاحمتان منفتحتان على بعضهما بعض" (١).

ولا يقف الباحث في بناء مفهوم التأويل عند دلالاته اللغوية، بما هو "أول أي رجوع إلى الأصل والعودة به إلى حقيقة الشيء وما يؤول إليه" (٢). ولا عند التعريفات السابقة التي خلطته بالتفسير والشرح والمعنى، بل إنه يتصور عملية التأويل كيمياء معرفية تتفاعل فيها مجموعة من العناصر والأجزاء والبنيات، مما يسمح بالقول إنه صناعة تخضع لقواعد البلاغة التأويلية في إطار تعاقدية يحتم على المؤول احترام ضوابط التأويل وامتلاك عدة معرفية ومنهجية، وذلك بالارتداد نحو المراجع المؤطرة للنص المؤول والامتداد نحو غاياته وبناء دلالاته ومعانيه.

ب- التساند

يرد مفهوم التساند كعنوان فرعي في غلاف (التأويلية العربية). نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات)، وهو النموذج الذي يقترحه الدكتور بازي ضمن مشروعه التأويلي الذي يقوم على مبدأ التساند والتعاون بين مجموعة من البنيات النصية والسياقية والذهنية قصد فهم النص أو الخطاب وتأويله تأويلاً بليغاً ومنسجماً

(١) - بازي محمد، التأويلية العربية، ص ٢٤.

(٢) - نفسه، ص ٢٥.

حيث ينطلق الباحث من حقيقة انخراط محور التساند في كل فعل تأويلي مستندا إلى التأويلات التراثية المحللة التي أكدت صلابه هذا الطرح. يقوم تصور الباحث للفعل التأويلي على التفاعل والتساند بين النصوص باعتبارها أداة والعلوم باعتبارها مرجعا يرجع إليها المؤول، مستفيدا مما تتيحه من أدوات تغني التحليل وتمده بإمكانات متعددة، متجاوزا بذلك التصور الذي يحصر الفعل التأويلي في علاقة ثنائية بين المؤول والمؤول، معتبرا هذه الأطروحة نموذجاً قرائياً شمولياً يتخذ عدة وسائل لبناء قراءة تنسجم مع معطيات النص المؤول ومع السياقات الخارجية المحيطة به، وهو تصور يتفق مع فلسفة "يول" التأويلية التي تؤمن بدور الإستراتيجية النصية- السياقية في تحديد معنى العمل الأدبي، بدل الاقتصار على معرفة مقاصد المؤلف.

يعرف الدكتور بازي التساند التأويلي بقوله: "نقصد به تبادل العون والمساندة في عملية بلوغ المعنى بين العناصر المعتمدة في الفهم، فاللغة مثلا تسند التخريج النحوي أو البلاغي، والاشتقاق يسند اللغة والنحو، والنصوص الموازية تسند الدلالة، والمثل يدعم المعنى... إنه تساند يتأسس لحظة الاشتغال بالتأويل بين الدوائر النصية والدوائر السياقية، وهو تساند تتحقق فيه الملاءمة والانسجام بين العناصر والمستويات"^(١). ينطلق هذا التعريف من تصور بنيات داخلية وأخرى خارجية تتحكم باجتماعها وتفاعلها في بناء المعنى وبلوغ الدلالة. فالبنيات الداخلية تمثلها العناصر التركيبية والدلالية واللغوية، أما المؤشرات الخارجية فتتمثل في العناصر السياقية الموازية لعملية إنتاج النص كظروف كتابته.... "هكذا تساند الأدلة البنائية والدلالية النصية؛ كلمات وتراكيب نحوية وبلاغية وعلامات مع الأدلة الخارجية، المتمثلة في المعرفة النفسية والاجتماعية بالكاتب، وحياته، ومعتقداته، وقيمه، واهتماماته، ومذكراته، ورسائله، وحواراته"^(٢).

(١)- بازي محمد، التأويلية العربية، ص ٣٤٨.

(٢)- نفسه، ص ٥٤.

يتضح مما سبق أن الباحث ينحو في قراءة العمل وتأويله منحى يؤلف بين ما تفرق من رؤى وتصورات ومناهج، لكنه يعطي الأولوية للأدلة البنائية أي العناصر الداخلية للنص، ولا يستهين بدور المعطيات الخارجية والتفاصيل المرتبطة بحياة المؤلف في المساعدة على بلوغ المعنى الخفي الذي يفترض أنه المعنى الذي عناه المؤلف أول الأمر.

ج - دوائر القراءة: الصغرى والكبرى

ينبغي فعل التأويل في تصور الدكتور محمد بازي على مبدأ الاشتغال التساندي بين ما سمّاه دوائر القراءة وهي نوعان: لدوائر النصية الصغرى والدوائر النصية الكبرى.

أما الأولى فيقصد بها (كل المؤشرات النصية الدالة التي ينطلق منها الفعل التأويلي الباني للمعنى، من أفعال وحروف وأسماء وتراكيب نحوية وبلاغية وعلامات سيميائية قابلة للفهم والتأويل)^(١).

فهي تمثل المستوى اللفظي والتركيبى والدلالي الذي ينطلق منه القارئ لفهم النص وبناء المعنى، إلا أن هذه الدوائر تظل غير كافية في كثير من الأحيان للوصول إلى المعنى العميق الخفي الذي يقصده المؤلف فيكون لزاماً على القارئ الانتقال إلى الدوائر الكبرى التي تمثل نماذج استبدالية أو بنيات نصية غائبة في شكل نصوص أو معارف أو معلومات أو أخبار تتصل بالسياق الاجتماعي والثقافي والنفسي الذي أنتج فيه النص وبالمنظومة الثقافية التي ينتمي إليها، وما أفرزته من معارف وقيم مشتركة، لا يمكن فصلها عن الخطاب سواء في مرحلة إنتاجه أو لحظة قراءته وتأويله. وتكمن أهميتها في أنها تعمل كمرجحات لمعنى على آخر حينما تتعدد المعاني.

إن التفاعل بين هذه الدوائر والمستويات كلها وحضورها في ذهن المؤلف في أثناء عملية التأويل ييسر الوصول إلى بناء فهم مريح ومنسجم مع كل ما يرتبط بالنص

(١)-بازي محمد، التأويلية العربية، ص ٣٥٢.

داخليا وخارجيا كما أنه (التفاعل) يخرج القارئ المؤول من المآزق التي يقع فيها الفعل التأويلي، وهي ترجع أساسا إلى افتراض معان متعددة.

يتجلى التساند أيضا بين بلاغتي الارتداد والامتداد الحاصل على مستوى هذه الدوائر في إحداث تفاعل بين المراجع والنصوص النقلية والمجهود الذهني المرفق بالدليل الذي يبذله المؤول مستندا إلى علوم الآلة لتشديد المعنى الممثل لمقصدية المؤلف. ويعتبر الباحث أن الفعل التأويلي مشروط بالتفاعل بين هذه الآليات، ويستدل على صحة هذا التصور ويدعمه بنماذج لخطابات تراثية عريقة في مجال فهم النص القرآني وتأويل النصوص الشعرية مما لا يفسح المجال واسعا أمام المؤول ليطلق العنان لتخميناته ومواقفه في عملية التأويل.

د- التقابل

طرح الدكتور محمد بازي في كتابه (التأويلية العربية) ملامح منهاجية التأويل التقابلي في الفصول الثلاثة الأخيرة، ليفرد لها كتابا كاملا بعنوان (نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب) الذي بسط فيه مبادئ هذه النظرية وأسسها وجدواها في فهم النصوص والخطابات وتأويلها. وتعتبر هذه النظرية آلية داعمة ومكملة للاشتغال التساندي الذي يروم فهم النص من خلال التفاعل بين دوائره الصغرى والكبرى.

ويقع مفهوم "التقابل" في صلب نظرية التأويل التقابلي. وهو مفهوم مركزي يتفرع إلى عدة مفاهيم إجرائية. ويعرفه الدكتور بكونه "إجراء في الفهم يقوم ذهنيا على التقريب التقابلي بين العناصر والمستويات، في المعطى موضوع التأويل بأي شكل ممكن. إنه إحداث لتواجه بين بنيتين أو موقفين أو وضعين أو عنصرين أو غير ذلك. وهو ما ينتج علاقات متباينة لها معان"^(١).

(١) - بازي محمد، التأويلية العربية، ص ٣٤٦.

ينطلق الباحث في بناء هذه النظرية وتطبيقها على نصوص مختلفة من تصور كوني للنص ، معتبرا إياه "بنية من المتقابلات الظاهرة والخفية، النصية والمبنية على أفعال التأويل"^(١)، وذلك قياسا إلى الكون الذي بني منذ نشأته الأولى على مبدأ التقابل بين عناصره ومكوناته، بحيث لا يوجد في العالم عنصر إلا ويوجد ما يقابله على نحو ما، ولذلك قام الوجود على سنة الزوجية وكان التفرد خاصا بالذات الإلهية وحدها.

والنص باعتباره كونا لغويا لا يخرج عن هذه السنة الكونية، فهو مبني وفق نسق تقابلي بين مجموعة من البنيات المشكلة له النصية والسياقية، وإحداث تواجه وتقريب بينها هو الذي يمكن من بناء المعنى المقصود الذي تشكل في ذهن منتج سابقا في أثناء إنتاجه، وممكن كذلك من فهمه وتفهمه وتدرسه بسهولة ويسر، وهو ما يمنح للنظرية قوتها وفعاليتها ويخرجها من حدود التنظير إلى مستوى الممارسة الوظيفية التي يمكن لمدرس اللغة العربية اعتمادها كألية فاعلة في فهم النصوص وتحليلها عبر خطوات منهجية تدريجية رفقة متعلميه لبناء فهم عميق وإكسابهم كفايات جديدة في مقارنة النصوص.

ونظرا لما يتيح التأويل التقابلي من إمكانات لا محدودة في الفهم والتأويل، فإننا نجد مفهوم "التقابل" يخلق شبكة من المفاهيم الإجرائية الفرعية التي تغنيه وتقويه وهذا دليل على "تشعب المفهوم المؤسس وقدرته على النماء..."^(٢)، فهو يتفرع إلى ما يزيد على مائة نوع تنصوي كلها تحت قسمين كبيرين: التقابلات النصية المؤطرة وهي "تقابلات جزئية داخل النص مثل تقابل التناقض وتقابل التخالف"^(٣)، وتقابلات نصية مؤطرة، ويقصد بها "التقابلات السياقية الخارجية عن النص مثل أحوال المنتج والمجتمع والتاريخ ومقامات تداول النص"^(٤).

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، ص ٣٧.

(٢) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي، ص ٤٠١.

(٣) - بازي محمد، التأويلية العربية، ص ٣٤٩.

(٤) - نفسه.

ويجد الباحث أن نظرية التقابل عند الدكتور بازي تفتتح على مرجعيات وحقول معرفية متنوعة ، بحيث تستفيد مما قدمته النظريات الحديثة في التلقي والتأويل وعلم النص وتحليل الخطاب وغيرها من الأدوات الإجرائية والتحليلية، لكن تبقى البلاغة العربية القديمة أهم منبع استقى منه الكاتب مفهوم التقابل بشتى أصنافه، لا بمفهومه الضيق الذي يحصره كثيرون في معنى المقابلة أو الترادف أو الطباق بين مفردتين أو عبارتين، بل إنه يكتسي في هذه الأطروحة بعدا أرحب، ويفتح آفاقا للتحليل والتأويل أوسع وأشمل، باعتباره استراتيجية ومنهجية جديدة في تأويل النصوص والخطابات عبر المحاذاة والتقريب بين المعاني والعناصر والمستويات.

٢- خصائص الجهاز المفاهيمي

تميز الجهاز المفاهيمي في مشروع الدكتور بازي بمجموعة من الخصائص التي أسهمت في إغنائه وقيامه على أسس نظرية صلبة ومتمينة ومنتحة القوة التجريبية لتطبيق النظرية في حقول معرفية مختلفة على نصوص وخطابات متنوعة. وهذه بعض الخصائص التي سمح البحث باستخلاصها:

أ- التراكم

يلحظ الباحث في مشروع الدكتور بازي اعتماده رصيذا مفهوما غزيرا يغتني بكثافة المفاهيم النظرية والإجرائية المؤسسة للبلاغة التأويلية سواء على مستوى الاشتغال التساندي أو التأويل بالتقابل. ولعل هذه الخاصية دليل غنى النظرية وتشعبها، حيث بلغ عدد المفاهيم المثبتة في الدليل الموسع لتأويلية التقابل والتساند — باعتبار ما بينها من تقاطع وتكامل — ما يربو على مائة وستين مفهوما يرتبط بعضها ببعض وتصب جميعها في خدمة المفهوم المركزي الذي تنبني عليه النظرية بأكملها وهو مفهوم "التأويل". "التراكم المفهومي الحاصل في هذا الجانب دليل تشعب المفهوم المؤسس وقدرته على البناء..."^(١).

(١) - بازي محمد، نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، ص ٤٠١.

ب - الجدة والتجديد

تتجلى هذه الخاصية في ابتكار الدكتور محمد بازي مصطلحات جديدة لمفاهيم إجرائية تنظيمية للممارسة التأويلية، لم تكن موجودة أصلاً كمفهوم الدوائر (الصغرى والكبرى). "وبناء على ذلك فإن التأويل المحمود المقبول، هو الذي يستند على مقومات نصية وسياقية، ومهارات عقلية وأدبية وتأويلية... وسميها هنا دوائر بلاغة التأويل التساندي"^(١)، وعن مفهوم «سجلات السياق» يقول الدكتور محمد بازي: "بينت مقارنة خطاب التأويل في "التباين" عن حصول تساند قوي بين البنيات النصية وموازياتها الخارجية وقد سميها ب «سجلات السياق»"^(٢). والتجديد حاصل كذلك على مستوى إعادة بناء المفهوم وتجريبه وتوظيفه وفق النظرية المقترحة كمفهومي "التأويل" و"التقابل"...

ج - الانفتاح

يبرز الدكتور بازي خصائص الصرح التأويلي المقترح بأنه دوراني، تساندي، انفتاحي، تعاقدية، تقابلي. ومن هذا المنطلق فإنه يعتمد جهازاً مفاهيمياً متنوع المرجعيات، يمتح من نظريات ومعارف إنسانية مختلفة وينفتح على كل ما يمكن أن يصب في خدمة النظرية التأويلية من علوم (العلوم الشرعية، الفلسفة، علوم اللغة، التاريخ...)، ونظريات عربية وغربية، إلا أننا لا نجد الباحث يوظف هذه المفاهيم توظيفا أعمى كما وردت في حقولها المستقاة منها، بل إنها تكتسي في هذا المشروع التأويلي حلة جديدة من حيث الاستخدام والتوظيف، ولا أدل على ذلك من مفهوم "التأويل" الذي يفتح على مجالات متعددة (العلوم القرآنية والشرعية، الأدب، البلاغة...)، بل ويمتد إلى العلوم التجريبية أيضاً، حيث صاغ الدكتور بازي مصطلح

(١) - بازي محمد، التأويلية العربية، ص ٤٦.

(٢) - نفسه، ص ٢١٨.

"كيمياء التأويل" الذي يتخذ شكل تفاعلات بين بنيات مختلفة فيما يشبه العمليات التفاعلية بين المواد الكيميائية في مجال العلوم.

كما نجده يعتمد بشكل كبير مفاهيم ذات صلة بالعلوم الشرعية كعلوم القرآن والحديث والفقه، ومنها "التفسير" باعتباره علماً مرتبطاً بشرح ألفاظ الآيات ومفرداتها و"الترجيح" بين الأدلة للوصول إلى الفهم الصحيح فيما لم يرد فيه نقول. كما استقى من التراث العربي، خاصة ما يرتبط بالبلاغة، مفاهيم مركزية في نظرية التأويل التقابلي أهمها مفهوم "التقابل" بكافة أنواعه وأصنافه. ومن اللسانيات مفاهيم مثل "السياق السيميائي"، "سياق الفعل"، "سيميائية التقابل"...

د- السهولة والتيسير

قدم الدكتور بازي للقارئ مشروع العلم الضخم بسهولة ويسر، أملاً بذلك إخراج النظرية من حيز التنظير إلى مستوى التطبيق والممارسة الفعلية، ولا يمكن أن يتحقق هذا المبتغى إلا بتيسير المفاهيم أولاً باعتبارها مفاتيح أولى يضعها الباحث بين يدي القارئ لفهم النظرية واستيعابها بشكل واضح، وبالتالي إمكان العمل بها وتطبيقها في مستويات مختلفة.

يتجلى هذا التيسير فيما سلكه الكاتب من آليات وتقنيات سمحت بتمرير المفاهيم للقارئ بمرونة وسهولة، فنجده يعرف المفهوم الواحد في أكثر من موضع تثبتاً وتقريراً له في ذهن المتلقي ولا يكتفي بالتعريف اللغوي أو الاصطلاحي، بل يمضي في شرح المفهوم وتفسيره والعودة به إلى أصوله الأولى التي نشأ فيها ثم يرصد كيفية انتقاله إلى حقول معرفية أخرى، كما هو الحال بالنسبة لمفهوم "التأويل" و"التقابل" باعتبارهما مفهوماً مركزيين.

هـ- الفهرسة

يجد القارئ نفسه في نهاية الكتاب أمام فهرس وأدلة موسعة تضم كما كبيراً من المفاهيم والمصطلحات، مرتبة ترتيباً ألفبائياً وكأن الأمر يتعلق بمعجم شارح ومفسر لكل المفاهيم التي وظفها الدكتور محمد بازي في نظرية التأويل التساندي والتقابلي،

وهي تقنية بيداغوجية مبسطة تعرف المفاهيم بوضوح ويسر بعيدا عن التعقيد والإغراق في التجريد. وقد ضمّن الباحث كتابه (التأويلية العربية) فهرسا لمفاهيم تأويلية التساند والتقابل يحتوي على ثمانية وتسعين مصطلحا، في حين اشتمل كتاب (نظرية التأويل التقابلي) على دليل موسع يضم مائة وخمسة وستين مصطلحا.

و- التشعب

تتميز المفاهيم المركزية لتأويلية التساند والتقابل بالتشعب إلى مفاهيم إجرائية، ويتجلى ذلك من خلال المجهود الذي بذله الباحث في بناء هذه المفاهيم عبر آليات التوليد والتأليف والتركيب، فنجد مثلا مصطلح التأويل يتفرع بشكل متناسق إلى مصطلحات جديدة مرة بالإضافة "انسجام التأويل" - "تأويل التوسع"... وتارة بالوصف "التأويل البليغ" - "التأويل التقابلي" - "التأويل الدائري". وأحيانا بالاشتقاق: "تأويلية الاعتدال" - "تأويلية الارتداد" - "المؤول البليغ" - "بلاغة المؤول"... وقد حظي مفهوم "التقابل" في أطروحة الدكتور بازي باهتمام كبير وعناية خاصة باعتباره آلية داعمة للاشتغال التساندي المقترح، يتجلى ذلك من خلال التوسيع الذي خضع له، حيث تم توليد كم كبير من المصطلحات المرتبطة به.

خاتمة:

لاشك أن الساحة النقدية العربية ستستفيد من هذا المشروع التأويلي بما يتيح من مفاهيم إجرائية في القراءة والفهم، ليرسم بذلك مساراً جديداً للدراسات التأويلية العربية يستلهم روح التراث ولا يتقيد بالنظريات الغربية، بل يستفيد منها، وقد اتضح ذلك من خلال المفاهيم المؤسسة المعتمدة في هذه الأطروحة التي تتصل بالبلاغة العربية أساساً.

إن هذا المشروع يفتح المجال أمام العديد من القراء المؤولين حيث يمددهم بآليات تحليلية وإجرائية لإعادة بناء النصوص واستقصاء دلالاتها. ويرجع الفضل للدكتور محمد بازي في بلورة نظريتين جديدتين (التساند) و(التقابل) اللتين تسعفان القارئ بإمكانات عديدة وغير محدودة من خلال اعتماد تأويل يقوم على المساندة وتبادل العون بين جميع عناصر النص وبنياته من جهة وعلى التقريب والتواجه بينهما من جهة ثانية. وختاماً، يمكن القول إن هذه الدراسات التأويلية المقدمة جاءت استجابة لحاجة الساحة النقدية العربية لبلاغة تأويل تنسجم أدواتها ومبادئها مع طبيعة النصوص المرتبطة بنسقنا الثقافي العربي، بدءاً من النص القرآني وانتهاء بكل الأنماط الشعرية والثرية.

إشراف وتأطير:

د. مولاي علي سليمان

لائحة المصادر والمراجع:

- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع؛
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت؛
- بازي محمد، التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، الدار العربية للعلوم ناشرون.
- بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون؛

تساند الآيات التأويلية في خطاب التفسير^(١)

الطالب الباحث: يوسف فارس

مقدمة:

حاول الدكتور محمد بازي، من أجل إضفاء طابع المشروعية على بحثه، تنزيل مقتضيات تنظيره الرامي إلى رصد الطريقة التي يشتغل بها تساند الآيات التأويلية (الداخلية والخارجية) في خطابين تراثيين، أولهما خطاب التفسير القرآني، وثانيهما خطاب الشرح الشعري، فأسهم بذلك في تبيان حركتي الارتداد والامتداد التي ينهجها كل من المؤول المفسر والمؤول الشارح. لذا، فإن الواقف على مفهوم التساند عند الدكتور محمد بازي، يفهم منه ما يأتي:

عند محاولة الباحث كشف الستر عن المعنى القرآني يجب عليه الابتداء بالبحث عن الدلالة اللغوية للمفردة، من أجل استخلاص معناها، ثم بعد ذلك يقف عندها من الناحية الصرفية والنحوية، لعله يستمد منها معنى يعضد ما سبق، فيتبع ذلك بعلم البلاغة بغية الكشف عن السر الكامن وراء اختيار صيغة أو تركيب دون غيره، ثم يعرج على علم القراءات، إن وردت اللفظة بقراءة مغايرة، ليستكنه المعنى الذي رَمَتْ به، وفي الأخير يبحث في النصوص الموازية، والسجلات السياقية، لعله يجد فيها ما يثبت المعنى أو يدحضه.

اختط الدكتور بازي لنفسه طريقاً واضحة المعالم، بينة المراسم؛ لأنه، وقبل الشروع في أجرأة ما عزم عليه، حدد المفاهيم، وصاغ المصطلحات التي تستوعبها دون خلط أو تداخل بينها.

ولتبيان أجهزة القراءة التأويلية، في الخطاب التفسيري، تتبع الدكتور محمد بازي الطريقة التي سلكها كل من جار الله الزمخشري في تفسيره "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، وعماد الدين بن كثير في تفسيره

(١) - إشراف وتأطير الأستاذ مولاي علي سليمان

"تفسير القرآن العظيم"، في السعي إلى بلوغ المعنى وتحقيق الفهم والإفهام، فافتنى أثر جار الله الزمخشري، في مقدمة تفسيره، فوجده يحث من سار في درب المفسرين على تملك جملة من «العلوم التي يلزم المفسر التوفر عليها، وأهمها موهبة الأخذ والحفظ والجمع بين علوم وظيفية عديدة، ثم موهبة التحقيق والدراسة والبحث عن الإمكانيات الدلالية في النص موضوع التأويل»^(١)، ويقصد بذلك «مستوى القراءة التأويلية القائمة على البنيات النصية (اللغة، الصرف، النحو، البلاغة، القراءات...)^(٢)، بيد أن الزمخشري، بحسب ما نقله الدكتور بازي، يرى أن «القارئ المتمكن من علم واحد، نحو كان أو بلاغة أو قصصا أو كلاما ليس مؤهلا للإقدام على بناء معاني النص القرآني»^(٣). بل لا بد من «ضبط كل العلوم المساعدة على فك الالتباسات وتجاوز المشكل والغامض والمتشابه»^(٤)، ويقتضى المعول عليه من تجميع هذه العلوم وإحصائها، هو مدى قدرة المؤول على التوليف بينها، قصد بناء المعنى وتبين مراد الله من كلامه.

وأما «مستوى القراءة التأويلية القائمة على البنيات النصية الغائبة (النصوص القرآنية، والحديثية، والخبرية، والشعرية، والإسرائيليات، والأمثال، والأقوال، وغيرها)^(٥)، أو ما يسمى في أدبيات محمد بازي بالموازيات الخارجية. فإنها، وإن وجدت، فهي تفتقر إلى «مهارات أخرى، مثل الحفظ والتحقيق وكثرة الاطلاع وضبط المادة المحفوظة بإرجاعها إلى أسانيدھا الصحيحة، ونسبة الأقوال والأشعار إلى

(١) - بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون - منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى ٢٠١٠، ص ١٩٢.

(٢) - التأويلية العربية، ص ١٥٩.

(٣) - نفسه، ص ١٦١.

(٤) - نفسه.

(٥) - نفسه، ص ١٥٩.

أصحابها»^(١)، غير أن هذا العمل يبقى قاصرا إن لم يؤت ربه حظا من إدراك المعنى حين يساق في عبارة، أو يذف إلى صاحبه في إشارة. وهذا ما قصده الزمخشري حين اشترط في المتعاطي إلى التأويل أن يكون «مسترسلا الطبيعة منقادها، مشتعل القرية وقادها، يقظان النفس، دراكا للمحة وإن لطف شأنها، متبها على الرمزة وإن خفي مكانها»^(٢).

وإذا كان الزمخشري لا يقدم لنا في مقدمة تفسيره «الخطوات المتبعة في بناء المعنى وتأويل الآيات القرآنية؛ ويكتفي بإبداء ما يراه لازما من دواعي التأليف ومستلزمات المفسر. ومن هنا فإن الوقوف على آليات القراءة التأويلية يقتضي تتبع إجراءات الفهم التي يلجأ إليها؛ وهي في كل الأحوال تعكس شكلا تأليفا مرتببا بالنسق الثقافي الذي أنتجه وكذا خصوصيات المؤول ومواهبه الذاتية»^(٣). فإن تقصيه لطريقة عمل عماد الدين ابن كشي، قد أسفرت عن منهجية مباينة لما وجد عند الزمخشري وتقرر، إذ إن ابن كثير يسير وفق قناة رسمها «لنفسه ولغيره [...] في بناء المعنى وإيضاح ما انبهم من النص القرآني وفق المدارج التالية: "فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب أن أصح الطريق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فغننا شارحة للقرآن وموضحة له... والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجده فمن السنة»^(٤).

(١) - التأويلية العربية، ص ١٦٢.

(٢) - الزمخشري، نقلا عن التأويلية، ص ١٦١.

(٣) - التأويلية العربية، ص ١٦٢.

(٤) - نفسه، ص ١٦٣.

١ - الدوائر النصية الصغرى

• المدخل اللغوي

إن أول ما يصادفنا، في أثناء تتبع الدكتور بازي، لمحاولة المفسرين تأويل فاتحة الكتاب، هو إيراد قولي المفسرين بشكل متواز، إذ إنه يذكر، أولاً، ما أورده الزمخشري، ثم يشي بها جاء عند ابن كثير في كل مدخل. يقول بازي: «وقد ارتأينا أن نقوم بهذه المقارنة لرصد التماثلات والاختلافات في نموذجين قرائين قديمين، والوقوف على المبادئ المعلنة والخفية التي كانت تستند عليها القراءة البانية لمعاني النص القرآني»^(١). لذا، فإنه عند وقوفه عند تأويل كلمة "الرب"، قدم قولي كلا المفسرين.

إن تتبع كلا المفسرين للفظ "رب"، والرجوع بها إلى اللغة، بحسب بازي، أمر لا محيد عنه لمن أراد بناء المعنى وتشيدته، ورام تحقيق الفهم وتفهمه. ثم يردف صاحب التأويلية هذا المثال بمثال آخر يدور حول تأويل كلمة "العالمين":

بعدها شفع الدكتور بازي المثال السابق بهذا المثال، وأكد لديه أن «تقصي الدلالات اللغوية للكلمات هو المفتاح التأويلي الأول المعتمد لدى المفسرين [...]» حيث تلعب الدائرة الصغرى المرتبطة باللغة دوراً هاماً في عملية الفهم والتفهم»^(٢).

• المدخل الصرفي الاشتقاقي

بعدها عرض الدكتور بازي دائرة اللغة باعتبارها آلية تأويلية لا مناص لمقارب الخطاب منها، ساق قولين للمفسرين في أثناء تأويلها للفظ "الله"، قصد تبيان أهمية الصرف والاشتقاق في العملية التأويلية.

ويأتي الصرف والاشتقاق في المرتبة الثانية بعد أن يتعذر على المؤول الوصول إلى المعنى اللغوي للكلمة مباشرة، «فبالصرف يعرف المفسر أبنية الكلمات وموازينها

(١) - التأويلية العربية، ص ١٦٠.

(٢) - نفسه، ص ١٦٧.

وصيغها، فإذا هو وجد كلمة مبهمة استطاع تصريفها معرفة مادتها ومعناها، ومن جهل علم التصريف تعرض لأخطاء مضحكة في التفسير»^(١).

وفي إطار تتبع الدكتور بازي لتأويلات المفسرين، يتبين له أن الصرف والاشتقاق حاضران عند كليهما، «رغم اختلاف تصوراتها وخطيبتها في العمل؛ أي إنها ينطلقان معا من نسق ثقافي واحد، يولي النص عناية كبرى ويؤمن بأدوار اللغة وضرورة تقصي أصول الكلمات [...] ذلك أن البحث في الأصل الاشتقاقي للفظة يساعد المؤول على استحضار مادة لغوية غنية، فيختار منها ما يلائم المساق الكلامي الذي وضعت فيه»^(٢). غير أن المؤول المفسر غير مطالب بالوقوف عند كل لفظة في الخطاب المقارب من أجل إرجاعها إلى أصلها الاشتقاقي، ومن ثم إلى الأصل اللغوي، وإنما حسب، في ذلك، أن يقف عند تلك «الكلمات التي يجد فيها المفسر إشكالا»^(٣).

• المدخل النحوي

فإذا كان الصرف يختص ببنية الكلمة وما يطرأ عليها من تغيير، فإن النحو قد اختص ببنية الجملة، وما يعترى أواخر الكلم فيها من نصب ورفع وجر وجزم، أو فتح وضم وكسر وسكون، وهذا الاختلاف في علامات الإعراب، وكذا البناء، تتولد عنه دلالات يستثمرها القارئ البليغ في استجلاء المعنى وتحصيل الفهم. يقول السيوطي: «المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب فلا بد من اعتباره»^(٤). وهذا ما جعل الدكتور بازي يقص أثر مفسريه (الزمخشري وابن كثير)، ويرصد كيفية اشتغال آلية النحو ودورها في رفع الحجاب عن المعنى. من خلال تأويلها للباء في قوله تعالى (بسم الله).

(١) التأويلية العربية، ص ١٦٨.

(٢) - نفسه.

(٣) - نفسه.

(٤) - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، نقلا عن التأويلية، ص ١٦٩.

إن الغاية التي إليها يسعى محمد بازي، هي المقارنة بين المفسرين في طريقة الاشتغال على الدوائر عامة، ودائرة النحو خاصة، قصد بناء معنى للخطاب انطلاقاً من دلالة الجملة.

• المدخل البلاغي

يقف الدكتور بازي مع مفسريه عند بنية نصية أخرى وهي (البلاغة)، التي لطالما عدها المفسرون «عمدة التفسير... وهي قاعدة الفصاحة وواسطة عقد الفصاحة»^(١). ويرى بازي أن «بناء المعنى من خلال هذا المستوى لا يتم بمعزل عن استحضار أشباه ونظائر نصية قرآنية أو شعرية»^(٢)، أي إن المعنى يكون ثاوياً في النص عن طريق البنيات النصية الصغرى، ثم تأتي الموازيات الخارجية، بعد ذلك، لتستدل على إمكان هذا المعنى أو ذاك.

• مدخل القراءات

ليس الاختلافُ الحاصلُ بين قراءة وقراءة أخرى من حيث الشكل، والإعراب، والنطق، ضرباً من التنوع الذي لا طائل منه، بل إن «ثبوت أحد اللفظين في قراءة قد يبين المراد من نظيره في القراءة الأخرى، أو يثير معنى غيره. لأن اختلاف القراءات في ألفاظ القرآن يكثر المعاني في الآية الواحدة»^(٣). لذا، قدم بازي، من خلال قولي الزمخشري وابن كثير في لفظة (مَلِكٍ)، دليلاً على الدور الذي تؤديه القراءات واختلافها «في التأويل وبناء المعنى وتوجيه الدلالة»^(٤). فخلص إلى أن القراءة «مؤشر نصي يتعقبه التأويل، بهدف استخراج المعنى "الصحيح"»^(٥).

(١) - الزركشي، نقلاً عن التأويلية، ص ١٧٠.

(٢) - التأويلية العربية، ص ١٧١.

(٣) - ابن عاشور، نقلاً عن التأويلية، ص ١٧٢.

(٤) - التأويلية العربية، ص ١٧٢.

(٥) - نفسه، ص ١٧٣.

٢- الدوائر الكبرى

إذا كانت المنطلقات النصية تدور في النص ولا تتعداه بنفسها، فإن الموازيات الخارجية قد سخرت لخدمتها، قصد الحكم على المعنى إما سلبا أو إيجابا. والمقصود بها، بحسب الدكتور بازي «كل اشتغال بالفهم يعتمد على شكل معرفي أو نصي من خارج البنية النصية موضوع الفهم»^(١)، فهي تشمل الآتي:

- ✓ معطيات حول السورة؛
- ✓ الموازيات القرآنية: تفسير القرآن بالقرآن؛
- ✓ الموازيات الحديثية: آلية التوضيح؛
- ✓ قول الصحابي: تطعيم المعنى؛
- ✓ الشواهد الشعرية: العودة بالمعنى إلى أصوله؛
- ✓ الاستدلال على مسألة لغوية؛
- ✓ الاستدلال على مسألة بلاغية؛
- ✓ الاستدلال على مسألة نحوية؛
- ✓ الاستدلال على مسألة دلالية؛
- ✓ الاستدلال على إمكان الاشتقاق؛
- ✓ موازيات نصية أخرى.

وقد حاول الدكتور بازي تتبع المفسرين، فوجدهما لا يدخران جهدا في تسخير هذه الآليات من أجل رفع لبس عن معنى أو ترجيحه على غيره.

وفي الأخير يخرج الدكتور بازي بحكم مفاده أن «التأويلية العربية القديمة [قد شكلت] من خلال التفاسير نموذجا حيا للبلاغة التأويلية، بالتصور التساندي الذي طرحناه، متعدد في مشاربه وواجهاته، وعاكسا صورة التفكير في قضايا بناء المعنى

(١) - التأويلية العربية، ص ١٧٤.

بوجهها الشمولي الذي لا يتقيد بحدود النص، وإنما يعمل جاهدا لتقديم كل المعينات الاستدلالية التي عليها إجماع أو شبه إجماع من طرف الثقافة المؤسسة لهذا الخطاب ولآلياته القرائية»^(١).

➤ التساند وتجلياته

قد لا يجد القارئ عناء في الوصول إلى ما سعى إليه الدكتور بازي حين اتخذ من تفسيري هذين العَلَمَيْنِ نموذجا ليجلي مواطن التساند بين الدوائر الصغرى ونظيرتها الكبرى، إلا أن ذلك التساند المنشود قد بدا باهتا بعض الشيء، وكأن كل دائرة تعمل لوحدها، وبمعزل عن أختها، ونحن نرجع ذلك، والله أعلم، إلى أسباب، هي:

أولهما: أن المفسرين لم يظهرا التساند بين الدوائر بشكل جلي، لأنها يدركان، تمام الإدراك، أن الكلام في هذا المقام موجه إلى قارئ يعول عليه في هذا الباب، فهو يستطيع الجمع والتوليف بين الأمور وإن تباعدت. وفي هذا يشير د.بازي إلى أن المفسرين لم يضعوا «في مقدمات تفاسيرهم، خطوات جزئية إجرائية تتبع، بشكل دقيق في عمليات الفهم وبناء المعنى. لكن الباحث المتأني لقراءتهم المتباعدة في استراتيجياتها وأهدافها، يكتشف بنية عميقة، تكاد تكون موحدة، في طرائق الفهم؛ منطلقها الأبنية النصية الجزئية (دوائر النص الصغرى)»^(٢).

ثانيهما: أن الدكتور بازي لم يكن غرضه المعنى المتوصل إليه من هذا العرض، وإنما كان همه هو رصد تلك الدوائر الصغرى باعتبارها منطلقا قرائيا يسهم في بناء المعنى. يقول الدكتور بازي: «ولا يهمننا، هنا، تتبع محتوى وتفصيل ما قدمه كل واحد منها، ولا حدود صحة ما قدم، بقدر ما يهمننا التأكيد على هذه المسارات النصية التي يعتمدها الفعل التأويلي، فالمعنى لا يتشكل إلا من خلال ما تقدمه مواد النص وأبنيته»^(٣).

(١) - التأويلية العربية، ص ١٨٧.

(٢) - نفسه، ص ١٧٣.

(٣) - نفسه، ص ١٧٢.

ولعل في كلام الدكتور بازي، ما يثني، إلى حد بعيد، بإحساسه بهذا الأمر، فاستدرك بقوله: «إن النحو لا يعمل لوحده مستقلاً عن أجهزة قرائية أخرى موسوعية، ولغوية، وعرفية»^(١). ويضيف قائلاً: «وليس معنى هذا أن القراءات التي تمت في هذا الصدد فصلت بين المستويات القرائية، واتبعت تراتبية محددة أثناء العمل بها، وإنما طبعها التداخل والتعاون والتساند؛ فالنحو يتقاطع مع اللغة، ومع الشواهد القرائية، والحديثية، والشعرية، وغيرها»^(٢). كما أن وقوع الاختيار على سورة الفاتحة «لم تسمح للمؤولين بإبراز القوة [التساندية، ولكن] ذلك يتضح أكثر في تتبع التأويل الكلي للنص القرآني»^(٣).

بعدما عرضنا تقصي الدكتور بازي لتأويلي الزمخشري وابن كثير، بشكل مقتضب، سنحاول نحن كذلك أن نؤجّر تصورنا لمفهوم التساند من خلال تأويل قوله تعالى: [اقرأ باسم ربك الذي خلق] [العلق: ١].

أولاً: المنطلقات النصية

١- (اقرأ)

في سبيل الكشف عن معنى مفردة (اقرأ) انطلقنا من اللغة، فتوصلنا إلى معان عدة هي: (الجمع، الضم، القرن، الرمي والإلقاء). من ثم، افترضنا أن الفعل (اقرأ)، هنا، غير محمول على القراءة بمفهومها الضيق الذي لا يتجاوز ما كتب على الألواح أو سطر في الأسفار، بل إنها قراءة تفكر وتدبر. وإذا كان ذلك كذلك، فإن القارئ، عند قيامه بالتفكير خاضعٌ لمبدأ المعاني اللغوية التي أسفر عنها الفعل (اقرأ)، بمعنى أن القارئ (المتفكر) إذا أقبل على فعل التفكير، فإنه لا يقوم، بذلك، على نحو من الفوضى، بل إنه في المرحلة الأولى، أي عند مواجهة المتفكر فيه، يجمع كل ما يستقبله ويستطيعه من معلومات، ثم يشرع، بعد ذلك، في ضم كل معلومة وقرنها مع التي تناسبها إلى أن

(١) - التأويلية العربية، ص ١٧٢.

(٢) - نفسه، ص ١٧٠.

(٣) - نفسه، ص ١٨٥.

يخلص إلى نتيجة معينة تكون محصولاً لتفكره. ثم تأتي المرحلة الأخيرة، وهي مرحلة الرمي والإلقاء؛ أي إنه سيحاول برميهِ وإلقائه تبليغ ما حصَّله من عمليات تفكره. ثم بعد ذلك، انتقلنا إلى علم النحو، بغية تعضيد ما افترضناه، فأفدنا منه، غياب مفعول فعل متعدٍ يقتضي مفعوله؛ أي إن الفعل (اقرأ) منزل منزلة ما لا مفعول له، والظاهر من وراء هذا الإنزال، بحسب علم البلاغة، أنه عز وجل، والله أعلم، أراد من رسوله، ﷺ، مجرد الاتصاف بالحدث^(١)، الذي هو القراءة (التفكر)، فلو قدر المفعول به، لخرج الأمر، بذلك، من استغراق المقروءات إلى تخصيص بعضها دون بعض؛ لأن ما يقرأ لا ينحصر فيما هو مكتوب فحسب، بل إنَّ كلما تطاله البصيرة والبصر من مخلوقات، يمكن أن يقرأ، قصد التفكير فيما خلق الله عز وجل.

إن القراءات، أيضاً، قد خدمت غرضنا، عن طريق ورود قراءة من يحذف ألف (اقرأ)، فخرجنا هذه القراءة على أن الحذف على مستوى بنية الفعل (اقرأ) دل على الاقتصاد؛ أي: أن الإنسان مطالب بأن يقتصر، إذا ما أقبل على التفكير، على ما ينفعه، وأن يذكر ما يضره ويحذفه؛ لأن التفكير إن جاز في المخلوقات كلها، فهو ممتنع في الخالق سبحانه وتعالى، لورود حديث في هذا الباب.

٢- (باسم ربك)

أ- (اسم)

نهجت معظم المعاجم العربية ترتيب مداخلها المعجمية اعتماداً على جذور^(٢) الكلمة، إما بتقليب أصولها^(٣)، أو تدويرها^(٤)، وذلك لوعي واضعيها بإسهام تغير مواقع الجذور واختلافها في بناء المعنى، لأن اللغة قد لا تصل إلى المعنى، غالباً، إلا

(١) - هذا التحليل مقتطف من بحثي لنيل شهادة الإجازة، وعنوانه: "أثر التطلب في صناعة الخطاب التفسيري عند أبي حيان الأندلسي من خلال تفسيره البحر المحيط الآية الأولى من سورة العلق نموذجاً"، إشراف الدكتور مولاي علي سليمان الموسم الدراسي: ٢٠١٦/٢٠١٧.

(٢) - ينظر: معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، دار ابن كثير، ط ١، ٢٠١٧، ج ٢، ص ٩٣-٩٧.

(٣) - الأصول: اصطلاح الصرفيين العرب القدماء، والجذور: اصطلاح الصرفيين المحدثين.

(٤) - كما فعل الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) في معجمه.

باستنادها إلى علم الصرف، كما هو الشأن بالنسبة للفظة (اسم). لذا، لما أعوز اللغويين معنى مفردة (اسم)، راحوا يطلبونها من علم الصرف، ليخلصوا إلى معنيين، أولهما: العلو والارتفاع، وثانيهما: السمة أو العلامة.

فبعد عرضنا لما ضمن في المعاجم والقواميس، يتبادر إلى الذهن أن الأصلين متباعداً لا رابط بينهما، بيد أن الأمر ليس كذلك، لأن الاسم، إن كان يعني العلو والارتفاع من جهة، والسمة والعلامة من جهة ثانية، فإن من شأن من علا وارتفع عن الناس أن يوسم بعلامة تميزه عن غيره، حتى لا يُساوى بمن دونه. والله، سبحانه وتعالى، بعلوه وارتفاعه، استحق العبادة وحده لا شريك له، وأولها عبادة الاستعانة التي عضدها تقدير (باسم ربك) مستعينا.

ب- (ربك)

أفدنا، من المستوى اللغوي، معاني عدة لكلمة (رب)، جاءت كآلاتي: لزوم الشيء، إصلاح الشيء، ضم الشيء، والترية.

إن المعاني اللغوية التي ذكرتها المعاجم، أعلاه، لمفردة (رب) تعضد المعنى الذي نرومه، وندافع عنه، وهو أنه، ﷺ، لما أمر بالتفكير مُستعينا (باسم ربه)، وجب في حق المستعان به أن يكون ربا؛ أي: لا بد أن يكون قائماً على إصلاح شأن مربوبه، ملازماً له في كل أحواله، رازقاله بالتدرج من يوم أن كتب رزقه إلى ما شاء الله، سبحانه وتعالى، يقول أبو حيان: «وانظر لحسن مجيء الرب فإنه السيد والمصلح، وجدير بمن كان مالكا أو مصلحا أحوال العبد أن يخص بالعبادة فلا يشرك مع غيره فيها»^(١). والعبادة، هنا، هي عبادة التفكير التي يأمر بها الله رسوله، ﷺ، وأدى معناها الفعل (أقرأ).

(١) - البحر المحيط، ج ١، ص ٢٣٣.

وهناك شيء آخر، وهو أن لفظ (رب) مشعر بربوبيته^(١)، سبحانه وتعالى، التي أمر رسوله، ﷺ، أن يتفكر فيها.

ثم انتقلنا إلى المستوى النحوي، لنصف تلك العلاقة بين مكونات قوله تعالى: {باسم ربك}، على أمل أن نستثمر هذا الوصف في رصد الغرض البلاغي منه، فأفادنا المستوى البلاغي علة إضافة (الكاف) إلى كلمة (رب) التي أكسبت الضمير الدال على رسول الله، ﷺ، تشريفاً، وقياماً على أمره، بناء على العلاقة القائمة بين الرب ومربوه.

وعلاوة على ذلك، يعد نصب (باسم ربك) على الحال (مستعينا)، وليس (مفتتحاً)، كما قال بذلك الزمخشري، بمثابة الضامن لترباط هذه الألفاظ (الباء، اسم،

(١) - ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

١- توحيد الربوبية. ٢- توحيد الألوهية. ٣- توحيد الأسماء والصفات.
وقد اجتمعت في قوله تعالى: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً﴾ [مريم: ٦٥]...

*القسم الأول: توحيد الربوبية:

هو إفراد الله عز وجل بالخلق، والملك، والتدبير. [...]

*القسم الثاني: توحيد الألوهية:

ويقال له: توحيد العبادة باعتبارين؛ فباعتبار إضافته إلى الله يسمى: توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلى الخلق يسمى: توحيد العبادة.

وهو إفراد الله عز وجل بالعبادة.

فالمستحق للعبادة هو الله تعالى ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو

العلي الكبير﴾ [لقمان: ٣٠]. [...]

*القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات:

وهو إفراد الله عز وجل بها له من الأسماء والصفات.

وهذا يتضمن شيئين:

الأول: الإثبات [...]

الثاني: نفي المماثلة [...]

وهذا القسم من التوحيد هو الذي ضلت فيه بعض الأمة الإسلامية وانقسموا فيه إلى فرق كثيرة. ينظر: القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد بن صالح العثيمين، ص ٧-١١، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

رب، الكاف)، لأن سنة الله في الكون اقتضت أن يستعين المربوب بربه، والمخلوق بخالقه، في كل حركاته، وسكناته.

٣- (الذي خلق)

بالاستناد إلى المطلق اللغوي استطعنا القول: إن معنى مادة (خ.ل.ق) تفيد الاختراع والتقدير على غير مثال سابق، كما دلت، أيضا، ذهاب رونق الشيء ونضارته. إذا كان النحو قد أمدنا بوصف المكون الذي احتل موقع النعت- الاسم الموصول (الذي) وجملة الصلة (خلق)- للضمير (الكاف) في قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) [العلق: ١]، بدلا عن الاسم (الخالق)، فإن البلاغة قد أبانت عن الغرض الذي يقتضيه الوصف بالاسم (الخالق)، والوصف بالاسم الموصول وجملة الصلة (الذي خلق)، فالأول، لا يؤدي سوى الوصف للموصوف، وأما الثاني، ففضلا عن تأديته الوصف لموصوفه، فقد أضاف له تعظيما لشأنه.

ومادة (خ.ل.ق)، تفيد التعدي، بحسب علم النحو الذي رصد لنا غياب مفعول (خلق) على غرار غياب مفعول (اقرأ).

ثم جاءت البلاغة، بعد ذلك، لتفسر الغرض البلاغي من ورود الحدث ومن قام به دون تعرض للمفعول الذي يتطلبه الفعل المتعدي.

إن أمر الله، سبحانه وتعالى، رسوله، ﷺ، كما أشرنا، عن طريق الإعراض عن المفعول به، بمجرد الاتصاف بالقراءة (التفكير)، يقتضي منه، سبحانه وتعالى، أن يتصف، كذلك، بشيء يكون موضوعا للتفكير، ولعل خير ما يدل على أنه مستحق لعبادة عباده، هي صفة الخلق التي تعد من أجل وأوضح النعم، فكان منه، عز وجل، أن اتصف بها، أيضا، عن طريق ذكر الفعل والإعراض عن المفعول به.

ثانياً: الموازيات الخارجية

لقد ورد في حديث بدء الوحي^(١)، أنه ﷺ، قد فرع من جبريل، عليه السلام، وفرعه هذا فيه دلالة على أن محمداً، ﷺ، لا عهد له بجبريل، عليه السلام، وعدم معرفته بالأمين دليل على أن القرآن لم ينزل بعد، لذا فإن من حمل فعل (اقرأ) على قراءة القرآن، فقد حمل الذي طلبت منه القراءة ما لا يطيقه، إذ من العيب أن يُطلب من عاجز عن فعل أمر أن يفعله، فتناسب، بذلك، حذف المفعول به مع ما يستطيعه عليه السلام من القراءة (التفكر).

ثم إن التساؤل عن حقيقة العبادة التي كان يتعبد بها رسول الله، ﷺ، حينئذ، لله رب العالمين، فنحن نعلم أن العبادات العملية لم تُفرض إلا بعد سنوات من نزول الوحي، بما في ذلك الصلاة. وعليه، لم يبق أمامنا سوى العبادات القلبية التي من شأنها أن تدل المخلوق على خالقه، وفي طليعتها عبادة التفكير التي كان يتعبد بها رسول الله، ﷺ، ساعتئذ، في غار حراء حتى جاءه الوحي، فأمر بالتفكر مستعينا بأوضح صفات الرب جل وعلا، وهي صفة الخلق، لأن معرفة الله لا تدرك إلا بمعرفة أسائه وصفاته، وصفة الخلق من الصفات الجليلة التي لا يختلف فيها بر ولا فاجر، ومن أنكرها، فهو داخل في زمرة من قال فيهم الله عز وجل: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]؛ لذا، حكى الله، عز وجل، عن كفار قريش اعترافهم بربوبيته تعالى في قوله: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

إن إيراد أبي حيان لسبب نزول قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) [العلق: ١] قد أسهم، بشكل أو بآخر، في إجلاء الغموض عن لفظة (اقرأ)

(١) - ينظر: صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولى، ص ٧-٨.

والنأي بها عن المعنى المعهود عند مستعملها (قراءة المسطور)، إلى معنى (التفكر)، لأن الألفاظ لا تأخذ مدلولها خارج سياقها الذي وردت فيه.

وفي الأخير، لا يسعنا إلا القول: إن هذا الطرح النظري التساندي الذي جاء به الدكتور بازي، لحري بأن يتبع في تحليل الخطابات كلها، ولا سيما الخطاب الرباني الذي كلما ارتدت رياضه منحك معاني سديدة يعضد بعضها بعضا بعيدا عن التناقض والتنافر. أما باقي الخطابات البشرية، فإنه، أي الطرح، يعد بمثابة قياس لإتقان صنعته، ودلالة على قدرة صاحبها على نسج الكلام وحيافته، فضلا عن استكناه المعاني والدلالات التي بثها في خطابه.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون- منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى: ٢٠١٠؛
- البخاري محمد بن إسماعيل صحيح البخاري، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولى؛
- العثيمين محمد بن صالح، القول المفيد على كتاب التوحيد، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م؛
- فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

طرائق اشتغال آيات التأويل في خطاب التفسير
"سورة الفاتحة من خلال تفسير الكشاف نموذجا"^(١)

الطالب الباحث: هشام ميري

مقدمة:

أحمدك مولاي عدد ذرات الرمل، وعدد الثمرات والشجر، وما يقدر على عدها
سواك، وأشهد أن محمدا عبدك ورسولك، وعلى آل بيته الأطهار، ما شدت الأطياف،
وأورقت الأشجار.

يقول الدكتور محمد بازي دام عطاؤه، وعظم قدره، وشاع تألقه، في مقدمة كتابه
التأويلية العربية: "هذا نورس التأويل شاخت فيه الحقائق، فولأ أخيرا على موجة
بلاغتها إلى ذلك".

وبعد، تعد التأويلية مغامرة علمية شائكة، ومحفوفة بالمخاطر؛ يظل معها الباحث
كمن يجري وراء السراب، إذ ما يكاد المؤول يطمئن للإمساك بحقيقة المفاهيم
والقوانين التي تحكم عملية التأويل لدى هذا الباحث أو ذاك حتى يعود حائرا تعاوده
حرقة السؤال، ما المعنى؟ وكيف تبنى المعاني في الأذهان؟ وهل من آليات حافرة
تقبض على المعنى؟

وانسجاما مع موضوع بحثنا "طرائق اشتغال آيات التأويل في خطاب التفسير،
سورة الفاتحة من خلال تفسير الكشاف نموذجا" سنتناول قضايا التحول الكيفي
الذي شهدته أسئلة التأويل في مجال النقد الأدبي، والمقام هنا يدعونا لاستحضار
اجتهادات د. محمد بازي رائد التأويلية العربية المعاصرة، والذي أفرد نموذجا تسانديا
في فهم النصوص والخطابات؛ وتكمن جدية المشروع في اقتراح آليتين تأويليتين
تتفاعلان مع مختلف المستويات الداخلية والخارجية التي تقتضيها عملية الإفهام،
يتعلق الأمر باليتي: (التساند والتقابل) وفق سند نظري وإجرائي وتطبيقي يجعل من
هذه التجربة عملا نقديا جادا.

(١) - إشراف وتأطير الأستاذ مولاي علي سليمان

يتوخى هذا المشروع إعادة الاعتبار لنماذج من الآليات الأساسية التي سيقوم عليها النشاط التأويلي، ومنها ما هو سياتي داخلي من (لغة ونحو وصرف وبلاغة...)، ومنها ما هو خارجي قائم على بنيات نصية غائبة، سماها الدكتور محمد بازي بالموازيات الدلالية السياقية؛ وهذه العناصر جميعا تتساند وتتقابل وتتطلب محققة الغاية المنشودة وهي القبض على المعنى.

وفي هذا التساند بين علوم الآلة اتحاد وتكامل، الواحد يكمل الآخر، وكأن صاحب كتاب "التأويلية العربية" استلهمه من عالم التكتلات بين الأمم لتحقيق رفاهية شعوبها، كالاتحاد الأممي الأوربي في تساند دوله، خلق قوة اقتصادية واجتماعية وسياسية يضرب لها ألف حساب، وتجعل الآخر حائرا متسائلا عن سر هذا التساند الذي تحققت به نتائج تنمية مذهلة عادت بالنفع على المواطن الأوربي. هل لهذا الاستلهام من ما هو اقتصادي وتنموي جدير بتحقيق التأويلية المبتغاة في فهم النصوص الأدبية شعرا كان أو نثرا؟

سنجلي في هذا البحث المتواضع الأبعاد التطبيقية للتأويل التساندي عند د. محمد بازي من خلال أجهزة القراءة التأويلية في خطاب تفسيري ذائع الصيت في الثقافة العربية الإسلامية، من خلال كتاب "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" لجار الله الزمخشري رحمه الله، وقد ابتغينا إضافة، عندما استشهدنا بعالم فذ، يعد من المفسرين العظام الذين كان لهم فضل النفع على تفسير القرآن الكريم، وهو العالم الجليل البيضاوي وما قدمه من جهود في تفسير النص القرآني.

وبالعودة إلى الزمخشري، وهو يرصد قنوات بناء معاني سورة "الفاتحة" نستشف اعتمادا على مستويين بارزين هما:

١ - مستوى القراءة التأويلية القائمة على البنيات النصية من (لغة ونحو وبلاغة وصرف وقراءات...).

٢ - مستوى القراءات التأويلية القائمة على البنيات النصية الغائبة، ويقصد بها (النصوص القرآنية، الحديثية، والشعرية...).

مستويان يسميهما الدكتور بازي بالمبادئ المعلنة والمبادئ الخفية، أو الدوائر الصغرى والكبرى.

اعتماد كتب التفسير في تأويل النصوص الأدبية، يكشف عن رؤية عميقة يتسلح بها الدكتور بازي الذي يعي تماما أن علم التفسير من أشرف العلوم وأجلها، لكونه معلق بالقرآن الكريم موضوعا وغاية، وهو أول علم حفظ القرآن وفهمه، لنهل مادته من أعذب المنابع وأصفهاها، وهي القرآن الكريم والسنة النبوية، وعلوم العربية بفروعها (النحو، الصرف، البلاغة...)، هاتهما العلوم في تصافرها وتعالقها تشكل أهم المنطلقات التي ينطلق منها المفسر قصد الوصول إلى جوهر الخطاب وبناء المعنى، وذلك بتعزيزها بالتمتات أو الموازيات الخارجية، التي لها أثر كبير في تأكيد المعنى وترجيحه.

١ - التساند من منظور الدكتور محمد بازي

أقام الدكتور محمد بازي المظهر التساندي للتأويلية العربية على أساس نظري، بدأه بحفر معرفي عميق في طبيعة التأويل في الموروث العربي الإسلامي، فوجد أن التأويلية العربية قائمة على حركتين اثنتين: الأولى، ارتدادية نحو المرجع الديني والعقدي واللغوي والنحوي والبلاغي... والثانية، امتدادية نحو الغاية والمقصد في ما لم ترد فيه نقول، أي: في اتجاه استقصاء المعنى وتكوينه وما يرتبط بذلك من اجتهادات.

وقد ارتقى المؤلف بهاتين الحركتين إلى مستوى البلاغة، بحيث اعتبر الحركة الأولى بلاغة ذهنية، فيما الحركة الثانية بلاغة نقلية. وكلتا البلاغتين تتساند مع بلاغة ثالثة هي بلاغة الترجيح التي تقوم على المعرفة القبلية للمؤولين وذخائرهم.

وحيثما نلاحظ عنوان المؤلف، نلفي أن بازي ارتأى أن يُفصح عن موضوع مؤلّفه وكذا الهدف الذي يتطلع إليه من خلاله، انطلاقاً من عنوانين اثنين: عنوان رئيس، حصر فيه بدقة موضوع عمله في التأويلية العربية. ونرى منجهة أولى، أن اختيار المؤلف مصطلح التأويلية في هذا العنوان بدل مصطلح التأويل لم يكن من باب الصدفة أو الترف العلمي، وإنما جاء ليعزز أن الفعل التأويلي في الثقافة العربية الإسلامية هو نشاط معرفي متنوع له من الخصوصيات ما يمتاز به عن غيره من التأويليات، نظراً لتفرد طبيعة أسئلة النصوص والخطابات العربية الإسلامية، وتنوع مسالك تحصيل الفهم لدى العلماء العرب المسلمين الذين تختلف طرق استنتاجاتهم ومناهج بحثهم تبعاً لتباين تكوينهم المعرفي وانتماءاتهم المذهبية. ذلك أن النحويين والإعجازيين والمفسرين والأصوليين والبلاغيين ونقاد الأدب، وإن تعددت أغراضهم واختلفت اتجاهاتهم، هم قبل كل شيء مؤوّلون، "لكل منهم آلياته في التعامل مع أحد النصوص الأساسية التي انبنت عليه الثقافة العربية، نعني النص القرآني والنص النبوي والنص الشعري ونص كلام العرب"^(١). ومن جهة ثانية، لا نستبعد أن تكون وراء اختيار المؤلف مصطلح التأويلية المنسوب إلى التأويل باعتباره نشاطاً ذهنياً بحثاً يقوم على التفكير والتدبر والتوليد، رغبةً الانتقال بصورة النشاط التأويلي في التراث العربي الإسلامي من كونه "نتاجاً للصراعات الفكرية والمذهبية التي اختزلته فيه بعض الدراسات العربية المعاصرة"^(٢)، إلى صورة الاشتغال الإجرائي المنهجي الذي تحكمه آليات وضوابط فقهٍ خاص يستحق الاهتمام به في ذاته، للوقوف فيه على ما يستحق إعادة القراءة من أجل ترهينه وتسخيره لفهم النصوص والخطابات العربية المعاصرة وإفهامها.

(١) - نصر حامد أبو زيد، فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط. ٤، ١٩٩٨، ص ٩ وما بعدها.

(٢) - السيد أحمد عبد الغفار، النص القرآني بين التفسير والتأويل، ص ٤٤.

وراهن الدكتور بازي على الاشتغال التساندي لمجموعة من العناصر البانية للمعنى والفهم، مستنداً في ذلك بشكل دقيق ومتأن إلى مرجعيات تراثية وغربية حديثة، أكسبت جهده أساساً نظرياً متيناً يعكس إحاطة أعمق، واستيعاباً أوفى للأفكار الجوهرية في مختلف الاجتهادات العربية والغربية حول التأويل. وهو ما يتيح لقارئ المؤلف، مبتدئاً كان أو متخصصاً أكاديمياً، كماً غزيراً من المفاهيم والمعلومات والشروحات والمقارنات والمراجع باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية، أو بعبارة محمد العمري "قَدَّم الكتابُ معرفةً واسعةً في الموضوع الذي تناوله، ومهارةً كبيرةً في قراءة النصوص وتأويلها، مستجمعاً العتاد المناسب لبناء منهج في التأويل، سباه (النموذج التساندي)"^(١).

٢- طرائق اشتغال آيات التأويل في خطاب التفسير

سنعتمد في هذا البحث المتواضع رصد قنوات بناء معاني النص القرآني. قال الإمام أبو إسحاق الشاطبي: "إن في القرآن ما لا يعقل أصلاً كفواتح السور، فإن الناس قالوا: إن في القرآن ما يعرفه الجمهور، وفيه ما لا يعرفه إلا العرب، وفيه ما لا يعرفه إلا العلماء بالشرعية، وفيه ما لا يعرفه إلا الله"^(٢).

يتبين أن النص القرآني مجال مفتوح للتأويل داخل المعايير الموضوعية، فالنص القرآني لا يعطي لأي كان مقومات قراءة نهائية تدعي فهم كل شيء. قال ابن كثير: "فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب أن أصح الطريق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن..."^(٣)، إلى أن قال: "فإن لم تجده فمن السنة"^(٤).

(١) - العمري محمد، قراءة أولية في كتاب التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي المغربية، الجمعة ٢٥ مارس ٢٠١١، العدد: ٩٧٤٠.

(٢) - الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٠.

(٣) - ابن كثير عماد الدين إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط.)، ١٩٦٩، ص ٤.

(٤) - نفسه.

يتضح من كلام ابن كثير الطريقة التي رسمها الرجل لنفسه قبل المفسرين على اعتبار النص القرآني بنية موحدة المقاصد؛ الخاص يوضح العام، والمقيد يوضح المطلق، والواضح يجلي الغامض.

ومن هنا يبدأ التساند لإضاءة مواطن الغموض من خلال القرآن نفسه، أما أن يتعذر على المفسر فهم كتاب الله، ولم يحصل الفهم، فإن المفسر يسلك المسلك الثاني؛ وهو السنة النبوية الشريفة. قال الرسول ﷺ: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"^(١). فالمفسر لكتاب الله يشترط فيه التوفر على زاد موسع من نصوص الحديث، خاصة الصحيح منه. ولا يفهم من هذا تطويع نص الحديث بما يتلاءم مع قصيدة الآيات، حتى لا نسقط في ما ساءه ابن تيمية "التأويلات الباردة"^(٢).

وقد يجد المفسر نفسه عاجزا عن فهم آيات القرآن الكريم، لأنه لم يجد السند من القرآن والسنة، هنا يمكن الاعتماد على قول الصحابي. قال ابن كثير: "وحيثئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من الأقوال والأحوال... كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين المهديين"^(٣).

يحملنا قول ابن كثير على قناة تأويلية ثالثة رُتبت، وبعدها أقوال التابعين. وهو مسار يمكن أن نفهم منه أنه نقلي بامتياز، لارتكاز خطة التفسير عند ابن كثير على الرواية أكثر من الدراية.

قدّم الدكتور الجليل محمد بازي نموذجين لمنهجين في التفسير، كل منهج تفسيري يسلك منحى؛ بين من يشتغل على البنيات النصية أكثر ثم أدوار القارئ المؤول، وبين من اعتمد المادة خارج النصية (النقلية والمروية)، ولكلا المنهجين مقصد واضح في

(١) - السيوطي، الإتقان، م، ج ٢، ص ٣٨٧. وكذا الذهبي، م، ج ١، ص ٤٨.

(٢) - ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، ص: ٧٤.

(٣) - ابن كثير، المرجع السابق، ج ١، ص ٤-٥.

الإمسك بالمدخل الرئيس للفهم والإفهام؛ الأول يمثله الزمخشري، والثاني: ابن كثير. وقد صرح الدكتور بازّي غير ما مرة أن خطة الزمخشري وابن كثير لا يمكن أن تجعلنا -بأي حال من الأحوال- الحكم أننا أمام "أجهزة قرائية تأويلية عند المفسرين"^(١). ويقر الدكتور بازّي بأن الاشتغال على المؤشرات النصية؛ أي (الموجهات الخارجية أو التيمات) "تظل محطة أولية في بناء المعنى"^(٢)، والأمر نفسه بالنسبة للاتجاه الذي يلح على الدراية والعقل، فإنه في حاجة إلى عدد من النصوص الغائبة والأقوال قد تزيل الإبهام، وتوضح المبهم.

أفعال القراءة البانية للمعنى لا بد أن تعتمد خطاب التفسيرين، اعتماد تتلاحم فيه المواد النصية وتتساند من (لغة ونحو وبلاغة وقرارات...) وهي ما سماها الدكتور بازّي بـ"الدوائر الصغرى"^(٣)، مع المواد الخارجية (أسباب النزول، النصوص القرآنية، الحديثية، والمذهبية..) وهذه سماها بـ"الدوائر الكبرى"^(٤).

وسنقتصر على محاولة الزمخشري في كتابه: "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" في تفسير سورة "الفاتحة"، مع تعزيز ببعض ما توصل إليه العالم الجليل البيضاوي في تفسير هذه السورة.

٣- التأويل الدائري: تجلياته واشتغاله

لا بد من التمييز بين التفسير والتأويل، فالمفسرون أصحاب معاني، "مثل الزجاج والفراء وابن الأنباري؛ الذين جعلوا التفسير مرادفاً للتأويل، بما أنه بحث عن المعنى"^(٥).

(١)- بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، ص ١٦٥.

(٢)- نفسه، ص ١٦٥.

(٣)- نفسه.

(٤)- نفسه، ص ١٦٥.

(٥) - نفسه، ص ٢٥.

قال الراغب الأصفهاني: "أكثر ما يُستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني كتأويل الرؤيا، والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية، والتفسير يُستعمل فيها وفي غيرها. والتفسير يُستعمل في مفردات الألفاظ، والتأويل يُستعمل في الجمل"^(١). يفهم من كلام الأصفهاني أن التفسير ينحصر في معرفة الألفاظ ودلالاتها؛ بينما التأويل يرتبط بمعاني الجمل.

ووظيفة التفسير إذن: الإيضاح والإبانة، وهو بهذه الوظيفة يصبح أقرب إلى التأويل، "لأنه يجاوز اللفظة إلى الآية والآيات"^(٢).

فالتأويل في القرآن كما يتصوره د بازي له "معنيان: أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه"^(٣) وقد استدل بقوله تعالى: (هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ) ^(٤)، وقوله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ) ^(٥)؛ والمعنى الثاني، هو "التفسير والبيان عن الشيء"^(٦)، واستدل بقوله تعالى: (نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ) ^(٧)، والقصد هنا التفسير.

يقرب د محمد بازي التفسير بأنه "الوجه الأكمل للارتداد، والتأويل هو الحركة الممتدة في اتجاه بناء جديد لمعنى لم تبيّنه السنة ولا أقوال الصحابة. وهما بلاغتان متساندتان متلاحمتان مفتحتان على بعضهما البعض، داخل مسارات وقيود، ومحكمات، ودوائر متفاعلة فيما بينها"^(٨).

(١) - الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني، تحقيق: أحمد زكي العدوي، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص ٤٠٢.

(٢) - بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، ص ٢٦

(٣) - نفسه، ص ٢٩.

(٤) - سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(٥) - سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٦) - بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، ص ٢٩.

(٧) - سورة يوسف، الآية: ٣٦.

(٨) - بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، ص ٣٣-

هكذا إذن يرسم د محمد بازي مسالك منحدره لأي قارئٍ بليغٍ يريد كشف ما انغلق من المعنى، فالتفسير منطلق لولوج مركبة التأويل، وملامسة رهانات البلاغة التأويلية.

٤- الدوائر النصية الصغرى

انطلاقاً من هذه الدوائر تتحدد معالم الفهم، فهم بلاغة تأويل النص القرآني من علم اللغة، وعلم النحو، وعلم البلاغة... قال السيوطي: "التأويل ما استنبطه العلماء العاملون لمعاني الخطاب الماهرون في آلات العلوم"^(١).

سنحاول إبراز مساهمة اللغة والنحو والصرف والبلاغة... كمبادئٍ معلنة في سبر أغوار معنى سورة الفاتحة، مع العالم الجليل الزمخشري من خلال كتابه "الكشاف"، مستهلين بالمدخل اللغوي لأهميته في تقريب المعنى.

أ- المدخل اللغوي

يبقى هذا المدخل في غاية الأهمية لما له من أدوار في تشكيل الدلالة والوصول إلى الفهم.

قال الزركشي: "فظاهر التفسير يجري مجرى تعلم اللغة العربية، لأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، فما هي مظاهر القراءة التأويلية من خلال هذا المدخل عند الزمخشري؟

قال تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" ⑤.

سنوقف عند كلمة "الرب" الواردة في قوله تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" ⑤. يشرح الزمخشري "الرب" لغوياً بـ: المالك؛ تقول رَبُّهُ يَرْبُهُ فهو رَبٌّ... ولم يطلقوا الرب إلا في الله وحده، وهو في غيره على التقيد بالإضافة وكقولهم: رَبُّ الدار، و**رَبُّ**

(١) - السيوطي جلال الدين، الإتيان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٩١، ج ٢، ص ٣٨٢-٣٨٣.

الناقة^(١): أي صاحبها ومالكها، وقوله تعالى: "ارجع إلى ربك"^(٢)، "إنه ربي أحسن مثواي"^(٣).

- كلمة ربّ مرتبطة بـ "العالمين"، فكيف فسر الزمخشري هذه الكلمة من المدخل اللغوي؟

قال: "العالم اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين، وقيل: كل ما علم به الخالق من الأجسام والأغراض"^(٤). نفهم أن المقصود بالعالمين: أصناف المخلوقات في السموات والأرض والبحر.

ورب العالمين فيه عدول من الأفراد إلى الجمع، وهذا "العدول يخدم حقيقة جليلة، هي تعظيم الله عز وجل وإجلاله بعد حمده وتوق عبادته إلى الارتقاء والرفعة بعد حمده وعبادته والاستعانة به وطلب الهداية منه"^(٥).

و "لما كان الرب بالمنعوت بالرحمة قد لا يكون مالكا، وكانت الربوبية لا تتم إلا بالملك المفيد لتمام التصرف، وكان المالك قد لا يكون ملكا، ولا يتم ملكه إلا بالملك المفيد للعزة، المقرون بالهيبة المثمرة للبطش والقهر المنتج لنفوذ الأمر أتبع ذلك بقوله: (مالك يوم الدين) ترهيباً من سطوات نجمه"^(٦).

(١) - الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، ص ١٧.

(٢) - سورة يوسف، الآية: ٥٠.

(٣) - سورة يوسف، الآية: ٢٣.

(٤) - الزمخشري، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ج ١، ص ٢٠.

(٥) - سليمان مولاوي علي، تعديل العدول في الخطاب التفسيري، جهود البيضاوي في سورة الفاتحة نموذجاً، مجلة اللسانيات وتحليل الخطاب، العدد ١، ماي ٢٠١٥، ص ١٣٤.

(٦) - البقاعي إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج ١، دار الكتاب الإسلامي، السنة: ١٩٨٤، ص ١٤.

لما ذكر الله تعالى أنه (تَمْلِكُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٠١﴾) ناسب ذلك أنه لا معبود سواه، ولا يستعان إلا به. فَمَنَالْحَقِيقُ بِالْعِبَادَةِ إِلَّا الْمَلِكُ؟ ومن الجدير بطلب العون إلا هو؟ فبين الآيتين تمام ارتباط واتصال، وفيهما التفات من الغيبة إلى الخطاب، فإن العبادة وطلب العون ثناء على الله بما هو أهله، فناسب ذلك أسلوب الخطاب في (إياك) و(إياك)"^(١).

وبين الآيتين (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٠٢﴾) بقوله: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿١٠٣﴾) مناسبة،"لما ذكرت هذه الآية (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) العبادة والاستعانة، وأنها يجب أن يكونا لله، ناسب ذلك أن يأتي بآية الدعاء بعد العبادة والاستعاذة فقال: (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) فالدعاء مخّ العبادة، وطلب الهداية من الله إنما هو استعانة به سبحانه أن يوفق إليها، فكان بين الآيتين تمام ارتباط"^(٢)؛ ولاشك أن من تدبر الفاتحة الكريمة، وكل مؤمن مطالب بتدبرها في تلاوته عامة وفي صلواته خاصة رأى من غزارة المعاني وجمالها، وروعة التناسب وجلاله، ما يأخذ بلبه، ويضيء جوانب قلبه. فهو يتدبّر ذاكراً تالياً متيمناً باسم الله الموصوف بالرحمة التي تظهر آثار رحمته متجددة في كل شيء، مستشعراً أن أساس الصلة بينه وبين خالقه العظيم هو هذه الرحمة التي وسعت كل شيء، فإذا استشعر هذا المعنى، ووقر في نفسه، انطلق لسانه بحمد هذا الإله الرحمن الرحيم، وذكره الحمد بعظيم نعمه، وكريم فضله، وعظيم آلائه البادية في تربيته للعوالم جميعاً، فأجال بصيرته في هذا المحيط الذي لا ساحل له، ثم تذكر من جديد أن هذه النعم الجزيلة، والتربية الجليلة ليست عن رغبة ولا رهبة، ولكنها عن تفضل ورحمة، فتعلق لسانه مرة ثانية بالرحمن الرحيم، ولكن من كمال الإله العظيم أن يقرن الرحمة بالعدل، ويذكر بالحساب بعد التفضل، فهو مع رحمته

(١)- الشيخ عبد الحميد كشك، في رحاب التفسير، مركز تفسير للدراسات القرآنية، م١، ج١، ص٦٧.

(٢)- المرجع السابق نفسه، م١، ج١، ص٧٠.

السابعة المتجددة سيدين عباده، ويحاسب خلقه يوم الدين، يقول تعالى: (يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سَعِيًّا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) (١).

فتريبته لخلقه قائمة على الترغيب بالرحمة، والترهيب بالعدالة والحساب، وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح العبد مكلفاً بتحري الخير، والبحث عن وسائل النجاة، وفي هذا أشد ما يكون حاجة إلى من يهديه سواء السبيل، ويرشده إلى الصراط المستقيم، وليس أولى به في ذلك من خالقه ومولاه، فليلجأ إليه، وليعتمد عليه، وليخاطبه بقوله: (إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (٢) وليسأله الهداية من فضله إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق واتباعه، غير المغضوب عليهم بالسلب بعد العطاء، والنكوص بعد الاهتداء، وغير الضالين التائهين الذين يضلون عن الحق، أو يريدون الوصول إليه، فلا يوفقون للعثور عليه آمين. فهل رأيت تناسباً أدق أو ارتباطاً أوثق مما تراه بين معاني هذه الآيات الكريهات؟ (٣)

ب- المدخل الصرفي والاشتقائي

يقول الله تعالى في الآية الأولى من سورة الفاتحة: "بسم الله الرحمن الرحيم"؛ فسرّها الزمخشري بأن "الله: أصله: الإله، فإن قلت لهذا الاسم اشتقاق؟ قلت: معنى الاشتقاق... معنى واحد، وصيغة هذا الاسم صيغة قولهم: أَلِهَ إِذَا تَحَيَّرَ، وذلك أن الأوهام تتحير في معرفة المعبود" (٣).

فالمنحى الصرفي والاشتقائي ساقنا إلى أن "الله" مشتقة من أَلِهَ، وهو الاشتقاق الذي أوصلنا إلى معنى التحير: وهو المعنى القائم إلى الآن من أن الجميع متحير لمعرفة المعبود الخالق القادر العالم سبحانه وتعالى.

(١) - سورة الانفطار، الآية: ١٩.

(٢) - مقاصد القرآن الكريم، ص ٦٦ - ٦٧.

(٣) - الزمخشري، ج ١، ص ١٦.

اعتماد الزمخشري الصرف والاشتقاق، يوضحه السكاكي عندما قال: "تتبع اعتبارات الواضع في وضعه من جهة الأقيسة والمناسبات"^(١).

ذلك أن البحث في الأصل الاشتقاقي للفظة يساعد المؤول على استحضار مادة لغوية غنية، فيختار من المقام المناسب للسياق الكلامي الذي وضع فيه.

والاشتغال على الصرف ليس معناه التعامل مع كل الألفاظ، بل على الكلمات التي يجد فيها المفسر إشكالا.

أما إذا عرضنا رأي البيضاوي، وطريقة تناوله لبعض ألفاظ القرآن الكريم، سنجد أنه يحل ما أشكل على الأنام، لأنه أخذ عن التفسير الكبير والكشاف ومفردات الراغب أمورا كثيرة، فكان غزير النفع، مضيفا لا ناقلا، وكان لا يسأل عن الشيء إلا من كان من أهله ولا يطلب دقائق العلم إلا من أصله، كشف القناع عن محاسن الإشارة وملح الاستعارة "فحل ما أشكل على الأنام، وذلك لهم صعاب المرام"^(٢).

يقول ابن يعيش: "اعلم أن الألفاظ أدلة على المعاني وقوالب لها، وإنما اعتنوا بها وأصلحوها لتكون أذهب في الدلالة"^(٣).

وهكذا وجدنا البيضاوي يبحث في أصل "إلاه" قائلا: "والله أصله إله، فحذفت الهمزة، وعوض عنها الألف واللام، ولذلك قيل يا الله بالقطع، إلا أنه مختص بالمعبود الحق"^(٤).

(١) - السكاكي، مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العالمية، بيروت، ط ١، سنة: ١٩٨٣، ص ١٠.

(٢) - البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمان المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ج ١، ص ١٤.

(٣) - ابن يعيش، شرح الملوكي في التصريف، تح: الدكتور فخر الدين قباوة، المكتبة العربية بحلب، ط ١، ص ١٥.

(٤) - البيضاوي، ٢٦/١.

ويعلل قائلا: "ومن ذلك قولنا "الله" أصله في أحد قولي سيبويه "إلاه" فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وصارت الألف واللام عوضا منها"^(١).

يقول البيضاوي: "واشتقاقه من أله ألوهة بمعنى عبَدَ، ومنه تآله واستأله، وقيل من أله إذا تحيرَ، لأن العقول تتحير في معرفته، أو من ألهت إلى فلان أي سكنت إليه، لأن القلوب تطمئن لذكره، والأرواح تسكن إلى معرفته، أو من أله إذا فزع من أمر نزل عليه، وآله غيره أجاره إلى العائد يفزع إليه وهو يجيره حقيقة أو يزعمه، أو من أله الفصيل إذا ولع بأمه، إذ العباد يولعون بالتضرع إليه في الشدائد... وكان أصله ولاه، فقلب الواو همزة لاستثقال الكسرة عليها استثقال الضمة في وجوه، فقيل إله كإعاء وإشاج، ويرده الجمع على آلهة دون أولهة. وقيل أصله لاه مصدر لاه يليه ولاها، إذا احتجب وارتفع لأنه سبحانه محجوب عن إدراك الأبصار، ومرتفع على كل شيء وعمًا لا يليق به"^(٢).

بدا جليا الجهد الكبير المبذول في تعرف البنية الصرفية لـ"الله" وما طرأ عليها من تغيير في صورة اللفظ استتبعه تغيير في المعنى. والأهم ما تبع هذه التغييرات الصرفية من عرض لمعانيها لغويا حيث وصلت هذه المعاني إلى أكثر من ستة معان منها: التحير، العبودية، الولع والارتفاع وغيرها. وكلها تصلح في حق الله تعالى "فهو المعبود الذي تسكن النفوس إليه، وتولع القلوب بحبه، وتحار العباد في قدرته وتستجيره فيستجيرها، ولا تدركه الأبصار، وهو يدركها"^(٣).

وقد انتبه د مولاي علي سليمان إلى قضية العدول من الأفراد إلى الجمع في قوله تعالى: (رب العالمين)، حيث العدول من الأفراد (العالم) إلى الجمع (العالمين)، مستشهدا بكلام العالم الجليل البيضاوي رحمه الله: "والعالم اسم لما يعلم به... غلب فيها

(١) - شرح الملوكي في التصريف، ص ٣٥٦.

(٢) - نفسه.

(٣) - تعديل العدول في الخطاب التفسيري، ص ١٢٥.

يعلم به الصانع تعالى، وهو كل ما سواه من الجواهر والأعراض. وإنما جمعه ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة، وغلب العقلاء منهم فجمعه بالياء والنون كسائر أوصافهم".^(١) وهو توظيف نحوي يتساند مع الصرفي من جمع الياء بالنون تشبيهاً بأوصاف جمع المذكر السالم، "ذلك أن الجمع بالياء والنون خاص بالعقلاء"^(٢)؛ والعالمين تفيد ذوي العلم، والسامرائي يقول: "فرجح بعضهم أنها تفيد ذوي العلم خاصة أو المكلفين من الخلق، وقيل جمع العالم ليشمل كل جنس مما سمي به"^(٣).

فالإمام بعلم الصرف إذن، يجعل المؤول يقترب من المعنى، والجاهل بهذا العلم قد يقع في أخطاء لا حصر لها، فبالصرف يعرف المفسر أبنية الكلمات وموازينها وصيغها

ت- المدخل النحوي

ساق د. محمد بازّي الآية الأولى في سورة الفاتحة: "بسم الله" ليرينا كيف شرحها الزمخشري من المدخل النحوي، قال الزمخشري: "فإن قلت بما تعلقت الباء؟ قلت بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ أو أتلو... كما أن المسافر إذا حلَّ وأرَّحل قال: بسم الله أحلُّ وبسم الله أرتحل... فإن قلت: لما قدّرت المحذوف متأخراً، قلت لأن الأهم من الفعل والمتعلّق به هو المتعلّق به"^(٤).

على خلاف ابن كثير في تفسيره: "تفسير القرآن الكريم"، فقد قدّر المحذوف مُقدِّماً بالفعل: "ومن قدره بالفعل أمراً أو خبراً نحو ابدأ بسم الله أو ابتدأت بسم الله"^(٥). حيث التقدير بالفعل مُقدِّماً، لكن عندما يكون التقدير بالاسم يأتي متأخراً

(١)- البيضاوي، ج ١، ص ٢٨.

(٢)- فاضل صالح السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص: ٢٧. نقلاً عن مقال د مولاي علي سليمان، م، ص ١٣٣.

(٣)- نفسه، ص ٢٥.

(٤)- الزمخشري، م، ن، ص ١٢-١٣.

(٥)- ابن كثير، ص ١٧.

كما قال ابن كثير: "... تقدير التعلق في قوله بسم الله... تقديره بسم الله ابتدائي" (١).
حيث يذهب مذهب الزمخشري في تأخير المحذوف.

ولإثارة التقديم، نستشهد بقوله سبحانه: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، فالذي يخص بالعبادة والاستعانة هو الله عز وجل، وهو عدول عن "الرتبة الأصلية التي كان المفعول به فيها ضميراً متصلًا (نعبدك) إلى تقديم المفعول به الذي جاء ضميراً منفصلاً (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)" (٢)، وفي هذا "الفصل بين الفعل والضمير في تقديم المفعول به تحققت المعاينة والشهود" (٣)، ولو كان الضمير متصلًا كان "أنسب للغمية" (٤).

وفي قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ): «إِيَّا»: كلمة ضمير خست بالإضافة إلى المضمر، ويستعمل مقدمًا على الفعل، فيقال: إياك أعني، وإياك أسأل، ولا يستعمل مؤخرًا إلا منفصلاً فيقال: ما عني إلا إِيَّاكَ.

وقوله: (نَعْبُدُ): أي نخلص العبادة لك، ونوحك بدعائنا وسؤالنا واستغاثتنا وخوفنا ورجائنا ومحبتنا واستعاذتنا واستعانتنا وذبحنا ونذرنا وركوعنا وسجودنا، وكل ما تحبه وترضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، نخلصه لك وحدك سبحانه ولا نشرك بذلك أحدًا؛ لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا؛ فضلًا عن غيرهما، ونطيعه خاضعين ذليلين محبين لك خائفين راجين، والعبادة: "الطاعة مع التذلل والخضوع والمحبة، وسمي العبد عبدًا لذلته وانقياده؛ يقال: طريق معبد. أي: مذلل" (٥)، وفي هذا التكامل لتقريب المعنى يتساند النحوي واللغة، وتبدي أهمية النحو في الدراسات اللغوية باعتباره مقياسًا للتفريق بين المعاني المتداخلة في مختلف

(١)- ابن كثير، ص ١٧.

(٢) - تعديل العدول في الخطاب التفسيري، ص ١٣٢-١٣٣.

(٣) - نفسه.

(٤) - نفسه.

(٥) - ابن منظور جمال الدين بن محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٩٩٤، ص ١١٨.

التركيبة اللغوية خاصة عندما يتعلق الأمر بالقرآن الكريم. هكذا إذن يسهم النحو في بناء معنى النص القرآني، من خلال ما سبق من أمثلة.

ث- المدخل البلاغي

استشهد د. بأزي بالآية: "إياك نعبد وإياك نستعين" ليرز لنا كيف تعامل معها الزمخشري بلاغياً، قال: "وتقديم المفعول لقصد الاختصاص... فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى الخطاب؟ قلت: هذا ما يسمى الالتفات في علم البيان"^(١)، وقد يكون من الغيبة إلى الخطاب أو العكس وقد يكون: "من الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم) {سورة يونس، الآية ٢٢}... ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن نظرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد"^(٢).

فالالتفات كما يقول الزمخشري فيه تنوع في الأسلوب يجعل السامع متيقظاً ونشطاً لمزيد من الاستماع، والقرآن الكريم مليء بالالتفات، خلاف الأسلوب الواحد الذي يشعر السامع بالملل أحياناً.

فالأبنية البلاغية تبقى أجزاء نصية صغرى، استأثرت باهتمام المفسرين، والمشتغل على تفسير كتاب الله تعالى، لا بد له من التمكن من علمي البيان والمعاني، قال السكاكي: "إن الواقف على تمام مراد الحكيم... مفتقر إلى هذين العلمين كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيها راجل"^(٣).

وقول السكاكي ظاهر بيّن إذ على المفسر الإحاطة بعلمي البيان والمعاني لامتلاك الناصية التي تؤهله على تفسير كلام الله.

(١)- الزمخشري، ج ١، ص ٢٣.

(٢)- نفسه، ص ٢٤.

(٣)- السكاكي، ص ١٦٢.

ج- مدخل القراءات

اختار د. بازي لهذا المدخل آية: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) ليقربنا من الطريقة التي سلكها الزمخشري في اعتماد القراءات كجزء نصي صغير يساعد في بناء المعنى، إلى جانب مداخل أخرى سماها بالدائرة الصغرى من (لغة ونحو وبلاغة وصرف...) تلتئم جميعا لبناء المعنى.

قال الزمخشري: "فُرئ: مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ وَمَالِكِ، وَمَلِكِ بتخفيف اللام..."^(١). إذن نحن أمام قراءتين، فإما أن نقرأها بملك دون مدّ، أو نقرأها بمالك (بمدّ ما) ويستمر الزمخشري قائلاً: " وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ بلفظ الفعل ونصب اليوم"^(٢). وقد خرج بنا أبو حنيفة إلى اعتبار ملك فعلا نصبت اليوم؛ وهذه قراءة أخرى.

ويقدم لنا الزمخشري قراءة ثالثة وهذه المرة مع أبي هريرة قال الزمخشري: "... وقرأ أبو هريرة رضي الله عنه مَالِكِ (بالنصب)، وقرأ غيره ملك، وهو نصب على المدح ومنهم من قرأ مالك (بالرفع)"^(٣).

وفي آخر قوله يعطينا القراءة التي اختارها، قال الزمخشري: " وَمَلِكِ هو الاختيار لأنه قراءة أهل الحرمين."^(٤) بعد أن حدد قراءة أهل الحرمين كقراءة أجدر وأبين دافع عنها باستشهاد من القرآن الكريم عَصَّدَ به كلامه قال: "... ولقوله (لَمِنَ الْمَلِكِ اليوم) (٥)، ولقوله: (مَلِكِ النَّاسِ)^(٦)

(١) - الزمخشري، ج ١، ص ٢١.

(٢) - نفسه.

(٣) - الزمخشري، ج ١، ص ٢١.

(٤) - نفسه.

(٥) - سورة غافر، الآية: ١٦.

(٦) - سورة الناس، الآية: ٣٢.

إن القراءات تأخذها الكلمات شكلا وإعرابا ونطقا جزء من البنيات النصية التي لها دور بارز في توجيه الدلالة وبناء المعنى، فالقراء يوردون كلمة (مَلِك) بقراءات مختلفة: (مَالِك، مَلِك-دون ياء- مَلِيك، مَلِكِي-بالياء- وقد رَجَّح (كما سبق) الزمخشري قراءة أهل الحرمين.

اعتبر المفسرون مدخل القراءات مؤشرا نصيا يتعقبه التأويل، بهدف استخراج المعنى الصحيح في تساند -طبعاً- مع مداخل أخرى كاللغة، والنحو، والصرف والبلاغة... كل ذلك لبلوغ الأرب وهو المعنى القوي والمنسجم.

وتبقى هذه المداخل الصغرى (لغة نحو صرف بلاغة قراءات) في حاجة إلى

متممات سهاها

د. محمد بازي بالموازيات النصية الخارجية .

هكذا إذن يتحدد للمؤول آليات ثابتة في النص، وبين آليات غائبة تقوم بدور الشاهد والمعين لفك أسرار المعنى وإغناء الفهم. تلكم هي آليات التأويل السياقية من: معرفة أسباب نزول الآية أو السورة، الموازيات القرآنية، الحديثية، قول الصحابة، الشواهد الشعرية وغيرها...

٥- الدوائر النصية الكبرى

أو التأويل السياقي، أو فهم النص من خارج البنية النصية، أو الاعتماد على النقلية، أو المواد الخارجية، أو الموازي الدلالي الخارجي ... والمقصود بهذه الآليات أسباب النزول والأخبار والإسرائيليات والنصوص الموازية: (القرآن الحديث الشواهد الشعرية الأمثال الأقوال...) ومعطيات الاتجاه المذهبي للمؤول.

أ- معطيات حول السورة (الفاتحة)

فاتحة الكتاب هي أم الكتاب، لا تصلح الصلاة بدونها، فأنت في كل ركعة تستطيع أن تقرأ آية من القرآن الكريم، تختلف عن الآية التي قرأتها في الركعة السابقة، وتختلف عن الآيات التي قرأتها في صلواتك؛ ولكن إذا لم تقرأ الفاتحة فسدت الصلاة.

وبالنظر في سورة الفاتحة نجد أنها اشتملت على جميع مقاصد القرآن ومعانيه، ويؤيد ذلك ما أخرجه الإمام البيهقي في شعب الإيمان: عن الحسن البصري، قال: "أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة منها: التوراة والإنجيل والزيبور والفرقان، ثم أودع علومها المفصل"^(١).

ويكمن سر سورة الفاتحة الاشتهال على كل معاني القرآن. فمعاني القرآن ثلاثة:

✓ عقيدة: "الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم"

✓ عبادة: "إياك نعبد وإياك نستعين"

✓ مناهج حياة: "اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم"

وكل ما بعد الفاتحة من قرآن يشرح هذه المحاور الثلاثة.

وقد اختلف العلماء في مكيتها أو مدنيتهما، ولحسم الأمر استشهد محمد بازي بقول الزمخشري: "مكية وقيل مدنية، لأنها نزلت بمكة مرة، وبالمدينة أخرى، وتسمى أم القرآن."^(٢)

والزمخشري (وهو يهتم بأسباب النزول) يقدم معلومات حول سورة الفاتحة، متعلقة بمكان النزول وقد نحا الزمخشري طريق الاختصار، لأنه لا يعتمد المنحى النقلي في تفسيره بل المنحى العقلي حيث ركز على المستويات اللغوية والنحوية والبلاغية واكتفى بأقل ما يمكن من المعلومات في هذا المستوى تحديداً.

وهذا المنحى اعتبره الدكتور بازي منحى تقريبا للنص وأجوائه يستطيع به القارئ "التقاط إشارات تتحول لديه إلى معرفة خلفية يُفهم على ضوءها النص."^(٣)

ب- الموازيات القرآنية

يكاد يجزم د. محمد بازي أن ما دل عليه القرآن فهو أسد المعاني؛ لأن بناء معاني أجزاء من النص القرآني على ضوء أجزاء أخرى ملامح بارز في اشتغال المفسر،

(١) - الزركشي، برهان في علوم القرآن، ج ١، ص ٢٤٥، ٢٤٦.

(٢) - الزمخشري، ص ١٧٤

(٣) - محمد بازي، ص ١٧٥.

والزخشي لا يعلن عليه صراحة، لكنك تجده منتشرًا في مساحات كبرى في كشافه، والشاهد القرآني باعتباره موازيا سياقيا خارجيا، يقصد به الدليل في حالات لغوية أو نحوية أو بلاغية أو تأكيد معني من المعاني فمثلا في "إياك نعبد وإياك نستعين"، قال الزخشي: "تقديم المفعول لقصد الاختصاص كقوله تعالى: (قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ بِعِبَادِهِ) (سورة الزمر، الآية: ٦٤)"^(١)، حيث قدم الله (للاختصاص) وهو ما يعضد به تفسيره في "إِيَّاكَ نَعْبُدُ" والمعنى نخصك بالعبادة، ثم يقول: "فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى الخطاب؟ قلت هذا يسمى: الالتفات في علم البيان كقوله تعالى: (حَقَّقْ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ) (سورة يونس، الآية: ٢٢)، وقوله تعالى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا) (سورة فاطر، الآية: ٩)"^(٢).

يأتي الزخشي بنصوص قرآنية ليستشهد على ظاهرة نحوية: (التقديم والتأخير) أو بلاغية: (الالتفات)، وهذا طبعي مادام يحلل البنيات النحوية أو البلاغية قبل تأويلها.

فالآية موضوع التأويل: "إياك نعبد" والآيات المستحضرة تتوازيان دلاليا، فتكون هذه شاهدة على تلك؛ تماما كما فسر: "غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ" إذ المقصود بالمغضوب عليهم اليهود لقوله تعالى: "مَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَغَضِبَ عَلَيْهِ"^(٣). والضَّالُّون هم النصارى لقوله تعالى: "قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ"^(٤).

إن الاستشهاد من القرآن لشرح أجزاء من النص القرآني في ملمح بارز عند الزخشي، وإن كان لا يبوح به في الكشف، والدليل ما سردناه، وعلى طول كشافه

(١) - الزخشي، ص ١٧٥.

(٢) - نفسه، ص ١٧٦.

(٣) - سورة المائدة، الآية: ٦٠.

(٤) - سورة المائدة، الآية: ٧٧.

نجد هذا الاستعمال من وإلى القرآن الكريم، قال الجاحظ: "ولذلك كان مدار العلم على الشاهد والمثل"^(١).

وعلاقة دائما بالتساند من القرآن الكريم نضع سورة الفاتحة وعلاقتها بسور أخرى افتتحت بقوله: (الحمد لله)، حيث تُعد سورة الفاتحة من السور الخمس في القرآن الكريم التي ابتدأت بقوله: (الحمد لله) وهذه السور على الترتيب هي: (الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر) فهي السورة الأولى في ترتيب المصحف؛ وبالنظر في هذه السور الخمس وجدتها جميعاً سوراً مكية، أما عن علاقة سورة الفاتحة بهذه السور، فهناك صلوات قوية، ووشائج متينة بينها، وبيان ذلك فيما يلي: علاقة سورة الفاتحة بسورتي الأنعام والكهف:

فمن الجدير ذكره أن هاتين السورتين أنزلتا جملة واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالنظر في سورة الفاتحة نجد افتتاحها بقوله: (الحمد لله رب العالمين) وكلمة (رب العالمين) فيه إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى تولى تربية خلقه جميعاً بتربية عامة: مادية وروحية، حيث أمدهم سبحانه وتعالى بمقومات العيش والحياة من متاع وزينة وغيرها، كما أمدهم بالأنبياء والرسل والمناهج السماوية؛ إذن المذكور في سورة الفاتحة يشمل المادة والروح فهو رب العالمين، رب السموات والأرض، والإنس والجن، والملائكة، أي جميع المخلوقات.

وتُعد سورة الفاتحة من السور الخمس في القرآن الكريم التي ابتدأت بقوله: (الحمد لله) وهذه السور على الترتيب هي: (الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر) فهي السورة الأولى في ترتيب المصحف؛ وبالنظر في هذه السور الخمس وجدتها جميعاً سوراً مكية، أما عن علاقة سورة الفاتحة بهذه السور، فهناك صلوات قوية، ووشائج متينة بينها، وسنقتصر على سورتي الأنعام والكهف، وليبيان ذلك، نذكر أن هاتين

(١) - الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت، ج ١،

السورتين أنزلتا جملة واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالنظر في سورة الفاتحة نجد افتتاحها بقوله: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وكلمة (رب العالمين) فيه إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى تولى تربية خلقه جميعاً بتربية عامة: مادية وروحية، حيث أمدهم سبحانه وتعالى بمقومات العيش والحياة من متاع وزينة وغيرها، كما أمدهم بالأنبياء والرسل والمناهج السماوية؛ إذن المذكور في سورة الفاتحة يشمل المادة والروح فهو رب العالمين، رب السموات والأرض، والإنس والجن، والملائكة، أي جميع المخلوقات. وأما سورة الأنعام فقد افتتحها الله تعالى بقوله: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) (١)، فالمذكور هنا شيء مادي محسوس وهو: (السموات والأرض والظلمات والنور) فهو يندرج تحت قوله: (العالمين) أي ما سوى الله تعالى. فالمذكور في أول سورة الأنعام كأنه قسم من أقسام ما هو مذكور في سورة الفاتحة.

أما في سورة الكهف فقد افتتحها الله تعالى بقوله: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) (٢). فالتربية هنا تربية روحية فقط، فالكتاب الذي أنزله الله تعالى على سيدنا محمد ﷺ يؤدي إلى هداية الناس، وتربيتهم تربية إيمانية وفكرية وأخلاقية، فالمذكور في سورة الكهف يعتبر قسماً من أقسام ما هو مذكور في سورة الفاتحة.

وإذا ما بحثنا عن علاقة سورة الفاتحة بالمقاصد العامة للقرآن الكريم، سنجد كثير من العلماء تحدثوا عن مقاصد القرآن الكريم وأهدافه، وما ذكره العلماء من مقاصد للقرآن يرجع ذلك كله إلى عدة أمور:

➤ إن القرآن كتاب هداية للإنس والجن.

(١)- سورة الأنعام، الآية: ١.

(٢)- سورة الكهف، الآية: ١.

- إن القرآن كتاب إعجاز.
 - إن القرآن أنزل ليتعبد الخلق بتلاوته.
 - إن القرآن فيه علوم عظيمة ترجع إلى ما يأتي:
 - إن القرآن يحتوي على علم العقائد.
 - إن القرآن يحتوي على علم العبادات.
 - إن القرآن يحتوي على علم السلوك والأخلاق.
 - إن القرآن يحتوي على علم القصص والأخبار وبيان أحوال الأمم^(١).
- وقد يكون التساند من نفس السورة كما سنوضح، قال تعالى: "بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين"، فالاستهلال بآية التسمية استفتاحاً باسمه تعالى، واعترافاً بألوهيته، وبياناً لذكر فضله ورحمته، هو اشتغال بالشكر لله والحمد له فقال: (الحمد لله)، ولما رأى نعم الله تعالى على غيره واضحة كما شاهد آثارها على نفسه، عرف أنه تعالى رب الخلائق أجمعين فقال: (رب العالمين) ولما أثبت بقوله: (الحمد لله) أنه المستحق لجميع المحامد لا لشيء غير ذاته الحائز لجميع مناسباته (الرحمن الرحيم) بقوله: (الحمد لله رب العالمين) أشار إلى أنه يستحقه أيضاً من حيث كونه رباً مالِكاً منعماً فقال: (رب) وأشار بقوله: (العالمين) إلى الدليل الدال على وجود الإله القادر الحكيم، وفيه إشارة إلى أن كل ما سواه فهو مفتقر إليه تعالى، ومحتاج في وجوده إلى إيجاده، وفي بقائه إلى إبقائه ولما كانت مرتبة الربوبية لا تستجمع الصلاح إلا بالرحمة اتبع ذلك بصفتي (الرحمن الرحيم) ترغيباً في لزوم حمده، وهي تتضمن تشية تفصيل ما شمله الحمد أصلاً وتنبهها على أن نعم الله الجليلة.
- غير أن الشاهد القرآني في بناء المعنى لا يمكن استحضاره، إلا من مؤوّل متمكن قادر على استحضار الأشباه والنظائر.

ت- الحديث

(١)- الرازي، التفسير الكبير، ١م، ج ١، ص ١٤٥ / الألويسي، وروح المعاني، ج ١، ص ٣٦ / ابن عاشور، والتحرير والتنوير، ١م، ج ١، ص ١٣٤.

الحديث النبوي في خطاب التفسير يضطلع هو كذلك بدور تأكيد وتوضيحي؛ فالأحاديث مادة غزيرة تُكسب المشروعية والإقناعية في بناء معنى النص القرآني. وقد ساق الدكتور بازي لفظة "أمين" وعرض لقول الزمخشري فيها: "وعن ابن عباس: سألت رسول الله ﷺ عن معنى أمين، فقال: افعل. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: لَقَّنَنِي جبريل عليه السلام أمين عند فراغي من قراءة فاتحة الكتاب، وقال: إنه كالتختم على الكتاب"^(١).

هكذا يتضح كيف يتلاقى الخطاب القرآني مع نصوص متعددة حديثة متباينة الأدوار، لتحديد المعنى بكل دقة تارة، أو تقديم إفادات تارة أخرى حول أهمية السورة.

إن المشروع الواعد الذي قدمه الدكتور بازي - أطل الله في عمره - مشروع سيخدم المشروع الكبير للتأويلية؛ ومشروع فيه من السند المنهجي والعلمي ما يجعله قادرا على الصمود في بناء معنى النصوص منشورها ومنظومها.

ث - أقوال الصحابة

تعدُّ أقوال الصحابة: "آلية تطعم المعاني المبنية"؛ لما شاهدوه من القرآن... ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح"^(٢). وهكذا يتعزز النمط النصي الخارجي بمكون آخر، حتماً سيسند المعنى، ويدفع به إلى الوضوح والانجلاء.

(١) - الزمخشري، ج ١، ص ٢٧-٢٨.

(٢) - ابن تيمية، ص ٩٥.

في سياق تأويل "اهدنا السراط المستقيم"، قال الزمخشري وهو يعزز تفسيره مستلهما من قول الصحابة: "وعن علي وأبي رضي الله عنهما، اهدنا: تَبَّتْنَا، وصيغة الأمر والدعاء واحدة، لأن كل واحد منهما طلب، وإنما يتفاوتون في الرتبة"^(١).
فالصحابة رضوان الله عنهم كانوا أقرب إلى ظروف التنزيل وأسبابه، وعودة المؤلفين إلى هذه المادة النصيَّة المروية معناه وجود تعامل حذر مع الصحيح والضعيف من قول الصحابة.

ج - الشواهد الشعرية

المادة الشعرية مساعدة في إيجاد التخريجات الدلالية القوية، لأنها تستمد السند من كلام العرب الفصيح.

يسوق الدكتور محمد بازي طرائق في المنحى، مستشهدا بالزمخشري وهو يستدل على مسائل لغوية ونحوية وبلاغية ودلالية^(٢).

قال الزمخشري: "ويوم الدين يوم الجزاء، ومنه قولهم: (كما تُدين تُدان)، وبيت الحماسة:

وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدْوَا نِ دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا"^(٣).

نستشف من هذا أن الزمخشري يستشهد بالشعر ليعزز معنى (يوم الدين): يوم الجزاء، حيث من (عمل صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها)، فكما تُدين تُدان، وفي عجز البيت وهو في الحماسة: دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا.

(١) - الزمخشري، ج ١، ص ٢٥.

(٢) - محمد بازي. ص ١٨٠-١٨١.

(٣) - الزمخشري، ج ١، ص ٢١.

خاتمة:

ففيما يخص خطاب التفسير، فقد حاول الدكتور محمد بازي أجرأة تساند الآليات التأويلية فيه انطلاقاً من تفسير الزمخشري سورة (الفاتحة)، فوجد في تفسيره تساند الدوائر الصغرى بمكوناتها المعجمية والصرفية والنحوية والبلاغية... مع الدوائر الكبرى بما يشكلها من معلومات عامة حول السورة، فضلاً عن آيات أخر وأحاديث نبوية وأقوال الصحابة وكلام الشعراء. وهو ما انتهى منه إلى خلاصة مؤداها أن "الخطاب التأويلي غير مكتف بذاته، ولا هو حبيس الآليات النصية وحدها، وإنما هو إجراء لفهم المعاني والوقوف على المقاصد، تتفاعل فيه أنساق معرفية متعددة و تتقاطع فيخطابات ونصوص تقترحها الثقافة، ويتخذها المؤول سنداً صلباً لا غنى عنه.

وقد خلص الدكتور محمد بازي إلى الخلاصة السابقة نتيجة ما قام به من وصف دقيق، ومقارنات هامة كشفت له أهم المسالك المتضافرة في بناء معنى سورة (الفاتحة) في شرح الزمخشري؛ وتبين أن البلاغة التأويلية لا يصلها إلا مؤول بليغ راسخ في العلم.

إن الاشتغال على جوهر البلاغة التأويلية تتطلب الوقوف على الدوائر النصية عند المدخل اللغوي، خاصة مع مؤول عقلي كالزمخشري، لأن المدخل اللغوي يظل مفتاح الفهم، كما أن الصرف والاشتقاق يمثل بوصلة مركزية في بلاغة تأويل النص القرآني، فبالصرف توصل الزمخشري إلى أبنية الكلمات وصيغها، كما أن آلية النحو ركيزة أساس في عملية بناء معاني النص القرآني، وهي الآلية التي ظلت حاضرة واستند عليها المؤول في الكثير من تخرجاته. والبلاغة أيضاً أزاحت أقنعة المعنى في سورة "الفاتحة".

وقد كشف تأويل السورة عن انفتاح التأويل على كل الأشكال التي تقدم معرفة قادرة على إفادة المعنى، بما فيها الانفتاح على الدوائر النصية الكبرى تتفتح على وسائط

سياقية من خارج النص تملأ بياضات النص وإغناء المعنى بموازيات من القرآن والحديث والشعر وغيرها.

لا ينكر الفضل بَارٌّ، وهذا جلي في التصور التساندي والمشروع التأويلي للدكتور محمد بازي، الذي يقر بالأرضية الصلبة التي انطلق منها، ووجد ضالته في التأويلية العربية القديمة، من خلال التفاسير التي أغنت مشروع التأويل الكبير والواعد.

يمكن القول إن مجمل ما تقدم من فقرات هذا البحث المتواضع ما هو إلا إلماعات بسيطة جداً بخصوص قضايا تأويلية كبرى عالجه ابازي بنظرة عميقة، وصارت إضافة نوعية استطاع بها صاحبها أن يحفر أهدوداً منهجياً يميزه ضمن الدراسات العربية المعاصرة المهتمة بقضايا التأويل. ولا بد أن نذكر أن صاحب كتاب التأويلية العربية كرس مساره العلمي كله للتأويل وقضاياها، فضلاً عن تتلمذه لباحثين ممن اختبروا بعمق أسئلة التأويل، وفي مقدمته محمد خطابي ومحمد مفتاح وغيرهما.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، (د.ت)؛
- ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، (د.ت)؛
- ابن كثير عماد الدين إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط)، ١٩٦٩؛
- ابن منظور جمال الدين بن محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٩٩٤؛
- ابن يعيش، شرح الملوكي في التصريف، ط: ١. تح: الدكتور فخر الدين قباوة، المكتبة العربية بحلب؛
- أبو زيد نصر حامد، فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط. ٤، ١٩٩٨؛
- الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني، تحقيق: أحمد زكي العدوي، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)؛
- الألوسي محمود شكري البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، ج ١، ادارة الطباعة المنيرية - تصوير دار إحياء التراث العربي؛
- بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، طبعة منشورات ضفاف الأولى: ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥؛
- البقاعي ابراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج ١، دار الكتاب الإسلامي، السنة: ١٩٨٤؛

- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمان المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.
- الجاحظ أبو عثمان، البيان والتبيين، ج ١، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت؛
- الذهبي حسين، التفسير والمفسرون، دار القلم، بيروت، ط ١، (د.ت)؛
- الرازي فخر الدين، التفسير الكبير، ج ١، المطبعة البهية المصرية، ط ١؛
- الزركشي بدر الدين، البرهان في : علوم القرآن، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨؛
- الزمخشري جار الله، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، ج ١، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر؛
- السامرائي فاضل صالح، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمان، الأردن، ط ٢، سنة: ٢٠٠٢؛
- السكاكي أبو يعقوب، مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العالمية، بيروت، ط ١، سنة ١٩٨٣؛
- سليمان مولاي علي، مقال بعنوان: "تعديل العدول في الخطاب التفسيري، جهود البيضاوي في سورة الفاتحة نموذجا"، مجلة اللسانيات وتحليل الخطاب، العدد: ١، ماي ٢٠١٥؛
- السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٩١؛
- الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ت)؛

طرائق اشتغال آليات التأويل في خطاب التفسير

- عبد الغفار، السيد أحمد، من الدراسات التي سارت في هذا المنحى، كتاب النص القرآني بين التفسير والتأويل، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط. ١، ١٩٩٦؛
- العمري محمد، قراءة أولية في كتاب التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي المغربية، الجمعة ٢٥ مارس ٢٠١١، العدد: ٩٧٤٠.

الأنوال الاستعارية من الصناعة الى التأويل

قراءة في كتاب:

"البنى الاستعارية، نحو بلاغة موسعة"^(١)

الطالب الباحث: الملودي المؤذن

مقدمة:

للاستعارة منزلة واضحة في الدراسات اللغوية والبلاغية القديمة والحديثة. فقد شكلت لدى الكثير من الدارسين محور عناية لما تضيفه للكلام من رونق وحسن، وما تخلقه من معنى ودلالة. ولأنها شغلت عقول النقاد والمفكرين من العرب وغيرهم، فقد تعددت الاتجاهات في دراستها وتفسيرها، مما أسهم في تراكم الإنتاجات حولها. فلم يبق وجه من وجوهها إلا وتم الوقوف عنده مطولا. ورغم الاختلافات في وجهات النظر والمنطلقات، إلا أن الأسس التي تحكمت في مفهوم الاستعارة تقليديا كانت ثابتة. وذلك بوصفها ظاهرة لغوية يعوض فيها لفظ لفظا آخر، على أساس المشابهة. لهذا اعتبرت مجالا جذابا لنقلها للمعاني باعتبارها ركيزة أساس من ركائز الخطاب.

تأتي أهمية هذا البحث في كونه سيسلط الضوء على تطور ظاهرة الاستعارة؛ أي ذلك المفهوم التقليدي الضيق المحصور في الاستعارة اللغوية، القائمة على مبدأ المشابهة بين المستعار منه والمستعار له، إلى فهم أوسع في اتجاه ما سماه الباحث بنظرية الأنوال الاستعارية لتوسيع بلاغة البنى الاستعارية.

من هنا إذن يأخذ البحث مبررات وجوده المتمثلة في تحديد مختلف الروافد التي غذت المنوال الاستعاري، عبر البحث عن أسئلة الاستعارة وتحديد مستوى تحقق فرضية المنوال الاستعاري في مشروعه التأويلي الواعد، وذلك بربطه بمؤلفاته السابقة. وسنحاول، في هذه القراءة لكتاب: "البنى الاستعارية، نحو بلاغة موسعة"، توضيح المبادئ والمنطلقات التي توجه التصور الاستعاري المنوالي عند محمد بازي.

(١) - إشراف وتأطير الأستاذ مولاي علي سليمان

وفي سياق ذلك سنحاول طرح بعض الأسئلة التي يقتضيها موضوع البحث وإشكاله، من قبيل: ما مفهوم الأنوال الاستعارية؟ ما حدود علاقتها بالاستعارة اللغوية التقليدية، وكذا بالاستعارة التصويرية الحديثة؟ أصحح أن الاستعارة بمفهومها القديم أصبحت محدودة الفعالية في الفهم، وأن إمكانات استعارية أخرى بمفاهيم جديدة حلت محلها؟ وماهي الآليات التي يقترحها نموذج استعارة الأنوال التأويلية لفهم الخطاب؟ ثم ماهي الإضافات التي قدمها هذا النموذج المبتكر لإغناء الثقافة الإسلامية والعربية؟ وما هي أهم الأدوات والمفاهيم التي يوظفها في ذلك؟ وقبل هذا وذاك هل نحن فعلا في حاجة إلى مشروع تأويلي موسع موضوعه الاستراتيجيات الاستعارية؟

وللإجابة على هذه الأسئلة جميعها، اتخذ هيكل البحث الشكل التنظيمي الآتي:

- مقدمة.
- شق نظري، تصوري يتعلق بصناعة الأنوال الاستعارية باعتبارها فعلا استراتيجيا، يتجاوز المفهوم القديم للاستعارة. ويشتمل على مباحث متعددة.
- شق تجريبي، يتجه نحو تأويل الأنوال الاستعارية الموسعة وكيفية إنتاجها للمعنى. ويحتوي كذلك على مجموعة من المباحث الفرعية.
- خاتمة.

✓ الاستعارة لغة واصطلاحا

شهدت الدراسات الاستعارية تطورا كبيرا، لصلتها بالعربية وعلومها والقرآن الكريم وعلومه. لهذا نجد لها تعاريف غزيرة، سنقتصر على بعضها فقط.

لغة: الاستعارة مأخوذة من العارية، أي نقل الشيء من شخص إلى آخر، حتى تصبح بذلك العارية، من خصائص المعار إليه.^(١) (بداية الإحالة).

(١) - المطلوب أحمد، معجم المصطلحات البلاغية، المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٣، ص ١٣٦.

الأنوال الاستعارية من الصناعة إلى التأويل

والعارية والعارية: ما تداولوه بينهم وقد أعاره الشيء، وأعاره منه، وعاوره إياه، والمعاورة والتعاور: شبه المداولة، والتداول في الشيء يكون بين اثنين. (١) (بداية الإحالة).

واصطلاحاً: لها تعاريف كثيرة أيضاً سنتقصر على تعريف عبد القاهر الجرجاني في كتابه: "أسرار البلاغة" حيث يقول: "اعلم أن الاستعارة في الجملة، أن يكون اللفظ أصلاً في الوضع اللغوي، معروفاً تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون هناك كالعارية"^(٢).

ويقول أيضاً: "فقد تبين من غير وجه أن الاستعارة إنما هي ادعاء معنى الاسم للشيء"^(٣).

بناءً على ما سبق، فإن الاستعارة بحسب الجرجاني، ادعاء من المتكلم إثبات صفة معينة للمستعير له. ومنه فإن الاستعارة ادعاء، ويعني ذلك ارتباطها بالمعنى دون اللفظ.

يقول الدكتور محمد بازي: "الاستعارة من أقوى أعمدة الدرس اللغوي البلاغي وركائزه، وقد ظلت منطلقاً لاجتهادات كثيرة عربية وغربية قديمة وحديثة، ومع ذلك فالحاجة تظل قائمة لتحليل مظاهر الخطاب الاستعاري الجديد، ورفد الجهود النظرية السابقة وإغنائها ببعض التصورات و المبادئ المناسبة في أفق بناء نموذج استعاري موسع"^(٤).

(١) - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر (د-ط)، (د-ت)، مادة عور.

(٢) - الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تعليق: محمد شاكر، دار المدني السعودية، ط ١٩٩١، ص ٤٣٤.

(٣) - الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تعليق: محمد شاكر، مكتبة الخانجي، للطباعة والنشر، ط-٥، مصر، ٢٠٠٤، ص ٤٣٧.

(٤) - بازي محمد، البنى الاستعارية، نحو بلاغة موسعة، منشورات ضفاف، بيروت، ط-١، ٢٠١٧. ص ١٠.

نلمس، من خلال هذا النص، أهمية الاستعارة، داخل الدرس البلاغي بصفة خاصة والخطاب بصفة عامة. وقد شكلت دائما محفزا على الاجتهاد والبحث من أجل بلوغ فهم موسع لجميع أنواع الخطاب. لكن طريقة تناوله لها فيها كثير من التجديد والإبداع، حيث سيتجاوز بها المنظور التقليدي ليوسع مجال اشتغالها مستندا إلى ما جاء به لايكوف وجونسون في كتابها المشهور " الاستعارات التي نحيا بها" وقد شد انتباهه قولها بأن الاستعارة " ليست مقتصرة على اللغة، بل توجد في تفكيرنا وفي الأعمال التي نقوم بها"^(١).

وإلى جانب اعتماده على تصور لايكوف وجونسون، فقد اهتم محمد بازي أيضا بما طرحه الناقد المغربي محمد مفتاح، في كتابه "مجهول البيان" حول نظرية استعارة النص، أو استعارة السياق^(٢)، بتطعيم من النظرية التفاعلية ومن مبدأي المماثلة والقياس، القادرين على فهم وتحليل بعض الأجناس الأدبية الحديثة التي عجزت البلاغة القديمة - حسب محمد مفتاح - عن تقديم أدوات لفهمها.

ويقرب الباحث رغم ذلك بأن ما قدمه هذا التصور أو غيره يبقى بعيدا جدا عن بلوغ منظور متطور، قادر على خلق آليات جديدة تناسب مستجدات تحليل الخطاب. ويشير إلى أن الدراسات العربية المتأخرة التي اهتمت بالاستعارة، لم تستطع تجاوز البلاغة التقليدية. في حين تمكن البلاغيون الغربيون من تطوير نظرتهم للاستعارة اللغوية ليدفعوا بها خارج دائرة الألفاظ والجمل، في اتجاه اللغة والفكر، والسياسة والعلوم، والصورة، والموسيقى، وغيرها.

(١) - لايكوف وجونسون، الاستعارة التي نحيا بها، ترجمة: عبد الحميد جحفة، دار توبقال، ط - ٢٠٠٩، ص ٢١.

(٢) - مفتاح محمد، مجهول البيان، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ص ٨-٩.

١ - صناعة الأنوال الاستعارية باعتبارها فعلا استراتيجيا، يتجاوز المفهوم القديم

للاستعارة

١-١ - الاستعارة استراتيجية خطابية

يبدأ هذا الفصل بمحاولة الباحث حصر مفهوم المنوال. "يقال في مجال تعليم الكتابة: أنسج على هذا المنوال، أي على هذا الطراز، أو النسق. والمنوال في الأصل منسج خشبي ينسج عليه الثوب، استعرناه - بغرض الحيازة الاصطلاحية - من مجال صناعي أصلي: النسيج والحياكة إلى مجال صناعي فرع: نسج الخطاب بالأدوات والأساليب والبنى الثقافية والأنساق القابلة للاستعارة، وسمينا هذا: "الاستعارة المنوالية". وهي مجموع أفعال الكتابة الصناعية من تخيل، وتخير، ومحاكاة، واقتباس، وأخذ وتطالب، وتجادب بين الخطاب قيد الإنجاز، وبين مجموع المرجعيات الممكنة التي يستعين بها منتجوه، فالكتابة - مثلا - فعل استعاري في مجمله"^(١). ولا يكاد الباحث يستعمل نموذج الاستعارة الأنوالية إلا بصيغ الجمع، في إشارة إلى غزارتها، وتعدد أنواعها، ورحابة مجالاتها، خلاف الاستعارة اللغوية المحدودة الانتشار.

فبعد استعراض تعريف المنوال لغة واصطلاحا، يوضح المؤلف كيف أن الكاتب يعيش على الاستعارات، فهو لا يفتأ يستعير أفكاره ومعانيه كما يستعير ألفاظه، فيما تبقى الاستعارة اللغوية التقليدية في مرتبة تالية تتعلق بتقسيماتها كالتصريحية والمكنية والمجردة، والمرشحة وغيرها. كما تحدث عن استعارات من درجة ثالثة تتولد عن المحاكاة والتخييل، إذ يحاكي الكاتب غيره، كما يتفاعل بوعي مع ما يعرف من النصوص، ويستعير مظهرها الأساليب الفنية أو الشكلية أو الموضوعية أو الحجاجية^(٢). لهذا فالظاهرة الاستعارية ظاهرة إنسانية كونية بامتياز، لا تخص الكاتب

(١) - بازي محمد، البنى الاستعارية، نحو بلاغة موسعة، منشورات ضفاف، بيروت، ط-١،

٢٠١٧، ص ٢٧.

(٢) - نفسه، ص ٢٩.

فقط، بل لا يسلم منها أي أحد على الإطلاق، فعبّر الذاكرة التي تتكون لدينا نصوغ استعاراتنا ولو بطريقة غير واعية.

إذن كيف يصنع الإنسان استعاراته؟

للإجابة على هذا السؤال، ينطلق المؤلف من فكرة أساس مفادها أن الإنسان - بحسب المنظور المنوالي- كائن استعاري بامتياز، فهو يستعير، ويعد - في الآن نفسه - ما يستعيره غيره، ولا يستطيع ولو للحظة يسيرة الابتعاد عن الاستعارة، لأنها مكون أساس مطلوب جدا في حياة الأفراد، فبواسطته تتم عملية التواصل في معناها الواسع، القائم على إنتاج الاستعارات واستهلاكها. ف"الإنسان وفق المنوال الاستعاري كائن استعاري، والاستعارة في حياته مكون هام من مكونات التواصل، لا يتعلق بالكماليات الأسلوبية أو مزيينات الخطاب، ولم تكن يوما كذلك. إنها ناموس وجودي شامل فاعل في الحياة من الصباح إلى المساء، شرقا وغربا، أدبا وعلوما"^(١).

ويبقى عجز الاستعارة بصفة خاصة، والبلاغة العربية عموما عن الإحاطة بكافة العلوم الحديثة، مثل الفنون البصرية والسينما والإذاعة، وراء البحث عن توسيع مجال اهتمام الاستعارة عبر تطوير مفاهيمها التقليدية حتى تستوعب باقي مجالات الحياة الجديدة بكل أطيافها، وهو ما ستتكفل به مقارنة الأنوال الاستعارية، من خلال تخطيطها للأساس اللغوي الذي تقترحه البلاغة القديمة، فيما يتعلق بالفعل الاستعاري. وفي هذا الشأن يقترح المؤلف جملة من الأشكال والصور التي في أحضانها تتم ولادة النماذج الأنوالية. ستتوقف مع بعضها لتحليلها، و لمعرفة الاستراتيجيات والمنطلقات التي أسهمت في بنائها، وفي تأويلها وانتشارها.

١-٢- دور الخطاب في صنع الاستعارة الأنوالية

تشكل الاستعارة المنوالية فعلا استراتيجيا، لا غنى عنه لأي خطاب، كيف ما كان توجهه، وخاصة في الخطابات العلمية والأدبية. ذلك أن الخطاب ليس سوى

(١)-بازي محمد، البنى الاستعارية، نحو بلاغة موسعة، ص ١٧

الأنوال الاستعارية من الصناعة الى التأويل

مجموعة كبيرة من الاستعارات اللغوية، والبلاغية والفكرية والنصية، والأسلوبية والحجاجية والتأويلية^(١).. فالخطاب إذن مهد صناعة الاستعارات الأنوالية من خلال ما يحتوي عليه من نسيج كبير، من المقولات والمفاهيم والتأملات، والأمثال والمكتسبات. فالكاتب وهو يؤلف نصه، لا بد أن يبينه على أنقاض نص سابق.

✓ الحياة تخلق الاستعارة

ينطلق الباحث من حديث شريف : "ابتسامتك في وجه أخيك صدقة"^(٢). الابتسامة دالة على الألفة والقبول، لكنها قد تنقلب لتعكس النفاق والمكر. فهي قابلة إذن لأن تعار. ومثل ذلك ما يجري عبر التمثيل المسرحي والسينمائي، لأن الممثل مجرد مستعير من الواقع. وهكذا فالحياة فضاء شاسع تتناسل فيه الاستعارات، سواء استعارات الوجوه أو الأفعنة. ولأن الإنسان يتقن صنع الاستعارات، فهو قادر على استعارة كل شيء، حتى أحاسيسه لا تسلم من ذلك.

✓ استعارة الإشهار

يظهر بجلاء، عبر الإشهار، الجانب النفعي لصناعة الاستعارة، حيث تحقق الأرباح والمكاسب المادية، إنها إذن أداة تجارية تسهم في تحسين الوضع الاقتصادي للأفراد والمؤسسات. وفي مجال الإشهار تتباين مستويات الاستعارة بين قوة التأثير أو ضعفه. "تستعار الألوان والعبارات والأغاني والأنغام والصور، والعادات الاجتماعية، وتستعار مقاطع الأفلام القديمة وغيرها لتؤدي وظيفة الإقناع والتأثير المرغوب فيه عند المشاهد، ليقتنع ويرغب في شراء البضاعة"^(٣).

✓ محددات الفعل الاستعاري

جاء في "لسان العرب"، مادة عور. العارية ما تم تداوله، والتعاور والمعاورة، شبه تداول الأمر بين اثنين^(٤). أساس الاستعارة والإعارة التعارف بين المعير

(١)-بازي محمد، البنى الاستعارية، نحو بلاغة موسعة، ص ٢٨.

(٢)- نفسه، ص ٣٤.

(٣)- السابق، ص ٣٥

(٤)- ابن منظور، لسان العرب، مادة عور.

والمستعير. أما فساد العلاقة فلا يترك للاستعارة بابا مفتوحا أبدا. ولإنجاح عملية الاستعارة لابد من احترام ضوابطها ومحدداتها، والامثال لها من قِبَل المستعير. "ثم إن من مقومات ما يستعار أن تنتقل لمستعيره منافعها مثلما يحصل للمالك في لبس ثوبه واستعمال ما يملك من الأدوات."^(١)

يطرح الباحث السؤال الآتي: "هل تموت الأنوال؟ أم تتوارى مؤقتا في انتظار من يحييها؟"^(٢). ويجيب عليه: "نجد أن الأنوال القولية، الأدبية ظلت محافظة على تميزها ونقائها مدة طويلة، قبل أن تظهر أنوال أخرى منافسة أو معضدة. فتاريخ الأدب هو تاريخ تداخل الأنوال أو تنقيحها"^(٣).

ولتوضيح ذلك يطرق باب الاستعارات المنوالية، الحية والميتة، ويقصد بالميتة تلك الاستعارات الشائعة التي أنهكت من كثرة الاستعمال، بحيث لم نعد نشعر ونحن نتبادلها أنها استعارة، كقولنا: "غرقت في التفكير"^(٤). وأما الأولى فيعني بها تلك التي تخلق مناسبة لذيدة بين المنوال المستعار، وما استعير له. ويضرب مثلا بتنقيح الأنوال الشعرية، الغزلية والحميرية إلى مجال الشعر الصوفي.

✓ كيف توسع الاستعارة فضاء عملها؟

يذكر محمد بازي أن طبيعة هذا المؤلف، تركيبية اقتراحية^(٥). الأمر الذي جعله يوجز ولا يطيل في التحليل، مقتصر على كل ما يسهم في بيان وجهة طرح الاستعارة المنوالية، ثم يتوقف مع تعريف ابن رشيق القيرواني للاستعارة، على أنها "باب من

(١) - الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، مؤسسة الرسالة، ناشرون. بيروت، ط-١، ٢٠٠٤، ص ٢٣٤.

(٢) - بازي محمد، البنى الاستعارية نحو بلاغة موسعة، منشورات ضفاف بيروت، ط-١، ٢٠١٧، ص ٣٩.

(٣) - نفسه، ص ٣٩.

(٤) - نفسه، ص ٥٩.

(٥) - السابق، ص ٥٠.

أبواب الاتساع في الكلام اقتداراً^(١). وينتقد بشدة الصورة الجامدة التي عرفت بها الاستعارة في البلاغة العربية، وهي الصورة التي ما تزال معتمدة في المدارس والجامعات رغم عمقها أنوالها ومحدوديتها، مقارنة بمثلتها في الثقافة الغربية، التي توفقت في تغيير صورتها. ولأن من طبيعة المنظور المنوالي إزالة الحدود الضيقة لأفعال الاستعارة، أصبح ممكناً الحديث عن العديد من الاستعارات المنوالية، والمنهجية والاستدلالية، والعلمية، والاستعارات التمثيلية، والرقمية والموسيقية، والتشكيلية والتصويرية وغيرها..^(٢) مع عدم إقصاء الاستعارات التقليدية، التي ضاق نوعاً ما مجالها.

✓ استعارة الأمثال والأمثلة

الاستعارة خاصة إنسانية، ونشاط حي وفاعل، له تأثير قوي على مسار حياتنا اليومية، لما يخلقه من سلاسة في التواصل، وما يوفره من حرية كبيرة في الاختيار والاقتراح. حيث نستعمل عدداً لا حد له من الأمثال، في شكل استعارات تركيبية. ذلك أننا نستعير من الثقافة أسناداً جاهزة، فنضمونها خطاباتنا اليومية بهدف الإبداع والإقناع. كما أن للمثال دوراً فعالاً في الشرح والتفسير، وتقريب الصورة من الأذهان لتحقيق الفهم والإدراك، بشكل مثير وجذاب، ولأنه ييسر عملية التواصل، ويفتح الشهية للتلقي، ويطرد الملل من الأذهان، خاصة في ميدان التعليم. ومن نماذجه استعارة القصة أو الحكاية التي تسعى إلى خلق فضاء مشترك بين المعلم والمتعلم. ولقدرتها الكبيرة على استدعاء البيان والاستدلال، تستعار الأمثلة الواقعية من الحياة أيضاً.

(١) - القيرواني ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده تح، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت، ص ٢٧٤.

(٢) - بازي محمد، البنى الاستعارية نحو بلاغة موسعة، منشورات ضفاف، بيروت ط-١، ٢٠١٧. ص ٦٢

✓ استعارة المزج

كل تركيب لغوي مزج، وكل مزج تنتج عنه لغة. وهو فعالية لغوية نشطة ودائمة لا تنقطع. وتمكن هذه القدرة الذهنية الدائبة، من توليد الاستعارات عن طريق عمليات الإسناد والجمع والتوليف بين الكلمات.

✓ استعارة العالم الرقمي

سينتقل الباحث بعد دراسة مصادر الاستعارات الأنوالية ومرجعياتها من الواقع الحياتي المعيش إلى البحث في العالم الافتراضي، حيث طفت على السطح ثقافة التواصل الرقمي بقوة، فلم يعد يسلم منها أي مجتمع إطلاقاً، الشيء الذي منحها قوة استعارية لا يستهان بها، ومن ثمة برزت نماذج استعارية حديثة مثل: استعارة الأسماء والصور والصفات. وهي استعارات قائمة على الأقنعة وعلى التخفي. وقد صار التقمع أمراً مستساغاً بعدما كان مرفوضاً في الواقع الحياتي. فكيف إذن تصنع الاستعارات في العالم الافتراضي؟ وما مظاهر تجلياتها؟

" تحدث في الفضاء الرقمي استعارات لا عد لها ولا حصر، أبسطها وأقربها عملية القص واللصق. فالمتصفح يستعير ما يريد من موارد رقمية بشكل جزئي أو كلي، ويدرجه ضمن ملفاته الخاصة على حاسوبه، أو يتقاسمه مع الآخرين في مواقع أخرى. وتقنية "التقاسم" (Partager) مثلاً وجه من وجوه الاستعارات الأكثر انتشاراً على شبكة النت."^(١)، وأمام هذا الكم من الاستعارات المتناسلة افتراضياً، تبدو الأدوات التي تنتجها البلاغة القديمة عديمة الفائدة، مما استوجب ابتكار حلول أخرى، كالاستئناس بعلوم الحاسوب، وتكنولوجيا المعلومات، وعلوم الأدب، وفن التصوير والتشكيل، وهي أدوات تعمل على فهم بلاغة الرقميات الحديثة.

(١) - البنى الاستعارية نحو بلاغة موسعة، ص ٩٦.

يمثل الهاتف المحمول أحد أوجه الجيل الجديد لأنوال المعرفة الرقمية. إذ تحولت وظيفته الأساس من التواصل إلى استعارة كل وظائف وأنوال باقي وسائل التواصل الأخرى. وهكذا يمكن اعتبار جيلي الحاضر والمستقبل جيلين استعاريين، لتمكن أطفال اليوم من الأنوال الرقمية تلقائياً، وقدرتهم على التفاعل معها بسهولة كبيرة. وستغدو "مدرسة المستقبل هي مدرسة استعارة الأنوال"^(١).

✓ استعارات رمزية

ويمثلها مجموع الأيقونات والأشكال الرمزية التي تتشكل منها واجهة الهاتف المحمول. وهي عبارة عن استعارات أيقونية كتمثيل - بحجوم مصغرة - لما يوجد في الواقع. وهو الأمر نفسه الذي تحمله صفحات المواقع الاجتماعية، ولوحات قيادة السيارات. وهكذا خلقت الاستعارات الرمزية لغة عالمية موحدة، يفهمها الجميع، محققة نسبة عالية جداً في التواصل بفضل طابعها العالمي، وسهولة انتقالها وفهمها.

✓ الاستعارة الهندسية

يقوم هذا النوع من الاستعارات على استعارة النماذج، مثلاً: تمت استعارة التراث الأمازيغي في تصميم المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. إننا نستعير أشكالاً جاهزة لتصميم شوارعنا، ومؤسساتنا، وبيوتنا، بل حتى على مستوى الإشهار نستعير نماذج مقلدة أو مستنسخة.

✓ استعارة الكتابة

بحسب نظرية الأنوال الاستعارية الموسعة التي جاء بها الناقد محمد بازي، يعتبر استعارة كل فعل نأتي به أو قول نشئه ولم يكن في ملكيتنا، وإنما استمددناه من خارج ذواتنا، كيف ما كان مصدر هذا الاستمداد. فلغتنا مستعارة، وأفكارنا مستعارة، ما دامت ملكيتها ثابتة لغيرنا. ولهذا فإن الاستعارات تسيطر في مجال التأليف، وصناعة

(١)-البنى الاستعارية نحو بلاغة موسعة، ص ٩٦.

الكتب، لأن المؤلف يكاد يستعير كل شيء. ماعدا رؤيته للعالم، وطريقة تفكيره، وأسلوبه. فكل كاتب يفتح على ما صنفه غيره في مجالات علمية أخرى، كبيرا كان أو صغيرا. وكأن الكتابة جسر مستعار، يمر عبره ليستعير لغته، وتصوراته وأفكاره. "وإنما يتميز الكاتب عن غيره بمقاصده، أي مجموع المعاني والنوايا الخاصة التي يود تقاسمها مع غيره، ثم طريقته في بناء القول، وإبداعيته في التصوير والمزج والتقديم والاستنساخ والتي تتحول مع التكرار إلى أسلوب خاص به، قابل بدوره أن يستعار من قبل غيره."^(١).

ومن تجليات الفعل الاستعاري في مجال التأليف، نجد ما سماه الباحث، باستعارة "المعروفات الثمينة" لصناعة العناوين المثيرة الجذابة، لما تحيل عليه من بريق العبارة وفخامة الألفاظ، ورونق الإيقاع. إذ تحولت بذلك بعض العبارات المشهورة - رغم أنها مسكوكة - إلى منوال استعاري له وجاهته وقوته. فلاقى نجاحا كبيرا وصار منوالا مستعارا مشتركا، خاصة منوال عنونة الكتب القديمة. أما المصممون فيستعيرون لواجهة وأغلفة الكتب نماذج جاهزة، يوفرها الحاسوب، أو أجهزة النت. وهي استمدادات للوحات تشكيلية. وتتجه هذه الاستعارات لأغراض تسويقية، تكشف عن الجانب النفعي لاستعارة الأنوال.

✓ استعارة الألقاب

لصنع أسماء الناس وألقابهم، تتم استعارتها من الحيوانات، والنباتات، وأحوال الطقس، وغير ذلك، مما قد يثير العجب والاستغراب أحيانا. وثقافتنا العربية تزخر بمثل هذه النماذج التي قد توصف بالمدحية؛ (جالينوس العرب)، أو القدحية؛ (الخطيئة). ولم يكد يسلم شاعر عربي من استعارة اللقب، بل ألفت في ذلك المصنفات

(١) - البنى الاستعارية نحو بلاغة موسعة، ص ١١٢.

الأنوال الاستعارية من الصناعة الى التأويل

مثل: (ألقاب الشعراء) لمحمد بن حبيب. تستعار أيضا أسماء الفرق الرياضية، و أسماء الفنادق والمقاهي، والشوارع، وحتى أسماء الحفلات أضحت مستعارة بشكل مريب. سيقف الباحث بعد ذلك مع استعارة الموت، من خلال نماذج استعارة ألقاب المعارك قديما وحديثا، مثل (أم المعارك) في العراق، قبل أن يستدعي الاستعارة في الاشهار، التي سيلخصها في استعارة الصور، واستعارة الحركة، واستعارة الأصوات. وهو مجال يتمظهر فيه التوجه النفعي لاستعارة الأنوال. إنها ثورة استعارية بكل المقاييس، غطت كل مناحي الحياة.

ويستمر الباحث في سوق نماذج استعارية ذات طابع أنوالي، ليتنقل إلى مجال الحلم، وما يتولد من استعارات غير واعية، تصدر عن العقل الباطني خلال النوم. إنها الرؤى، وما يترتب عنها من استعارات رمزية الدلالة، متحولة عن الواقع الإنساني وفي حاجة إلى تأويل وتفسير.

✓ الاستعارات السياسية والفلسفية

الحياة مصنع ضخم تتناسل منه الأنوال الاستعارية، لتروج فيه أيضا. ومن ذلك ما تقوم به الأحزاب السياسية من استعارة موادها الدعائية، ومن استنساخ للمناويل الاقتصادية والاجتماعية التي تراها ناجحة. أما في الخطاب الفلسفي، فتعتبر الاستعارة إحدى ركائزه الأساس التي لا تقوم له بدونها قائمة. إنها معطى حتمي لا يمكن تجاوزه أو التخلص منه. وهكذا صارت الكلمات تحمل معاني فلسفية مثل: "الجوهر" و "العرض".

✓ استعارة النظريات والمفاهيم

يظهر أن تاريخ المصطلحات والمفاهيم يعرف حركية استعارية - لفظية ومنوالية - نشيطة جددة، لا تكاد تتوقف أو تستقر على حال. ويمثل لذلك باستعارة الجرجاني، لمفهوم "النظم" من المتكلمين. حيث طوره، وأبدع في توظيفه نظريا. أشار كذلك إلى

أن النقد العربي استعار كثيرا من المفاهيم والأدوات، من العلوم الحقة. بل حتى من ميدان النقد العالمي الشاسع، غير أنه أثار هنا إشكالا في غاية الأهمية، يتعلق بكون تلك الاستعارات - كما يرى ذلك جابر عصفور - تتسم بالجمود والتخلف، نتيجة المقارنات الإسقاطية بين الجرجاني وسوسير، أو بين الفارابي وروسو أو غيرهم ..(١)، منبها إلى الفوضى التي تخلقها تلك المفاهيم المستعارة، بسبب التعسف في ترجمتها، وهو ما ينتج تعسفا في التطبيق أيضا. ويقدم مثلا لترجمة مصطلح "الشعرية" وما عرفه من تضارب في الترجمات المتناقضة أحيانا، مما يؤدي إلى سوء الفهم والتشويه

٢- تأويل الأنوال الاستعارية الموسعة وكيفية إنتاجها للمعنى

بعدها أنهى الباحث الحديث عن استعارة الأنوال، وعن أنواعها، وعن كيفية صنعها وتشكلها، وعن قدرتها الخارقة في التوسع للإحاطة بكل مناحي الحياة الإنسانية دون استثناء، انتقل إلى متابعة الافتراضات التأويلية التي تولدها الاستعارات الأنوالية داخل الخطاب، وذلك من خلال دراسة تطبيقية على نص شعري بعنوان: "تذلل في البلدان" وعبر معرفته لكيفية اشتغال استعارة الأنوال التأويلية في بناء الثقافة العربية الإسلامية، حيث سيحلل جملة من المناويل التفسيرية.

برزت المقاربة التأويلية الاستعارية كورش علمي - قائم الذات - من أورش تحليل الخطاب، وهو توجه لا يلغي المقاربة التقابلية الجادة التي جاء بها الناقد نفسه، وهي منهجية قرائية جادة وطامحة أعادت إشكالية التأويل إلى واجهة النقاش النقدي، برده إلى أصوله الأولى المنبثقة عن تفسير النص الديني، بشقيه - قرآن وحديث - بفضل الجهود الجبارة للمفسرين الذين اعتمدوا مناهج واستراتيجيات متباينة، تستند إلى آليات ومداخل مختلفة أحيانا.

(١) - عصفور جابر، قراءة التراث النقدي، مؤسسة عيال للدراسات والنشر، (د،م) ط-١ . ١٩٩١ .

وقد تنبه الباحث إلى ضرورة تبني الطرح التأويلي في مقارنة النصوص الأدبية والتقدية، لتفكيكها واستنباط ما تزخر به من معانٍ غزيرة. فاقترح لذلك ما سماه "بالتأويل التسانديلتقابل". الرامي إلى إحياء مفهوم التقابل البديعي، الكامن في معنى الطباق والمقابلة، و دفعه إلى خوض غمار التأويل الموسع، ومنحه حرارة تعيد له قدرته الفنية، وتزحزحه عن منطقة السبات والجمود.

عاد الباحث، لتطوير مشروعه التأويلي، إلى استنطاق الأنساق التأويلية، العربية والغربية التي راكمها الفكر الإنساني بصفة عامة، فعمل على تشريحها وتحليلها، والوقوف مطولا عندها، عساها تبوح له بالأسرار التي سيؤسس عليها مشروعه التأويلي الرائد، والمتمثل في صياغة مبادئ بلاغة التأويل التي تهدف إلى تقوية السلطة القرائية، واحترام شروط الثقافة التأويلية بين المنتج والمتلقي. وقد وجد ضالته في خطابي التفسير والشرح القديمين. ولعل هذا ما يؤكد العنوان - التأويلية العربية - فوصف العربية كفيلا بذلك. يقول في هذا الصدد: "ما في تراثنا من دقة واحتياطات وخصوبة وتنوع، يغنينا عن التعرف على ما عند الغربيين، لكن مع ذلك نستأنس باقتراحاتهم بما يقوي طرحنا وينير سبيلنا"^(١).

" لا ننظر إلى الاستعارة بوصفها أسلوبا تحسينيا أو حجاجيا يدافع عن مقصد، بل من حيث هي فعل استراتيجي يخترق تفاعلاتنا مع كل ما حولنا ومن حولنا. هذا الفعل الصناعي الاستراتيجي يستدعي منا أدوات تأويلية مناسبة فعالة، ومفاهيم خادمة جديدة تبعا لمستجدات الحياة الاستعارية التي لا تنتهي"^(٢)، يلمح الباحث، من خلال هذا الكلام، إلى أهمية الاستعارة بصفة عامة، في تحريك آلية فعل

(١) - التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، ص ٦٦.

(٢) - البنى الاستعارية نحو بلاغة موسعة، ص: ٤١

التأويل لما يمتلكه من مقومات وآليات تتيح له تحليل الخطاب، والكشف عن معانيه الخفية. ولعل التحليل بالتقابل - بأنواعه - يبقى إحدى أقوى هذه الآليات، فضلا عن آلية التساند، وغيرهما من المقترحات الجادة التي جاء بها الباحث في إطار مشروع نقدي متماسك وواعد. بحيث قد تتضافر جملة من الطاقات التأويلية داخل النص الواحد، لتعطي نتائج باهرة.

ولتوضيح ذلك سوف نتبع كيف يتم تأويل البنى الاستعارية داخل المنوال الشعري الغزلي العفيف، من خلال مناقشة التجربة القولية في الشعر الصوفي.

✓ قصيدة "ندلت في البلدان" متعة التأويل السردي

يذكر الباحث العوامل التي دفعته للتوقف مع نص من شعر الغزل العذري، تتضارب الآراء حول منتجه الحقيقي، أهو قيس بني عامر أم أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري. وكانت المناسبة سماعه لهذا النص ينشد في أحد المحافل الصوفية، مما خلق لديه حيرة حول مصدر النص وغرضه، فقرر - بعد تردد - أن يخوض مغامرة تحليله؛ "بيان إشكالياته المعرفية والتأويلية"^(١). ولعل سبب ذلك التردد ينبع من خوفه من السقوط في حرج التأويل الذي تلوح به بنيتة السطحية القريبة، وما تعلن عنه لغته الواضحة من غرض بين. وقبل مباشرة التحليل، يعلن الباحث عن منهجه المتمثل في تدقيق إجراءات قراءة النصوص، وما يهم الافتراضات التأويلية، وتباين الفهوم، مع أهمية الترجيح سواء بالقرائن السياقية أو النصية، إلى جانب الآليات اللغوية والنحوية والبلاغية، فضلا عن استغلال الأنوال المهاجرة لتوسيع المنظور التأويلي للاستعارة. وكانت الانطلاقة من طبع النص وتوزيعه على فريق من أساتذة اللغة العربية.

(١)-البنى الاستعارية نحو بلاغة موسعة، ص ١٥٥.

يقول: "وضعت لأول مرة تجربتي التأويلية وتجربة كل من حضر - دون إعداد - على محك الاختبار في تفاعل تلقائي جماعي."^(١). ولممارسة التأويل تجرد الباحث من مواقفه وأحكامه الجاهزة المسبقة لتحقيق حيادية التأويل. وكانت البداية من تجريب شكل الإلقاء المؤثر الذي كان أنجح الإلقاء السماعي. وذلك بحثاً عن الخيط الموصل لبقية الخيوط. في إطار ما يسميه الباحث بـ "الإبحار التأويلي" الذي يبدأ من نقطة تموج دلالية صغيرة ثم تأخذ في التوسع والانتشار. وتتبع الإيقاع الموسيقي المتجه إلى داخل الروح تبدأ أولى الفرضيات التأويلية حول معاني النص الطافحة بألم المحبة، وألم العشق الناتج عن فراق المعشوق.

وقد سلك الباحث تقنية الأدراج، حيث ينقله كل درج إلى آخر أعلى مرتبة منه في إشارة إلى تنامي أفكار النص وتراتبيتها.

ويؤكد الباحث على أهمية الآليات اللغوية والنحوية والبلاغية في الكشف عن المعنى، بفضل ما تخلقه من تطالبات تفسيرية. ويوضح ذلك بما تحقّقه بعض الفوائد اللغوية لبعض الألفاظ مثل "التذلل" و "السي" في نقلها للحالة النفسية للشاعر، وهو يحكي بضمير المتكلم. وهي التجربة التي سيتوسع في تحليلها، مركزاً على ما يجلبه التذلل والسي من تضيق للحريات والاختيار، والإحساس بالهوان والذل والتشرد في البلدان البعيدة. وفي خضم التأويل يتساءل الباحث: أهو حب المخلوقين هذا الذي يدعو إليه الشاعر؟ ولماذا يلح على هذا التشارك الجماعي، وقد ضاق به ذراعاً؟ ليخلص إلى أن الكثير من النصوص صارت كالشاعر مسبية متذلة في دواوين ليست منها، بسبب التعسف في جمع الديوان، و في تحديد انتماء بعض النصوص المتعددة الأوجه والمناويل. لأنهم يفعل ذلك، ربما قد تضيع ماهية النص، وتختلط بنصوص أخرى لشعراء آخرين، وهي حالة النص المدروس، المتنازع حول هوية منتج الأصيلي.

(١)-البنى الاستعارية نحو بلاغة موسعة، ص ١٥٥.

ويدعو الباحث إلى عدم التسرع في استنباط التأويلات التي قد تغري بها سهولة لغة النص، لأنها قد تكون مضللة ومراوغة. إنه يحث على مزيد من التأمل والغوص إلى الأعماق وعدم الاكتفاء بالمعنى اللغوي. إذ يواصل مغامرة التأويل، متسائلا عن هوية صاحب النص، ومستحضرا نماذج أخرى من شعره، باحثا عن الطريقة التي بها يتم الانتقال من إبدال إلى إبدال، أي التحول من تجربة حب عادية إلى تجربة محبة صوفية عميقة.

يفترض الناقد انتهاء النص لديوان أبي مدين شعيب^(١) الشاعر المتصوف. لكنه يقول مؤكدا العكس: "وقد ثبت بالقرائن انتمؤها لديوان قيس بن الملوح."^(٢). وهذا التداخل إنما مرده إلى كون النص مستعارا من صاحبه الأصلي، بل تمت إضافة أبيات أخرى إلى النسخة الأصلية، لجعلها تتجاوز مفهوم الاستعارة الأنوالية، إلى محاولة إثبات الملكية الشخصية، وهو ما يعمل الباحث على تحقيقه عبر آلية التأويل. حيث يفترض - في أسلوب طريف - محاورا افتراضيا، يتجاذب معه أطراف الحديث عبر تجربة تأويلية عملية شائقة، تتغيا تحليل النص باعتباره استعارة أنوالية ناجحة. وذلك في قالب سردي ممتع، يجعل القارئ منخرطا بشكل لذيد في تتبع الفعل التأويلي، بل متمنيا أن لا تصل التجربة إلى نهايتها الحتمية مطلقا، لفرط روعتها وجماليتها عرضها، المؤشرة على كفاءة الباحث العالية في انتقاء اللغة المناسبة، والأسلوب الجذاب.

فبعد استدعاء حياة صاحب الخطاب، خاصة منها العلمية والروحية، يسائل الباحث السياق الذي جاء فيه النص، ويشيد بتعدد المسارات القرائية، وصولا إلى قراءة تأويلية متأنية ومثمرة. فعبر السياق تنطلق أول شرارة تأويلية. "المادة السياقية حطب صالح لإشعال النار في فرنك!! التأويلي باستمرار."^(٣). ولكن لا بد من التأنى

(١) - شاعر من أصل عربي، ولد بقطنيانة قرب إشبيلية، سنة ٥٠٩هـ، وتوفي سنة ٥٩٤هـ، جمع ديوانه ورتبه العربي بن مصطفى الشوار، مطبعة الترقى، دمشق، ط-١، ١٩٣٨م.

(٢) - البنى الاستعارية نحو بلاغة موسعة، ص ١٦٤.

(٣) - البنى الاستعارية نحو بلاغة موسعة، ص ١٦٦.

والصبر وعدم استعجال النتائج في ممارسة التأويل، حتى يؤتي أكله. ذلك أن البنية السطحية للنص قد تخفي بنية جد عميقة.

معلوم أن الشعر الصوفي يستعير بقوة أدواته الفنية من حقل الغزليات والخمريات. وهي الحالة نفسها التي مورست على النص المؤول. ويواصل الباحث نجاحاته التأويلية معتمدا مفتاحي، النسق العرفاني لحياة الشاعر، والنسقالمضموني لنصوصه مركزا على مبدأ التقابل: محب/محبوب، وهو مجرد قالب مستعار لنقل التجربة بواسطة تقابل آخر: الشاعر المتألم بالمحبة/المحجوبة البعيدة أو المبعدة. لينقلب إلى التقابل المأمول الخفي: الشاعر/ حب الله تعالى، أو حب الرسول (ص). هكذا إذن يكون الشاعر واقعا تحت تأثير عاطفتين قويتين: عاطفة روحانية صوفية، وأخرى غزلية عذرية، يجمع بينهما التعلق المطلق والمحبة الخالصة. ومنه نلاحظ أنه تم اعتبار منوال الشاعر المحب، مقابلا موضوعيا مستعارا. ولفظ التقابلية؛ جسرا تقابليا للمرور إلى الغرض الأصلي أي التجربة العرفانية، التي استنسخت تجربة قيس ليلى، كنموذج دنيوي غير دائم إلى حب الله عز وجل، وحب الرسول الكريم بلذة دائمة.

✓ استعارة الأنوال والتأويلات

الفعل الاستعاري لا يتوقف، بل دائم التجدد. يتناسل بقوة داخل الثقافة الواحدة، وبين الثقافات المختلفة. وفي مجال التأويل تنشط أكثر حركة استعارة الفهوم والتأويلات، فلا يتوانى المؤول اللاحق من الاستمداد من سابقه، والتزود من مادته، قبل أن يصبح هو الآخر أصلا، قادرا على الإمداد والإعارة. هكذا تصبح التأويلية القرآنية نتاجا جمعيا مشتركا.

• المناويل التفسيرية التقليدية؛ من الرازي إلى ابن عاشور

يتنقل محمد بازي، خلال رحلته التأويلية الناجحة، بين مجموعة من المناويل التفسيرية التي اهتمت بشرح القرآن الكريم وتفسيره، مركزا على أربعة نماذج مشهورة داخل الثقافة التراثية الإسلامية، وقد نهج التسلسل التاريخي، حيث انطلق من منوال الرازي القائم على

الحكمة اليونانية، وعلم الكلام، والفقه، وعلوم اللغة، ثم أتبعه بمنوال البيضاوي الذي استعار ما جاء به الزمخشري والرازي، وقد تميز بالاختصار والدقة، وتصويب المسارات، فهو خلاصة لما وصلت إليه بلاغة التأويل. أما فيما يخص منوال القاسمي المعنون ب"محاسن التأويل" فيؤكد أنه كذلك قد استفاد من سابقه واستعار مناويلهم التفسيرية وعليها أقام منواله، المتميز بكثرة النقول والأقوال والاستشهادات والتأويلات. وقد أحاط في مقدمته بجميع ضوابط النظرية التأويلية القرآنية.

ولأهمية منوال ابن عاشور، فقد فصل فيه كثيرا، فذكر بأنه هو الآخر لم يعدم الأخذ من سابقه. كما لم يعدم التجديد والابتكار، يقول ابن عاشور: "فجعلت حقا علي أن أبدي في تفسير القرآن نكتا لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها، فإن الاقتصار على الحديث المعاد، تعطيل لفيض القرآن الذي ماله من نفاذ."^(١) وقد اعتمد على استعارة بعض الإجراءات التفسيرية من أنوال تفاسير كل من الزمخشري و الرازي والبيضاوي وغيرهم. ومن تلك الاستعارات التي تحقق حولها الإجماع نجد "المعاني، ومدارج الفهم والتفهم، وأسلوب عرض الفهوم، والبناء الحجاجي القوي."^(٢)، وجاءت قوة منواله من أخذه بجميع روافد العلوم الإسلامية ومداخلها على غزارتها وتنوعها. ولم يتوقف عمله عند استعارة الأنوال التأويلية التقليدية فحسب، بل أدخل عليها جملة من الاجتهادات، تمثلت في التصويب والتعديل والرد أحيانا، وقد أظهرت مقدمات تفسيره الضخم، دراية واسعة بحاجات المفسر في جانبيها العلمي والمنهجي. وهو ما أهله ليكون من أقوى المشاريع التأويلية الإسلامية والعربية البليغة، إلى جانب منوال القاسمي.

(١) - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، ج-١، ص٧.

(٢) - البني الاستعارية نحو بلاغة موسعة، ص ١٩٠.

خاتمة:

يخلص الكاتب إلى هذه النتيجة الوجودية الطريفة "ليست الدنيا إلا استعارة يجب تأويلها تأويلاً بليغاً يتناغم مع البلاغة الكبرى التي توجهها، وتوجه غيرها إلى حقيقة الخطاب العابد. وباختصار فالعبد ضيف في حيوات مستعارة، وزمن مستعار سيرد، وروح مستعارة سترجع إلى معير كل شيء"^(١)، لعلنا إذن نسبح في عالم شاسع من الاستعارات غير المحدودة، التي تغطي كل زاوية من زوايا حياتنا دون استثناء. فما علينا إلا أن نحسن تسخير هذا الكم الهائل من الاستعارات الأنوالية حتى نظفر منها بالفوائد الكثيرة، المادية النفعية منها قبل المعنوية. وهذا طبعاً على مستوى العالم الواقعي، الذي أصبح العالم الرقمي يشكلا استعارة كبيرة له، حيث صار فيه كل شيء مستعاراً. وغدت الصور المستعارة تلاحقنا في كل مكان، لتنتقل إلينا العالم الحقيقي في قالب مصغر. فلم يعد هناك شيء بمنأى عن الاستعارة. فالمجهودات العلمية الناجحة، والمفاهيم والخرائط والتقنيات قابلة أيضاً لأن تستعار. ولو توقفت الأفعال الاستعارية، لتوقف النمو الحضاري بأكمله، ولتعطلت الإنتاجية، و لتراجعت الإبداعات. ولا يعني توسيع الفعل التأويلي الاستعاري - ليشمل كل ما في الحياة - قتل الدرس البلاغي القديم أو القفز عليه، بل الاقتراب منه أكثر، والإنصات إلى نبضه لإنعاشه وبعث الروح فيه، بما يتلاءم وروح العصر، حتى نتمكن من بناء فعل تأويلي موسع قادر على استيعاب جميع أقطاب الخطاب.

(١)-البنى الاستعارية نحو بلاغة موسعة، ص ٢٠٥.

لائحة المصادر والمراجع

- ابن منظور جمال الدين ، لسان العرب، دار صادر بيروت؛
- بازي محمد، البنى الاستعارية، نحو بلاغة موسعة، منشورات ضفاف، بيروت، ط ١، ٢٠١٧؛
- الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي للطبع والنشر، ط ٥، مصر ٢٠٠٤؛
- الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تعليق: محمود محمد شاكر، دار المدني السعودية، ط ١، ١٩٩١؛
- عصفور جابر، قراءة التراث النقدي، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، (د،م) ط-١. ١٩٩١؛
- القيرواني ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت؛
- لايكوف وجونسون، الاستعارة التي نحيا بها، ترجمة عبد الحميد جحفة، دار توبقال، ط ٢، ٢٠٠٩؛
- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤؛
- محمد بازي، التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم، بيروت؛
- المطلوب أحمد، معجم المصطلحات البلاغية، المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٣؛
- مفتاح محمد، مجهول البيان، دار توبقال، الدار البيضاء. ١٩٩٠.

الاستدراكات اللغوية للإمام الطيبي على الزمخشري

في سورة البقرة

قراءة تطالبيّة لنماذج تطبيقيّة^(١)

الطالب الباحث: محسن الصالحي

تقديم:

إن كتاب الله عز وجل هو الكتاب الذي لا تدرس حروفه، ولا تنفذ كلماته، ولا يدرك شأوه. وهو الذي عجز العرب والعجم على أن يأتوا بمثله؛ بعدما بهرهم نظمه، وحيّرهم رصفه. وجر بعض فصحاء العرب وعلّيتهم إلى الإيثار بالله، بعدما أثر فيهم سماعه، وجر آخرين إلى الاعتراف بفضله، والانفراد بأسلوبه.

وقد كان للمفسرين الباع الطويل، والقدم الراسخة في استنباط المعاني القرآنية، من الجهة التي يسلكون فيها المسالك اللغوية، ومدّرهم في ذلك الزمخشري رحمة الله عليه في تفسيره "الكشاف"؛ الذي غلبت عليه الأسرار البلاغية للقرآن الكريم، لكن مذهبه العقدي يسوقه في مناسبات كثيرة إلى تطويع العلوم اللغوية لأجل أن تنصر مذهبه العقدي. وكان شرف الدين قد ألف حاشية على كشاف الزمخشري، اهتم فيها هو كذلك باللطائف البلاغية للقرآن الكريم، فعُدّت هذه الحاشية من أعظم الحواشي التي أقيمت على كشاف الزمخشري وأحسنها، ويعضد هذا قول صاحب كشف الظنون وهو يورد أصحاب الحواشي التي على الكشاف بعد أن ذكر قطب الدين الرازي يقول: "والعلامة شرف الدين الحسين بن محمد الطيبي وهي أجل حواشيه في ست مجلدات ضخام"^(٢). لكن الفيصل بينهما هو أنّ الزمخشري معتزلي، وشرف الدين سني، فاحتدم النقاش بينهما من هذه الجهة.

(١) - إشراف وتأطير الأستاذ مولاي علي سليمان

(٢) - حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تح: محمد شرف الدين يالتقايا، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان، ج ٢/ ٢٦٩.

وبسبب هذا الأمر امتدح ابن خلدون شرف الدين الطيبي؛ على ما صنعه في حاشيته؛ لما بين مواطن الاعتزال في كلام الزمخشري، وأمال العلوم اللغوية عامة والبلاغية خاصة إلى الجهة السنية، يقول ابن خلدون في ذلك: "ولقد وصل إلينا في هذه العصور تأليف لبعض العراقيين، وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريز، من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشري هذا، وتتبع ألفاظه، وتعرض لمذاهب الاعتزال بأدلة تزيدها، ويبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة، لا على ما يراه المعتزلة، فأحسن في ذلك ما شاء، مع إمتاعه في سائر فنون البلاغة، وفوق كل ذي علم عليم"^(١).

وقد أقر الإمام الطيبي هو نفسه بأنه يجمع في حاشيته هذه العلوم: البلاغية واللغوية... في سبيل شرح ما غمض من كلام الزمخشري، وفي سبيل إخراج الدقائق القرآنية، وبيان بعض مقاصد الله تعالى من كلامه، يقول في ذلك: "فقد استخرت الله مع قلة البضاعة وقصور الباع في الصناعة—لتصدي شرح مجمله، وحل معضله، وتلخيص مشكله، وتخليص مبهمه، وفسر عويصه، وفك عقوده المورّبة، وتبين قيوده المكرّبة، وانتهاض إحراز قصبات عيون التفاسير، للعلماء النحارير، وخلاصة أفكار المحققين، ونقاوة أنظار المتبحرين؛ المتقدمين منهم والمتأخرين، لتسهيل وعره، وتيسير صعبه، بعد تتبع مظان العلمين المختصين بالقرآن آونة من الأزمان [يقصد علم المعاني والبيان]، والإلتقان على الأساليب البديعية، والأفانين البيانية، وتحصيل غرائب اللغة ما لا يُكاد إحصاء، ولطائف الإعراب ما لا يضبط إملاء، وعلى نكات علم أصول الدين: فقهه وكلامه، واستنباط فروعه وأحكامه، ولم آل جهداً في جهات المنقول، استناداً إلى

(١) - ابن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر بيروت - لبنان، سنة الطبع: ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، ج ١/٥٥٦.

الأصول، وانتساب القراءات المشهورة والشاذة، وبيان وجوهها، وكشف ستورها...^(١).

ولذلك نروم في هذا المقال الوقوف عند بعض استدراكات الإمام الطيبي في حاشيته فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب على الزمخشري في تفسيره الكشاف، بحيث نورد بعض استدراكات الطيبي على الزمخشري البلاغية أولاً؛ لأنها المحور الرئيس عنده ثم نتبعه بالاستدراكات اللغوية الأخرى، مما نراه يدعم الاستدراك المحوري، وهذا ما جعلنا نسّم هذه الورقة بـ "الاستدراكات اللغوية للإمام الطيبي على الزمخشري في سورة البقرة، نماذج تطبيقية".

ولأجل ذلك قسمنا هذه الدراسة إلى النقاط الآتية:

١- استدراكات الطيبي على الزمخشري في الإسناد.

٢- استدراكات الطيبي على الزمخشري في الأمر.

٣- استدراكات الطيبي على الزمخشري في التشبيه التمثيلي.

٤- استدراكات الطيبي على الزمخشري في الاستعارة.

١ - استدراكات الطيبي على الزمخشري في الإسناد

يقول عز وجل: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرِجْمٍ وَيَمْدُؤُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الآية: ١٥].

في الآية الكريمة استتار للمسند إليه، في قوله تعالى (ويمدهم)، وسنرى قول الزمخشري في الآية، بعدها نسمع من الطيبي الوظيفة الدلالية لهذا النوع من الإسناد واستدراكه فيه. قال الزمخشري: "فإن قلت: كيف جاز أن يوليهم الله مدداً في الطغيان وهو فعل الشياطين؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمْدُؤُهُمْ فِي النَّفْيِ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]؟ قلت: [...] لما منعهم الله أطفاه التي يمنحها المؤمنين، وخذلهم بسبب

(١)- الطيبي شرف الدين، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، تح: عمر حسن القيام، جائزة دبي الدولية، ط١/٢٠١٣م، ج١/٦١١.

كفرهم وإصرارهم عليه؛ بقيت قلوبهم يتزايد الرين والظلمة فيها، تزايد الانشراح والنور في قلوب المؤمنين، فسمي ذلك التزايد مدداً، وأسند إلى الله سبحانه! لأنه مسبب عن فعله بهم بسبب كفرهم [وهذا نفياً] لوهم من عسى يتوهم عند إسناد المد إلى ذاته، لو لم يصف الطغيان؛ أن الطغيان فعله [ودفع] في صدر من يلحد في صفاته" (١).

المد في الآية على - رأي الزمخشري - استعمل استعمالاً مجازياً، إذ أُطلق المد وأريد به التزايد في الرين، ولذلك قال: "وأسند إلى الله سبحانه لأنه مسبب عن فعله بهم بسبب كفرهم". إن كان هذا رأيه فماذا يقول الطيبي في ذلك؟ قال: "قوله: (يلحد) أي: يميل عن الحق. هذا تعصب قوي ولفظ فاحش، حيث جمع أهل الحق مع الكفرة بالعطف، وخص الإلحاد بهم. والمعنى: أنه أزال معنى "يمدهم" عن موضعه حيث جعل الإسناد مجازياً، وجعل تزايد الرين بمعنى منع الألفاظ، وأمال "طغيانهم" إلى مذهبه، وليس ما ذهب إليه أولى من العكس؛ على اعتبار الإسناد أولى من اعتبار الإضافة [...] وأن الإسناد إذا جعل مجازياً يشترط أن يكون بين الفاعل الحقيقي وغير الحقيقي تعلق شبه، وإلا لم يصح، لكن له شغف بنصرة مذهبه، وأيضاً إسناد الطغيان إليهم لا يُنافي مذهب أهل الحق؛ لأن فعل العبد يستند إلى الله تعالى خَلْقاً وتقديراً، ويضاف إلى العبد اقترافاً وكسباً" (٢).

رأي الطيبي إذن يجانب رأي الزمخشري؛ فقد رفض أن يكون الإسناد إسناداً مجازياً، بل هو إسناد حقيقي؛ من حيث الخلق والتقدير، ذلك أن من شرط الإسناد المجازي أن يكون بين الفاعل الحقيقي والمجازي نوع مشابهة، وهذا بعيد في هذا الإسناد؛ إذ ليس كمثل شيء سبحانه، لذلك فالمد في الطغيان على حقيقته، خلافاً لما ذهب إليه الزمخشري. ونستشفع بالاستدراكات اللغوية كي نُقر ما أقره الطيبي.

(١) - الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض، ط ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، مكتبة العبيكان - الرياض - السعودية، ج ١/ ١٨٦.

(٢) - فتوح الغيب، ج ١/ ٢١١ - ٢١٢.

أ- الاستدراك الصوتي

إنّ للأصوات العربية أهمية كبرى في بناء المعنى، وقد أولى العلماء قديما وحديثا اهتماما بالغاً لمخارج الحروف وصفاتها وعددها، ابتداء بالخليل بن أحمد في معجمه "العين"، وسيبويه في كتابه "الكتاب"، ثم ابن جنبي في "سر صناعة الإعراب"، هذا من جانب اللغويين. ثمّ إن علماء التجويد والقراءات - هم كذلك - قد أفاضوا وأجادوا إفاضة وإجادة راققتين؛ نظراً للارتباط المتين لهذه العلوم بالقرآن الكريم. وكلامه سبحانه وتعالى كلام حكيم؛ نظم حروفه وأصواته وكلماته وجمله بحكمة بالغة، ولا يمكن بأي وجه ألا يحمل نظمها ذاك أسراراً إلهية، ويعضد هذا الكلام، قول مكّي بن أبي طالب القيسي وهو يتحدث عن كلام الله تعالى ونظم حروفه: "أنزله بلسان العرب الميين، ونظمه في الحروف التي في حكمتها عبرة للمعتبرين، ودلالة للمتوسمين [...] ورتب - تبارك اسمه - لها مخارج تخرج منها عند النطق بها [...] وجعل - جل ذكره - منها القوي في مخرجه والضعيف، كما جعل في مخلوقاته، وجعل منها المشبه لغيره من الحروف، والبعيد الشبه من غيره، كما فعل في مخلوقاته"^(١).

ولنتأمل الآن في حروف الكلمة وصفاتها، حتى نربطها بالسياق المعنوي للآية. يتشكل الفعل "يمدهم" من ثلاثة أصول: الميم والبدال المدغمة في شبيحتها، وهي من حيث صفاتها مجهورة كلها، والجهر أمانة القوة، كما أنّ الهمس أمانة الضعف، إلى هذا أشار ابن الجزري حيث قال في معرض حديثه عن صفات الحروف: "فمنها المجهورة، وضدها المهموسة. والهمس من صفات الضعف، كما أنّ الجهر من صفات القوة"^(٢).

(١) - القيسي مكّي بن أبي طالب، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تح: مكتبة قرطبة للبحث العلمي وتحقيق التراث، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى، ص: ١٢.

(٢) - الدمشقي أبو الخير محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، تح: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ج ١/ ٢٠٢.

ويتميز حرف الدال - وهو الأغلب في الكلمة - بصفة الشدة، والشدة قوة؛ وصفة هذا الحرف توائم معنى الإسناد في الآية؛ فإن المد في الطغيان من قبل الله تعالى لهؤلاء المنافقين فيه شدة وعذاب لهم، وهو سبحانه كما وصف نفسه شديد العقاب، وهو القوي العزيز، فقوة هذين الحرفين وشدهما ساقانا إلى القول بشدة المد وقوته من قبله سبحانه، والسياق لا ينفر من هذا. علاوة على كون حرف الدال يختص بصفة القلقللة، والقلقللة عند علماء التجويد اضطراب الحرف في الفم عند النطق به، حتى يُنقل من الحفاء إلى البروز، هذا معنى آخر يضيفه لنا صوت الدال، وهو أن المد في الطغيان فيه مبالغة بتكرير المد تكريرا قويا حتى يظهر فيهم ذلك (وهذا سنلمسه في الاستدراك الصرفي فيما سيأتي)؛ لأن الاضطراب مبالغة في الضرب وقوة فيه، وذلك يظهر عند نطق حرف الدال ساكنا. فكيف يكون العمه والعذاب والمد في الطغيان إذا اجتمعت فيها القوة، والشدة، والمبالغة في ذلك؟!.

ب - الاستدراك المعجمي

جرح الزمخشري إلى أن المدّ في الآية قرين المدد ومعناها الزيادة، وهو ما أسند إلى الله تعالى مجازاً حسبه. وخالفه الطيبي في ذلك، وعضد مذهبه بإيراد المعاني اللغوية للمدّ نقلا عن جملة من علماء اللغة. يقول: "قال الزجاج^(١): يمدهم ويمهلهم. وكذا في الواحد، وقال محيي السنة: يتركهم ويمهلهم. والمدّ والإمداد واحد وأصله الزيادة، إلا أن المد أكثر في الشر، والإمداد في الخير"^(٢).

هكذا فإنّ الزمخشري لم يذكر الفرق الدقيق بين المد والمدد، وجعل معناه في الآية الزيادة؛ ليوافق ذلك طرحه، لكن الطيبي استنادا إلى اللغة بيّن أنّ معنى المد الإمهال والترك، وبهذا فإنه مسند إلى الله على الحقيقة لا المجاز، ثم هناك فرق دقيق بين استعمال

(١) - الزجاج أبو إسحاق إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب بيروت-لبنان، ط ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ج ١/٩١.

(٢) - فتوح الغيب، ج ١/٢٠٩.

المد والمدد، فالمد أكثره في السياق القرآني يدل على الشر، والمدد فيه على الخير من ذلك قوله سبحانه: ﴿وَيَمْدُدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَنَّ﴾ [نوح: ١٢]، ولم يقل: (ويمدكم)؛ لأنه مقام خير، ولم يقل في آية البقرة: (يمددهم في طغيانهم)؛ لأن المقام مقام شدة وشر على المنافقين؛ فترك الله تعالى المنافقين في طغيانهم لا شك شر. فأتضح إذن أن ما ذهب إليه الطيبي في معنى المد أقرب إلى سياق الآية. وفي الاستدراك الصرفي مزيد تأكيد لهذا المعنى.

ج- الاستدراك الصرفي

علم الصرف لا يقل منزلة عن العلوم العربية الأخرى "هذا القبيل من العلم أعني التصريف؛ يحتاج إليه جميع أهل العربية أتم حاجة، وبهم إليه أشد فاقة؛ لأنه ميزان العربية، وبه تعرف أصول كلام العرب..."^(١). وهو "أحد أركان الأدب، وبه يعرف سعة كلام العرب، ومنه يتدرج إلى اللغة العربية، ويتوصل إلى حل العويصات الأبية"^(٢)، وهو "أشرف شطري العربية، وأغمضها: فالذي يبين شرفه؛ احتياج جميع المشتغلين باللغة العربية، من نحوي ولغوي، إليه أيما احتياج"^(٣). وقد قال في علم الصرف أحمد بن علي بن مسعود (ت ٧٠٠هـ) قولاً لطيفاً، قال: "اعلم أن علم الصرف أم العلوم، والنحو أبوها، ويقوى في الدرايات داروها، ويطغى في الروايات عاروها"^(٤).

(١)- ابن جنبي أبو الفتح عثمان، المنصف في شرح التصريف، تح: مصطفى عبد الله أمين، وزارة المعارف-مصر، ط ١/١٣٧٣هـ-١٩٥٤م، ج ١/٣٤.

(٢)- الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد، نزهة الطرف في علم الصرف، مطبعة الجوائب-قسنطينة، الطبعة الأولى، ص: ١٢.

(٣)- ابن عصفور الإشبيلي، الممتع في التصريف، تح: فخر الدين قباوة، دار المعرفة بيروت-لبنان، ط ١/١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ج ١/٢٧.

(٤)- أحمد بن علي بن مسعود، مراح الأرواح، تح: أبو الضياء القادري، مكتبة المدينة كراتشي-باكستان، ط ٣/١٤٣٣هـ-٢٠١٢م، ص: ٣.

ولعله بجعله أم العلوم، يرمي إلى كونه مصدراً أساساً لها، ويجعله علماً من علوم الدرايات، يلوح إلى حاجته إلى فضل عقل وتأمل. وسنحاول بإذن الله أن نتبع ذلك في هذه الورقة.

اختر الله سبحانه وتعالى صيغة الفعل المضارع في قوله "يمدهم" الدالة على الاستمرار وتكرار الفعل، ولم يختص صيغة الماضي بأن يقول: "مدهم"، ولا صيغة اسم الفاعل بأن يقول: "مُدَّهُم" ذلك أن سياق الآيات يقتضي أن يكون الكلام على هذا النسق: "مُدَّهُم"؛ لأنه جاء على لسان المنافقين: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، على صيغة اسم الفاعل الدال على الحدث ومن وقع منه دون الاستمرار عليه؛ فعُدل جلت حكمته عن صيغة اسم الفاعل إلى صيغة المضارع الدالة على الحدث المستمر في الزمان، ليكون الاستهزاء والمد في الطغيان - كما ينبغي لجلاله سبحانه - مستمراً غير منقطع متجدداً عليهم بأشكال مختلفة نكاية بالمنافقين، ودفعاً في صدورهم. ثم إن هذا الفعل من الأفعال المضعفة التي تحمل معنى الشدة والقوة المشار إليهم أنفاً في الاستدراك الصوتي؛ والمضعف من الأفعال إنما سُمي بذلك "لتضاعف الحرفين فيه، وسُمي أيضاً أصم، فيمن لا يسمع الصوت الخفي؛ لتحقيق الشدة فيه بواسطة الإدغام، فيحتاج إلى الجهر والتكرير، كاحتياج من لا يسمع الصوت الخفي إليهما، يقال حجر أصم؛ أي: صلب"^(١). وهذا الجهر والشدة والصلابة يتضمنها الخطاب؛ لأنه خطاب في المنافقين.

د - الاستدراك النحوي

المُتَأَمَّلُ لِلآيَةِ يَجِدُ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَضَافَ الطَّغْيَانَ إِلَى الْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِ: (طَغْيَانِهِمْ) إِذِ الضَّمِيرُ الْمُتَّصِلُ مَضَافٌ إِلَيْهِ وَهُوَ ضَمِيرُ الْمُنَافِقِينَ، وَلَمْ يَقُلْ سَبَّحَانَهُ فِي الطَّغْيَانَ، وَفِي

(١) - اللاري محمد بن صلاح الدين، مرشد الغناء شرح أمثلة البناء، تح: علي عبد الله الريس، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري - إدارة البحوث دبي - الإمارات، ط ١/١٤٣٧ هـ - ٢٠١٢ م، ص: ٢٥٩.

ذلك دليل على اختصاصهم وتميزهم به، يقول الطيبي في ذلك: "فمعنى الإضافة إرادة الطغيان الذي عُرف صدوره عنهم، ونظيره: [وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا] [الإسراء: ١٩]، وأنّ الغي في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ﴾ [الأعراف: ٢٠٢] مقيد بالتعريف؛ فهو مثل الإضافة؛ لأنه إنما يصح المدد في أمر ثابت" (١).

يذهب الطيبي في قوله إلى أنّ الإضافة في آية البقرة، هي مثل التعريف في آية الأعراف، من حيث المعرفة أولاً؛ لأنّ الأول مُعَرَّفٌ بالإضافة والثاني معرف بالألف واللام. ومن حيث التقييد فكلاهما مقيد، والغي والطغيان أمران ثابتان؛ ولذلك صح المد كما قال؛ أي: صفتهم الثابتة المستقرة الخاصة بهم: الطغيان.

وهناك تعليل آخر لهذه الإضافة يذكره الطاهر بن عاشور قائلاً: "وإنّما أضاف الطغيان لضمير المنافقين، ولم يقل في الطغيان بتعريف الجنس كما قال في سورة الأعراف: [وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ] إشارة إلى تفضيح شأن هذا الطغيان وغرابته في بابه، وأنهم اختصّوا به حتى صار يعرف بإضافته إليهم" (٢).

والله سبحانه وتعالى لمّا اختصوا هم بالطغيان وعُرفوا به، مدهم فيه سبحانه وتعالى عقاباً لهم.

تبين لنا أنّ الإسناد في الآية على ما ذكره الطيبي إسناد حقيقي، وليس مجازياً كما ذكر الزمخشري، والغاية منه صدور فعل المد من الله تعالى نكاية بالمنافقين، وشدته كما في الاستدراك الصوتي، واستمراره وصلابته كما في الاستدراك الصرفي، وتركه إياهم في الطغيان تعذيباً لهم كما في الاستدراك المعجمي، واختصاصهم وتميزهم بالطغيان الذي اسحقوا به المد كما في الاستدراك النحوي.

(١)- فتوح الغيب، ج ١/ ٢١٢.

(٢)- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ط ١/ ١٩٨٤م، ج ١/ ٢٩٧.

٢ - استدراكات الطيبي على الزمخشري في الأمر

قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا بِرُءُوسِكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعَمْرِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعًا إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ [الآية: ١٩٦].

الأمر في الآية مفيد لوجوب إتمام الحج مفردا، أو إتمامه بمعية العمرة على ما سنرى في الاستدراك النحوي. قال الطيبي: "قضية النظم [في الآية] أنه تعالى ابتداء بإتمام الحج والعمرة، ثم جاء بقوله: {فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ} وقوله: {فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ} تفصيلا لبيان المانع من الإتمام، ورتب على كل منها ما يُجبر به النقصان من قوله تعالى: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}، والمعنى: وأتموا الحج والعمرة أي: اتوا بهما تامين كاملين بمناسكهما وشرائطهما، فإن منعكم العدو بأن لم تتمكنوا على شيء من ذلك؛ فجبرانه ما استيسر من الهدى، وإن لم يمنعكم وأنتم في حال أمن ولكن أردتم تمتع ميقات فجبرانه ما استيسر من الهدى"^(١).

ما يستفاد من كلام الطيبي: هو أنّ وجوب الأمر يشمل الحج والعمرة معاً، ولذلك قال: "المعنى وأتموا الحج والعمرة"، وتقريره لهذا المعنى ردّ على الزمخشري؛ الذي يرى أنّ الوجوب للحج، والندب للعمرة، قال في ذلك: "فإن قلت: هل في ذلك دليل على وجوب العمرة؟ قلت: ما هو إلا أمر بإتمامها، ولا دليل في ذلك على كونها واجبين أو تطوعين، فقد يؤمر بإتمام الواجب والتطوع جميعاً"^(٢).

قوله: "فقد يؤمر بالواجب والتطوع معاً" إشارة إلى كون الحج واجبا، والعمرة تطوعا. وسيأتي توضيح الأمر في الاستدراكات إن شاء الله.

(١) - فتوح الغيب، ج ٢/ ٣٢٨.

(٢) - الكشف، ج ١/ ٣٩٩.

أ- الاستدراك المعجمي

قال ابن فارس في مادة تَمَّ: "التاء والميم أصل واحد منقاس، وهو دليل الكمال، يقال: تَمَّ الشيء إذا كُمِّل، وأتمته أنا"^(١). وفي لسان العرب: "تتمة كل شيء: ما يكون تمام غايته [...] وقوله عز وجل {وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ}؛ قيل إتمامها تأدية كل ما فيها من الوقوف والطواف وغير ذلك"^(٢).

فما ذكره ابن فارس من أن معنى التتمة هو الكمال، هو عينه ما أثبتته الطيبي حيث قال: "اتتوا بهما تامين كاملين بمناسكهما وشرائطهما" أو هو تأدية كل ما فيها كما ذكر ابن منظور. ولعل هذا يسعف في إقرار أن الأمر للوجوب؛ إذ قاصد الحج بعد استطاعة واجب عليه تأدية المناسك كلها على التمام، وليس مستحبا، ولذلك عد الحج ركنا من أركان الإسلام للذي يستطيعه.

ب- الاستدراك الصري

إن صيغة الأمر تفيد الوجوب أصالة، وتفيد الإباحة وغيرها تبعا، والأصل غير الفرع، فالأولى أن يؤخذ الأمر بإتمام الحج والعمرة على الوجوب في الآية؛ لأن اللفظ (أتموا) دال على ذلك بصيغته، وعلى الكمال بمعناه، والاستقبال بزمانه.

ج- الاستدراك النحوي

ذكرنا أن الزمخشري لا يرى وجوب العمرة، وما هو يدعم ذلك بتوجيه نحوي، مستمد من القراءات القرآنية، يقول فيه: "قرأ علي وابن مسعود والشعبي رضي الله عنهم (والعمرة لله) بالرفع، كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحج"^(٣).

(١)- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء، المقاييس في اللغة، تح: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر بيروت-لبنان، ط ١/١٤١٥هـ-١٩٩٤م، ص: ١٧٠، مادة: تَمَّ.

(٢)- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، دار صادر، بيروت-لبنان، ج ١٢/٦٧، مادة: تَمَّ.

(٣)- الكشاف، ج ١/٣٩٩.

فقوله: "كأنهم" معناه أنهم لم يصرحوا بذلك، وإنما استنبط هو ذلك من كلامهم. و(العمرة) على هذا مرفوعة بالابتداء، مقطوعة عمّا بعدها لتأخذ حكماً آخر. لكن الطيبي نظر إلى هذه القراءة من جانبه هو، الذي ينحاز فيه إلى الوجوب، بيان ذلك قوله رداً على مسلك الزمخشري: "قوله: (كأنهم قصدوا بذلك إخراجها عن حكم الحج) يعني: قطعوا العمرة عن حكم اشتراكها في الإتمام، وجعلوها مع الظرف جملة إخبارية أخرى مستقلة، ليؤذن على اختلاف حكمها.

وقلت: هذا القطع يشعر بشدة الاهتمام بشأنها؛ لأنهم إنما يعدلون من الإنشائية إلى الإخبارية للمبالغة، لا سيما وقد أتى بالجملة الاسمية وبلام الاختصاص، كأنه قيل: إذا شرعتم في الحج فأتموه، وأما العمرة فهي المختصة بالله، ولا كلام في أدائها"^(١).

رؤية الطيبي لقراءة القطع مغايرة لرؤية الزمخشري إذن؛ فالزمخشري استنبط منها عدم الوجوب، والطيبي استنبط منها الوجوب وزيادة، وذلك واضح من خلال كلامه؛ إذ وضح أنّ العرب ينتقلون من الجملة الإنشائية إلى الجملة الخبرية مبالغة وتأكيداً لمعنى المنتقل إليه، فالإنشاء في الآية {أَتَمُّوا} والخبر {وَالْعُمْرَةُ لِلَّهِ}، وتزداد المبالغة في الاهتمام بالعمرة بتخصيصها بالله بلام الاختصاص، وإذا كانت كذلك فميلها إلى الوجوب أقرب. وأورد الطيبي حديثاً نبوياً ينحو هذا المنحى تقوية للمعنى الذي مال إليه حيث قال: "ونحوه من حيث المعنى ما رويناه عن الشيخين وغيرهما عن أبي هريرة: "كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به" هذه المبالغة لدفع ما عسى يظن ظان التهاون فيه، وتوهم عدم الوجوب"^(٢). فقوله: "هذه المبالغة لدفع ما عسى يظن ظان التهاون فيه..." تعريض بالزمخشري، الذي اختار أن تكون العمرة غير واجبة.

(١)- فتوح الغيب، ج ٣/ ٢٧٥.

(٢)- نفسه، ج ٣/ ٢٧٥.

وفائدة نحوية أخرى تعضد رأي الطيبي، أوردها قائلاً: "وإنّا أوتر "إذا" في جانب الأمن على "إن" ليؤذن أنّ ذلك الإحصار - أعني يوم الحديبية - لا اعتبار له، وأنّ أغلب أحوالكم بعد ذلك الأمن والغلبة والتمتع كيف شئتم، هذا هو النظم السري"^(١).

يذهب إلى أنّ الإحصار شيء مشكوك فيه، قد يقع وقد لا يقع؛ فالأغلب ألا يقع فيبقى تمام الحج والعمرة على هذا واجبا؛ لأن "إن" تستعمل شرطية فيما فيه شك، و"إذا" تستعمل شرطية لما يكثر وجوده، وهو مع ذلك مُتَحَقِّق فيه. وبهذا فالأمن هو الحالة الغالبة، وإذا كان كذلك فلا مانع من وجوب التمام. قال المرادي موضحاً الفرق بين "إن" و"إذا" الشرطيتين في الاستعمال، والسبب في عدم الجزم ب"إذا": "وإنما لم يُجزم بها [ب"إذا"] لمخالفتها "إن"؛ لأنّ "إذا" لما تُثَبِّت وجوده أو رُجِّح، بخلاف "إن" فإنها للمشكوك فيه"^(٢).

٣ - استدراكات الطيبي على الزمخشري في التشبيه التمثيلي

قال سبحانه: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي ذُرَاهِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَنْطَفِئُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْرَافًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ لَئِن لَّ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [الآيتان: ١٩-٢٠].

قال الزمخشري مبينا وظيفة التمثيل في الآية: "لما وصف وقوع الكافرين في ضلالتهم، وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة؛ شُبِّهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يُكابد من طُفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق"^(٣).

(١)-فتح الغيب، ج ٣/ ٢٨٣.

(٢)- المرادي الحسن بن قاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة- محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط ١/ ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ص: ٣٣٧.

(٣)-الكشاف، ج ١/ ٢٠٠.

التشبيه في قوله سبحانه: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} الآية، تشبيه تمثيلي؛ شبهت فيه صورة بصورة، صورة تخبط الكافرين في الحيرة والدهشة وشدة الأمر والغرق في الضلالة، بصورة من استنار بنور في ظلمة حالكة، ثم انطفأ عليه النور وهو في أمس الحاجة إليه، فحار أمره، فطفق يتخبط في الظلام الدامس لا يهتدي له أمر، وزاد من شدة حاله صوت الرعد والبرق، ممّا يخلع القلب من مكانه، ويدني المرء إلى حتفه.

قال الطيبي في هذا المعنى: "وأما جزالة هذا الوجه فإنك تتصور في المركب الهيئة الحاصلة من تقارن تلك الصور وكيفيتها المتضامة، فيحصل في النفس منه ما لا يحصل من المفردات، كما إذا تصورت من مجموع الآية مكابدة من أدركه الوبل الهطل، مع تكاتف ظلمة الليل، وهيئة انتساج السحاب بتتابع القطر، وصوت الرعد الهائل، والبرق الخاطف، والصاعقة المحرقة، ولهم من خوف هذه الشدائد حركات من يجر الموت، حصل لك منه أمر عجيب وخطب هائل، بخلاف ما إذا تكلفت لواحد واحد مشبهًا به.

[فظهر بهذا] أن قوله تعالى: {كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} [البقرة: ١٩] إلى آخره تمثيلي؛ لِمَا أَنَّ وجه الشبه بينهم وبين المنافقين هو أنهم في المقام المطمئع في حصول المطالب ونجح المآرب، لا يحظون إلا بضد المطموع فيه من مجرد مقاساة الأهوال^(١).

لَمَّح الطيبي بكلامه إلى أنه يجوز أن يكون التشبيه في الآية تشبيهاً مفرقا، لكن القول الأرجح هو أن يكون من المركب، وبين أن المعاني الحاصلة في التركيب لا تحصل في الأفراد، لأن تلك الصفات إذا جُمعت في صورة واحدة يكون وقعها أعظم من أفراد كل تشبيه على حدة. وهذا الرأي يكون أكد فيما يأتي من الاستدراكات.

أ- الاستدراك الصوتي

لنا في هذا العنصر وقفة مع خمس كلمات: "ظلمات" و"الصيب" و"الرعد" و"البرق" و"الصواعق". فالظلمات تركبت من حروف الظاء واللام والميم والألف

(١)- فتوح الغيب، ج ٢/ ٢٥٩-٢٦٠.

والتاء، أمّا الصيب فقد تعرض لها الطيبي بشيء من الدراسة وذلك قوله: "رُكبت من صاد وهي مطبقة مستعلية، وباء مشددة، وباء هي من الشديدة"^(١).

وهو إنما ذكر صفات حروف الصيب دون دلالتها في سياق الآية، وهو ما سنبينه بمعية الكلمات الأخرى إن شاء الله. والأهم أنها رُكبت من حروف أغلبها يتراوح بين الشدة والفخامة والجهر والقلقلة والإطباق والاستعلاء، وهو ما يناسب مناسبة عظيمة معنى التمثيل في الآيتين.

أمّا الشدة فالتاء في "ظلمات"، والذال في "الرعد"، والقاف في "الصواعق" و"البرق"، والباء في "الصيب" و"البرق". وبالنسبة للفخامة فهي من نصيب الظاء في "الظلمات"، والصاد في كلمتي: "الصيب" و"الصواعق"، والقاف في "الصواعق" و"البرق". والجهر تمثله كل الحروف سوى اللام والتاء والصاد وهو أقوى حروف الهمس كما ذكر ابن الجزري. والقلقلة يتصف بها حرف الباء في "الصيب" و"البرق" والقاف في "البرق" و"الصواعق". والإطباق يتسم به حرف الظاء في "ظلمات" والصاد في "الصيب" و"الصواعق"، وهو "من صفات القوة"^(٢). أمّا الاستعلاء فمشارك بين الظاء والصاد والقاف، مما انتظمت منه كلمات: "ظلمات" و"الصواعق" و"الصيب" و"البرق".

وإذا تأملنا حرف العين المشترك بين "الرعد" و"الصواعق" وجدناه أحسن الحروف من حيث قوة الصوت، وأدخلها في الحلق من حيث المخرج، ولذلك قدمه الخليل وجعله شعار معجمه "العين". قال الأزهري في ذلك نقلاً عن الليث بن المظفر: "لمّا أراد الخليل بن أحمد الابتداء في كتاب العين، أعمل فكره فيه، فلم يمكنه أن يبتدئ من أول: أ.ب.ت.ث؛ لأنّ الألف حرف معتل، فلمّا فاتته أول الحروف كره أن يجعل الثاني أولاً وهو الباء إلا بحجة، وبعد استقصاء؛ تدبّر ونظر إلى الحروف كلها

(١)- فتوح الغيب، ج ٢/ ٢٦٧.

(٢)- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج ١/ ٢٠٣.

وذاقها، فوجد مخرج الكلام كله من الحلق فصير أولها بالابتداء به أدخلها في الحلق [...] فوجد العين أقصاها في الحلق وأدخلها.

[هذه علة التقديم وعلة التسمية. وقال الأزهري عن العين والقاف]: أمّا العين فأصنع الحروف [...] وأمّا القاف فأصحها جرساً^(١).

وربطا بين صفات هذه الحروف التي نُظمت منها هذه الكلمات، وبين معنى التمثيل في الآية فإن هنالك تناغماً كبيراً؛ إذ الموقف في الآية موقف تهويل ومكابدة وخشية وخوف، خوف مترامٍ من الصيب وصوت الرعد والصواعق والبرق، ثم الجهر: جهر في الصوت وقوة فيه وترعيد وإرعاد؛ المستفاد من صوت الرء، واضطراب كما تفيد أصوات القلقلعة، وفخامة الموقف وعظمته المستفاد من حروف التفخيم، وانطباق الأحوال على من جعل في ذلك الموقف، وهو المستخلص من حروف الإطباق.

فالله عز وجل جمع بين هول التمثيل وهول الأصوات، وهول الأصوات عضد هول التمثيل من حيث دلالته على شدة حيرة المناقين، وضلالتهم، والتخبط في ظلمات غيهم.

ب- الاستدراك المعجمي

تطرقنا في الاستدراك الصوتي للأصوات التي رُكبت منها الكلمات الخمس؛ وفي هذا الاستدراك نعرض لها أيضاً، لنرى إسهامها في تعضيد معاني التمثيل.

(أ)- الصيب؛ قال السمين في باب الصاد فصل الصاد والواو: "ص.و.ب. الصوب: الإصابة، ومنه أصاب سهمه إذا وقع في الغرض [...]". قوله تعالى: {أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ} [البقرة: ١٩] الصيَّب: المطر النازل بشدة من مكان، من صاب يصوب إذا نزل^(٢).

(١)- الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تح: عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ج ١/٤١-٤٥.

(٢)- الحلبي السمين، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تح: محمد باسل عيون السور، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط ١/١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ج ٢/٣٥٨. مادة: صوب.

وانطلاق منه فإنَّ المقصود بالصيب في التمثيل المطر النازل بقوة شديدة من السماء.

(ب)- ظلمات؛ "أصل الظلمة عدم النور، وهما متقابلان، قال تعالى: { وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } [الأنعام: ١]، ثم يُعَبَّرُ بالظلمة عن الشرك والجهل والفسق، كما عبَّرَ عن أصدادها بالنور"^(١).

ومنه فالظلمة التي في الصيب موافقة للظلمة التي في قلوب المنافقين، فالأولى انعدام النور على الحقيقة، والثانية الدلالة على جهالتهم وفسقهم، وهو ما يعبر عنه بالظلمة مجازاً، والجامع عدم الاهتداء والتخبط في عشواء.

(ج)- الرعد؛ قال السمين: "قوله تعالى: { يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ } [الرعد: ١٣] قيل: هو صوت ملك، وقيل: صوت سحاب، وقيل: صوت اصطكاك أجرامها، وقيل: ريحٌ تُنْحَقُ بين السحاب [...] ورعدت السماء وبرقت وأرعدت وأبرقت، ويُكنى عن التهديد؛ فيقال: أبرق وأرعد، وأرعدت فرائضه خوفاً [...] والرعيد: المضطرب جبناً"^(٢).

والسياق يدعو دلالة الرعد على اصطكاك أجرام السماء، لِتُؤَافِقَ حالة الخوف والاضطراب والارتعاد، الذي يتبناه التمثيل.

(هـ)- برق؛ "البرق: لمعان يُشبه النار، واختلف فيه، فقيل: هو لمعان السحاب، وقيل: شرر يخرج من اصطكاك الأجرام، وقيل: هو سوط يَزْجُرُ به الملكُ السحاب، كما يزجر الإبل سائقها"^(٣).

زيادة على الصوت الصادر من الرعد ينضاف إلى التصوير الشرر المخيف، مع ما كان في ذلك المطر من الظلمة.

(١)- الحلبي السمين، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، ج ٣/ ١٢، مادة: ظلم.

(٢)- نفسه، ج ٢/ ٩٧، مادة: رعد.

(٣)- نفسه، ج ١/ ١٨١، مادة: برق.

(و)- الصواعق؛ أورد الطيبي تعريفا للصواعق نقلا عن الراغب فقال: "[قال] الراغب^(١): [الصاعقة] والصاعقة يتقاربان، وهما الهدّة الكبيرة، إلا أنّ الصقع يقال في الأجسام الأرضية، والصقع في الأجسام العلوية [...] والصاعقة هي الصوت الشديد من الجو، ثم يكون منها نار فقط أو عذاب أو موت"^(٢).

فاجتمع بهذا في السماء صوت الرعد، وشرر البرق، والصاعقة القاتلة، والظلمة الحالكة، كل هذا يحتويه ذلك المطر شديد النزول.

وطلباً لجمع هذه المعاني التي أمدنا بها هذا العنصر، فإننا نصل إلى شيء واحد، وهو شدة الموقف الذي مثل به الله تعالى حالة الكافرين؛ فإنّ الصيب لا رحمة فيه، إذ ليس ممّا يُغاث به الناس، بل ممّا يُعذب به. وتلك الظلمات التي تصحب الصيب تزيد من شدته، وهو يدل على هول ما عليه المنافقون. والارتعاد والخوف والاضطراب المأخوذة من الرعد ترفع شدة الحالة إلى حالة أشد، وذلك يدل على اضطراب المنافقين وخوفهم، اللذين ألبسهم الله تعالى، وكذلك القول في البرق، أمّا الصاعقة فهي كاسمها الصوت المرعب، ينتج عنه إمّا نار أو عذاب أو موت. والتمثيل صور لنا هذا الخطب العظيم وحسّر هذه الشدة الشديدة في قالب مركب، حالة بحالة. وترسيخا لهذا المعنى ننتقل إلى الاستدراكين الصريفي والنحوي.

ج- الاستدراك الصريفي

نبحث في هذا الاستدراك كلمات الصيب، والصواعق، والظلمات، فكلمة الصيب "بُنيت على وزن فيعل، وهي صفة مشبهة تدل على شيء ثابت [...] وفيه مبالغة"^(٣).

(١)- ينظر المفردات، للراغب الأصفهاني، ص: ٤٨٤-٤٨٥، مادة: صعق.

(٢)- فتوح الغيب، ج ٢/ ٢٧٣.

(٣)- فتوح الغيب، ج ٢/ ٢٦٧.

والمعنى المستخلص من هذه الصيغة أنّ حالتهم تلك ثابتة على شدة نزول المطر دون انقلاعه، وهذا معنى المبالغة.

ثم إذا رمنا جهة الظلمات ألفينا أنها بُنيت على الجمع لا على الأفراد، والصيب فرد، وأُفرد في هذا السياق الرعد والبرق فلماذا لم تُفرد الظلمات؟

الجواب نجده في قول الرازي: "الصَّيْبُ هو المطر والسحاب فأيهما أريد في ظلماته؟ الجواب: أمّا ظلمات السحاب فإذا كان أسحماً مطبقاً، فظلمته سحيمته، وتطبيقه مضمومة إليه ظلمة الليل، وأمّا ظلمة المطر فظلمته تكاثفه وانسجامه بتتابع القطر، وظلمته إظلال الغمامة مع ظلمة الليل"^(١).

إذن فالصيب يدل على المطر والسحاب، واجتمعت فيه ثلاث ظلمات؛ ظلمة السحاب، وظلمة المطر، وظلمة الليل، ولهذا جمعت الظلمات، وإذا اجتمعت هذه الظلمات على ناس في حالة واحدة فهم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة، وكذلك المنافقون هم أصلاً في موت روحي، وجهل أبدي، وخوف دائم.

أمّا الصواعق فهي على الجمع أيضاً ومفرداً صاعقة، وليس الجمع فقط وإنما جمع النهاية، أي: ما يخطر ببالك من الصواعق فهي مجموعة عليهم، فكيف يكون أولئك؟ فكل الصواعق تكالبت عليهم، ولو قيل: الصاعقة الواحدة لكان الموقف هائلاً، وما بالك بالصواعق علاوة على الأحوال التي قبلها في التمثيل.

د- الاستدراك النحوي

من المعاني النحوية التي يمدنا بها هذا الاستدراك هو أنّ الله تعالى نَكَّرَ الصَّيْبَ تنكير "تهويل [و] عرف السماء باللام الاستغراقية [...] وها هنا المقصود الاستغراق والمبالغة، ولم يكن يحصل إلا بذكر السماء معرفة"^(٢).

(١)- الرازي فخر الدين محمد، مفاتيح الغيب، دار الفكر، ط ١/١٤٠١هـ-١٩٨١م، ج ٢/٨٧.

(٢)- فتوح الغيب، ج ٢/٢٦٦-٢٦٧.

ولم ينكر سبحانه الصيب لوحده، بل والظلمات والرعد والبرق أيضا، وتنكيرها أدخل في ضروب التهويل والتعظيم من تعريفها، وهو أوفق لسياق الآية؛ من حيث تصوير حالة الكفار المنافقين، وما أصابهم من الحيرة والاضطراب والضلالة... ومن المعاني النحوية كذلك أنّ الصيب هو الخيط الناظم، والوعاء الحامل للتركيب عامة، ويدل على ذلك الضمير المتصل العائد إلى الصيب في قوله {فِيهِ} أي: في الصيب النازل من السماء بتلك الشدة ظلمات ورعد وبرق، ولو كان الصيب لوحده لم يفد ذلك التفخيم، ولَمَّا جعله الله ظرفا لتلك المعاني الجسورة، يحوطها ويضمها وتتعاون معه في التهويل؛ ركب في النفوس رعبا وهلعا وحيرة، وما إلى ذلك مما أفاده التمثيل.

٤ - استدراكات الطيبي على الزمخشري في الاستعارة

قال سبحانه: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الآية: ٧٤].

الاستعارة في قوله عز وجل: {قَسَتْ قُلُوبُكُمْ} قال الزمخشري: "صفة القلوب بالقسوة والغلظ مثل لنبوها عن الاعتبار، وأن المواعظ لا تؤثر فيها"^(١).

إذن فالله سبحانه استعار قسوة الحجارة لقلوبهم بجامع عدم الإحساس وانعدام الأثر. قال الطيبي مبينا دلالة القسوة في الآية على الاستعارة: "قوله: (مثل لنبوها عن الاعتبار) أي: قست قلوبهم، استعارة تبعية، واقعة على سبيل التمثيل، شُبّهت حالة قلوبهم، وهي نبوها عن الاعتبار، بحالة قسوة الحجارة في أنها لا يُجدي فيها لطف العمل"^(٢).

(١)- الكشاف، ج ١/ ٢٨٦.

(٢)- فتوح الغيب، ج ٢/ ٥٤١.

ويقصد بالتبعية أنّ {قَسَّتْ} مشتقة من القسوة وليست أصلية، وهو المستعار، والمستعار له هو قلوبهم، والمستعار منه هو الحجارة، ويعني: بالنبو عن الاعتبار: الارتفاع عنه، والجامع قوله لا يُجدي فيها لطف العمل، وهي استعارة تمثيلية بهذا، لأنها تشببه حالة بحالة كما قال. فقلوبهم متحجرة تضرب فيها المواعظ فتكرّ راجعة. وفي الاستدراكات سنرى أنّ قلوبهم أقسى من الحجارة، كما وصفهم الله تعالى.

أ- الاستدراك الصوتي

الفاعل "قَسَّتْ" يضم حروفا ثلاثة، القاف والسين والتاء، والقاف يشترك مع حرف التاء في الشدة، ويتفرد بكونه مجهورًا ومستعليًا وفخما، وهو أيضا من حروف القلقة، ولو تأملنا الحجارة لوجدنا فيها شدة، ويتناسب هذا مع قلوب المعنيين بالخطاب في الآية، الذين شُبّهت قلوبهم بالحجارة، ففي قلوبهم شدة واضطراب لا قابلية معها لتلقي ما يُلطف ويُثبّت.

ب- الاستدراك المعجمي

قال ابن فارس: "القاف والسين والحرف المعتل يدل على شدة وصلابة، ومن ذلك الحجر القاسي، والقسوة غَلَطَ القلب، وهي من قسوة الحجر، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]؛ [و] القاسية، الليلة الباردة، ومن الباب المقاساة: معالجة الأمر الشديد، وهذا من القسوة؛ لأنه يُظهر أنه أقسى من الأمر الذي يُعالجه، وهو على طريق المفاعلة"^(١).

فالمادة تدل على شدة وصلابة، والشدة أخذناها من صوت القاف أيضا، ومنها كذلك معالجة الأمر الشديد، وقلوبهم قاسية عولجت ولم ينفع معها علاج، بل تكرر عليها ذلك ولكنها أشد قسوة، مع برودتها وخمولها.

(١) - المقاييس في اللغة، ص: ٨٨٨، مادة: قسي.

ج- الاستدراك الصريفي

قال الطيبي: "اعلم أنّ الأصل في "أفعل" التفضيل أن يُبنى ثلاثي مجرد ليس بلون ولا عيب، وإذا قُصد ذلك فيما ليس كذلك تُوصّل بمثل "أشد" ضرورة، ولا ضرورة في الآية إلى التوصل به لاستقامة بيانه من القسوة، ولا بُد في هذا الإطناب في كلام الله المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من فائدة؛ وهي إمّا أن يُجاء به لمزيد البيان والتوضيح [...].، وإمّا أن يقصد معنى الاشتراك في الشدة نفسها [...] فظهر أن إتيان "أشد" في قولك: ما أشد حمرة! لمجرد التوصل إلى البناء، فلا يكون مقصودًا بالذات، بخلافه في الآية، فإنه مقصود بذاته"^(١).

مغزى كلامه أنّ الصرفيين جعلوا صيغة "أفعل" للدلالة على التفضيل، واشتروا أن يصاغ من الفعل الثلاثي اللازم شريطة أن يكون ممّا يقبل التفاوت، وأن يكون خاليا من اللون أو العيب. وهذه الشروط متوفرة في الفعل "قسا"؛ فهو فعل لازم يقبل التفاوت ولا يدل على لون أو عيب، ومستساغ أن يقال: "قلوبهم أقسى من الحجارة"، وإنما يُستعان بـ "أشد" وأمثالها فيما انتفت فيه الشروط المذكورة، فظهر أنّ السر في ذلك ها هنا هو زيادة بيان شدة قسوة قلوبهم، وأنها مشتركة مع الحجر في تلك الشدة؛ لكنها تفوق الحجر فيها؛ إذ إنّ {أشدُّ} في الآية مقصود وليس مساعدا، كما فُعل به في قولهم: أشد حمرة، أو أشد ضربا...

د- الاستدراك النحوي

قال الزمخشري: "[{أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}] [المعنى أنّ من عرف حالها شبهها بالحجارة، أو بجوهر أقسى منه، وهي الحديد مثلا]"^(٢).

والوجه النحوي الذي يعضد دلالة الاستعارة في الآية يتضح في قول الطيبي وهو يعلق على كلام الزمخشري ذلك: "قوله: (والمعنى أنّ من عرف حالها شبهها) إلى آخره، وإنما أخرج الكلام مخرج الشرطية ليؤذن بأن مرجع الشك إلى الناس؛ لأن الله تعالى لا

(١)- فتوح الغيب، ج ٢/ ٥٤١.

(٢)- الكشف، ج ١/ ٢٨٦.

يشك كقوله تعالى { وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ } [الصفافات: ١٤٧]، ولو حُمل "أو" على معنى بل نحو ما أنشده الجوهري:

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي رَوْتِقِ الضَّحَى وَصُورَتِهَا أَوْ أَنْتِ فِي الْعَيْنِ أَمْلَحُ
كان أحسن التأمنا مع قوله: { وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ } الآية [البقرة: ٧٤] من التردد في التشبيه^(١).

وما أثبتته هنا يدل على أن قلوب المخاطبين أقسى من الحجارة القسوة الشديدة، وهو ما يفيد الحرف "أو" في الآية؛ لأنه يدل في مواضع على ما تدل عليه "بل" التي للإضراب، قال المالقي في رصف المباني: "فأما قوله تعالى: { وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ } ف"أو" هنا بمعنى "بل عند بعضهم"^(٢)، والذي ينصر كونها بمعنى "بل" في الآية قوله تعالى: { وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ } الآية، لأنها تدل على أن الحجارة ألين من قلوبهم، وأن قلوبهم أقسى، المعنى: بل قلوبهم أشد قسوة إذا جعلنا "أو" بمعنى "بل"؛ لأنها وإن كانت قاسية، فإن الماء يتفجر من بعضها، ومنها ما يهبط من خشية الله... والمعنى نفسه في البيت الشعري، إذ القصد: "بل أنت في العين أملح". وفيه نعي على الكفار وتوبيخ لهم؛ إذ كيف يكون من الحجارة ما يتفجر منه الأنهار، وهي الفارغة من الروح، ولا تستجيب قلوبهم ولا تلين بذكر الله وهي النابضة بالحياة المجاورة للروح؟!

وقوله أحسن التأمنا... من التردد في التشبيه، أي إن جعل "أو" بمعنى بل، أحسن من أن نعيد تشبيه القسوة بالحديد كما فعل الزمخشري، أو بغيره، فقد سبق أن شبهت القسوة بالحجارة، والأفضل عنده الانتقال إلى لون آخر يلائم نظم الآية كلها، وهو الإضراب.

(١) - فتوح الغيب، ج ٢/ ٥٤٢.

(٢) - المالقي أحمد عبد النور، رصف المباني في شرح حروف المعاني، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم - دمشق، ط ١/ ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م، ص: ٢١١.

خاتمة:

تبين في هذه الورقة الوجيزة أنّ شرف الدين الطيبي قد سعى بشكل جلي نحو الاستدراك على الزمخشري، خاصة في الجوانب البلاغية، وهذا دليل على مكنة الطيبي و سطوع نجمه في البلاغة القرآنية.

وقد رأينا -من خلال النماذج التي درسناها- أنّ الطيبي لا يقصر استدراكاته على الزمخشري في الجوانب البلاغية، كما لامسنا ذلك في استدراكه عليه في الأمر والاستعارة... بل يتجاوز ذلك إلى استدراكه عليه في النواحي المعجمية، والصرفية، والنحوية كما سلف ذلك في النماذج التي سقناها في سورة البقرة.

وهذا دليل على أنّ شرف الدين لا يقف عند البلاغة وحدها؛ لأجل استجلاء المعنى، أو الاستدراك على الزمخشري... لكنه يتجاوزها إلى العلوم اللغوية الأخرى، بل والقراءات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، كما رأينا في استدراكه على الزمخشري في الأمر...

ثم إنه تأكد في أذهاننا أنّ الإمام الطيبي ينتصر للبلاغة السنية، ويجعلها معبرا إلى المعنى، كما جعل الزمخشري البلاغة اعتزالية يعبر من خلالها إلى المعاني القرآنية. وشرف الدين قد فك الكثير من الرموز الاعتزالية، الآتية من النواحي البلاغية واللغوية، التي تستعصي على غير المختصين في هذا الفن العقلي، الذي يُحتاج فيه إلى فضل تأمل وفضل تذوق؛ خاصة إذا كان الحديث عن الكشاف للزمخشري، هذا المؤلف العظيم في فنه، الفريد في بابه، الغامض على العامة في رموزه.

هذا وإنّ العلوم اللغوية إذا جعلت آليات للنقد والاستدراك في خطاب التفسير، بهذا الشكل المتضام؛ الذي رأيناه في هذه اللمحة: يكشف الكثير من أسرار كتاب الله تعالى، ويبين الكثير من المعاني الثاوية خلف آي القرآن الكريم، ويبين مسالك التفسير عند كل مفسر، وخلفياته التي يبني عليها تأويلاته، ودوافعه إلى ذلك.

لائحة المراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع عن الأزرق
- ابن جنبي أبو الفتح عثمان، المنصف في شرح التصريف، تح: مصطفى عبد الله أمين، وزارة المعارف-مصر، ط ١/١٣٧٣هـ-١٩٥٤م؛
 - ابن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر بيروت-لبنان، سنة الطبع: ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م؛
 - ابن عصفور الإشبيلي، الممتع في التصريف، تح: فخر الدين قباوة، دار المعرفة بيروت-لبنان، ط ١/١٤٠٧هـ-١٩٨٧م؛
 - ابن فارس أبو الحسين أحمد، المقاييس في اللغة، تح: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر بيروت-لبنان، ط ١/١٤١٥هـ-١٩٩٤م؛
 - ابن مسعود أحمد بن علي مراح الأرواح، تح: أبو الضياء القادري، مكتبة المدينة كراتشي-باكستان، ط ٣/١٤٣٣هـ-٢٠١٢م؛
 - ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت-لبنان؛
 - الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تح: عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة؛
 - الجزري أبو الخير محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، تح: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان؛
 - خليفة حاجي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تح: محمد شرف الدين يالتقيا، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان؛
 - الرازي فخر الدين محمد، مفاتيح الغيب، دار الفكر، ط ١/١٤٠١هـ-١٩٨١م؛

- الزجاج أبو إسحاق إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب بيروت-لبنان، ط ١/١٤٠٨هـ-١٩٨٨م؛
- الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض، ط ١/١٤١٨هـ-١٩٩٨م، مكتبة العبيكان-الرياض-السعودية؛
- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ط ١/١٩٨٤م؛
- الطيبي شرف الدين، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، تح: عمر حسن القيام، جائزة دبي الدولية، ط ١/٢٠١٣م؛
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسامين الحلبي، تح: محمد باسل عيون السور، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط ١/١٤١٧هـ-١٩٩٦م؛
- القيسي مكي بن أبي طالب، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تح: مكتبة قرطبة للبحث العلمي وتحقيق التراث، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى؛
- اللاري محمد بن صلاح الدين، مرشد الغناء شرح أمثلة البناء، تح: علي عبد الله الريس، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري-إدارة البحوث دبي-الإمارات، ط ١/١٤٣٧هـ-٢٠١٢م؛
- الملقى أحمد عبد النور، رصف المباني في شرح حروف المعاني، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم-دمشق، ط ١/١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م؛
- المرادي الحسن بن قاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة- محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط ١/١٤١٣هـ-١٩٩٢م؛
- الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد، نزهة الطرف في علم الصرف، مطبعة الجوائب-قسنطينة، الطبعة الأولى.

أثر التساند بين مكونات اللغة في بناء معاني (جاء)
في قوله تعالى: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)^(١)
نعيمة المبتوت

تقديم:

سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية إبراز أثر التكامل^(٢) بين المكونات النصية الداخلية للغة - وتحديدًا الصوت والمعجم والبلاغة - في بناء معاني ودلالات (جاء) في قوله سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [سورة النصر: ١].

١ - دلالات أصوات (جاء)

• صوت الجيم

تبتدئ سورة النصر بلفظ (جاء)، أي بأصوات الجيم والألف والهمزة، ويتصف صوت الجيم بصفتين هما: الجهر^(٣) والشدة^(٤)، فالحرف المجهور - عند علمائنا القدماء

(١) - إشراف وتأطير الأستاذ مولاي علي سلياني

(٢) - التكامل اصطلاحاً هو: الضم والجمع بين مكونات اللغة لتقريب بعض مراد الله بحيث تعمل الأنساق الداخلية للخطاب القرآني (الصوت والمعجم والبلاغة...) على تتميم بعضها البعض في تماسك يرمي إلى تشييد المعنى في خطاب التفسير، وهو الطريق الذي سنحاول نهجه في هذه الورقة البحثية. وقد يحدث التكامل بين المكونات الداخلية للخطاب كما سيتضح، كما قد تنضاف إليها الأنساق الخارجية (أسباب النزول، الأحاديث، الأشعار، الأخبار...). والتكامل مرادف لمصطلحي التساند والتطالب، وليتوضح الأمر أكثر ينظر [تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية، عقيلي إبراهيم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١/١٩٩٤م، ص ١٠٣]. والتأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، بازي محمد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط ١/٢٠١٠م، ص ٣٤٨. [تطالب المطالب وتشابك المسائل في شرح الإفرائي لتوشيح ابن سهل، سلياني مولاي علي، في تحليل الخطاب، "كتاب جماعي"، مجموعة أبحاث علمية محكمة، إصدارات نخب السوسيولسانيات وتحليل الخطاب، فرقة تحليل الخطاب، دارالقدس العربي، ٢٠١٦م، ص ١١٥].

(٣) - "فأما المجهورة فالهمزة والألف [...] والجيم" [كتاب سيويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تح. عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣/١٩٨٨م، ج ٤ ص ٤٣٤]. "الجيم حرف مجهور." [سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني، تح حسن هندواي، دارالقلم، دمشق، ط ٢/١٩٩٣م، ص ١٧٥].

(٤) - "وللحروف انقسام آخر إلى الشدة والرخاوة وما بينهما. فالشديدة ثمانية أحرف [...] يجمعها في اللفظ: (أجد تطبقك) و(أجدك طبقت)" [سر صناعة الإعراب، ابن جني، ص ٦١].

-: هو ما أُشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت.^(١)

أما علم الصوت الحديث فينسب الجهر إلى الأوتار الصوتية ويعدها المسؤولة عن هذه الصفة، ف"الحروف المجهورة: هي التي ترتعش الأوتار الصوتية عند النطق بها فيكون الصوت قويا مسموعا"^(٢). ويحدث الجهر حين "يقترب الوتران الصوتيان أحدهما من الآخر فتضيق فتحة المزمار، ولكنها تظل تسمح بمرور النفس خلالها. فإذا اندفع الهواء خلال الوترين وهما في هذا الوضع يهتران اهتزازا منتظما، ويحدثان صوتا موسيقيا [...] يسمون هذه العملية بجهر الصوت"^(٣)، وهو ما يحدث عند النطق بصوت الجيم.

أما الشدة فمعناها عند القدماء: منع الصوت، يقول ابن جني: "ومعنى الشديد: أنه الحرف الذي يمنع الصوت من أن يجري فيه؛ ألا ترى أنك لو قلت: الحق والشط، ثم رمت مد صوتك في القاف والطاء لكان ذلك ممتنعا"^(٤)؛ فهي منع الصوت من الجريان. والحرف الشديد ما لا يجري فيه الصوت.

وما اصطلح القدماء على تسميته الصوت الشديد سماه المحدثون انفجاريا (plosive)^(٥). ولهذا لم يعد علم الصوت الحديث الجيم الفصيحة صوتا انفجاريا، واكتفى بمنحها صفة الشدة كما فعل الأقدمون.^(٦)

(١) - كتاب سيويه، ج ٤ ص ٤٣٤.

(٢) - التصريف العربي من خلال علم الصوت الحديث، البكوش الطيب، الهيئة العلمية لمكتبة الاسكندرية، ط ٣/ ١٩٩٢م، ص ٤٢.

(٣) - الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر، ص ٢١.

(٤) - سر صناعة الإعراب، ابن جني، ص ٦١.

(٥) - الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص ٢٤.

(٦) - يعتبر المحدثون الجيم صوتا قليلا لشدة لأنه يسمح بمرور الهواء أثناء النطق به وبالتالي أخرجوه من الأصوات الانفجارية، كما عدّه كمال بشر صوتا احتكاكيا [يُنظر علم الأصوات، بشر كمال، دارغريب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٣١١، والأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص ٢٥].

أثر التساند بين مكونات اللغة في بناء معاني (جاء)

يتبين-اعتمادا على ما سبق- أن صوت الجيم يمنع النفس والصوت من الجريان، كما يحدث اهتزازا في الوترين الصوتيين أثناء النطق به، والمنع والاهتزاز صفتان دالتان على القوة والشدة.

ونعلم أن العربي قد اختار أصوات لغته بعناية، متوخيا منها التعبير عن معانيه، لذلك منحها صفات الهمس والجهر والشدة والرخاوة والتكرار، وغيرها من الصفات. ولأن الحرف حد للصوت يعرف به، والحروف بائتلافها مشكلة للألفاظ ومعانيها، اشتق علماء الأصوات القدامى معاني الحروف من معاني الألفاظ كما فعل ابن جني إذ "استهدى في ذلك تارة بقاعدته الذكية (لا ينكر تصاقب الألفاظ، لتصاقب المعاني) أي تقارب المعاني، كما استهدى تارة أخرى بقاعدته الأذكى (سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المراد)".^(١) ومن تم فالألفاظ المشتملة على صوت الجيم دالة على معاني القوة والشدة، وما جاورها، "من ذلك تقليب (ج ب ر) فهي-أين وقعت-لقوة والشدة. منها(جَبَرَت العَظْمَ، والفَقِير) إذا قَوَّيْتَهُمَا وشدَّدتَ مِنْهُمَا، والجَبْرُ: الملك لِقُوَّتِهِ وتقويته لغيره. ومنها (رجل مجرَّب) إذا جَرَّسْتَهُ الأمور ونجَّدتَهُ، فِقْوَيْتَ مُنْتَهُ، واشتدَّتْ شِكِمَتُهُ. ومنه الجراب لأنه يحفظ ما فيه، وإذا حُفِظَ الشَّيْءُ ورُوعِيَ اشتدَّ وقوي، وإذا أُغْفِلَ وأهْمِلَ تساقط ورذي. ومنها (الأبجر والبجرة) وهو القوي السَّرة [...] و(منه البرج لقوته في نفسه وقوة ما يليه) به [...] ومنها رَجَّبَتِ الرَّجْلَ إذا عَظَّمْتَهُ وقَوَّيْتِ أمره. ومنه رجب لتعظيمهم إياه عن القتال فيه"^(٢)؛ يتضح من هذه التقلبات أن اللفظ متى وجدت فيه الجيم دل معناه على القوة والشدة والعظمة، وما جاورها من دلالات سنيها.

(١)- خصائص الحروف العربية ومعانيها، فضل عباس حسن، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م، ص ٣٩.

(٢)- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تح. محمد علي النجار، المكتبة العلمية، ج ٢ ص ١٣٥-١٣٦.

لقد استخلص ابن جني، إذن، معاني الحروف من معاني الألفاظ، فيما استخلص عباس حسن تلك المعاني من المشاعر الإنسانية والحواس الخمس يقول: "فلو تأملنا صدئ صوت الجيم في نفسنا مثلاً [...] لأوحى لنا بالضخامة كإحساس بصري [...] وهذا ينسجم مع ما يوحيه منظر الجمل [...] وهكذا أطلق العربي بالفعل لفظة (الجيم الشامية)، على الجمل الهائج".^(١)

وتعزيزاً لما توصل إليه، قام عباس حسن بدراسة إحصائية لألفاظ المعجم المبتدئة بالجيم فأوحت نسبة مهمة منها على بعض تلك الدلالات، إذ وجد بعض المصادر التي "تدل معانيها على الشدة والفعالية المادية، منها: جشِب (غَلْظٌ واشتدَّ) [...] جَهَلَتْ القِدْر (اشتدَّ غلياًها)"^(٢). وما دل "على العِظْم والْفَخامة والضَّخامة والامتلاء والغِلظة مادياً ومعنوياً. منها: الجَأْر من الرجال (الضَّخْم) [...] جَعَا الشَّيْءُ (غَلْظًا) [...] جَوَثَ (عِظْم بطنه في أعلاه) [...] جَفْظَةُ (مَلَأَهُ)"^(٣)، كما كان بعضها للأصوات الشديدة؛ "لفظة (جَشَّ الصَّوت) مثلاً بمعنى (اشتدَّ وصار فيه بَحَّة) [...] ولفظة (جَجَجَ البَعير) اشتدَّ هديرُهُ"^(٤)، ومنها مصادر للانفعالات النفسية نحو: "جَشَّاتْ نفسه) ثارت للقيء، و(جَهَثَ) استخَفَّ الغَضْبُ أو الفَرَعُ"^(٥).

نخلص - انطلاقاً مما سبق - إلى أن صوت الجيم يجمع بين دلالات: الشدة والقوة والعظمة والفخامة والضخامة والامتلاء والغلظة والفجاجة، مما يجعله من الأصوات القوية الشخصية.

(١) - خصائص الحروف العربية ومعانيها، عباس حسن، ص ٣٨.

(٢) - نفسه، ص ١٠٦.

(٣) - نفسه، ص ١٠٦-١٠٧.

(٤) - نفسه، ص ١٠٩.

(٥) - نفسه، ص ١١٠.

أثر التساند بين مكونات اللغة في بناء معاني (جاء)

"ولو تدبّرت ألفاظ القرآن في نظمها [...] لن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي"^(١)؛ فمنها الجبل لعظمه وضخامته، وهو ما كانت له أوتاد تُشُدُّه إلى الأرض وتُثَبِّتُه عليها، قال تعالى: {الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ مَهْدًا ۖ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} [النبا: ٧-٦]. ومنها الجمع؛ وكلما اجتمع الشيء قوي واشتد، قال تعالى: {فَجَمِيعَ السَّحَرَةِ لِمَيِّمَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} [الشعراء: ٣٨]. والجنة لعظم الفوز بها، قال عز وجل: {فَمَنْ رُحِحَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [آل عمران: ١٨٥]. وجهنم لشدة العذاب وعظمه، قال تعالى: {يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهِمَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكَوِّمُ بِهَا جِبَاهَهُمَا وَجُنُوبَهُمَا وَظُهُورَهُمَا} [التوبة: ٣٥]. ومنها الجمال؛ شدة الحسن، جاء في الكتاب العزيز: {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ} [النحل: ٦]، والجاهلية؛ الباردة على الركب، قال تعالى: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِعَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْرَزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجمعة: ٢٨]؛ تصوير الحالم من شدة الخوف يوم القيامة. والجهد لشدة التعب، قال تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ} [النور: ٥٣]. والجهاد لشدة منع النفس من الشهوات وهو الجهاد النفسي، والجهاد في سبيل الله لعظمته عنده، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [التوبة: ٢٠].

ولأجل هذا كله فالراجح أن صوت الجيم في لفظ: (جاء)، من قوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: ١]، ألبس المجيء-مجيء النصر والفتح- دلالات القوة والشدة والعظمة، وسيوضح ذلك أكثر في موضعه (الدلالات البلاغية).

• صوت المد

لقد قسم المحدثون الأصوات اللغوية إلى قسمين: أصوات ساكنة (consonant) وأصوات لين (vowels)^(٢)، "وأساس هذا التقسيم عندهم هو

(١)- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الراجعي صادق مصطفى، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط٩/١٩٧٣م، ص٢٢٧.

(٢)- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص٢٧.

الطبيعة الصوتية لكل من القسمين. فالصفة التي تجمع بين كل أصوات اللين (vowels) هي أنه عند النطق بها يندفع الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة ثم يتخذ مجراه في الحلق والغم في ممر ليس فيه حوائل تعترضه فتضيق مجراه [...] وأصوات اللين في اللغة العربية هي ما اصطلاح القدماء على تسميته بالحركات من فتحة وكسرة وضممة، وكذلك ما سموه بالألف اللينة والياء اللينة والواو اللينة، وماعدا هذا فأصوات ساكنة^(١)؛ ومن تمفأصوات اللين تختص بالليونة نظرا لطبيعة المجرى الهوائي أثناء النطق بها.

ولم يختلف المحدثون مع القدماء في إضفاء خاصية الليونة على أصوات اللين، إلا أن القدماء يضيفون إلى الألف والواو والياء خاصية الامتداد في سياق ورودها ساكنة بعد فتحة بالنسبة للألف، وساكنة بعد ضمة بالنسبة للواو، وساكنة بعد كسرة بالنسبة للياء. وقد سموها حروف مد لمد الصوت أثناء النطق بها، ولأن الهواء يخرج معها حرا مستطيلا لا تعترضه حوائل، وعليه عدها الخليل جوفية هوائية وابن جني ممطولة لينة^(٢). وعلى الرغم من اشتراك حروف المد واللين في الصفات والمخرج إلا أن الألف أوسع الثلاثة مخرجا وأطولن امتدادا وأكثرهن ليونة^(٣). ويطول ألف المد أكثر في سياق وروده قبل همزة^(٤)، ونجد هذه الظاهرة عند علماء التجويد والقراءات حين

(١) - الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص ٢٧-٢٩.

(٢) - "الحروف الممطولة هي الحروف الثلاثة اللينة المصوتة وهي الألف والياء والواو. اعلم أن هذه الحروف أين وقعت وكيف وجدت (بعد أن تكون سواكن يتبعن بعضهن غير مدغمات) ففيها امتداد ولين؛ نحو قام، وسير به، وحوت وكوز، وكتاب، وسعيد، وعجوز". [الخصائص، ابن جني، ج ٣ ص ١٢٤-١٢٥].

(٣) - "ومنها الهاوي وهو حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد اتساع مخرج الياء والواو، لأنك قد تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قبل الحنك، وهي الألف. وهذه الثلاثة أخفى الحروف لاتساع مخرجها. وأخفاهن وأوسعهن مخرجا: الألف ثم الياء ثم الواو." [كتاب سيويه، ج ٤ ص ٤٣٥-٤٣٦].

(٤) - "إلا أنا لأماكن التي يطول فيها صوتها، وتتمكن مدتها ثلاثة، وهي أن تقع بعدها [...] الهمزة نحو كساء، ورداء [...] الأتراك إذا قلت: كتاب وحساب [...] لم تجدهن لدنات ولا وفيات مستطيلات، كما تجدهن إذا تلاهن الهمز". [الخصائص، ابن جني، ج ٣ ص ١٢٥].

يمدون صوت الألف ست حركات في نحو: (سواء) في قوله تعالى: { وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ } [يس: ١٠]. كما تؤثر هذه الألف المدية في معاني الألفاظ لتضفي عليها خاصية الامتداد في الزمان والمكان يقول عباس حسن: "إن الألف اللينة التي تقع في أواسط المصادر وأواخرها، يقتصر تأثيرها في معانيها على إضفاء خاصية الامتداد في المكان والزمان، كما في (باب-سماء-كافة-إلى - على)"^(١)؛ فالسماء مثلا تتصف بخاصية الامتداد في المكان، يدل على ذلك قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ } [إبراهيم: ٢٤]؛ جعل سبحانه فرع الشجرة في السماء لاتساعها وامتدادها. ومنه (إلى) التي تتصف بالامتداد في المكان في مثل قوله تعالى: { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا } [الإسراء: ١]. وفي الزمان كما جاء في قوله عز وجل: { ثُمَّ أَنْبَأُوا الْقِصَامَ إِلَى آيَاتِهِ } [البقرة: ١٨٧].

وبناء على كل ما سبق، نخلص إلى أن ألف (جاء) تجمع بين صفات اللينة والامتداد الطويل لورودها بعد فتحة وقبل همزة، مما يضفي على معنى المجيء خاصية الامتداد في الزمان، ومن تم يمكن القول: إن المسلمين استغرقوا زمنا طويلا في انتظار مجيء نصر الله والفتح، قال تعالى: { حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَعَى نَصْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ } [البقرة: ٢١٤].

• صوت الهمزة

إن ألف المد في لفظ (جاء) كما سبق الذكر تتصف بالامتداد في الزمان، وارتأينا أن ذلك دليل على امتداد زمن مجيء النصر والفتح، وطول انتظار المسلمين له، لكن ألف المد مها طال في سياق وروده قبل همزة ينتهي امتداده أو يضعف بعد توصل النطق بالهمزة

(١)- خصائص الحروف العربية ومعانيها، عباس حسن، ص ٩٧.

بعده؛ لأن الهمزة من الأصوات الانفجارية التي ينحبس الهواء عند النطق بها^(١). وهو الأمر الذي يؤكد علم الصوت الحديث إذ قسم مراحل حدوث الهمزة إلى مرحلتين؛ المرحلة الأولى يحدث فيها انغلاق تام لممر الهواء، والمرحلة الثانية يفتح فيها الممر فجأة فيحدث صوت انفجاري، ومن تم صُنِّت الهمزة ضمن الأصوات الشديدة.^(٢)

وباستحضارنا لسياق سورة النصر، وكذا اعتمادا على ما سبق، نخلص إلى أن توالي صوتي الهمزة (الذي يتسبب في إغلاق مجرى الهواء) والألف (الذي يمتد مع امتداد الهواء حرا مستطيلا) يوحي بأن نصر الله والفتح أمران مقدران مهما طال زمان انتظارهما، قال تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِّدِعَ فَعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيُضَرِّكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾} [الفتح: ١-٣].

١ - دلالات لفظ (جاء)

وبالانتقال من الدلالات الصوتية للفظ جاء إلى دلالاته اللغوية، نجد أن مصدر (ج ي ع): الجِيئة بفتح الجيم وكسرها، ورد في المقاييس: "الجِيئة: مصدر جاء[...]. ويقال هي جِيئة بالكسر والتثقيب."^(٣) وتطلق الجِيئة على ثلاثة أمور؛ أولها: الحفرة العظيمة التي يجتمع فيها الماء^(٤)، وثانيها: القطعة من الجلد التي يرقع بها النعل أو يخاط^(٥)، وثالثها: مكان في البطن من

(١) - "أما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة." [كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح. مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس، ج ١ ص ٥٢].
(٢) - "أما مخرج الهمزة المحققة فهو من الزمار نفسه؛ إذ عند النطق بالهمزة تنطبق فتحة الزمار انطباقا تاما فلا يسمح بمرور الهواء إلى الحلق، ثم تنفرج فتحة الزمار فجأة فيسمع صوت انفجاري هو ما يعبر عنه بالهمزة. فالهمزة إذن صوت شديد." [الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص ٧٧، وينظر المدخل إلى علم أصوات العربية، غانم قدوري الحمد، دار عمار، ط ١ / ٢٠٠٤ م، ص ١٠٨].
(٣) - مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تح. عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩ م، ص ٤٩٦-٤٩٧.

(٤) - "الجِيئة: الحفرة العظيمة التي يجتمع فيها ماء المطر" [لسان العرب، ابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت-لبنان، ج ١ ص ٥٣].

(٥) - "الجِيئة قطعة من جلد ترقع بها النعل، أو سير يخاط به، وأجاءها أي النعل إذا رقعها أو خاطها" [تاج العروس من جواهر القاموس، مرتضى محمد الزبيدي، تح. عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ١٩٦٥ م، ج ١ ص ١٨٤].

أثر التساند بين مكونات اللغة في بناء معاني (جاء)

أسفل السرة إلى العانة^(١)؛ وإذا أنعمنا النظر في هذه الدلالات وجدناها توحى بمعنى العظمة (الحفرة العظيمة)، والشدة والقوة (القطعة من الجلد التي يرقع بها النعل)، ذلك أن النعل إن خرق اهترأ ورذي، وإن رقع اشتد وقوي، كما توحى بمعنى الاستقرار والثبات (الحفرة العظيمة التي يجتمع فيها الماء)؛ لأن الماء إذا اجتمع في الحفرة استقر وثبت، ومنه الجيئة: مستقر بقايا الأكل في البطن.

وانطلاقاً مما أوحاه مصدر (ج ي ء)، يمكن القول إن المجيء متعلقاً بعظم من الأمور وثبت واستقر واشتد وقوي، وهو ما دل عليه صوت الجيم (العظمة، الشدة، القوة). ومن ثم نجد المجيء في القرآن الكريم يحتل مقامات العظمة والشدة والقوة والثبات، في نحو قوله تعالى: { وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ } [ق: ٢١]؛ تصور لنا الآية الكريمة موقفاً عظيماً من مواقف يوم البعث، وهو لا يخلو من شدة؛ شدة الخوف والفرع.

كما وردت (جاء) بمعاني متعددة، منها: (حصل)^(٢). وباستحضارنا لسياق السورة، فالمجيء في قوله تعالى: { إِذَا جَاءَ... } [النصر: ١] بمعنى حصل، إذ "عبر عن حصول النصر والفتح بالمجيء"^(٣) مجازاً وذلك لغرض بلاغي سنعرفه في موضعه (دلالة جاء البلاغية)، ومسوغ هذا التجاوز اشتراك (جاء) و(حصل) في بعض الدلالات، ف(جاء) كما سبق الذكر تتعلق بما كان مجيئه ثابتاً، ومن بين معاني (حصل): بقي واستقر وثبت^(٤)، ومنه الحوصلة^(٥)، والطريف أن "حوصلة

(١) - "وجيئة البطن: أسفل السرة إلى العانة" [المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسين علي بن إسحاق المرسي المعروف بابن سيدة، تح. عبد الحميد هندأوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط ١/٢٠٠٠م، ج ٧ ص ١٨٥].

(٢) - "المجيء هو الحصول". تاج العروس، المرتضى الزبيدي، ج ١ ص ١٨٢.

(٣) - تفسير حقائق الروح والريحان في رواي القرآن، الشافعي محمد الأمين، دار طوق النجاة، ط ١/٢٠٠١م، ج ٣٢ ص ٤٠٧.

(٤) - "يحصل يحصل حصولاً: أبقى وثبت." [كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ج ٣ ص ١١٦].

(٥) - "حوصلة الحوض: مستقر الماء في أقصاه." [المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسين علي بن إسحاق المرسي ابن سيدة، تح. عبد الحميد هندأوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط ١/٢٠٠٠م، ج ٣ ص ١٥١].

الإنسان وكل شيء [...] هو ما بين السرة إلى العانة"^(١)، وهي الجيئة، فهما مترادفان يطلقان على: المكان الذي يثبت فيه الأكل ويستقر، ومنه قيل "إن الغنم أكلت التراب والبقل وقد حصلت وهو يقتل"^(٢)؛ أكلت التراب فبقي حاصلًا ثابتًا مستقرًا في بطنها إلى أن قتلها.

كما ترد (جاء) أيضا بمعنى أتى^(٣)، قال تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَ تَهُمَ رَسُولًا بِأَلْبِينَتٍ} [المائدة: ٣٢]؛ أتتهم. ويدل الإتيان بدوره على معنى المجيء^(٤)، قال سبحانه: {لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ} [القصص: ٤٦]؛ ما جاءهم.

وإذا أنعمنا النظر في لفظتي (جاء) و(أتى) وجدناهما مترادفين إذ يعرف أحدهما الآخر، إلا أن ما يمايز بينهما كون الإتيان مجيء بسهولة^(٥)، ومنه قيل للسيل المار على وجهه أتى وأتاوي^(٦). ومن تم كان الإتيان مجيئًا بسهولة، قال تعالى: {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِيهَا مِنَ الْمَغْرِبِ} [البقرة: ٢٥٨]، ونعلم أنه سبحانه لا يصعب عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فكان إتيانه بالشمس من المشرق سهلا يسيرا، وكان ذلك على العبد مستحيلا، إنها حجة تعجيزية قابل بها النبي إبراهيم تكبر النمرود، {فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ} [البقرة: ٢٥٨].

وبناء على ما سبق فقد دل لفظ (جاء) على معاني متعددة وهي: العظمة والشدة والقوة والثبات والحصول والإتيان. وربط بين هذه الدلالات باستدعاء سياق سورة النصر، يمكن القول، وبالله التوفيق؛ إن مجيء النصر والفتح إتيان لأمرين عظيمين ثابتي الحصول.

- (١) - المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيدة، ج ٣ ص ١٥٠.
- (٢) - كتاب الحيم، أبو عمرو الشيباني، تح إبراهيم الإيباري مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٧٤م، ج ١ ص ٢١٤.
- (٣) - لسان العرب، ابن منظور، ج ١ ص ٥١.
- (٤) - نفسه، ج ١٤، ص ١٣.
- (٥) - إعجاز القرآن الكريم، فضل عباس حسن وفضل عباس سناء، ص ١٧٧.
- (٦) - لسان العرب، ابن منظور، ج ١٤ ص ١٥-١٦، وينظر المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيدة، ج ٩ ص ٥٤٨، والمقاييس، ابن فارس، ج ١ ص ٥٢.

٢- الدلالات البلاغية لـ (جاء)

بعد التجزيء والتفكيك لا بد من التجميع والتنسيق، إذ إن المعنى في صناعة الخطاب يكبر رويدا رويدا، ابتداء من أصغر الوحدات اللغوية الدالة (الصوت، واللفظ) وصولا إلى التركيب الذي يجيب عن سؤال: كيف؟ ولماذا؟ فالأول مختص بعلم النحو والثاني بعلم البلاغة التي تبقى - في استدرار المعاني من معين اللغة - مسك الختام، فهي تنظر في كل ما سبق إلى الحسن والرقّة والجزالة والرّفق. ولما كان ما يبلغ به المعنى في القرآن الكريم لا يتمثل فقط في دقة التركيب بين المفردات، بل يتجلى أيضا في حسن التّأليف بين حروف الألفاظ^(١)؛ فقد دلت أصوات لفظ (جاء) على صفات سبق لنا ذكرها في الدلالات الصوتية، وما شدّ انتباهنا هو أن هذه الأصوات لا تحيل على معاني متنافرة في تجاورها بل متكاملة متعاوضة تشكل لنا دلالة المجيء؛ فقد دلّ صوت الجيم على عظمة النصر والفتح، والألف على انتظار مجيئها، والمهمزة على انتهاء امتداد زمان انتظار الرّسول والمؤمنين، فكأنّه تعالى: "تجوّز عن الحصول بالمجيء؛ للإشعار بأن المقدّرات متوجّهة من الأزل إلى أوقاتها المعيّنة لها فتقرّب منها شيئا فشيئا. فكأنّها سائرة إليها"^(٢)، إلى أن تصل بقدره الله ومشيئته.

ولقد عبّر القرآن الكريم عن حصول النصر بالمجيء وكأنه أمر مشاهد، فالمجيء في ذاته حقيقي والنصر كذلك، وبإسناد فعل عينيّ إلى فاعل معنويّ^(٣) يصبح النصر قادرا على المجيء بذاته، وكأنّه سبحانه: "شبه المقدور وهو النصر والفتح بكائن حي يمشي متوجّها من الأزل إلى وقته المحتوم"^(٤).

(١)- "لا بد من مراعاة حسن التّأليف مع حسن الأحرف ورققتها. فمتى حصل الأمران أعني عدوية الأحرف ورشاقة تأليفها كان الكلام في غاية الحسن والإعجاب."

[الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، العلوي اليمني بجيلى بن حمزة، تح. عبد الحميد هندراوي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط١/٢٠٠٢م، ص١٢٤].

(٢)- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي القرآن، ابن عبد الله محمد الأمين، ج٣٢ ص٤١٤.

(٣)- "الوجه الثاني أن يكون الإسناد على جهة المجاز العقلي، والمراد منه ذا أناسانها (أي الأفعال) إلى فاعلها يقضي العقل باستحالته، فلاجرم كان مجازا عقليا، وهو في القرآن كثير، ويقال له المجاز المركب، والغرض أن مجازهما كان لإمن أجل تركيبه، وهذا كقول هتعالى: "وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا" [الزلزلة: ٢] فإن الإخراج حقيقة في الدلالة على معناه، والأرض حقيقة، لأنها موضوعة على معناها الأصلي، والمجاز إنما نشأ من جهة إسناد الإخراج إلى الأرض". [الطراز، بن حمزة بجيلى، ص١٤٢].

(٤)- تفسير حدائق الروح والريحان، ابن عبد الله محمد الأمين، ج٣٢ ص٤١٤.

خاتمة:

تستند المعاني في عملية بنائها - كما استفدنا من خلال هذه الورقة البحثية - إلى مجموعة من المفاتيح من بينها البنيات النصية الداخلية من أصغر وحداتها أي الصوت فاللفظ وصولاً إلى الأساليب البلاغية الفنية، بحيث عملت كل هذه المكونات على إجلاء معاني (جاء) في قوله تعالى: { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ } [النصر: ١]؛ فقد اتصف صوت الجيم بصفات متعددة من بينها العظمة، وهو ما أسنده المعنى اللغوي للفظ (جاء)، كما تعاضد علم الصوت والبلاغة في فهم التنزيل بشكل عجيب يحير عقل الغافل واللييب، ذلك أن لغة القرآن تَنَمُّ عن فصاحةٍ في المفردات والتراكيب؛ إذ ذهبنا في الدلالات الصوتية إلى أن المد في لفظ (جاء) دال على طول زمان انتظاره صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لمجيء النصر والفتح؛ لأن الهواء مع هذا الصوت يمر عبر مجراه حراً مستطيلاً، فأدت الهمزة منهيّة لهذا الانتظار؛ ذلك أن تشكلها يتسبب في انقطاع النفس وإغلاق ممر الهواء. ثم كشفت لنا المعاجم اللغوية على أن مجيء النصر مجاز إذ هو حصول في حقيقته، ولفهم المراد من ذلك انتقلنا إلى البحث في الأساليب البلاغية فكان التناسق والانسجام بين صوتي المد (امتداد الانتظار) والهمزة (انتهاء الانتظار) من بين ما يصير به اللفظ بليغاً فصيحاً، ذلك أن حسن التوليف والترتيب والتنسيق بين الصوتين أوصل المعنى المراد في أحسن صورة من اللفظ، وهو: أن النصر أمر مقدر فعبر عنه بالمجيء للإشعار بأن المقدرات سائرة منذ الأزل إلى أوقاتها المعينة لها.

لائحة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- ابن جنبي الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية؛
- ابن جنبي، سر صناعة الإعراب، تحقيق: حسن هندراوي، دار القلم، دمشق، ط ٢/١٩٩٣م؛
- ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان؛
- ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت-لبنان؛
- أنيس إبراهيم، الأصوات اللغوية، مكتبة نهضة مصر؛
- بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، بازي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط ١/٢٠١٠م؛
- بشر كمال، علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠م؛
- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي القرآن، الشافعي محمد الأمين، دار طوق النجاة، ط ١/٢٠٠١م؛
- الرافي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط ٩/١٩٧٣م؛
- سليمان مولاوي علي، مقال: تطالب المطالب وتشابك المسائل في شرح الإفرائي لتوشيح ابن سهل، في تحليل الخطاب، "كتاب جماعي"، مجموعة أبحاث علمية محكمة، إصدارات مختبر السوسيو لسانيات وتحليل الخطاب، فرقة تحليل الخطاب، دار القدس العربي، ٢٠١٦م؛

- سيويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣/١٩٨٨م؛
- الشيباني أبو عمرو، كتاب الجيم، تحقيق: إبراهيم الإيباري مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٧٤م؛
- الطيب البكوش التصريف العربي من خلال علم الصوت الحديث، الهيئة العلمية لمكتبة الاسكندرية، ط ٣/١٩٩٢م؛
- عباس حسن فضل وعباس سناء فضل، إعجاز القرآن الكريم؛
- عباس حسن فضل، خصائص الحروف العربية ومعانيها، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.
- عقيلي إبراهيم، تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١/١٩٩٤م؛
- العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط ١/٢٠٠٢م؛
- غانم قدوري الحمد، المدخل إلى علم أصوات العربية، دار عمار، ط ١/٢٠٠٤م؛
- الفراهيدي الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس؛
- محمد الزبيدي مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ١٩٦٥م؛

تأويلية التقابل في الحديث النبوي الشريف^(١)

الطالب الباحث: سعيد بن الحاج

تهديد:

يعد الحديث النبوي الشريف المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي،
فلذلك وجب العناية به قصد تعرف مواطن البلاغة ومواقع الفصاحة في خطابه ﷺ.
تنطلق رؤيتنا في معالجة الحديث النبوي الشريف من خلال ما قدمه القاضي
عياض من شروحات وفهوم تتغيا الوقوف على جوانب البراعة في الحديث النبوي
الشريف، مستندين إلى ما جاء به الدكتور محمد بازي في أبحاثه العلمية التي تروم فتح
آفاق التأويلية العربية على مناهج في الفهم والإفهام، مثلما بدا ذلك جليا في نظرية
التأويل التقابلي.

لقد كانت عناية القاضي عياض موجهة نحو شرح الحديث النبوي الشريف من
خلال ما تتيحه البلاغة من آليات، غير أن إمعان النظر في الحديث يفضي بنا إلى تلمس
سمة التقابل التي أثبت بناء الحديث الشريف، فكان سعينا أن نُبين عن هذا البناء
التقابلي الذي بدا واضحا في بنية التمثيل التي جاء عليها الحديث النبوي الشريف.

إذا كان مدار الاشتغال سينصب على إبراز التقابل في الحديث النبوي الشريف
فلا بد أن ننوه بالإطار النظري للدكتور محمد بازي الذي أسعفنا في تجديد النظر،
وتوسيع الرؤية التي يمكن بها الوصول إلى العديد من اللطائف والنكات التي يتيحها
التقابل في دراسة الحديث النبوي الشريف، فالتقابل كنز تستدر به المعرفة من الخطاب
كما عبر عن ذلك بازي بقوله: "فكان حظي كنزان: كنز التساند في تحقق الأفهام، وكنز
التقابل في تحقيق الإفهام"^(٢).

(١)- إشراف وتأطير الأستاذ مولاي علي سليمان

(٢)- بازي محمد، البنى التقابلية، خرائط جديدة لتحليل الخطاب، دار كنوز، المعرفة، ط١،

٢٠١٥م، ص١٦.

ومن ثمة وسمنا هذه الورقة بـ"منهاجية التقابل في الحديث النبوي الشريف" عملنا فيها على بيان الهيكل التقابلي الذي يقوم عليه الحديث النبوي الشريف، فوقع اختيارنا على حديث: "إن مثل ما بعثنى الله به - عز وجل - من الهدى والعلم... من خلال شرح القاضي عياض الموسوم بـ"إكمال المعلم بفوائد مسلم" الذي أوقفنا على جملة من التقابلات الشاوية في بنية الحديث النبوي الشريف.

لذلك سنعنى إلى بحث المحاور الآتية:

- التقابل في بنية التمثيل؛
- تجليات التقابل في الحديث النبوي الشريف؛
- التقابل ودوره الإمتاعى التصويرى؛
- التقابل ودوره التأثيرى الإقناعى.

١ - التقابل في بنية التمثيل

تكشف طبيعة الحديث النبوي الشريف عن طابعه التقابلي المميز، بحيث تتجلى منذ الوهلة الأولى العديد من التقابلات التي انعكست في خطاب القاضي عياض سعياً منه إلى شرح كلام النبي ﷺ وفسره، ولعل هذا التناول الذي قدمه القاضي خاصة في شقه البلاغي قد حوى الكثير من المضامين التي ستشكل منطلقاً تأسيسياً لعملية البناء والفهم، حيث تستند بالأساس إلى إعادة تكييف الآليات اللغوية والبلاغية قصد تعميق الفهم وتتبع أثر المعنى الذي ينطوي تحت البنيات النصية، ولعل هذه الالتفاتة التي راعاها الدكتور بازي في دراسة التقابلات توحى بفلسفة تحكم خطاباتنا بناء وفهماً، وهي بذلك تكرر لتجذر الوعي التقابلي في الذات الإنسانية التي تستعين بهذه الآلية قصد تفكيك الخطاب وإعادة بنائه بناء يضارع الكيفية التي فهم بها العلماء الأوائل التقابلات اللغوية التي تستمد مشروعيتها من التقابل الوجودي بالدرجة الأولى، وهو فهم ما كان ليتأتى لولا هذا النسق البنائي المضمّر في ذات الإنسان، ومن ثمة يمكن القول إن التقابل هو نسق من أنساق الفهم التي يعتمدها المؤول في استخلاص الدرر التي تبقى خبيئة البنى النصية.

تأويلية التقابل في الحديث النبوي الشريف

تجري البنية التقابلية واضحة جلية في المسار التأويلي لبينة الحديث النبوي الشريف، ويبدو هذا الأمر من خلال البناء التقابلي الذي يكون بين المثلين، ويؤتى به بين الشبيهين حتى تتضح المشاكلة وتظهر المشابهة؛ وفي هذا الصدد يقول السكاكي: "التمثيل: وهو التشبيه على سبيل الكناية، وذلك أن تراد الإشارة إلى معنى، فتوضح ألفاظ (تدل) على معنى آخر، وتكون تلك الألفاظ وذلك المعنى مثلاً للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه"^(١).

يظهر من كلام السكاكي قيام هذه العلاقة التقابلية التي تلتبس في التمثيل من خلال الكناية عن معنى من المعاني عبر ألفاظ تدل على معنى آخر فيرتبط المعنى الأول بالمعنى الثاني بجامع العلاقة التي تربط بينهما.

هكذا إذا تتداخل هذه المتماثلات فيما بينها قصد تشكيل فهم عميق بالمعنى الأول عبر كشف الصورة الجامعة بينهما وتوضيح الترابط بين الممثل له والممثل به؛ وفي هذا الصدد يقول محمد بازي: "ووظيفة المثل هي تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتحقق الإفهام مع قوة التصوير والتوصيف والتقريب"^(٢).

فالنفس البشرية تنزع إلى الفهم بالنظير والقرين حتى تعطيهما الحكم نفسه، ولأن التقابلية تشكل فسيفساء لتداخل العلوم والمعارف والمصطلحات فلا بد أن هذه الدراسة التقابلية ستعتمد المزج بين آليات الاشتغال؛ وفي هذا الصدد يقول بازي: "ولأن التقابلية قائمة على منجز علم البلاغة، وعلم اللغة، وعلم النحو، فإن العمل بها لتبيان الإعجاز البياني للنص القرآني -مثلاً- له وجاهته وقوته الإجرائية، سيما وأنها تركز على الجانب البلاغي لهذا الخطاب"^(٣).

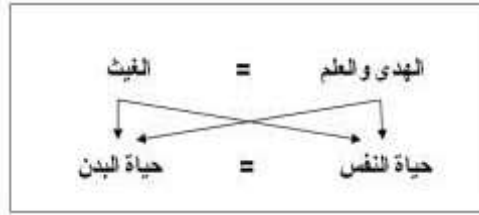
(١) - ضياء الدين مصطفى جواد، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمثور، مطبعة المجمع العلمي، ١٣٧٥ هـ، ص ١٥٧.

(٢) - البنى التقابلية: خرائط جديدة لتحليل الخطاب، ص ١٠٨.

(٣) - البنى التقابلية: خرائط جديدة لتحليل الخطاب، ص ٧٢.

إن التقابل الذي يربط بين الهدى والعلم والغيث في الحديث النبوي الشريف يحملنا على التساؤل على الشكل الآتي: لماذا الهدى والعلم في مقابل الغيث؟ كانت غاية الرسول ﷺ هي تصوير حال الرسالة وما تدعو إليه من الهدى والعلم والمعرفة والإيمان، وكذلك الدعوة إلى عبادة الله وعدم الإشراف به وتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق وغيرها من المكارم التي يحملها الأنبياء والمرسلون، غير أن تصوير هذه المعاني السامية الجليلة التي تقتضيها الدعوة وتنهض بها الرسالة تستلزم من الرسول ﷺ بيانها وتقريرها في نفوس الناس حتى تقبلها وتأنس بها، ومن ثمة إقامة الحججة عليهم أمام الله عز وجل لذلك كان التمثيل آية بيانية تصويرية وجسرا لعبور هذه المعاني لمعاصري الهدى النبوي وغيرهم ممن سيتلونهم، لأن الخطاب النبوي لا يقف عند زمن محدد بل يستمر زمانا ومكانا.

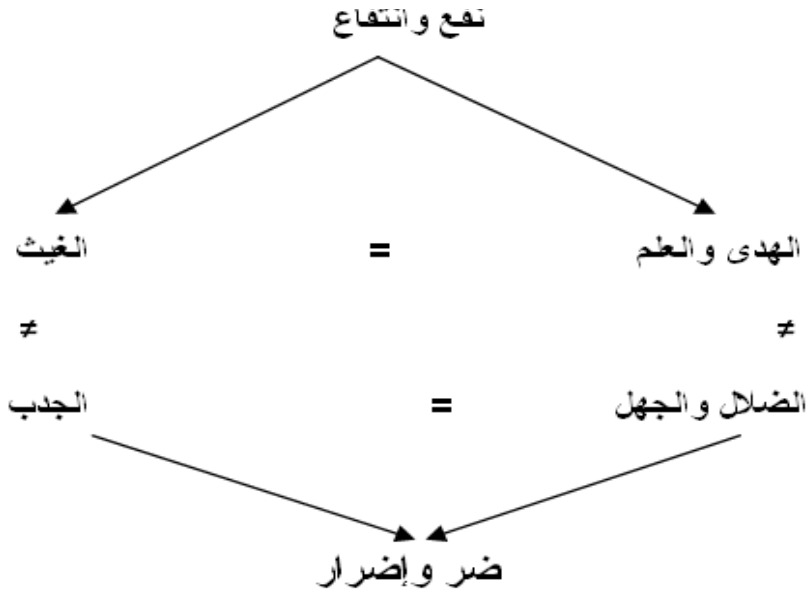
ومن ثم يمكن رسم هذه العلاقة التي تربط الهدى والعلم بالغيث على الشكل الآتي:



تكشف هذه الترسيمية عن التقابلات التي من شأنها التماثل داخل خطاب الحديث، ويتجلى ذلك على مستوى الغاية أو المآل أو المقصد، وذلك بالنظر في ما يحققه الهدى والعلم من جهة والغيث من جهة أخرى على حد سواء، وإذا كانت حياة الإنسان لا تقوم إلا بقوام جسده الذي مصدره الغذاء الذي يتحقق بالغيث، فكذلك لا يقوم فيه جانب الروح ولا تترقى النفس في مدارجها إلا بالعلم والمعرفة والإيمان، فانظر كيف يتقابل المعقول والمحسوس في خطاب النبي قصد تأدية المعاني.

تأويلية التقابل في الحديث النبوي الشريف

ولا يفوتنا أن ننبه إلى ما أشار إليه بازي في هذا الموضوع وهو تقابل التقابل ويظهر هذا الأمر واضحا عند تعرف أضداد هذه المعاني التي جاءت في الحديث النبوي الشريف استنادا إلى شروح المعجم، وإذا كان الرسول ﷺ قد أبان عن مزية ما جاء به من الهدى والعلم، فإن ظهور فظاظه مقابلات الهدى النبوي الشريف تبدو بالتدبير واستحضار علاقات هذه المفاهيم وهو ما يمكن توضيحه في الترسيم الآتية:



هكذا تبرز الألفاظ في خطاب النبي ﷺ الذي يقوم على التقابل في بناء الحديث، فيتجلى فيه التشبيه البديع والتصوير الفني العجيب والأسلوب الإقناعي الباهر، فتتصافر معالم خطاب النبي ﷺ وفق هذه الرؤية الجمالية التأثيرية، التي تكشف لنا انتقاء النبي لهذه الألفاظ المتقابلة، وكذلك هذا التقابل المرسوم على مستوى المآلات والنتائج؛ فالهدى والعلم طريقه النفع والانتفاع "إلا من أبى" أما الضلال فسييله الضرر والإضرار والجنابة على النفس وعلى الآخر؛ وتظهر تجليات هذا التقابل أيضا في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١).

(١) - سورة الزمر، الآية: ٩.

أما تقابل الجهل والجذب، تقابل التقابل، فيحمل العديد من الدلالات التي تبدو مشكلة لفهم الحديث النبوي الشريف ومحيطه بالحالة التصويرية وذلك لحقيقة التقابل بينهما؛ وفي هذا الصدد يقول شهاب الدين: "ضرب المثل بالغيث؛ للمشابهة التي بينه وبين العلم، فإن الغيث يجيي البلد الميت، والعلم يجيي القلب الميت، وقد كان الناس في الزمان الأول قبل المبعث، وهم على فترة من الرسل قد امتحنوا بموت القلب أو نضوب العلم، حتى أصابهم الله برحمة من عنده، فأفاض عليهم سجال الوحي السماوي، فأشبهت حالهم حال من توالى عليهم السنون وأخلفتهم المخايل، حتى تداركهم الله بلطفه، وأرخت عليهم السماء خزايلها ثم كان حظ كل فريق من تلك الرحمة على ما ذكره من الأمثلة والنظائر."^(١)

٢- تجليات التقابل في الحديث النبوي الشريف

أ- تقابل العلاقات

ترابط ألفاظ الحديث النبوي الشريف بجملة من العلاقات التي تبين عن تشكله بناء وفهما مما يفيدنا في تعرف بنياتها الخفية، وهكذا تتاح لنا فرصة التعرف على الكيفية التي يبني بها الخطاب وكيف تتمثل علاقاته منتصبة أمام الإنسان الذي يقصد إلى مسائلة هذه البنى التي جاء عليها الحديث النبوي الشريف بكيف؟ ولماذا؟

لا يخفى أن للحديث النبوي الشريف مقاصد وغايات تفسر انبائه على أشكال وكيفيات تراعى فيها أحوال المخاطب، حضوراً أو افتراضاً، تسعى إلى التبليغ والإرشاد وحسن التصوير والإقناع وحمل النفس على الاعتبار، والدعوة إلى التأمل التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمقايسة وعلاقات الممثل له والممثل به ضمن هذه العلاقة التقابلية.

(١)- الثوربشني شهاب الدين، الميسر في شرح مصابيح السنة، تح: عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط ٢- ٢٠٠٨، ج ١، ص ٨١.

تأويلية التقابل في الحديث النبوي الشريف

يبقى الغرض الأساس من إبراز هذه التقابلات هو الوقوف عند جوانب تشكل الحديث النبوي الشريف، وفهمه عند المخاطبين، وتبيان أهميتها في اتساق الحديث وانسجامه، وهي تعكس في آخر المطاف هذا الكون التقابلي الذي يعيشه ﷺ فيحاول أن يترجمه في خطابه، فلا جرم أن تكون قسمة النبي ﷺ مستوفية لأصناف الناس؛ وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد بازي: "تكمّن بلاغة مثل هذه الخطابات النبوية في مراعاة أحوال المخاطبين، وبيئاتهم، وهي قائمة على تقسيم سليم يقبله العقل، وتهفو إليه التصورات والخواطر، وإذا تساءلت عن سر هذا البيان ومبعث هذا الاتساق الداخلي، وجدت بنية تقابلية تقسيمية عميقة، تقسم العالم وفق ما هو موجود، ووفق المفهومات والمعلومات عند المخاطبين. ولو تأملت كثيرا من الأحاديث النبوية لوجدت من معالم بلاغتها القاعدة التحتية المؤسسة للتقابل، باستعمال الأساليب البيانية التي اعتبرتها العرب آلة صناعة الكلام البليغ، ثم استخلصها البلاغيون، مثل التشبيه والاستعارة والكناية والتعريض وغيرها، ولم يلتفتوا إلى الأسس التقابلية المرجعي والذهني الكوني الذي تؤوب إليه كل الأساليب وكل الفنون البلاغية."^(١)

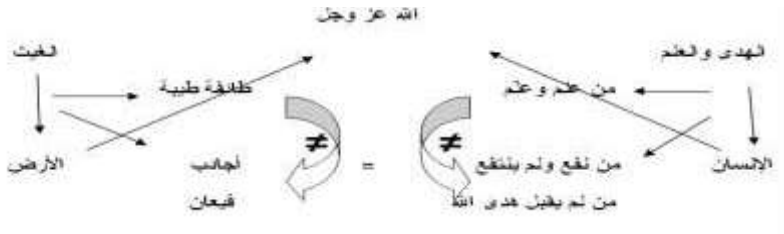
وبالعودة إلى الحديث النبوي الشريف نجد العديد من العلاقات التي يمكن استخلاصها بالتدبر وإطالة النظر؛ وتستند هذه الرؤية إلى محاولة كشف مختلف الترابطات التي هي مدار اتساق الحديث النبوي الشريف، ومناط جماليته التي تبهر العقول، فإن كان هذا التمثيل سبيلا في تعرف صنوف الناس أمام الهدي النبوي الشريف، فإن بنية الحديث تطرح العديد من المداخل (العلائق) في استبصار الهندسة الدقيقة التي يقوم عليها الحديث، فمن ذلك علاقة الإنسان بالهدى والعلم باعتبار نوع العلاقة التي تصور تجليا من تجليات الرعاية الربانية للإنسان، وهي ذات بعد عمودي، تحيل على وجوب الطاعة والانقياد، فالدين هو الكفيل برسم معالم الشريعة الواضحة

(١) - البنى التقابلية: خرائط جديدة لتحليل الخطاب، ص ٩٨.

لأن مصدرها رباني إلهي، فحقيق بالعباد السير وفق هذا المنهج الرباني القويم، ويتجلى هذا الأمر واضحاً في قوله ﷺ: "إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ" (١).

تُجلى علاقة الإنسان بالهدى والعلم من جهة علاقة الإنسان بربه، وتكشف عن هذا الأمر الدلالات التي تستفاد من هذين المفهومين؛ "فالهدى والعلم يسميان حياة، وكذلك الإيمان. والضلال والكفر والجهل يسمى كل واحد منهم موتاً، قال تعالى: "أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ" (٢) أي: ضالاً فهديناه، وجاهلاً فعلمناه، قال تعالى: "إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ" (٣).

تبرز علاقة التقابل جلية واضحة وبها تعرف شدة الشوق إلى المعارف الربانية كاحتياج الأرض إلى الغيث الذي يأتيها بعد سنوات القحط، وهكذا ترتبط هذه التقابلات فيما بينها لتصور علاقات التمثيل، فيبين حديث الرسول ﷺ هذه المعاني للمخاطبين الذين يعرفون من حقيقة الشاهد، علاقة الأرض بالغيث، حقيقة الغائب التي تتجلى في إحياء العلم للقلوب الظامئة إلى حقائق نور النبوة، ويمكن التمثيل لهذه العلاقات بالترسيمة الآتية بناء على حديث النبي ﷺ:



(١) - القاضي عياض، إكمال المُعَلِّم بفوائد مُسَلِّم، ج٧، ص٢٤٨.

(٢) - سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٣) - اليفرنى محمد، الاقتضاب في غريب الموطأ وإعرابه على الأبواب، تح: د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، ط١ - ٢٠٠١ م، ج٢، ص٥٤١. والآية في سورة الأنفال:

تأويلية التقابل في الحديث النبوي الشريف

تتجسد علاقة المطابقة بشكل واضح من خلال هذا الرسم، مما يفتح مجالاً لبعض التقابلات التي يمكن ملاحظتها، وإيجاد بعض المسوغات التأويلية لها ضمن إطار التأويلية العربية البليغة. ويمكن ملاحظة جملة من العلائق التي تربط بين ألفاظ المصطفى ﷺ:

ب- تقابل التناظر أو التماثل

تستدعي بنية التمثيل عند البلاغيين العرب التماثل بين الممثل به والممثل له، ويمكن تلمس وجه هذه المماثلة في ما يربط بينهما من تشابه خفي أو جلي، وهذا ما يبرر عيهم على بعض الشعراء ما سموه بالاستعارات القبيحة، ومرجعهم في ذلك إما إلى تعقد وجه المماثلة أو الشبه أو ما تقوم عليه هذه العلاقة من تعقيد يقتضي إطالة النظر، وهذا على خلاف الحديث النبوي الشريف الذي جاء واضحاً لا يخالطه اللبس، إذ قابل الرسول ﷺ بين أصناف الناس وأصناف الأرض؛ وفي هذا الصدد يقول القاضي عياض: "وهو من بدیع الإيجاز والبلاغة، فإنه ذكر ثلاثة أمثلة ضربها في الأرض"^(١). تأتي هذه القسمة النبوية البليغة للأرض في إطار تبيين أصناف الناس تجاه ما جاء به المصطفى، فالتمثيل باعتباره بنية تهدف إلى التصوير لا يستقيم حصول المقصود منه إلا بإبراز التماثل بين الهدى والعلم من جهة والغيب من جهة أخرى، بل إن تتبع البنيات الصغرى التي تقابلت في حديث النبي ﷺ وتناظرت رهينة بيان هذا البناء التمثيلي الذي يشكل وحدة كلية قوامها التماثل، وليس يخفى ما يحققه هذا التبع من مضامين ورؤى، فالرسول ﷺ إذ حدد هذه الأصناف وحصرها في ثلاثة فكأنه يقول: انظر أين تضع نفسك.

ت- تقابل التضاد

بدا اعتناء شراح الحديث ببنية التمثيل واضحاً في تناولهم لفسر الحديث النبوي الشريف، غير أن الغوص في تبين مضامين الحديث النبوي الشريف يفضي بنا إلى

(١) - إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٧، ص ٢٤٨.

الوقوف على بعض التقابلات التي ترتبط فيما بينها بما يمكن أن نسميه متضادات، وهذا التضاد ما هو إلا تصوير ينطلق من الواقع ليجد نفسه في اللغة، بتعبير آخر: إن الرسول ﷺ يمثل أحوال الناس في الوجود، بما كان منهم، وبما هو كائن في زمنه، وبما سيكون في المستقبل، فالخطاب النبوي الشريف يحيط بجميع الناس بهذه القسمة، فالتضاد في دلالاته اللغوية يفيد عدم الاجتماع؛ وفي هذا الصدد يقول ابن فارس: "الضدُّ ضدُّ الشَّيءِ. وَالمُتضَادَّانِ: الشَّيْئَانِ لَا يَجُوزُ اجْتِمَاعُهُمَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، كَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ."^(١)

فالتضاد، بهذا المعنى، وارد في حديث الرسول ﷺ، وتظهر هذه العلاقة في العلاقات الازدواجية التي تدخل فيها (طائفة طيبة مع قيعان)، كما هو موضح في الخطاظة الأخيرة، وكذلك في العلاقة الكائنة بين المقابلات لصنوف الأرض من الناس: الطائفة الأولى مقابل الطائفة الثالثة، ومن ثمة تبرز علاقة التضاد بحيث يمكن القول إن هذا التصوير النبوي الشريف يكشف عن مكونات الناس وذلك أن التقابلات المنطلق: الطائفة الأولى في مقابل الطائفة الثانية تؤول إلى التقابلات الهدف: الانتفاع والنفع.

تتضح هذه الرؤية ضمن نسق الحديث النبوي الشريف من خلال قول بازي: "بما يحمله التقابل في تصور نظرية التأويل التقابلي من القصد إلى محاذاة الألفاظ والمعاني في الحيز الذهني لإيجاد علاقات ممكنة أو كائنة بينها، وهي علاقات كثيرة لا يمثل التضاد أو التناقض إلا شكلا من أشكالها."^(٢)

تظهر أهمية هذا النوع من الترابط الذي يحافظ على جمالية الحديث النبوي الشريف في الكشف عن الصلات بين هذه الألفاظ، ثم إن هذا الترابط يسعفنا في

(١) - ابن فارس أحمد، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، مادة [ضد].

(٢) - البنى التقابلية: خرائط جديدة لتحليل الخطاب، ص ١٤٥.

تأويلية التقابل في الحديث النبوي الشريف

الخوض ضمن مقاصدها وغاياتها، لعلنا نكشف بذلك البنية العميقة التي يحتويها كلام المصطفى ﷺ، وقد ارتكزت هذه الرؤية على التضاد باعتباره سبيلا لبيان المعاني، فالأشياء بضعها تعرف.

٣- التقابل ودوره الإمتاعي التصويري

الجمال سر الله في خلقه، وهو مسلك من مسالك تبين إعجاز قدرة الله تعالى، ولا يخلو شيء في الوجود من نفحة الجمال، فتجلياته في هذا الكون الفسيح أكثر من أن تحصى، والنفس تميل إلى استحسان الأشياء الجميلة وذلك للمناسبة التي تحصل بينها وبين الشيء المستحسن، وكذلك يكون كلام المصطفى ﷺ، وذلك لنزوله في النفس موقعا حسنا، فتصوبو بذلك إلى تعرف مكامن خطابه وما يحويه من الأسلوب البديع والتصوير العجيب، الذي يشد إليه المخاطب شدا، ويهدف التصوير النبوي الشريف إلى تجلية المعاني أمام ذوي البصائر، عبر اعتماد الحس والتجربة لكي تكون سندا في تقرير هذه الدلالات التي جاء بها النبي ﷺ، والمتأمل في حديثه يجد فيه تقابلا بين معنيين؛ معنى مرئي محسوس، ومعنى غير مرئي معقول، ولذلك فالحقيقة تبقى عاجزة أمام تصوير هذه الترابطات التي تجمع بين هذين المعنيين، فكان طريق ذلك التمثيل الذي يجعل منهما مرأتين تنعكس صورة كل واحد في الآخر، فتتضح بذلك هذه الصورة التي تخلق لوحة فنية لغوية قوامها التقابل، وغرضها التصوير؛ فلا جرم أن كان التمثيل وسيلة تحقيق هذه المضامين النبوية الجليلة، وفي هذا الصدد يشير الجرجاني إلى فضل التمثيل ومحاسنه في الكلام إذ يقول: "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه، أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صباية وكلفا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا."^(١)

(١)- الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ص ١١٥.

إن التقابل داخل بنية التمثيل يبدو واضحا جليا، وقد لمسنا هذا الأمر عند شرح الحديث في شروحه لحديث النبي صلى الله عليه؛ حيث يقول شهاب الدين ما نصه: "مثل الشيء: إذا انتصب وتصور، وأصل المثل: الانتصاب، والممثل المصور، والمثل: عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر، بينهما مشابهة، ليين أحدهما الآخر ويصوره، والغيث: المطر، وإنما ضرب المثل بالغيث؛ للمشابهة التي بينه وبين العلم." (١)

تلکم حقيقة التمثيل، وهي مثل صورة المعاني في النفس، عن طريق المشابهة بين الممثل له والممثل به، وهي علاقة تركز على إبراز وجه من الوجوه التي تصلح أن تكون وجها لهذه المقايسة بينهما، والنفس الإنسانية تركز إلى المجرب المحسوس لذلك يمكن تفسير هذا النزوع نحو تمثيل المعاني المعقولة بنظيرتها من المعاني المحسوسة شرط وجود علاقة رابطة بينهما.

إن التقابل باعتباره مرتكزا من مرتكزات بناء الحديث النبوي الشريف، والتمثيل بشكل أعم، يظهر هذا الملمح التقابلي حتى على مستوى المآلات والمقاصد التي يؤول إليها الخطاب الذي يزواج بين البعد التصويري الإمتاعى، وبين البعد التأثيرى الإقناعى، علاوة على ذلك يمكن أن نتبع هذا البعد الإيحائى والتصويرى في كلام الرسول عبر علاقات التماثل والتضاد التي سبقت الإشارة إليها، وهي علاقات تكشف لنا حقيقة الإنسان أمام الوحي الإلهي، وتفصح المجال للمتأمل للخلوص إلى مرامي كلام الرسول التي جاءت ثابوية في خطابه، وتأتي مزية هذا التصوير النبوي الشريف من خلال جودة السبك وحسن التركيب؛ وفي هذا الصدد يقول عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني: "وأما التمثيل المركب: فهو التمثيل الذي يقدم على شكل لوحة تصور أكثر من مفرد، والمماثلة الملاحظة بين هذه الصورة وبين الممثل بها ليست

(١) - الميسر في شرح مصابيح السنة، ج ١، ص ٨١.

تأويلية التقابل في الحديث النبوي الشريف

مأخوذة من مفرد بعينه، وإنما هي مأخوذة منه ومن غيره، إما على شكل عناصر مفردة متلاقية، وإما على شكل وحدة مركبة لا يشرط فيها التقابل الجزئي بين مفرداتها وبين مفردات ما ضرب له المثل.^(١)

يتشكل هذا التصوير النبوي الشريف الذي نحاول تبيانته من خلال ألفاظه ﷺ وتراكيبه وما تُبين عنه من معانٍ، تتداخل فيما بينها لتشكل صورة بديعة، غير أن هذه الصورة تتفرع هي كذلك إلى أجزاء أي تمثيلات صغرى تشكل نواة هذا الجانب التصويري الإمتاعى في كلام المصطفى ﷺ، بناء على ما جاء عند القاضي عياض.

يقول القاضي عياض: "والأول: مثل الأرض التي قبلت الماء وأنبت الكلاً والعشب الكثير، فانتفعت بالري وأكثر في نفسها وأنفع الناس بالرعي لما أنبتته، وهذا كالذي يفقه في نفسه وعلم ما يحمله، وعلمه الناس."^(٢)

تتجلى فنية التصوير النبوي الشريف في الكيفية التي قدم بها الرسول ﷺ خطابه القائم على التقابل والتماثل في تجلية الحقائق أمام الناس، وهو الأمر الذي لم يفت القاضي عياض شرحه وتفسيره، وتتسم هذه الصورة البليغة بالتكرار والتجدد والحدوث في كل زمان ومكان مما يجعل الحديث مفهوماً لدى عموم المخاطبين، إنه تصوير وإقامة للحجة في الآن نفسه، ولعل الذي يضيف على تصويره النبوي الشريف هالة الإعجاب هذه، هي الحركية التي تتموج أمام القارئ لدى سماعه للحديث النبوي الشريف، إنها صورة متحركة تبدو عياناً. مطر نازل فكلاً نابت، فانتفاع في نفسها، ونفع للناس، إنه تصوير لفصول السنة جميعها، كأنها تدور وفق نواميس الكون والإنسان يشاهد منها ما يملؤه عجباً وولها، أضف إلى ذلك أن هذا المشهد يعيشه الإنسان بكل تفاصيله منذ بدايته إلى نهايته، فلا عجب أن يترك الحديث في نفس كل

(١) - الميداني حبنكة، الأمثال القرآنية دراسة وتحليل وتصنيف ورسم لأصولها وقواعدها ومناهجها، دار القلم، دمشق بيروت، ط ١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م. ص ٨.

(٢) - إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٧، ص ٢٤٨.

مستمع ما يحقق فنيته التصويرية والإقناعية، وتقابل هذه الصورة المرئية التي يعيشها الإنسان بمختلف جزئياتها صورة الإنسان العالم الفقيه الذي يتلقى العلم ثم يعلم الناس، وبمقتضى هذا التقابل تتلقى الأفهام هذه الصورة النبوية الشريفة، باعتبارها تمثيلاً لغويا يبنى على مبدأ التقابل باعتباره سمة في الوجود واللغة والفهم، فيشكل هذا المنوال التقابلي جسرا لعبور هذه الأحكام المعبرة حسا في الأرض إلى الإنسان ذي العلم النافع المعبر نفعه عقلا.

أما القسم الثاني الذي ورد في كلام المصطفى فهو كذلك لا يخلو من حسن ورونق، وسبيل ذلك هو الجمع بين المتقابلين حتى يصيرا بصورة واحدة؛ وهو الذي أشار إليه الجرجاني إذ يقول: "فهو كما ترى مُقتضى أمورٍ مجموعةٍ، ونتيجةٌ لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض"^(١).

تتم صياغة صورة الصنف الثاني من صنوف الناس في كلام المصطفى عبر الاعتبار بالمحسوس في تقرير المعقول، إنها عملية تستمد أصولها من الواقع الاجتماعي للإنسان العربي، ولذلك كانت غاية التمثيل تبيان العلاقة بين الإنسان الذي تلقى العلم ولم ينتفع به، فجعل نفسه وعاء لهذا العلم يبلغه غيره، فكان كالأرض التي تنفع الناس بإمسك الماء دون تسربه إلى الداخل، وهذه الصورة هي مثال لما عليه الناس من أحوال تجاه العلم، ويحوي هذا القسم صورة فنية تجعل حال هذا الإنسان مطابقا لما ضرب له الرسول مثيلا في الأرض؛ فتنتقش هذه المعاني جراء هذا التصوير الذي يقوم على التناظر بين هذين الجنسين؛ وفي هذا الصدد يقول حازم القرطاجني: "إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكل شيء له وجود خارج الذهن، فإنه إذا أدرك، حصلت له صورة في الذهن تطابق ما أدركه منه، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك، أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصور الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم."^(٢)

(١)- أسرار البلاغة، ص ١٠١.

(٢)- القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص ٤.

تأويلية التقابل في الحديث النبوي الشريف

أما المظهر الثالث الذي يكمل التمثيل النبوي الشريف فهو ما عبر عنه القاضي عياض بقوله: "والثالث: من لم يهتبل بما بلغه، ولا رفع به رأساً، ولا قبله كالقيعان والصفاء التي لا تنبت ولا تمسك ماء."^(١)

تأتي هذه الطائفة في آخر كلام المصطفى ﷺ، وفيه ذم لها، ذلك أن الله أتاهم العلم فلم تنتفع به، بل أعرضت ونأت عنه، فحالها مثل حال الأرض التي لم تقبل الغيث ولم تنفع الناس، فيكون بذلك محور هذا التصوير النبوي دائراً على عدم الانتفاع وعدم النفع، ودرء الغطرسة والتعاضم والتجبر كما يوحي بذلك شرح القاضي عياض؛ وفي هذا الصدد يقول محمد بن صالح بن محمد العثيمين: "والقسم الثالث: لا خير له، رجل أصابه من العلم والهدى الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، ولكنه لم يرفع به رأساً ولم ينتفع به، ولم يعلمه الناس، فكان - والعياذ بالله - كمثل الأرض السبخة التي ابتلعت الماء ولم تنبت شيئاً للناس، ولم يبق الماء على سطحها حتى ينتفع الناس به."^(٢)

نخلص إلى أن بنية التمثيل في الحديث النبوي الشريف تقوم على التقابل؛ وهو منهج في بناء الخطابات وفهمها، ذلك أن النظر في الحديث النبوي الشريف يسمح بتعرف هذه التقابلات، ومن ثم محاولة إدراك العلاقات بينها. وإذا كانت بنية التمثيل تقوم على هذا البعد التصويري الذي يرمي إلى الكشف عن حقائق المعاني أمام المتلقين، فلا ضير أن نرد بعضاً منها، إن لم نقل كلها، إلى تقابل العناصر والأجزاء والعلائق، كي تتضح هذه الدلالات أمام الناس. إن التصوير بهذا المعنى يعتمد اللغة جسراً إلى أفهام الناس ومداركهم، وقد كان التمثيل في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم وسيلة من وسائل الدعوة ونشر الدين والترغيب والترهيب.

(١) - إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٧، ص ٢٤٨، ٢٤٩.

(٢) - العثيمين محمد، شرح رياض الصالحين، دار الوطن للنشر، الرياض، طبعة: ١٤٢٦ هـ، ج ٢، ص ٢٩٥.

٤- التقابل ودوره التأثيري الإقناعي

أرسل الله الرسل لتبليغ دعوته وتجديد الرؤى والأفكار، والسير بالإنسانية إلى ما فيها الصلاح، لذلك فخطابات الرسل تهدف إلى إقناع الناس والتأثير فيهم بأدلة بينة واضحة؛ فتخاطب العقول حيناً والقلوب في أحيان أخرى، وتلك سنة المصطفى ﷺ، إذ يلون خطابه بحسب مقتضيات الأحوال، فلم تكن أحاديثه على نسق واحد، بل تعددت وتنوعت مما حقق لها ثراء وغنى على مستوى الشكل والمضمون، فالتمثيل جانب من جوانب فصاحة المصطفى ﷺ الذي يحق الوقوف عنده لبحث مقاصده وإظهار غاياته، بناء على هذا النهج التقابلي الذي يهدف إلى تحيين المعارف، واستشرف مآلات النصوص، عبر الخلوص إلى مقصدية الحديث النبوي الشريف الذي يروم الإقناع والتأثير، ومن ثم تمثل هذه المعاني النبوية الجليلة والسير على هداها منهجاً وسلوكاً.

ولأن التقابل في بنية التمثيل يسمح بإدراك حقيقة العلاقة بين الممثل له والممثل به يصبح الغوص إلى المعاني المضمرة في الحديث النبوي الشريف أمراً جلياً، ولعل تتبع بنية التمثيل تكشف عن هذا المرمى الذي يهدف إلى الإقناع؛ وفي هذا الصدد يقول ابن وهب ما نصه: "وأما الأمثال فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون الأمثال، ويبينون تصرف الأحوال بالنظائر والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلباً، وأقرب مذهباً، [...] وإنما فعلت العلماء ذلك لأن الخبر في نفسه إذا كان ممكناً فهو محتاج إلى ما يدل على صحته، والمثل مقرون بالحجة [...] وإنما أرادوا بذلك أن يجعلوا الأخبار مقرونة بذكر عواقبها، والمقدمات مضمومة إلى نتائجها."^(١)

(١) - ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تح: حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، ص ١١٧، ١١٨.

تأويلية التقابل في الحديث النبوي الشريف

إن قياس الغائب على الشاهد كان قانونا حكم مختلف العلوم العربية التي سعت إلى تقريب الفهم للمتلقين، ومن ثم يحضر هذا التوجه الذي يحكم الإنسان في محاولته لتيسير الفهم لذلك كان طريق الحس أقرب الطرق الموصلة إلى هذا الغرض، فسييل تعرف هذا البعد التأثيري في الحديث النبوي الشريف هو تأمل هذا التناسق البياني في خطاب الرسول ﷺ، واستشراق حالة النفس أمام عذوبة الأسلوب النبوي الشريف، فالتقابل أساس التصوير باعتباره يحقق فنية هذا الحديث، إذ يفتح مجالا فسيحا للمخاطبين للتأمل، ويمكنهم من العبور من المتخيل الذهني الذي يرتبط بالعلم وعوائده، إلى الواقع المحسوس الذي تظهر فيه آثار نفع الغيث بادية على البلاد والعباد، إن هذا التصوير البياني لا ينأى بنا عن استحضار المصطفى ﷺ باعتباره النبي الذي بعث لإصلاح النفس وحث الناس على الالتزام بالفضائل، هكذا تتداعى هذه الخواطر لتبني هذه الصورة الفنية وتضفي عليها طابعها التأثيري والنفسي.

إذا كان التمثيل بهذه المزية التي تقرب المعارف إلى أفهام الناس فإنه من الواجب علينا التساؤل عن كيفية تأثير التمثيل في الإنسان؟

يشكل التقابل، إذا، بين الإنسان والأرض مدار العلاقة التأثيرية التي يحتويها خطاب النبي ﷺ، وذلك لتيسير الفهم وتسرب هذه المعاني إلى أفئدة الناس وقلوبهم ويتجلى هذا الأمر في قول المصطفى ﷺ: "فَذَلِكَ مَثَلٌ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلٌ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ" (١).

تسعى هذه القسمة النبوية إلى تعليم الناس من خلال ذكر خصائص كل صنف على حدة، والتأثير فيهم عبر إقامة الحججة عليهم؛ وهذا الذي لم يفهمه محمد بن صالح بن محمد العثيمين أن ينبه عليه قائلا: "وفي هذا الحديث دليل على حسن تعليم الرسول

(١) - إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٧، ص٢٤٨.

عليه الصلاة والسلام، ذلك بضرب الأمثال لأن ضرب الأمثال الحسية يقرب المعاني العقلية أي: ما يدرك بالعقل يقربه ما يدرك بالحس، وهذا مشاهد؛ فإن كثيراً من الناس لا يفهم، فإذا ضربت له مثلاً محسوساً فهم وانتفع [...] فضرب الأمثال من أحسن طرق التعليم ووسائل العلم.^(١)

يستقي التعليم بالأمثال جوهره من البعد التقابلي بين المثليين، فلما بين الرسول ﷺ فضل الأرض المتفعلة النافعة وحسن عائدتها على نفسها وغيرها، قابلها بالإنسان الذي ينتفع هو كذلك وينفع، فلكان الرسول ﷺ، يفسح المجال للمخاطب لاستخراج النتائج من المقدمات، ويزداد هذا البيان النبوي الشريف بعرض صنوف الأرض مقابلاً إياها بأصناف الناس، لتظهر مزية هذا الخطاب الذي يروم التأثير في نفوس الناس ومن ثمة اتباع الأصلح فالأصلح.

إن تأثير التمثيل لا ينفك عن استحضار طبيعة خطاب الحديث النبوي الشريف، لأنه يستمد منه العون لبقاء أثره في قلوب الناس، وسريان مفعوله في وجدانهم، إنه ذو طابع إرشادي؛ يحث النفس عن طريق الجسد؛ وفي هذا الصدد يقول الدكتور عبد السلام أحمد الراغب: "وقد اعتمدت الصورة، لتحقيق وظيفتها العقلية. على مشاهد الطبيعة باعتبار هذه المشاهد محسوسة مدركة واستخلصت منها (الاستدلال) على القضايا الدينية، لإقرارها، وترسيخها في الإنسان، والإنسان يميل بطبعه إلى المعرفة الحسية، ويتجاوب معها، أكثر من المعرفة الذهنية المجردة."^(٢)

هكذا يظهر الحديث النبوي الشريف على شكل تمثيل يجسد قسمة بديعة تنتظم الأرض كما تنتظم الناس، غير أنها تخاطب بموجب مكانة المصطفى الإنسان باعتباره موحى إليه، فلا جرم إذا أن ينبنى هذا الخطاب على ما يحقق له هذا المقصد، إنه التقابل

(١) - شرح رياض الصالحين، ج ٢، ص ٢٩٥.

(٢) - أحمد الراغب عبد السلام، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، ط ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، ص ٤٣٩.

تأويلية التقابل في الحديث النبوي الشريف

الثاوي داخل بنية التمثيل الذي يؤثث كلام المصطفى ﷺ. يقول الدكتور بازي بصدد تقابل الهدى والعلم والغيث: "الهدى يصيب قلوبا متباينة في قبول الدعوة والانتفاع بها والنفع، مقابل الغيث يصيب أراضي مختلفة. هذه الأرض في تلقيها الماء تتقابل في البناء الذهني والتصور: أرض نقية تنبت الكأ والعشب ويظهر فيها أثر الماء، أرض جدباء تمسك الماء فينتفع به الناس، وأرض جدباء لا تمسك ولا تنبت عسبا. وفي المقابل التشبيهي: الأرض النقية المنبتة (مق) المتفقه في الدين العالم المعلم. ومقابل الأرض الجدباء من لم يقبل الهدى ولم يتعلم ولم يعلم. ومقابل الأرض الجدباء النافعة من ينفع الناس ولا ينتفع."^(١)

يسعى الدكتور محمد بازي إلى محاولة الكشف عن الأنساق التقابلية التي تقوم عليها مختلف الخطابات، ذلك أن التقابل هو تجلّ من تجليات هذا الوجود، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن ينطبق الأمر نفسه على اللغة، باعتبارها تعيد تصوير الوجود عبر رموز لغوية نستطيع بها الفهم، فيلزم من ذلك أن تكون مطابقة لهذا الوجود نفسه، وقد سمحت لنا بنية التمثيل تعرف دوره الإقناعي في تأدية المعاني وحث النفوس عبر عملية المقايسة التي تقوم بالأساس على تقابل عناصر التمثيل، باعتباره بنية تقابلية تثوي خطابا آخر يتشكل عبر استحضار مجموعة العناصر التي تسهم في تشكل هذه المعاني النبوية الشريفة.

(١) - البنى التقابلية: خرائط جديدة لتحليل الخطاب، ص ٩٨، ٩٩.

خاتمة:

إن الوقوف على ما جاء به القاضي عياض من شرح الحديث النبوي يكشف عن البناء التقابلي الذي ارتسم جلياً في الحديث الشريف، خاصة فيما قدمه في الشق البلاغي منها.

ترتكز هذه الدراسة على محاولة النفاذ إلى ما يحتويه شرح القاضي عياض من نظرات ثاقبة قائمة على التقابل في تبين المعاني المتضمنة في حديث الرسول ﷺ. تشكل جملة التقابلات المتوصل إليها آليات تسعفنا في فهم الحديث وذلك من خلال الاستناد إلى ما جاء به الدكتور بازي ومحاولة قراءة شرح القاضي عياض قراءة تتطلع إلى تنوير الحديث من خلال فتح آفاقه على التأويل البليغ. تأتي هذه التقابلات النبوية لمقاصد متعددة تستحضر- في أثناء عملية الفهم والتأويل، وهو ما حاولنا بيانه ضمن غايتي التأثير والتصوير، إذ تشكل رؤيتنا انطلاقة من مساءلة الأغراض الثاوية في حديث النبي ﷺ عبر استحضار مختلف المعارف التي تعيننا على التأويل البليغ للحديث قيد الدراسة.

لائحة المراجع:

- ابن فارس أحمد، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م؛
- ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تح: حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة؛
- أحمد الراغب عبد السلام، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، ط ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م؛
- بازي محمد، البنى التقابلية، خرائط جديدة لتحليل الخطاب، دار كنوز، المعرفة، ط ١، ٢٠١٥م؛
- التُّورِيشْتِي شهاب الدين، الميسر في شرح مصابيح السنة، تح: عبد الحميد هندأوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط ٢ - ٢٠٠٨؛
- الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة؛
- ضياء الدين مصطفى جواد، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنتور، مطبعة المجمع العلمي، ١٣٧٥ هـ؛
- العثيمين محمد، شرح رياض الصالحين، دار الوطن للنشر، الرياض، طبعة: ١٤٢٦ هـ؛
- القاضي عياض، إكمال المُعَلِّمِ بفوائد مُسَلِّمٍ، تحقيق: يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٩٨؛
- الميداني حبنكة، الأمثال القرآنية دراسة وتحليل وتصنيف ورسم لأصولها وقواعدها ومناهجها، دار القلم، دمشق بيروت، ط ١، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م؛
- اليفرني محمد، الاقتضاب في غريب الموطأ وإعرابه على الأبواب، تح: د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، ط ١ - ٢٠٠١م؛

تساند مستويات اللغة وأثره في بيان المعنى في الخطاب التفسيري

"تفسير البيضاوي نموذجاً"^(١)

عمر محضار

تقديم:

لا شك أن المقاربة التساندية للدكتور محمد بازي التي بسطها في كتابه التأويلية العربية تعد نموذجاً في فهم النصوص والخطابات، كما أنها محاولة جادة وطموحة لإعادة بناء مفهوم التأويل من خلال العودة به إلى أصوله وبنائعه في التراث العربي الإسلامي (القرآن الكريم، الحديث النبوي، التفاسير، الشروح..).

إن هذه المقاربة التساندية تقوم على التفاعل بين العناصر البانية للنص (البنى النصية) وما يحيط به من مواد سياقية خارجية (البنى السياقية)، فهي تتطالَب في الفعل التأويلي وتتساند كما تساندت في لحظة الإنتاج. وسنعمل على بيان المقصود بالتساند عند بازي محمد ومرجعياته، كما سنقدم نماذج تطبيقية تبين دور تساند مستويات اللغة في بيان المعنى في الخطاب التفسيري من خلال نموذج تفسير البيضاوي "أنوار التنزيل وأسرار التأويل".

التساند عند بازي محمد

في سياق بسط مقاربه التساندية عمل الدكتور محمد بازي على تعريف التساند باعتباره مفهوماً مركزياً، والتساند عنده هو: «تبادل العون والمساندة في عملية بلوغ المعنى بين العناصر المعتمدة في الفهم؛ فاللغة مثلا تسند التخريج النحوي أو البلاغي، والاشتقاق يسند اللغة والنحو، والنصوص الموازية تسند الدلالة، والمثل يدعم المعنى... إنه تساند يتأسس لحظة الاشتغال بالتأويل بين الدوائر النصية والدوائر السياقية. وهو تساند تتحقق فيه الملاءمة والانسجام بين العناصر والمستويات»^(٢).

(١) - إشراف وتأطير الأستاذ مولاي علي سليمان

(٢) - بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط١، ٢٠١٠، ص ٣٤٨.

يتضح لنا من خلال هذا التعريف أن التساند عند محمد بازي هو التفاعل والتطالب والتشارك في مد يد العون والمساندة بين الدوائر النصية (من لغة، ونحو، وصرف، وبلاغة، وقراءات) والدوائر السياقية (من نصوص قرآنية، وحديثية، وخبرية، وشعرية، وإسرائيليات، وأمثال، وأقوال..) في بناء المعنى، فاللغة مثلا تسند التخريج النحوي أو البلاغي، والاشتقاق يسند اللغة والنحو.. إنه تساند بين الدوائر النصية فيما بينها من جهة، وبين الدوائر النصية مع الدوائر السياقية من جهة أخرى.

هكذا يصبح التساند هو: التعاون والتعاقد والتطالب والتفاعل، وتحمل هذه المفردات اللغوية معنى التعاون، والتساند في مقترح الدكتور محمد بازي يمتح من هذه المعاني: التقابل والتعاون والتعاقد بين العناصر المعتمدة في بناء المعنى.

خطاب التفسير والتساند

إن خطاب التفسير متشابك العناصر ومتساند المستويات، ومادام هذا الخطاب ذا طبيعة لغوية ونصية فتحليله لا بد أن يتم بالاحتكام إلى جملة من العلوم اللغوية وغير اللغوية، وهذه العلوم اللغوية متجاذبة ومتراطة، ولا يمكن لمفسر الخطاب بلوغ مراميه بدون الاطلاع عليها جملة وتفصيلا، تبعا لذلك فالمقاربة التساندية في تحليل هذا الخطاب هي السبيل الوحيد والأوحد لبلوغ المعنى فيه.

وإذا أمكن لنا أن نتحدث عن تساند مستويات اللغة ودوره في بيان المعنى في خطاب التفسير عند البيضاوي، فإن هذا الطرح التساندي لن يكون سوى تجميعاً لمؤشرات خفية تحكمت في اشتغال البيضاوي في خطابه التفسيري، فهو لا يصرح به في مقدمته ولا في اشتغاله، وإنما يتضح ذلك من خلال استعانه بالبنيات النصية^(١) (صوتا، ومعجما، ونحوا، وبلاغة، وقراءات) في النهوض بالمعنى وإقامته، وانفتاحه على مؤشرات خارجية أو كما يسميها الدكتور بازي بـ"البنيات السياقية" من مناسبة وحديث، وشواهد شعرية...

(١) - ينظر التأويلية العربية، ص ٣٥٢.

إن المستويات اللغوية (النصية) رغم فاعليتها في بناء المعنى فهي تبقى قاصرة وغير كافية في الإحاطة بالمعنى العام، ما لم تستند أو تعزز بمؤشرات خارجية كفيلة بتعويضها ومساندتها، وهذا دليل على تطالب البنى النصية وتساندها وتفاعلها فيما بينها أولاً، وانفتاحها على البنى السياقية لتعويض المعنى ثانياً، وهذا «التطلب بين الجزئيات النصية وما يتعلق بها من سجلات خارجية له أثر كبير في المعنى تأكيداً أو توسيعاً أو تدعيماً وتعزيزاً، وليس الشكل الذي توجد عليه خطابات التفسير العاملة إلا نتاجا تفاعل فيه قوة المعنى في بنيات النص بقوة المعنى في سياقاته أو موازياته الخارجية، ومن ثمة تصبح صناعة خطاب التفسير فعلاً معرفياً تتناغم فيه الخلفيات المعرفية ومعطيات النص تناغماً تشارك في تشكيله كل المعارف والعلوم التي أنتجها العقل العربي»^(١).

نماذج تطبيقية من تفسير البيضاوي: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" المستوى المعجمي

لما كان القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب، كان لزاماً على المفسر معرفتها والإمام بمعاني مفرداتها، قصد فهم خطاب الله عز وجل، لأنه «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب»^(٢)، فمعرفة المفسر لألفاظ اللغة العربية ومعانيها تبلغه إدراك معنى الخطاب القرآني ومقاصده، وتمكنه من تقديم تفسير يروم السلامة من الزلل، وإدراك المعنى.

هكذا يغدو فسر اللغة هو "أول مفتاح يجعل الفعل القرآني مأموناً من منزلقات التأويل باعتباره الأساس الذي عليه يقام ما بعده من بناء للمعنى"^(٣)، فمعرفة المؤول

(١) - بازي محمد، صناعة الخطاب، الأنساق العميقة للتأويلية العربية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط١، ص٦٧.

(٢) - القطان مناع، مباحث في علم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٩٢، ص٣٣١.

(٣) - سليمان مولا علي، تكامل مستويات الدرس اللغوي في البيان عن معاني القرآن، نظرات في أشراف القيامة، ندوة النص الشرعي: أسس الفهم وآليات التنزيل، المنظمة بكلية الآداب ظهر المهراز، فاس، يومي ٢٦-٢٧ أكتوبر ٢٠١٥، ص٣.

لمفردات اللغة خطوة أساسية للوصول إلى طبقة من الطبقات الدلالية للخطاب، انطلاقاً من البحث عن الألفاظ ومعانيها في استعمالات العرب والفصل بين المشترك فيها؛ لأن "اللفظة الواحدة داخل نسق الخطاب قد تدل على معان كثيرة في الاستعمال، يختار منها المؤول ما يناسب الخطاب ومقصدية" ^(١)، فأصبحت المعاجم العربية مرجعاً مهماً، ومنبعاً خصباً، يغترف منه المفسر والقارئ المادة اللغوية كل بحسب غايته.

١- تحقيق لفظة "حين"

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ ^(٢)، وقف البيضاوي في هذه الآية عند كلمة حين فقال: «طائفة محدودة من الزمان الممتد الغير المحدود» ^(٣).

أول ما يطالعنا في هذا الشاهد، هو تفسير البيضاوي لكلمة {حين} في الآية بأنها طائفة محدودة من الزمان، ولم يحدد زمنًا لها، واكتفى فقط بقول محدودة، فهي جزء أو قطعة من الزمان، سواء أكان طويلاً أم قصيراً، وقد ورد في لسان العرب أن: «الحين: الدهر، وقيل: وقت من الدهر مبهم يصلح لجميع الأزمان كلها، طالت أو قصرت، يكون سنة وأكثر من ذلك، وخص بعضهم به أربعين سنة أو سبع سنين أو سنتين أو ستة أشهر أو شهرين. والحين: الوقت، يقال: حينئذ، (...) والحين: المدة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ ^(٤)..» وقوله تعالى: ﴿تَوَتَّىٰ أْكُلُهُمَ كَلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ^(٥)، قيل: كل سنة، وقيل: كل ستة أشهر، وقيل: كل غدوة وعشية. قال الأزهري (٣٧٠هـ): وجميع من شاهده من أهل اللغة يذهب إلى أن الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان» ^(٦).

(١)- صناعة الخطاب، ص ٥٣.

(٢)- سورة الإنسان، الآية ١.

(٣)- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٥، ٢٠١١، ج ٢، ص ٥٥١.

(٤)- سورة الإنسان، الآية ١.

(٥)- سورة إبراهيم، الآية ٢٥.

(٦)- ابن منظور محمد، لسان العرب، ج ١٣، ص ١٣٣-١٣٤.

ومن خلال هذه التحديدات اللغوية، تتبدى لنا معاني كلمة {حين}، فهي إما: بمعنى الدهر، أو مدة الحمل، أو بمعنى أربعين سنة، أو منتهى الآجال، أو ستة أشهر، أو الساعات، أو ثلاثة أيام، أو كل سنة، أو كل غدوة وعشية.. هكذا إذا، تنقشع لنا آلية من آليات التفسير عند البيضاوي، وهي الاستعانة بالمدخل اللغوي لبناء تفسيره، وهذا الأمر يتكرر على طول كتابه، والمثال الآتي يكشف ذلك بوضوح:

٢- تحقيق لفظة "أمشاج"

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾^(١).

قال البيضاوي: {أمشاج} «أخلاق جمع مَشَجٍ أو مَشِجٍ أو مَشِجٍ من مشجت الشيء إذا خلطته، وجمع النطفة به لأن المراد بها مجموع مني الرجل والمرأة وكل منهما مختلف الأجزاء في الرقة والقوام والخواص، ولذلك يصير كل جزء منها مادة عضو»^(٢).

لقد راح البيضاوي يبحث في بنية أمشاج، فقال إنها جمع لمشج بفتح الميم وتسكين الشين، أو مَشِج، أو مَشِيج، وقام بالقياس على أخلاط، وزناً ودلالة، لأن النطفة مختلطة من مني الرجل والمرأة، وفي الموضع نفسه قال الفراء (٢٠٧هـ): «الأمشاج هي الأخلاط: ماء الرجل، وماء المرأة، والدم، والعلقة، ويقال للشيء من هذا إذا خلط مَشِيجٌ، كقولك خَلِيطٌ، ومَشِوَجٌ، كقولك مَحْلُوطٌ»^(٣).

وجاء في اللسان «مشج: المَشِجُ والمَشِجُ والمَشِجُ والمَشِجُ: كل لونين اختلطا، وقيل هو كل شيئين مختلطين، والجمع أمشاج مثل يتيم وأيتام (...) وَمَشَجْتُ بينهما مَشَجًا: خلطتُ، والشيء مَشِيجٌ (...)»^(٤).

(١)- سورة الإنسان، الآية ٢.

(٢)- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج ٣، ص ٤٧٦.

(٣)- الفراء، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، عالم الكتب، ١٩٨٣، ط ٣، ص ٢١٤.

(٤)- لسان العرب، مادة مشج، ص ٣٦٧.

يتضح لنا استعانة البيضاوي بالمدخل الصرفي في تفسيره للآية، وما إن ينتهي من تفسير لفظة (أمشاج)، حتى ينتقل إلى لفظة جديدة، وهذا يوضح لنا أنه واعٍ بأهمية التفسير اللغوي، ولا شك أنه خبر مركزيته، فجعله المؤسس لتفسيره، ومنه يكون الانطلاقُ لتبليغ مقاصد كتاب الله تعالى، وإيصالها إلى الأفهام، تساندًا مع مستويات أخرى (صرفاً، ونحواً، وبلاغةً)، وعن طريقها يتم الكشف عن المعنى العام لآية ما، أو لسورة من سور القرآن.

ومما يتكامل معه المدخل المعجمي ويتطلب للنهوض بالمعنى، المدخل الصرفي والاشتقاقي، الذي بدا حاضرًا في المادة اللغوية، من خلال تقصي أصول الكلمات، وتتبع اشتقاقاتها.

المستوى الصرفي

لما كان المدخل اللغوي مستوى من مستويات فهم القرآن الكريم، كانت حاجة المفسر لعلم التصريف ضرورية، به يقف عند أصول الكلمات ومصادرها ويدرك معانيها. فالتصريف «يحتاج إليه جميع أهل العربية أتم حاجة، وبهم إليه أشد فاقة، لأنه ميزان العربية، وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها، ولا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به»^(١). فهو يساعد في بلوغ دلالات الكلمات انطلاقًا من معرفة صيغها وأوزانها وسبل اشتقاقها، وما لحقها من زيادة أو نقصان.

من هذا المنطلق، يمكن اعتبار المستوى الصرفي والاشتقاقي مدخلاً لكل من أراد تفسير القرآن الكريم، فالمفسر إذا «وجد كلمة مبهمة استطاع تصريفها، فاستطاع معرفة مادتها ومعناها ومن جهل علم التصريف تعرض لأخطاء مضحكة في التفسير»^(٢). وقد رأينا كيف تنوعت معاني المفردات تبعًا لتنوع اشتقاقاتها، وتعدد

(١) - ابن جني، المنصف، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، دار إحياء التراث القديم، ج ١، ص ٢.

(٢) - الشرباصي أحمد: قصة التفسير، دار الجيل، بيروت، ص ١، ١٩٩٠، ص ٤٤٤.

صيغها من المفرد إلى الجمع، ومن اسم الفاعل إلى اسم المفعول، والمصدر والتصغير والتكبير، إلى غير ذلك من الاشتقاقات.

لقد أولى البيضاوي، رحمه الله، أهمية للصرف، والقارئ لتفسيره يقف على ذلك منذ الصفحة الأولى، فكيف يتجلى ذلك في تفسيره لسورة الإنسان؟

قال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾^(١): «و جمع النطفة به لأن المراد بها مجموع مني الرجل والمرأة... وقيل مفرد كأعشار وأكباش»^(٢).

إن قول البيضاوي، في هذا الشاهد، ينبئ عن اعتياده علم الصرف في تحديد أصول الكلمات المفردة وتتبع اشتقاقاتها، فقوله: "و جمع النطفة به لأن المراد به مجموع مني الرجل والمرأة" يقصد به أن لفظة "نطفة" جاءت مفردًا ووصفت بلفظة "أمشاج" وهي جمع، إنما للدلالة على ما في النطفة من اجتماع لمني الرجل والمرأة وحملها لصفاتهما وكل منهما مختلف الخصائص والصفات، فوصف النطفة بأمشاج مع كونها مفردًا والأمشاج جمعًا ولا مطابقة بينهما لأن النطفة هي ذلك المجموع المؤلف من مني الرجل والمرأة، فصارت من جهة المعنى جمعًا، إذن ففاعلية الصرف في إقامة هذا المعنى هنا واضحة. وقوله: "وقيل مفرد كأعشار وأكباش" هو إيراد لقول من سبقه في التفسير، لأن من المفسرين من قال إن كلمة أمشاج مفرد لا جمع، بما أن صيغة أفعال فيها لفظ مفرد، ولذلك وقعت صفة لـ "نطفة" وهي مفرد^(٣).

لقد توجه البيضاوي إلى الصرف في تناوله لكلمة "أمشاج" فزواج في بنائه للمعنى بين التحليل المعجمي لفهم معنى الكلمة، والتحليل الصرفي لمعرفة أهي مفرد أم جمع، وفي هذا مؤشر على تساند الآليات التأويلية في عملية التحليل وبناء المعنى،

(١) - سورة الإنسان، الآية ٢.

(٢) - البيضاوي، ص ٤٧٦.

(٣) - ينظر: الكشف، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيحا، دارالمعرفة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩، ص ١١٦٣.

فالبيضاوي أقر في بادئ الأمر أن أمشاج جمع لمَشَج أو مَشَّج أو مَشَّج، ثم سوغ مجيء أمشاج صفة للنظفة مع أن الأولى مفرد والثانية جمع، واعتبر أن النظفة وإن كانت مفردا في الوزن، فإنها من حيث المعنى دالة على الجمع أي: جامعة بين مني الرجل والمرأة، إذًا، فكلمة أمشاج «تستعمل مفردًا وجمعًا شأن كلمة هجان ودلاص وبشر وفلك وغيرها. فيقال في المفرد مشج بفتحين كبطل وأبطال، ويقال مشيج كشريف وأشراف وجمعها أمشاج. ويقال في المفرد أمشاج أيضا، كقولهم برمة أعشار وبرد أكباش وثوب أسمال. وعلى هذا يقال: نظفة مشج ونظفة مشيج ونظفة أمشاج»^(١).

هكذا تتضح لنا فاعلية المدخل الصرفي في توضيح المعنى في الخطاب التفسيري وتطلبه مع المدخل المعجمي في بناء الدلالة. وقد رأينا في هذا الشاهد كيف أسهم الصرف في بيان الغرض من وقوع الكلام على جهتي المفرد والجمع ودلالة كل منهما، فإن الصرف يضطلع كذلك بدور الكشف عن مواطن العدول في القرآن الكريم وبيان أسراره، والبيضاوي متفطن لهذا العدول. إما عدول من اسم الفاعل إلى اسم المفعول أو العكس كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾^(٢)، قال البيضاوي: «ولعله لم يقل كافرا ليطابق قسيمه محافظة على الفواصل، وإشعارا بأن الإنسان لا يخلو عن كفران غالبا وإنما المؤاخذ به التوغل فيه»^(٣).

في هذا الشاهد، يعرض البيضاوي مسألتين:

الأولى: قوله "ولعله لم يقل كافرا ليطابق قسيمه محافظة على الفواصل" أي: تلك الفواصل المنسجمة موسيقيا بعضها مع بعض مثل (بصيرا، كفورا، سعيرا، تفجيرا...) وما لها من تأثير كبير على السمع ووقع مؤثر في النفس، فقوله تعالى "كفورا" بدل "كافرا" للمحافظة على هذه الفاصلة الموسيقية، مع مراعاة ما يقتضيه التعبير والمعنى،

(١) - السامرائي فاضل صالح، على طريق التفسير البياني، جامعة الشارقة، ٢٠٠٢، ج١، ص ١٥٥.

(٢) - سورة الإنسان، الآية ٣.

(٣) - البيضاوي، ص ٤٧٧.

وليس للانسجام الموسيقي وحده. والله أعلم، وهذا يبين فاعلية المستوى الصوتي في تحليل الخطاب وبيان معانيه.

الثانية: قوله "وإشعارًا بأن الإنسان لا يخلو عن الكفران غالبًا وإنما المؤاخذ به التوغل فيه" وهذا هو المهم عندنا هنا، فقصده بالتوغل فيه؛ المبالغة والزيادة في الكفران، ودلت على هذه المبالغة كلمة "كفورًا" وذلك بمجيئها على صيغة فاعول، ومعلوم أن صيغة فاعول من صيغ المبالغة القياسية، قال أبو حيان (٧٥٤هـ): «ولما كان الشكر قل من يتصف به قال شاكراً: ولما كان الكفر كثير من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر جاء كفورًا بصيغة المبالغة ولما ذكر الفريقين أتبعهما الوعيد والوعد»^(١).

إن أبا حيان بهذا التعليق طبق المفصل في الكلام، وفصل القول فأجاد، وعلل سبب اختلاف الصيغتين فأصاب، ولا غرو أن البون شاسع والطريق مختلف بين الصيغتين، لذلك عدل التعبير القرآني من اسم الفاعل إلى صيغة المبالغة "فاعول" من أجل إضافة دلالات أخرى، والبيضاوي في تفسيره للآية أدرك هذا العدول الصرفي وفهم مغزاه، فاستثمره في بناء تفسيره للآية بعد الاستعانة بالتفسير النحوي، وفي هذا إشارة إلى تساند المستويات وتكاملها في النهوض بالمعنى العام للآية ثم السورة ككل. إذن، فالعدول من صيغة "فاعل" إلى صيغة "فاعول" كان لزيادة معنى في الوصف لا يمكن أن تؤديه صيغة "فاعل"، لما في صيغة "فاعول" من الدلالة على المبالغة مع التجدد والاستمرار، كما أن كلمة (شاكراً) تفيد الحدث والثبوت، بينما تفيد كلمة (كفوراً) المبالغة التي ليس بعدها مزيد، هكذا يتبدل لنا أن التعبير القرآني يضع كل تعبير فيما يناسب المقام ويقتضيه.

(١) - الأندلسي أبو حيان، البحر المحيط، تحقيق: د. عبدالرزاق المهري، دار إحياء التراث العربي، ج ٨، ص ٥٥١.

إن تتبع الكلمات يقع من جهات عدة، فتارة يكون بالوقوف عند صيغتها، أهي مفرد أم جمع، أم من المشتقات، فيعمل المفسر على استنباط دلالات وقوعها على هذه الحالات، أو من عدوها من صيغة إلى أخرى، وتارة يكون بتتبع الكلمات من جهة اشتقاقها وأصولها حتى يتسنى له معرفة معنى الكلمات والتمييز بين المعنى الأصلي والمعنى الفرعي، والبيضاوي، وهو العالم بأسرار العربية، لا يغفل المدخل الصرفي والاشتقائي في التفسير، فيركبه كلما كانت الحاجة إليه ملحّة، ومثال ذلك تعليقه على قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطًا﴾^(١)، قال: «﴿قَمَطَرِيًّا﴾ شديد العبوس كالذي يجمع ما بين عينيه من اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قراطيها، أو مشتق من القطر والميم زائدة»^(٢).

إن المفتاح التأويلي الأول في التفسير هو تقصي الدلالات اللغوية للكلمات، وهذا هو صنيع البيضاوي في هذا الشاهد -وعلى طول تفسيره غالبًا-، إذ بدأ بإيراد تفسير معجمي لكلمة "قمطيرا"، ثم انتقل البيضاوي إلى مفتاح تأويلي آخر قد يضيف معنى آخر لما قدمه التفسير المعجمي، ألا وهو المدخل الصرفي، فقال "مشتق من القطر والميم زائدة" أي: إن أصل كلمة "قمطيرا" هو القطر فهي مشتقة منها وهذا الاشتقاق هو اشتقاق كبير، ولذلك قال "والميم زائدة"، ولكن اختلف المفسرون في هذا الاشتقاق. هكذا، يتقرر عندنا استثمار البيضاوي للاشتقاق في بناء المعنى وتوجيهه، فالمفسر محتاج إلى علم الصرف والاشتقاق في تفسير الألفاظ وبيان معانيها، فكل بحث في اشتقاق الكلمات يهدف إلى تحصيل الفهم وإقامة الدلالة المقصودة، إلى حد ما، لذلك لا يغفل البيضاوي هذا المدخل باعتباره يضطلع بدور بارز، خاصة عندما يكون هناك اختلاف في أصل الكلمة واشتقاقها.

(١)- سورة الإنسان، الآية ١٠.

(٢)- البيضاوي، ص ٤٧٨.

كما لا تفوتنا الإشارة إلى أن المدخل الصرفي والاشتقاقي لا يبني المعنى لوحده وإنما بالاستناد إلى الدلالة المعجمية والعلاقة التركيبية وبالاعتداد على مدعيات قوية؛ كالشاهد القرآني والشعري.

المستوى النحوي

إن النحو آلية تأويلية مهمة ومكانته متميزة بين العلوم العربية، مرتبط بالقراءة النصية بصفة عامة، وبقراءة النص القرآني وتأويله بصفة خاصة؛ فهو من الأعمدة المؤسسة لصحة المعنى وسلامته، وضابط اللغة والبلاغة، وأداة من أدوات التشريع والاجتهاد، ومدخل مهم من مداخل علوم الدين، فحضوره واضح في صناعة الخطاب التفسيري، وعليه فالصلة بين النحو والتفسير صلة وثيقة نظرًا لفاعلية المعنى النحوي في تفسير النص القرآني وفهمه، فالتحليل النحوي والتعليل الإعرابي يساعدان في استخراج المعاني، وتبيان دقائق الألفاظ، في أفق الكشف عن أسرار اللغة، وجمالية التركيب، في تساند مع باقي المستويات الأخرى.

هكذا يصبح النحو مقدمة ضرورية لنسج الخطاب التفسيري، «وأداة تأويلية هامة في بناء معاني الخطاب»^(١) يقول ابن هشام (٧٦١هـ): «فإن أولى ما تقترحه القرائح وأعلى ما تنجح إلى تحصيله الجوانح، ما يتيسر به فهم كتاب الله المنزل، ويتضح به معنى حديث نبيه المرسل، فإنهما الوسيلة إلى السعادة الأبدية، والذريعة إلى تحصيل المصالح الدينية والدنيوية، وأصل ذلك علم الإعراب الهادي إلى صوب الصواب»^(٢). إذن، فعلاقة النحو بتأويل القرآن علاقة وطيدة، والمفسر في حاجة إلى الإحاطة بالإعراب، لتحديد المعاني المقصودة، وكذلك الوقوف على أوجه التأويل.

(١) - صناعة الخطاب، ص ٥٧.

(٢) - الأنصاري ابن هشام، مغني اللبيب، تحقيق: مازن المبارك وحمد علي حمد الله، ط ١، ١٩٦٤، ص ١٣.

لا غرو بعد الذي سبق ذكره، أن يكون النحو من أبرز الأعمدة التي يقوم عليها التفسير وينهض، وقد توسل البيضاوي، رحمه الله، بالتحليل النحوي في استنباط المعنى وبناء الدلالة مع مراعاة السياق القرآني، وخاصة سياق الآية، فإعراب الآية سبيلٌ إلى فهمها، ومدخلٌ للحقوق بمعناها، لذلك فالبيضاوي يجعل الإعراب قائداً لفهم الآية في التركيب، فتراه على طول تفسيره يفاضل بين الأوجه الإعرابية، فيرجح واحداً على آخر، أو يوردهما معاً كالحال والصفة، ومثال ذلك تعليقه على قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُورًا ۝١﴾^(١) قال: «والجملة حال من الإنسان أو وصف لحين بحذف الراجح»^(٢).

إن أول ما يطالعنا في قول البيضاوي إيراده إعرابين من غير ترجيح لأحدهما، الأول، إن جملة "لم يكن شيئاً مذكوراً" حال للإنسان، والحال «وصف هيأة الفاعل أو المفعول»^(٣)، وتجيء مفردة كما تجيء جملة مع ضرورة وجود الرابط. والثاني، إنها وصف لحين بحذف الراجح، ويقصد البيضاوي بالوصف الصفة أو نعت، قال الرازي (٦٠٦هـ)، رحمه الله، «لم يكن شيئاً مذكوراً محله النصب على الحال من الإنسان كأنه قيل: هل أتى عليه حين من الدهر غير مذکور أو الرفع على الصفة لحين، تقديره: هل أتى على الإنسان حين لم يكن فيه شيئاً»^(٤).

إذن، فجملة "لم يكن شيئاً مذكوراً" لها وجهان إعرابيان:

الأول، أنها في محل نصب حال للإنسان دل عليه اسم يكن (الضمير)، وتقديره: هل أتى على الإنسان حين من الدهر غير مذکور أو حال كونه غير مذکور.

(١) - سورة الإنسان، الآية ١.

(٢) - البيضاوي، ج ٣، ص ٤٧٦.

(٣) - ابن جني، اللمع في اللغة، تحقيق: حامد المؤمن، عالم الكتب، مكتبة النهضة، ط ٢، ١٩٨٥، ص ١١٦.

(٤) - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٨١، ج ٣٠، ص ٢٣٦.

والثاني، أن تكون في محل رفع صفة لحين بحذف الراجح مع الجار والمجرور وهو (فيه)، وتقديره: هل أتى على الإنسان حين لم يكن الإنسان فيه شيئاً مذكوراً، وحسبي بالوجه الأول الأقرب إلى الصواب لأن الآية الكريمة تتكلم عن الإنسان لا عن الحين، والله أعلم.

من هنا يظهر اهتمام البيضاوي بالنحو في استخراج معاني الآيات، وتبيان دقائق الألفاظ، وجمالية التركيب، وتظهر براعته في النحو، وحرصه على جعله القائد إلى صوب الصواب، وحينما نلتفت إلى الآية التي بعدها نجده (البيضاوي) يقول في قوله تعالى: ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ «في موضع الحال أي مبتلين له بمعنى مريدين اختباره»^(١)، بمعنى: أن جملة "نبتليه" جاءت هنا في موضع الحال ولم يجد البيضاوي صاحبه، ولكنه وضح دلالة الحال باعتباره موجهاً دلالياً بقوله "بمعنى مبتلين له"، قال الألوسي (١٢٧٠هـ): «حال من فاعل خلقناه والمراد مريدين ابتلاءه واختباره بالتكليف فيما بعد على أن الحال مقدرة»،^(٢) وقد ذكر الرازي في معرض حديثه عن هذه الآية: «قوله تعالى: ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ ففيه مسائل: المسألة الأولى نبتليه معناه لنبتليه، وهو كقول الرجل جئتكَ أقضي حقك، أي لأقضي حقك، (...). المسألة الثانية (نبتليه) في موضع الحال، أي خلقناه مبتلين له، يعني مريدين ابتلاءه (...).»^(٣). ولا اختلاف مع ما ذكره البيضاوي، إذاً، فجملة نبتليه تحتمل معنيين على الأقل:

أولهما: التعليل، أي أن نبتليه بمعنى لنبتليه كقول الرجل جئتكَ أقضي حقك. وثانيهما: أن تكون حال مقدرة من الفاعل. ومعلوم أن الحال مقسمة إلى ثلاثة أقسام من حيث الإحالة على الزمن: مقارنة، ومحكية ومقدرة. فالحال المقارنة «وهو الغالب، نحو (وهذا بعلي شيخاً)، ومقدرة، وهي المستقبلية كمررت برجل معه صقر

(١) - البيضاوي، ص ٤٧٦.

(٢) - روح المعاني، ج ٢٩، ص ١٥٣.

(٣) - الألوسي، مفاتيح الغيب، ج ٣٠، ص ٢٣٧.

صائداً به غداً، أي مقدراً ذلك، ومنه ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، ومحكية، وهي الماضية نحو (جاء زيد أمس راكباً)،^(١) والحال (نبتليه) ها هنا جاءت مقدرة، -وهي الحال المستقبلية بمعنى أن معناها يتحقق بعد وقوع معنى عاملها، فهي وصف لحال صاحبها في المستقبل،- «أي: مريدين ابتلاءه في المستقبل، أي: بعد بلوغه طور العقل والتكليف»،^(٢) إذًا، فالاختبار بالتكليف ليس واقعا عند الخلق، بل بعد جعله سميعاً بصيراً، فالله سبحانه وتعالى ذكر كل ما يصح معه الابتلاء من سمع وبصر وعقل، والله أعلم.

إن البيضاوي في إعرابه للآية، غالباً، لا يرجح إعراباً على آخر وإنما يوردهما معاً، خاصةً إذا كان هناك خلاف بين النحاة والمفسرين، ومثال آخر على ذلك تعليقه على قوله تعالى: ﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْكَانِ﴾ قال: «حال من هم في جزاهم، أو صفة لجنة»^(٣). فقوله: "حال من هم في جزاهم" أي من الضمير هم في جزاهم، فيكون العامل في النصب هو الفعل "جزئ"، فيصير المعنى "جزاهم جنة في حال إتكائهم فيها". وأما قوله: "أو صفة لجنة" فإنه جعل "متكئين" تابعا للجنة، كأنه قال: "جزاهم جنة متكئين فيها"، قال الرازي: «وفي نصب متكئين وجهان (الأول) قال الأخصش إنه نصب على الحال، والمعنى وجزاهم جنة في حال اتكائهم كما تقول جزاهم ذلك قياماً، (والثاني) قال الأخصش وقد يكون على المدح»^(٤).

إذن، في إعراب "متكئين" خلاف بين النحويين، وهذا سر إيراد البيضاوي الإعرابين معاً، ولكن الألويسي فصل على جهة من التدقيق في إعراب الآية حين قال: «حال من هم في جزاهم والعامل جزئ وخص الجزاء هذه الحالة لأنها أتم حالات

(١)- مغني اللبيب، ج ٢، ص ٥١٧.

(٢)- تفسير التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ٣٧٤.

(٣)- البيضاوي، ص ٤٧٨.

(٤)- مفاتيح الغيب، ج ٣٠، ص ٢٤٧.

المتنعم ولا يضر في ذلك قوله تعالى "بما صبروا" لأن الصبر في الدنيا وما تسبب عليه في الآخرة وقيل صفة الجنة ولم يبرز الضمير مع أن الصفة جارية على غير من هي عليه فلم يقل متكئين هم فيها لعدم الالباس^(١).

يتضح لنا من خلال هذه الشواهد وقول البيضاوي أن "متكئين" يجوز نصبها على الحال من الضمير "هم" في "جزاهم"، كما يجوز إعرابها صفة لجنّة، ولكن الرأي الثاني بعيد وهو على مذهب الكوفيين، فالبصريون يعتبرون أن الصفة إذا جرت على غير من هي عليه كان ضروريا إبراز الضمير فيها ومقتضاه "متكئين هم فيها"، فعلى هذا يكون الرأي الأصوب والإعراب الأقرب هو؛ إن "متكئين" حال من الضمير هم في جزاهم.

ما إن ينتهي البيضاوي، رحمه الله، من تفسير آية حتى يشرع في الأخرى، فيجعل النحو موجهًا للمعنى، وكاشفاً لدلالة التركيب، يقول معلقاً على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٢) «حالان من الهاء، وإمّا للتفصيل أو التقسيم أي هديناه في حاله جميعاً أو مقسوماً إليهما بعضهم شاكرا بالاهتداء والأخذ فيه، وبعضهم كفورا بالإعراض عنه، أو من السبيل»^(٣).

إن البيضاوي من خلال هذا النص يعرض مسألتين، الأولى: أن لفظتي "شاكرا" و"كفورا" جاءتا في موضع الحال للضمير الهاء في (هديناه)، أو للسبيل، والثانية: أن إمّا في الآية للتفصيل أو التقسيم.

فقوله "حالان من الهاء" أي: من الضمير في (هديناه) ودال على الإنسان، فهو إما شاكراً أو كفوراً، وأما قوله أو "من السبيل" فمعطوف على قوله من الهاء، فهو يُورد الإعرابين معاً، من غير ترجيح لأحد منهما.

(١) - روح المعاني، ج ٢٩، ص ١٥٨.

(٢) - سورة الإنسان، الآية ٢.

(٣) - البيضاوي، ج ٣، ص ٤٧٦.

وفي إعراب "شاكراً" وجهان، «أحدهما: أنه حال من مفعول هديناه، أي: هديناه مبينا له كلتا حالتيه، -وهو قصدُ البيضاوي- قال أبو البقاء: (وقيل: هي حال مقدره). والثاني: أنه حال من السبيل على المجاز»^(١) وقال الزمخشري: «شاكراً وكفوراً حالان من الهاء في هديناه أي: مكناه وأقدرناه في حالتيه جميعاً أو دعواناه إلى الإسلام بأدلة العقل والسمع (...). ويجوز أن يكونا حالين من السبيل أي: عرفناه السبيل إما سبيلاً شاكراً، وإما سبيلاً كفوراً»^(٢). فتوافق كلامه مع ما ذهب إليه البيضاوي حين إرادته الإعرابين معاً.

هكذا إذاً، يتقرر عندنا اعتماد البيضاوي لآلية النحو في التفسير والتأويل، ولكن بشكل مترابط مع باقي الآليات الأخرى.

وصفوة القول، إن البيضاوي اعتمد كثيراً، في تفسيره للآيات والسورة، آلية النحو والإعراب، لما لها من أدوار في الإبانة عن المعاني، والكشف عن دقائق الألفاظ وأسرار التركيب، من خلال رصد المفردات من حيث إعرابها أو علاقاتها مع غيرها في التركيب، فاختلاف المعنى سبب في اختلاف الإعراب، باعتباره فرعاً عن المعنى، وبالتالي تعدد التأويل.

وقد حاولنا من خلال النماذج المدروسة الوقوف عند الإمكانيات التي تتيحها آلية النحو في الكشف عن المعنى عند البيضاوي، كما نستنتج أن التعامل مع كل الظواهر النحوية (الحال، الصفة، إما، إذا...) قد تم من داخل النحو، لكن مع وجود بعض المؤشرات البلاغية (المجار، التقديم والتأخير، الذكر والحذف..)، التي ساندت النحو في البحث عن المعنى وبيانه، مما يبين لنا حاجة الآليات التأويلية بعضها بعضاً في عملية بناء المعنى وهو ما يسميه الدكتور بازي بالتساند.

(١)- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج ١٠، ص ٥٩٤.

(٢)- الكشاف، ص ١١٦٤.

المستوى البلاغي

البلاغة علم من العلوم المتأصلة في اللغة العربية، فهي علم لا غنى للمفسر عنه، ولما كان ذلك واجبا على كل مشتغل بالتفسير وجب الوقوف عندها وإعطاؤها حقه داخل القراءة التأويلية، لأنها تساعد، من موقعها، المؤول في الوصول إلى دلالات النص، مادام النص القرآني تتخلله بعض المجازات والتراكيب البلاغية التي قد تعيق الفهم.

إذن، فللبلاغة أهمية كبيرة في فهم النصوص القرآنية والوقوف على معانيها وكذا في صناعة خطاب التفسير، إذ بها يعرف المفسر مواطن الإعجاز القرآني، وما تنطوي عليه من حكم وأسرار عظيمة، لذلك لا تخلو مصنفات أهل التفسير من لمسات بيانية ونكت لطيفة مستنبطة من آي الذكر الحكيم، فيها يتفاضل أهل الصنعة وتسمو قيمتهم إلى أعلى المراتب.

وسنروم هنا الكشف عن اشتغال الآليات البلاغية ودورها في الإبانة عن المعنى من خلال علمي البيان والمعاني، ولقد برع البيضاوي في تحليل الصور التشبيهية على نحو من العمق الذي يجلي فيه خفاء الدلالة في ضوء السياق اللغوي وترابط المفردات في آي الذكر الحكيم، وإن كان تحليله يراوح بين الاقتضاب حيناً والتوسع حيناً آخر، والمثال قيد الاشتغال وإن كان مقتضب العبارة، إلا أنه يتضمن كلاماً كثيراً سنفصل القول فيه، إن شاء الله، اعتماداً على قول من سبق البيضاوي، أو جاء بعده.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطًا﴾^(١)، قال البيضاوي تعليقا على لفظة ﴿عَبُوسًا﴾: «تعبس فيه الوجوه أو يشبه الأسد العبوس في ضراوته»^(٢).

إن البيضاوي في هذا الشاهد، يشير إلى مسألتين: أولهما، (تعبس فيه الوجوه) أي: أن اليوم وصف بالعبوس لعبوسة وجوه أهله ذلك اليوم، وهذا ما ذهب إليه

(١) - سورة الإنسان، الآية ١٠.

(٢) - البيضاوي، ص ٤٧٨.

الزخشمري بقوله: «يوصف بصفة أهله من الأشقياء كقولهم: نهارك صائم. وروي أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران»^(١)، والثانية، (يشبه الأسد العبوس في ضراوته) أي: إن اليوم شبه بالأسد العبوس المفترس في ضراوته، من قبيل إسناد صفة المشبه به (الأسد) وهي الشدة والضراوة للمشبه (اليوم)، ولعل ما يؤكد صدق تفسير البيضاوي وصواب ما ذهبنا إليه قول الفخر الرازي في الآية نفسها ما نصه: «وصف اليوم بالعبوس مجازاً على طريقتين (أحدهما) أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء كقولهم نهارك صائم، (...)» (والثاني) أن يشبه في شدته وضراوته بالأسد العبوس أو الشجاع الباسل»^(٢).

وقد يكون وصف اليوم بالعبوس «لإرادة الشمول والعموم والمبالغة أي عابس هو وأهله فيكون العبوس وصفا عاما لليوم ومن فيه. وجاء بالصفة على زنة المبالغة للدلالة على شدة العبوس والاتصاف به اتصافاً بليغاً»^(٣).

إذن، فالبيضاوي ينزع الغطاء عن المعنى الثاوي خلف حجاب المجاز، من خلال الاستعانة بالبنيات البلاغية كما يسميها الدكتور بازي، باعتبارها من الأدوات أو المفاتيح التأويلية -إن صح التعبير- التي تفك مغاليق التفسير وتسمح للمعنى بالظهور والتجسيد، وتحصيل الفهم والإفهام، فيرجح بين الوصف المجازي لليوم بالعبوس على جهة إسناد فعل العبوسة له وهو في الأصل فعل أهل ذلك اليوم، فإن سئل كيف وصف اليوم بالعبوس؟ قلنا: «اعلم، أسعدك الله، أن الظرف إذا كان فيه صفةً لغيره، تجعل العرب تلك الصفة للظرف على المجاز، وإن كانت هي في الحقيقة لغير الظرف، كقولهم: ليل نائم، أي: ينام فيه غيره، وسوق كاسد، ويوم ماطر»^(٤)، وبين تشبيه اليوم بالأسد العبوس على جهة إثبات صفتي العبوسة -تخيلاً- والضراوة

(١)- الكشاف، ص ١١٦٥.

(٢)- مفاتيح الغيب، ج ٣٠، ص ٢٤٧.

(٣)- على طريق التفسير البياني، ج ١، ص ١٧٣.

(٤)- السمرقندي أحمد، المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٨٨، ص ٣٦٢.

في المشبه به الذي هو الأسد للمشبه (اليوم)، فتكون الصورة واضحة لمن خير بين الشكر أو الكفر فاختر طريق الهلاك والعياذ بالله، والله أعلم.

وتعليق البيضاوي وإن كان مقتضب العبارة، إلا أنه دقيق الألفاظ، عميق المعاني، فهو يوجز في مكان، ويطنب في مكان آخر، كل ذلك من أجل إيصال المعنى للمتلقي في أحسن صورة، وكذلك التدليل عليه بأوجز العبارات وأفصحها.

ولما كان التعبير القرآني واقعاً على جهتي الحقيقة والمجاز، كان الكلام المجازي ضرورياً وأنواعاً، والتشبيه كما سلف الذكر واحدٌ منها، فإن حذف أحد ركني التشبيه صار الكلام استعارةً، وهي النوع الثاني من المجاز اللغوي، والبيضاوي واعٍ بوقوع الاستعارة في القرآن الكريم، فكلما صادف استعارة إلا ونشر أجزاءها وبيّن الصفة المستعارة من المستعار منه للمستعار له، ولو على جهة الإشارة الخفيفة، والعبارة الوجيزة، ومثال ذلك، تعليقه على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعُلَاجَةَ وَيَدْرُونَ وِرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ قوله في: ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾: «شديداً مستعار من الثقل الباهظ للحامل»^(١).

إن البيضاوي من خلال هذا التعليق، يُسلّم بوقوع الكلام على جهة المجاز (الاستعارة) أولاً، ويفسر لفظة "ثقيلاً" بـ "شديداً" ثانياً، ويجدد الصفة المستعارة (الثقل) والمستعار منه (الحامل) ثالثاً، وكل هذا من أجل بيان المعنى وإقامته في أحسن صورة. فقصد بـ(الثقل الباهظ للحامل) أي ثقل الجرم الذي يحمله الحامل يوم العرض أمام الله عز وجل، قال أبو حيان: «استعير الثقل لليوم لشدته، وهوله من ثقل الجرم الذي يتعب صاحبه»^(٢)، وهو قول يوضح ما قاله البيضاوي ويعضده، ومجيء "ثقيلاً" على وزن "فعليل" بما تفيد صيغة "فعليل" من مبالغة في الثقل - وهذا يؤكد حاجة المؤول لكل الآليات التأويلية لينهض بالمعنى - ووصف لحال الحامل للجرم.

(١) - البيضاوي، ص ٤٨١.

(٢) - تفسير البحر المحيط، ص ٥٥٩.

هكذا تتضح فاعلية الصور البيانية -التشبيه والاستعارة- في الدلالة على المعنى بطرق مختلفة قصد تأدية وظيفة بيانية - بالدرجة الأولى - وتبهيية، تستميل القارئ إلى تأمل مصيره بعد كفره، فتجعله يرجع عن غيه وضلاله، فيقوي صلته بربه. كما تتضح لنا حاجة المفسر والمؤول للقرآن الكريم للآليات البلاغية جميعاً في بناء المعنى، كما سبق ووضحنا في مثالي التشبيه والاستعارة.

وليس يكفي المفسر في صناعة الخطاب علم البيان فقط، بل لابد له من علم المعاني وكذلك علم البديع، «فإن كان علم البيان يُمكنُ من معرفة خواص الكلام من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، فإن علم المعاني يُمكنُ من تعرف خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، والثالث -البديع- يُعرِّف بوجوه تحسين الكلام»^(١).

والتقديم والتأخير واحد من أبواب علم المعاني، والبيضاوي في تفسيره قد خبر مقاصده، وتذوق حلاوته فتراه لا يكتفي بعرض آيات القرآن الكريم، وتذكير الناس بأحكامها بل يستخلص معانيه ويوضحها، ومثال ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَعْلَاقًا وَسَعِيرًا﴾^(٢) بقوله: «وتقديم وعيدهم وقد تأخر ذكرهم لأن الإنذار أهم وأنفع، وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن»^(٣).

لم يكتف البيضاوي، في هذا التعليق، بالإشارة إلى إجراء الكلام على جهة التقديم والتأخير فقط، بل بيّن علة هذا التقديم والتأخير، ووضح فائدته بقوله: "لأن الإنذار أهم وأنفع" في هذا المقام، والمقصود بتقديم الوعيد أي: تقديم قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَعْلَاقًا وَسَعِيرًا﴾^(٤) بينما تأخر ذكرهم أي: (الكافرين) في

(١)- السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٣٩٨، (بتصرف).

(٢)- سورة الإنسان، الآية ٤.

(٣)- البيضاوي، ص ٤٧٧.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا﴾^(١)، فأول الكلام كان (الشاكر) وآخره (الكفور) لذلك كان من الطبيعي تقديم أوصاف المؤمنين وجزائهم على وعيد الكافرين ومصيرهم، ولكن التعبير القرآني يدقق في وضع الألفاظ، وحرص بعضها بجانب بعض تدقيقاً عجيباً؛ فهناك مواطن تقتضي التقديم وهذا المثال دليل على ذلك، فتقديم الوعيد وتأخير ذكرهم كان لغرض الإنذار، وهو أنسب بالمقام وأنفع، قال أبو السعود: «وتقديم وعيدهم مع تأخرهم للجمع بينهما في الذكر كما في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾، ولأن الإنذار أهم وأنفع وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن على أن في وصفهم تفصيلاً ربما يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم»^(١)، وهذا القول يوضح كلام البيضاوي ويعضده.

لقد عمل البيضاوي على إبراز المعنى المقصود من التأخير والتقديم، كما صاغ تعليلاً لهذا التقديم بقوله (لأن الإنذار أهم وأنفع)، فالبيضاوي في تحليله للبنيات البلاغية يقف عند الغرض منها ويوضح فائدتها، فيفصل القول في ظاهرها وباطنها، ولو على جهة الاختصار.

(١) - أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج ٩، ص ٧١.

الخاتمة:

وختاماً، لقد كان هدفنا في هذا البحث، إبراز مدى تساند المستويات اللغوية وتكاملها في القراءة والتفسير وأثر ذلك في بيان المعنى في الخطاب التفسيري بصفة عامة وتفسير البيضاوي بصفة خاصة. ومن أهم ما خلصنا إليه من نتائج نذكر:

- إن العودة إلى المادة اللغوية عنصر أساس في الفهم والتفسير، وقد جعل البيضاوي المدخل اللغوي المؤسس لتفسيره، وعليه يقام ما بعده من بناء للمعنى، لأن الألفاظ تتعدد دلالتها بتعدد استعمالها واختلاف سياقاتها، وتبعاً لذلك يختار المفسر ما يناسب المقام والسياق، وقد تقرر عندنا في أثناء البحث المعجمي أن هناك خيطاً ناظماً بين التحليل المعجمي والتحليل الصرفي وتساندهما في بيان المعنى؛

- إن المدخل الصرفي والاشتقائي حلقة مركزية في التفسير لذلك راح البيضاوي يبحث في أصول الكلمات وتتبع اعتبارات الواضع لها من جهة الأقيسة والمناسبات، وكذلك ما فيها من عدول على مستوى البنية. فبالصرف يعرف المؤول أبنية الكلمات وأوزانها وصيغها، فيدرك من خلال ذلك معانيها؛

- لقد جعل البيضاوي المدخل النحوي آلية أساسية في عملية بناء معاني الخطاب القرآني، لما لها من أدوار في الإبانة عن المعنى من خلال إعراب الآية وإيراد الاختلافات النحوية فيها. والنحو باعتباره آلية تأويلية لا يعمل لوحده مستقلاً عن باقي المداخل بل يتكامل معها ويتطلب كما رأينا في البحث من خلال انفتاحه على بعض البنيات البلاغية (المجاز، الاستعارة، التقديم والتأخير...) التي ساندت النحو في إقامة المعنى وبيانه؛

- إن حضور المدخل البلاغي في التفسير بارز، ودوره في بناء الخطاب التفسيري واضح، وقد عمل البيضاوي من خلال المدخل البلاغي على بناء المعنى انطلاقاً من تحديد الوجه البلاغي ثم استنباط المعنى المتواري خلف حجاب

المجاز أو الأساليب البلاغية (التقديم والتأخير، الحذف والذكر،...)، فالبنيات البلاغية ساعدت من موقعها على جعل المعنى منكشفاً؛

● من خلال محاولتنا المتواضعة، خلصنا إلى أن مبدأ التساند يتحكم في صناعة خطاب البيضاوي، وعليه تبين لنا كيف تتساند المستويات اللغوية فيما بينها لإنتاج المعنى، فقد رأينا مما تقدم كيف تحتاج هذه المداخل إلى بعضها بعضاً من أجل الوصول إلى معنى معين؛ وهذا يجعل الاعتماد على مدخل أو مدخلين من مداخل البنية النصية قاصراً عن تحقيق الهدف المنشود من أية قراءة تأويلية تروم السلامة من الزلل؛

● ولا تفوتنا الإشارة إلى أن البنيات النصية (من معجم وصرف ونحو وبلاغة وقرائات) تحتاج إلى البنيات السياقية - وإن اكتفينا في بحثنا بالبنيات النصية- لتدعمها وتساندها في لحظات تشكل المعنى، لأن في العودة إلى هذه البنيات السياقية استحضار لمجموعة من النصوص الغائبة والخلفيات المعرفية التي تتحكم في عملية التأويل.

المصادر والمراجع

✓ القرآن الكريم

- ابن جنّي أبو الفتح، اللّمع في العربية، تحقيق: حامد المؤمن، عالم الكتب، مكتبة النهضة، ط ٢، ١٩٨٥؛
- ابن منظور محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت)؛
- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ت)؛
- الألوّسي شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، إدارة الطباعة المنيرية، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)؛
- الأندلسي أبو حيان، تفسير البحر المحيط، تحقيق: د. عبد الرزاق المهري، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٢؛
- بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط ١، ٢٠١٠؛
- بازي محمد، صناعة الخطاب الأنساق العميقة للتأويلية العربية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ٢٠١٥؛
- البيضاوي ناصر الدين، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد صبحي ومحمود أحمد الأطرش، دار الرشيد، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠؛
- تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، ج ٢٩، ١٩٨٤؛
- الزمخشري، الكشاف، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شبحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩؛
- السامرائي فاضل صالح، على طريق التفسير البياني، جامعة الشارقة، ٢٠٠٢، ج ١؛

تساند مستويات اللغة وأثره في بيان المعنى في الخطاب التفسيري

- السمرقندي أحمد، المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٨٨؛
- السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، السعودية، (د.ت)؛
- الشرباصي أحمد، قصة التفسير، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩٨؛
- الفراء، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، عالم الكتب، ١٩٨٣، ط ٣؛
- القطان مناع، مباحث في علم القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٩٩٢.

المنطلقات النصية في الخطاب التفسيري عند البيضاوي

سورة الصافات نموذجاً^(١)

إلهام بغداد

تقديم:

إن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التي لا تمسها أيدي المفسدين ولا ادعاءات الجاحدين، فهو الكلام الرباني الموجه للإنسان في أي زمان ومكان، غايته إخراج الناس من الظلمات إلى النور وهدايتهم إلى الطريق المستقيم.

لما كان القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول للأمة الإسلامية كان لا بد أن يقف عنده رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والصحابة والتابعون، بل والعلماء أيضاً حتى لا يحرف معناه. إذ لا يستوي الناس جميعاً في فهم ألفاظه ومعانيه، فتفاوت الإدراك والاستيعاب أمر لا جدال فيه، وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاة الرسول الكريم يعتمدون التفسير لفهم مراد الله عز وجل وإفهامه إلى كل من استعصى عليه إدراك مراميه. فلم يكن علم التفسير وقفاً على عصر دون غيره، إذ نجده حاضراً في كل العصور. وهكذا لم تنحصر عملية التفسير في عهد الصحابة بل امتدت لتنتشر في عصر التابعين وما بعده، فبعد أن اتسعت العلوم وتشرها الفقهاء والعلماء ظهرت مجموعة من التفاسير المشهود لها بالعظمة والاعتبار نظراً لمكانتها وقيمتها.

ولا يخفى على كل مشتغل بالقرآن ما لعلوم اللغة من أهمية بالغة في التفسير واستنباط المعاني، فلا يمكن فهم القرآن بمعزل عن اللغة والنحو والصرف والبلاغة والأصوات...، إذ لا تظهر معانيه إلا في ضوء هذه العلوم، لذلك لا نجد تفسيراً إلا ومن نبعها استقى وبسلمها ارتقى.

لذلك عقدنا العزم على كتابة بحث في موضوع يرتبط بالعلوم التي قام عليها الخطاب التفسيري عند البيضاوي في تفسيره "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، وذلك بدراسة منهجه في التفسير.

(١) - إشراف وتأطير الأستاذ مولاي علي سليمان

فكان أن وسمنا بحثنا بالعنوان الآتي: "المنطلقات النصية في الخطاب التفسيري عند البيضاوي، سورة الصافات نموذجاً"، منطلقين من الإشكال الآتي:

- ما هي أهم المنطلقات النصية التي ينبني عليها خطاب التفسير؟

- وهل هذه المنطلقات نجحت في تأسيس خطاب تفسيري متكامل؟

هذه الإشكالات سنعتمدها مدخلا لنقف عند أهم المنطلقات النصية التي شكلت لنا مضامين الخطاب التفسيري عند البيضاوي، فأى خطاب لا يمكن أن تقوم له قائمة بمعزل عن هذه المنطلقات التي يمكن أن نعتبرها مداخلا نعبّر منها إلى القرآن الكريم، فهي تتساند فيما بينها وتتعلق لتوجيه تأويلات المفسر ومن ثم يمكن اعتبارها أداة يحتكم إليها المفسر، إذ لها وظيفة توجيهية. وهذه المنطلقات مستقاة من النص القرآني ونميز فيها بين المنطلق اللغوي والمنطلق النحوي والمنطلق البلاغي.

ولقد كان منهج البحث قائماً على تحليل الخطاب التفسيري عند البيضاوي، وقد تتبعنا فيه المواقع التي اعتمد فيها على اللغة أو النحو أو البلاغة، وحاولنا استقراء تأويلاته وذلك بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، إذ عمدنا إلى وصف السياقات التي وظف فيها البيضاوي علوم اللغة لتفسير الآيات مع محاولة تحليل آرائه التفسيرية وتقديم تبريرات بالاعتماد على العلوم التي نسج من خلالها تفسيره.

ولقد اقتضت طبيعة هذا الموضوع وغايته أن نباشره من حيث الدراسة من ثلاثة

منطلقات رئيسة.

١- المنطلق اللغوي

إن في نظم القرآن الكريم لنسج للآيات وتخير للألفاظ وانتقاء للحروف وذلك لما للتخير والنسج والانتقاء من أثر في التعبير والإيضاح وكشف المعاني المستورة، لذلك نجد تجانسا وتساندا شديدا بين الألفاظ يؤدي إلى تناسب المعنى بل والآيات أيضا، ومن ثم تعد معرفة اللغة شرطا ضروريا لفهم القرآن. فكل من أراد أن يركب

علم التفسير لا بد أن يتسلح باللغة وإلا سيقع في الزلل والخطأ فيضع للكلمة معنى ويقدم للآيات تأويلات ترتبط بالدلالات التي تحويها الآيات.

فلا بد في فهم الشريعة من اتباع معهود العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في أشعارهم وأقوالهم عرف فلا يصح الخروج أو العدول عنه في فهم مراد الله عز وجل «لأن القرآن نزل بلسان العرب على الجملة، فطلب فهمه يكون من هذا الطريق خاصة»^(١)، فلا يجوز فهمه إلا إذا كانت اللغة هي أداة هذا الفهم «فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يُفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة»^(٢). فالعلم بلغة العرب فرض على من أراد أن يلازم القرآن ويبحر في معانيه لأنه نازل بلغة العرب، لذلك فإن فهمه لا يتحقق إلا من هذه الجهة.

لقد رام البيضاوي تحقيق معاني الألفاظ وذلك اعتماداً على اللغة باعتبارها مفتاحاً لولوج عالم النص واستقراء معانيه، لأن الألفاظ لبنات تبنى من خلالها الآيات وشرحها كفيل بفهم الهدف الذي تريد الوصول إليه. فعلم التفسير «يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب»^(٣).

ويبدو واضحاً من خلال ما سنراه أن البيضاوي لم يغفل شرح الألفاظ التي رأى أن إيضاحها ضروري لا غنى عنه في إزاحة الغموض عن رؤية المتلقي سواء تعلق الأمر بمعناها الإفرادي أو بمعناها داخل السياق، ففي هذا الشرح نقل للمتلقي من حالة الإبهام إلى حالة يطرب فيها بمعرفة المعاني المبهمة.

(١)- الشاطبي أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، خرج أحاديثه أحمد السيد سيد أحمد علي مع شرح التعليقات فضيلة الشيخ عبد الله دراز، المكتبة التوفيقية / القاهرة - مصر، ج ٢، ص ٥٤.

(٢)- نفسه.

(٣)- الألويسي شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق وتخريج سيد إبراهيم عمران، دار الحديث بالقاهرة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ج ١، ص ٢٤.

أ- تأويل لفظ "خطف" في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ

ثَاقِبٌ﴾^(١)

لقد وقف البيضاوي في تفسيره عند كل لفظ رأى أن شرحه واجب لإيضاح المعنى وبيانه. ففي تأويله لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾^(١)، نجده قد استحسّن تفسير كل الألفاظ المنتظمة في هذه الآية فقال: «الخطف الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقة ولذلك عرف الخطفة، وقرئ ﴿خطف﴾ بالتشديد مفتوح الحاء ومكسروها وأصلها اختطف»^(٢)، كما قال في لفظ "أتبعه": «أتبع بمعنى تبع»^(٣)، وأكد أن الشهاب هو «ما يرى كأن كوكبا انقض، وما قيل إنه بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل فتحمين إن صح لم يناف ذلك، إذ ليس فيه ما يدل على أنه ينقض من الفلك ولا في قوله ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾ فإن كل شيء يحصل في الجو العالي فهو مصباح لأهل الأرض وزينة للسماء من حيث إنه يرى كأنه على سطحه، ولا يبعد أن يصير الحادث كما ذكر في بعض الأوقات رجما لشياطين تتصعد إلى قرب الفلك للتسمع»^(٤).

يورد البيضاوي في تفسيره هذه الآية الشروح المناسبة لكل لفظ فنجد تارة يقدم تفسيراً مباشراً لكل كلمة وهذا ما نلاحظ في تفسيره لكلمة "خطف" و"أتبعه" ولكنه عمل على جعل كلمة الشهاب متعددة التأويلات ليبنى من خلالها معنى الآية، فكان مما صرح به في معنى الشهاب الدلالات الآتية:

(١) - سورة الصافات، الآية ١٠.

(٢) - البيضاوي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله ابن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، تقديم: محمود عبد القادر الأرناؤوط، دار صادر- بيروت، ط ١، ٢٠٠١م، ج ٢، ص ٨٧٨.

(٣) - نفسه.

(٤) - نفسه.

✓ الشهاب هو ما يُرى كأنه كوكب انقض؛
✓ ما قيل إنه بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل؛
✓ نير يحصل في الجو العالي فيكون مصباحاً لأهل الأرض وزينة للسماء وبصير
في بعض الأحيان رجماً للشياطين.
والمشترك بين كل هذه التأويلات هو أن الشهاب شيء مضيء يُتبع به كل من أراد
اختلاس السمع من الملاء الأعلى، وإن صح الجمع بين هذه المعاني سنخلص إلى الآتي:
إن الشهاب هو كوكب انقض، نشأ نتيجة لصعود البخار إلى الأثير ما أدى إلى
اشتعاله، فتكون لنا كوكب مضيء هو مصباح لأهل الأرض وزينة للسماء.
ولكن إذا أردنا أن نرجح بين هذه التأويلات فإن المعنى الثالث هو الغالب
عليها، والمعول عليه هو السياق الذي وردت فيه، إذ إن الشهاب موصوف وصفته
ثاقب وفي تأويل هذا اللفظ نجد البيضاوي يقول «مضيء كأنه يثقب الجو بضوئه»^(١)،
فتأويل صفة الموصوف يقوي المعنى الثالث ويرجحها، والملاحظ أن البيضاوي عمل
على تقوية تفسيره للفظ "شهاب" بما يسمى بالموازيات النصية، إذ أتى بآية لتعزيز
تأويله وتقويته، وذلك لما لهذه الموازيات من أثر في عملية التأويل؛ ففهم الشيء ينطلق
في البدء من فحصه والتأمل في خباياه ولكن إذا استعصى علينا الأمر فإننا نلجأ إلى ما
يوازيه وهذا ما قام به البيضاوي.

ب- تأويل لفظ "مستسلمون" في قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُّسْتَسْلِمُونَ﴾^(٢)
يقول البيضاوي في تأويل هذا اللفظ: «متقادون لعجزهم وانسداد الحيل عليهم،
وأصل الاستسلام طلب السلامة أو متسلمون كأنه يسلم بعضهم بعضاً ويخذله»^(٣).
إن المعاني التي يحمل عليها هذا اللفظ واضحة من خلال تفسير البيضاوي فهو يدل

(١)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٧٨.

(٢)- سورة الصافات، الآية ٢٦.

(٣)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٠.

على الانقياد وانتهاء الحيل وهذا ما أكده الألويسي حين قال: «متقادون لعجزهم وانسداد الحيل عليهم، وأصل الاستسلام طلب السلامة والانقياد لازم لذلك عرفاً فلذا استعمل فيه، أو متسلمون كأنه يسلم بعضهم بعضاً للهلاك ويخذه، وجوز في الإضراب أن يكون عن مضمون ما قبله أي ينازعون في الوقوف وغيره بل ينقادون أو يخذلون أو عن قوله سبحانه ﴿لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي لا يقدر بعضهم على نصر بعض بل هم متقادون للعذاب أو مخذولون»^(١)، لتكون المعاني التي أثبتها البيضاوي للفظ "مستسلمون" تتجلى في الانقياد وانسداد الحيل مما دفع بهم إلى العذاب مخذولين لا يقدر بعضهم على نصر بعض وهذا ما ذهب إليه الألويسي أيضاً.

ج- تأويل لفظ "ينزفون" في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾

وقد يذهب البيضاوي في تفسيره بعض الكلمات إلى البحث عن أصلها الاشتقاقي وهذا ما قام به في قوله عز وجل: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾^(٢)، إذ يقول «يسكرون من نزع الشارب فهو نزيف ومنزوف إذا ذهب عقله، أفردته بالنفي وعطفه على ما يعمه لأنه من عظم فساده كأنه جنس برأسه»^(٣)، ويضيف «قرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي وتابعهما عاصم في الواقعة من أنزع الشارب إذا نفذ عقله أو شرابه، وأصله للنفاذ يقال نزع المطعون إذا خرج دمه كله ونزحت الركبة حتى نزعته»^(٤).

إذا كان لفظ "ينزفون" يحتمل فيه عدة معان فإن البيضاوي عمل على إيراد هذه المعاني حتى يؤدي ذلك إلى إغناء المعنى في هذه الآية، فمن بين تلك المعاني نذكر:

✓ يسكرون وربط هذا المعنى بذهاب العقل؛

✓ وقال بأن الشارب ينزف إذا نفذ شرابه؛

(١)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج ٢٣، ص ١٠٦.

(٢)- سورة الصافات، الآية ٤٧.

(٣)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٢.

(٤)- نفسه.

وفي المعنيين معا تفسير لهذه الآية بحيث لا يمكن أن نرجح معنى على معنى آخر، لذلك لم يستعمل الله لفظ "يسكرون" لأنه دال على ذهاب العقل فقط وهو لا يريد أن يعني ذهاب العقل بل يريد أن يؤكد أن هذا الشراب ليس كشراب الدنيا الذي يذهب العقول ويحدث فيها ما يحدث من الأذى والضرر بل إنه شراب لا يسكر ولا ينفد، دائم أبدي على خلاف خمر الدنيا الذي يفسد ذات الإنسان، ويضله عن دينه ودنياه، وهذا ما أكده الفراء في قوله: «قد أنزف الرجل إذا فنيت خمره، وأنزف إذا ذهب عقله. فهذان وجهان. ومن قال "يَنْزِفُونَ" يقول: لا تذهب عقولهم وهو من نَزَفَ الرجل فهو مَنزُوفٌ»^(١).

وبذلك فإن لفظ ينزفون يدل على دوام النعمة واستمرارها إلى ما لا نهاية، فإذا كان خمر الدنيا مصدر شقاء للإنسان في تلك الفترة فإنه سيصبح جوهر سعادته بأن جعله الله نبع لذته الذي لا ينضب ولا يسبب له دوارا أو سكرًا من شأنه أن يجعله غير مدرك أو مستشعر لهذه اللذة، إلا أن تعدد معاني هذا اللفظ يرجع بالأساس إلى القراءات التي كان لها تأثير فيه.

د- تأويل لفظ "اليمين" في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾^(٢)، أي ومما تعددت معانيه وتشعبت شروحه واتسع محيطه ليحتمل فيه تأويلات متعددة لفظ اليمين الوارد في قوله تعالى قالوا ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾^(٢)، أي «عن أقوى الوجوه وأيمنها، أو عن الدين أو عن الخير كأنكم تنفَعُونَا نفع السانح فتبعنكم وهلكنا»^(٣)، ويضيف "أو عن القوة والقهر فتفسروننا على الضلال، أو عن الحلف فإنهم كانوا يملفون لهم إنهم على الحق"^(٤).

(١)- الفراء أبو زكرياء يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي،

عالم الكتب، ط ٣، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ج ٢، ص ٣٨٥.

(٢)- سورة الصافات، الآية ٢٨.

(٣)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٠.

(٤)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٠.

بعد أن قدم البيضاوي الوجوه المحتملة في تأويل لفظ اليمين لم يعمل على توضيح واحد منها لترك المجال مفتوحاً في وجه المتلقي، ولعل هذه الوجوه تتعاضد فيما بينها لتؤدي المعنى المطلوب ويمكن أن نجملها فيما يأتي :

✓ اليمين هو أقوى الوجوه؛

✓ اليمين هو الدين؛

✓ اليمين يقصد به الخير؛

✓ اليمين هو القوة والقهر؛

✓ اليمين هو الحلف.

يمكن أن نحمل معنى اللفظ على كل هذه الوجوه المذكورة؛ لأن الكفار في حالتهم تلك لم يكن لهم إلا أن يبرؤوا أنفسهم كيف ما كان وبأي حجة كانت فوبخوا ضاليتهم على إيصالهم إياهم فقالوا لهم إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين للخلاص مما هم فيه، لذلك يمكن أن يكون اليمين هو الدين أو الخير أو القوة أو الحلف على ما ليس بحق، لأن اليمين موصوف بالقوة من الناحية المادية والمعنوية، فكل الأمور التي يكلف بها الإنسان يسخر يمينه ليقوم بها هذا من الناحية المادية، أما من الناحية المعنوية فإن اليمين شرفه الله بأن جعل كتاب الحسنات على يمين الإنسان، لذلك جعل الكفار اليمين حجة لتخليص أنفسهم .

هـ- تأويل لفظ "عظيم" في قول الله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠٧) ﴿

نظراً لتعلق الألفاظ والمعاني فإن البيضاوي عمل على توسيع المعنى في شرح بعض المفردات خاصة تلك التي يحتمل فيها أكثر من معنى، إذ إن الألفاظ ليست كيانات جامدة تعبر عن معان دون غيرها بل إن بعضها قد يؤدي معاني لا صلة لها بها، ولعل المتحكم في ذلك هو السياق الذي ترد فيه، ففي قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾^(١)، نجد البيضاوي قد قدم وجهين في تأويل لفظ عظيم فقال: «عظيم الجثة

(١)- سورة الصافات، الآية ١٠٧.

سمين، أو عظيم القدر لأنه يفدي به الله نبيا ابن نبي وأي نبي من نسله سيد المرسلين. قيل كان كبشا من الجنة. وقيل وعلا أهبط عليه من ثبير»^(١).

فالعظمة هنا تشير إلى عظمة الكم والكيف، فلما خضع إبراهيم لأمر الله وأسلم إليه دونما تردد كان من عطائه إليه أن منحه كبشا من الجنة عظيم الجثة والقدر. فعطائه هذا كان دليلا على مكانة إبراهيم العالية في الوفاء والإخلاص بل وفي الطاعة أيضا، وإذا دل لفظ العظمة على شيء فإنما يدل على عظمة إبراهيم لأن عظمة الجزء من عظمة المجازي. فالله أراد أن يزيد في قيمة الفدية فجاء بالصفة، لذلك عمل البيضاوي على توسيع المعنى فيها ومن ثم لا يمكن أن نرجح معنى على آخر. فما دام أن الكبش عظيم الجثة لأنه هبة من الله فإنه سيكون عظيم القدر لا محالة.

وهكذا فإن لفظ "عظيم" احتمال هذه التأويلات تبعا للمقام الذي جاء فيه؛ لأن عظمة فعل إبراهيم عليه السلام كان لا بد أن يكون جزاؤها من الصنف نفسه. وهنا يظهر لنا التعالق بين الألفاظ والمعاني التي يضمها عقد الآيات.

و- تأويل لفظ "معين" في قول الله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾

يسوق البيضاوي وجوها معنوية للكلمة وذلك ليفرش الطريق للمتلقي حتى يتمكن من بناء معاني الآيات فيقدم لها استعمالات متعددة وذلك ليثبت هذا الوجه الدلالي أو ذاك، أو يجمع في كثير من الأحيان بين هذه الوجوه ليجعل الآية تزخر بقوة دلالية، لأن التأويل الواحد قد لا يؤدي إلى بيان المعنى. وقد سلك البيضاوي هذه الطريق في كثير من الآيات.

ففي تفسيره لقول الله عز وجل: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾^(٢)، قال إن هذه الكأس هي «من شراب معين أو نهر معين أي ظاهر للعيون، أو خارج من العيون

(١)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٨.

(٢)- سورة الصافات، الآية ٤٥.

وهو صفة للماء من عان الماء إذا نبع. وصف بها خمر الجنة لأنها تجري كالماء، أو للإشعار بأن ما يكون لهم بمنزلة الشراب جامع لما يطلب من أنواع الأشربة للكمال اللذة»^(١).

وهكذا فإن البيضاوي أثبت مجموعة من المعاني للفظ "معين" هي على النحو

الآتي:

✓ هو شراب أو نهر ظاهر للعيون؛

✓ هو شراب أو نهر خارج من العيون؛

✓ معين هي صفة وصف بها خمر الجنة لأنها تجري كالماء؛

✓ معين هي صفة وصف بها خمر الجنة لأنه وصل درجة الكمال في الحلاوة واللذة.

تلك هي الوجوه التي عرضها البيضاوي في تأويل لفظ معين، وما دامت هذه المعاني مرتبطة بخمر الجنة فإنها لا تتعارض بل مناسبة لما تدل عليه الآية. ورغم ذلك فإن المعنى الرابع هو الأرجح وقد دل عليه قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾^(٢)، فلما بلغت درجة الكمال فإنها لا تحدث في شاربها سكرًا ولا يمنع شربها، فهناك حيث هم خالدون المحرم في الدنيا متاح في الآخرة فلا يحدث انقطاع عن شرب الخمر يذهب بلذة المتاع.

ز- تأويل لفظ "فتنة" في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٣)

إن الألفاظ القرآنية تتعاضد فيما بينها لتؤدي المعنى فلا نجد لفظة تبلغ معناها بمفردها بل لا بد أن تدخل في علاقات مع باقي الألفاظ، ومن شأن هذه العلاقات أن تغني المعنى فنحن لا ننكر إمكان وجود ألفاظ تؤدي معاني واضحة بمفردها، ولكن حينما تخضع هذه الألفاظ لتكوين معين فإنها تصبح أكثر بلاغة وفصاحة، فتؤدي

(١)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨١-٨٨٢.

(٢)- سورة الصافات، الآية ٤٧.

وظيفتها على أكمل وجه خاصة وأن اللفظة القرآنية مشير نصي يركبه المتلقي للعبور إلى المعنى وهنا نجد البيضاوي يقدم تأويلا للفظ "الفتنة" الواردة في قوله عز وجل ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ (٦٣) ^(١). إذ يقول «محنة وعذابا لهم في الآخرة، أو ابتلاء في الدنيا فإنهم لما سمعوا أنها في النار قالوا كيف ذلك والنار تحرق الشجر، ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش في النار ويلتذ بها فهو أقدر على خلق الشجرة في النار وحفظه من الإحراق» ^(٢).

لقد عرض البيضاوي وجهين في تفسير لفظ "الفتنة" فقال إنها:

✓ محنة أو عذاب يحدث في الدار الآخرة؛

✓ ابتلاء في الحياة الدنيا.

يمكن أن نقول إن الفتنة في هذا المقام تقع في الدار الدنيا وفي الدار الآخرة، فلما سألهم الله على وجه الإنكار عن المقام الأفضل فخيرهم بين نعيم الآخرة وشجرة الزقوم أنكروا وجود شجرة تنبت في النار فلا تحترق، فكان إنكارهم هذا ابتلاء لهم في الدنيا فلو استطاعوا التمييز بين نار الدنيا ونار الآخرة لعلموا أن الله قادر على خلق شجرة في بطن جهنم لا تطالها النار ولما نالوا العذاب في الدار الآخرة .

وبعد عرض الوجهين المحتملين في لفظ الفتنة يمكن أن نقول إن المعنيين معا جائزان في تفسيره وذلك لتوافق الابتلاء والمحنة، ففي الدنيا اختبروا بها عقولهم فرفضوا الخضوع للحق، ولما رفضوا الخضوع والاستسلام لدين الله كان جزاؤهم العذاب في الآخرة فكانت شجرة الزقوم مصدر شقاء لهم في الدارين معا.

يتبع البيضاوي عند وقوفه عند بعض الكلمات التي يريد توضيح معناها طريقا يقدم من خلاله مجموعة من التخريجات الدلالية، فيأتي للفظ بشروح متباينة إذا كان

(١)- سورة الصافات، الآية ٦٣.

(٢)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٣.

المقام يستدعي ذلك ليقوم في الأخير بترجيح معنى على آخر، وفي بعض الأحيان يترك المجال مفتوحا في وجه المتلقي ليقوم بعملية الترجيح هذه، ولكنه لا يفعل ذلك إلا إذا كان متأكدا أن السياق والمقام سيساعدان المتلقي في ذلك، كما أنه ينحو منحى التبسيط في شرح الألفاظ؛ فلا يقدم إلا معنى واحدا يحتمله اللفظ وفي ذلك إيجاز شديد مفيد، لتكون اللغة في يد البيضاوي أداة طيعة يوظفها كيف يشاء ليتوصل من خلالها إلى بناء معاني الآيات مع تدعيم تفسيراته ببعض الشواهد المستقاة من القرآن أو الشعر.

٢- المنطلق النحوي

يتفرد علم التفسير بتدخل علم النحو وأبوابه في تأويل الآيات، فهو يعتبر مدخلا في فهم النصوص وإنشاء خطابات تفسيرية قائمة على أسس علمية لغوية تنضبط لمعايير تُستقى من بنية النصوص.

لا يخفى علينا مدى تعالق علم النحو والإعراب، فالنحو هو «انتحاء سمّت كلام العرب، في تصرفه من إعراب وغيره، كالثنية، والجمع، والتحقيق، والتكسير والإضافة، والنسب، والتركيب، وغير ذلك»^(١)، وأما الإعراب فهو «الإبانة عن المعاني بالألفاظ؛ ألا ترى أنك إذا سمعت أكرم سعيد أباه، وشكر سعيدا أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرعا واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه»^(٢)، فكأن الإعراب لصيق بوظيفة البيان والإفصاح عن المعاني، فلولا تلك الحركات التي تسم أواخر الكلمات لما تبين لنا الفاعل من المفعول، ولما برز لنا النعت والتميز والحال فهذه الأدوار الإعرابية تبين المعاني والدلالات، لذلك كان على كل طارق باب علم التفسير أن يتجند بما يكفيه من علم النحو حتى يجعله «أداة تأويلية هامة في بناء معاني الخطاب؛ لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف

(١)- ابن جني، الخصائص، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ٤، ٢٠١٣، ج ١، ص ٨٨.

(٢)- المصدر نفسه، ص ٨٩.

الإعراب»^(١)، لذلك استند إليه البيضاوي في تفسيره، فوصف وحل بعض الآيات بالانفتاح على علم النحو، فبين مواضع الحذف، والتقديم والتأخير باعتبارها أبواباً تدخل في هذا العلم.

• الحذف

يقول ابن جني: «القرآن الكريم وفصيح الكلام لا يخلو من كثرة الحذف كحذف المضاف والموصوف والاكْتفاء بالقليل عن الكثير، كالواحد من الجماعة وكالتلويح من التصريح»^(٢)، فالحذف أسلوب نحوي بلاغي وقف عنده النحاة واللغويون والبيانون ونوهوا بقيمته في البيان عن المعنى، وقد جعله ابن جني أصل المباحث اللغوية النحوية التي سماها "باب في شجاعة العربية" وقال: «قد حذفت العرب الجملة، والمفرد والحرف والحركة وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته»^(٣). فأحياناً يكون الحذف أبلغ من الذكر والسكوت عن اللفظ أزيد في الإفصاح عن المعنى، فإن حذفنا الفعل أو الفاعل أو المفعول فإن ذلك لا يضر بالمعنى، ولكنه يكتفه ويقوي دلالاته في مواقع عدة، ولهذا يكون الحذف «باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر. والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجذب أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين»^(٤) فيكون السكوت في أحيان كثيرة كلاماً بليغاً، بيّناً، لا تؤديه الألفاظ ولا تعكسه التراكيب والجمل، بل ترك هذه الألفاظ وحذفها يؤدي المعنى كما لو اخترنا له من الألفاظ ما هو في غاية الفصاحة والبلاغة.

(١)- بازي محمد، صناعة الخطاب - الأنساق العميقة للتأويلية العربية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م، ص٥٧.

(٢)- الخصائص، ج٣، ص٨٠.

(٣)- نفسه، ج٢، ص١٤٠.

(٤)- الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٥، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، ص١٤٦.

وهذا شأن القرآن الكريم الذي يشهد ثراء في المعنى حينما يجذف الحرف أو الكلمة أو الجملة، فهذه عناصر تشكل لنا بنية الكلام ومضمونه، وغيابها في السياق القرآني خاصة يدفع المتلقي إلى رصد مواقعها حتى يتحقق الفهم الصحيح لآياته ومعانيه.

وقد توقف البيضاوي عند نماذج كثيرة من الحذف في تفسيره لسورة الصفات نذكر من ذلك:

أ- حذف المضاف

يجذف المضاف عند أمن اللبس فيقوم المضاف إليه مقامه، فإذا كان المقام يسمح بحذف المضاف جاز حذفه، لأن المقام هو الذي يتحكم في الحذف كيفما كان نوعه.

يقول ابن جنى: «وقد حذف المضاف، وذلك كثير واسع، وإن كان أبو الحسن يرى القياس عليه، نحو قول الله سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ أَلْبَرَّ مِنَ اتَّقَى﴾ [البقرة: ١٧٧] أي بر من اتقى. وإن شئت كان تقديره: ولكن ذا البر من اتقى. والأول أجود، لأن حذف المضاف ضرب من الاتساع»^(١). ومنه قوله عز وجل: ﴿وَسئَلُ الْقَرْيَةَ﴾ أي أسأل أهل القرية، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

يقول ابن يعيش: «اعلم أن المضاف قد حذف كثيرا من الكلام وهو سائغ في سعة الكلام، وحال الاختيار، إذا لم يشكل، وإنما سوغ ذلك الثقة بعلم المخاطب، إذ الغرض من اللفظ الدلالة على المعنى، فإذا حصل المعنى بقرينة حال، أو لفظ آخر، استغني عن اللفظ الموضوع بإزائه اختصارا، وإذا حذف المضاف، أقيم المضاف إليه مقامه، وأعرّب بإعرابه، والشاهد المشهور في ذلك قوله تعالى: ﴿وَسئَلُ الْقَرْيَةَ﴾، والمراد أهل القرية، لأنه قد علم أن القرية من حيث هي مدر وحجر لا تسأل»^(٢).

(١)- الخصائص، ج ٢، ص ١٤٢.

(٢)- ابن يعيش، شرح المفصل للزنجشيري، تقديم: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ٢٠٠١م، ج ٢، ص ١٩٢.

وقد حذف المضاف في قوله تعالى: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾^(١) أي «رأى مواقعها واتصالاتها، أو في علمها أو في كتابها، ولا منع منه مع أن قصده إيهامهم وذلك حين سأله أن يعبد معهم»^(٢). وبذلك يكون المضاف المحذوف عند البيضاوي هو "العلم" والتقدير هو نظر نظرة في علم النجوم، وذلك لأن وجود العلم لا يسبق وجود النجوم فهي السابقة والعلم لاحق بها.

فحذف المضاف في هذا المقام أدى إلى الاتساع في المعنى، فلا نعلم أهو نظر نظرة في علمها أم مواقعها أو كتابها. فالغرض من اللفظ هو كشف الحجاب عن المعنى ولما تحقق بدون الاسم المضاف لم يكن هناك حرج في الاستغناء عنه.

ب- حذف الموصوف

حق الموصوف أن يظل لصيقا بالصفة إلا أنه قد يحذف وتقوم الصفة مقامه «فالصفة والموصوف لما كان كالشيء الواحد من حيث كان البيان والإيضاح إنما يحصل من مجموعهما. كان القياس أن لا يحذف واحد منهما، لأن حذف أحدهما نقص للغرض، وتراجع عما اعتزمه»^(٣). ولكنهم «قد حذفوه إذا ظهر أمره. وقويت الدلالة عليه، إما بحال أو لفظاً»^(٤). ومن ذلك قوله عز وجل ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصَصٌ مُّطَوَّرَةٌ أَلْطَّرَفِ عَيْنٍ﴾^(٥) والمراد حور قاصرات الطرف، فالموصوف المحذوف هو الحور.

ولكن حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه لا يتم اعتبارا ولكن هناك شروط لا بد من مراعاتها في عملية الحذف. فإذا كانت الصفة مفردة جاز حذف الموصوف نحو "مررت بظريف" و"مررت بجميل" ولكن يمنع حذفه إذا كانت الصفة جملة نحو

(١)- سورة الصافات، الآية ٨٨.

(٢)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٥.

(٣)- شرح المفصل للزمخشري، ج ٢، ص ٢٥٣.

(٤)- نفسه، ص ٢٥٣.

(٥)- سورة الصافات، الآية ٤٨.

مرت برجل مات أبوه؛ فهنا لا يجوز حذف الموصوف لأننا لا يمكن أن تقوم الصفة مقامه «وربما جاء شيء من ذلك وما أقله فمن ذلك قول النابغة [من الوافر].

كأنك من جمال بني أقيش... إلخ

أراد جملا من جمال بني أقيش فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه^(١) التي هي عبارة عن جملة.

ومثال ذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾^(٢). فتأويل البيضاوي لهذه الآية كفيلا بتبيين هذا الموصوف الذي حذف فأخذت الصفة مكانه إذ يقول: «﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ حكاية اعتراف الملائكة بالعبودية للرد على عبدتهم والمعنى: وما منا أحد إلا له مقام معلوم في المعرفة والعبادة والانتهاة إلى أمر الله في تدبير العالم، ويحتمل أن يكون هذا وما قبله من قوله ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ من كلامهم ليتصل بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ كأنه قال ولقد علمت الملائكة أن المشركين معذبون بذلك وقالوا ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزيها له عنه، ثم استثنوا ﴿المخلصين﴾ تبرئة لهم منه، ثم خاطبوا المشركين بأن الافتتان بذلك للشقاوة المقدره، ثم اعترفوا بالعبودية وتفاوت مراتبهم فيه لا يتجاوزونها فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه^(٣).

فلما كان الموصوف المحذوف تشير إليه بعض القرائن اللفظية في الآيات السابقة لم يقع اللبس عند حذفه، بل أدى ذلك إلى توسيع المعنى دون إلحاق الضرر بالآية، وهذا ما أكده الزمخشري بقوله: «﴿وَمَا مِنَّا﴾ أحد ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه كقوله:

أنا ابن جلال وطلوع الثايبا بكفي كان من أرمى البشر

(١)- شرح المفصل للزمخشري، ج ٢، ص ٢٥٤.

(٢)- سورة الصافات، الآية ١٦٤.

(٣)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٩٢.

﴿مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ مقام في العبادة والانتهاه إلى أمر الله مقصور عليه لا يتجاوز كما روي فمنهم راعح لا يقيم صلبه وساجد لا يرفع رأسه^(١)

ج - حذف المخصوص بالمدح

قد يحذف المخصوص بالمدح إذا كان معلوما للمخاطب، كقوله تعالى: ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ﴾ أي نعم العبد أيوب، فالأصل «أن يذكر المخصوص بالمدح أو الذم إلا أنه قد يجوز إسقاطه وحذفه إذا تقدم ذكره، أو كان في اللفظ ما يدل عليه، وأكثر ما جاء في الكتاب العزيز محذوفا، قال الله تعالى: ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٤٤) والمراد أيوب عليه السلام، ولم يذكره لتقدم قصته. وقال: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾^(٤٨) أي فنعم الماهدون نحن^(٢).

ومن الآيات التي حذف فيها المخصوص بالمدح، في سورة الصافات قوله عز وجل: ﴿فَلْنَعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾^(٣)، أي «أجبناه أحسن الإجابة فوالله لنعم المجيبون نحن فحذف منها ما حذف لقيام ما يدل عليه»^(٤). فالمخصوص بالمدح معلوم لذلك جاز حذفه من الآية لأن في الكلام ما يدل عليه، فلو قالوا: "لنعلم المجيبون نحن" لظهر نوع من الاستعلاء والتفاخر، لذلك كان السكوت عن الممدوح أبلغ من ذكره، خاصة وأن اللام الداخلة على "نعم" جواب قسم محذوف تقديره: "فوالله لنعم المجيبون نحن".

د - حذف جواب "لما"

إن "لما" في العربية ترد على ثلاثة أقسام، فقد تفيد النفي وتعمل عمل "لم" وقد تكون إيجابية بمنزلة "إلا"، وبالإضافة إلى هذين المعنيين فإن لما «تكون رابطة لوجود شيء بوجود غيره، نحو "لما جاءني أكرمته"، فإنها ربطت وجود الإكرام بوجود المجيء»^(٥)

(١)- الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، اعتنى به وخرج أحاديثه

وعلق عليه: خليل مأمون شيحا، ص ٩١٦.

(٢)- شرح المفصل للزمخشري، ج ٤، ص ٤٠١.

(٣)- سورة الصافات، الآية ٧٥.

(٤)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٤.

(٥)- الأنصاري ابن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، تأليف محيي الدين عبد الحميد، دار

الخبر، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ص ٤٥.

نستدل على هذا النوع من الحذف بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْتَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾^(١). إن التفسير الذي يقدمه البيضاوي لهذه الآية هو كالآتي: «استسلما لأمر الله أو سلما الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه، وقد قرئ بهذا وأصلها سلم هذا لفلان إذا خلص له فإنه سلم من أن ينازع فيه»^(٢) و«جواب لما محذوف تقديره كان ما كان مما ينطلق به الحال ولا يحيط به المقال من استبشارهما وشكرهما الله تعالى على ما أنعم عليها من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق بما لم يوفق غيرهما لمثله. وإظهار فضلها به على العالمين مع إحراز الثواب العظيم إلى غير ذلك»^(٣)، وهذا النوع من الحذف من شأنه أن يفتح أبوابا للتوسيع وتحيل الحالة النفسية لإبراهيم وابنه، التي تتسم بالانسراح والسرور والخضوع لأمر الله والاستسلام الواعي المتعقل والمطمئن لما سيكون. ففي «هذا الحذف إشارة إلى أن اللفظ لا يستطيع أن يصف ما أصاب إبراهيم وابنه من المسرة والابتهاج»^(٤). فاللفظ في هذا المقام قاصر قصورا تاما عن الإفصاح عن هذه الحالة، لذلك وقع الحذف لكي يتوسع المتلقي في تصور هذا الاستسلام غير المتناهي لأوامر الله.

هـ - حذف جملة الشرط

الشرط من الأساليب المميزة التي تعرف تركيبيا، حيث يتكون من جملة تتفرع إلى جملتين هما: جملة الشرط وجملة جواب الشرط، ويشترط وجود الحدث الأول ليتحقق الثاني. فالجواب يكون متعلقا بالفعل.

وتحذف جملة فعل الشرط جوازا إذا وقع فعل الشرط بعد "إن" مدغمة ب "لا" النافية كقول الشاعر:

(١)- سورة الصافات، الآية ١٠٣-١٠٤-١٠٥.

(٢)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٨.

(٣)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٨.

(٤)- بدوي أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م، ص ١٠١.

فطلقها فلست لها بكفاء *** وإلا يعل مفركك الحسام
 والتقدير: وإن لا تطلقها يعل مفركك الحسام. والقرينة في هذه الحالة لفظية حيث
 دل على المحذوف الجملة السابقة طلقها. ويجوز حذف الشرط بعد الأداة إذا وقع بعد
 "من" المتلوة ب"لا" النافية نحو من أحبك فانصره ومن لا فاهجره، وهذا ما يذهب
 إليه ابن هشام في كتابه مغني اللبيب عن كتب الأعراب.

ويحذف فعل الشرط وجوبا «وهذا مطرد بعد الطلب نحو ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي فإن تتبعوني يحبكم الله ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكُمْ﴾^(١) وجاء بدونه نحو ﴿إِنْ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَايَ فَاعْبُدُون﴾ أي فإن لم يتأت إخلاص العبادة لي في هذه البلدة فإياي فاعبدون»^(٢).

وقد وجب حذف جملة فعل الشرط بدون طلب في قوله ﴿فَاتَّبِعْنَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾^(٣) فهذا «جواب شرط مقدر أي إذا كان ما كان فإنما البعثة زجرة واحدة أي صيحة واحدة وهي النفخة الثانية من زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها وأمرها في الإعادة كأمر ﴿كُنْ﴾ في الإبداء ولذلك رتب عليها»^(٤) فلو ذكر فعل الشرط المقدر بإذا كان ما كان فإننا سنطيل المقام خاصة وأنه مقام تخويف وتهويل لذلك عدل الله عز وجل عن ذكره ليبين سرعة العقاب فبعد الصيحة يسلك كل كافر طريقا وما أشعها من طريق، إنها طريق العذاب فيرى جزاءه ويستقبل مصيره، ويظهر ذلك من خلال قول البيضاوي "إذا كان ما كان" فسكوته عن ذكر هذا الذي سيكون فيه زيادة في قوته.

• التقديم والتأخير

لا تقديم للعبارات والألفاظ إلا ومن خلفه غايات ومقاصد بلاغية يمكن ألا تؤديها رتبة الجملة الأصلية، والنحو كان له أثر في تحديد مواقع التقديم والتأخير، لأن

(١)- الأنصاري ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد،

المكتبة العصرية، ج ٢، ص ٧٤٣-٧٤٤.

(٢)- نفسه.

(٣)- سورة الصافات، الآية ١٩.

(٤)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٧٩-٨٨٠.

انتظام المعاني يتعالق مع ثبوت القواعد النحوية فهي البناء الذي يكشف لنا المعاني. ولما كان للتقديم هذا الأثر فقد وقف عنده النحاة، وخصصوا له مباحث. وكان سيبويه ممن لفت الانتباه إلى التقديم والتأخير فقال: «فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك قولك: ضرب زيداً عبد الله؛ لأنك إنما أردت به مؤخرًا ما أردت به مقدمًا. ولم ترد أن تشغل الفعل بال منه وإن كان مؤخرًا في اللفظ. فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون مقدمًا، وهو عربي جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهتمانهم ويعنيانهم»^(١).

وباب التقديم والتأخير «باب كثير الفوائد جم المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية، لا يزال يفترلك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان»^(٢). وهكذا يقدم المفعول على الفاعل تارة وعلى الفعل تارة أخرى في مواطن كثيرة من القرآن الكريم ومنه قوله تعالى: ﴿أَيْفَاكَ آلهةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾^(٣)، فهذا اللون من التقديم يتميز بتأخير الفعل وتقديم المفعول به بل والمفعول له أيضا، إذ «يجوز تقديم المفعول له على الفعل الناصبه، نحو قولك: طمعا في برك زرتك، ورغبة في صلتك قصدتك»^(٤). وقد أكد ابن جني أن المفعول به يقدم تارة على الفاعل وتارة على الفعل ولا حرج في ذلك.

والتقديم يشير إلى مغزى، فتغير الرتبة في الآية له هدف، إذ قدم المفعول له الذي هو الكفر والكذب ثم أتبعه المفعول به آلهة لتختتم الآية بالفعل، والتقدير الذي يقدمه البيضاوي هو «أي تريدون آلهة دون الله أفكاً؛ مقدما المفعول للعناية ثم المفعول له، لأن الأهم أن يقرر أنهم على الباطل ومبني أمرهم على الإفك»^(٥)، فالمفعول به يستحق

(١) - سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ج ١، ص ٣٤.

(٢) - دلائل الإعجاز، ص ١٣٩.

(٣) - سورة الصفات، الآية ٨٦.

(٤) - الخصائص، ج ٢، ص ١٥٩.

(٥) - تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٥.

الصدارة ليس لعظمته ولكن حينها وجدهم الله يعبدون أصناما وأوثانا سرّح في ذكر ما هم عليه من الكذب، وقد قدم البيضاوي وجها آخر في إعراب هذه الآية فقال: «ويجوز أن يكون ﴿إفكاً﴾ مفعول به وآلهة بدل منه على أنها إفك في نفسها للمبالغة»^(١)، فالإفك كذب والآلهة ظلال وباطل لذلك جعلها البيضاوي بدلا من الإفك، ويحتمل أن يكون إفك «حالا بمعنى آفكين»^(٢) بمعنى أتريدون آلهة من دون الله آفكين، وهكذا فإن التقديم في هذه الحالة أدى إلى بيان حال الكفار وعملهم المرتبط ارتباطا شبه تام بالكفر والمعصية.

إن حضور علم النحو يبدو ظاهرا في الخطاب التفسيري عند البيضاوي، إذ جعله أداة لإيصال المعنى وإظهاره وذلك من خلال توظيفه في مجموعة من المواقع التي عرفت الحذف أو التقديم، فهو يعلم أن أي تغيير في الرتبة من شأنه أن يغير المعنى لذلك كان حريصا على تقصي مختلف الظواهر النحوية التي يؤثر حضورها في المعاني ومن ثم نخلص إلى ما يأتي:

- النحو أداة حاضرة في الخطابات التفسيرية؛
- علم التفسير لا يمكن أن يستغني عن هذا العلم لما له من أثر في وضوح الدلالات؛
- علم النحو يتعالق وعلم اللغة؛ لأن تغير الدلالات النحوية يدفع بالمفسر إلى البحث عن الدلالات اللغوية.

٣- المنطلق البلاغي

إن لغة القرآن لغة بيان وإقناع وتأثير واستمالة وتشريع وكشف للحقائق، لذلك كانت الأساليب البلاغية أدق الأساليب في التعبير عن أسرار الذكر الحكيم لما لها من أثر في إيقاظ الفكر، وبعث العقول إلى التدبر في آياته.

(١)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٥.

(٢)- نفسه.

فالمعاني القرآنية ليست بالمعاني المباشرة، وتوظيف الألفاظ ونظمها لا ينحو في كثير من الأحيان منحى الحقيقة، بل إن الأساليب البلاغية والتراكيب البيانية حاضرة بقوة خاصة في تلك المقامات التي تستدعي ذلك، واستعمال اللفظ يكون حقيقيا في موضع ومجازيا في موضع آخر، فالنص القرآني مزيج من الحقائق والمجازيات التي هي في جوهرها ضرب من الحقائق.

لذلك فإن خطاب التفسير يجب أن يقوم على أسس بلاغية فلا تؤول الألفاظ بمقتضى ظاهرها، بل لا بد أن يبحث عن معانيها المتخفية وراء الأساليب البلاغية، فعلم البلاغة يعتبر مدخلا وأوليا قائما بذاته له وظيفته في صناعة الخطاب التفسيري. ولقد دأبت التفاسير القرآنية على اعتماده واستشاره لخدمة الخطابات التأويلية، إذ لا يستوي هذا الخطاب بمعزل عنه، ف«الفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحيه لا يتصدى منهم أحد لسلكه تلك الطرائق ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة وتعب في التنقير عنهما أزمته، وبعثه على تتبع مظانها همة في معرفة لطائف حجة الله وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ، جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ»^(١).

لا تخفى إذن مكانة علم البلاغة بين العلوم، فهو الذي يعطي للألفاظ معانيها، ويكشف عن صورها ليدل على سرائرها وضمايرها، فلا ينطلق المفسر في عمله التأويلي أو التفسيري إلا إذا كان ملما، مدركا وعارفا بأسرار علم البلاغة فلا يغنيه علم الفقه أو الكلام أو الحفظ أو النحو أو اللغة عن هذا العلم.

(١) - الكشاف، ج ١، ص ٢٣.

وهذا ما يؤكد عبد القاهر الجرجاني بقوله: «ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم، أن يوهوا أبدا في الألفاظ الموضوعية على المجاز والتمثيل، أنها على ظواهرها، فيفسدوا المعنى بذلك، ويبتلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة، وبمكان الشرف. وناهيك بهم إذا هم أخذوا في ذكر الوجوه، وجعلوا يكثرون في غير طائل، هناك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه، وزند ضلالة قد قدحوا به»^(١).

واضح إذن من كلام الزمخشري وكلام عبد القاهر الجرجاني أن التراكيب القرآنية قد تتضمن بنيات مجازية تستدعي التأويل، وهذا التأويل لا بد أن يستقي من نبع البلاغة لأن البحث في المعاني القرآنية وخاصة تلك المعاني غير الحقيقية شبيه بالبحث عن لؤلؤ مفقود يتطلب الوصول إليه التسلح بعلم البلاغة التي تمكننا من الغوص في النص القرآني مبحرين في معانيه سابحين بين ألفاظه.

وقد وقف البيضاوي عند بعض التراكيب البلاغية، وقدم لمحات في شرحها كانت خيطا رابطا بين المتلقي والنص القرآني.

أ- التشبيه

يعد التشبيه مسلكا بيانيا يقوم على وصف الشيء بما قاربه أو شاكله أو شابهه من جهة واحدة أو مجموعة من الجهات، فهو يقدم صورة تجمع بين أشياء متماثلة وهذا الأسلوب يتسم بوضوح التركيب، وهذه الخاصية جعلته يتميز عن باقي الأساليب البيانية الأخرى.

يقول عبد القاهر الجرجاني: «واعلم أنه ليس شيء أبين وأوضح وأحرى أن يكشف الشبهة عن متأمله في صحة ما قلناه من التشبيه»^(٢).

(١) - دلائل الإعجاز، ص ٣٠٥.

(٢) - الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ص ٤٢٥.

وليست تخفى المزايا العديدة للتشبيه، فلو كان الخطاب القرآني خطابا تجريديا لمس الذهن دون النفس، فهذا الخطاب موجه للإنسان ليتدبره بعقله وقلبه، وبالفكر يتفكر وبالقلب يتأمل، ليتقرر في قلبه ما توصل إليه عقله، لذلك فإن النص القرآني زاخر بالتشبيهات، فهي أوقع في النفس من الكلام المباشر إذ إنها تضيف على النص القرآني روعة ورونقا، وتساعد على تقريب المعاني وتصويرها، فهذه القرآن ليس هو بيان مقاصد الشريعة ومراد الله عز وجل فقط وإنما تصوير المشاهد لكي ترسخ في الأذهان وتتسرب معانيها إلى الفكر فترسم في النفوس الحقائق بأبهى تركيب وأدق اختيار.

يقول عبد القاهر الجرجاني: «التشبيه أن تثبت لهذا معنى من معاني ذلك أو حكما من أحكامه، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد، وللحجة حكم النور في أنك تفصل بينهما وبين الحق والباطل، كما يفصل بالنور بين الأشياء»^(١)، فهو يزيد في جمال أسلوب القرآن جمالا ويضيف عليه لذة، فتتلهف النفس لإدراك ما يستتر وراء حجابيه. وقد ورد التشبيه في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيَّضٌ مَكْنُونٌ﴾^(٢)، يقول البيضاوي في تفسيره لهذه الآية: «شبههن ببيض النعام المصون عن الغبار، ونحوه في الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة فإنه أحسن ألوان الأبدان»^(٣). يعرض البيضاوي الوجه المشترك بين قاصرات الطرف والبيض المكنون، ويحاول أن يفصل في هذا الوجه تفصيلا ينحو منحى الإيجاز، فأكد أن قاصرات الطرف يُشبهن ببيض النعام في صفائه وبياضه المخلوط بأدنى صفرة، فكأن ما هو خارج عن البيضة ليس بمكنون، فإذا كنت الشيء جعلته مصونا من الغبار بعيدا عن الأيدي «والكن ما يحفظ فيه الشيء، ويقال: كنت الشيء كئنا إذا جعلته في كن وخص كنت بما يستر بيت

(١)- الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة في علم البيان، ص ٦٨.

(٢)- سورة الصافات، الآية ٤٩.

(٣)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٢.

أو ثوب وغير ذلك من الأجسام»^(١). ففي حفظ الأشياء تكريم لها وزيادة في قيمتها، فكل ما تهواه النفس وتعشقه العين ويسر به القلب يكون غائبا في الوجود، حاضرا في خيال الفكر، وهذا حال قاصرات الطرف اللواتي لم تمسهن أيد ولم يدنسن بوسخ الحياة وشهواتها، فكنَّ كالجوهر المصون.

وفي تشبيههن بالبيض إشارة إلى مدى عفتن، فقشرة البيض حساسة لا تتحمل الضغوط ومع ذلك فإنها تحافظ على ما بداخلها إلى أن يأتي وقت خروجه، ولما كانت المرأة شبيهة بالكائن الرخو اللطيف الظريف التي تحويه قشرة البيض حسن تشبيهها به، فهي أيضا تحافظ على نفسها إلى أن يأتيها أجلها، والأمر الذي يجب ألا نغفله هو أن البيض المكنون يضم حياة تتغذى، حياة تنمو، حياة ستقبل على هذه الحياة، إذن فهي حياة مقبلة كحياة قاصرات الطرف، ليكون بذلك البيض المكنون إشارة إلى الحياة المتدفقة تماما كحياة حور العين التي يغزوها الشباب ويتخللها الجمال.

والمرأة حينما تشبه ببيض النعام فإن ذلك التشبيه يكون تكميلا لها لأن لون بيض النعام هو أحسن ألوان النساء عند العرب، وفيه يقول امرؤ القيس :

«وَبَيْضَةُ حِذْرِ لَا يَرَامُ خِبَاؤُهَا *** تَمَتَّعْتُ مِنْ هَوِّهَا غَيْرَ مُعَجَّلٍ»^(٢)

ففي هذا التشبيه دليل على أنهن مصونات عفيفات غير ظاهرات فبالخفاء تزداد العظمة، وبالغياب يعلو الشأن، وبالندرة تزداد القيمة، ويمكن أن نستشهد على هذه الآية بآية أخرى يقول فيها الله عز وجل: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾^(٣)، فإذا ما رجعنا إلى تفسير الآية التي تسبق الآية الآتية: ﴿بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ وجدنا الله سبحانه وتعالى قد كنى على حور العين بالقاصرات، فهذا هي صورتهم تكتمل في الذهن، ففي الآية الأولى جعلهن بيضا وفي الثانية لؤلؤا وفي الحالتين معا جعل اللؤلؤ

– الأصفهاني الراغب، المفردات في غريب القرآن، ج ٢، ص ٤٤٢. (١)

(٢) – ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط ٥، ص ١٣.

(٣) – سورة الواقعة، الآية ٢٢-٢٣.

والبيض أشياء مكنونة، وهذه الصورة لا يرسمها الله إلا لمخلوق قد ارتقى عنده إلى مكانة رفيعة.

إن نظم هذه الصورة التشبيهية الإلهية ونسجها على النحو الذي نجدها عليه يفوق طاقة البشر، فكلمة البيض قد أدت المعنى كما يجب أن يؤدي، فمهما بلغت بلاغة الإنسان وفصاحته فإنه لا يمكن أن يأتي بكلمة ترسم هذه الصورة، فيضع الحروف في مواضعها والمعاني في مواقعها، إنه الإعجاز القرآني يلبس رداء التشبيه ويجعله سيد المقام، ففي هذه الصورة تتجلى عظمة الخالق، وعظمة القرآن الكريم التي تشير إلى عظمة مخلوقاته في حالة الامتثال لأوامره وطاعته، لأن هذه الطاعة في الدار الدنيا ستعود عليه بحسن الثواب والجزاء في الدار الآخرة.

حرص البيضاوي على تبيين الوجه البلاغي الذي تعبر عنه هذه الآية ففصل في شرحه مبينا ما أضمرته الآية من وجوه مشتركة بين قاصرات الطرف والبيض المكنون، مستهلا تفسيره بقوله "شبههن" ففي هذا اللفظ إيحاء إلى حضور التشبيه في هذه الآية.

ولما كان التشبيه فرعاً من علم البيان الذي به يحلو الكلام ويجسن المعنى، فقد ورد في أجمل المواطن وصور لنا مشهد الماء وهو ينزل من السماء، وقرب من أذهاننا سلسلة من المشاهد المعبرة عن يوم القيامة، ولم يترك مخلوقاً استدعى المقام تصويره إلا وتجد لتمثيله، وفي سورة الصافات دليل على ذلك، إذ يقول تعالى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّه رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾^(١).

يقول البيضاوي: ﴿كَأَنَّه رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ في تناهي القبح والهول، وهو تشبيه بالتمثيل كتشبيه الفائق الحسن بالملك، وقيل "الشياطين" حيات هائلة قبيحة المنظر لها أعراف ولعلها سميت بها لذلك^(٢).

(١) - سورة الصافات، الآية ٦٥.

(٢) - تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٣.

فضرب المثل في هذه الآية رفع للأستار عن الحقائق وإبراز لحفيات المعاني وقد أرانا المتخيل في صورة المتحقق والحفي كأنه مشاهد والغائب كأنه حاضر، فالمعاني المجردة حينما تشبه بشيء عقلي يكون لذلك التشبيه وقعا في القلب ورسوخا في الفكر وأثرا في النفس، لأن كل هذه الأشياء تتعاقد فيما بينها لبلوغ المعنى، والتشبيه يستمد قوته في كثير من الأحيان من الخيال فترسم الصورة وكأنها سحر يفعل ما يفعل في الإنسان، وفي هذه الآية حسب البيضاوي تشبيه بالمتخيل لأن الشياطين مخلوقات لم ترها أعين ولم تدركها حواس، وفي تشبيهه طلع شجرة الرقوم برؤوس الشياطين زيادة في القبح والهول كما يؤكد ذلك البيضاوي، فحينما ترسخ إحدى الصفات في المشبه تأتي بما هو أقوى منه لثبوت تلك الصفة فيه كأن نشبه الفائق الحسن بالملك، ومن عادة العرب أن يشبهوا الشيء بما هو متخيل ليزيدوا إما في قبحه أو جماله ودليلنا على ذلك قول امرئ القيس:

«أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي *** وَمَسْنُونَةٌ زُرُقٌ كَأَنْيَابِ أَعْوَالٍ»^(١)

والأغوال لا ندري إن كانت مخلوقات أم ليست بمخلوقات، لا ندري إذا كانت موجودة أو ليست كذلك، لذلك عمل امرؤ القيس على اعتمادها مشبها به ليزيد من بلاغة التشبيه.

وقد وقف البيضاوي عند لفظ "الشياطين" ليرفع من بشاعتها فأتى بدلالاتها على أنها حيات هائلة قبيحة المنظر لها أعراف، فإذا اجتمع الهول والقبح في الشيء زاد الخوف في النفس وتسرب الرعب للقلب، خاصة وأن صفة هذا المشبه به قد ثبتت في المشبه الذي هو طعام الظالمين، فلا يهم فيما بعد طعم هذا الطعام أو لونه لأنه سيكون كنه عذابهم وأصل محتهم.

- ديوان امرئ القيس، ص ٣٣. (١)

يقول الجاحظ: «زعم ناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كرية، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير وقالوا: ما عنى إلا رؤوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم، من فسقة الجن ومردتهم. فقال أهل الطعن والخلاف: كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فتوهمه ولا وُصفت لنا صورته في كتاب ناطق، أو خبر صادق ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفريع منها. وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكر. فكيف يكون الشأن كذلك والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه أو صورته لهم واصف صدوق اللسان بليغ في الوصف»^(١).

لقد فصل الجاحظ في هذا المقال وجوه التشبيه فكان مدركا لمرمى التعبير القرآني الذي عدل من الحقيقة إلى التشبيه وذلك لتشبيه المشبه وبيان مدى بشاعته، فلو وجد ما هو أبلغ من الشياطين في أداء المعنى لذكره الله عز وجل «وقوله: كأنه رؤوس الشياطين [٦٥] فإن فيه في العربية ثلاثة أوجه. أحدها أن تشبه طلوعها في قبحة برؤوس الشياطين لأنها موصوفة بالقبح، وإن كانت لا تُرى. وأنت قائل للرجل: كأنه شيطان إذا استقبحت. والآخر أن العرب تسمي بعض الحيات شيطانا. وهو حية ذو عرف. وقال الشاعر، وهو يذم امرأة له:

عنجرد تحلق حين أحلف *** كمثل شيطان الحماط أعرف

ويقال: إنه نبت قبيح يسمى برؤوس الشياطين. والأوجه الثلاثة تذهب إلى معنى واحد في القبح»^(٢). وهذا ما اختزله البيضاوي في ألفاظ حمالة معان لا يستنطقها إلا من كان عارفا بمنهجه في اختزال المعاني وتخير الألفاظ التي تؤدي المعنى بأبلغ تعبير. إن اعتماد البيضاوي على المدخل البلاغي في تفسير هذه الآية دليل على تمكنه من أساليب البيان، فلو مر عليها مرور الكرام لكان في ذلك تغييب للمعنى وتعمية لمضمونه، فما أثبتته هذا التشبيه ثابت وما نفاه منفي لأن في حضوره تأكيد للمعاني وتزكية لها.

(١) - الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة مطبعة مصطفى اللباني الحلبي وأولاده - مصر، ط ١٤٨٦/٢هـ - ١٩٦٨م، ج ٦، ص ٢١٣.

(٢) - معاني القرآن، ج ٢، ص ٣٨٧.

ب- الاستعارة

يقول عبد القاهر الجرجاني «اعلم أن الاستعارة في الحقيقة هي هذا الضرب دون الأول، وهي أمد ميدانا، وأشد افتنانا، وأكثر جريانا، وأعجب حسنا وإحسانا وأوسع سعة وأبعد غورا، وأذهب نجدا في الصناعة وغورا، من أن تجمع شُعبها وشُعبها، وتحصر فنونها وضروبها، نعم، وأسحر سحرا وأملا بكل ما يملأ صدرا، ويمتع عقلا، ويؤنس نفسا، ويوفر أنسا، وأهدى إلى أن تُهدي إليك أبدا عذارى قد تُحَيِّر لها الجمال، وعني بها الكمال وأن تخرج لك من بحرها جواهر إن باهتتها الجواهر مدّت في الشرف والفضيلة باعا لا يقصر، وأبدت من الأوصاف الجليلة محاسن لا تنكر، وردت تلك بصفرة الخجل، ووكلتها إلى نسبتهما من الحجر وأن تثير من معدنها تيرا لمر مثله»^(١)

و بذلك فإن للاستعارة نبلا وفضلا لأنها تجعل الحي ميتا، والميت حيا والحجر ناطقا، والناطق أخرس، والشيب مشتعلا، والحاضر غائبا والغائب حاضرا فترسم المعاني بأبهى الألوان لتلبسها ثوبا من البيان مرصعا بجواهر المجاز، فتنقل اللفظ من معناه الحقيقي لتثبته في موطن لم يوضع له في أصل اللغة، فترى الألفاظ تؤدي معاني ليست لها فتعبر عنها أصدق تعبير.

وفي سورة الصافات توظيف للاستعارة إذ يقول تعالى: قالوا ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾^(٢)، فكلمة اليمين استعيرت من يمين الإنسان للدلالة على القوة والإجبار والقهر إذ كانوا يأتوهم كما يقول البيضاوي «عن أقوى الوجوه وأيمنها أو عن الدين، أو عن الخير كأنكم تنفعوننا نفع السانح فتبعناكم وهلكنا. مستعار من يمين الإنسان الذي هو أقوى الجانبين وأشرفهما. وأنفعهما ولذلك سمي يميننا وتيمن السانح، أو عن القوة والقهر فتقسرونا على الضلال، أو على الحلف فإنهم كانوا يملفون إنهم على الحق»^(٣).

(١)- أسرار البلاغة في علم البيان، ص ٣٩.

(٢)- سورة الصافات، الآية ٢٨.

(٣)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٠.

يظهر أن استعارة لفظة اليمين جاءت لتفيد معاني متعددة؛ فيحتمل أن تدل على القوة أو الدين أو الخير أو الحلف، وأما استعارتها للقوة والقهر ففيه دليل على أن يمين الإنسان يقع بها البطش ليكون المعنى هو أنهم بالقوة حملوا على طريق الضلال. وأما استعارتها للدين فيدل على تهوينهم عليهم أمر الشريعة وتنفيرهم عنها ذلك أنهم يزينون لهم الباطل ويصدونهم عن الحق.

وقد تكون استعارتها لجهة الخير، لأن اليمين أشرف العضوين وبه يباشرون أعمالهم، وينالون به أفضل الأشياء.

أما استعارتها لجهة الحلف ففيه إيماء على أنهم كانوا يحلفون لهم على حسن ما يتبعونهم فيه وصدقه.

وفي هذه الاستعارة تنبيه إلى حالة الكافرين يوم القيامة، إذ يقبل بعضهم على بعض يتلاومون، فيتخاصم الرؤساء والأتباع، ليقولوا إنكم كنتم تأتوننا في الدنيا عن اليمين لتجبرونا على الكفر والغي، لذلك فصل البيضاوي في تفسيره لهذه الآية فيين الوجوه المحتملة في لفظ اليمين حتى لا يحمل على معنى دون آخر، فهو يحيل على القوة وتزيين الباطل وتحسين القبيح وصد عن الهدى، لأن السادة يسيطرون على الأتباع والقادة يتحكمون في الضعفاء.

لذلك فإن البيضاوي اتجه إلى تبسيط الوجوه المحتملة في هذا اللفظ، فلم يترك معنى يحتمل أن يدل عليه هذا اللفظ إلا وذكره وذلك ليرسم الصورة واضحة أمام القارئ، فما ألمح إليه الله، جل وعلا، بالاستعارة عمل على بيانه بأسلوب بسيط يفسرها من خلاله.

ومن خلال ما أوردناه يتضح أن الاستعارة الواردة في الآية قد جاءت لتكثيف المعنى وللتشخيص والإيجاز وهذا ما فصل البيضاوي القول فيه.

ومن التصوير القائم على الاستعارة أيضا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِصَاحِبِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ (١).

يقول البيضاوي في تفسيره لهذه الآية: «﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ فبئس صباح المنذرين صباحهم، واللام للجنس وال «صباح» مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب لما كثر فيهم الهجوم والغارة في الصباح سمو الغارة صباحا وإن وقعت في وقت آخر» (٢)، ففي استعارة لفظ الصباح كشف عن جمالية التصوير إذ تنبعث الظلال من الألفاظ فالصباح له عدة معان تحضر في الذهن بمجرد سماع هذا اللفظ، ولكن البيضاوي عمل على حصر هذه الدلالات فجعله يرتبط بصباح الجيش لأن في إسناد السوء إلى صباحهم إشارة إلى أنه صباح مشؤوم لا ظهر يليه، فيه سيقضي عليهم، فكثرة الهجوم في الصباح هو ما دفع بهم إلى تسمية الغارة صباحا، وهذه الصورة الاستعارية ترسم لنا مشهدا يضرب في أعماق العذاب، ويدعو إلى ربط صورة صباح الجيش بصورة العذاب لتبدو الدهشة واضحة على ملامح الكافر الذي ينتقل من الراحة النفسية إلى مساءلة ذاته عما إذا كان قد نجا من هذا العذاب، لأن أعماله هي الحكم الفاصل بينه وبين ساحة الجيش. فسوء الأعمال سيفرض عليه دخول ساحة الحرب ليخوض معركة مع العذاب نتائجها محسومة منذ البداية، «وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي يحس بها ويروك موردها على نفسك وطبعك إلا لمجيئها على طريقة التمثيل. انتهى. وظهره أن الكلام على الاستعارة التمثيلية وفضلها على غيرها أشهر من أن يذكر وأجل من أن ينكر» (٣).

(١) - سورة الصافات، الآية ١٧٧.

(٢) - تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٩٣.

(٣) - الألويسي شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج ٢٣، ص ٢٠٢.

وفي التعالق بين العذاب والصبح تنبيه إلى السرعة التي سيأتي بها العذاب لأن الصبح هو بداية جديدة فإذا كانت البداية معركة مع العذاب فإن النهاية ستكون أسوء من ذلك خاصة وأن الله قد سرع في عذابهم .

ج- الكناية

إن من جمالية خطاب التفسير كونه خطابا متكاملًا لا يتجاوز المعاني الخفية ولا يقتصر على تفسير المعاني الجلية، لأن إعجاز القرآن لا يكمن في المعاني أو الألفاظ بل في كل ما تحويه دفئا المصحف الشريف، فالفواصل لها معانيها والحروف لها معانيها والألفاظ لها معانيها أيضا، لذلك فإن من مفاتيح خطاب التفسير الوقوف عند الوجوه البلاغية للآيات، فكان البيضاوي حريصا على إبراز ما تتضمنه من تشبيهات واستعارات أشرنا إلى بعضها سابقا، وقد نالت الكناية أيضا حظها من سورة الصفات وحظها أيضا من تفسير البيضاوي لها، يقول عز وجل: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ أَلْطَّرَفِ عَيْنٌ﴾ (٤٨) (١).

يقول البيضاوي في تفسيره لهذه الآية «قصرن أبصارهن على أزواجهن ﴿عَيْنٌ﴾ نجل العيون» (٢)، ففي كلامه إشارة للكناية على الرغم من إضماره لها، لأنه كان يكفي أن يقول نساء قصرن أبصارهن، ولكن لما بلغن من الكمال درجات ومن الجنة مكانة عمل على تفسير لفظة "عين" تأكيدا على أنهن نجل العيون وذلك لكي لا يفهم أن هذا القصر يومئ إلى عيب خلقي أصاب هذه العيون، فالكناية هي «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في أصل اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ إليه ويجعله دليلا عليه، مثال ذلك قولهم: " هو طويل النجاد" يريدون طويل القامة، و" كثير رماد القدر" يعنون كثير القرئ وفي المرأة: " نؤوم الضحى" والمراد أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها، فقد أرادوا في هذا كله

(١)- سورة الصفات، الآية ٤٨.

(٢)- تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٨٨٢.

كما ترى معنى ثم لم يذكره بلفظه الخاص به ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود، وأن يكون إذا كان. أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد؟ وإذا كثر القرى كثر رماد القدر؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها، ردف ذلك أن تنام إلى الضحى»^(١).

إن الله عز وجل في هذه الآية يريد أن يثبت صفات نساء الجنة، ولكن بدون ألفاظ لأن ظاهرها شيء وباطنها شيء آخر، لتكون بذلك هذه الألفاظ التي تطفو أمام مرأى الناظر ما هي إلا قوارب توصلنا إلى المعاني الممزوجة بأسلوب الكناية، وتأويل البيضاوي لهذه الآية يقوم على إبراز المعنى دون إيضاح الأسلوب البلاغي المتجذر في أعصابها، ولكن تأويله في الوقت نفسه يبين أن هذه الآية جاءت كناية على حور العين لأن من صفاتهن أنهن يجسسن نظرهن فلا ينظرن إلى غير أزواجهن، لا ينظرن إلى أجنبي ولا يمتد طرفهن إلا إلى الذي كتب الله لهن، وذلك لحياتهن وعفتهن، فكان من فضل الله عليهن أن وهبهن عيوناً واسعاً هبة لهن على تعففهن في الدار الأولى، وهبة لأزواجهن على إيمانهم.

ويمكن أن نستشهد على ذلك بقول الله عز وجل: ﴿فِيهَا قَصْرٌ مَّقْصُورَاتٌ لِّمَن يَطْمَئِنُّنَّ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُيُوتِ﴾^(٣)، «قصرن عن أزواجهن، أي جسسن، فلا يردن غيرهم، ولا يطمحن إلى سواهم، والعرب تسمي الحجلة المقصورة، والقصورة، ويسمون المقصورة من النساء: قصورة. وقال الشاعر:

لعمري لقد حبيت كُـلَّ قَصُورَةٍ *** إلى وما تدري بذلك القصائر
عَيَّتُ قَصُورَاتِ الْحِجَالِ وَلَمْ أَرِدْ *** قِصَارَ الْخَطَا، شَرُّ النِّسَاءِ الْبِحَاتِرِ»^(٤)

(١) - دلائل الإعجاز، ص ٦٦.

(٢) - سورة الرحمان، الآية ٥٦.

(٣) - سورة الرحمان، الآية ٧٢.

(٤) - معاني القرآن، ج ٣، ص ١٢٠.

فالأيات جاءت كناية على حور العين والغرض من ذلك بيان أنهم مع هذا الجمال الباهر لا تراهن أعين ولا تطاهن أيد لذلك كنى عليهن بحور العين، والله عز وجل ذكر هذه الصفات لتكون وسيلة لبلوغ المعنى ودليلا عليه فاكتفى البيضاوي بتفسير هذه الصفات دون بيان دلالتها من الناحية التركيبية.

وهكذا فإن البناء البلاغي في هذه الآية لا يحتمل إلا تأويلا واحدا يفصح عليه البيضاوي من خلال تفسيره ومن ثم يمكن أن نقول إن بناء البيضاوي لمعنى هذه الآية يتسم بتغيب الوجه البلاغي، ويستند إلى تحقيق ألفاظ الآية التي تدل عليه، فكأنه فطن إلى أن المعنى الذي تضمه الكناية وراء أستارها سيظهر بشرح الألفاظ دون ذكر الوجه البلاغي الذي تحويه.

خلاصة:

ينبغي منهج البيضاوي في تحليل البنيات البلاغية على:

✓ تحديد التراكيب البلاغية؛

✓ تفسير هذه التراكيب البلاغية؛

✓ تفسير المعاني التي تحويها هذه الوجوه البلاغية؛

فالبلاغة عند البيضاوي مكون أساس في تحليل الخطاب القرآني، إنها مدخل قرآني يضاف إلى المداخل القرآنية الأخرى التي تتعاضد فيما بينها لبلوغ المعنى، فما يعجز النحو على بيانه تتكفل البلاغة ببيانه، وما تعجز اللغة عن ذكره تسرع البلاغة في الإفصاح عنه، وهكذا فإن للبلاغة وظيفتها في بناء خطاب التفسير وفي كشف حقائق جوهر التنزيل

خاتمة:

لقد كان الانشغال في هذه الورقة البحثية قائماً على استجلاء مجموعة من المنطلقات النصية البانية للخطاب التفسيري عند البيضاوي، والتي مكنتنا من رصد جهوده التأويلية المستضمرة وراءها، فمن خلالها وضح المعاني فكان منهجه قائماً على المنطلقات الثلاثة الآتية:

✓ المنطلق اللغوي؛

✓ المنطلق النحوي؛

✓ المنطلق البلاغي.

من خلال هذه المنطلقات استطعنا أن نغوص في النص القرآني دون عقبات لأن البيضاوي كان واضحاً في استقرائه لمعاني الآيات، فوظف النحو في مقامه واستند إلى اللغة للإفصاح عن المعنى، وسخر البلاغة في مواطن تخللتها المجازات، ولجأ إلى القراءات لبيان معاني الآيات، فكل علم له وظيفته وكل وظيفة لها طريقها وكل طريق لها نهايتها وكل نهاية توصلنا إلى ما نريد الوصول إليه من معان. فتارة تثيره قضية نحوية فيشير إليها، وتارة تجذبه ألفاظ فيأبى إلا أن يستنطقها، وتارة أخرى تبث فيه بعض الأوجه البلاغية الروح فيسرع في تصوير معانيها.

وهكذا سار منهجه في تفسير سورة "الصفافات" فلم يتجاوز المعنى الخفي ولا المعنى الجلي فكان يكتف عباراته التفسيرية ويشحنها بالمعاني والدلالات ليقدّمها عبارة عن جمل مختزلة لتأويلاته اللغوية والنحوية والبلاغية، فنجح في التنقيب عن المعنى، وكانت هذه الآليات كالجسد الذي سُحّر في هذه الحياة فكُلّف بالخضوع للنص القرآني ليخدم ألفاظه ومعانيه، فالنحو هو العقل المتأمل واللغة هي القلب النابض والبلاغة هي الروح الأزلية.

ومن خلال تحليلنا لخطاب البيضاوي التفسيري خلصنا إلى الآتي:

- اللغة دعامة أساسية في الخطاب التفسيري ذلك أنها تنصهر مع باقي العلوم؛

- الخطاب التفسيري عند البيضاوي لا يقوم فقط على بنية النص القرآني موضع التفسير، ولكنه يدعم معناه من موارد غير نصية تتمثل في تقديم شواهد من القرآن والأحاديث النبوية والشعر لتقوي تأويلاته؛
- استناده إلى النحو كلما رأى أن المقام يستدعي ذلك، مما يعكس لنا تأثير هذا العلم في بيان الدلالات خاصة في المواقع التي عرفت الحذف؛
- للمنطلق البلاغي أثر بارز في عملية التفسير، إذ حدد البيضاوي التراكيب البلاغية وعمل على بيانها؛
- منهج البيضاوي في التفسير تميز باصطفاء الألفاظ وبالاختزال الذي يكتنف تأويلاته، فقد كان مختزلاً للدلالات وفي الوقت نفسه مسهباً في بيانها.

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- ابن جني، الخصائص، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط ٤، ٢٠١٣؛
- ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري، تقديم: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ٢٠٠١م؛
- الألويسي شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق وتخرّيج سيد إبراهيم عمران، دار الحديث بالقاهرة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م؛
- الأنصاري ابن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، تأليف محيي الدين عبد الحميد، دار الخیر، ط ١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م؛
- الأنصاري ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية؛
- بازي محمد، صناعة الخطاب - الأنساق العميقة للتأويلية العربية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م؛
- بدوي أحمد أحمد، من بلاغة القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م؛
- البيضاوي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله ابن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، تقديم: محمود عبد القادر الأرناؤوط، دار صادر-بيروت، ط ١، ٢٠٠١م؛
- الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده-مصر، ط ٢/١٤٨٦هـ-١٩٦٨م؛

- الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق عبد الحميد هندأوي، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م؛
- الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ٥، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م؛
- سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، عالم الكتب، ط ٣، ١٩٨٣م؛
- الشاطبي أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، خرج أحاديثه أحمد السيد سيد أحمد علي مع شرح التعليقات فضيلة الشيخ عبد الله دراز، المكتبة التوفيقية / القاهرة - مصر؛
- الفراء أبو زكرياء يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق: محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، عالم الكتب، ط ٣، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

تساند الصرف والبلاغة في الكشف عن دلالة الأفراد والجمع

في القرآن الكريم

د. ليلى الحماموشي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - بني ملال

تقديم:

إن أفضل ما اشتغل به المشتغلون، وأولى ما عني به الدارسون، كتاب الله تعالى، بحيث لا يخلو علم من علوم المسلمين منه، إلا وله فيه نصيب، فمعاني القرآن ومقاصده ذات أفانين كثيرة، بعيدة المدى، مترامية الأطراف، موزعة على آياته وسوره^(١). وقد نحا كثير من العلماء جميع تلك الأفان حيث رصدوا من خلالها معاني الذكر الحكيم مفردة ومتساندة، كاشفين في الوقت نفسه عن دقائق القرآن ونكت آياته، وأسرارها، وذلك ما سنعمل بحول الله على تبيانه في هذا المقال، محاولين تتبع بعض مفردات القرآن من زاويتين متساندتين هما: زاوية الصرف، وزاوية البلاغة في شق علم المعاني الذي يهتم بدراسة أحوال الخطاب وسياقه للكشف عن مقاصد الكلام ومعانيه.

فمن عرف مذاهب العرب في الخطاب وافتنانها في الأساليب، أدرك ما في القرآن الكريم من إعجاز في ألفاظه ومعانيه، وما تميز به من شرف بيان، وقوة منطق، وروعة أسلوب، وسلاسة ترتيب ونظم. وتفصيل هذا الكلام، أن كل فهم للخطاب الشرعي، لا بد أن تتحقق فيه جملة من الضوابط، يرجع بعضها إلى علوم لفظية وأخرى معنوية، إذ بها يتحقق الغرض المطلوب من علم الخطاب كما يقول السكاكي: "وأنت تعلم أن تحصيل الممكن لك، لا يتأتى بدون معرفة جهات التحصيل واستعمالها"^(٢) تجنبا لمثارات الخطأ التي تعترض سبيل الفهم والتدبر، وهي وفق نظر

(١) - الطاهر بن عاشور التونسي، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤هـ، ٨/١.

(٢) - السكاكي، مفتاح العلوم. ص ٢.

السكاكي جهات ثلاث متساندة تغني عن الباقي يقول: " وإنما أغنت هذه لأن مثرات الخطأ إذا تصفحتها ثلاثة: المفرد والتأليف، وكون المركب مطابقاً لما يجب أن يتكلم له، وهذه الأنواع بعد علم اللغة هي المرجوع إليها في كفاية ذلك، ما لم يتخط على النظم. فعلم الصرف والنحو يرجع إليهما في المفرد والتأليف، ويرجع على علمي المعاني والبيان في الأخير، ولما كان علم الصرف هو المرجوع إليه في المفرد أو فيما هو في حكم المفرد، والنحو بالعكس من ذلك كما ستقف عليه. وأنت تعلم أن المفرد متقدم على أن يؤلف، وطباق المؤلف للمعنى متأخر عن نفس التأليف، لا جرم أننا قدمنا البعض على هذا الوجه وضعا لنؤثر ترتيباً استحقتّه طبعاً"^(١).

وما دام الموضوع المقترح للدراسة، لا يتسع لهذه الجهات الثلاث كلها، فقد آثرنا البحث فيه من جهتين اثنتين فقط هما: جهتا الصرف والبلاغة وخاصة ما تعلق منها بأحوال التخاطب الذي هو جزء من اهتمام علم المعاني.

أما كوننا نهتم بالصرف في هذا الموضوع للكشف عن المعنى في القرآن الكريم، فلكونه المسؤول عن تحديد العلاقة بين أشكال الكلمات التي يتوقف اختيار بعضها في التركيب اللغوي، على وجود ما يتفق مع ما تشير إليه من دلالات توحى في ذهن المتكلم، بالعدد والنوع، والشخص، والزمن والنسبة والتوكيد...، لأن الأشكال التصريفية هي التي تحدد الوظيفة النحوية الخاصة بما يتولد من صور الكلمة، فالتصريف خطوة تمهيدية للنظم^(٢).

ومن ثم وجب النظر إلى الكلمة صرفياً في علاقتها بالتركيب، لتحديد ارتباطها بالجملة، وإبراز الفوارق المعنوية بين الصيغ ودلالاتها المتنوعة كما يقول السيوطي: «أنواع المعاني المتفاهمة لا تكاد تنتهي، فخصوا كل تركيب بنوع منها ليفيدوا بالتركيب والهيئات أنواعاً كثيرة، ولو اقتصروا على تغاير المواد حتى لا يدلُّوا على معنى الإكرام والتعظيم، إلا بما ليس فيه من حروف الإيلام والضرب لمنافاتها لها، لضاق

(١) - السكاكي، مفتاح العلوم، ص ٢.

(٢) - دلالة الواصق التصريفية في اللغة العربية، ص ٣٠ (كتاب الصبغة في المقال ٢٢٢٢)

الأمر جدا، ولاحتاجوا إلى ألوف حروفٍ لا يجدونها، بل فرقوا بين مُعْتَقٍ ومُعْتَقٍ بحركةٍ واحدة حصل بها تمييزٌ بين ضدين»^(١).

وهذا كله يدلنا على خطورة أمر الصيغ، إذ إن الخطأ فيها يحول المعنى من الضد إلى الضد، فضلا عن أن الصيغ لا تكلفنا مادة جديدة، بل يأتي المعنى الوظيفي للصيغة محمولا على المادة، متراكبا مع الدلالة المعجمية أو اللفظية على حد تعبير ابن جني أيضا، وذلك عن طريق صورة اللفظ التي تلتبس به لتعطي للكلمة صيغتها، ومن ثم معناها الوظيفي، فضلا عن أن المعاني الوظيفية ذاتها تتعدد وتترابك للصيغة الواحدة وفي السياق الواحد^(٢).

وقد فطن إلى هذه الحقيقة علماءنا القدامى فبينوا أن لكل لفظ معنى يفهم من بنيته وصيغته، لأن نقل اللفظ من بنية إلى أخرى أو من صيغة إلى أخرى^(٣)، فيه من زيادة المعنى ما ليس في الأول كما قال ابن الأثير: «لأن الألفاظ أدلة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا لا نزاع فيه لبيانها»^(٤). كما سبق آخرون إلى تناوله في مصنفاتهم؛ ومن بين هؤلاء ابن القيم الجوزية الذي عقد له فصلا في بدائع الفوائد عند حديثه عن المفرد والتثنية والجمع، مبينا أن دراسة هذا الباب مما يكشف عن تلك العظمة المستكنة في ألفاظ اللغة العربية ومعانيها

(١) - السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ١/ ٢٧٥-٢٧٦

(٢) - الهنداوي عبد الحميد، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، المكتبة العصرية، الطبعة ٢٠٠٨م، ١٤٢٩هـ، ص ٨

(٣) - معنى ذلك مثلا نقل البنية من الأفراد إلى التثنية أو إلى الجمع، أو في الأفراد نفسه نقل من اسم ظاهر إلى ضمير أو اسم موصول أو اسم إشارة أو غير ذلك، ففي هذا النقل يتغير المعنى؛ لأن كل بنية تحمل من الدلالات ما لا تحمله الأخرى، مثلا: إذا كان الخطاب الدال على الأفراد موجها بالضمير فهو لا يحمل الدلالة نفسها إن كان الخطاب موجها بالاسم الظاهر أو باسم الإشارة أو بالاسم الموصول، و أيضا إذا نقل الخطاب إلى التثنية أو الجمع فلن يحمل الدلالة نفسها، وعليه ففي التنوع والتغير دلالة يقتضيها سياق الحال.

(٤) - ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة، ١٩٧/٢.

القرآنية؛ قال: «وهذا فصل نافع جدا يطلعك على سر عظمة هذه اللغة العظيمة القدر المفضلة على سائر لغات الأمم»^(١). كما نبه ابن الأثير الحائضين في هذا الباب إلى عظمته بقوله: «وها هنا فلينعنم الحائضون في هذا الفن نظرهم، ويعلموا أن في الزوايا خبايا، وإذا أنعموا الفكر في أسرار الألفاظ عند الاستعمال وأغرقوا في الاعتبار والكشف وجدوا غرائب وعجائب»^(٢).

وأما انشغالنا في هذا البحث، بالكشف عن المعاني القرآنية من زاوية البلاغة في تساندها مع الصرف، وخاصة ما تعلق منها بحال الألفاظ بين الإفراد والجمع مما يتناوله علم المعاني، فلأن الخطاب كما يقول الشاطبي يختلف فهمه، باختلاف حال المخاطب، وحال المخاطب، وحال الخطاب أو هي معاً "إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين وبحسب مخاطبين وبحسب غير ذلك"^(٣)، لذلك كان لا بد من الوقوف على حال استعمال الألفاظ بين الإفراد والجمع، وما تعلق منها بأحوال المخاطبين، لاستكناه أسرارها ودقائقها في القرآن الكريم. وللحديث عن مقتضى الحال دخل في المقاصد من جهة، وفي المناسبة من جهة أخرى.

يقول أبو الحسين البصري: «واعلم أن كل خطاب، فإنه لا بد في الاستدلال به من اعتبار حال المتكلم به، ألا ترى أننا نعتبر حكمته، وإنما أردنا الأحوال التي لها نعدل بالخطاب من معنى إلى معنى مع كونه مترددا بينهما. وأما القرينة التي ليست بحال المتكلم فضربان أحدهما أن تكون القرينة خطاباً آخر، والآخر أن تكون القرينة تعلقاً بين ما تناوله الخطاب وبين ما لم يتناوله»^(٤).

(١) - ابن القيم الجوزية، شمس الدين (ت ٧٥١هـ)، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي بيروت، ١٠٨/١

(٢) - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٢٩٦/١.

(٣) - محمد بن علي الطيب أبو الحسين البصري المعتزلي (ت ٤٣٦هـ)، المعتمد في أصول الفقه، تحقيق: خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ. ٣٤٦/٢.

(٤) - الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، الموافقات في أصول الفقه، تحقيق: عبد الله دراز. دار المعرفة - بيروت. ٣٤٧/٣.

والتعبير البليغ هو الذي يراعي مقتضى الحال؛ لأن المقصود من الكلام إفادة المخاطب والتأثير فيه، فإذا لم يراع المتكلم المقام الذي هو فيه، لم يبلغ ما يصبو إليه من الإفادة والتأثير، قال ابن خلدون: «اعلم أن الكلام الذي هو العبارة، والخطاب إنما سره وروحه في إفادة المعنى، وأما إذا كان مهملاً فهو كالموات الذي لا عبرة به. وكمال الإفادة هو البلاغة على ما عرفت من حدها عند أهل البيان، لأنهم يقولون: هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال... ثم اعلم أنهم إذا قالوا: الكلام المطبوع؛ فإنهم يعنون به الكلام الذي كملت طبيعته وسجيته، من إفادة مدلوله المقصود منه، لأنه عبارة وخطاب ليس المقصود منه النطق فقط؛ بل المتكلم يقصد به أن يفيد سامعه ما في ضميره إفادة تامة، ويدل به عليه دلالة وثيقة»^(١).

ولا بد في مطابقة الكلام لمقتضى الحال من مراعاة مناسبة الألفاظ للمعاني، فاللفظة إذا لم تكن واقعة موقعها، ولا صائرة إلى مستقرها، ولا حالة في مركزها، بل وجدتها قلقة في مكانها، نافرة عن موضعها، فلا تكرهها على القرار في غير موضعها، كما أوصى بذلك بشر بن المعتمر عند حديثه عن البلاغة^(٢).

وسيتجلى بوضوح في ثنايا هذا البحث أن القرآن الكريم قد أبدع أيما إبداع في استخدام ألفاظه، وأتى بما يعجز عنه البشر، يقول ابن القيم بعد استعراض بعض أسرار هذا الباب في بعض التعبيرات: «فليزده الفطن بصيرته في هذه الرياض المونقة المعجبة التي ترقص القلوب لها فرحاً، ويتغذى بها عن الطعام والشراب، والحمد لله الفتح العليم، فمثل هذا الفصل يُعجز عليه بالنواجد وتشنى عليه الخناصر فإنه يشرف بك على أسرار عجائب تجتنيها من كلام الله»^(٣).

(١) - عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، المقدمة، باب بيان المطبوع من الكلام. ص ٦٤٣.

(٢) - إدريس ميموني، دلالة الخطاب الشرعي بين مقتضيات الأحوال وعلم المناسبة، أطروحة لنيل الدكتوراه، ص ٩٠

(٣) - ابن القيم، بدائع الفوائد، ١/ ١١٩.

فلما كانت المعاني التي يستدل عليها في الوجود (الكون)، ثلاثة أصناف كبرى باعتبار المسميات بحيث يصح اعتبار كل مسمى منه عالما خاصا يستقل بنفسه كما يلي:

✚ عالم المفردات

✚ عالم المثنيات

✚ عالم الجموع

فقد وضع لهذه الأنواع الثلاثة ما يدل عليها في اللغة، فكانت الألفاظ المفردة أو ما يقوم مقامها دالا عليها (الموجودات) في اللغة إفرادا. وكانت الألفاظ المثناة أو ما يقوم مقامها دالا عليها في اللغة تثنية. وكانت الألفاظ المجموعة أو ما يقوم مقامها دالا عليها جمعا.

فلما كانت الموجودات معاني، ومن حقيقة المعاني أن تكون لها أسماء تدل عليها، فقد جعلت الأسماء سمات لهذه المعاني، ودليلا عليها تنبئ بوجودها كلما ذكرت، أو دعت الحاجة إلى معرفتها، وقد وضع لهذه الأنواع من المعاني والاعتبارات ما يبين عنها، حال إفرادها وجمعها، فقد يُدل على الإفراد والجمع بالضمير، وقد يُدل عليها بأسماء الإشارة، وقد يُدل عليها بالأسماء الظاهرة، وقد يُدل عليها بالأسماء الموصولة، حسب ما يقتضيه سياق التخاطب، وما يستوجبه تفاوت سلم دلالة أبنية الألفاظ في اللغة العربية حال إفرادها وجمعها، وهو ما حث العلماء على البحث في دلالة الإفراد والجمع مقرونة ببعضها، ليسينوا عن مقاصد ذلك التنوع والتناوب بين هاتيه الأبنية والصيغ، ولما يقترن بها من توابع دلالية وجمالية، لأن الانتقال من الإفراد إلى الجمع، أو من الجمع إلى الإفراد، أو مخاطبة الجماعة بمخاطب المفرد، أو مخاطبة المفرد بمخاطب الجماعة، هو لون من ألوان التصرف في البناء خاضع لضوابط وقواعد يهتمها سياق الحال.

ومن ثم فإن هذا التنوع، يجعلنا نبحت في دلالات الإفراد والجمع بهذه الاعتبارات التساندية في القرآن الكريم؛ نظرا لتعدد ما يدل على الإفراد أولا؛ (الضمائر، الأسماء الظاهرة، أسماء الإشارة، الأسماء الموصولة)، وما يدل عليه التركيب الموضوع فيه ثانيا، والأحوال التي تستدعي عدوله إلى مسميات أخرى ثالثا، وما تحققه

تساند الصرف والبلاغة في الكشف عن دلالة الإفراد والجمع في القرآن الكريم

من تناسب بين الألفاظ والمعاني رابعا، حيث تأتي بعض الألفاظ في صورتها المفردة أو دالة على المفرد، أو في صورة الجمع أو دالة على الجمع.

١- العدول من دلالة الإفراد إلى الجمع باعتبار تساند حال المخاطب وسياق الخطاب

تتعدد أبنية الألفاظ الدالة على الإفراد في القرآن الكريم باعتبار أحوال المخاطبين كما هو الشأن في اطراده كثيرا في مقام الحديث عن حال عذاب الكافر، وعدوله إلى الجمع في مقام الحديث عن حال المؤمنين الطائعين وجزائهم، وكأن الإفراد يرمز في اطراد دلالاته في هذا المقام إلى مضاعفة ألم العقاب وإطباق الشعور بالوحدة والاعتراب على أنفاس المعذبين.

ومثاله قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾^(١).

يدرك التأمل للآية الكريمة أن الخطاب دال على الإفراد^(٢) من بدايته إلى حدود قوله تعالى: (فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا)، ثم عدل عنه إلى الجمع. وقد عبر عن دلالة الإفراد بأسماء متنوعة وهي:

- الضمير الغائب المستتر الدال على الإفراد في كلمة (يريد).
- الضمير المتصل الدال على الإفراد في كلمة (له)
- الضمير الغائب المستتر الدال على الإفراد في كلمة (يصلها)
- الضمير المتصل الدال على الإفراد في كلمة (يصلها)

(١) - سورة الإسراء، الآية: ١٨-١٩

(٢) - ونحن نقصد بذلك الخطاب المتعلق بالمخاطب في هذا المقام هو الدال على الإفراد ومحط الدراسة والبحث؛ لأن الخطاب المتكلم (الحق سبحانه) من ضمائر دالة على الجمع من ذلك في قوله تعالى (جعلنا - نشاء - نريد)، وغيرها من الألفاظ الدالة المتضمنة لضمائر دالة على الجمع على ذلك.

- الاسم الظاهر المفرد في كلمة (مذموما)
- الاسم الظاهر المفرد في كلمة (مدحورا)
- الضمير الغائب المستتر الدال على الإفراد في كلمة (أراد)
- الضمير الغائب المستتر الدال على الإفراد في كلمة (سعى)
- الضمير المنفصل الدال على الإفراد في كلمة (هو)
- الاسم الظاهر المفرد في كلمة (مؤمن)

يظهر للمتأمل في الآية الكريمة نوعان من أحوال المخاطبين باعتبار ما دل عليه الإفراد مما اتصل بحال المتعجلين لأمر الدنيا، والطلابين لحال الآخرة، حيث حصل التطابق التام بين حال الكافر وما دل عليه الإفراد. وفي المقابل حصل التطابق التام بين حال المؤمن وما دل عليه الإفراد والجمع.

فليبان حال الكافر تنوعت الألفاظ الدالة على الإفراد في الآية الكريمة بين ضمير بارز متصل في (له)، ومستتر في (كان- يصلهاها- يريد)، واسم ظاهر مفرد في (مذموما- مدحورا). وفي هذا بيان للمعاني المستترة في هذه الآية الكريمة، لأن التعبير عن الإفراد بالضمير وإن كان للغائب فقد دل على العموم المبهم لاقتترانه بـ(من) الدالة على عموم العقلاء، دون تخصيص أو تحديد لصفته، لهذا كان حضور ضمير الغائب في (من كان يريد، يصلهاها، له) تقديرا للفاعل غائب غير محدد، ولإبهام من يحق فيه العقاب من المتعجلين لأمر الدنيا، سواء كان كافرا أو منافقا أو فاسقا... فهنا يتوجه الخطاب بالضمير الدال على المفرد لكل متعجل أمر الدنيا ومغانمها دون استحضار الآخرة، ثم ينتقل الخطاب من الدلالة على الإفراد بالضمير إلى الاسم الظاهر (مذموما، مدحورا) ليدل على الوصف المائز للعقاب باسم صريح، وليبين عظم الحكم وشأن العقاب.

تساند الصرف والبلاغة في الكشف عن دلالة الأفراد والجمع في القرآن الكريم

ولبيان حال المؤمن نجد الآية الكريمة قد انتقل الخطاب فيها من الدلالة على الأفراد بالضمير المستتر كما في (أراد، سعى) إلى الاسم الظاهر المفرد كما في (مؤمن) مقرونا بالضمير المنفصل (هو) لتأكيد من تحقق فيه الآخرة بنعيمها وجناتها وأنهارها، (وهو مؤمن) ليحدد أن من كان سعيه الفوز بالآخرة هو المؤمن لذلك انتقل الخطاب من الدلالة بالضمير إلى الدلالة بالاسم الظاهر زيادة في وضوح الدلالة بخروجها من حيز الإبهام والخفاء، إلى حيز الظهور والتجلي بأبرز صفات من تحقق فيه الإيثار الذي يجمع بين القول والفعل تحقيقا لا تعليقا، فتكون دلالة الأفراد بالاسم الظاهر دلالة إثبات للمؤمن الساعي للآخرة غير المتعجل للدنيا.

بعدها أصبح الخطاب دالا على الجمع بعد أن كان دالا على الأفراد في الآية الكريمة في:

• اسم الإشارة الدال على الجمع في كلمة (أولئك).

• الضمير المتصل الدال على الجمع في كلمة (سعيهم).

ففي نقل دلالة الأفراد إلى الجمع نكت، لها علاقة بجزء المؤمن يوم الحشر، لما في دلالة الجمع من المشاركة في المعنى بين من دل عليهم الجمع، حيث يتقاسم المجتمعون الفرحة والسرور جزاء وفاقا، نظير تقاسمهم لها في الدنيا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ ^(١)، لزيادة إكرام المؤمنين وإثابتهم الثواب العميم والأجر العظيم، فتكون الفرحة مضاعفة برضى الله أولا وجمع شمل المؤمنين ثانيا، وهذه من دلالات الجمع التي لا تتحقق في المفرد. لأن المقبل على الله تعالى حريص على أن يأخذ بيد غيره إلى الخير ليشركه فيه، فيجعل الله له أنيسا في الآخرة لأن الجزاء إنما يكون من جنس العمل، فاقتضت بذلك الجماعة انتقال الخطاب إلى خطاب دال على الجمع في حديثه عن جزاء المؤمن، مراعاة للمعنى وإيحاء إلى أن طريق الخير عظيم

(١) - سورة الرحمن، الآية: ٦٠

تساند الصرف والبلاغة في الكشف عن دلالة الإفراد والجمع في القرآن الكريم

الشأن، ولما في الجمع من التعظيم لحال المؤمن عندما يذكر، ولأن التوبة أيضا تقع على وجه الاجتماع فيكون سعيهم مقبولا عند الله تعالى.

لكن دلالة الإفراد المبينة عن حال الكافر تكشف عن طبيعة نفس المتعجل لنعيم الدنيا الحريص على الانفراد به دون الآخرين، غير المبالي بإزهاق روح الجماعة في سبيل الفوز بمغنم دنيوي، فلا عجب أن يكون جزاؤه وعقابه من جنس ما عاشه في دنياه منبوذا مطرودا من رحمته عز وجل، ملقى في نار جهنم وحيدا بلا أنيس يشاركه أنيه، وكأنها خلق الله جهنم له وحده عندما قال: (يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)، فيكون لإحساسه بالوحدة والانفراد بالعذاب ما يفوق ألم العذاب نفسه، مادامت العاجلة همه فيجتمع عليه فقر الدنيا وفقر الآخرة، لأنه قيدها بأمرين تقييد المعجل بمشيئته، وتقييد المعجل بإرادته عز وجل^(١)، لهذا فقد أبان الإفراد الذي اطرده من أول الخطاب - المعبر عن حال الكافر - إلى نهايته، مع تنوعه بين مضمهر وظاهر مآله في الآخرة. وفي عدوله إلى الجمع المعبر عن حال المؤمن بيان أيضا لجزائه وعظم مقامه عند الحق سبحانه وتعالى.

والأمر يطرد في سورة النساء من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾﴾^(٢).

حيث نلاحظ أن الخطاب في هذه الآية يتناوب بين دلالة الإفراد ودلالة الجمع، مع حال المؤمن كالاتي:

(١) - الزمخشري جار الله أبو القاسم، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣م، ٢/٦٥٥.

(٢) - سورة النساء، الآية: ١٣-١٤.

- الضمير الغائب المستتر الدال على الإفراد في كلمة (يطع).
- الضمير الغائب المستتر الدال على الإفراد في كلمة (يدخله).
- الاسم الظاهر الدال على الجمع (الجمع المختوم بألف وتاء)) في كلمة (جنات).
- الاسم الظاهر الدال على الجمع (جمع تكسير)) في كلمة (الأنهار).
- الاسم الظاهر الدال على الجمع (جمع المذكر السالم)) في كلمة (خالدين). ثم يطرد الإفراد مع حال الكافر من بداية مخاطبته إلى نهاية الخطاب في الآية:
- الضمير الغائب المستتر الدال على الإفراد في كلمة (يعص).
- الضمير الغائب المستتر الدال على الإفراد في كلمة (يتعد).
- الضمير المتصل الدال على الإفراد في كلمة (حدوده).
- الضمير الغائب المستتر الدال على الإفراد في كلمة (يدخله).
- الضمير المتصل الدال على الإفراد في كلمة (يدخله).
- الاسم الظاهر المفرد في كلمة (نارا).
- الاسم الظاهر المفرد في كلمة (خالدا).
- الضمير المتصل الدال على الإفراد في كلمة (له).

فبالنظر إلى المعطيات الواردة في الآية الكريمة نلاحظ أن كلا الخطابين المقترنين بحال المؤمن وحال الكافر فيهما نوع من المقابلة في قوله تعالى: (من يطع / من يعص)، (جنات/ نارا)، (الفوز العظيم/ العذاب المهين)، ففي الآية تشخيص لمقامين متقابلين، مقام المؤمن الدال على رضى الله بما أعده للمؤمنين من النعيم الدائم، ومقام الكافر الدال على سخط الله على العصيين من الكفار وغيرهم، وما أعده لهم من العذاب المهين هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن ما يؤكد هذه الدلالة ويقويها كون الخطاب المقترن بحال المؤمن قد ابتدئ بخطاب دال على الإفراد في (يطع)، بالضمير المستتر

الغائب الذي جعل حال الطائع لأوامره عز وجل، وأوامر نبيه عليه السلام فيه نوع من التخصيص مع شمول الجزاء المقترن به لعامة المؤمنين لاقتترانه بـ (من) الدالة على العموم، ولكون (من يطع الله) من أوجب صفات المؤمن وأكثرها تحقيقاً لحال الإيمان فيه، ولذلك عبر بالضمير للاختصار والإيجاز، الذي من حكمه إعطاء المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، يكون الطائع فيها حاملاً لصفات متعددة اختزلت في الضمير دلالة على شمول المعنى.

غير أن الخطاب الذي اقترن بحال المؤمن لم يطرد فيه الإفراد من بدايته إلى نهايته، بل عدل منه إلى الجمع ليدل أولاً؛ على أن المؤمنين لم يخلقوا ليعيشوا منعزلين فرادى، لأن الإيمان الصحيح لا يتحقق إلا بالاجتماع القائم على التعاون بين الناس تراحمًا وتوادداً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾^(١)، وليدل ثانياً؛ على أن الله تعالى يعد المؤمنين بمضاعفة الأجر والثواب في الآخرة جزاء طاعتهم له في الدنيا كما في قوله تعالى (جنات - الأنهار - خالدين)، ففي هذا دلالة على تعظيم شأن المؤمن يوم الحساب، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١٣١﴾﴾^(٢)، حيث نص القرآن الكريم في كثير من آياته على أن الطائع سيعطى الجزاء الأوفى بدخوله جنات كثيرة، لا جنة واحدة عطاء من الله، لما قدمه في دنياه من امتثال لأوامر الحق سبحانه واجتناب نواهيه، لهذا فمقام المؤمن جعل الخطاب يعدل إلى الجمع لعظم الموقف والحال.

أما دلالة الإفراد باعتبار حال الكافر فتختلف عما كانت عليه باعتبار حال المؤمن، حيث نلاحظ أن الخطاب ظل دالاً على الإفراد من أوله إلى آخره، بالضمير

(١) - سورة الحجرات، الآية: ١٣

(٢) - سورة المؤمنون، الآية: ١١١.

المستتر للدلالة على شمول المعنى لجميع أنواع العاصين أولاً؛ وللدلالة على حال الانعزال والوحدة والبعد عن الحق ثانياً؛ لذلك ناسبت دلالة الأفراد حال الكافر في الدنيا، وحاله في الآخرة، فكان العقاب من جنس العمل دليلاً على تحقير شأن الكافر وإذلاله وإهانته خلاف حال المؤمن، لأن العقاب الفردي نوع من تعذيب النفس الكافرة وتحسيسها بالوحشة والغربة.

وللزيادة في بيان هذه الدلالة وتثبيتها، انتقل الخطاب للتعبير عن الأفراد بالاسم الظاهر المخصّص للمعنى في قوله (نارا- خالدا)، تأكيداً لما سيكون عليه حال الكافر الذي عبر عنه بصريح اللفظ تثبيتها للحكم الصادر فيه وتقريره، من ثم يكون الأفراد بيانا لحال الكافر الذي يلقي في النار وحيداً، هذا الانفراد المقتضي للوحشة والعذاب والهوان، حاله كحال السجين المعزول عن الجماعة وأكثر، حتى يذوق مرارة العذاب ويحس أنه الوحيد المعذب دون أن يجد من يشاركه عذابه وألمه، ففي الأفراد عذاب معنوي أكثر منه مادي، لهذا كان الخطاب الدال على الأفراد أكثر بيانا للمعنى الباطني في علاقته بأحوال المخاطبين.

وقد استشرف هذا المعنى الدقيق العلامة أبو السعود وقال: «ولعل إيثارة الأفراد ههنا نظراً إلى ظاهر اللفظ واختيار الجمع هناك نظراً إلى المعنى للإيذان بأن الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس كما أن الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أشد في استجلاب الوحشة»^(١).

وهذا هو النظم الكريم يجسد الأنس بالاجتماع ويضاعف ألم عذاب الكافر بالأفراد، وتشخص بذلك صورة المؤمن في جنات الخلد على سرر متقابلين متزاورين كل واحد يستمتع بكل الجنان. والمرء إذا كان له من عمله الصالح الكثير وقصر أولاده الذين اشتركوا معه في الإيمان فإن الحق سبحانه يلحق به ذريته ويكون هو وهم

(١) - أبو السعود، العمادي محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي بيروت، ١٥٤/٢.

في النعيم والجنان كرامة له وهذا أدعى إلى الأُنس، والموقف يختلف مع الكافر، فلن يلحق به الله أحدا من أوليائه، وسيسوقه يوم القيامة إلى حيث يلاقي مصيره مجردا من أعوانه وأنصاره مذموما مدحورا.

٢- دلالة لفظي النور والظلمات في القرآن الكريم باعتبار حال المخاطبين

لما كان أصل الخلق واحدا جُعل له مسمى في الكون ليبدل عليه ويستدل به، لأن الحق سبحانه لما خلق الكون جعل له نظاما دقيقا، رتب عليه خلق الكون وأودعه في قرآنه فتحقق به البيان مصداقا لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۙ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۖ﴾^(١).

لهذا كان الإفراد أصلا، لأن الكون يقوم على الأحادية في ذاته العليا سبحانه وتعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ ١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ ٢ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ٤﴾^(٢)، وهي أيضا أصل في الخلق وعنهما تتفرع الخلائق، فيكون الإفراد أصلا من أصول الكون كله. ولما كان الأمر كذلك جعل له في اللفظ ما يثبت هذه الأحادية في كتابه عز وجل ودليلا يثبت وحدانيته تعالى. وهو الحال الذي يكشف عليه لفظ (النور)، في القرآن الكريم الذي أتى مفردا مطردا في جميع المواضع^(٣) التي ذكر فيها براءة لا يحسنها إلا من أنزل هذا القرآن هدى للناس وبيانا للحق، في مقابل ذلك لفظة (الظلمات) التي أتت جمعا مطردا^(٤) في جميع القرآن للدلالة على تعدد أحوال الباطل وتفرعه مصداقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا، ثُمَّ خَطَّ عَنْ

(١)- سورة الرحمن، الآية: ١-٢-٣-٤.

(٢)- سورة الإخلاص، الآية: ١-٢-٣-٤.

(٣)- ورد لفظة النور في ثلاثة وثلاثين موضعا في القرآن الكريم، منها اثنا عشرة جاءت فيها لفظة النور معرفة، وواحد وعشرون موضعا نكرة.

(٤)- وردت لفظة الظلمات في واحد وعشرون موضعا في القرآن الكريم.

تساند الصرف والبلاغة في الكشف عن دلالة الإفراد والجمع في القرآن الكريم

يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ حُطُوطًا، ثُمَّ قَالَ: " هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ وَهَذِهِ السُّبُلُ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ، فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١)، وهذا ما أبانت عنه المقامات التي جاءت فيها كل من لفظتي النور والظلمات، كاشفين حال الأصل في إفراده وتوحد الطرق الموصلة إليه، في مقابل حال الفرع المتعدد بتعدد أنواع الباطل وتشعبها، سواء اقترنت ببعضها^(٢)، أو جاءت منفصلة عن بعضها^(٣).

ويتبعنا لدلالة مفردة النور في المعاجم العربية نجدتها تكشف عن السر الكامن في إفراد النور في القرآن الكريم^(٤)؛ نظرا لتعدد مدارها؛ (فالنون والواو والراء) أصل صحيح يدل على الإضاءة^(٥)، الذي يكون بمعنى الضياء، والإبصار، والرشد،

(١) - سورة الأنعام، الآية: ١٥٣

(٢) - الحاكم أبو عبد الله النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، تحقيق: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠م، رقم الحديث: ١٠٢، ٣٢٤٤ / ٣٤٨.

(٣) - وردت لفظة النور مقترنة بالظلمات في ثلاثة عشر موضعا: (سورة البقرة الآية: ١٧) (سورة البقرة الآية: ٢٥٧)، (سورة المائدة الآية: ١٦)، (ابراهيم الآية: ١)، (ابراهيم الآية: ٥)، (الأنعام الآية: ١)، (الأنعام الآية: ١٢٢) (الرعد الآية: ١٦)، (الأحزاب الآية: ٤٣)، (فاطر الآية: ٢٠)، (الحديد الآية: ٩)، (الطلاق الآية: ١١). (النور الآية: ٤٠).

(٤) - وردت لفظة النور منفصلة عن الظلمات في عشرين موضعا: (النساء الآية: ١٧٤)، (المائدة الآية: ١٥)، (المائدة الآية: ٤٤)، (المائدة الآية: ٤٦)، (الأنعام الآية: ٩١)، (الأعراف الآية: ١٥٧)، (الثوبة الآية: ٣٢)، (يونس الآية: ٥)، (النور الآية: ٣٥)، (الزمر الآية: ٢٢)، (الزمر الآية: ٦٩)، (الشورى الآية: ٥٢)، (الحديد الآية: ١٢)، (الحديد الآية: ١٣)، (الحديد الآية: ١٩)، (الحديد الآية: ٢٨) (الصف الآية: ٨)، (التغابن الآية: ٨)، (التحريم الآية: ٨)، (نوح الآية: ١٦). ولفظة الظلمات منفصلة عن النور في ثمانية مواضع: (البقرة الآية: ١٩)، (الأنعام الآية: ٣٩)، (الأنعام الآية: ٥٩)، (الأنعام الآية: ٩٧)، (الأنبياء الآية: ٨٧)، (النمل الآية: ٦٣)، (الزمر الآية: ٦).

(٥) - لأن البحث في دلالة اللفظ كيفما كان نوعه رهين بالرجوع إلى أصله أو الجذر الذي اشتق منه اللفظ، حتى تصل للمعنى المراد، فيساعدك على ربط خيوط المعنى.

(٦) - ابن فارس، أحمد ابن زكرياء القزويني، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩، مادة (نور).

مصدقا لقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَبِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَحَابِّ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِ بِرَبِّهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ؟﴾^(١) ، إذ من صفات النور الانتشار ليعين على الإبصار وهو ضربان: ضرب معقول بعين البصيرة وصفته في قلب المؤمن، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل ونور القرآن، وضرب محسوس بعين البصر وهو ما انتشر من الأجسام النيرة كنور الشمس والقمر وغيرهما، وهو من صفات الله تعالى ومن أسمائه العليا مصداقا لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) ، وهو بمعنى الهدى الذي يضيء به الله قلب المؤمن لاتباع الحق، وهو الذي يبين الأشياء ويرى الأبصار حقيقتها، وقد جاء في حديث الدعاء من قوله صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَمِنْ فَوْقِي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، وَمِنْ أَمَامِي نُورًا، وَمِنْ خَلْفِي نُورًا، وَأَعْظَمَ لِي نُورًا»^(٣) أي؛ أراد ضياء الحق وبيانه، كأنه قال: اللهم استعمل هذه الأعضاء مني في الحق واجعل تصرفي وتقلبي فيها على سبيل الصواب والخير.^(٤)

أما الظلمات فأصل مشتق من (الظاء واللام والميم) يدل على أصلين صحيحين، أحدهما خلاف الضياء، - وهو المبحوث عنه - والآخر وضع الشيء في غير موضعه تعدياً^(٥) ، والظلمة هي الشيء الذي يسد بصره عن الرؤية، وهي المنع لأنها تمنع الرؤية باعتبار تعدد الموانع مصداقا لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ

(١) - سورة النور، الآية: ٤٠

(٢) - سورة النور، الآية: ٣٥

(٣) - أحمد أبو عبد الله بن محمد الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمود شاكر،

دار الحديث القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، رقم الحديث: ٣١٩٤، / ٢٧٠-٢٧١

(٤) - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار الصادر بيروت، الطبعة الثالثة،

١٤١٤هـ، (مادة: نور)

(٥) - ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (ظلم)

تساند الصرف والبلاغة في الكشف عن دلالة الإفراد والجمع في القرآن الكريم

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ^(١)، وَأَظْلَمَ الْقَوْمُ: دخلوا في الظَّلام، مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٢) ويوم مُظْلِمٌ: شديد الشر؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْرِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣) وأنشد سيبويه:

فَأَقْسِمُ أَنْ لَوْ التَّقِينَا وَأَنْتُمْ * * * لَكَانَ لَكُمْ يَوْمٌ مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمٌ
وَأَمْرٌ مُظْلِمٌ: لا يُدرى من أين يُؤتى له، حتى إنهم ليقولون يومٌ ذو كَوَاكِبِ أَي
اشتدت ظلمته حتى صار كالليل؛ قال: بَنِي أَسَدٍ، هل تَعْلَمُونَ بَلَاءَنَا، إِذَا كَانَ يَوْمٌ ذُو
كَوَاكِبِ أَشْهَبُ؟ وَظُلُمَاتُ الْبَحْرِ: شدائده^(٤)، مصداقا لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ
مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَبْجَنَّا مِنْ هُدُوءِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٥).

من خلال هذه المعاني نجد أن النور يدل على بيان الحق وطريق الخير، كما يدل على اسم من أسماء الله تعالى، أما الظلمات فتدل على المنع الذي يحجب الرؤى سواء المادية منها أو المعنوية، ودليلا يذكر في مواضع الشر والشدائد والبلاء. ويتجلى للناظر فيما ورد في الآيات التي اقترنت فيها مفردة النور بالظلمات أن القرآن الكريم استعمل النور للدلالة على الهداية والإيمان، واستعمل الظلمات للدلالة على الضلال والكفر، وذلك ما نلمسه في الآيات الآتية التي سنذكر بعضها منها^(٦):

(١) - سورة البقرة، الآية: ٢٥٧

(٢) - سورة إبراهيم، الآية: ٥

(٣) - سورة الأنبياء، الآية: ٨٤

(٤) - ابن منظور، لسان العرب، مادة (ظلم).

(٥) - سورة الأنعام، الآية: ٦٣

(٦) - وردت لفظة النور مقترنة بلفظة الظلمات للدلالة على الهداية والإيمان والظلمات للدلالة على الضلال والكفر في سبعة مواضع: (سورة البقرة، الآية: ٢٥٧)، (سورة المائدة، الآية: ١٦)، (سورة إبراهيم الآية: ١)، (سورة إبراهيم، الآية: ٥)، (سورة الأحزاب، الآية: ٤٣)، (سورة الحديد، الآية: ٩)، (سورة الطلاق، الآية: ١١).

قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١).

فقوله تعالى: (يخرجهم من الظلمات) يشمل الظلمات المعنوية، وهو ما يطمس الباديات حساً أو معنى، وقد جاءت جمعا لأن طرق الضلال كثيرة ومتعددة منها الكفر (٢).

أما: (النور) فقد ورد في الآية الكريمة مفردا دالا على المعنوي وهو ما يظهر الباديات حساً أو معنى، (٣) «ووحده لأن الصراط المستقيم واحد» (٤)؛ مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَنَمَكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٥).

ومن المحامل الحسنة أن يشار بالجمع إلى ما ينشأ من الجهل عن المشاعر التي أخبر بالحثم عليها، فصار البصر عارياً عن الاعتبار، والسمع خالياً عن الفهم والاستبصار، والقلب معرضاً عن التدبر والافتكار.

وبالوحدة في النور إلى صلاح القلب فإنه كفيل بجلب كل سار ودفع كل ضار (٦)، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: «حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا زَكَرِيَاءُ، عَنْ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) - سورة البقرة، الآية: ٢٥٧

(٢) - البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآي والسور، ٤/٤٥

(٣) - الحارثي أبو الحسن المراكشي، تراث أبي الحارثي، تحقيق: محمادي بن عبد السلام، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي الرباط، الطبعة الأولى: ١٩٩٧، ص ٤٤٧

(٤) - البقاعي، أبو بكر بن حسن، نظم الدرر في تناسب الآي والسور، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، ٤/٤٥

(٥) - سورة الأنعام، الآية: ١٥٣

(٦) - البقاعي، نظم الدرر، ٤/٤٥

تساند الصرف والبلاغة في الكشف عن دلالة الأفراد والجمع في القرآن الكريم

يَقُولُ: وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضَغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ^(١). والنور الذي هو العقل والفطرة الأولى ذو جهة واحدة وهي القوم، والظلمة الناشئة عن النفس ذات جهات هي في غاية الاختلاف^(٢).

فلما ذكر عبّاده الخالص في قوله تعالى (الذين آمنوا) أفرد الخطاب في قوله (يخرجهم) للدلالة على تفرد الحق سبحانه بالعبودية والوحدانية قولاً وعملاً، وليبان أن الله تعالى هو المخرج من ضلالة الكفر إلى نور الإيمان.

ولما ذكر عبّاد الشهوات في قوله تعالى (الذين كفروا) جاء الخطاب دالاً على الجمع في قوله (يخرجونهم)، أي ما دلت عليه أدلة العقول أولاً، والنقول ثانياً، بشهوات النفوس المتعددة.

ففي إسناده إلى ضمير الجمع دليل على أن جمع لفظة الظلمات إنما كان لكثرة أنواع الباطل وتعدده واقعا لا حقاً، وهذا ما يؤكد قوله تعالى: (من النور إلى الظلمات) أي؛ من الفطري إلى المكتسب من أنواع الباطل في قوله: (إلى الظلمات) قال الحرالي: «وفيه بيان استواء جميع الخلق في حقيقة النور الأول إلى الروح المجنّدة إلى الفطرة المستوية»^(٣) مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: «فَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ يُحَدِّثُ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجِجُ الْبَيْهَمَةُ بِبَيْهَمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»^(٤)، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾^(٥).

(١) - البخاري عبد الله، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، صحيح البخاري، تحقيق: زهير ناصر الناصر، دار طوق النجاة الطبعة الأولى ١٤٢٢م، رقم الحديث: ٥٢، ٢٠/١.

(٢) - البقاعي، نظم الدرر، ٤٥/٤.

(٣) - الحرالي أبو الحسن المراكشي، تراث أبي الحرالي، ص ٤٤٧.

(٤) - البخاري، صحيح البخاري، رقم الحديث: ١٣٥٨، ٩٤/٢.

(٥) - سورة الروم، الآية: ٣٠.

ومما يزيد الأمر بيانا قوله تعالى في سورة ابراهيم: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (١).

فقوله تعالى: (من الظلمات إلى النور) خطاب موجه لسيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، الذي «بعثه الله والناس صنفان: أحدهما: أهل كتاب بدلوا من أحكامه، وكفروا بالله فافتعلوا كذبا صاغوه بألسنتهم، فخلطوه بحق الله الذي أنزل إليهم (...) وصنف كفروا بالله، فابتدعوا ما لم يأذن به الله، ونصبوا بأيديهم حجارة وخشبا وصورا استحسنا، ونبزوا أسماء افتعلوا، ودعوها آلهة عبدوها، فإذا استحسنا غير ما عبدوا منها، ألقوه ونصبوا بأيديهم غيره، فاعبدوه: فأولئك العرب. وسلكت طائفة من العجم سبيلهم في هذا، وفي عبادة ما استحسنا من حوت ودابة ونجم ونار وغيره» (٢). فكانوا قبل إنقاذ النبي صلى الله عليه وسلم لهم أهل كفر في تفرقهم واجتماعهم، يجمعهم الكفر بالله وابتداع ما لم يأذنه الله، فناسب حالهم حال الظلمات في التعدد والتفرق، وناسب الحال المتوقع نقلهم إليه، حال النور المتفرد في الوجدانية الهادي إلى سبيل الله، ومخرج الناس من الظلمات إلى صراط العزيز الحميد.

من ثم فقد دل لفظ النور الذي اقترن بالظلمات في هذا المقام على الإيوان، لأن النور أصل ومصدر من الله عز وجل، لذلك لن يصدر عنه إلا ما هو أصل في ذاته ومنه (الإيوان والهداية والصراط المستقيم) مما ينبىء أن النور أصل في الكون وحقيقة في الوجود، ودليل على نور الوجدانية فيه تنكشف حقيقة الإيوان، ويستقيم به منهاج حياة المؤمن، وتنجلي حقائق القيم وحقائق التصورات فيراها قلبه بدون غبش، نورا يهديه إلى سبيل الحق.

(١) - سورة ابراهيم، الآية: ١

(٢) - الشافعي، أبو عبد الله بن عثمان بن شافع، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، الطبعة الأولى ١٩٤٠م، ص ٨-١٠.

تساند الصرف والبلاغة في الكشف عن دلالة الأفراد والجمع في القرآن الكريم

أما الظلمات فهي متعددة تبعا لتعدد ما تدل عليه في واقع الناس ونفوسهم، لذلك وردت على صيغة الجمع للدلالة على كثرة الفروع المتشعبة عنها وأكثر ما تدل عليه وتشمله الكفر؛ لما فيه من جحود النعمة وإخفاء الحق من جهة^(١)، ولما يشير إليه لفظ (الظلمات) من حجب إدراك الأشياء وإثباتها إن كان غرض المتكلم بها تضليل المخاطب والزيف به نحو الأهواء، كذلك الكفر حاجب أبصار القلوب عن إدراك حقائق الإيمان والعلم بصحته وصحة أسبابه^(٢) من جهة أخرى.

أما لفظ النور في القرآن الكريم فقد حافظ على دلالاته سواء متصلا أو منفصلا عن الظلمات فقد بقي حاملا لمعناه الأصلي، ومحتفظا بالمعاني الفرعية التي يشير إليها حسب تعدد السياقات والمقامات، المنبثقة من أصل واحد وأمثلة ذلك: اقترانه بالسلام والهداية والصراط المستقيم، واتباع النبي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث، والصبر والشكر والذكر والصلاة والرحمة، والقرآن، والبرهان، والعفو، والإسلام، والإنجيل والتوراة، والرشاد، وانسراح الصدر وغيرها كثير^(٣).

(١) - وغيرها من الدلالات التي جاءت مفصلة في معاني لفظتي كل من النور والظلمات، مع بيان لأسرار متعددة تتعدد وتتجدد مع كل موضع تذكر فيه لفظة النور مقترنة بالظلمات تبعا لسياق الحال، ففي بعض الأحيان نجد الخطاب موجها لسيدنا موسى عليه السلام مع قومه، ومرة أخرى لبنيينا محمد عليه الصلاة والسلام مع قومه، لكن ما يظهر لنا نحن أن الرسالة أصل لا يتغير وإن تغير المخاطب فهي واحدة رغم اختلاف الأزمنة، فما من رسول أو نبي إلا وكان الغرض من بعثه إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الحق بعد أن كانوا في الجهالة يعمهون. ولما كان الأمر كذلك ناسب الأصل لفظ (النور) في إفراده ليكون دليلا عليه، وتكون الظلمات دالا على تفرع وتشعب طرق الباطل التي كانت تسير عليها الأقوام قبل بعث الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم.

(٢) - الطبري، أبو جعفر، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمود شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ٥/ ٤٢٤.

(٣) - هذه المعاني مستنبطة من الآيات التي وردت فيها لفظة النور، وهي إما اقترنت بلفظ النور أو دلت عليه في ذلك الموضع.

فإذا تأملنا هذه المعاني التي دل عليها النور أو اقترنت به في مواضع من الذكر الحكيم نجدها فروعاً كثيرة ومتعددة، تشعبت عن أصل واحد جمع بينها لفظ النور ليدل على المطلق وذات الحق سبحانه، فكان إفراده المطرد في القرآن دليلاً على أصلته في الكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾^(١)، بكون الله منور السماوات والأرض وهادي أهل السماوات والأرض، فبنوره اهتدوا، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى، فالأول: مثل قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾^(٢) فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء، والثاني: مثل قوله تعالى: ﴿مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾^(٣) فهذا مثل نوره في قلب عبده المؤمن.^(٤)

وهذا يكون النور مسوقاً لتقرير ما فيه من البيان وإشعاراً بكونه في غاية الكمال، لأننا نتحدث عن نور الله تعالى وهو ليس مقصوراً على هذه الآية أو غيرها، بل هو شامل لكل ما يحق بيانه من الأحكام والشرائع ومبادئها وغاياتها المترتبة عليها في الدنيا والآخرة وغير ذلك مما له مدخل في البيان، وأنه واقع منه تعالى على أتم الوجوه وأكملها حيث عبر عنه بالتنوير وشدة التأثير والإيذان بأنه تعالى ظاهر بذاته وكل ما سواه ظاهر بإظهاره، كما أن النور نير بذاته، وما عداه مستنير به، وأضيف للسماوات

(١) - سورة النور، الآية: ٣٥.

(٢) - سورة الزمر، الآية: ٦٩.

(٣) - سورة النور، الآية: ٣٥.

(٤) - ابن القيم، الجوزية، تفسير القرآن الكريم، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ، ص ٣٩٢-٣٩٣-٣٩٤.

تساند الصرف والبلاغة في الكشف عن دلالة الأفراد والجمع في القرآن الكريم

والأرض، للدلالة على شمولية العالم لأن السماوات والأرض قطران للعالم الحسي، ولشمول البيان لأحوالهما وأحوال ما فيهما من الموجودات، إذ ما من موجود إلا وقد بين من أحواله ما يستحق البيان تفصيلا أو إجمالا، لهذا لا ريب في بيانه لكونه دليلا على وجود الصانع وصفاته العلى^(١).

ولما كان أمر النور كذلك اقتضى البحث النظر في دلالة لفظ الظلمات منفصلا عن النور في الذكر الحكيم، حيث تبين أنها حملت من المعاني ما يليق بها باعتبارها جمعا، فكانت تجسيدا لحال الفرع المتعدد المتشعب، لاقتها بجملة من الدلالات نذكر منها: ضلالة القلوب والأبصار (بصرا وبصيرة)، وانتفاء النور، وعدم الضوء، ومعدن قلب الكافر، والوحدة والانعزال، والسواد، والعذاب المهلك، في معرض اقترانها بكل من الرعد والبرق والصواعق والصييب، فهذه الأحوال الطبيعية تجسيد لحال الظلمات وما تنذر به من عذاب، فالرعد يربع المسامع، والبرق يذهب الأبصار، والصواعق الناتجة عن مجرى كهربائي بين سحابتين يميت سامعه أو يكاد، فتكون الظلمات ثلاث ظلمات - كما قال الألويسي - ظلمة كثافة السحاب وتتابعه، وظلمة غيامه، وظلمة ليله، وما يتبعها من شدة الخوف، وكثرة الأهوال.

مما يناسب أحوال الكافرين من إعراض عن القرآن الكريم، وإعراض عن الحق، وذم له، وصمم عن سماعه وبكم عن النطق به، وعمى عن رؤيته^(٢).

يلاحظ المتأمل لهذه المعاني أن لفظ (الظلمات) يطرد وروده في سياق ضرب الأمثال التي تتجه إلى تشخيص الأهوال الحسية والعقلية لأخذ العبرة واستخلاص الحكمة، كما في إقران الظلمات بعدم الإبصار وإقرانها بالمشاهد التي تحدث في البحر

(١) - أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ١٧٥ / ٦.

(٢) - هذه المعاني مستنبطة من الآيات التي وردت فيها لفظة الظلمات، سواء اقترنت بها أو دلت عليها، فكلها دليل على جمع الظلمات في تلك المقامات، أنظر تفسير نظم الدرر، وتفسير روح المعاني.

بقوة تلاطم الأمواج واختلاطها، وما ينتج عنها من حجب للرؤية، وإضعاف للبصر، وإقراها بمشاهد صوت الرعد الذي يزلزل الأرض من تحت الأقدام، ويقرع الآذان ويصمها، ويخرس اللسان، وبضياء البرق الذي يخطف الأبصار، ويعمي عن مشاهدة الحق... وغير هذه الأمثلة التي اطردت في آي القرآن، سواء وردت (الظلمات) مفردة أو مقترنة بغيرها كما سلف ذكرها، وهي تبين عن أحوال الكافر الذي يتيه في طريق الباطل ليس له قرار، إلى أن صارت مثلا مصاحبا لحال الكافر، لما للمثل من شأن عظيم لا يخفى على ذي لب سليم وعقل حكيم، لكونه يرفع الستار عن وجوه الحقائق ويميط اللثام عن محيا الدقائق، ويبرز المتخيل في معرض اليقين، ويجعل الغائب كأنه شاهد، حتى نصل للمعاني التي يراد فهمها، فكانت (الظلمات) بمثابة الصورة التي تليق بهذه الأحوال المظلمة لفظا ومعنى، لأن أئمة الكفر الذين تفيؤوا ظلال الضلال حقيق بهم أن تضرب لهم أمثال مبينة عن أحوالهم السيئة وشرح أفعالهم نكالا من الله لهم.

وفي ذلك نكتة أوردها الألويسي في هذا المعرض يقول: " الظلمة وإن قلت تستكثر، والنور وإن كثر يستقل، مالم يضر. ولهذا قليل من الكفر كثير، والكثير من الإيمان قليلن فلا ينبغي الركون إلى القليل من ذاك ولا الاكتفاء بكثير من هذا"^(١). يلخص هذا القول الصورة التي نسعى لبيانها في هذا المقام، لأن الكفر وإن كان قليلا فهو كثير لأن الكثرة في ذاته لأنه معصية، والمعصية وإن كانت واحدة تجر إلى معاص متعددة.

فالكفر أنواع منه المعنوي والمادي الحسي. أما الإيمان فهو نور وإن كثر قل فهو واحد في ذاته لأنه أصل الكون والأصل لا يكون إلا واحدا.

(١) - الألويسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، ١/ ١٧٠.

خاتمة:

وبهذا تكون دلالة الأفراد والجمع، مما يستدل بهما في القرآن الكريم دليلا كاشفا عن معان متعددة، تتعدد بتعدد أحوال المخاطبين فيه، وفي تناوبهما في سياق الاستعمال له من الدلالة ما لا يقع تحت الحصر، - وإن تحدث البحث عن الأفراد في علاقته بالجمع من زاوية التساند الصرفي مع البلاغي، فهذا لا يعني أن التثنية لا دليل لها، وإنما البحث تطرق لبعض من تلك النماذج-، وذلك ما ظهر جليا وواضحا مع حال كل من المؤمن والكافر المخاطبين في القرآن الكريم، فقد أبان هذا التناول التساندي الصرفي والحالي، عن جزاء الكافر، وما سيؤول إليه جراء كفره وتعنته، ومعصيته وحبه للدينا، وتعجله لنعيمها، ناسيا الآخرة غير مبال بها.

مقابل حال المؤمن الذي يسعى إلى الفوز بالآخرة، والعمل لها طاعة للخالق، وامتنالا لأوامره، واجتنابا لنواهيه، فهذه الأحوال التي تصف كلا من الكافر والمؤمن يوم الحشر، كان الأفراد والجمع مبيينين لها كاشفين عنها، فهما بمثابة ما يستدل به على أحوال المخاطبين، حيث إن كل معنى مقرون بهذه الدلالة-سواء جاء لفظا مفردا أو جمعا، أو دالا على الأفراد أو الجمع- يتناسب والحال الذي عليه الخطاب الموجه للمخاطبين ليبين عن حالهما، هذا الحال الذي يبين لنا معاني كثيرة وجسد صوراً عديدة لحال الكافر مع المؤمن.

لذلك فقد خلصنا إلى أن الأفراد والجمع مع حال المؤمن والكافر، أحد المفاتيح التي كشفت لنا الحجب المستترة في القرآن الكريم، مع مراعاة النظم البليغ الذي كان الأفراد والجمع أحد أسبابه التي تحدث عنها الجرجاني وأشار إليها عندما قال: "وجعل بعضها بسبب من بعض"^(١).

(١) - الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص ٤٦٦.

فالتناوب الذي حصل بين الإفراد والجمع، كان سببا للإفصاح عن حال المخاطب الذي يتنوع هو كذلك بين مؤمن وكافر، ففي التنوع تناوب، وذاك التناوب يفصح عن حال كل من المؤمن والكافر، وصفاته ومآله، إما تأكيدا أو تقريرا أو حكما على حالهما معا، أو تحقيرا أو إهانة لحال الكافر، أو تعظيما لمقام حال المؤمن، وذاك ما يزيده الإفراد وضوحا وكمالا ونظما متسق الأنساق.

ومن خلاله عبرنا إلى الكشف عن حال الوجود الذي يتأسس على أصل تشعب منه الفروع، وفروع لا أصل لها في الوجود الأصل، وهذا ما أبانت عنه لفظة كل من (النور) و(الظلمات) في القرآن الكريم، وكأننا بهذا نشير إلى أن الأصل هو النور الذي تشعبت عنه باقي أنوار السماوات والأرض والبصائر، فهو إذن أصل الكون، ومنه المبتدأ وعليه المنشأ، لأننا خرجنا به من كونه مستدلا به، إلى كونه أصل الوجود المتجسد في ذاته عز وجل وبه يكون. فكانت بذلك لفظة النور دليلا يثبت تلك الوجدانية، ولفظا مفردا كاشفا عن تلك الهوية التي تشكل أصل البشرية، وعنهما تتفرع الخلائق، فلم يعد بعدها الإفراد مفتاحا، بل أصبح أساسا عليه يبنى الكون كله، مصداقا لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١)، فيصبح الإفراد باعتبار الكون أصلا، فكل ما ربط بلفظ النور دل عليه، ومن ذلك؛ الحق فهو واحد لا يتعدد، وإن تعددت الطرق الموصلة إليه يظل واحدا في ذاته، في مقابل الفرع المتشعب الذي استدل عليه بلفظ (الظلمات)، لأنها متعددة في ذاتها لتعدد أنواعها المتفرعة عنها، كالباطل والأهواء والكفر وغيرها كثير، ففي تعددها دليل على كثرتها فليس لها أصل تقوم عليه، فناسب جمع الظلمات تعددها، "لأن الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه، أو عنده، أو قبله، أو بعده؛ فقد أعوزه وجود الأنوار، وحجبت

(١) - سورة الإخلاص، الآية: ١

تساند الصرف والبلاغة في الكشف عن دلالة الإفراد والجمع في القرآن الكريم

عنه شמוש المعارف بسحب الآثار"^(١)، لهذا تظل فروع الباطل متشعبة متعددة منتشرة في الكون كله، لكن ليس لها قرار في الوجود، وإن كان الأصل فيها التعدد والتشعب، فهي لا يطول أمدها مهما كثرت أو قلت. فالحق أمامها واحد لا يتعدد، والباطل بعدها متعدد لا يتوحد. مصداقا لقوله تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾^(٢).

وهذا أمر طبيعي جدا، لأن الله تعالى أنزل كتابه ليظهر الحق على الباطل، ومن مظاهر الحق هيمنته على سائر أنواع الباطل، سواء كانت ألفاظا أو معاني، يقول تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾^(٣). ويعد علم مفردات القرآن من أول العلوم التي يجب معرفتها في حق المتدبر في القرآن، فهي أول علوم الخطاب التي يبدأ منها في فقهه^(٤).

(١) - الإسكندري ابن عطاء الله (ت ٧٠٩هـ)، الحكم العطائية، شرح: ابن عباد النفري الرندي، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مؤسسة الأهرام القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، ص ٤٨.

(٢) - سورة الرعد، الآية: ١٧.

(٣) - سورة التوبة، الآية: ٣٣.

(٤) - نفضل تسمية هذا المفهوم بفقه الخطاب عوض (تحليل الخطاب) لأن التحليل أنسب للمبادئ، بينما الفقه أنسب للمعنويات والمجردات. (إدريس ميموني، دلالة الخطاب الشرعي بين مقتضيات الأحوال وعلم المناسبة، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال، نوقشت سنة ٢٠١٤م.

لائحة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ابن الأثير، ضياء الدين (ت ٦٣٧هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة؛
- ابن القيم الجوزية، شمس الدين (ت ٧٥١هـ)، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي بيروت؛
- ابن القيم، الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تفسير القرآن الكريم، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ؛
- ابن فارس، أحمد ابن زكرياء القزويني (ت ٣٩٥هـ)، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩؛
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، دار الصادر بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ؛
- أبو السعود، العمادي محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي بيروت؛
- الإسكندري ابن عطاء الله (ت ٧٠٩هـ)، الحكم العطائية، شرح: ابن عباد النفري الرندي، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مؤسسة الأهرام القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م؛
- الألوسي، شهاب الدين محمود (ت ١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ؛
- البصري محمد بن علي الطيب أبو الحسين المعتزلي (ت ٤٣٦هـ)، المعتمد في

تساند الصرف والبلاغة في الكشف عن دلالة الأفراد والجمع في القرآن الكريم

- أصول الفقه، تحقيق: خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ؛
- البقاعي، أبو بكر بن حسن (ت ٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الآي والسور، دار الكتاب الإسلامي القاهرة؛
 - الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، صحيح البخاري البخاري عبد الله (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق: زهير ناصر الناصر، دار طوق النجاة الطبعة الأولى ١٤٢٢م؛
 - الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر (ت ٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م؛
 - الحرالي أبو الحسن المراكشي (ت ٦٣٨هـ)، تراث أبي الحرالي، تحقيق: محمادي بن عبد السلام، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي الرباط، الطبعة الأولى: ١٩٩٧؛
 - الزمخشري جار الله أبو القاسم (ت ٥٣٨هـ)، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٣م؛
 - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م؛
 - الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، الموافقات في أصول الفقه، تحقيق: عبد الله دراز. دار المعرفة - بيروت؛

- الشافعي، أبو عبد الله بن عثمان بن شافع (ت ٢٠٤هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، الطبعة الأولى ١٩٤٠م؛
- الشيباني أحمد أبو عبد الله بن محمد (ت ٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمود شاكر، دار الحديث القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، رقم الحديث: ٣١٩٤؛
- الطبري، أبو جعفر (ت ٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمود شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م؛
- ميموني إدريس، (دلالة الخطاب الشرعي بين مقتضيات الأحوال وعلم المناسبة)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال، المغرب. نوقشت سنة ٢٠١٤م؛
- النيسابوري الحاكم أبو عبد الله (ت ٤٠٥هـ)، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

فاعلية القراءة بالتعاقد في حديث أم زرع

بلاغة الصوت وصوت البلاغة

د. مولاي علي سليمان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال

تقديم:

نقترح في هذه الورقة الاشتغال على حديث أم زرع، كما شرحه القاضي عياض في كتابه الموسوم بـ "بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد".
ومعلوم أن هذا الحديث قد عكف على شرحه علماء أجلاء، إلا أن شرح القاضي عياض يعتبر، في تقديرنا أهم تلك الشروح، وأوفاهها شرحا، وأوسعها تفصيلا، وأدقها منهجا، وأغزرها نفعاً وأعظمها فائدة، لما جمع فيه القاضي من الصرامة المنهجية، وسعة المعارف، والتضلع من العربية وعلومها، وغزارة الشاهد من القرآن الكريم والشعر العربي. ولا غرابة، فهو القاضي والمحدث والفقير واللغوي والنحوي والبلاغي.

لقد خص القاضي هذا الحديث بشرح مفصل موسع في سفر يعتبر بحق علامة بارزة في النقد بمعناه العلمي الدقيق، وهذا ما دفع الدكتور عبد الله الطيب، رحمه الله، للإشادة بهذا السفر العظيم قائلاً: "للقاضي عياض، رحمه الله ورضي عنه، رسالة من الروائع في باب النقد، كان ينبغي من أجلها أن يذكر بين كبار النقاد، كما قد ذكر القاضي عبد العزيز الجرجاني مثلاً، وهو دونه في مرتبة العلم بين كبار النقاد من أجل رسالته في الوساطة، وليست رسالة القاضي دونها في مرتبة النقد، بل لا أشك أنها أعلى منها مرتبة"^(١).

ولسنا نسعى إلى بيان قوة القاضي ورسوخه في النقد، وإنما أشرنا إلى ذلك لأن النقد الحق، في تقديرنا، ليس يتأتى لمتعاطيه إلا بامتلاكه لعلوم اللغة التحصيلية، فضلاً

(١) - الطيب عبد الله، القاضي عياض الناقد، مجلة المناهل، العدد ١٩٨٠/١٩، ص ١٩٩.

عن ذائقة عالية للغة العربية، ومخزون كبير من المحفوظ القرآني والحديثي، والشعري، لبلوغ تحليل مستوف للنص، كما عرف بذلك أعلام مبرزون في ثقافتنا العربية. وأما القول بالتمكن من العلوم التحصيلية فهذا أمر قد لا يفتقر إليه الشراح والمفسرون، باعتبار تلك العلوم آليات، كل آلية تمنح الشارح/ المؤول جزءاً من المعنى، وعليه في آخر المطاف أن ينسق بين المعاني الجزئية ليسترفد منها معنى كلياً، بناء على ذائقة فريدة يتفاوت الشراح فيها يقينا، فلا تفاضل في المشترك " وإنما الذي تباينت فيه الركب، ووقع فيه الاستباق والتناضل، وعظم فيه التفاوت والتفاضل ما في العلوم من محاسن النكت"^(١).

إن ما يتفاوت فيه المؤولون والشراح والمفسرون هو القدرة على افتضاض أبعاد الفوائد واستكناه خبايا الفوائد؛ فالمؤول الرصين البليغ هو الذي تكون له القدرة على تشرب النص وتقليل الحز فيه وتطبيق مفاصله، ليمسك بالمعاني حية قبل أن تصير مواتاً، وينأى بنفسه وقرائه عن التأويل البارد الذي لا يزيد النص إلا تشظية وتعمية. ويكون له السبق والتفرد في استخلاص النكت، واقتناص الشوارد، وتلك مهمة لا ينهض بها إلا "قارئ ذو كفاية افتراضية وتصورية عالية، ومنتجع جيد لعلامات النص ورموزه وجمله، وذو كفاية موسوعية تمكنه من إشباع الدلالة، وذو كفاية استدلالية على مقبولية الدلالة، وذو كفاية تنسيقية تمكنه من تجميع أفهامه في خطاب تأويلي متسق في ذاته، ومنسجم مع سلطة التعاقد التأويلي التي تؤطر عمله، وإلا عد طرفاً خارجاً عن قانونها وطاعتها"^(٢).

(١)- الزمخشري، الكشف، ج ١، ص ٧.

(٢)- بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون- منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى ٢٠١٠، ص ١٨.

لقد تتبعنا في هذا البحث مقترحا قرائيا يروم الكشف عن ملامح التحليل بالتساند، لبيان فاعلية التعاقد بين مستويات اللغة.

ونظرا لأن المكونات النصية عديدة، فإننا سنركز القول على مستويين فقط، الأول بلاغي والثاني صوتي، وهذا ليس معناه أن البحث سيرتهن فقط بهذين المستويين، بل إننا سنعضدهما بمستويات الدرس اللغوي الأخرى، وتلك إحدى مزايا التساندية، لأنها "معبر مفتوح تنتقل فيه المعلومات والمعارف بحرية وانتظام، فالخطاب التأويلي التساندي شبيه بطريق سيار، بين النص ومجموع الموازيات والمعارف والسياقات التي تحويه، فاللغة تعمل إلى جانب الاشتقاق والأنساق النحوية التي تدعم بدورها النسق البلاغي، والنصوص الموازية تغذي المعاني والتخریجات والفروض والاستكشافات"^(١).

١- مؤشرات القراءة بالتعاقد في شرح القاضي عياض

نسعى، من خلال هذا البحث، إلى بيان أهمية القراءة التعاقدية القائمة على التعزيز بين مستويات اللغة لبناء المعنى في حديث أم زرع، وكذا الاتساق القائم بين المكونات البانية للنص، والموجهات الخارجية التي سنستفيد منها لا محالة، خاصة ما يتعلق بالذخيرة المعرفية، وما تشتمل عليه من تراث شعري هائل، وكم غزير من الأمثال السائرة والأخبار المنقولة فضلا عن الشواهد القرآنية والحديثية. ولنا في علمائنا المتقدمين سند نستمد منه مقومات هذا المقترح القرائي سواء أهل التفسير أو الشراح. يعد القاضي عياض من أشهر الشراح مغربا ومشرقا خاصة في بغية الرائد، ذلك السفر الذي تعاقدت مستويات الشرح فيه ممارسة، فضلا عن مهادٍ نظري نعتبره بمثابة بوصلة قرائية أمدنا بها في مقدمته حين قال: "ورأينا أن نبتدئ بالحديث وسياق متنه، مع اختلاف ألفاظ نقلته، وزيادة بعضهم على بعض في سرده، ثم نذكر بعد ذلك

(١) - التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، ص ١٨.

علة إسناده، وشرح غريبه، وعويص إعرابه، ومعاني فصوله، وما يتعلق به من فقه، وتنقح فيه من فائدة"^(١).

يستهل القاضي شرحه المتعاقد من الحديث نفسه، وسياق متنه. وحديث القاضي عن السياق فيه إشارة واضحة إلى اعتماده الموجهات الخارجية التي تعضد المنطلقات النصية لفهم الحديث فهما صحيحا لا يزيغ عن القصد، فإذا ما استحضر سياق الحديث انتقل إلى تحليل البنيات النصية الجزئية، مما يتعلق بالغريب والإعراب والمعاني جاعلا كل هذه المستويات متكاملة وظيفيا لبيان المعنى واستخراج مقاصد الحديث الفقهية، وتلك مزية القراءة بالتعاقد والتساند.

يؤكد الدكتور عبد العلي الودغيري مظهر التعاقد والتعزيز بين المستويات في شرح القاضي عياض حديث أم زرع قائلا: "وقد جعل عياض من خطته في هذه الرسالة أن يوزع تحليله لنص هذا الحديث على مستويات أربع هي:

- مستوى الشرح المعجمي (شرح الدلالات اللغوية للألفاظ الغريبة)؛
- مستوى التركيب النحوي والإعراب؛
- مستوى الأسلوب (تطبيق القواعد البلاغية على النص)؛
- مستوى الوظيفة الدينية (توظيف النص من أجل الإرشاد والتوجيه)"^(٢).

يبدو، من خلال مستويات التحليل، أن الشرح لا يعتمد مستوى واحدا فقط أو مستويين، ويغيب المستويات الأخرى، وإنما يعزز بالمستوى الثاني المستوى الأول، وبالثالث المستوى الثاني وهكذا دواليك، رغبة من الشارح بلوغ تحليل مستوف للنص، وقد خط القاضي عياض طريقا واضحا، وترتيا محفوظا، لا يعدل عنه، إذ

(١)- القاضي عياض، بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، تحقيق: صلاح الدين بن أحمد الإدليبي، محمد الحسن أجانف، محمد عبد السلام الشرقاوي، المغرب، الرباط، ١٩٧٥، ص ١-٢.

(٢)- القاضي عياض اللغوي، عبد العلي الودغيري، مجلة المناهل، العدد ١٩، ص ٤٦٤.

تكون البداءة باللغة باعتبارها بوابة المعنى، لأن جزءا كبيرا من معنى النص بني باللغة، والجزء المتبقي بني بالسياق والإطار المرجعي الذي ظهر النص في أثناءه، فتم التراسل بين البنات النصية الداخلية والسياقات الخارجية وما يرافقها من مدونات وسجلات استند إليها النسق التأويلي العربي "المؤسس على بلاغتي الارتداد الفعال نحو المرجع المؤطر: الديني، والعقدي، واللغوي، والنحوي، والبلاغي، والتاريخي، والاجتماعي، وبلاغة الامتداد في اتجاه استقصاء المعنى وتكوينه وما يرتبط بذلك من اجتهادات وفروض وتخمينات، فيما لم ترد فيه نقول، وكذا إنجاز ألوان من الربط بين النص وسياقه، والترجيح بين الأقوال، وصرف الظاهر إلى الباطن، ويتطلب ذلك كله التوفر على مهارات بل بلاغات في الحفظ والتحقيق والتنسيق"^(١).

إن التأويل الأسلم ينطلق من اللغة وما يدور في فلكها، بدءا بالمعجم وتشية بالإعراب ثم المعاني، وعلى المؤول/ الشارح وهو يستثمر هذه العلوم اللغوية أن يلتفت إلى المواكبات النصية الخارجية، فكل لفظة في النص تستدعي، من خلال أصواتها، موازيات صوتية في نصوص أخرى وفي سياقات أخرى، باستدعائها يزداد المعنى ظهورا، واللفظة نفسها تدعوننا من خلال بنيتها الصرفية إلى النظر في دلالات الأبنية الصرفية وأثرها في تعضيد المعنى، ليتأتى لنا النظر في وسوم الكلمة الإعرابية تصويبا للمعنى وتأكيدا له، حتى إذا اكتمل النظر أو كاد انفتحنا على علوم البلاغة كلها لنزيد الشرح تقوية وتسديدا. ولقد رسم الزمخشري في كشفه دربا لاحبا للتأويل السليم حين ألزم المؤول بضرورة الأخذ بنصيب أوفى من علمي المعاني والبيان، فإذا "تمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقيح عنها أزمنة، وبعثته على تتبع مظانها همة في معرفة

(١)- التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، ص ٢١.

لطائف حجة الله وحرص على استيضاح معجزة رسول الله " كان له ما أراد من التأويل.

قوة المؤول إذا ليست تكمن في تحصيل علمي المعاني والبيان والأخذ من سائر العلوم التحصيلية، فهذا كما أسلفنا يشترك فيه العلماء، ولكن التفرد يكون في تلك المهمة الدافعة لمعرفة اللطائف واستخراج النكت في كلام الله سبحانه وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم، وتذوق المعنى والفطنة إلى دقائقه.

لقد كان القاضي عياض موفقاً في استراتيجيته القرائية، حيث انطلق من عتبة الحديث فاستثمرها استثماراً دقيقاً، منبهاً على أطره المرجعية، كالإطار الديني، والتاريخي، والاجتماعي، واللغوي، والنحوي، والبلاغي في نوع من التشابك والتداخل والتعاون والتكامل بين هذه الأطر كلها.

جاء في سند الحديث: عن هشام بن عروة عن عائشة أنها قالت: (جلس إحدى عشرة نسوة في الجاهلية، فتعاهدن وتعاقدن أن يتصادقن ولا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً)^(١).

فأما الإطار الديني فيظهر في رواية عائشة للحديث، مما يجعلنا بإزاء المدونة الحديثية، وأما التاريخي فتحدد عائشة رضي الله عنها الزمن وقوع الأحداث، وهو زمن الجاهلية، وأما الاجتماعي فبيانها من خلال الحديث لطبيعة العلاقات الزوجية، وحثها بشكل مضمّر على حسن العشرة بين الأزواج، وتركيزها على قيم أخلاقية تأسس عليها المجتمع الجاهلي وإن لم يقتض ذلك نص ولا شريعة مثل: التعاهد والتعاقد والتصادق، وأما اللغوي فظاهر من خلال مناقشات القاضي عياض لألفاظ الاستهلال مورداً روايات مختلفة ومتعددة ومرجحا بينها، وأما النحوي فيتجلى من خلال مناقشاته الموسعة الخاصة بالاستهلال، حيث ناقش مسألة زيادة علامة التأنيث

(١) - بغية الرائد، ص ٦.

أو عدمه في جلس / جلسن أو جلست) أو إعراب (إحدى عشرة امرأة)، كما رجح بين الروايات التي أوردت نسوة وتلك التي أوردت امرأة.

إن كل ما قام به الشارح / المؤول القاضي عياض في حديث أم زرع يمثل نموذجا تأويليا تعاظديا مستوفيا في نظرنا، لا يبلغ شأوه إلا قارئ بليغ " يؤسس أفقا توقعيا وتصوريا، ويبحث في استراتيجية النص أو بلاغته، ويحدد مواقع الوضوح من مواقع الغموض، ويقف على الكلمات والجمل والرموز والعلامات، وينشئ السيناريوهات القرائية الممكنة، ويفتح النص على كل العناصر السياقية الخارجية التي ترتبط به لتوسيع نواها وتفريغها، وإحداث الإشباع الدلالي عبر الموسوعية والذاكرة والمعارف والأخبار، ويستدل على ترجيحاته الدلالية بما يناسب من الأدلة. وأكثر من هذا فهو ذو كفاية تسيقية تحول الأفهام الجزئية المتبعثرة إلى كلٍّ منتظم في قالب خطاب تأويلي قابل للقراءة والتمحيص والنقد"^(١).

ونظرا لطول الحديث، فإننا سنقتصر على إجراء تطبيق توضيحي واحد على قول الأولى، لتأكيد الفرضية التي انطلقنا منها، وهي فاعلية التعزيز والتساند في الخطاب الشارح، من خلال جهود القاضي عياض في بغية الرائد، لنؤكد على أصالة التساندية في الخطاب الشارح، وخطاب التفسير في ثقافتنا العربية الإسلامية.

ومادام الحديث مقسم إلى مقاطع حكائية فإننا سنركز على بيان التعاقد والتعزيز بين المستويات اللغوية وخاصة ما تعلق بالأصوات والبلاغة في قول الأولى على أن نسند بمستويات لغوية أخرى يستدعيها التحليل بالتساند.

قالت الأولى: "زوجي لحم جمل غث" ويروى قحر "على رأس جبل وعر"، ويروى "وعث"، "لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى" ويروى "فيتنقل" وفي بعض

(١) - التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، ص ١٥٥-١٥٦.

الروايات: "على رأس قوز وعث، ليس بلبد فيتوقل، ولا سمين فيتنقل، ولا لي عنده معول، ويروى: ولا له عندي معول^(١).

يمكن إعادة ترتيب الروايات الراجحة بحسب أولويتها وسلامتها عند القاضي، على النحو الآتي:

١- زوجي لحم جمل غث، على رأس جبل وعث، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى؛

٢- زوجي لحم جمل قحمر، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فيتنقل؛

٣- زوجي لحم جمل غث، على رأس قوز وعث، ليس بلبد فيتوقل، ولا سمين فيتنقل، ولا لي عنده معول؛

٤- زوجي لحم جمل غث، على رأس قوز وعث، ليس بلبد فيتوقل، ولا سمين فيتنقل، ولا له عندي معول؛

مع تعدد الروايات يحق التساؤل: لم أوردتها القاضي كلها؟ وما مسوغات تقديم بعضها على بعض؟

جوابا على السؤالين المفترضين، يقول القاضي عياض: "وטרقتنا في هذا الحديث كثيرة متشعبة، جئنا ببعضها عن أئمة شيوخنا، وبعضهم يزيد على بعض، وفي متن الحديث بينهم اختلافات وزيادات وتقديم وتأخير، فجئنا بأكملها رواية، وأحسنها سياقاً، بعد تقديم أشهر أسانيدنا فيها إيثاراً للاختصار والاتلاف، واستظهاراً لمن نهج لنا هذه السبيل من قدوة الأسلاف، ونبهنا على موضع الخلاف مما يفيد فائدة أو يزيده فقرة شاردة"^(٢).

(١)- بغية الرائد، ص ٦-٧.

(٢)- بغية الرائد، ص ٢.

نستخلص من هذا الشاهد إفادات، نجملها في الآتي:

- تأكيد القاضي على الاختلاف والزيادة في متن الحديث بين رواته، وهذا ما يسوغ تعدد الروايات؛

- اعتماد القاضي الرواية الأكمل، ذات السياق الأحسن؛

- التنبيه على موطن الخلاف، وبيان ما يتبع ذلك من فائدة.

للأسباب المذكورة نعتبر الرواية الأولى أرجح الروايات عند القاضي، لذلك سنشتغل عليها، بيانا لما أشرنا إليه سالفًا، لأنها الرواية الأكمل، والأحسن سياقًا في تقدير القاضي عياض، مع الرجوع للروايات الموازية استكمالًا للمعنى، وتقوية لبنائه.

أ- التعزيز بين صوت البلاغة وبلاغة الصوت

استهل القاضي عياض شرحه بتأكيده على التعاقد في التأليف، والذي سيردفه، بتعاقد في التحليل، يقول رحمه الله: "ونحن الآن نفي بما وعدنا به من ذكر ما اشتمل عليه هذا الحديث من ضروب الفصاحة وفنون البلاغة، والأبواب الملقبة بالبديع في هذه الصناعة من لفظ رائق، ومعنى فائق، ونظم متناسب، وتأليف متعاقد متناسق"^(١).

إن القاضي وهو يصرح بالتأليف المتعاقد المتناسق، يشير بطريقة واضحة إلى أنه سيواكب هذا التأليف المتعاقد بشرح متعاقد مثله، والكلام في الحديث وفي شرحه، قائم على بيان ما تميز به من اختيارات صوتية موفقة وهو ما عبر عنه بالفصاحة، وأما فنون البلاغة فيقصد به علومها التحصيلية الثلاث. والبلاغة بعلومها لا ينظر إليها إلا بعد سلامة الأداء النحوي.

يقرر القاضي ما سطره في فاتحة كتابه وهو يرسم لنا خطته القرائية القائمة على التعاقد، والقارئ لشرحه لن يعدم وسيلة للتيقن مما قلناه. إذ لما شرع في شرح كلام

(١) - بغية الرائد، ص ١٨٦.

الأولى قال رحمه الله: "وأعتبر كلام الأولى فإنه مع صدق تشبيهه، وصقالة وجوهه، قد جمع من حسن الكلام أنواعا، وكشف عن محيا البلاغة قناعا، وقرن بين جزالة الألفاظ وحلاوة البديع، وضم تفاريق المناسبة والمقابلة، والمطابقة والمجانسة، والترتيب والترصيع"^(١).

أول ما نص عليه القاضي في شرحه هو نسبة كلام الأولى إلى علم البيان، وتحديدًا إلى التشبيه، إلا أن هذا التشبيه قد حوى ضروبا أخرى من بلاغة البديع، وكأني بالقاضي عياض يعزز شرحه للصورة البيانية بظواهر بديعية تقوم في غالب أحوالها على الجانب الصوتي كما هو الأمر في المجانسة والترصيع والموازنة، أو على الجانب المعنوي كما هو الأمر في المطابقة والمقابلة والمماثلة، والصوت خادم للمعنى وموجه له. يؤكد هذا المنهاج أن القاضي عياض تعامل مع البديع باعتباره عنصرا مكونا للمعنى، بأنيا له، وليس فقط مجرد حذلق لغوية وضربا من التزييق.

وما أحسن ما قالت المرأة الأولى، وما أجود السبيل الذي سلكت للتعبير عن مكنوناتها، فلقد كان التشبيه أبلغ في قولها من الحقيقة، ففيه المعنى وزيادة، فقد عدلت إليه "للتأكيد البيان والمبالغة في الإيضاح"^(٢). وجعل القاضي التشبيه في قولها جسرا ومنطلقا لعرض محفوظه من الشاهدين القرآني والشعري، فيما يزيد توسعة في الشرح وإشباعا للدلالة، وذلك منهاجه في الكتاب كله. وهو منهاج قرائي مشهور عند الشراح والمفسرين، فها هو الزمخشري يعتبر من شروط المؤول التضلع من العلوم، والجمع "بين أمرين: تحقيق وحفظ"^(٣)، وأن يكون المفسر "كثير المطالعات طويل المراجعات، قد رجع زمانا ورجع إليه، وردَّ، وردَّ إليه، فارسا في علم الإعراب، مقدما

(١)- نفسه، ص ١٨٧.

(٢)- بغية الرائد، ص ١٨٧.

(٣)- الكشف، ج ١، ص ٧-٨.

في حملة الكتاب...متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر، مرتاضا غير ريف بتلقيح بنات الفكر"^(١).

فالمنطلق تشبيه في قول الأولى، لكن شرح القاضي مستفيض، جمع القرآن والشعر، على نحو من الضبط، والتحقيق، والتنسيق بين الموازيات النصية والمكونات الجزئية للمعنى.

إن أبرز ما يظهر في قول الأولى: "زوجي لحم جمل غث، على رأس جبل وعت، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى" تشبيهها شيئين بشيئين، فقد شبهت زوجها في بخله وشراسة طبعه بلحم جمل غث على رأس جبل وعت "فشبهت وعورة خلقه، بوعورة الجبل، وبعد خيره، ببعد اللحم عن رأسه، والزهد فيما يرجى منه لقلته وتعذره، بالزهد في لحم الجمل الغث، فأعطت التشبيه حقه، ووفته قسطه، وهذا من تشبيه الخفي بالجلي"^(٢).

فالتشبيه مكون من شقين، جمعت بينهما على نحو من اللف والنشر، فجمعت تركيبا وفرقت معنى، فجعلت بإزاء كل قسم ما يناسبه في المعنى على النحو الآتي:

زوجي لحم جمل غث ----- لا سمين فينتقى

على جبل وعت ----- لا سهل فيرتقى

فقابلت بين اللحم الغث والهزال (لاسمين)، وبين الجبل الوعث والوعورة (لاسهل)، وكذلك قابل القاضي عياض بين مكونات التشبيه في شرحه لقول المرأة الأولى، وهو ما يسميه الدكتور بازي بالتأويل التقابلي الذي يهدف إلى "التقريب بين العناصر والمستويات ذهنيا بأي شكل من الأشكال، هو إحداث تواجه (وجها لوجه)

(١) - نفسه، ص ٧-٨.

(٢) - بغية الرائد، ص ١٨٩.

بين بنيتين أو وضعين أو موقفين أو غير ذلك... إن استراتيجية التقابل خير داعم للتسندية... يمكن تطعيم أية قراءة بها"^(١).

يؤكد التقابل المذكور في التشبيه الدكتور التهامي الراجي في قوله "لقد قابلت هذه المرأة صفة البخل وقلة عرف زوجها التي شبهتها (باللحم الغث) وهي الصفة الأولى في سياقها بالتفسير الثاني (ولا سمين فيتقل)"^(٢)... وقابلت الصفة الثانية وهي شراسة خلقه... التي شبهتها (بالجبل الوعث) بالتفسير الأول (لا سهل فيرتقل)"^(٣).
لقد عمد القاضي في شرحه إلى اعتماد نصوص موازية وتناصت شعرية، حيث انطلق من النص ليعبر منه إلى الذخيرة المعرفية الخارجية قرآنا كانت أو حديثا، شعرا كانت أو نثرا، فنهل من تلك الروافد الخارجية لتطعيم المعنى وتقويته انفلاتا من مآزق التأويل التي تعترض المؤول بين الحين والآخر.

وليس هذا فحسب، فلقد عضد القاضي هذا التوسع المثري والاستطراد الموسع الباني للمعاني، بالشاهد الذي تقر ثقافتنا بسلطته النافذة في توجيه الأفهام والتثبيت للمعاني. لأن "الشاهد في هذه الثقافة سلطة مرجعية خاصة، فقد كان الكاتب ينبئ عن فضله بوفرة وتنوع استشهاداته، ويعاتب إذا لم يتمثل بكلام غيره"^(٤)، وفي توظيف الاستشهاد استمداد لقوة ما يحتزنها النص المستشهد به، وتمكين للرأي تمكينا تتفاوت قوته بحسب رسوخ صاحب الشاهد أو عدمه.

(١) - التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، ص ١٩. (١)
(٢) - اعتمد الدكتور التهامي الراجي الرواية الثانية، أما نحن فاعتمدنا الرواية الأولى (ولا سمين فيتقل).

(٣) - الراجي التهامي، القاضي عياض اللغوي من خلال حديث أم زرع، مجلة المناهل، ١٩٤، ص ٥٥١-٥٥٢.

(٤) - المالكي محمد، جهود الطبري في دراسة الشواهد الشعرية، منشورات كلية الآداب، فاس ١٩٩٤، ص ١٩.

وغير خاف ما للقاضي عياض من قوة في الربط والتنسيق والملاءمة والجمع والتحقيق بين الآراء التي ضمنها شرحه، على نحو كبير من الانسجام بين المنطلقات النصية والسجلات السياقية.

ولو شئنا الاستدلال على توظيف القاضي عياض الشاهد الشعري لشرح غريب قول الأولى أمكننا التمثيل بقول الشاعر: فأمست قريش قد أغث سمينها. فأول الغث بالمهزول وأضاف "والغث أيضا الفاسد من الطعام، ومنه الغثيثة، وهي المادة التي تجمع في الجرح، ويقال غث الطعام يغث، وأغث"^(١).

انطلق القاضي من معنى الغث في الشاهد الشعري، فعضده بمعان - نعتبرها تكميلية - ما دامت لا تتعارض مع بناء المعنى في الشق الأول من التشبيه. بعد جمع المعاني وعرضها، انتقل إلى الترجيح بينها لاعتماد أنسبها لروح الحديث وأقربها منه، قائلا "والأصح أن يكون هنا الهزيل لقولها لا سمين فيتلقى. ومن رواه قحر فمعناه هرم قليل اللحم، صفة للبعير"^(٢).

إن معنى الغث، باعتبار الشاهد المهزول، وباعتبار المعجم ما فسد من الطعام وما تقرح من الجروح، وكلها معان تعاضدت لتخدم معنى واحدا هو كون المشبه به لحم جمل تعافه النفوس وتزهده فيه لهزاله أولا، ولتقرحه ثانيا، ولفساده ثالثا، لذلك استشهد القاضي بقول أبي سعيد النيسابوي: "ليس شيء أحب من غثاثة في الأنعام من الجمل، لأنه يجمع بين خبث الريح وخبث الطعم"^(٣)، ولكن إذا استكملنا الصورة أدركنا أن المقصود المهزول بدليل مرادفه المعنوي (لا سمين).

(١) - بغية الرائد، ص ٤٥.

(٢) - نفسه، ص ٤٥.

(٣) - نفسه، ص ٤٧.

باستحضار قول النيسابوري، أليس كافياً أن تصف زوجها بلحم الجمل فقط من غير توصيف للجمل ولا لحمه؟ فلماذا زادت غث؟ وما الجوانب الدلالية الإضافية؟ وهل في تلك الإضافة جمالية ما؟

لنقول: لو اقتصرنا على قولها (لحم جمل) لكفاها إذلالاً لزوجها، لأن الإضافة كشفت عن قدر اللحم وقيمتها، لكن إضافة غث زادت التشبيه معنى ثانياً، لا يتحصل إلا به، فزادت التشبيه بياناً. فلحم الجمل أحبث وأغث في الأنعام على إطلاقها، لكنه يزداد خبثاً في حال هزاله، وقلة شحمه ولحمه، وفضلاً عن هزال ذلك اللحم على رأس جبل وعت يصعب الارتقاء إليه، فالوعث صفة للجبل، وهو "الدهس، وهو مما يشتد المشي فيه ويشق"^(١).

لذلك فالتشبيه بالقول: "زوجي لحم جمل على رأس جبل" يؤدي المعنى، ويكشف عن المراد، لكفاية الدلالة بالمركبين الإضافيين على المعنى:

- المركب الإضافي الأول: لحم جمل

- المركب الإضافي الثاني: رأس جبل.

فلحم الجمل خبيث الريح خبيث الطعم حتى في غير هزال، أما إذا هزل فقد تضاعف خبث الريح وخبث الطعم، لذلك كان لمضاعفة المركبين الإضافيين (لحم جمل) + (جمل غث) / (رأس جبل) + (جبل وعت) قوة في تسديد المعنى وتمكينه وتقويته وإبلاغه أعلى درجات الإقناع.

وفي هذا التشبيه نوع من البديع أيضاً يسمى الإيغال، يقول القاضي "وفي قول هذه الأولى أيضاً نوع ثامن من البديع يسمى الإيغال، ويسميه قوم بالتبليغ، وهو أن يتم كلام الشاعر قبل البيت، أو الناثر قبل السجع إن كان كلامه مسجعاً، أو قبل

(١)-بغية الرائد، ص ٤٦.

الفصل والقطع إن لم يكن كذلك، فيأتي بكلمة لتنام قافية البيت، أو السجع أو مقابلة الفصول، والقطع يفيد معنى زائداً^(١).

فقد كان يكفي الاقتصار على القول: "زوجي لحم جمل • على رأس جبل •" لبيان القصد، فالغاية ليست لتحقيق الجناس غير التام بين (جمل) و(جبل)، ولا لتحقيق السجع لأنه متحقق بالمذكور، كما يظهر في أواخر القرائن، لكن القصد في زيادة البناء، زيادة المعنى وإشباع الدلالة، من خلال معنيين إضافيين ذكرهما القاضي عياض في قوله: "لو اقتصرت على تشبيه زوجها بلحم جمل، على رأس جبل، لا كتفت بعد مناله ومشقة الوصول إليه، والزهد فيه، وهو غرضها، لكنها زادت بسجعها (غث ووعث) معنيين بينين، وبالغت في القول، وأفادت بزيادتها التناهي في غاية الوصف"^(٢).

يتمثل الأول في مبالغتها في القول، و الثاني لإفادة التناهي في غاية الوصف، لذلك آثرنا تسمية هذا النوع البديعي تبليغاً، وهذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن البديع مع القاضي عياض تكويني للمعنى وليس تحسينياً له.

يظهر لنا كيف أن القاضي عياض في خطته القرائية الشارحة عاخذ بين مستويات الدرس اللغوي وعزَّزَّ بالبديع البيان، مستثمراً الشواهد، آخذاً بعين الاعتبار سلطتها المرجعية، فقد شرع في الحديث عن التشبيه، ففصل القول فيه، وقارنه بالاستعارة، ومثل لذلك الأمثلة على نحو من التوسع والخروج القاصد، ثم شرع في بيان التشبيه بدءاً بفسر ألفاظه معجمياً، وتثنية بيان ما فيه من أنواع البديع، وقد ركزنا القول على التبليغ باعتباره سندا للتشبيه وخادماً لمعناه.

(١) - بغية الرائد، ص ٢٠٠.

(٢) - نفسه، ص ٢٠١.

وقولها (لا سمين فينتقى) فتأكيد لانتفاء النفع بذلك اللحم الهزيل، وفي قوله (يبتقى) نكتة أخرى، تقوم على الاشتقاق، فينتقى من الانتقاء، والاصطفاء، لذلك فليس في ذلك اللحم ما يجعل تلك المرأة تختاره وتنتقيه من ضمن لحوم أخرى على جهة التشبيه فقط، لأنه مفتقر لكل نفع، وخال من كل فائدة، فالأولى اطراحه والزهد فيه، يقول القاضي "ليس سمين له نقى، فيطلب لأجل نقيه، فلذلك قال (يبتقى) أي يطلب طيبه لأجل ما فيه من النقى، لا أنه أراد استخراج نقيه - وهو مخه - وذلك أن الجمل إذا هزل فلا بد أن يبقى فيه نقى عظامه"^(١).

ولو درسنا قول الأولى صوتياً لتأكدت لنا النتيجة نفسها، فالمرأة كارهة لبعلمها متضايقة منه، ذامة له، لا تتحرك نفسها إليه، ولا ترغب فيه، فهو في تقديرها كذاك اللحم المتن الهزيل المستعصي الوصول إليه.

سندرس الأصوات في قولها: (زوجي لحم جمل غث، على رأس جبل وعت) من حيث إنتاج الصوت اللغوي بناء على جدول الحبيسات العربية^(٢)، باعتبار المحابس (المخارج)، وباعتبار اهتزاز الوترين الصوتيين أو عدمه (الجهر والهمس)، وباعتبار الممر الهوائي:

أ- باعتبار المخارج^(٣)

زوجي: ز: أسناني لثوي / و: شفوي / ج: غاري / ي: غاري

لحم: ل: لثوي / ح: حلقي / م: شفوي

(١)- بغية الرائد، ص ٤٧.

(٢)- الأنطكي محمد، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، دار الشروق العربي، الطبعة الثالثة ١٩٨٣، الجزء الأول، ص ٢٨.

(٣)- سنعمد ترتيب المخارج كالاتي: ١- المخرج الحنجري. ٢- الحلقي. ٣- اللهوي. ٤- الطبقي. ٥- الغاري. ٦- اللثوي. ٧- الأسنان اللثوي. ٨- بين الأسنان. ٩- شفوي أسناني. ١٠- شفوي (ينظر المحيط في أصوات العربية، ص ٢٨).

جمل: ج: غاري / م: شفوي / اللام: لثوي

غث: غ: طبقي / ث: بين الأسنان

على: ع: حلقي / ل: لثوي / ئ: جوفي حسب الخليل

رأس: ر: لثوي / أ: حنجري / س: أسناني

جبل: ج: غاري / ب: شفوي / ل: لثوي

وعث: و: شفوي / ع: حلقي / ث: بين الأسنان

إن إنتاج الأصوات اللغوية لا يتم إلا من خلال تفاعل عضوين أو أكثر، لذلك سوف نعتمد المجموعات الصوتية الكبرى باعتبار موضع النطق لتعزيز المعنى بها، تلك المجموعات هي: مجموعة الفم والشفيتين ومجموعة الحلق، دليلنا في ذلك قول ابن جني: "اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً حتى يعرض له في الحلق والفم والشفيتين مقاطع تشبه عن امتداده واستطالته"^(١).

اعتمدت المرأة الأولى في وصفها لزوجها أصواتاً ترجع إلى المجموعة الصوتية الأولى وهي مجموعة اللسان والشفيتين، حيث كررت المخرج الشفوي ٥ مرات، واللثوي ٥ مرات، والغاري ٤ مرات، وما بين الأسنان مرتين (٢)، والأسناني اللثوي مرتين (٢)، والأسناني مرة واحدة (١). أي ما مجموعه ١٩ مخرجا.

أما المجموعة الثانية: وهي مجموعة الحلق فلم ترد إلا ٥ مرات قسمت على النحو الآتي: المخرج الحلقي ٣ مرات، والحنجري مرة واحدة (١)، والجوفي مرة واحدة (١) كذلك.

إن غلبة ورود أصوات ترجع مخرجها إلى مجموعة اللسان والشفيتين، حيث بلغت ١٩ من أصل ٢٤، في مقابل قلة الأصوات التي ترجع مخرجها للحلق لتؤكد

(١) - ابن جني، سر صناعة الإعراب، تحقيق: محمد حسن إسماعيل وأحمد رشدي شحاتة عامر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠٧، الجزء الأول، ص ١٩.

حقيقة واحدة هي بعد هذا الزوج من أعماقها، فموطن المشاعر هو القلب والقلب في جوفها، فلم يعد لهذا الرجل وجود إلا على اللسان فقط، أما قلبها فأثر الزوج فيه قليل ضئيل قلة الأصوات الخارجة من الحلق والجوف، والأيام كفيلة بتنحية ما تبقى من آثاره، ثم إن رغبتها في لفظه إلى الخارج، جعلها تختار الأصوات الشفوية إيدانا بمفارقته للذات الناطقة.

أ- باعتبار اهتزاز الوترين الصوتيين:

يؤكد هذا الافتراض قولنا: إن الأصوات التي اختارت المرأة الأولى للبوخ بمشاعرها، ولبث شكواها كلها مجهورة، حيث بلغت ١٩ صوتا، باستثناء ٥ أصوات هي: الحاء، والألف المهموز، والسين والثاء التي تكررت مرتين، ليكون المجموع ٢٤ صوتا.

هذا الجهر يعضده استهلال الحديث، حيث جاء فيه: (جلس إحدى عشرة نسوة في الجاهلية، فتعاهدن، وتعاقدن أن يتصادقن، ولا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئا)^(١).

إنه تعاهد وتعاهد على عدم الكتمان، وعدم الكتمان كشف وبوح بما يجمع النسوة بأزواجهن، والبوح لا يكون همسا بل جهرا، فالعبد يستريح للبث والشكوى، ومادامت النساء الذامات غير قادرات على الصراخ في وجه أزواجهن فعلى الأقل يسترحن بالتفريغ وبالجهر لحظة لا وجود للأزواج الأشرار معهن.

ثم إن عددن لا يقبل الهمس، لأن الهمس يكون في أذن من تهمس إليه، وما دمن قد تعاهدن جميعا، فالأصل أن تبلغ المتكلمة كلامها كل الحاضرات، ولن يتأتى التبليغ والإسماع في مجلس مكبر مثل هذا إلا بالجهر ورفع الصوت، فصرحت وما أضمرت، وجهرت وما أسرت.

(١) - بغية الرائد، ص ٦.

ب- باعتبار الممر الهوائي

مظهر آخر يعضد ما افترضناه، هو إنتاج الأصوات باعتبار الممر الهوائي، حيث أسفر التحليل على الآتي:

زوجي: ز: منفتح / و: شبه طليق (واسع الانفتاح) / ج: منفتح / ي: شبه طليق (واسع الانفتاح)؛

لحم: ل: حافي / ح: منفتح / م: أنفي؛

جمل: ج: منفتح / م: أنفي / ل: حافي؛

غث: غ: منفتح / ث: منفتح؛

على: ع: منفتح / ل: حافي / ئ: منفتح؛

رأس: ر: تكراري / أ: منفتح / س: منفتح؛

جبل: ج: منفتح / ب: منفتح / ل: حافي؛

وعث: و: شبه طليق / ع: منفتح / ث: منفتح؛

توزعت الأصوات باعتبار الممر الهوائي إلى:

١٤ صوتا منفتحا

٣ أصوات شبه طليقة

٤ أصوات حافية

٣ أصوات أنفية

نلاحظ انتشارا كبيرا للأصوات المفتحة وشبه الطليقة، حيث بلغت ١٧ صوتا من أصل ٢٤ صوتا، في حين بلغت الحافية ٤ والأنفية ٣، وهي كذلك أصوات كادت أن تكون منفتحة، معنى ذلك أن البوح والجهر الذي أشرنا إليه يؤكد مجرى الهواء المنفتح في أثناء إصدار الصوت، وهذه الأصوات كلها نفثة محزون مكروب، عبرت بها المرأة عن صلتها بزوجها، وكأنها تقول إنها قد تعاهدت على ألا تكتم من أخبار زوجها

شيئا، وكأنها تقوم بتنقية دواخلها وتطهير جوفها من كل ما له علاقة به، وفي تلك التنقية وعدم الكتم، عدم إبقاء لأثر يدل عليه، يؤكد ذلك الهواء المنبعث من الجوف والمدفوع إلى أعلى من غير أن يعترضه شيء، فالمر الهوائي غالبا منفتح و شبه طليق، وقليل جدا ما يعترضه شيء، وكأننا نقول إن المرأة تخرج أثقالها، وتدفع أحزانها إلى خارج الذات لذلك انتقت للتعبير عن حالها أصواتا يكون فيها مجرى الهواء منفتحا.

فضلا عن الدراسة البلاغية التي خصصها القاضي لهذا التشبيه، وعضدناها ببلاغة الأصوات، فقد أبلى بلاء حسنا في إعرابه لما اشتمل عليه من الوجوه الإعرابية، جاعلا علم النحو تابعا للمعنى وليس العكس، وهذا ما جعل القاضي يحتكم إلى المعنى فقط لترجيح وجه من الوجوه الإعرابية، يقول في إعراب (لا سهل فيرتقى) "يجوز فيه ثلاثة أوجه كلها مروية: نصب لام سهل دون تنوين، ورفعها وخفضها منونة، وأعرها عندي الرفع في الكلمتين، ووجهه أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره لا هو سهل... ويصح أن يكون سهل مبتدأ والخبر محذوف مقدر، أي لا سهل في هذا مرتقى، ولا سمين في هذا منتقى، ومثله قوله تعالي (لا يبع فيه ولا خلة) قرئ بالوجهين الرفع والنصب وتكون لا ها هنا بمعنى ليس"^(١).

يسلك القاضي في الإعراب مسلك الترجيح حيث عرض الأوجه الإعرابية الممكنة، ورجح منها ما يخدم المعنى ويتماشى مع الحديث. ومع أن فصول هذا المبحث نحوية "تدل على تمرسه بهذا العلم، هي أيضا مراد منها أن تعين على فهم المعنى، ولا يخفى أن البلغاء يستطيعون ويجدون السبيل إلى الافتنان بطرق الأداء النحوي ما لا يستطيعه غيرهم، وربما خفي وجه سلامة الأداء النحوي وفصاحته، فيحتاج مع ذلك إلى التوضيح"^(٢).

(١) - بغية الرائد، ص ٤٨.

(٢) - القاضي عياض الناقد، ص ٢٠٥-٢٠٦.

قصدا بيان التساند القائم بين علم البلاغة وعلم النحو، ذلك أن البلاغة هي القدرة على الحسم في سلامة الأداء النحوي، أي إن التماس المعنى الأصوب هو الكفيل بتحديد الوسم الإعرابي اللائق بالكلام، كما يظهر ذلك في موقف القاضي من هذه المسألة، يقول: "فاعلم وفقك الله أني إذا بينت لك قولي، ورفعت مناره، رأيت ترجيحه وإيثاره، وذلك أني لم أر ذلك من جهة مذهب النحاة وتقويم الألفاظ، ولكن من جهة المعنى وتصحيح الأغراض، وترتيب الكلام ونظامه، ورد أعجازه لصدوره، وتفصيل أقسامه"^(١).

ثم يمضي في تأكيد رأيه، وتشبث ترجيحه استنادا إلى النظم المعجز في كتابه تعالى، يقول: "وتأمل كتاب الله العزيز فإن المنفيات فيه حيث ترددت معطوفة لشيء واحد جاءت بالوجوه الثلاثة، كقوله تعالى: ﴿وَفَلَكُم مَّكَرٌ كَثِيرٌ﴾ (٣٣) ﴿لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ (٣٣)﴾^(٢)، و﴿كَأَسَا لَا لَفَوْفَهَا وَلَا تَأْنِيمٌ﴾ (٣٣)﴾^(٣) و﴿يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾^(٤) قرئ بالوجهين: الرفع والنصب"^(٥).

(١)- بغية الرائد، ص ٥٢.

(٢)- الواقعة، الآية ٣٣.

(٣)- الطور، الآية ٢٣.

(٤)- البقرة، الآية ٢٥٤.

(٥)- بغية الرائد، ص ٥٢.

خاتمة:

نعتبر ما قمنا به في هذه الورقة البحثية تطبيقاً جزئياً إجرائياً على مقطع حكائي واحد، هو قول الأولى من الحديث المشهور، حديث أم زرع، نظراً لتعدد مقاطعه الحكائية، وقد تتبعنا فيه شرح القاضي عياض من خلال كتابه الرائد: "بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد".

وليس يهمننا تتبع المقاطع كلها، لأن وكدنا في البحث انصرف إلى تأكيد التعاقد والتعزيز في استراتيجية القاضي عياض القرائية، حيث أكد من خلال شروحه الضافية وتأويلاته البليغة تملكه لكفايات عديدة، كحفظ الشواهد، وتحقيقها والتنسيق بين المعاني الجزئية المستفادة من المنطلقات النصية، أو من الموازيات الخارجية، ومن ثمة قدرته على الربط بين مكونين رئيسيين في فهم النص، هما المكونات الجزئية أو مستويات الدرس اللغوي الحاضرة، والموازيات الداعمة الغائبة، والمدعوة للمشاركة في بناء المعنى من خلال بلاغتي الارتداد والامتداد كما يسميها الدكتور بازي.

إن عملية الشرح والتأويل استندت إلى الدراسة المعجمية باعتبارها المفتاح الأول الذي ولج منه الشارح باب النص، ثم الإعراب وبعده المعاني، وأخيراً استخلاص الفوائد الفقهية من الحديث. إلا أننا وإن تتبعنا الخط التأويلي للقاضي عياض وحصرناه في قول الأولى، فقد ركزنا القول في التعاقد القائم بين صوت البلاغة وبلاغة الصوت، مؤكداً فاعلية التعاقد والتعزيز بين مستويات اللغة في بناء المعنى: غريب الحديث نموذجاً.

وقد خلصنا، من خلال دراستنا التحليلية، أن للأصوات بلاغة لا تقل عن صوت البلاغة نفسها، وأكدنا على التساند القائم بينها، وعضدنا هذين المستويين، بالمستوى المعجمي والمستوى النحوي. لنؤكد أخيراً من خلال هذا الشرح الفريد أصالة التعاقد في الشروح والتفاسير العربية.

والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- ابن جنبي، سر صناعة الإعراب، تحقيق: محمد حسن إسماعيل وأحمد رشدي شحاتة عامر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط ٢/٢٠٠٧؛
- الأنطاكي محمد، المحيط في أصوات العربية ونحوها و صرفها، دار الشروق العربي، ط ٣/١٩٨٣؛
- بازي محمد، التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون- منشورات الاختلاف، ط ١/٢٠١٠؛
- الزمخشري جار الله، الكشاف، تحقيق: عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢/١٩٩٥؛
- الطيب عبد الله، القاضي عياض الناقد، مجلة المناهل، العدد ١٩/١٩٨٠؛
- القاضي عياض، بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، تحقيق: صلاح الدين بن أحمد الإدليبي، محمد الحسن أجانف، محمد عبد السلام الشراقوي، الرباط، المغرب، ١٩٧٥؛
- المالكي محمد، جهود الطبري في دراسة الشواهد الشعرية، منشورات كلية الآداب فاس، ١٩٩٤.

الدراسات:

- الراجحي التهامي، القاضي عياض اللغوي من خلال حديث أم زرع، مجلة المناهل، العدد ١٩/١٩٨٠.
- الطيب عبد الله، القاضي عياض الناقد، مجلة المناهل، العدد ١٩/١٩٨٠؛
- الودغيري عبد العلي، القاضي عياض اللغوي، مجلة المناهل، العدد ١٩/١٩٨٠؛

لائحة المراجع

- ابن المعتز، البديع، تح: كراتشوفسكي، دار المسيرة، ط ٣، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م؛
- ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، (د.ت).
- ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، (د.ت).
- ابن فارس، مقاييس اللغة، تح عبد السلام هارون، دار الفكر، (د.ت)؛
- ابن كثير عماد الدين إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط)، ١٩٦٩.
- ابن منظور جمال الدين بن محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٩٩٤.
- ابن يعيش، شرح الملوكي في التصريف، ط: ١. تح: الدكتور فخر الدين قباوة، المكتبة العربية بحلب.
- أبو زيد نصر حامد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط ٩، ٢٠١٢؛
- المطلوب أحمد، معجم المصطلحات البلاغية، المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٣.
- أدونيس علي أحمد سعيد، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، ط ٣، ١٩٧٩؛
- ارحيلة عباس، "ابن البناء والبحث عن كليات البلاغة"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، ٨ع، ١٩٩٢؛
- الأصبهاني عماد الدين الكاتب، جريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، ج ٢، الدار التونسية للنشر، ط ٢، ١٩٨٦؛
- الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني، تحقيق: أحمد زكي العدوي، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ٩/ ١٩٧٣م.

- الألويسي محمود شكري البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، ج ١، ادارة الطباعة المنيرية - تصوير دار إحياء التراث العربي
- أوزي أحمد، المراهق والعلاقات المدرسية؛ منشورات مجلة علوم التربية، عدد ٢٩، الرباط، ط ٣، ٢٠١١؛
- إيكو أمبرتو:
 - التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٠؛
 - القارئ في الحكاية: التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، ت. أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط ١، ١٩٩٦؛
- بازي محمد:
 - البنى التقابلية؛ خرائط جديدة لتحليل الخطاب، دار كنوز المعرفة، ط ١، ٢٠١٥م؛
 - التأويلية العربية؛ نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان-منشورات الاختلاف، الجزائر، ط ١، ٢٠١٠م؛
 - تقابلات النص وبلاغة الخطاب؛ نحو تأويل تقابلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط ١، ٢٠١٠م؛
 - نظرية التأويل التقابلي؛ مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، دار الأمان، الرباط، ط ١، ٢٠١٣م.
 - العمري محمد، قراءة أولية في كتاب التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي المغربية، الجمعة ٢٥ مارس ٢٠١١، العدد: ٩٧٤٠.

- عبد الرحمان إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعية المستعارة، مركز الثقافة العربية، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٩؛
- باختين ميخائيل، الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة: محمد البكري ويمنى العيد، دار توبقال، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٨٦؛
- البخاري محمد بن إسماعيل صحيح البخاري، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - بيروت، الطبعة: الأولى؛
- البقاعي ابراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج ١، دار الكتاب الإسلامي، السنة: ١٩٨٤.
- بندحمان جمال، الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري: الشعب والانسجام، Top Edition، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٩؛
- بنكراد سعيد:
 - السيميائيات السردية: مدخل نظري، منشورات الزمن، المغرب، ٢٠٠١؛
 - النص السردى نحو سيميائيات للإيديولوجيا، دار الأمان، ط ١، ١٩٩٦.
- بودرع عبد الرحمن:
 - النص الذي نحيا به: قضايا ونماذج في تماسك النص وبناء وحدته، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، ط ١، ٢٠١٨؛
 - نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، كتاب الأمة، الدوحة، ع ١٥٤، ط ١، ٢٠١٣.
- بوزفور أحمد، نافذة على الداخل (مجموعة قصصية)، منشورات طارق، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠١٣؛
- بول ريكور، من النص إلى الفعل، ترجمة محمد برادة وحسان بورقية، عن الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، ٢٠٠١؛

- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمان المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت؛
- الزبيدي مرتضى محمد تاج، العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ١٩٦٥م؛
- تدوروف تزفطان، اللغة والأدب في الخطاب الأدب، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي، بيروت، ١٩٩٣؛
- الطيب البكوش، التصريف العربي من خلال علم الصوت الحديث، الهيئة العلمية لمكتبة الاسكندرية، ط٣/ ١٩٩٢م؛
- الشافعي محمد الأمين، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي القرآن، دار طوق النجاة، ط١/ ٢٠٠١م؛
- عقيلي إبراهيم، تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١/ ١٩٩٤م؛
- تليمة عبد المنعم، مدخل إلى علم الجمال الأدبي، منشورات عيون، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨٧؛
- عصفور جابر، قراءة التراث النقدي، مؤسسة عيال للدراسات والنشر، (د،م) ط١. ١٩٩١؛
- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر:
 - الحنين إلى الأوطان، سلسلة اللغة والأدب ١، دار الرائد العربي، بيروت/ لبنان، ط٢، ١٩٨٢؛
 - البيان والتبين، ج١، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت.

- الجنابي أحمد نصيف، "ظاهرة التقبل في علم الدلالة"، آداب المستنصرية، مصر، ١٩٨٤؛
- المالكي محمد، جهود الطبري في دراسة الشواهد الشعرية، منشورات كلية الآداب فاس، ١٩٩٤؛
- الجوزي ابن القيم، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، تح محمد بدر الدين النعماني، مطبعة السعادة، ط ١، ١٤٢٧هـ؛
- جيني لورون، استراتيجية الشكل: نظرية التناص في الثقافة العالمية، ت. نور الدين محقق، دال، دمشق، ط ١، ٢٠١٥؛
- فضل عباس حسن، خصائص الحروف العربية ومعانيها، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨ م.
- ابن جني:
- الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية؛
- سر صناعة الإعراب، تحقيق: محمد حسن إسماعيل وأحمد رشدي شحاتة عامر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط ٢/٢٠٠٧؛
- المنصف في شرح التصريف، تح: مصطفى عبد الله أمين، وزارة المعارف- مصر، ط ١/١٣٧٣هـ-١٩٥٤م؛
- خطابي محمد، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٣، ٢٠١٢؛
- الفراهيدي الخليل بن أحمد، كتاب العين، تح: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢؛
- داود محمد، تاريخ تطوان، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل، المغرب، ١٩٧٠؛

- الرازي فخر الدين، التفسير الكبير، ج ١، المطبعة البهية المصرية، ط ١،
- روبرول أوليفي، مدخل إلى الخطابة، ترجمة: رضوان العصبه، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠١٧؛
- الزركشي بدر الدين، البرهان في : علوم القرآن، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨.
- الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، ج ١، مطبعة البابلي الحلبي وأولاده بمصر.
- الزناد الأزهر، نسيج النص: بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٣؛
- السكاكي أبو يعقوب، مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العالمية، بيروت، ط ١، سنة: ١٩٨٣.
- سليمان مولا علي، مقال بعنوان: "تعديل العدول في الخطاب التفسيري، جهود البيضاوي في سورة الفاتحة نموذجا"، مجلة اللسانيات وتحليل الخطاب، العدد: ١، ماي ٢٠١٥.
- السيوطي جلال الدين، الإتيقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٩١.
- الشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- شباكي عبد الكريم، الطريق إلى اللغة (تقييم ملكات اللسان العربي)، سلسلة في مجال اللغة العربية للناطقين بغيرها، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠١٤؛
- شولتر روبرت، السيمياء والتأويل، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي، بيروت، ١٩٩٣؛

- طحان ريمون، الألسنية العربية . دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، 1981؛
- العلوي اليمني يحيى بن حمزة، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط ١/ ٢٠٠٢م.
- طه عبد الرحمان:
- تجديد المنهج في تقويم التراث، ط ٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ المغرب، بيروت/ لبنان، ٢٠٠٧؛
- اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، الدر البيضاء، ١٩٩٨؛
- عبد الغفار، السيد أحمد، من الدراسات التي سارت في هذا المنحى، كتاب النص القرآني بين التفسير والتأويل، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط ١، ١٩٩٦.
- عبد القاهر الجرجاني:
- أسرار البلاغة، تعليق: محمود محمد شاكر، دار المدني السعودية، ط ١، ١٩٩١؛
- دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي للطبع والنشر، ط ٥، مصر، ٢٠٠٤؛
- العثيمين محمد بن صالح، القول المفيد على كتاب التوحيد، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م؛
- بشر كمال، علم الأصوات، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- علوش سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، الدار البيضاء، ١٩٨٥.
- السامرائي فاضل صالح:
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، دار عمان، الأردن، ط ٢، سنة: ٢٠٠٢م.
- معاني النحو، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

- فرشوخ أحمد: "تدريس الأدب: التصور والممارسة، جريدة الاتحاد الاشتراكي، العدد ٨٤٧٨، ١٠-١١ فبراير ٢٠٠٧.
- الفيروزي آبادي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٤٠٠هـ؛
- القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨١؛
- القاسمي علي، مرافئ الحب السبعة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب/لبنان-بيروت، ٢٠١٢؛
- القاضي عياض، بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، تحقيق: صلاح الدين بن أحمد الإدليبي، محمد الحسن أجانف، محمد عبد السلام الشرقاوي، الرباط، المغرب، ١٩٧٥؛
- القيرواني ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجليل، بيروت؛
- الشيباني أبو عمرو، كتاب الجيم، تحقيق: إبراهيم الإياري، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٧٤م.
- سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣/١٩٨٨م.
- كلموني عبد الرحيم: رسالة للمجلس الأعلى للتعليم، منشور بالموقع الإلكتروني:
- لايكوف وجونسون، الاستعارة التي نحيا بها، ترجمة عبد الحميد جحفة، دار توبقال، ط٢، ٢٠٠٩؛
- لعرج المهدي، "تكامل المعارف ونمذجة الخطابات في العلوم الإنسانية"، في: المناهج وتكامل المعارف، أشغال المؤتمر السنوي لمؤسسة مقاربات، مقاربات، فاس، ٢٠١٧؛

- الماكري محمد، الشكل والخطاب: مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، ط ١، ١٩٩١؛
- ابن سيدة أبو الحسين علي بن إسماعيل المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
- ابن عاشور الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤.
- الأنطاكي محمد، المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، دار الشروق العربي، ط ٣/١٩٨٣؛
- ابن الموصل محمد، مختصر الصواعق المرسلّة، تح: الحسن بن عبد الرحمن العلوي، مكتبة أضواء السلف، ط ١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م؛
- قدوري الحمد غانم، المدخل إلى علم أصوات العربية، دار عمار، ط ١/ ٢٠٠٤م.
- مشبال محمد، "بلاغة النص السردي: مراجعة نقدية"، فصول، ع ١٠١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، خريف ٢٠١٨؛
- مفتاح محمد:
- المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٩؛
- النص: من القراءة إلى التنظير، شركة النشر والتوزيع-المدارس-، الدار البيضاء، ٢٠٠٠؛
- مجهول البيان، دار توبقال، الدار البيضاء. ١٩٩٠.
- مولاي علي سليمان، مقال: تطالب المطالب وتشابك المسائل في شرح الإفرائي لتوشيح ابن سهل، في تحليل الخطاب، "كتاب جماعي"، مجموعة أبحاث علمية محكمة، إصدارات مختبر السوسيو لسانيات وتحليل الخطاب، فرقة تحليل الخطاب، دار القدس العربي، ٢٠١٦م؛

- أبو زيد نصر حامد، فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين بن عربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط. ٤، ١٩٩٨.
- اليعكوبي البشير، القراءة المنهجية للنص الأدبي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، د.م، ٢٠٠٦؛
- يوسف الصميلي، اللغة العربية وطرق تدريسها، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨ م.
- ابن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر بيروت- لبنان، سنة الطبع: ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م؛
- ابن عصفور الإشبيلي، الممتع في التصريف، تح: فخر الدين قباوة، دار المعرفة بيروت- لبنان، ط ١/ ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م؛
- ابن فارس أبو الحسين أحمد، المقاييس في اللغة، تح: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر بيروت- لبنان، ط ١/ ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م؛
- ابن مسعود أحمد بن علي مراح الأرواح، تح: أبو الضياء القادري، مكتبة المدينة كراتشي- باكستان، ط ٣/ ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م؛
- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت- لبنان؛
- الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تح: عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة؛
- الجزري أبو الخير محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، تح: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان؛

- خليفة حاجي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تح: محمد شرف الدين يالتقايا، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان؛
- الرازي فخر الدين محمد، مفاتيح الغيب، دار الفكر، ط ١/١٤٠١هـ-١٩٨١م؛
- الزجاج أبو إسحاق إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب بيروت-لبنان، ط ١/١٤٠٨هـ-١٩٨٨م؛
- الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض، ط ١/١٤١٨هـ-١٩٩٨م، مكتبة العبيكان-الرياض-السعودية؛
- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ط ١/١٩٨٤م؛
- الطيبي شرف الدين، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، تح: عمر حسن القيام، جائزة دبي الدولية، ط ١/٢٠١٣م؛
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي، تح: محمد باسل عيون السور، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط ١/١٤١٧هـ-١٩٩٦م؛
- القيسي مكّي بن أبي طالب، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تح: مكتبة قرطبة للبحث العلمي وتحقيق التراث، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى؛
- اللاري محمد بن صلاح الدين، مرشد الغناء شرح أمثلة البناء، تح: علي عبد الله الريس، دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري-إدارة البحوث دبي-الإمارات، ط ١/١٤٣٧هـ-٢٠١٢م؛
- المالقي أحمد عبد النور، رصف المباني في شرح حروف المعاني، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم-دمشق، ط ١/١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م؛
- المرادي الحسن بن قاسم، الجنى الداني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة-محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، ط ١/١٤١٣هـ-١٩٩٢م؛

- الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد، نزهة الطرف في علم الصرف، مطبعة الجوائب - قسطنطينة، الطبعة الأولى؛
- ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تح: حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة؛
- أحمد الراغب عبد السلام، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، ط ١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م؛
- التُّورِبِشْتِي شهاب الدين، الميسر في شرح مصابيح السنة، تح: عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط ٢ - ٢٠٠٨؛
- ضياء الدين مصطفى جواد، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، مطبعة المجمع العلمي، ١٣٧٥ هـ؛
- العثيمين محمد، شرح رياض الصالحين، دار الوطن للنشر، الرياض، طبعة: ١٤٢٦ هـ؛
- القاضي عياض، إكمال المُعَلِّمِ بفوائد مُسَلِّمٍ، تحقيق: يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط ١، ١٩٩٨؛
- الميداني حبنكة، الأمثال القرآنية دراسة وتحليل وتصنيف ورسم لأصولها وقواعدها ومناهجها، دار القلم، دمشق بيروت، ط ١، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م؛
- اليفرني محمد، الاقتضاب في غريب الموطأ وإعرابه على الأبواب، تح: د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان، ط ١ - ٢٠٠١ م؛
- **المجلات:**
- مجلة علامات، ع ١٠٠، ١٩٩٨؛
- مجلة فكر ونقد، ع ٦٧، ٢٠٠٥.
- **الدراسات:**
- دليل المراسل الصحافي، مؤسسة رويترز الخيرية، د. م، ٢٠٠٢.

- دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ط ١، ١٩٨٧؛
 - الذهبي حسين، التفسير والمفسرون، دار القلم، بيروت، ط ١، (د.ت)؛
 - الراجحي التهامي، القاضي عياض اللغوي من خلال حديث أم زرع، مجلة المناهل، العدد ١٩ / ١٩٨٠؛
 - الطيب عبد الله، القاضي عياض الناقد، مجلة المناهل، العدد ١٩ / ١٩٨٠؛
 - الودغيري عبد العلي، القاضي عياض اللغوي، مجلة المناهل، العدد ١٩ / ١٩٨٠.
-
- H. Hoek Leo, La marque du titre : Dispositifs sémiotiques d'une pratique textuelle, éd .De Gruyter, 1981.
<http://www.oujdacity.net/national-article-87033-ar>
 - Kerbrat Orecchioni Catherine, La Connotation, éd. Presses Universitaires de Lyon, 1977.
 - Maingueneau Dominique, L'analyse du discours: introduction aux lectures de l'archive, Paris, Hachette, 1991.
 - Molinié Georges, Dictionnaire de rhétorique, Paris, Librairie générale française, 1992.
 - Perelman Chaim et Olbrechts-Tyteca Lucie, Traité de l'argumentation, Bruelles, édition de l'université de Bruelles,

خاتمة

يشكل هذا الكتاب الجماعي الموسوم بـ "من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال؛ نحو أنموذج تأويلي لتجديد الدرس البلاغي" محاولة علمية جادة في سياق التعريف بالمشروع المعرفي للباحث المغربي الدكتور محمد بازي، متمثلاً في التأويلية العربية بآلياتها التساندية والتقابلية، فهي تعد بحق، منجهاً ذا أصالة ووثاقة في تحليل جميع أنواع الخطابات؛ من قرآن، وحديث، وشعر، وقصة.. إلى غير ذلك من أشكال النصوص والخطابات العاملة.

وقد تضافرت جهود ثلة من الباحثين؛ أساتذة وطلبة لأجل تقريب هذا المشروع المعرفي الواعد للقارئ، من جهة أسسه ومنطلقاته، وغاياته ومصطلحاته، وذلك من خلال مجموعة من الأبحاث المحكمة التي يمكن تصنيفها إلى صنفين: صنف اتخذ من تأويلية الدكتور بازي إطاراً نظرياً لمقاربة بعض الخطابات والنصوص في مجالات شتى؛ قرآنية، وحديثية، وشعرية، وتربوية، وصنف رام التعريف ببعض مرتكزات هذا المنهج التأويلي الموسع مع الحرص على بيان قوته الإجرائية في نماذج تطبيقية متنوعة. وكلٌّ من موقعه وتخصصه وعنايته قد أسهم إسهاماً نوعياً في بيان أوجه الوثاقة والمقبولية في النظرية.

وإنه لشرف كبير أن نفتتح هذا الكتاب الجماعي بمقالة لصاحب المشروع والنظرية الدكتور محمد بازي بعنوان "أنموذج القارئ البليغ؛ من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال"، كما نسعد بجميع هذه المشاركات العلمية الجادة، وننوه بها وبجهود أصحابها. ولا يفوتنا أن نشكر جميع من أسهم في تأليف هذا الكتاب وإخراجه إلى الوجود؛ من أساتذة وطلبة باحثين وتقنيين، والشكر موصول كذلك إلى مختبر اللغة العربية وتحليل الخطاب بجامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال.

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
٦	شكر وتقدير
٧	كلمة المختبر
٩	تقديم
١٣	أنموذج القارئ البليغ من بلاغة الدوال إلى فلسفة الوجود الدال: بازي محمد
٤١	نظرية التأويل التقابلي: الأصول والامتدادات: محمد مساطة
٦٧	التأويل التقابلي وإسهامه في فهم النصوص وتجديد دراستها: د. إبراهيم شكري
٨٥	النص والخطاب والتأويل في مشروع التأويل التقابلي عند محمد بازي: ميلود عرنبيته
١٠٩	بلاغة التقابل والتأويل التقابلي آفاق جديدة د. مصطفى رجوان
١٦٣	تجديد درس الأدب برؤيا التقابل: د. إبراهيم أكراف
١٩١	تنزيل المنظور التقابلي في المجال التربوي: د. محمد تايشينت
٢٣٥	إفهام دروس البلاغة والنحو بالتقابل: د. إبراهيم ايت تودي
٢٥١	امتدادات مشروع القارئ البليغ: د. عبد الحق الحمداوي
٣١١	التقابل من المفهوم إلى النظرية نماذج تطبيقية: خالد معصي
٣٣٩	الجهاز المفاهيمي المؤسس للتأويلية العربية من منظور الباحث محمد بازي: سارة باقس
٣٥٩	تساند الآليات التأويلية في خطاب التفسير: يوسف فارس
٣٧٥	طرائق اشتغال آليات التأويل في خطاب التفسير "سورة الفاحة من خلال تفسير الكشاف نموذجا": هشام ميري
٤٠٧	الأنوال الاستعارية من الصناعة إلى التأويل قراءة في كتاب: "البنى الاستعارية، نحو بلاغة موسعة": الملودي المؤذن
٤٢٩	الاستدراكات اللغوية للإمام الطيبي على الزمخشري في سورة البقرة نماذج تطبيقية: محسن الصالحي
٤٥٥	أثر التساند بين مكونات اللغة في بناء معاني (جاء) في قوله تعالى: (إِذَا جَاءَ نُصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ): نعيمة المبتوت
٤٦٩	تأويلية التقابل في الحديث النبوي الشريف: سعيد بن الحاج

٤٩١	تساند مستويات اللغة وأثره في بيان المعنى في الخطاب التفسيري "تفسير البيضاوي نموذجاً": محضار عمر المنطلقات النصية في الخطاب التفسيري عند البيضاوي
٥١٧	سورة الصافات نموذجاً: بغداد إلهام
٥٥٥	تساند الصرف والبلاغة في الكشف عن دلالة الأفراد والجمع في القرآن الكريم: د. ليلى الحماموشي
٥٨٥	فاعلية القراءة بالتعاقد في حديث أم زرع بلاغة الصوت وصوت البلاغة: د. مولاي علي سليمان
٦٠٧	الخاتمة
٦٠٩	لائحة المراجع
٦١١	الفهرس